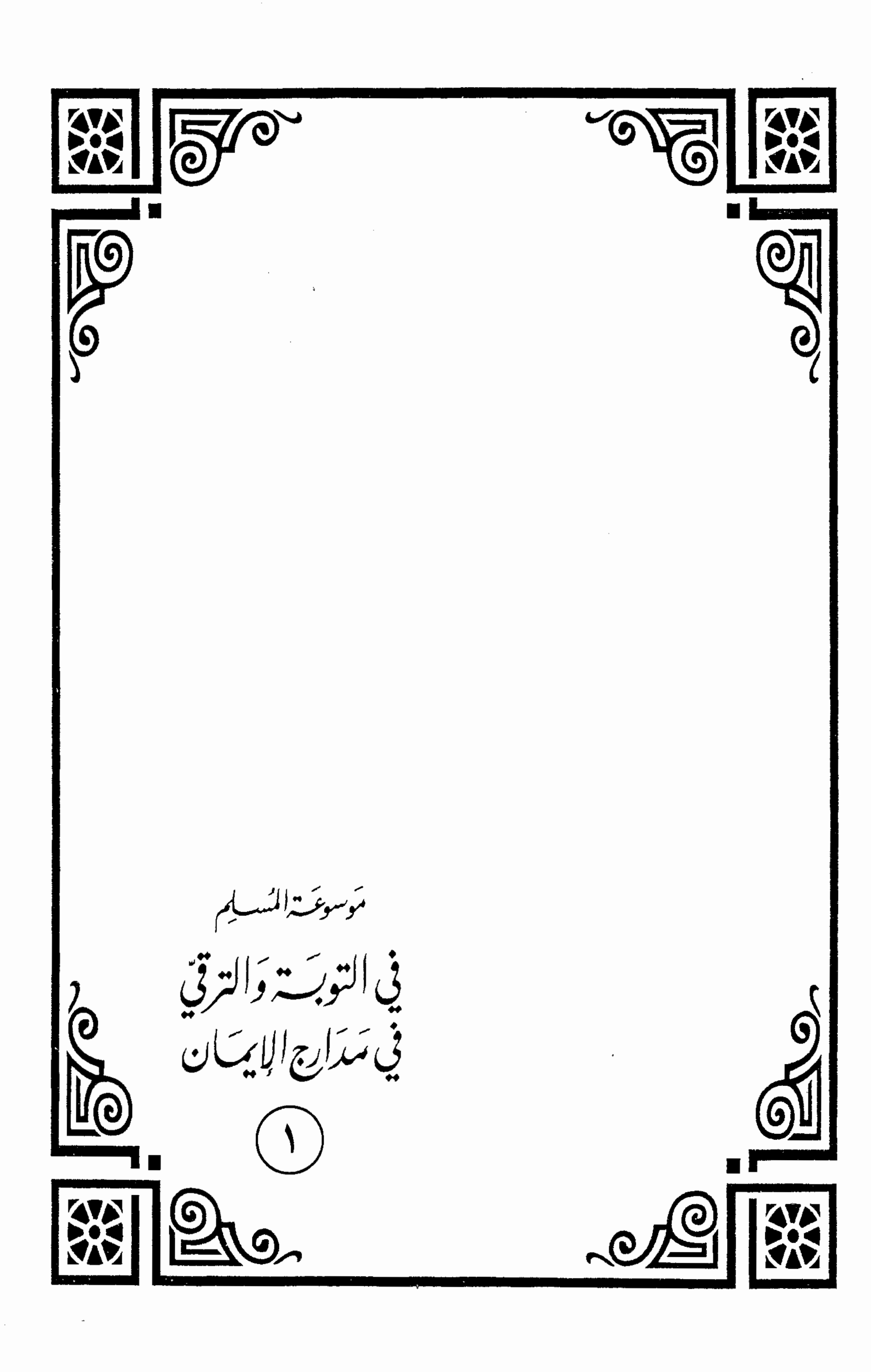
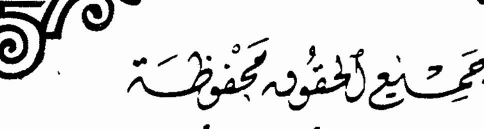
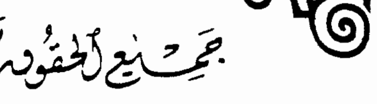


موسوعة المسلم

في التوبة والترقي في مدارج الإيمان

(١)

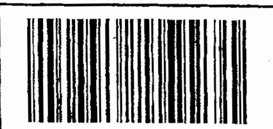


الطبعة الرابعة

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠١٠/٥/١٧١٨

٢٤٦
البياتي، منير
موسوعة المسلم في التوبة والترقي في مدارج الإيمان/منير البياتي. ط٢.- دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٠
( ) ص.
ر.إ: ٢٠١٠/٥/١٧١٨
الواصفات: الايمان// الاسلام// العبادات/


دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب 927511 عمان 11190 الأردن
هاتف: 5693940 6 00962
فاكس: 5693941 6 00962
Email: alnafaes@hotmail.com
www.al-nafaes.com



9789957800550






موسوعة المسلم

في التوبة والترقي في مدارج الإيمان

تأليف

الأستاذ الدكتور منير حميد البياتي

أستاذ الدراسات العليا بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

سابقاً: عميد كلية الحقوق بجامعة الزرقاء الخاصة - الأردن

رئيس قسم الفقه وأستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا

أستاذ الشريعة والقانون وأستاذ الدراسات العليا بجامعة بغداد

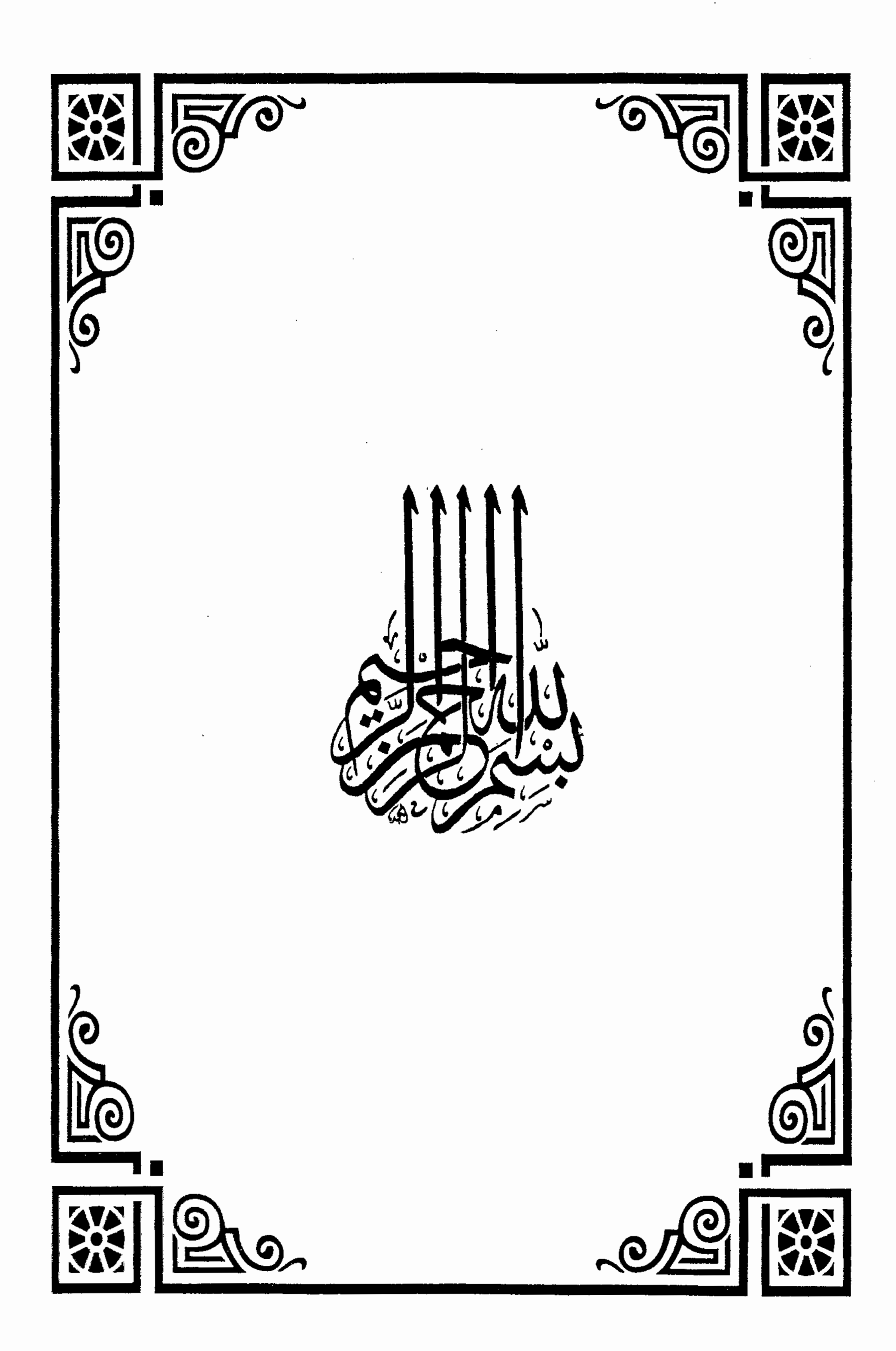
المجلد الأول



للنشر والتوزيع - الأردن







بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.. وبعد:

فهذه مقدمة موجزة بين يدي الكتاب تشتمل على جملة فقرات مهمة ندعو الله تعالى أن ينفع بها القراء الكرام:

١- فتح باب التوبة ودعوة الخلق إليها:

إن من نعم الله العظيمة على عباده، ورحمته الواسعة، أن فتح لهم باب التوبة والعفو والمغفرة، قال جل ثناؤه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقال جل وعز: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال في وصف من ألحقهم بالمتقين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال جل ثناؤه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، إلى غير ذلك من آيات التنزيل العزيز الدالة على فتح باب التوبة ودعوة الخلق إليها.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: (يا أيها الناس: توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)[1]. فالتوبة كانت صفة يومية دائمة له ﷺ وليست عملا

---

(١) البخاري (٥٨٣٢) واللفظ له، ومسلم (٤٨٧١) (بلفظ مائة مرة) ونصه: (...عن أبي بردة قال: سمعت الأغر وكان من أصحاب النبي ﷺ يحدث عن - ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة)، وكذلك بلفظ (مائة مرة) عند ابن ماجة (١٠٧١)، وأحمد (١٧٣٧١) و(١٧١٧٦) و(١٧٥٧٦) و(١٧٥٧٧) و(١٧٥٧٨) و(٢٢٣٩٠).

صالحاً يأتيه بين الحين والحين، وهو القدوة والأسوة الحسنة ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي السنة النبوية الكثير من الأحاديث الشريفة في الدعوة إلى التوبة وبيان قبول الله توبة عباده وسعة عفو الله ورحمته ومحبته للتائبين.

قال الإمام الغزالي رحمه الله: «فإن التوبة من الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب: مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأول إقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين»[٢].

٢- حاجة كل مسلم ومسلمة إلى التوبة:

لا ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة أن يظن استغناءه عن التوبة ولو كان في طاعة الصديقين، فإن المسلم واحد من ثلاثة:

مؤمن تقي: فهو بحاجة إلى التوبة لأنها صفة المؤمنين المتقين بل صفة الأنبياء[٣]، ولأن (كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)[٤] فإنه «ليس أحد من بني آدم يخلو من ذنب»[٥]، فقد تفرد الرب جل جلاله وحده بالكمال، وجعل الذنب من لوازم البشرية التي لا ينفك عنها البشر، وجعل التوبة غاية كل أحد من ولد آدم وكماله، كما هي غاية

---

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين:ج:٤ ص:٢

(٣) جاء في تفسير أبي السعود بمناسبة تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]: «(وإليه) خاصة (متاب) أي توبتي... أمر ﷺ بذلك [أي التوبة] إبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى وأنها صفة الأنبياء» (تفسير أبي السعود ج: ٥ ص: ٢١).
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الإقرار على الذنوب كبارها وصغارها وهم بما أخبر الله به عنهم من التوبة يرفع درجاتهم ويعظم حسناتهم فإن الله: (يحب التوابين ويحب المتطهرين)، وليست التوبة نقصاً بل هي من أفضل الكمالات...، ثم التوبة تتنوع كما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، والله تعالى قد أخبر عن عامة الأنبياء بالتوبة والاستغفار»: (كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ج: ١٥ ص: ٥١).

(٤) ابن ماجة (٤٢٤١)، وأحمد (١٢٥٧٦)، والدارمي (٢٦١١).

(٥) ابن تيمية: مجموع الفتاوى: ٧/ ٤٨٥.

الأنبياء وكمالهم[٦]، فليس للعبد كمال بدون التوبة البتة، وعلى ذلك ينبغي أن يعرف أن التوبة لا بد منها لكل مؤمن، ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القرب من الله ويزول عنه كل ما يكره إلا بها[٧].

أو مسلم مخلط: خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فإن لم يقدم توبة شاملة عن ذنوب العمر كله، أو توبة عن كل ذنب بعينه، ثم مات، مات مخلطا، فهو أحوج ما يكون إلى التوبة يمارسها ويموت عليها لتنقله إلى صف التائبين.

أو مسلم أسرف على نفسه: فأكثَرَ من السيئات وأقلَّ من الحسنات، فهو أشد حاجة إلى التوبة تنتزعه من حاله السيئة فتنقله إلى صف أهل التوبة والإنابة.

وبناء على هذا التقسيم يظهر لك حاجة جميع الخلق بدون استثناء إلى التوبة. وبخاصة إذا تفكر المسلم بمقدار ما صدر منه من الذنوب منذ البلوغ إلى الآن من ترك المأمورات وفعل المحظورات، وأن هنالك ذنوباً قد نسيها، وما نسيه أكثر مما ذكره، وأن هناك ذنوباً هو مقيم عليها الآن، وأن هناك ذنوباً لا يعلم أنها ذنوب وقد فعلها وهو مؤاخذ بها، لأن الجهل بالأحكام الشرعية في دار الإسلام ليس بعذر، فإذا تفكر بكل هذا وجد نفسه أمام ركام من الذنوب، وحق له أن يبكي على ظلم نفسه، وعلم حينئذ أن حاجته إلى التوبة أعظم حاجة، وأنه لا يخلصه من كل هذا إلا توبة عامة شاملة يمارسها ويكررها ويستديمها إلى آخر العمر.

٣- الناس: تائب أو ظالم لنفسه:

وحيث إن كل من عمل ذنباً فقد ظلم نفسه إذ عرضها لعقاب الله تعالى وظلمها بإبعادها عن الالتزام بأدب العبودية ورعاية حق الربوبية كان الناس فريقين: تائب من الذنب قد محت التوبة ذنبه وأبدلت سيئاته حسنات، وظالم لنفسه لم يقدم توبة عن ذنوبه فحكمه حكم المصر عليها، وهو المقيم على الذنب من غير توبة.

---

(٦) سيأتيك في هذا الكتاب فصل عن توبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعلاقة ذلك بالعصمة.

(٧) ابن القيم: شفاء العليل: ١/ ١١٨.

وفي ضوء ما تقدم نفهم معنى قوله تعالى مخاطبا المؤمنين: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١][٨]، ولأن التوبة واجبة وفرض على الفور بعد صدور الذنب. كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة وانعقد عليه الإجماع[٩]، فمن لم يؤدِّ هذا الواجب لم يكن إلا ظالما لنفسه كما وصفه القرآن الكريم.

قال العلامة ابن القيم في بيان معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]: «قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قسم ثالث البتة، وأوقع اسم (الظالم) على من لم يتب، ولا أظلم منه، لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه وآفات أعماله، وفي الصحيح عنه ﷺ: (يا أيها الناس: توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)»[١٠].

٤- خطاب القرآن لخيرة الخلق بالتوبة:

من أجل ذلك خاطب القرآن الكريم خيار خلق الله تعالى - زمن البعثة - أصحاب النبي ﷺ وآل بيته الأطهار.. خاطبهم جميعاً بالتوبة، بعد إسلامهم، وصبرهم، وهجرتهم، وجهادهم.. خاطبهم في المدينة في آيتين مدنيتين هما قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، فأوجب عليهم التوبة في الآيتين، وعلق فلاحهم بها في الآية الأولى، وبين وصفها بأن تكون نصوحاً في الآية الثانية - والخطاب عام لكل المؤمنين في كل العصور - ولكن موضع الشاهد أن الخطاب موجه لأصحاب رسول الله ﷺ مباشرة أثناء التنزيل، وهم خيرة الخلق، يوجب عليهم التوبة، ويذكرهم بحاجتهم إليها، فما ظنك بحاجة المسلمين والمسلمات في العالم كله في العصر الحديث إلى التوبة النصوح التي علق عليها الفلاح، وحاجتنا جميعاً إلى التوبة الشاملة[١١] عن ذنوب العمر كله، وهي

---

(٨) والخطاب للمؤمنين في سياق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

(٩) سيأتي الكلام على ذلك بالتفصيل في الفصل الخاص بمشروعية التوبة.

(١٠) ابن القيم: مدارج السالكين: ج:١ ص: ١٧٨، والحديث سبق تخريجه.

(١١) سيأتي الكلام عن بيان حقيقة التوبة عن ذنب معين والتوبة الشاملة وصفتها وآثارها في فصل قادم.

نوع من التوبة مغبون فيه أكثر المؤمنين والمؤمنات حيث لا يتنبه إلى التوبة العامة الشاملة إلا القليل.

٥- الحاجة إلى التوبة أمر حتمي:

وسر المسألة أن الله تعالى خلق بني آدم على صفات وهيئات وأحوال بحيث تتأتى منهم الطاعة والمعصية، وكان من قدره في خلقهم جل جلاله أنهم لا ينجو أحد منهم من الذنب[١٢]، لكي يلجئهم إلى التوبة إلجاء ويضطرهم إليها اضطراراً، فلا يستغني أحد منهم قط عن طلب عفوه ومغفرته، لأنه يحب العفو، ويحب أن تظهر آثار أسمائه الحسنى، ومنها: التواب والعفو والغفور ونحوها، وهي مظاهر عظيمة من مظاهر رحمته تعالى، ولذلك فهو يحب التوبة ويحب التوابين، وهذا لم يكن ليحصل لو كانوا مخلوقين على وضع بحيث لا يصدر منهم الذنب، لذلك جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قال: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)[١٣]، فخلقهم قابلين للذنب، وتعبدهم بالتقوى، وأمرهم بالتوبة كلما صدر منهم، ووعدهم بقبول توبتهم وبالعفو والمغفرة.

٦- التوبة مفضية إلى التزام الدين كله:

فإن التائب إنما يتوب من ترك المأمورات أو التقصير فيها، ومن فعل المحظورات، فيرجع من معصية الله تعالى في الحالتين إلى طاعته ملتزماً دين الإسلام كله، تائباً حافظاً لحدود الله، وفي هذا المعنى يقول العلامة ابن القيم: «وإنما سمي تائباً: لرجوعه إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته كما تقدم، فإذاً: التوبة هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى التوبة، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، فإذا التوبة

---

(١٢) يدل على ذلك أيضاً حديث: (كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) (سبق تخريجه)، وما جاء في صحيح مسلم (عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة: فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطى، والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج ويكذبه) (مسلم ٤٨٠٢، واللفظ له، وأحمد ٧٨٦٨).

(١٣) مسلم (٤٩٣٦) واللفظ له، وأحمد(٤٢٩٢) و(٧٧٠٠) و(٧٧٣٦).

هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً، ويدخل في مسماها الإسلام والإيمان والإحسان وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كل مؤمن وبداية الأمر وخاتمته كما تقدم، وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق والأمر، والتوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها، وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها فضلاً عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه، ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها» (١٤).

٧- الدراسات السابقة في موضوع التوبة:

قدم علماؤنا الأجلاء قديماً دراسات أصيلة في موضوع التوبة، ولكن أياً منهم لم يقصد أن يصنف في التوبة مصنفاً شاملاً يحوي كل محاورها وجزئياتها على نحو مفصل، وإنما هي كتابات لم يقصد بها الشمول التام والاستقصاء الواسع في مرجع واحد، فقد كتب الإمام الغزالي عنها في كتابه «الإحياء» فصلا في حوالي (٦٠ صفحة)، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية رسالة في التوبة في حوالي (٥٨ صفحة) وله متفرقات كثيرة في التوبة ضمن مجموع الفتاوى، وضمن الفتاوى الكبرى، وكتب العلامة ابن القيم عنها فصولاً ضمن كتابه «مدارج السالكين» في حوالي (٢٥٤ صفحة)، وكتب غيرهم نحواً مما ذكرنا أو أقل، وكتب المفسرون أقل من ذلك أيضاً أثناء تفسيرهم لآيات التوبة، وكذلك الحال عند شراح الحديث الشريف أثناء شرحهم لأحاديث التوبة، ومثل ذلك عند فقهاء المذاهب الفقهية عموماً وغيرهم من العلماء، فبقي الأمر محتاجاً إلى مرجع مفصل وشامل في موضوع التوبة وما يتعلق بها.

أما الدراسات الحديثة في موضوع التوبة فمعظمها كتيبات في الموضوع، ومن كتب فيها كتاباً(١٥) كتبه للدعوة والترغيب والتذكير غير قاصد فيه أن يكون مرجعاً أصيلاً واسعاً وشاملاً في التوبة.

---

(١٤) ابن القيم: مدارج السالكين: ج: ١ ص:٣٠٦- ٣٠٧.

(١٥) من ذلك مثلاً الكتاب القيم: «التوبة إلى الله» لفضيلة الشيخ يوسف القرضاوي .

وعلى ذلك بقيت الحاجة قائمة وملحة لتأليف مرجع شامل ومفصل في موضوع التوبة يملأ هذا الفراغ العلمي والمهم في المكتبة الإسلامية للعالم الإسلامي.

٨- الغرض من تأليف هذا الكتاب:

لقد وجدت أن من حق الإسلام والمسلمين علي بعد أن قضيت قرابة أربعين سنة في ما أحسبه خدمة للشريعة الإسلامية دراسة وتأليفاً وتدريساً في مختلف الجامعات وتخريجاً لطلبة العلم وطلبة الدراسات العليا في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، أن أقدم خدمة لكل مسلم منفرداً وللأمة الإسلامية كلها، فكان هذا الكتاب الذي قضيت في تأليفه أكثر من خمس عشرة سنة(١٦) جمعاً لمادته العلمية، وتأليفاً، وتنقيحاً، حتى وصل - بفضل الله - إلى القارئ الكريم على النحو الذي هو بين يديه، وقد رميت منه إلى أربعة أهداف:

أ - **الهدف الأول**: ملء الفراغ العلمي في المكتبة الإسلامية بإيجاد مرجع شامل ومفصل في موضوع التوبة وأحكامها في الإسلام، يصدق عليه لفظ (موسوعة) في التوبـــة وأحكامها وما يتعلق بها.

ب- **الهدف الثاني**: تمكين كل مسلم ومسلمة - ممن يقع بين أيديهم هذا الكتاب - من تجديد حياته، وتعريفه بدواعي التسويف في التوبة والإصرار على الذنوب، وتشخيص تلك الدواعي وبيان طرق معالجتها، وترغيبه في ممارسة التوبة ونوال آثارها العظيمة والتنعم بحسن الصلة بالله تعالى، وتعليمه كيف يمارس التوبة الشاملة عن ذنوب العمر كله والوسائل التي تمكنه من استدامتها والثبات عليها إلى الموت، مع بيان وسائل الترقي في مدارج الإيمان.

ج- **الهدف الثالث**: رميت أيضاً - بما تضمن الكتاب من مباحث في وسائل الترقي في مدارج الإيمان إضافة إلى موضوع التوبة - أن يقدم الكتاب خدمة للمربين، والدعاة، وأئمة المساجد، والمدرسين عموماً، ومدرسي الثقافة الإسلامية خصوصاً، والقائمين بالتبليغ في العالم الإسلامي وخارجه، وذلك بتمكينهم من الإفتاء - في مسائل التوبة وغيرها مما تضمنه الكتاب - بأقوال العلماء وفتاواهم بصورة مباشرة وجاهزة، لأني نقلت أقوالهم وفتاواهم بعبارتهم في جميع أبواب الكتاب متقيداً بقواعد الاقتباس بالنص،

---

(١٦) بعضها متقطع وبعضها متصل حسب كثرة الواجبات الأخرى وقلتها.

وتمكينهم أيضاً من تنمية (صفة الربانية) في الأفراد والجماعات الإسلامية والناس عموماً إحياء للقلوب بمعرفة الله تعالى ومحبته وخشيته ورجائه والإنابة إليه والتوكل عليه والاستزادة من العبادات القلبية والعملية حتى يجعل الله لهم نوراً يمشون به في الناس، منيبين إلى دار الخلود، متجافين عن دار الغرور، مستعدين للموت قبل نزول الموت، فبذلك يكتسبون صفة الربانية كما أمر الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، في وقت طغت فيه المادة في حياة الناس فأثقلت الكثير منهم إلى الأرض وحجبتهم عن الفرار إلى الله والارتياض بمقامات الإسلام والإيمان والإحسان، والترقي في مراتبها.

ولذلك قصدت أن أجعل الكتاب صالحاً لانتقاء مباحث منه للتدريس في الجامعات، وصالحاً لأن يقتبس منه الأشخاص والجهات التي ذكرناها مادة علمية جاهزة للقيام بمهامهم الشرعية النبيلة، وصالحاً أيضاً لأن تدار مباحثه وفقراته في المساجد وحلقات العلم والمنتديات والبيوت والحواضر والبوادي والأرياف حسبما يناسب المقام، معطرين أفواههم بآيات القرآن وسنة المصطفى ﷺ، ومتداولين بينهم فقرات من أطايب الكلام، ولذلك نظمت فهرساً تفصيلياً في آخر كل مجلد يساعد على انتقاء الفقرة المناسبة بسهولة ويسر.

وما ذكرناه في هذه الفقرة والفقرتين قبلها، يعطي فكرة عن مناسبة تسمية الكتاب بـ «موسوعة المسلم في التوبة والترقي في مدارج الإيمان» على اعتبار أن الكتاب - من حيث المحتوى - هو موسوعة ضمن ما يحتاجه المسلم، عالِماً أو متعلِّماً، من علم بالتوبة وأحكامها في الإسلام، مفصلة تفصيلاً واسعاً وشاملاً على سبيل الاستقصاء، وإن لم يكن موسوعة نهائية في العلم ذاته، ومثل ذلك يقال عن وسائل الترقي في مدارج الإيمان فإنها قابلة للتوسع فيها، إلا أن المسلم سيجد في الكتاب كل ما يحتاج إليه في موضوع التوبة، والترقي، أو معظمه، إن شاء الله تعالى، والله المستعان.

د- **والهدف الرابع**: الإسهام في رد الأمة الإسلامية إلى ربها ردّاً جميلاً عن طريق ممارسة التوبة الفردية والجماعية، من أجل الفوز العظيم في الآخرة أولاً، وهو المراد الأسمى، وكذلك لكي تكون أهلاً لأن يتنزل عليها نصر الله تعالى في الدنيا ثانياً، والنصر

قادم بإذن الله تعالى وهو قريب، وقريب جداً، مع أن معظم المقدمات في الواقع لا تدل عليه، لكن السنن الإلهية في تعامل الله تعالى مع الأفراد والأمم والدول، الثابتة في القرآن الكريم، وكذلك السنن النبوية المتعلقة بأزمنة الفتن والمحن، تدل على نصر المؤمنين يقيناً.

فالواجب على الأمة الإسلامية أن تفعل ما تقدر عليه من حسن الصلة بالله تعالى، عن طريق التوبة والعمل الصالح وأن تفعل ما تقدر عليه من أسباب النصر والتمكين، متجنبة التقصير واليأس، غير محبطة لما تراه من البون الواسع في عدم التكافؤ في القدرات بين ما عليه المسلمون وما عليه قدرات أهل الظلم والعدوان الهائلة في الأرض.. فقد دلت النصوص على أنه عندما ينعدم التكافؤ ويكون شَرُّ البرية يملكون من القوة ما يمكنهم به أن يزيلوا دار الإسلام من الوجود، وأن يستأصلوا خير البرية من الأرض، فإن سنناً إلهية يكون لها القول الفصل باستئصال شأفة الطغاة المعتدين المفسدين في الأرض، والاقتصاص منهم، ونصر الله للمؤمنين بما معهم من الهدى ودين الحق، والتمكين لهم في الأرض، فيستخلفهم وينظر كيف يعملون، آمراً إياهم أن يسوسوا الدنيا بدين الله الذي يحقق العدل والحكمة، والإحسان والرحمة، ومصالح العباد في الدارين.

وهذا النوع من النصر يمكن أن يحصل مع ضعف المؤمنين أشد الضعف، ما دامت الأمة حسنة الصلة بالله، وما دامت قد التزمت الأمر والنهي الإلهي في العمل المفضي إلى النصر قدر طاقتها مهما كانت هذه الطاقة ضعيفة، وهذه السنة الإلهية جاء ذكرها بمناسبة الكلام على ضعف نوح عليه السلام والمؤمنين معه - بعد بذل الجهد - أمام قوة الكافرين المفسدين في الأرض: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠] فسخر الله قوى الكون لإهلاك الكافرين الظالمين ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر: ١١-١٢] فأهلكهم الله وأورث الأرض للمؤمنين، كما جاء ذكر هذه السنة الإلهية بمناسبة الكلام على ضعف المؤمنين أمام طغيان فرعون وإفساده في الأرض: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

فهذه سنة إلهية في النصر أساسها استحقاق الكافرين للعذاب، وهي سنة إلهية مرتبطة بالإرادة الإلهية وبالمن الإلهي، قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥-٦] .. كل ذلك عند عدم تكافؤ القوى، ومثل ذلك ما جرى من إهلاك أصحاب الفيل، ومثل ذلك في القرآن كثير. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص:٨٨]. لكن كل هذا لا يعفي الأمة أفراداً وجماعات من العمل بأقصى الطاقة العلمية والمادية وممارسة الأسباب، كل من موقعه وبأقصى ما يقدر عليه، لإحراز النصر، وحسب الأوامر الواردة في الكتاب والسنة التي أمرت المسلمين بممارسة أسباب النصر والتمكين في الأرض وجعلت ذلك واجباً عليهم أفراداً وأمة وأولي أمر، وجعلتهم مسؤولين عن ذلك أمام الله تعالى.

والمقصود بما أوردناه في هذه الفقرة تنبيه الأمة إلى نصرها القادم، وأن عليها أن تمارس التوبة أفراداً وجماعات لتكون أهلاً لهذا النصر، وأن هذا كان أحد أهداف تأليف هذا الكتاب المفصل.

٩- منهج البحث:

ومن أجل تحقيق الأهداف المذكورة اعتمدت جملة من مناهج البحث تتلخص فيما يأتي:

أ- اعتمدت منهج الاستقراء والاختيار من أجل تقصي المادة العلمية المتعلقة بموضوع البحث. الاستقراء: لمحاولة استيعاب كل الجزئيات المتعلقة بالتوبة واستقصاء آراء العلماء فيها، والاختيار: لاختيار أحاسن الكلام الذي ورد عن العلماء بشأن تلك الجزئيات، وهي كثيرة جداً، ومتفرقة في مظانها الكثيرة من مختلف علوم الشريعة الإسلامية من تفسير وعقيدة وفقه وأصول وحديث وغيرها، إضافة إلى الموسوعات الفقهية الحديثة.

وعند الاقتباس من هذه المصادر والمراجع حرصت - غالباً - أن يكون الاقتباس بالنص وليس بالمعنى من أجل أن أضع القارئ الكريم أمام أقوال أكابر العلماء مباشرة في

الجزئية التي نبحثها ليسمع منهم مباشرة ما لم يكن بوسعه - غالباً - أن يطلع عليه لتناثره في مجلدات ضخمة قليلة التداول لعامة المثقفين وعامة المسلمين، وقد انتقيت من ذلك كنوزاً كثيرة عظيمة الفائدة بقصد إخراجها إلى التداول العلمي بين الناس، ولم أمتنع من الاقتباسات الطويلة أحياناً لتحقيق هذا الغرض، وفي هذه الحالة أخضعت الاقتباس للتشذيب والتهذيب وأوردت منه ما تمس الحاجة إليه - مع المحافظة على عبارة المصنف - وإذا كان لي تعليق أو إكمال نقص داخل الاقتباس حصرته بين معقوفتين [ ]، وفي حالة الاقتباس الطويل استحدثت عناوين جانبية ترد الكلام إلى محاوره الرئيسة الملائمة فتقسمه وتنظمه بحيث لا ينسي آخر الكلام أوله، وتلك العناوين الجانبية المستحدثة لم أضعها بين معقوفتين مستغنياً عن ذلك بالإشارة إليها هنا. وإذا ذكرت الموسوعة الفقهية - مقتبساً منها - فإنما قصدت بها الموسوعة الفقهية الكويتية التي شارك في تصنيفها ثلة من كبار علماء الأمة الأجلاء.

ب- واعتمدت المنهج التحليلي من أجل شرح أقوال العلماء والمقارنة بينها وترجيح ما كان دليله أقوى، من غير انحياز أو محاباة لمذهب معين من المذاهب الفقهية، فإذا تساوت الأقوال في قوة الاستدلال أو تقاربت رجحت ما هو للزمان أوفق وبالناس أرفق.

ج- واعتمدت أيضاً منهج الاستنباط من أدلة الأحكام متى دعت الحاجة إلى ذلك، وكنت في ذلك وراء الشريعة لا أمامها، متقيداً بقواعد تفسير النصوص، وأصول الاجتهاد الصحيحة المعتبرة عند العلماء. وعند الكلام في الرقائق ونحوها سعيت لجعل القرآن الكريم والسنة الشريفة حاكمين على كل ما أوردته منها، شأنها شأن كل ما أوردته في الكتاب حيث جعلت الانضباط بالقرآن والسنة منهجاً للكتاب كله، فلم آخذ بأي قول لم تشهد له الشريعة بالصحة والاعتبار.

د- كما أخذت بمنهج التسلسل المنطقي في تقسيم الأبواب والفصول والمباحث والمطالب والفقرات بحيث يقود كل منها إلى الذي يليه وبحيث تكون الأفكار ضمن الفقرة الواحدة متسلسلة بشكل يساعد القارئ على تفهمها بيسر وسهولة.

هـ- عزوت الآيات القرآنية إلى مواضعها في التنزيل العزيز، كما خرجت الأحاديث النبوية الشريفة ناسباً إياها إلى مراجعها من كتب الحديث الشريف.

١٠- خطة البحث:

تضمنت خطة البحث: مقدمة - هي التي بين يديك - تليها سبعة أبواب اشتملت على كل محاور موضوع التوبة بشكل مفصل وذلك على النحو الآتي:

تناولت في الباب الأول: حقائق الإيمان وكونها أساس التوبة وجعلته متضمناً الكلام على أهم الحقائق الكبرى في الوجود: حقيقة الإيمان بالله تعالى وصفاته، وحقيقة أن عبادة الله تعالى هي حكمة الإيجاد والتكليف، ثم حقيقة رجوع العالمين إلى رب العالمين.

وتضمن الباب الثاني: التوبة: فضلها ومكانتها في الإسلام، ثم بيان مشروعيتها، ثم أركان التوبة، وأخيراً أقسامها (أنواعها).

وتضمن الباب الثالث: الباعث على التوبة والتدارك، والبواعث على الإصرار والتسويف ومعالجتها.

وخصصت الباب الرابع: للكلام على الأشياء التي يتاب منها وكيفية التوبة منها، وهي كثيرة المفردات من فعل لأنواع المحرمات، وترك للفرائض والواجبات.

وتناولت في الباب الخامس: بيان دوام التوبة: لزومها والثبات عليها إلى آخر العمر والوسائل التي تعين التائب على ذلك. وهي من أعظم الوسائل للترقي في مدارج الإيمان.

وفي الباب السادس: كان الكلام عن توبة الأنبياء والعباد الصالحين وغيرهم كما وردت في الكتاب والسنة والآثار.

وتضمن الباب السابع: الكلام على قبول الله تعالى لتوبة عباده التائبين، أهو مقطوع به ومؤكد، أم هو مظنون أي محتمل، وأقوال العلماء في ذلك، مع بيان الراجح منها.

وقد اشتمل كل باب من الأبواب التي ذكرناها على ما ناسبه من الفصول التفصيلية، والمباحث، والمطالب، والفروع، والفقرات، وهي كثيرة جداً، أحسبها تغطي ما يحتاجه المسلم في موضوع التوبة بشكل موسوعي إن شاء الله تعالى. والرجوع إلى الفهرس التفصيلي في آخر كل مجلد من الكتاب يعطيك فكرة عن ذلك.

١١- اعتراف ورجاء:

وأخيراً ليعلم القارئ الكريم أن كاتب هذه السطور هو أحوج ما يكون إلى التوبة، فكلنا محتاجون إليها وإلى استدامتها واصطحابها إلى الموت، فإن أحدنا يظهر له كل يوم ما

قصر فيه من مأمور، وما وقع فيه من محظور، فعليه أن يتوب دائماً، وأن يجعل شعار يومه وليلته: التوبة. وأدعو الله تعالى أن لا أكون ممن يذكر الناس وينسى نفسه، كما أعترف أن ما في هذا الكتاب من الحق والصواب فهو من الله تعالى وهو محض فضل الله علي، وما قد يكون فيه من خطأ فمن نفسي وأستغفر الله تعالى وأتوب إليه منه، وحسبي أنني بذلت ما في وسعي لأن أدور مع الحق حيثما دار وأظهره قدر استطاعتي، فأدعو الله سبحانه أن يجعلني ممن شملهم بالأجر والثواب رحمة منه وفضلاً وإحساناً، فإن رحمته خير لنا من أعمالنا، كما أرجو من إخواني العلماء والمشايخ الكرام أن يدلوني على أي نقص أو خطأ لكي أتلافاه في المستقبل، يفعلون ذلك تعاوناً على البر والتقوى، والله يتولانا والمسلمين والمسلمات برحمته وفضله وإحسانه ويحسن ختامنا ويجعلنا وإياهم من أهل قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢]، ومن أهل قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله سبحانه: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقوله جل ثناؤه: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]. وأخيرا أذكر القارئ الكريم جعله الله من أهل رحمته ورضوانه أن لا ينساني في الدعاء.

أ.د. منير البياتي
الأردن/ الزرقاء في ٢٧/ رجب/ ١٤٢٥ هـ
الموافق: ١٢/ ٩/ ٢٠٠٤ م
E-mail:munir67@hotmail.com









الباب الأول

حقائق الإيمان أساس التوبة

وفيه ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: الحقيقة الأولى: الإيمان بالله تعالى وصفاته.
- الفصل الثاني: الحقيقة الثانية: عبادة الله حكمة الإيجاد والتكليف.
- الفصل الثالث: الحقيقة الثالثة: رجوع العالمين إلى رب العالمين.









الباب الأول

حقائق الإيمان أساس التوبة

١٢- تمهيد وتقسيم:

سنتعرض في هذا الباب للكلام في حقائق الإيمان بالله تعالى، والإيمان بما جاءت به الرسل من ربها جل جلاله، والإيمان باليوم الآخر، فإن هذه الحقائق هي المقتضية لعبادة الله وطاعته، وهي المقتضية للتوبة عند مخالفة أمره ونهيه، فمن لم يؤمن بها فلا شأن له بالتوبة من معصية الله تعالى، ومن كان مؤمناً بها وغافلاً عنها فقلما يهتدي إلى التوبة إلا أن يقوى إيمانه فيكون فاعلاً ومنتجاً ومؤثراً فينتج آثاره العظيمة وفي مقدمتها التوبة إلى الله تعالى عن معصية أمره ونهيه، ومن كان مؤمناً بها عاملاً بمقتضاها فما أقربه إلى التوبة إلى الله تعالى ولكنه لا يستغني عن المزيد من العلم الذي يرسخ إيمانه ويزيده ويجعله يقينيا لا تخالطه ذرة من الشك، ومن ثم كانت حقائق الإيمان الأساس الكبير للتوبة، فلابد من بيان هذه الحقائق في بداية الكلام عن موضوع التوبة، وهي حقائق أساسية مستمدة من أركان الإسلام وأركان الإيمان وذات أثر عظيم في التوبة.

١٣- أركان الإسلام والإيمان وعلاقتها بالتوبة:

يرغب المسلم في التوبة بقدر ما يكون واعياً لأهمية وعظمة (**أركان الإسلام**)، عاملاً بها، شاهداً أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله عالما بما تستلزمه هذه الشهادة، ومزكياً نفسه بالعمل الصالح الذي تضمنته أركان الإسلام، لذلك فإنه يحاول تلافي كل تقصير في الواجبات الشرعية أو اقتحام للمحرمات بالتوبة الصادقة والرجوع إلى الله تعالى متداركا كل معصية بتوبة نصوح.

وتهفو نفس المؤمن إلى التوبة ويشعر بضرورتها بقدر ما كانت (**أركان الإيمان**) عميقة في نفسه، قد تقرب إلى الله تعالى فأحيا الله قلبه وقذف فيه نور التنبيه فاستيقظ من رقدة

الغافلين، فهجر الغفلة واصطحب اليقظة، قد أخرجه الله من الظلمات إلى النور فملأ قلبه بنور الإيمان، وجعل له نوراً يمشي به في الناس. فالإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبقضاء الله وقدره.. كل ذلك باعث عظيم على طاعة الله تعالى والتوبة من معصيته، ورجوع العبد إلى ربه منيباً إليه.

ولكن بعض هذه الأركان أعظم أثراً من بعض من حيث إنها تبعث على التوبة الصادقة النصوح مما وقع له من ترك المأمورات وفعل المحظورات من كبيرة أو صغيرة، فيلجأ إلى التوبة والتدارك ليتوب من قريب فيحظى بعفو الله ومغفرته ورحمته قبل أن يفاجئه الموت فيرجع إلى ربه محملاً بالأوزار والذنوب قد ظلم نفسه فعرضها لعذاب الله وسخطه، وفوت عليها رضوان الله تعالى. وأهم هذه الأركان ثلاثة تمثل - كما سنرى - أعظم الحقائق الكبرى في الوجود.

١٤- بيان الحقائق الكبرى الثلاث:

وحيث إن غرضنا هو (التوبة) فسنتعرض بالشرح والإيضاح لتلك الحقائق الإيمانية الكبرى مستمدة من أركان الإيمان والإسلام ومن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بقدر صلتها بموضوع التوبة، وكونها تشكل باعثاً عظيماً على طاعة الله والتوبة من معصيته وهي مقصدنا في هذا الكتاب.. وهذه الحقائق:

أحداها: الإيمان بالله تعالى وصفاته.

والثانية: أن عبادة الله هي حكمة الإيجاد والتكليف، وهو ما جاءت به الرسل من ربها وخاتمهم سيد المرسلين مبشرين ومنذرين، ومعلمين الخلق الغاية من وجودهم في الدنيا وأنها دار للامتحان والبلاء والفناء.

والثالثة: الإيمان باليوم الآخر والجزاء فيه أي رجوع العالمين لرب العالمين.

١٥- معرفة الحقائق الكبرى الثلاث هي جوهر المعارف العليا وخلاصة النبوات:

فمعرفة الله تعالى والإيمان به رباً خالقاً وإلهاً معبوداً، ومعرفة الغاية من وجودنا في هذه الدنيا وأنها للامتحان، ومعرفة المصير الذي نصير إليه بعد هذه الدنيا، هي خلاصة المعارف الكبرى التي ينبغي لكل إنسان أن يعرفها معرفة يقينية.

ولا يستغني عنها أحد من بني آدم وهو يسأل نفسه دائماً: من جاء بنا إلى هذه الدنيا؟ وما الغاية من مجيئنا إليها؟ والى أين المصير بعدها؟

وكم يكون جاهلاً أن لا يسأل الإنسان نفسه عن ذلك؟ وأجهل منه أن لا يعرف الجواب على وجه الحق واليقين وبين يديه الوحي الإلهي خبر الصدق من رب العالمين: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

١٦- الحقائق الكبرى الثلاث بها أرسل الله رسله وبها أنزل كتبه:

وهذه الحقائق الكبرى الثلاث، بها أرسل الله رسله، وبها أنزل كتبه، ليرشد الخلق وينذرهم أن الله تعالى ما خلق السماوات والأرض لعباً وباطلاً، ولا خلق الإنسان ليتركه سدىً عاطلاً، بل خلق ذلك بالحق ولغاية عظمى، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٣٨-٤٠] وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] .. وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦] خلق ذلك لغاية عظمى هي الخلافة في الأرض على منهج عبادة الله.. عبادة الله مع هذا الكون المسبح كله لله.. غاية عظمى بالنسبة للإنسان ثمرتها سعادة الأبد وربح الأبد للمؤمنين، وشقاوة الأبد وخسارة الأبد للكفار والمنافقين.

وحيث إن هذه الحقائق الكبرى لها أثر عظيم في رجوع العبد إلى الله تعالى بالطاعة والتوبة الصادقة النصوح فقد اخترناها مدخلاً أساسياً لموضوع التوبة.

وفيما يلي نقدم شرحاً وبياناً لهذه الحقائق الكبرى الثلاث في ثلاثة فصول متتالية:

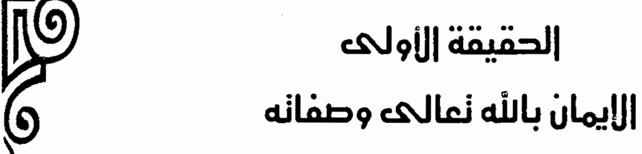








الفصل الأول



الحقيقة الأولى

الإيمان بالله تعالى وصفاته



وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: الإيمان بالله رباً خالقاً لكل شيء.
- المبحث الثاني: الإيمان بالله إلهاً معبوداً مطاعاً.
- المبحث الثالث: الإيمان بالصفات الإلهية.







الفَصْلُ الأَوَّلُ

الحقيقة الأولى
الإيمان بالله تعالى وصفاته

١٧- تمهيد وتقسيم :

الإيمان بالله تعالى وصفاته جل وعلا هو إيمان بأعظم حقيقة في الوجود، ومقتضاها: الإيمان به رباً خالقاً خلق السماوات والأرض وما بينهما، وهو ما أطلق عليه العلماء (توحيد الربوبية).

والإيمان به إلها معبوداً مطاعاً بأمره ونهيه، وهو ما أطلقوا عليه (توحيد الألوهية).

والإيمان بصفاته جل وعلا وهو ما أطلقوا عليه (توحيد الصفات).

وعلى ذلك انقسم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث:

الأول: الإيمان بالله رباً خالقاً لكل شيء.

والثاني: الإيمان بالله إلهاً معبوداً مطاعاً.

والثالث: الإيمان بالصفات الإلهية.

ونقدم فيما يلي شرحاً موجزاً لهذه المباحث الثلاثة وبقدر ما تمس الحاجة إليه في هذا الباب التأسيسي لموضوع التوبة.

المبحث الأول
الإيمان بالله رباً خالقاً لكل شيء

١٨- معنى كلمة الرب:

تعني كلمة (الرب) جملة من المعاني منها: مالك الشيء، وموجده، والسيد عليه، والمتصرف فيه، والمربي والمتكفل بمصلحة من تحت ربوبيته، وصاحب السيادة والسلطان النافذ أمره في غيره، وكل هذه معاني لا يملكها على وجه الحقيقة والكمال إلا الله تعالى، وأما غيره فكلها مخلوقات لله ومربوبة له فهو ربها جميعاً (١٧)

ولا تطلق كلمة (الرب) إلا على الله تعالى، أما إطلاقها على غيره فلا يكون إلا مع الإضافة، كرب الدار، ورب الدابة ونحو ذلك.

١٩- مقتضى الإيمان بالله تعالى رباً خالقاً لكل شيء:

ومقتضى الإيمان بربوبية الله تعالى: أن يؤمن العبد أن الله رب كل شيء وخالقه ومليكه والمتصرف فيه بمشيئة، لا رب غيره ولا خالق سواه، قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقال: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨]، وقال: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال عز وجل: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ [المائدة: ١٢٠]. فجميع ما في السماوات والأرض من الأعيان والأشياء وصفاتها وحركاتها مخلوقة له، مقدورة له، مصرفة بمشيئته، لا يخرج شيء منها عن قدرته وملكه، ولا يشاركه في شيء من ذلك غيره، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر: ٤٠].

---

(١٧) د.عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة ص ١٩.

خلق المخلوقات كلها بقدرته ومشيئته، ودبرها وأحكم نظامها بعلمه وحكمته ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥].

له الخلق والأمر، بيده الملك وهو على كل شيء قدير، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، أمره نافذ في خلقه في سماواته وأرضه وجميع خلقه، لا معقب لحكمه، هو مدبر شؤون خلقه والقائم بما يصلحهم، بيده النفع والضرر، والعطاء والمنع، والكون كله تحت تصرفه لأنه خالقه فهو مالكه، والمخلوقات كلها مفتقرة إليه في وجودها وبقائها وصفاتها وفنائها، وهو الغني عن كل مخلوقاته وكلها فقير إليه، يسأله من في السماوات والأرض وهو لا يسأل أحداً.

٢٠- النفوس مفطورة على الإيمان بالرب الخالق والعقول مضطرة للإذعان:

وهذا الإيمان بربوبية الله تعالى قد فُطرت عليه نفوس بني آدم جميعاً مؤمنهم وكافرهم وسلمت به عقولهم إلا من جحد منهم ظلماً وعلواً، وذلك لأنه إيمان بالضرورة العقلية والفطرية إذ لا بديل عنه ولا عوض في العقل البشري والفطرة الإنسانية، إذ لا جواب عن وجود الكون بكل ما فيه إلا بالإقرار بأن له خالقاً قدرته مطلقة، ومشيئته نافذة، وعلمه لا نهاية له، ويستحيل عقلاً غير ذلك.[(١٨)]

---

(١٨) سبب الاستحالة العقلية هنا أن عدم الإقرار بالخالق الذي خلق الكون يستلزم أن الكون أوجد نفسه بنفسه من غير خالق خلقه، وهو قول الملاحدة ظلماً وعلواً، وهذا يستلزم أن يكون الكون موجوداً قبل أن يوجد حتى يتحرك ويفعل ويوجد نفسه، وكون الشيء موجود قبل أن يوجد محال في العقول وتناقض فهو مستحيل. وسبب الاستحالة والتناقض أنه قبل وجوده يكون غير موجود أي يكون عدماً فكيف يكون موجوداً قبل أن يوجد؟ ! وكيف يوجد نفسه وهو عدم غير موجود؟ وهكذا يفضي الفكر الإلحادي إلى التناقض العقلي والاستحالة، وهذا يصدق على كل (الممكنات)، أي التي يمكن وجودها وعدمها، أي التي لابد أن تستمد وجودها من خالق يوجدها لاستحالة وجودها من ذاتها لأنها (ممكنة الوجود) وليست واجبة الوجود، قال تعالى: (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) أي: أم يزعمون أنهم خلقوا من غير خالق يخلقهم؟ أو يزعمون أنهم خلقوا أنفسهم بأنفسهم؟ وكلاهما مستحيل فوجب إيمانهم بالخالق وهو الله تعالى الذي هو واجب الوجود بحكم العقل لتفسير وجود الكون (السماوات والأرض وما بينهما) لأن نفيه يستلزم العودة إلى القول بأن الكون أوجد نفسه بنفسه وهو المستحيل، وعلى ذلك فإن نفي الخالق يفضي إلى =

ولذلك فإن المشركين - على شركهم - لا ينكرون الربوبية بل هم مقرون بأن الله خالق السماوات والأرض وربها ومالكها، قال تعالى في بيان حقيقة ما في نفوسهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥] وقال أيضاً: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧] وقال جل ثناؤه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

ومع إقرارهم بكل هذا، وأن الله هو الرب الخالق المالك الذي بيده كل شيء، فإنهم صائرون إلى النار لأنهم لم يتخذوه إلهاً معبوداً مطاعاً، بل عبدوا غيره ! ولم يؤمنوا برسوله، بل اتبعوا أهواءهم، ولم يعملوا بأمره ونهيه وشرعه بل كفروا بألوهيته فكان حالهم الكفر والفسوق والعصيان.

= المستحيل فيكون وجوده واجباً، وهو نوع من الوجود يسميه العلماء: الواجب الوجود، أي الموجود وجوداً ذاتياً لا أول لـه فلا يستمد وجوده من غيره، وهو معنى اسمه تعالى (الأول) أي الأول بلا ابتداء، ومعنى اسمه القيوم، أي القائم بذاته المقيم لغيره، ومعنى (لم يلد ولم يولد) فهو موجود بوجود واجب أصلي ذاتي لازم ودائم وليس وجوداً تبعياً كما هو حال الكون الذي هو موجود بوجود تبعي، تابع لمن أوجده، فذلك هو الواجب الوجود الذي يستحيل عقلاً عدم وجوده، وهو الله وحده جل جلاله وتباركت أسماؤه وتعالت صفاته. والأدلة لإثبات وجود الخالق وصفاته جل جلاله العقلية والعلمية تطلب في كتب العقيدة ومن الكتب الحديثة والميسرة في ذلك: كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي. والعقيدة الإسلامية لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني وغيرهما، ومن الكتب الأصيلة: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي وقد احتوت على الكثير جداً من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم، وخرج أحاديثه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

٢١- كل منكر للربوبية واقع في الكذب على نفسه:

والقرآن يقرر أن كل منكر للربوبية وجاحد لها إنما هو يكذب على نفسه ويخفي ما فطرت عليه نفسه من العلم الضروري بأن الله هو الرب الخالق قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]، وقال موسى عليه السلام لفرعون الجاحد الكافر يقرره ما في داخل نفسه: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فالنفوس مفطورة على علم ضروري موجود فيها بالخالق الذي خلق السماوات وأنه خلق السماوات والأرض، ليس شيء منها من خلق الناس» [١٩].

(١٩) ابن تيمية: مجموع الفتاوى: ٨/ ٢٣٤.

المبحث الثاني
الإيمان بالله إلهاً معبوداً مطاعاً

٢٢- معنى كلمة إله:

كلمة (إله) تعني: المعبود. واستعمالها يشمل المعبود بحق وهو الله تعالى، كما في قوله عز وجل: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، أو المعبود بباطل ككل الآلهة الباطلة من دون الله التي يتخذها الضالون آلهة ويعبدونها، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

٢٣- الإيمان بالرب الخالق يستلزم اتخاذه وحده إلهاً معبوداً:

والله جل جلاله بما أنه الرب الخالق المنعم بأعظم أجناس النعم المنفرد بالربوبية المطلقة على الكون بما فيه، فإن هذا يوجب على العباد اتخاذه - وحده - إلهاً معبوداً مطاعاً فيما أمر ونهى، ومعنى هذا: أن الإيمان بالله تعالى رباً خالقاً يستلزم اتخاذه إلهاً معبوداً أي عبادته وطاعته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] وقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢] فرتب عبادته على أنه الرب الخالق جل وعلا.

قال شارح العقيدة الطحاوية: «والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له، ومن ذلك: أنه يقرر توحيد الربوبية ويبين: أنه لا خالق إلا الله، وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله، فيجعل الأول دليلاً على الثاني، إذ كانوا يُسلِّمون في الأول ويُنازِعون في الثاني، فيبين لهم سبحانه: أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله وحده، وأنه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم ويدفع عنهم ما يضرهم لا شريك له في ذلك فلم تعبدون غيره وتجعلون معه آلهة أخرى؟ كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ

مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل: ٥٩-٦٠] أي: أإله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهام إنكار يتضمن نفيَ ذلك، وهم كانوا مقرِّين بأنه لم يفعل ذلك غير الله فاحتج عليهم بذلك... والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وكانوا يقولون: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]، لكنهم ما كانوا يقولون: إن معه إلهاً ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ ﴾ [النمل:٦١]، بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا، وهكذا سائر الآيات [أي الآيات الدالة على أنه وحده الخالق فيجب اتخاذه وحده إلهاً معبوداً]، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١]، وكذلك قوله في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ﴾ [الأنعام: ٤٦]، وأمثال ذلك»[٢٠].

٢٤- حق الله على العباد:

فذلك هو حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. يدل على ذلك حديث معاذ المشهور الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال النبي ﷺ: (يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً..)[٢١].

٢٥- العبادة تتضمن كمال المحبة لله مع كمال التذلل له:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فعبادة الله تتضمن كمال محبة الله، وكمال الذل لله، فأصل الدين وقاعدته يتضمن أن يكون الله هو المعبود الذي تحبه القلوب وتخشاه، ولا يكون لها إله سواه، والإله من تأله القلوب بالمحبة والتعظيم والرجاء والخوف والإجلال والإعظام ونحو ذلك»[٢٢]، وبذلك أرسل الله تعالى رسله وأنزل كتبه لهداية الخلق إلى

(٢٠) ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ج: ١ ص: ٨٣-٨٤.
(٢١) متفق عليه: البخاري (٦٨٢٥) واللفظ له، ومسلم (٤٣). وانظر أيضا: الترمذي (٢٥٦٧).
(٢٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى: ١١/ ٥٢٣.

عبادة الله وحده. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

٢٦- عبادة الله هي العهد الأول والأعظم بين الإنسان وربه:

ولذلك كانت عبادة الله العهد الأول والأعظم بين الإنسان وربه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

وكانت العبادة أول أمر يأمر به الله نبياً يكلمه تكليماً، قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤].

وهي حق الربوبية يؤديه الإنسان للرب الخالق لكل شيء والمالك لكل شيء، قال عز وجل: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام:١٠٢].

وهي حق الألوهية بما يتضمن من حق الأمر والنهي والتشريع والحكم ورجوع الأمر كله إليه، قال جل وعلا: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠] وقال أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

ولذلك كله كان الاستكبار عن عبادة الله تعالى وتركها طريقاً إلى النار قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

٢٧- عبادة الله: خلق رفيع ومثل أعلى:

وفوق هذا وذاك فعبادة الله وطاعته خلق رفيع ومثل أعلى في الإنسان، لأنها تمثل (الوفاء) لله تعالى، وشكر النعمة، والعرفان بالجميل، ومقابلة الإحسان بالإحسان، وكل ذلك ونحوه من مكارم الأخلاق.. وهذا بعض المعنى لقوله ﷺ (إنما بعثت لأتم مكارم

الأخلاق)[٢٣]، ويدل على ذلك أن القرآن الكريم يعقب على عبادة المؤمنين وطاعتهم بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥] والصدق خصلة خلقية خالصة: الصدق مع الله والوفاء بعهده ورعاية حقه.

٢٨- انقسام الناس فريقين في رعاية حق الله وعبادته:

وفي رعاية حق الله على العباد انقسم الناس فريقين:

فريق هم أهل طاعته وعبادته ورعاية حقه والوفاء بعهده قد اتخذوه إلهاً معبوداً مطاعاً وآمنوا برسوله وبذلوا الجهد في عبادة الله فهم أهل مغفرته ورضوانه وجناته.

وفريق هم أهل الكفر والضلال قد تمردوا على ألوهيته فلم يتخذوه إلهاً معبوداً بل اتخذوا آلهة حسب أهوائهم ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢] مع معرفتهم أن الله وحده هو الرب الخالق، فهم أهل سخطه وغضبه وعقابه لهم بالنار.

هكذا الناس كما ذكر القرآن: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

هذا بالنسبة للإنس والجن وقد خلقهم الله خلقاً قابلاً للهداية وقابلاً للضلال، وهم أهل الامتحان والابتلاء في هذه الدنيا.

أما بقية ما في الكون من الملائكة والسماوات والأرض وما بينهما والدواب والنبات وغيرها فقد خلقها الله تعالى كلها عابدة له، مسلمة له، لا تشذ عن ذلك ذرة في الأرض ولا مجرة في السماء.

٢٩- الكون كله خلق عابداً لله:

فالكون كله خلقه الله تعالى عابداً له - سوى الكافرين والضالين من الإنس والجن - وقد نطق القرآن بذلك بصريح العبارة.

---

(٢٣) مجمع الزوائد: ٩/ ١٥، وسنن البيهقي الكبرى ١٠/ ١٩١، والمعجم الأوسط ٧/ ٧٤، ومسند الشهاب ٢/ ١٩٢، والجامع الصغير للسيوطي ١/ ٢٠٦، ونوادر الأصول في أحاديث الرسول ٢/ ٣١٢، و٤/ ٤٣، والتمهيد لابن عبد البر١٦/ ٢٥٤، وشرح الزرقاني ٤/ ٣٢١، وتحفة الأحوذي ٥/ ٤٧٠.

قال جل جلاله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ﴾ [الحج: ١٨].

وقال جل ثناؤه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

وقال عن تسبيح الطير: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ﴾ [النور: ٤١].

وقال أيضاً: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦].

وفي القرآن مثل ذلك كثير.. وكل ذلك من معاني ألوهيته وخضوع الكائنات وإسلامها له، وافتقارها إليه، وسؤالها إياه، وانقيادها وطاعتها وعبادتها لله الواحد القهار.

فلينظر الكافرون والضالون والجاحدون أين موقعهم من هذا الكون العظيم وقد اختاروا لأنفسهم الشذوذ عن حركة الكون كله إذ اختاروا الكفر والفسوق والعصيان فاستحبوا العمى على الهدى مع كثرة أنواع الهداية التي هيأها الله تعالى لهم.

٣٠- أنواع الهداية الإلهية وحال المعرضين عنها:

ما خلق الله تعالى خلقاً أعمى عن معرفته والاهتداء إليه، معرفته رباً خالقاً للسماوات والأرض، وإلهاً يستحق وحدة العبادة. وإنما العمى يأتي من جانب الإنسان حين يقدم له الهدى فيستحب العمى على الهدى.

فقد هداهم الله تعالى إلى معرفته بهداية الفطرة، وهداية العقل، وهداية الرسل.. فإذا عطل الإنسان في نفسه كل هذه الأنواع من الهداية وأعرض عنها فقد استحب لنفسه العمى.

٣١- أولا - هداية الفطرة:

فأما هداية الفطرة، فإن الفطرة التي فطر الله الناس عليها تتضمن معرفة الله والإيمان به، هكذا خلقها فاطرها، فجعل معرفة الله والإيمان به معرفة ضرورية مركوزة في النفوس، كل النفوس، قد خلقها في عالم الذر وأشهدها على ربوبيته جل وعلا كما أخبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، أي لئلا تقولوا يوم القيامة: ما درينا، وما علمنا، وما أخبرنا وما فهمنا، فلا سبيل إلى هذا القول لأن الله أودع في نفوسكم وفطرتكم معرفته وأنه الرب الخالق وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ﴾.

٣٢- معرفة الرب الخالق مخلوقة ومركوزة في فطرة الإنسان:

فمعرفة الرب الخالق هي معرفة ضرورية خلقها الله في الإنسان كما خلق له عينين ولساناً وشفتين وغيرها، فلا يمكن للنفوس جحدها ودفعها داخل النفس ولكن يمكن التعامي عنها وتعطيلها، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠]، وقوله ﷺ في الحديث القدسي فيما يرويه عن ربه تعالى: (... وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا) [٢٤].

٣٣- إنكار الرب الخالق لا يكون إلا ظلماً واستكباراً:

فتعطيل الفطرة وأصابتها بالعمى يأتي من جانب الإنسان حين يستحب العمى على الهدى فيتعامى عما في فطرته أو يعطله عامداً ظلماً واستكباراً فينشأ من ذلك الجحود، قال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ

---

(٢٤) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٥١٠٩) واللفظ له، وأحمد (١٦٨٣٤).

إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦]، وقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل: ١٤]، هكذا.. ظلماً وعلواً.. وهذا من أعظم الجحود أن يجحد ما استيقنته نفسه في داخلها.

ذلك أن المشركين – على شركهم – ما كانوا يقدرون على جحود وإنكار ما في فطرتهم من وجود الخالق الذي خلق العالم، فكانوا يقرون به، قال تعالى: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [إبراهيم: ١٠]، أي هذا أمر مقرر في جميع الفطر لا سبيل لإنكاره إلا على سبيل الجحود.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [لقمان:٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩].

ومثل ذلك قوله تعالى وتقدس: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].. هذا وهم مشركون معرضون لا يعبدون الله ولا يتخذونه إلهاً.

٣٤- ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون:

ولهذا لا يكون الإعراض عن الإيمان إلا ظلماً للعقل والفطرة وعناداً واستكباراً مخالفاً لما في النفس من اليقين والعلم الفطري الضروري الذي يبرز فيهم حال الاضطرار إليه في ساعات الضر قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣].

ولذلك ترى أشد الكافرين كفراً، وأعظمهم ضلالاً، ممن عاش عمره كله يتغذى على الكفر ويدعو إليه.. تراه ساعة الموت يتصاغر ويتضاءل وينكشف ما في فطرته التي أعماها طوال حياته فينطق مستنجداً.. يا الله ! يا إلهي ! يا رب ! ولكن بعد فوات الأوان! !.

ومن ذلك ما كان من فرعون الذي قال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤] وقال: ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [القصص: ٣٨]، إذا به ساعة الاضطرار وساعة الموت يكشف عما في داخل فطرته فيقول والموج يبتلعه ذاهباً به إلى الموت كما وصف الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠] فلم يقبل إيمانه، قال تعالى: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩١].

وقبل ذلك قرره موسى عليه السلام وكشف له عما يكنه في داخل نفسه وفطرته من العلم اليقيني بالرب الخالق بقوله: (لقد علمت) حيث قال له موسى بشأن المعجزات: ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، فضل مكابراً جاحداً ما في نفسه وفطرته من العلم اليقيني بالرب الخالق، ظلماً وعلواً. فذلك هو إصابة الفطرة بالعمى !!.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

٣٥- ثانيا - هداية العقل:

فأما هداية العقل: فإن نظرة واحدة إلى السماوات والأرض وما بينهما، والتفكر فيها خلقاً وإبداعاً، تنظيماً وتدبيراً، اختراعاً وعناية، تجعل العقل يخر ساجداً للذي فطر السماوات والأرض، الذي خلق الذرة والمجرة، وخلق الخلية والأحياء والعقل والروح، الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى، الذي خلق الشمس والقمر، وجعل الليل والنهار خلفةً، فالق الحب والنوى، خالق الإصباح، جاعل الظلمات والنور...

من نظر كل هذا أو بعضه ونظر في الكون وآياته المشهودة الباهرة المبدعة ثم لم يعرف أن وراءه خالقاً خلقه، ومبدعاً أبدعه، ومريداً أراده، ومدبراً دبره، فإنه لا يعقل، إذ هو ومن لا عقل له سواء، وبتعطيل العقل والتعقل (معطيات العقل) يكون قد أعمى عقله، فذلك هو عمى العقل !!.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٧٢].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: (ومن كان في هذه أعمى) الآية: قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: (ومن كان في هذه) أي في الحياة الدنيا (أعمى) أي عن حجة الله وآياته وبيناته (فهو في الآخرة أعمى) أي كذلك يكون (وأضل سبيلاً) أي وأضل منه كما كان في الدنيا، عياذاً بالله من ذلك»[٢٥].

وفي تفسير البغوي: «...(ومن كان في هذه أعمى) اختلفوا في هذه الإشارة فقال قوم: هي راجعة إلى النعم التي عددها الله تعالى في هذه الآيات من قوله: (ربكم الذي يزجي لكم الفلك) إلى قوله (تفضيلاً) يقول: من كان منكم في هذه النعم التي قد عاين أعمى فهو في أمر الآخرة التي لم يعاين ولم ير أعمى وأضل سبيلاً، يروى هذا عن ابن عباس، وقال الآخرون: هي راجعة إلى الدنيا، يقول: من كان في هذه الدنيا أعمى القلب عن رؤية قدرة الله وآياته ورؤية الحق فهو في الآخرة أعمى أي أشد عمى وأضل سبيلا أي أخطأ طريقاً...»[٢٦].

هذا وهو يرى أن العلم والحضارة والمختبرات والعلماء.. كل أولئك لا يخلقون ذبابة واحدة ولو اجتمعوا لها !! ولا يخلقون خلية حية ولا أحياء !! ولا يخلقون ذرة من المادة من العدم إلى الوجود !!.

ولذلك جاءت خطابات القرآن بعد عرض مخلوقات الله تعالى المبدعة تبين أنها آيات للعقلاء، وتصف المعرضين بأنهم لا يعقلون !.

تأمل هذه الآيات: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ

---

(٢٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٣.

(٢٦) تفسير البغوي ٣/ ١٢٦.

وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٣-١٦٤]، ومثل ذلك في القرآن كثير..

وقال تعالى في المعرضين: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال في بيان الدلائل القاطعة على ربوبيته وألوهيته وبيان مصير الجاحدين والمكابرين: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا (٦) وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا (٧) وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا (٨) وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا (٩) وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا (١٠) وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا (١١) وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا (١٢) وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا (١٣) وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا (١٤) لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا (١٥) وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾ [النبأ: ٦-١٦]، وحيث عميت عقولهم عن كل هذا فلم يؤمنوا بالله تعالى قال في تتمة الآيات: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا (١٧) يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا (١٨) وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا (١٩) وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا (٢١) لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا (٢٢) لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا (٢٥) جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾ [النبأ: ١٧-٢٦].

ونقل القرآن قولهم يوم القيامة: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. فشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا في الدنيا (لا يعقلون).

٣٦- معرفة الله أوضح حقيقة في الوجود:

ذلك أن معرفة وجود الرب الخالق جل جلاله هي أوضح المعارف للعقل البشري على الإطلاق لكثرة الأدلة عليها فقد أدت جميع الكائنات شهادتها بأنها ما وجدت من غير خالق ولا هي أوجدت نفسها وإنما أوجدها ربها جل جلاله، حتى باتت هذه الحقيقة، حقيقة وجود الرب الخالق معلومة بالضرورة العقلية ولا يمكن دفعها إلا إذا استغنى الإنسان عن استعمال عقله وتركه بلا تعقل ولا تفكر في كل ما حوله وفي نفسه أو سلك مسلك الاستكبار على الإيمان ظلماً للحقيقة وظلماً لنفسه وعقله واستكباراً على الإيمان.

وعلى ذلك فما من حقيقة توجد عليها من الأدلة التي تدل عليها بقدر الأدلة التي تدل على الرب الخالق جل جلاله، كثرة، وتنوعاً، ودلالة، من حيث إيجادها وتسخيرها وهدايتها لوظائفها في هذا الوجود بما يلائم حياة الإنسان، والعقل يعرف ربه جل جلاله من غير أدنى مشقة له في معرفته والاهتداء إلى وجوده وعظمة صفاته. وإنما أرسل الرسل ليس لتعليم الناس وجود الله تعالى فإن وجوده لا يشك فيه عاقل قال تعالى: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]، وإنما أرسلهم لتعليمهم العقائد والشرائع من أجل عبادة الله جل جلاله مزودين بالمعجزات التي تجعل العقل يذعن لصدق رسالاتهم التي أرسلوا بها من رب العالمين.

ذلك أن العقل يدرك أن المُحْدَث المخلوق لا يخلق شيئاً وأن المتفرد بذلك خالقه كما قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣]، وكما قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠]، وكما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧]، وكما قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]، ومثل هذا في القرآن كثير.

٣٧- ثالثاً - هداية الرسل:

وأما هداية الرسل، فقد أرسل الله رسله إلى كل أمم الأرض، قال عز وجل: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل أمم الأرض نالت حظها من هداية الرسل الذين أرسلهم الله وأيدهم بالمعجزات التي تؤيد صدقهم والتي يعجز الخلق عن معارضتها أو الإتيان بمثلها مما يولد العلم اليقيني بصدقهم ويضطر العقول والبصائر إلى التسليم به دون أدنى ريب، وأنزل معهم الكتب فيها هدىً ونور.

والمعجزات تثبت أمرين: صدق الرسل فيما أرسلوا به. ووجود الرب الخالق الذي أرسلهم وحكمته وعلمه. ولذلك كان القول بأن الله لم يرسل رسلاً أي إنكار النبوات هو

من قبيل التنقيص بصفات الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: ٩١].

٣٨- ختم النبوات والمعجزة المستمرة:

ثم ختم الله النبوات - لقرب الساعة - بنبوة محمد ﷺ سيد الأنبياء والمرسلين، أرسله إلى الناس كافة، ونسخ بشريعته الشرائع السماوية السابقة، وأمر الخلق جميعاً بالإيمان به واتباع دينه، وأيده بمثل ما أيد به الأنبياء السابقين من المعجزات المؤقتة بوقتها التي شاهدها من شاهدها ودُونت ونُقلت إلينا مدونة كالإسراء والمعراج، وانشقاق القمر، أو شفاء المريض بلمسه، ورد بصر الأعمى إليه، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة وغير ذلك كثير..

ولكن الله تعالى أفرده من بين الأنبياء جميعاً بمعجزة مستمرة دائمة هي القرآن الكريم لإثبات صدق نبوته مع كل جيل من الأجيال إلى يوم القيامة بدلالة عجز الخلق جميعاً عن الإتيان بمثل القرآن أو بعشر سورٍ أو بسورة واحدة، وقد استمر هذا الإعجاز من جانب القرآن، والعجز من جانب البشر أربعة عشر قرناً، وسيبقى إلى يوم القيامة شاهداً بصدق النبوة ومسهلاً للخلق سبيل الإيمان اليقيني على بصيرة قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]، وقال أيضاً: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وهكذا أبقى الله تعالى إلى يوم القيامة نبوة قائمة، الإيمان بها واجب على الخلق جميعاً، معجزتها قائمة مستمرة.. وهذا من أعظم الرحمة بالخلق وتيسير سبيل الهداية لهم قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، قال القرطبي: «قال أبو سعيد الخدري وابن عباس رضي الله عنهما: فضل الله: القرآن، ورحمته: الإسلام»[٢٧].

(٢٧) تفسير القرطبي: ٨/ ٣٥٣.

وهذه الهداية - هداية الرسل - ما أعرض عنها معرض إلا أصاب نفسه بالعمى واستحب العمى على الهدى، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

والرسل السابقون عليهم الصلاة والسلام قبل الرسالة الخاتمة آمن بهم من آمن وكفر بهم من كفر فتمايز الناس مؤمنين وكافرين حسب إيمانهم أو كفرهم برسولهم، فلما جاءت الرسالة الخاتمة وجاءت للناس كافة نسخت الشرائع السابقة وهيمنت عليها وصار الواجب على الخلق جميعاً الإيمان بمحمد ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فتلك التي شرحناها ثلاثة أنواع من الهداية: هداية العقل، وهداية الفطرة، وهداية الرسل، كفيلة بأن تقود البشر للإيمان بربهم جل جلاله إيماناً يقينياً وهي من أعظم رحمة الله بخلقه وعنايته بهم، وتمكينهم من إحراز سعادة الدارين، وهي تقطع الحجة على كل جاحد كفور.

٣٩-كل من ضل من الخلق إنما ضل بعد إعراضه عن أنواع الهداية المقدمة له:

ولذلك بين القرآن أن كل من ضل من الخلق فإنما ضل بعد تقديم الله له هذه الأنواع من الهداية والبيان فأعرض عنها وأغلق الباب في وجه نفسه، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٤]. وقال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

المبحث الثالث
الإيمان بصفات الله تعالى(٢٨)

٤٠- معنى الإيمان بصفات الله تعالى:

ومقتضى ذلك الإيمان بصفات الله كما أراد وكما علمنا، وذلك بأن لا يوصف الله تعالى إلا بما وصف به نفسه في كتابه الكريم ووصفه رسوله ﷺ، من غير تشبيه بمخلوقاته ولا تعطيل لصفاته. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فأثبت لنفسه الصفات ونفى مماثلة المخلوقات.

فاستواء الرحمن على العرش، وعلمه، وسمعه، وبصره، وكلامه، وحياته، ويده، ووجهه، وغيرها من الصفات، كل ذلك (معلوم) ذكره القرآن، ولكن (بكيفية) تليق بجلاله ليست مماثلة لمخلوقاته بل هي مخالفة لها وهو ما سماه العلماء (المخالفة للحوادث) أي المخالفة للمخلوقات. فتكون الصفات ثابتة ومعلومة لأن القرآن أثبتها ولأن معانيها معلومة لنا، ويكون الكيف مجهولاً لأن الله سبحانه وتعالى (ليس كمثله شيء)، فيكون له سمع معلوم معناه لنا ونؤمن به ولكن بلا كيف، ويكون له بصر معلوم معناه لنا ونؤمن به ولكن بلا كيف، وبذلك ينتفي التشبيه والتمثيل ولا يحتاج إلى تأويل يفضي إلى تعطيل

---

(٢٨) لسنا نريد بهذا المبحث أن نقدم بحثاً تفصيلياً في الصفات الإلهية كما جاءت في علم أصول الدين أو علم العقائد الإسلامية والذي يسميه البعض بعلم الكلام، وتقسيمات الصفات، وأقوال الفرق المختلفة فيها، والدخول في مناقشات مستفيضة بشأنها كما درسناها لطلبتنا في الجامعات في الدراسات الجامعية الأولية والدراسات العليا، فإن مثل تلك الدراسة المتخصصة تشتت ذهن القارئ ولا تخدم موضوع كتابنا هذا وغرضه. وإنما الذي يخدم ذلك ويحقق الغرض أن يجد المسلم عرضاً للمعاني التي جاء بها القرآن الكريم والسنة الصحيحة بشأن الصفات الإلهية والتي يتحدر منها الإيمان الصافي إلى القلوب وتوصل القلب بالرب عز وجل، وتعريف العبد بربه بقدر ما عرفه الله تعالى وعرفه رسوله ﷺ وبنفس طريقة عرض الصفات في القرآن والسنة مع الإقرار بعدم قدرة العبد على الإحاطة بصفات الرب جل جلاله، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]. والإنسان يعرف طعم البحر إذا ذاق قطرة منه وليس بالضرورة أن يشرب البحر كله ليعرف طعمه، ولصفات الله تعالى المثل الأعلى .

الصفات فيعد تحريفاً لما أثبته الله تعالى لنفسه من الصفات، ويكون (الإيمان بها واجباً) على النحو الذي وردت في القرآن والسنة. وكل ذلك متصف بعظمة في الذات والصفات لا نهاية لها. وذلك هو مذهب السلف الصالح في فهم الصفات الإلهية خلافاً لمن سقطوا في التشبيه والتجسيم أو من سقطوا في التعطيل والتحريف ممن خاضوا في الصفات الإلهية بعقولهم في ميدان لا يملك العقل أدوات البحث فيه ولم يقفوا عند الحد الذي أوقفتهم عنده نصوص الكتاب والسنة .

٤١- الإمام مالك يلخص عقيدة السلف الصالح [٢٩]:

لخص الإمام مالك رحمه الله إمام دار الهجرة عقيدة السلف الصالح عندما سأله رجل عن صفة الاستواء قائلاً: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] (كيف استوى؟ فقال الإمام: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.[٣٠] وما أراك إلا مبتدعاً. ثم أمر به فأخرج من المسجد.

والإمام مالك رحمه الله يوضح في هذه الواقعة منهج السلف الصالح الذي يسمى مذهب أهل السنة والجماعة والذي عليه أئمة المذاهب الأربعة وغيرهم في أربع قواعد:

١- أن معاني صفات الله وأسمائه معلومة، أي معلوم معناها في لغة العرب، والمسلم قادر على فهم معناها ومطالب به، وهذا مستفاد من قوله: (الاستواء معلوم).

٢- كيفية الصفات مجهولة لا يدركها العقل الإنساني، ولذلك كان البحث في ذلك ضلالة وبدعة، وهذا مستفاد من قوله: (الكيف مجهول).

٣- وجوب الإيمان بصفات الله التي أخبرنا الله عنها، أو أخبر عنها الرسول ﷺ لأن عدم الإيمان بها تكذيب لله ورسوله، وهذا مستفاد من قوله: (والإيمان بها واجب).

٤- السؤال عن كيفية صفات الله، والبحث عن هذه الكيفية بدعة وضلالة، وليس من منهج السلف الصالح، وهذا مستفاد من قوله: (والسؤال عنه بدعة).

---

(٢٩) د. عمر الأشقر: نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص٢٢٣.(بتصرف).

(٣٠) ابن تيمية: كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في العقيدة ٣/ ٥٨. والعين والأثر في عقائد أهل الأثر ١/ ١-٩.

٤٢- خلاصة ما يجب أن ينعقد عليه قلب المؤمن في معرفة الصفات:

وخلاصة ما ينعقد عليه قلب المؤمن من المعرفة بالصفات ومطالعة القلب لها وشهوده إياها كما يذكره ابن القيم رحمه الله تعالى مستمداً من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة:

«أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالى مستوياً على عرشه، متكلماً بأمره ونهيه، بصيراً بحركات العالم علويه وسفليه وأشخاصه وذواته، سميعاً لأصواتهم، رقيباً على ضمائرهم وأسرارهم، وأمر الممالك تحت تدبيره نازل من عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك، موصوفاً بصفات الكمال، منعوتاً بنعوت الجلال، منزهاً عن العيوب والنقائص والمثال.

هو كما وصف نفسه في كتابه، وفوق ما يصفه به خلقه، حي لا يموت، قيوم لا ينام، عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، بصير يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، سميع يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات.

تمت كلماته صدقاً وعدلاً، وجلَّت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبهاً ومثلاً، وتعالت ذاته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلاً، ووسعت الخليقة أفعاله عدلاً، وحكمة، ورحمة، وإحساناً، وفضلاً.

له الخلق والأمر، وله النعمة والفضل، وله الملك والحمد، وله الثناء والمجد، أول ليس قبله شيء، وآخر ليس بعده شيء، ظاهر ليس فوقه شيء، باطن ليس دونه شيء، أسماؤه كلها أسماء مدح وحمد وثناء وتمجيد، ولذلك كانت حسنى، وصفاته كلها صفات كمال، ونعوته كلها نعوت جلال، وأفعاله كلها حكمة، ورحمة، ومصلحة، وعدل.

كل شيء من مخلوقاته دال عليه، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه، لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ولا ترك الإنسان سدى عاطلاً، بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته، وأسبغ عليهم نعمه ليتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته.

تعرف إلى عباده بأنواع التعرفات، وصرف لهم الآيات، ونوع لهم الدلالات، ودعاهم إلى محبته من جميع الأبواب، ومد بينه وبينهم من عهده أقوى الأسباب، فأتم

عليهم نعمه السابغة، وأقام عليهم حجته البالغة، أفاض عليهم النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وضمن الكتاب الذي كتبه أن رحمته تغلب غضبه . » [٣١]

وما تقدم يدل على تفرد الله جل جلاله بالربوبية والألوهية والصفات ليس كمثله شيء في ربوبيته وألوهيته وصفاته وهذا هو التوحيد: توحيد الربوبية بتفرده فيها، وتوحيد الألوهية بتفرده فيها، وتوحيد الصفات بتفرده فيها جل جلاله وتباركت أسماؤه وتعالت صفاته، ومن هنا كان من أسمائه الحسنى: العظيم، لأنه العظيم في ربوبيته وألوهيته وصفاته.

٤٣- التعريف بمعنى اسمه (العظيم) المتضمن صفة العظمة:

أعلمنا الله جل جلاله بأنه العظيم، قال جلّ وعلا: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤].

والله هو العظيم لأنه يتصف بصفة العظمة والجلال والكمال والكبرياء، وصفة العظمة لها تعلق بذاته وجميع صفاته، فهو العظيم في كل شيء: عظيم في ذاته، عظيم في أسمائه وصفاته، عظيم في رحمته، عظيم في قدرته، عظيم في جبروته وكبريائه، عظيم في هبته وعطائه، عظيم في علوه ورفعته، عظيم في لطفه وخبرته، عظيم في مغفرته ورأفته وبره، عظيم في إبداعه وإيجاده وخلقه، عظيم في عزته وعدله وثنائه، عظيم في علمه، عظيم في مشيئته، فهو العظيم المطلق المتفرد بالعظمة المطلقة في ذاته وصفاته وأفعاله [٣٢].

٤٤- من تعظيم الله إثبات صفاته من غير تشبيه[٣٣]:

ومن تعظيم الله تعالى في مسألة الصفات الإلهية أمران:

---

(٣١) ابن قيم الجوزيه: مدارج السالكين: ج ١ ص ١٢٤ و ١٢٥، وانظر أيضاً تهذيب مدارج السالكين ج١ صفحة ١٦٢ وما بعدها.

(٣٢) د. عمر الأشقر: أسماء الله الحسنى الهادية إلى الله والمعرفة به ص١٤٦ (بتصرف).

(٣٣) انظر مثل هذا المعنى للدكتور عمر الأشقر: أسماء الله الحسنى الهادية إلى الله والمعرفة به ص١٤٩.

الأول: عدم تشبيهه بخلقه، لأنه - سبحانه - لا شبيه له، ولا مثيل ولا نظير. وقد قدم امتناع المماثلة واستحالتها في الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ليقرر تلك الحقيقة في الذهن ويدفع كل خاطرة ترد إليه في التشبيه والتمثيل.

والثاني: إثبات تلك الصفات كما أثبتها لنفسه وعدم نفي صفاته التي وصف بها نفسه بدعوى أن إثباتها يؤدي إلى تشبيه الله بخلقه.

فالمؤمن الحق: يثبت لله تبارك وتعالى ما أثبته الله لنفسه من عظمته وعلمه وقدرته وسمعه وبصره واستوائه ووجهه وغير ذلك من صفاته، يثبتها نافياً عنها المشابهة بخلقه. مثلما جاء في القرآن الكريم تماماً (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فأثبت لنفسه الصفات بقوله: (وهو السميع البصير) ونفى عنها مماثلة المخلوقات بقوله: (ليس كمثله شيء)، وكل ذلك في ست كلمات هي الروعة في الإيجاز والبلاغة والإعجاز.

فالمؤمن إذ يثبت لله السمع والبصر وغيرها يعلم أنها لا تشابه صفات مخلوقاته وبكيفية تليق بجلاله وعظمته لا نعلمها[٣٤]، وذلك مثلما يثبت له ذاتاً لا تشابه ولا تماثل ذوات المخلوقين، فذاته لا تشابه ذوات المخلوقين وصفاته لا تشابه صفات المخلوقين.

---

(٣٤) وكوننا لا نعلم كيفية سمع الله وكيفية بصره جل جلاله مع إثباتنا لصفة السمع والبصر ويقيننا بأن الله تعالى يسمع ويرى مشمول بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ولا سبيل لعلمنا بكيفيتها إلا من الله، والله تعالى لم يخبرنا بذلك، وهذا يشمل كل الصفات ما ذكرناه وما لم نذكره، فمن تكلف معرفتها عن غير الله فقد أخطأ، وهذا داخل في النهي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].
قال بعض العلماء: «وقد ضل الذين نفوا عن الله صفاته بدعوى أن إثباتها يشبه الله بخلقه، فالله واحد متفرد بصفاته، وصفاته مخالفة لصفات المخلوقين، مثله في ذلك مثل ذاته فهي مخالفة لذوات المخلوقين. والذين نفوا عن الله صفاته، وهؤلاء بنفيهم عن الله صفاته شبهوا الخالق بالعدم، فالذي تنفي عنه الصفات معدوم، ولذلك قال أهل العلم من سلفنا: المشبه يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً، ومرادهم بالمعطل نفاة الصفات» (انظر: د. عمر الأشقر: أسماء الله الحسنى الهادية إلى الله والمعرفة به ص٢٣٠ - بتصرف - والعبارة: المشبه يعبد صنماً... الخ هي للفخر الرازي أشار إليها د. عرفان عبد الحميد: دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص٢٣٢ وما بعدها).

٤٥- الوحي الإلهي أقوم سبيل لمعرفة الله تعالى وصفاته:

«إن السبيل الحق الذي هدانا الله إليه يقوم على الإيمان بالله، ثم نأخذ عن الله الوحي الذي أوحاه إلينا - كتاباً وسنة - فنصدق به، ونتعرف منه على ربنا وصفاته وأسمائه وأفعاله، ونتعرف منه أيضاً على ملائكة ربنا ورسله وأنبيائه وجنته وناره، ونتعرف منه على أنفسنا، والكون من حولنا وما يريده الله منا... فإذا أنت فقهت حديث الله عن نفسه، تكون قد عرفت الله بالله، وكنت على السداد والصواب، وسرت على الصراط المستقيم، وخلصت من الجهل والشرك، وانحزت إلى زمرة أهل الإيمان، وكنت بالله عارفاً، ولدينه متابعاً»[٣٥].

٤٦- طريقة القرآن في التعريف بالله تعالى وصفاته:

وأعظم تعريف بالله تعالى وصفاته هو ما جاء به القرآن العظيم حيث يتحدث الله تعالى عن نفسه وعن صفاته وأفعاله وكيفية وصل القلوب به وعبادته.

ونحن نورد كلام العلامة ابن القيم في ذلك - مشذباً - قال: «تأمل خطاب القرآن تجد: ملكاً له الملك كله، وله الحمد كله، أزمة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومردها إليه، مستوياً على [عرشه][٣٦]، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، عالماً بما في نفوس عبيده، مطلعاً على أسرارهم وعلانيتهم، متفرداً بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي ويقدر، ويقضي ويدبر، الأمور نازلة من عنده دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه.

فتأمل كيف يثني على نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه، فيذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به

---

(٣٥) د. عمر الأشقر: أسماء الله الحسنى الهادية إلى الله والمعرفة به ص١١.

(٣٦) في الأصل (سرير مملكته) فتصرفنا في العبارة بما يطابق اللفظ القرآني في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٩].

تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه» [٣٧].

٤٧- فهم المسلم لمعاني الأسماء الحسنى ومحبته لها ضروري ومفيد له في إحياء قلبه:

ودراسة الأسماء الحسنى ضرورية للمسلم لكي يعرف ربه جل جلاله من خلالها ويتنقل في رياض معانيها فيعيش قلبه في جنة في الدنيا قبل جنة الآخرة.

قال شارح قصيدة العلامة ابن القيم: «فإن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه إذا أراد أن يكرم عبده بمعرفته، ويجمع قلبه على محبته، شرح صدره لقبول صفاته العلى وتلقيها من مشكاة الوحي، فإذا ورد عليه شيء منها قابله بالقبول، وتلقاه بالرضا والتسليم، وأذعن له بالانقياد، فاستنار به قلبه، واتسع له صدره، وامتلأ به سروراً ومحبة، فعلم أنه تعريف من تعريفات الله تعالى تعرف به إليه على لسان رسوله، فأنزل تلك الصفة من قبله منزلة الغذاء أعظم ما كان إليه فاقة، ومنزلة الشفاء أشد ما كان إليه حاجة، فاشتد بها فرحه، وعظم بها غناؤه، وقويت بها معرفته، واطمأنت إليها نفسه، وسكن إليها قلبه، فجال من المعرفة في ميادينها، وأسام عين بصيرته في رياضها وبساتينها، لتيقنه بأن شرف العلم تابع لشرف معلومه، ولا معلوم أعظم وأجل ممن هذه صفته وهو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأن شرفه أيضاً بحسب الحاجة إليه، وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة بارئها وفاطرها، ومحبته وذكره، والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه والزلفى عنده.

ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف، وله أطلب، وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل، وإليه أكره، ومنه أبعد. والله ينزل العبد من نفسه حيث ينزله العبد من نفسه...» [٣٨].

٤٨- صفة العظمة سمة لازمة للذات الإلهية والصفات الإلهية:

وصفة العظمة منسحبة على الذات الإلهية الجامعة لصفاتها فكل صفة من صفاته لها تعلق بالعظمة موصوفة بها، وكذلك أفعاله جل جلاله. فكل صفة من صفاته هي الكمال كله ولذلك كانت له الأسماء الحسنى لا الحسنة.

---

(٣٧) ابن القيم: الفوائد ص٣٦.

(٣٨) أحمد بن إبراهيم بن عيسى: شرح قصيدة ابن القيم ج: ١ ص: ٢٣-٢٤.

٤٩- بيان الصفات الإلهية وعظمتها من خلال القرآن الكريم:

نقدم فيما يلي تعريفاً موجزاً بالصفات الإلهية كما جاءت في القرآن الكريم الذي جلا لنا عظمة صفات الرب جل جلاله:

٥٠- أولاً - فهو العظيم في صفة (الأحد الصمد لم يلد ولم يولد):

وهي ما يسميها العلماء: صفة (القيام بالنفس)، وقيام غيره به، فهو وحده القائم بذاته أزلاً وأبداً، غير محتاج إلى غيره لأنه واجب الوجود لذاته[٣٩]، فهو أحد صمد، لم يلد ولم يولد، هو وحده القائم بالذات، الموجود بوجود أصلي ذاتي أزلاً وأبداً، غني عن غيره، والكون كله موجود بوجود تبعي، تابع لخالقه وموجده، وهو الله تعالى، فالكون مفتقر إليه ودال عليه، مفتقر إليه في: خلقه وإيجاده، وإبقائه، وإفنائه، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ

---

(٣٩) ومعنى أنه واجب الوجود لذاته: أي أن وجوده لازم وثابت وغير مستمد من غيره، أي أنه الثابت الذي لا يقبل الانتفاء والموجود الذي لا يقبل العدم، وقد ذكر القرآن الكريم في معرض البيان أنه ما الذي يمنعهم من عبادة الرب الخالق جل جلاله مع أنهم لا يسعهم إنكاره ومقرين بأنه الخالق، فلا يستطيعون أن يقولوا إنهم خلقوا من غير خالق، ولا يستطيعون أن يقولوا إنهم خلقوا أنفسهم، ولا يستطيعون أن يقولوا إنهم خلقوا السماوات والأرض، وإذا كان الأمر كذلك فما حجتهم في عدم عبادته. والحق أن هذا القول الذي تحداهم أن يقدروا على قوله فأخرسهم يلزم منه ثلاثة مستحيلات في العقل وليس مستحيلاً واحداً، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦] قال القرطبي: « (أم خلقوا من غير شيء) قال ابن عباس: من غير رب خلقهم وقدرهم. (أم هم الخالقون): أي يقولون إنهم خلقوا أنفسهم؟ (أم خلقوا السماوات والأرض؟) أي ليس الأمر كذلك فإنهم لم يخلقوا شيئا» (تفسير القرطبي:١٧/ ٧٤)، وقال ابن كثير: « (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون؟) أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي لا هذا ولا هذا بل الله أوجدهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً... (أم خلقوا السماوات والأرض؟) وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له» (تفسير ابن كثير ٤/ ٢٤٥). وإذا كانت هذه كلها مستحيلات فليستيقنوا بالرب الخالق وليؤمنوا برسوله ووعده ووعيده، وليعبدوه. ولكن (عدم إيقانهم) بالبعث والنشور صارف لهم عن الطاعة والعبادة، قال تعالى في تمام الآية (بل لا يوقنون). قال الطبري (في تفسيره:٢٧/ ٣٣): «أي لا يوقنون بوعيد الله وما أعد لأهل الكفر به من العذاب في الآخرة».

ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦]. وهذا بعض معاني اسمه (الصمد)، قال العلماء في معناه: الصمد: «السيد الذي يصمد إليه في الحوائج، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ، وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: الصمد: السيد الذي قد كمل في سؤدده، قال أبو عبيدة هو السيد الذي ليس فوقه أحد.. يصمد إليه الناس في أمورهم وحوائجهم... وقال الزجاج هو الذي ينتهي إليه السؤدد فقد صمد له كل شيء...، وتأويل صمود كل شيء له: أن في كل شيء أثر صنعه»(٤٠).

٥١- ثانياً - وهو العظيم في صفته (الأول والآخر):

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

وقد جاء ذلك مفسراً في حديث النبي ﷺ الذي رواه مسلم وغيره، قال: حدثني زهير بن حرب حدثنا جرير عن سهيل قال: كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول: «اللهم ربَّ السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربَّنا وربَّ كل شيء، فالق الحب والنوى، ومُنزِلَ التوراةِ والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر» وكان يروي ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ(٤١).

فـ (الأول): في حقه تعالى بمعنى الأزلية فهو أول ليس قبله شيء أي أول بلا ابتداء.

و (الآخر) يدل على صفة البقاء الذي لا نهاية له، فهو آخر بلا انتهاء، كما هو أول بلا ابتداء، فوجوده مستمر أبداً، دائم أبداً، لازم أبداً، لا يحول ولا يزول، واسمه (الباقي) فهو باق بقاء أبدياً ليس بعده شيء، الإنس والجن يموتون والله حي لا يموت، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ

---

(٤٠) زاد المسير ج: ٩، ص: ٢٦٧ -٢٦٨.

(٤١) مسلم (٤٨٨٨). وانظر أيضا: مسند أحمد(٨٨٧٩)، ومسند أبي يعلى ٨/ ٢١٠، وتفسير ابن كثير٤/ ٣٠٣.

إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، جل جلاله وتباركت أسماؤه وتعالت صفاته.

٥٢- ثالثاً - وهو العظيم بأنه (ليس كمثله شيء):

أي عدم مماثلته لمخلوقاته، وهو ما سماه العلماء (المخالفة للحوادث).

والحوادث هي المخلوقات الحادثة بالخلق والإيجاد التي تقبل الوجود والعدم، فالله تعالى مخالف لها جميعاً، ليس مماثلاً لشيء منها. ليس مماثلا لها في قابلية العدم والحدوث، ولا مماثلاً لها في ذواتها، ولا مماثلاً لها في صفاتها، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فأثبت لنفسه الصفات ونفى مماثلة المخلوقات فتكون صفاته ثابتة له ومعلومة لنا، ولكن بالكيفية التي تليق بجلاله - من غير تشبيه ولا تمثيل بمخلوقاته.

جاء في شرح العقيدة الطحاوية: «فمن كلام أبي حنيفة رحمه الله في الفقه الأكبر: لا يشبه شيئاً من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه، ثم قال بعد ذلك: وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا»(٤٢)، فالرب الخالق تعالى متفرد بصفات الكمال متفرد بأنه منزه عن صفات النقص جل جلاله.

٥٣- رابعاً - وهو العظيم في صفتي الحياة والقيومية (الحي القيوم):

حياة دائمة أزلاً وأبداً من غير بداية ولا نهاية، ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥]، وهو القيوم القائم بذاته، المقيم لغيره والقائم عليه، فهو ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وهو في قيوميته لا تأخذه سنة ولا نوم ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١].

جاء في شرح العقيدة الطحاوية: «قوله: (حي لا يموت قيوم لا ينام): قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فنفي السِّنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته. وقال تعالى: ﴿الٓمٓ (١) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ

---

(٤٢) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٢٠.

﴿ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ١-٣]. وقال تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]. وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥]. وقال ﷺ: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام)[٤٣] الحديث...

واعلم أن هذين الاسمين، أعني: الحي القيوم مذكوران في القرآن الكريم معاً في ثلاث سور كما تقدم، وهما من أعظم أسماء الله الحسنى، حتى قيل: إنهما الاسم الأعظم، فإنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال أكمل تضمن وأصدقه، ويدل القيوم على معنى الأزلية والأبدية ما لا يدل عليه لفظ (القديم). ويدل أيضاً على كونه موجوداً بنفسه، وهو معنى كونه واجب الوجود. والقيوم أبلغ من (القيام) لأن الواو أقوى من الألف، ويفيد قيامه بنفسه باتفاق المفسرين وأهل اللغة، وهو معلوم بالضرورة. وهل تفيد إقامته لغيره وقيامه عليه؟ فيه قولان: أصحهما: أنه يفيد ذلك. وهو يفيد دوام قيامه وكل قيامه، لما فيه من المبالغة، فهو سبحانه لا يزول ولا يأفل... واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال، ويدل على دوامها وبقائها، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلاً وأبداً. ولهذا كان قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: (أعظم آية في القرآن)[٤٤] كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ.

فعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليهما ترجع معانيها. فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، فلا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة. وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه. المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته. فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال أتم انتظام»[٤٥].

---

(٤٣) رواه مسلم (٢٦٤)، وابن ماجة (١٩١) و(١٩٢).

(٤٤) مسلم (١٣٤٣)، وسنن أبي داود (٣٤٨٩)، وأحمد (١٩٦٧٩)، والدارمي(٣٢٤٦).

(٤٥) شرح العقيدة الطحاوية ١٢٣-١٢٥.

٥٤- خامساً - وهو العظيم في صفة العلم:

فهو: العالم، والعليم، والعلام، والثلاثة من أسمائه الحسنى.

قال تعالى في وصف نفسه بالعالم والعليم: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، وقال: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٦]. وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤].

وقال في وصف نفسه بالعلام: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [سبأ: ٤٨].

٥٥- تقسيم البحث في صفة علم الله تعالى:

ونبين فيما يلي بإيجاز ثلاثة أمور: **الأول**: إحاطة علم الله تعالى بكل شيء. **والثاني**: أن المعرفة بسعة علم الله مطلوبة شرعاً. **والثالث**: القاعدة الجامعة في صفة علم الله تعالى، وذلك في ثلاث فقرات:

٥٦- الفقرة الأولى - إحاطة علم الله تعالى بكل شيء ظاهراً وباطناً:

ذكر القرآن الكريم سعة علم الله جل جلاله بنصوص عامة تبين أن علمه تبارك وتعالى شامل لكل شيء كقوله تعالى: ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]، وقوله جل ثناؤه: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦] وأمثال هذا في القرآن كثير.

٥٧- أغراض القرآن في بيان صفة علم الله على وجه التفصيل:

لكن القرآن الكريم لم يكتف بهذا البيان وإنما أورد مظاهر سعة علمه تبارك وتعالى في آيات كثيرة على وجه التفصيل والبيان الموسع ليحقق أغراضاً عدة منها غرضان إيمانيان كبيران:

الأول: لكي يحصل للمؤمن فهم عميق راسخ بأنه في قبضة علم الله تعالى، وتتشبع نفسه بهذا الفهم، فيعلم أن الله محيط به، ظاهراً وباطناً، ما يسر وما يعلن، خلجات قلبه

وأفكار عقله، ماضيه وحاضره ومستقبله، جسده وروحه، دنياه وآخرته، وأن علم الله محيط به في كل أحواله وأينما كان، وأن الله من فوقه حاضر عالم بحركاته وسكناته، فيعلم الإنسان أنه يتعامل مع من لا يجهل، وأنه في قبضة علم من لا يغفل، فيلتزم الصراط المستقيم طمعاً في رضوان الله تعالى وخوفاً من عقابه.

والثاني: لكي يتعرف من خلال كلام الله تعالى عن بعض الأمثلة عظمته تعالى وعظمة علمه بما يجعل المسلم يردد مبهوراً سبحان الله سبحان الله عند كل مظهر من مظاهر علم الله يذكره جل جلاله مما سنذكر أمثلة له بعد قليل فينشأ في قلبه التعظيم الدائم لرب العالمين، ولا خير في عبد لا يحس بعظمة الله تملأ قبله. وإنما يحصل له ذلك بمعرفة الصفات الإلهية ومنها صفة العلم.

٥٨- مظاهر سعة علم الله وإحاطته بكل شيء:

٥٩- أ- علم الله تعالى في كل مكان:

قال تعالى في ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧] قال العلماء[٤٦]: هو فوق سماواته وعلمه في كل مكان بدلالة أول الآية وآخرها، قال القرطبي: «معنى ذلك: أن الله معهم بعلمه حيث كانوا من غير زوال ولا انتقال»[٤٧]، وقال ابن كثير: «... حكى غير واحد على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى، ولا شك في إرادة ذلك... وقال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم»[٤٨].

---

(٤٦) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٣٧٨ حيث قال عن الآية: «...فافتتحها بالعلم وختمها بالعلم فعلم أنه أراد عالم بهم لا يخفى عليه منهم خافية، وهكذا فسرها السلف الإمام أحمد ومن قبله من العلماء كابن عباس والضحاك وسفيان الثوري وفي سورة الحديد قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] فختمها أيضاً بالعلم وأخبر أنه مع استوائه على العرش يعلم هذا كله».

(٤٧) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٩٠.

(٤٨) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٢٣.

٦٠- ب - مفاتح الغيب كلها بيده وكل حركة أو سكون في الكون معلوم له:

فالغيب معلوم لعلام الغيوب، وكل غائبة في السماوات والأرض معلومة له، وما تسقط من ورقة من أشجار الدنيا كلها، أو حبة تندثر في الرمال، أو نبتة رطبة تشق الأرض، أو نبتة تيبس وتموت إلا وهي معلومة لله ومحصية في كتاب مبين: قال تعالى في سورة الأنعام - التي أدعو القارئ الكريم أن ينتبه لها ويوليها عناية خاصة [٤٩] - قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

جاء في تفسير «في ظلال القرآن» بشأن تفسير هذه الآية:

---

(٤٩) بمناسبة ذكر الآية من سورة الأنعام فإنني ألفت الأنظار وأدعو جميع المؤمنين والمؤمنات والدعاة، والمسلمين عامة، إلى دراسة سورة الأنعام دراسة فاحصة في تفسير «في ظلال القرآن» خاصة، من جهة، وتفسير ابن كثير أو القرطبي أو غيرهما، من جهة أخرى، فإن ذلك نافع جداً للترقي في مدارج الإيمان وللاستفادة العلمية المتميزة، ويكفي أن نقول في هذه العجالة إن السورة ومع أنها من الطوال فقد نزلت جملة واحدة ونزل معها سبعون ألف ملك سدوا الخافقين لهم زجل بالتسبيح، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : (نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والأرض بهم ترتج) ورسول الله يقول: سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم، وعن ابن عباس قال: (نزلت الأنعام بمكة ليلاً، جملة واحدة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون إلى الله بالتسبيح. (الظلال: ص١٠٢٢، وانظر: القرطبي: ٦/ ٣٨٢، وابن كثير:٢/ ١٢٣ ومن كتب الحديث: السنن الصغرى ١/ ٥٥١، ومجمع الزوائد ٧/ ٢٠، والمعجم الأوسط ٦/ ٢٩٢، والمعجم الصغير ١/ ١٤٥، وشعب الإيمان٢/ ٤٧٠).
وصاحب الظلال لم يستطع أن يتابع تفسيرها إلا مبهوراً، قال : «... وهذه السورة - مع ذلك - تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة.. إنها في كل لمحة منها وفي كل موقف، وفي كل مشهد، تمثل «الروعة الباهرة».. الروعة التي تبده النفس، وتشده الحس، وتبهر النفس أيضاً؛ وهو يلاحق مشاهدها وإيقاعها وموحياتها مبهوراً! نعم! هذه حقيقة! حقيقة أجدها في نفسي وحسي وأنا أتابع سياق السورة ومشاهدها وإيقاعاتها.. وما أظن بشراً ذا قلب لا يجد منها لوناً من هذا الذي أجد.. إن الروعة فيها تبلغ فعلاً حد البهر، حتى لا يملك القلب أن يتابعها إلا مبهوراً مبدوها ! ». (سيد قطب: في ظلال القرآن: ص١٠١٥ وما بعدها).

«...إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط؛ الذي لا يند عنه شيء في الزمان ولا في المكان، في الأرض ولا في السماء، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طباق الجو، من حي وميت ويابس ورطب...

إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب وعالم الشهود، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح، ووراء حدود هذا الكون المشهود.. وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فج وواد. وهو يرتاد - أو يحاول أن يرتاد - أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل، البعيدة الآماد والآفاق والأغوار.. مفاتحها كلها عند الله، لا يعلمها إلا هو، ويجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله. ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض، لا يحصيها عد، وعين الله على كل ورقة تسقط، هنا وهنا وهناك. ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله. ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط.

إنها جولة تدير الرؤوس، وتذهل العقول. جولة في آماد من الزمان، وآفاق من المكان، وأغوار من المنظور والمحجوب، والمعلوم والمجهول.. جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف، يعيا بتصور آمادها الخيال.. وهي ترسم هكذا دقيقة كاملة شاملة في بضع كلمات.. ألا إنه الإعجاز !»[٥٠].

قلت: إنه العلم الشامل الكامل التام المحيط بخلقه متضمناً عوالم الغيب والشهادة محصياً إحصاء شاملاً لكل ما في ملكه في الأكوان بما فيها ما لا يحصى من أوراق شجر الأرض التي تسقط ولا تهم أحداً، وذرات الرمال في الصحارى، وقطرات المياه في البحار والمحيطات، ونظرات العيون، وهمسات الشفاه، وخلجات القلوب، والسر الحاضر المكنون في القلب، والسر الذي لم يحضر في القلب بعد، فتبارك الله رب العالمين ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [السجدة: ٦].

---

(٥٠) سيد قطب: في ظلال القرآن ص١١١١ وما بعدها (مختصراً مع المحافظة على عبارته).

والقاعدة الجامعة في ذلك أن السموات والأرض وموجوداتها كلها مخلوقة له فهي معلومة له على ما خلقها وقدرها ظاهراً وباطناً، معلومة قبل خلقها، ومعلومة بعد خلقها، بعلم واحد، لا يجِدُّ له علم جديد بعد خلقها. قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وقال تعالى في سعة علمه وإحاطته بكل شيء: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]. ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨]، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال حكاية عن قول ملائكة عرش الرحمن: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

إن ورقة ساقطة في الخريف في حديقة بيتكم وهي واحدة من مليارات أوراق الشجر التي تسقط في غابات الدنيا كلها هي في الحقيقة لا تثير ذرة من اهتمامك لكي تعلمها ولا يهم أحداً من الناس أن يعلمها فقد سقطت وذهبت، لكن مالك السماوات والأرض يعلمها لأنه صاحب الملك وهي في ملكه، وهو عالم الغيب والشهادة، وليس فقط يعلمها وإنما هي في كتاب مبين، فإذا كان الأمر هكذا بشأن ورقة ساقطة من شجرة، أو حبة لا قيمة لها مخبوءة في ظلمات الأرض، فما الظن بعلمه بأعمال بني آدم الذين من أجلهم كان خلق السماوات والأرض بالحق، وهم موضوع الامتحان في الحياة الدنيا!!؟.

٦١- ج - السر والعلن أمام علمه مكشوف:

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣]، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩]، وقال: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧]. وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء:١١٠]، وقال

حكاية عن خليله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨]، وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤]، وقال: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]، وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

٦٢- د - وحديث النفس مكشوف لعلمه وخائنة الأعين معلومة له:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] وقال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، قال القرطبي: «قوله تعالى: (يعلم خائنة الأعين): فيه تقديم وتأخير أي: يعلم الأعين الخائنة... وقال مجاهد: هي مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه...»[٥١].

٦٣- هـ - والأخفى من السر معلوم له:

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، والسر هو النية المكنونة في القلب، والأخفى منه نية لم تحصل في قلبك بعد، وستحصل بعد خمسين سنة مثلاً من الآن، وهي الآن أمام علم الله معلومة مثل كتاب مفتوح. قال ابن كثير: «عن ابن عباس: (يعلم السر وأخفى): قال: (السر): ما أسره ابن آدم في نفسه، (وأخفى): ما أخفي على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة وهو قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال الضحاك: (يعلم السر وأخفى) قال: السر ما تحدث به نفسك، وأخفى ما لم تحدث به نفسك بعد. وقال سعيد بن جبير: أنت تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غداً، والله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غداً»[٥٢].

---

(٥١) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٠٣.

(٥٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١٤٤.

٦٤- و- وماضينا وحاضرنا ومستقبلنا معلوم له:

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

٦٥- ز- وهو أعلم بنا ونحن أجنة في بطون أمهاتنا:

قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢]. معلوم له: أرزاقنا وأعمالنا وآجالنا ومصيرنا، فليسأل العبد ربه العمل الصالح وحسن الختام.

٦٦- ح - وهو شهيد على كل أعمال العباد وأقوالهم:

لا يفلت من علمه شيء، وهو العالم بالكون كله من حولهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

٦٧- ط- وما لا يحصره عد من دواب الأرض كلها لا يخفى على علم الله منها شيء:

قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

٦٨-ي- وما يجول في خواطر الحيوان الأعجم وما ينطق وما يفعل مكشوف لعلم الله:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١]، وقال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨].

وأورد ابن كثير في تفسيره: «عن أبي ذر قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ انتطحت عنزان فقال رسول الله ﷺ: أتدرون فيم انتطحتا؟ قالوا: لا ندري، قال: لكن الله يدري، وسيقضي بينهما»[53].

٦٩-ك- وكل أنثى من الحيوان والنبات في البر والبحر لا تحمل أو تضع إلا بعلمه:

قال تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١]. وقال: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٨-٩].

٧٠- ل- وعلم الغيب مختص به وحده إلا من ارتضى من رسول:

قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٦-٢٨]، وقال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

٧١- م - وعلم الساعة عنده وحده:

قال تعالى: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧]، وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

٧٢- ن- وعلمه لا ينفد فلا نهاية له:

فقد ضرب مثلاً لسعة علمه الذي لا ينفد ولا نهاية له فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. جاء في تفسير ابن كثير: «يقول تعالى: قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالات لنفد البحر قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ولو جئنا بمثله

(٥٣) تفسير ابن كثير ٢/ ١٣٢.

أي بمثل البحر آخر ثم آخر وهلم جراً، بحور تمده ويكتب بها لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧]... يقول لو كانت تلك البحور مداد لكلمات الله والشجر كله أقلام لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول»(٥٤).

وجاء في تفسير روح المعاني: «والتقدير: ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله تعالى ما نفدت لعدم تناهيها ونفدت تلك الأقلام والمداد لتناهيها... والمراد بكلماته تعالى كلمات علمه سبحانه وحكمته جل شأنه» (٥٥).

٧٣- الفقرة الثانية - معرفة سعة علم الله وإحاطته بكل شيء مطلوبة شرعاً:

١- فالله تعالى يريد منا أن نعلم أنه جل جلاله على كل شيء قدير وأنه قد أحاط بكل شيء علماً ولا نعذر بالجهل بذلك قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق:١٢]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٧].

٢- وطلب منا على سبيل الأمر المفضي إلى الوجوب أن نعلم أن سرنا وداخلنا مكشوف لعلمه فقال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

٣- وصفة علم الله جل جلاله وبهذه العظمة مطلوب فهمها وتلقينها، فهذا لقمان عليه السلام يلقنها لابنه: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦].

---

(٥٤) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٩.

(٥٥) تفسير روح المعاني ٢١/ ١٠٠.

٧٤- الفقرة الثالثة - القاعدة الجامعة في صفة العلم الإلهية:

والقاعدة الجامعة في ذلك يمكن إجمالها فيما يأتي:

١- أن الوجود كله من خلقه سبحانه، خلقه بعلمه ومشيئته وقدرته وحكمته، وما كان مخلوقاً لله من عوالم الغيب والشهادة كان معلوماً له ظاهراً وباطناً لا يخفى عليه منه شيء لأنه خالقه وخالق خصائصه وخالق ما يحصل له حال وجوده وبقائه وحال موته وفنائه، صَوَّر السماوات والأرض وما بينهما وأبدعها على غير مثال سابق، وكل ذلك معلوم لله بصفة العلم التي بها وبالقدرة والمشيئة والحكمة خلق كل شيء فقدره تقديراً. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٤]، وقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

٢- وما خلقه، وكل ما يحدثه في مخلوقاته من أحوال معلوم له بعلمه الأزلي فلا يتجدد له علم بعد الخلق لم يكن عنده قبل الخلق، فعلم الله كامل أزلاً لا يتغير، إذ علمه تعالى صفة أزلية في الذات الإلهية الأزلية فهو لا يقاس بالعلم الحادث، فهو تعالى يعلم الأشياء قبل وجودها على الحالة التي ستوجد عليها.

وقد عبر العلماء عن إحاطة علم الله تعالى بكل شيء: أنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون»[٥٦].

وقد صاغ ابن القيم ذلك شعراً بمناسبة بيان معنى اسمه تعالى: (العليم) فقال[٥٧]:

وهو العليم أحاط علماً بالذي ... في الكون من سِرٍّ ومن إعلانِ

وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نِسيانِ

وكذاك يعلم ما يكون غداً وما ... قد كان والموجود في ذا الآنِ

وكذاك أمر لم يكن لو كان كيـ ... ـف يكون ذاك الأمر ذا إمكانِ

---

(٥٦) ابن تيمية: كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في العقيدة: ٨/ ٢٨٦، وشرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٥٢، ومعارج القبول ١/ ٤٧.

(٥٧) أحمد بن إبراهيم بن عيسى: شرح قصيدة ابن القيم ٢/ ٢١٥.

٧٥- سادساً - وهو العظيم في صفة القدرة:

فقد وصف نفسه جل جلاله بالقادر والقدير والمقتدر، والثلاثة من أسمائه الحسنى.

فقال تعالى في وصف نفسه بالقادر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ [الأنعام: ٣٧] وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وقال سبحانه في وصف نفسه بالقدير: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٦]، وقال: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢].

وقال سبحانه في وصف نفسه بالمقتدر: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

«والأسماء الثلاثة: القادر، والقدير، والمقتدر: من القدرة وهي القوة، فالقادر هو القوي الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضيه الحكمة، لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه»[٥٨].

ومن قدرته جل جلاله إيجاد الأشياء من العدم إلى الوجود أي خلقها، وإعدامها بقدرته متى شاء.

٧٦- يخلق بلا مشقة أو معالجة بل بالأمر فيكون ما يريد كلمح البصر:

يخلق بلا مشقة أو تعب فلا يعيا بما خلق، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، أي لم يتعب بخلقهن، وقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أي تعب، فإنه سبحانه يخلق بلا معالجة[٥٩]، لأنه يخلق بالأمر والقول، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]،

---

(٥٨) د. عمر الأشقر: أسماء الله الحسنى الهادية إلى الله والمعرفة به ص٢٣٧.

(٥٩) تفسير أبي السعود ٨/ ١٧٥، وتفسير البيضاوي٥/ ٢٧٠، وتفسير روح المعاني ٢٧/ ٩٤.

وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، قال العلماء: معنى ذلك: أنه بمجرد أن تتجه إرادة الله لشيء فهو كائن حالاً من غير تأخير[٦٠]. وقال بعضهم: يكون بأمر واحد لا يتكرر فإذا هو كائن كلمح بالبصر، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠][٦١] فيكون ما يريد كطرف العين[٦٢].

٧٧- خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس:

خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة فإذا هو مجموعة من ملايين المعجزات سمعاً وبصراً وإدراكاً، وفي كل خلية فيه معجزة، ولكن الرب جل جلاله يعرفنا أن خلقه للسماوات والأرض أعظم من ذلك، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

وقدرته لا يحدها حد ولا تعجز عن شيء قط، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

وكثيراً ما يجيء في القرآن تعريفنا بعجائب قدرته جل جلاله مبتدئاً ذلك بقوله: (ومن آياته) أي: الدالة على عظمة صفاته ومنها قدرته، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: ٣٧]، أو قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]. أو يذكر عجائب قدرته وما خلق في السماوات والأرض ثم يقول: (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) أي: دلائل على عظيم صفاته ومنها قدرته كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى

---

(٦٠) تفسير أبي السعود ٧/ ٢٨٣.

(٦١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٦٥ و١/ ١٦٢.

(٦٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٨٠.

﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] وغير ذلك من الأساليب التي يحث الخلق فيها على التفكر والتعرف على عظيم قدرة الله تعالى فيما خلق وقدر.

وتأمل في وصفه لقدرته جل جلاله وهو يدل العباد على عظمة ملكه الذي خلقه وأبدعه بديع السماوات والأرض قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ (٢) ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١-٥].

٧٨- الله تعالى أمر عباده: أن يعلموا قدرته ولا يجهلوها:

فبين لعباده أنه خلق السماوات والأرض بقدرته وعلمه وأنه يريد منهم أن يعلموا قدرته وعلمه ولا يجهلوا ذلك، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢] .

وأن غير الله لا يملك شيئاً من خلق العالم وتدبيره لا ذرة ولا قطمير[٦٣]: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ

(٦٣) القطمير: قال ابن عباس: هو القشر الذي يكون على ظهر النواة: انظر تفسير زاد المسير: ٦/ ٤٨١. وجاء في التبيان في تفسير غريب القرآن ١/ ٣٤٦: قطمير: هو لفافة النواة. وجاء في روح المعاني ج: ٢٢ ص: ١٨٢: «والقطمير على ما أخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد: لفافة النواة وهي القشر الأبيض الرقيق الذي يكون بين التمر والنواة وهو المعنى المشهور. وأخرج ابن جرير وابن المنذر أنه القمع الذي هو على رأس التمرة. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة: أنه القشرة على رأس النواة وهو ما بين القمع والنواة وقال الراغب: إنه الأثر على ظهر النواة».

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، ومختبرات العالم كلها لا تقدر أن تخلق ذرة من ذرات المادة من العدم إلى الوجود، أو تخلق خلية حية من العدم إلى الوجود !!.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ﴾ [النحل: ١٧]، وقوله: ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ﴾ [الحج: ٧٣]، وقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، فسبحان الخالق العظيم ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

٧٩- ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً:

وقرر القرآن أن عِظَم الدلائل على عجيب قدرة الله فيما خلق في السماوات والأرض واضحة وداعية إلى الإيمان بالله وتعظيمه، وإنها من الوضوح بدرجة أن من لا يشاهدها ليس إلا أعمى عنها، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

تلك لمحة قرآنية عن عظمة صفة القدرة الإلهية، وفي القرآن الكريم مثل هذا كثير.

٨٠- ربنا جل جلاله يري إبراهيم كيف يحيي الموتى:

ولما أراد الخليل أن يفرح ويأنس برؤية قدرة محبوبه كيف تعمل لحظة عملها في إحياء الموتى فيفرح برؤية قدرة ربه تعمل أمام عينيه ويزيد علماً بأنه المحبوب عند الله حين يجيب طلبه ودعاءه فيزداد قلبه محبة لربه وطمأنينة إليه، سأل ربه ذلك فأجابه إلى طلبه وقال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

قال ابن كثير نقلاً عن السلف: «أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل: أربعة أجبل، وقيل: سبعة، قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير

إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم ﷺ، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته، ولهذا قال: (واعلم أن الله عزيز حكيم) أي عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع عليه شيء وما شاء كان بلا ممانع لأنه القاهر لكل شيء حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره»[٦٤].

٨١- حرص النبي ﷺ على أن يتذوق الصحابة بعض معنى القدرة في إحياء الموتى:

ولما أراد المصطفى ﷺ أن يجعل الصحابة يتذوقون بعض معنى قدرة الله ذكر لهم إحياء الله تعالى للذي أسرف على نفسه، ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك، فغفر له، وقال غيره: مخافتك يا رب) [٦٥].

٨٢- التفكر يجلب الانبهار والتعظيم والتسبيح:

إن هذه الصور من القدرة الإلهية في إحياء الموتى هي صور مدهشة ومذهلة للعقل البشري، ومع ذلك فالقرآن يعلمنا: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]. ولكن رؤية السماوات والأرض والشمس والقمر يومياً ومنذ الصغر تجعلها مألوفة عند الناس مع أنها معجزات هائلة ومذهلة للعقل البشري فينتج عن إلفتها بلادة في العقل، ويمكن تسمية ذلك ببلادة الإلفة، حيث يتبلد العقل عن عظمتها وهولها ولذلك أمر القرآن بالتفكر لإخراج العقل من بلادة الإلفة فقال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] فتحضر في عقولهم

---

(٦٤) تفسير ابن كثير ١/ ٣١٦، وتفسير القرطبي ٣/ ٣٠١، وتفسير أبي السعود١/ ٢٥٦، وتفسير فتح القدير ١/ ٢٨٢، وروح المعاني ٣/ ٢٩.

(٦٥) متفق عليه: البخاري (٣٢٢٢)، واللفظ له، ومسلم (٤٩٠٠) .

وقلوبهم عظمة الرب الخالق جل جلاله فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

٨٣- سابعاً: وهو العظيم في صفة السمع وصفة البصر:

فهو السميع وهو البصير، وكلاهما من أسمائه الحسنى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: ٢٦]. قال ابن كثير: «وقوله: (أبصر به وأسمع) أي: إنه لبصير بهم سميع لهم، قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شي»[٦٦].

وطمأن الله تعالى موسى وأخاه حين أمرهما بالذهاب إلى فرعون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

٨٤- ١- معنى السمع والبصر في حق الله تعالى:

السمع: صفة أزلية شأنها إدراك كل مسموع، وإن خفي[٦٧]. فهي صفة قائمة بذاته تنكشف بها المسموعات فلا يعزب عن سمعه شيء مهما كان خفياً ولا يحجب سمعه بعد أو غيره.

والبصر: صفة أزلية شأنها إدراك كل مبصر وإن لطف[٦٨]. فهي صفة قائمة بذاته تنكشف بها المرئيات فلا يغيب عن بصره مرئي وإن دق ولا يحجب رؤيته ظلام أو كثافة أو غيرهما.

---

(٦٦) تفسير ابن كثير ج: ٣ ص: ٨١.

(٦٧) المسامرة ص٦٨، وانظر الباجوري على الجوهرة ١/ ٦٦.

(٦٨) المسامرة ص ٦٨ وانظر الباجوري على الجوهرة ١/ ٦٧.

وقريب من هذا تعريف البيهقي، قال: السميع: من له سمع يدرك به المسموعات والسمع له صفة قائمة بذاته، والبصير: من له بصر يدرك به المرئيات والبصر له صفة قائمة بذاته[69]. قلت: وكل ذلك بلا تكييف ولا مماثلة لمخلوقاته.

٨٥-٢- عظم سمع الله تعالى وبصره:

والسميع والبصير صيغتا مبالغة تدلان على عظيم سمعه وعظيم بصره، ومعظم ما جاء في القرآن العظيم من سمع الله وبصره جاء بصيغة المبالغة نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وقد جاء ذلك بصيغة أخرى للمبالغة نحو قوله تعالى: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: ٢٦]، جاء في تفسير أبي السعود بشأن الآية : «(أبصر به وأسمع): دل بصيغة التعجب على أن شأن علمه سبحانه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين، لا يحجبه شيء ولا يحول دونه حائل، ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيف والكثيف والصغير والكبير والخفي والجلي»[70].

فهو العظيم في سمعه وبصره: فسماواته وأرضه ومخلوقاته تحت سمعه وبصره، فبصره نافذ في جميع مخلوقاته لا يغيب عن بصره منهم شيء مهما لطف، كلها مبصرة له، ويسمع كل مسموع في سماواته وأرضه مهما دق لا يغيب عن سمعه شيء.

٨٦-٣- لا يشغله سمع عن سمع ولا رؤية عن رؤية :

فالله تعالى يبصر كل موجودات الكون في اللحظة الواحدة من نملة في الأرض أو كف مرفوعة إليه بالدعاء أو دمعة في عين عابد أو رملة تحركت في صحراء، إلى مجرة في السماء وإلى السماوات كلها، غير محجوب عن بصره شيء من موجودات الكون كله، وذلك معنى قولنا لا يشغله رؤية عن رؤية. وبصره نافذ في كل مخلوقاته ظاهرها وباطنها، فباطن الأرض وباطن الذرة وباطن الخلية.. باطن الجماد والنبات والحيوان كله مشكوف لبصره لا يحجب بصره شيء .

---

(٦٩) الاعتقاد:٥٨.

(٧٠) تفسير أبي السعود ج: ٥ ص: ٢١٨.

كما أنه جل جلاله يسمع في اللحظة الواحدة كل المسموعات مهما دقت. فيسمع في اللحظة الواحدة همسة عابد وزقزقة عصفور في الأرض وصوت رملة سقطت على أخرى، وتسبيح ملائكة السماء وأصوات أجرام السماوات لا يشغله في ذلك كله سمع عن سمع. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «... وأنه سميع بصير لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، يبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء»[(٧١)]. فلا يحجب بصره ظلمات الأرض أو ظلمات البحر أو ظلمات بواطن الأشياء.

٨٧-٤- أمثلة من القرآن تبين سمع الله لما يجري:

ولما جاءت خولة بنت ثعلبة تشكو زوجها أوس بن الصامت الذي قال لها: أنت علي كظهر أمي، إلى رسول الله ﷺ، فما إن أكملت كلامها حتى نزل جبريل يخبر النبي ﷺ بأن الله سمع قولها فأنزل فيها وفي زوجها قرآناً.

قالت عائشة: «تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله: أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]»[(٧٢)] وتمام الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. ذلك أن النبي ﷺ حاورها، قالت خولة: «(فجعل النبي يقول: يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه، قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ القرآن فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سري عنه فقال لي: يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، وقرأ: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم

---

(٧١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى: ٢/ ٣٩٩.

(٧٢) ابن ماجة (٢٠٥٣) واللفظ له، والحديث في البخاري مختصراً قال: باب قول الله تعالى: (وكان الله سميعاً بصيراً) وقال الأعمش عن تميم عن عروة عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات فأنزل الله تعالى على النبي ﷺ: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها). وأخرجه النسائي (٣٤٠٦)، وأبو داود (١٨٩٣)، وأحمد (٢٣٠٦٤) و(٢٦٠٥٦).

مِن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ١-٤] »[٧٣].

ولما كلف الله تعالى موسى ﷺ بالذهاب إلى فرعون لدعوته وجعل معه أخاه هارون وزيراً ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٥-٤٦].

وقد أعلمنا الله تعالى سمعه لافتراء الكافرين عليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وسيجزيهم يوم القيامة كما قال تعالى في تتمة الآية: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران:١٨١].

٨٨-٥- ثمرة معرفة العبد بأنه تحت سمع الله وبصره:

وإذا عرف العبد أنه تحت سمع الله وبصره راقب أقواله وأعماله واستقام على الصراط المستقيم فيكف حصاد اللسان الذي يكب الناس على وجوههم في نار جهنم فيراقب كل كلمة وكل همسة وينظر فيها قبل أن ينطق بها: هل تنفعه في الآخرة فيتكلم بها أم تضره فيكف لسانه عنها. ويراقب أفعاله مراقبة من يعلم أن الله ينظر إليه فهو من فوقه حاضر ناظر سامع، يراه في كل حركاته وسكناته، يراه وهو يفعل الطاعات كما قال تعالى والخطاب للنبي ومن ورائه أمته: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩]، ويرى العاصين لحظة تحركهم لاقتراف حرام والعياذ بالله، والظن بالمؤمن أن يتوقف وينزجر فلا يجرأ على المعصية ما دام الله تعالى ينظر إليه. فإذا أضفت إلى هذا ما وضحناه في الفقرة السابقة المتعلقة بعلم الله تعالى أحسست أنك في كل لحظة تحت

(٧٣) أخرجه البخاري (٢)، والنسائي (٣٤٠٦)، وأبو داود (١٨٩٣)، وأحمد (٢٦٠٥٦).

علم الله وسمعه وبصره، وكل ذلك من أعظم الضمانات التي تعين المؤمن في إلزام نفسه الصراط المستقيم والترقي في مدارج الإيمان ابتغاء رضوان الله والفوز بجنات النعيم.

إن من أعظم النعم أن يجعلك الله تعالى تتعامل مع علمه وسمعه وبصره فلا تغفل عنها فعندما يشهد القلب ويطالع هذه الصفات الإلهية ويرى كيف هي محيطة به ويحس أن الله تعالى من فوقه حاضر ناظر سامع شهيد فعندئذ يتحقق له ما قاله النبي ﷺ: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)(٧٤) وتلك هي مرتبة الإحسان، ولا يتحقق ذلك إلا بالتعامل مع هذه الصفات الإلهية وعلم الفكر بها وشهود القلب ومطالعته لها فعندئذ يسجد القلب لعظمة الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم الأحد الصمد العليم السميع البصير سجدة لا يقوم منها إلى يوم يلقاه. فندعو الله تعالى أن يكون لي ولك نصيب من هذا بمنه وكرمه وفضله وإحسانه ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

٨٩- ثامناً - وهو العظيم في صفة الإرادة:

٩٠-١- إرادته نافذة في سماواته وأرضه وما بينهما وفي كل شيء:

فما ظنك في عظمة إرادته المطلقة النافذة في سماواته وأرضه وما بينهما وفي كل شيء، لا يقف شيء أمام إرادته ومشيئته التي قال في وصفها: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٥-١٦]، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وقال: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]: وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

٩١-٢- إرادته نافذة حالاً من غير تأخير:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، قال العلماء:

---

(٧٤) متفق عليه: البخاري(٤٨) و(٤٤٠٤)، ومسلم (٩).

معنى ذلك أنه: بمجرد أن تتجه إرادة الله لشيء فهو كائن حالاً من غير تأخير[٧٥]. وقال بعضهم: يكون بأمر واحد لا يتكرر فإذا هو كائن كلمح بالبصر، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠][٧٦] فيكون ما يريد كطرف العين[٧٧].

٩٢-٣- إرادته مطلقة لا يحول دونها شيء وتجري وفق حكمته وعدله:

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٢-١٣٣] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠]، ولكنه تعالى إنما يعاملنا برحمته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

٩٣-٤- التمييز بين إرادته الكونية القدرية، وإرادته التشريعية بالأمر والنهي:

«والمحققون من أهل السنة يقولون: الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة كونية قدرية خلقية، وإرادة دينية أمرية شرعية.

فالإرادة الشرعية: هي المتضمنة للمحبة والرضا [أي ما يريده الله لأنه يحبه ويرضاه].

والكونية: هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات.

فهذه [أي: الكونية القدرية] كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾

(٧٥) تفسير أبي السعود ٧/ ٢٨٣.
(٧٦) تفسير ابن كثير ١/ ٣٦٥ و١/ ١٦٢.
(٧٧) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٨٠.

[الأنعام:١٢٥]، وقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وأما الإرادة الدينية الشرعية الأمرية، فكقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٧-٢٨]. وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. فهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل ما لا يريده الله، أي: لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به.

وأما الإرادة الكونية: فهي الإرادة المذكورة في قول المسلمين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»[٧٨].

٩٤- تاسعاً: وهو العظيم في عفوه ومغفرته وتوبته على عباده:

قال تعالى في وصف سعة مغفرته: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

وسمى نفسه الغافر والغفور والغفار. والثلاثة من أسمائه الحسنى، والغفور صيغة مبالغة، والغفار أكثر منها مبالغة في المغفرة.

فهو الغافر: يغفر الذنب لعباده ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، وليس لأحد أن يغفر الذنوب ويقي العبد عاقبتها في الآخرة إلا الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، يغفر بالمشيئة، ويغفر بالتوبة.

---

(٧٨) شرح العقيدة الطحاوية ص ١١٦-١١٧.

وهو الغفور: يغفر الذنوب الكثيرة لعباده مهما أسرفوا على أنفسهم إذا أنابوا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وهو الغفار: يغفر الذنوب الكثيرة مرة بعد مرة، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وهو التواب: «الذي يتوب على عبده ويقبل توبته، كلما تكررت التوبة تكرر القبول»[٧٩]، وهي صيغة مبالغة بمعنى كثير القبول للتوبة من حيث تكررها من الفرد ومن حيث كثرة التائبين في الزمن الواحد وعبر الأزمنة فهو تواب عليهم جميعاً فالعبد يتوب فهو تائب، والله يتوب عليه فهو تواب[٨٠]. قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤] .

وهو العفو: الذي يمحو الذنب بصفحه عنه[٨١]، وهو صيغة مبالغة من العافي، وهو أبلغ من الغفور، قال الغزالي: «العفو: الذي يمحو السيئات، ويتجاوز عن المعاصي وهو قريب من الغفور ولكنه أبلغ منه، فإن الغفران ينبئ عن الستر، والعفو ينبئ عن المحو، والمحو أبلغ من الستر»[٨٢]. قال تعالى في إثبات هذه الصفة: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢]، وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٩]، وقال: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، وقال: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

فمن أعظم منه جوداً وكرماً وعفواً ومغفرة وتوبة على عباده؟.

---

(٧٩) شأن الدعاء ص ٩٠.

(٨٠) انظر مثل هذا المعنى في اشتقاق أسماء الله الحسنى ص٩٦.

(٨١) اشتقاق أسماء الله الحسنى ص٩٠.

(٨٢) الغزالي: المقصد الأسنى ص١١٧.

٩٥- عاشراً – وهو العظيم في شدة العقاب في موضع النكال والنقمة:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وقال: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١]، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٣].

فلا أشد من عقابه في الدنيا للقرى التي عتت عن أمر ربها وطغت في البلاد فأكثرت فيها الفساد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق: ٨]، وقال: ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩]، وقال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٥-٨]، وقال عن فرعون وقومه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٥-٥٦]، وقال عن قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص:٨١]، وقال عن الذين اعتدوا في السبت: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦]، وقال في الآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]. فلا أشد من عقابه عندما عاقب ويعاقب في الدنيا.

ولا أشد من عقابه في الآخرة للكفار والمنافقين والظالمين والمفسدين في الأرض قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، وقال: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ

ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٨]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]. وفي القرآن مثل ذلك كثير..

وقد أمهلهم في الدنيا ثم أمهلهم، فلو أنهم تابوا قبل الموت بساعة لقبل منهم، وأدخلهم ضمن من تابوا (من قريب) رحمة منه قبل انتهاء الأمر بهم إلى الخلود في النار، بل لو أنهم تابوا قبل معاينة ملك الموت أو الغرغرة لقبل منهم فيكونون قد نجحوا في امتحان الإيمان بالغيب - قبل المعاينة - ولو في حده الأدنى، ونجوا من الخلود في النار الذي هو شأن من مات على الكفر، ولصار حالهم يوم القيامة إما إلى المغفرة والرحمة والعفو وإما إلى موازنة الحسنات والسيئات، أي مقابلة الحسنات بالسيئات في الميزان، وذلك حسب مشيئة أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين، ولكنهم أبوا إلا الإصرار لحين معاينة الملائكة حين لا ينفع الإيمان لأنه حين المعاينة يصير الإيمان ضرورة لا اختياراً فلا عبرة به: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] أي تقول لهم الملائكة - في أحد وجوه التفسير -: حرام محرماً أن تكون لكم البشرى، أو تقول لهم: حرام محرماً أن تدخلوا الجنة(٨٣)، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]، فقد فات الأوان وانقضى الامتحان وأفلتت الفرصة. والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، نجانا الله والمؤمنين والمؤمنات من عذابه وعقابه، إنه أكرم مسؤول وأقرب مجيب.

٩٦- حادي عشر: وهو العظيم في صفة الرحمة:

حمد نفسه جل جلاله بأنه الرحمن الرحيم فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢-٣]، وقال: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ

(٨٣) تفسير زاد المسير ٦/ ٨١. وانظر: تفسير القرطبي ١٣/ ٢٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣١٥.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]. وفيما يلي بعض مظاهر عظمة هذه الصفة الإلهية:

٩٧-١- كثرة ورود الاسمين في القرآن وبيان سعة رحمة الله تعالى:

والرحمن والرحيم اسمان من الأسماء الحسنى، وهما صفتان من صفات الله جل جلاله، «وقد ورد اسمه (الرحمن) في التنزيل العزيز سبعاً وخمسين مرة، وورد اسمه (الرحيم) أكثر من تسعين مرة، وقد تكرر ذكر كل من هذين الاسمين معاً في أعظم سورة في كتاب الله وهي الفاتحة - وهي سبع آيات - مرتين»[٨٤] على القول بأن البسملة آية من الفاتحة.

فرحمته أوسع رحمة، وقد وسعت رحمته كل شيء، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وقال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧]. ووردت أيضاً بصيغة تدل على أنها الرحمة المتفردة المختص بها صاحبها وغيرها لا تكون رحمة بجانبها أو كأنها الرحمة التي لا رحمة غيرها، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: (إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة)[٨٥].

قد استوى على عرشه باسم الرحمن دون غيره من الأسماء الحسنى فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

ورحمة الله الواسعة شاملة عامة فأنت تجدها أينما وليت وجهك في هذا الكون الفسيح، فنعم الله كلها من قبيل رحمته بعباده فقد سخر السماوات والأرض وما بينهما

---

(٨٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٣٨٩ وما بعدها.

(٨٥) متفق عليه: البخاري (٥٩٨٨)، ومسلم (٤٩٤٤) واللفظ له. ومسلم أيضا (٤٩٤٣) و(٤٩٤٥) و(٤٩٤٦).

لتكون خادمة لحياة بني آدم في الأرض موافقة لمصالحهم وهي تخرج عن العد والحصر قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٢-٣٤].

ومن صور رحمته التي يمتن بها على عباده ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]. وهو يأمر العباد بأن يتأملوا آثار رحمة الله التي لا حياة لهم بدونها بقوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ ﴾ [الروم: ٥٠].

وأعظم رحمة تستحق الفرح هي إرسال محمد ﷺ رحمة للعالمين وإنزال القرآن العظيم فضلاً من رب العالمين، قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨]. لأن فيهما تعليم العباد الطريق الموصل إلى الخلود في جنات النعيم.

٩٨-٢- قول ابن القيم في معنى الرحمن الرحيم وإحاطة الرحمة بالخلق :

قال العلامة ابن القيم في بيان معنى (الرحمن الرحيم): «... وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والمنة والرأفة واللطف أخص باسم الرحمن وكرر [الرحمن الرحيم] إيذاناً بثبوت الوصف وحصول أثره وتعلقه بمتعلقاته .

فالرحمن: الذي الرحمة وصفه.

والرحيم: الراحم لعباده.

ولهذا يقول تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجئ رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم الرحمن الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف وثبوت جميع معناه للموصوف به، ألا ترى أنهم يقولون: غضبان للممتلئ غضباً، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملئ بذلك، فبناء فعلان للسعة والشمول.

ولهذا يُقرَن استواؤه على العرش بهذا الاسم كثيراً، كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، فاستوى على عرشه باسم الرحمن لأن العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كل شيء.

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده موضوع على العرش إن رحمتي تغلب غضبي)[٨٦]، وفي لفظ: (فهو عنده على العرش) فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٩] ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى»[٨٧].

ولو استعرضت الأسماء الحسنى لوجدت الكثير منها يختص بمعنى ويتضمن فوق ذلك الرحمة كالرؤوف - والرأفة أرق الرحمة -، والبرّ والتواب والعفو والغفور والجواد والكريم والرزاق والوهاب والمنان والمحسن المعطي وغيرها كثير.

٩٩- لا يستغني مؤمن أو مؤمنة عن معرفة صفات الرب جل جلاله:

فإن هذه المعرفة هي أساس التعظيم والمحبة والخشية والرجاء، بل هي روح العبادات كلها القلبية منها والعملية. فبقدر معرفتك بالله يتصل قلبك به فتحبه وتخشاه وترجوه فتعبده خوفاً وطمعاً، وتتقيه في أعمالك وعباداتك فتحسنها وتسعى بها إلى الكمال.

ومن أراد المزيد في معرفة صفات الرب جل جلاله - وقد ذكرنا تعريفاً موجزاً بها فيما تقدم وأوردنا بعض آيات التنزيل العزيز - من أرد المزيد، ويحسن به أن يريد، فليقف عند الآيات التي تذكر صفات الله تعالى وتمجد عظمته وتبين ربوبيته للسماوات والأرض وما بينهما واستواءه على العرش العظيم، وتبين سلطانه العظيم، وعلمه، وسمعه، وبصره، وحياته

---

(٨٦) متفق عليه: البخاري (٢٩٥٥) و(٦٨٩٩) و(٦٩٩٨)، ومسلم (٤٩٤١).

(٨٧) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٣٣-٣٤.

وقدرته ونحوها، وتصريفه شؤون الكون من سماواته إلى أرضه، وليتعود رفع رأسه إلى السماء منتزعاً نظره من حجب حضارة الأشياء(٨٨) من زخارف الأرض وزينتها التي خطفت نظره وفكره ليلاً ونهاراً فجعلته ناكس الرأس لا ينظر إلا سكة أو سيارة، أو تلفازاً أو عمارة.. أقول يرفع رأسه إلى السماء وينظر في آياته المشهودة في الآفاق، ويقف عند آياته المتلوة في الكتاب التي تذكر العظمة والصفات وهو يتلو التنزيل العزيز ويتدبر تلك الآيات ولا يمر بها مروراً سريعاً من غير تدبر وتأمل، فإن من تأملها وتدبرها زاده الله معرفة بصفاته ومحبة له وخشية منه ورجاء لرحمته، ونقدم فيما يلي نماذج من آيات التنزيل العزيز - ويوجد في القرآن غيرها كثير - تجعل القلب يخر ساجداً لعظمته وعظمة صفاته مبهوراً يردد سبحان الله الملك القدوس، سبحان رب العرش العظيم، سبحان الحي القيوم(٨٩).

١٠٠- مقاطع من القرآن تجمع عدداً من الأسماء الحسنى والصفات الإلهية المقدسة:

١٠١-١- تأمل كلامه وهو يصف نفسه ويعلمنا تمجيده وتقديسه بأسمائه الحسنى:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

١٠٢-٢- واقرأ في صفاته المقدسة من الوحدانية والقدرة والعلم والإرادة وغيرها وآثارها:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ

---

(٨٨) يجب التمييز بين حضارة الأشياء وحضارة الإنسان فالحضارة الحقة التي تسعد الإنسان هي التي توازن بين المادة والروح وتعتني بالقيم والمثل والأخلاق بينما حضارة اليوم هي حضارة الأشياء متمثلة بالتقدم المادي العلمي مع الخواء الروحي الكامل والإفلاس التام من القيم والمبادئ التي جاءت من الوحي الإلهي.

(٨٩) لا نقصد هنا الاقتصار على ما سماه العلماء بآيات الصفات وتناظروا بشأنها وجعلوها أساساً لدراسة العقائد وعلم الكلام، وإنما نقصد إيراد آيات ومقاطع من القرآن الكريم تمكن العبد من مطالعة صفات الرب جل جلاله ومعرفتها على النحو الذي أورده القرآن والإيمان بها.

ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: ٩٥-١٠٤] (٩٠).

واملأ قلبك من قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩-٦٤].

---

(٩٠) إن تدبرك لهذا الكلام الإلهي المعجز وأمثاله مهم جداً لقلبك وروحك وإيمانك، وما يصعب عليك منه فأمامك العلماء تسألهم والتفاسير تدرسها ومن التفاسير القديمة تفسير ابن كثير وتفسير القرطبي وغيرهما والمختصر في ذلك وهو حديث صفوة التفاسير ومن أوجزها تفسير الجلالين، ومن التفاسير الحديثة في ظلال القرآن لسيد قطب رحمه الله، والتحرير والتنوير لابن عاشور وغيرها. وبالجملة: لا ينبغي أن ترضى بنقصان علمك في فهم كتاب الله تعالى وتستمر على ذلك بينما أنت تحاول تعلم الكثير يومياً من العلوم الطبيعية والإنسانية وغيرها. ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٢].

١٠٣-٣- واقرأ في الخلق والإماتة والإحياء والعلم:

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٧-٤٠].

وقوله جل جلاله: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ١٧-٢٧].

وقوله جلت قدرته: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾ [الإسراء: ٤٩-٥١].

فمن قرأ هذه الآيات ولم توقظ فيه قلباً، ولا نوَّرت له عقلاً، ولم تعرفه بربه، فليبكِ على موت قلبه، وليتوجه إلى الله بالدعاء لإحياء قلبه فإنه يحيي الموتى، والله المستعان.

١٠٤-٤- واقرأ في انتهاء الكون ثم البعث والنشور وتقرير مصيرك ومصيري:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٧١) قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ (٧٣) وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ (٧٤) وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٦٨-٧٥].

١٠٥- عظمة الله في ذاته وصفاته وأفعاله.. ماذا يجب لها ؟

ما ذكرناه سابقاً هو بعض ما جاء في القرآن الكريم من عظمة الله تعالى في ذاته وعظمته في صفاته وعظمته في أفعاله فلذلك كان له الحمد رباً للسماوات والأرض، محموداً بأنه الرب والإله، وأنه الرحمن الرحيم، وأنه مالك يوم الدين،كما قال تعالى في أعظم سورة في القرآن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢) ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣) مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢-٤]، ولعظمته وعظمة صفاته كانت له الكبرياء في السماوات والأرض كما قال في وصف نفسه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٦) وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦-٣٧].

- فمن أجل هذه العظمة قال رب العزة جل وعلا: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

- ومن أجل هذه العظمة: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].
- ولهذه العظمة: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].
- ومن أجل هذه العظمة تعجبت الملائكة أن يخلق الله خلقاً يمكن أن يعصيه؛ لأنهم لا يعرفون ربهم إلا أنه الملك القدوس الذي تعالى، له التعظيم والتسبيح والتقديس فقالوا متعجبين: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].
- ومن أجل هذه العظمة قال جل ثناؤه: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].
- ومن أجل هذه العظمة: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن:٢٩].
- ومن أجل هذه العظمة: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد:١٣].
- ومن أجل هذه العظمة أهبط آدم من سماواته إلى أرضه بذنب واحد بعدما تاب عليه، وطرد إبليس من جنته بذنب واحد طرد الأبد ولعنه لعن الأبد فإن شأن الله أعظم من أن يعصى.
- ومن أجل هذه العظمة كان انتهاك الكافرين والمشركين لحقوق الألوهية نهاية في القبح حيث لا يرجون لله وقاراً، وكان انحطاطاً إلى أسفل سافلين، إلى الحضيض الذي ما بعده حضيض، قال تعالى في وصف ذلك: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١].
- ومن أجل هذه العظمة نقول والمؤمنون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٩١) رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ (١٩٢) رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران:١٩١-١٩٤]، ونقول: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]. وندعوه أن يجعلنا ممن يقدرون عظمة الله بعض قدرها وممن: ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

- ومن أجل هذه العظمة نتوب إلى الله توبة شاملة عامة عن ذنوب العمر كله ونبدأ عمراً جديداً كله توبة وطهر في ظل عفوه ومحبته موقنين بصدق قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠-١١] والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وبهذا ننتهي من الفصل الأول من هذا الباب الأول الذي كان عنوانه «حقائق الإيمان أساس التوبة» بحثنا فيه أولى الحقائق الكبرى الثلاث وهي حقيقة الإيمان بالله تعالى والتي تضمنت الإيمان به رباً خالقاً، والإيمان به إلهاً معبوداً مطاعاً، والإيمان بصفاته جل جلاله لننتقل إلى الفصل الثاني الخاص بالحقيقة الكبرى الثانية حيث الكلام عن الامتحان في عبادة الله تعالى وأنه هو الغاية من خلق الدنيا وخلقنا فيها.

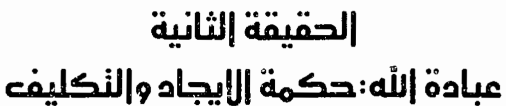








الفصل الثاني



الحقيقة الثانية

عبادة الله: حكمة الإيجاد والتكليف

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: آدم وبنوه.. والامتحـــان.
- المبحث الثاني: الدنيا وأسباب الافتتان بها وتحذيرات القرآن.
- المبحث الثالث: أقسام البشر في الدنيا ومصائرهم حسب تقسيم القرآن.








الفَصْلُ الثَّانِي

الحقيقة الثانية
عبادة الله: حكمة الإيجاد والتكليف

١٠٦- تمهيد وتقسيم:

نحتاج لبيان هذه الحقيقة الكبرى، حقيقة أن الامتحان في عبادة الله تعالى هو الغاية من خلق الدنيا وإيجادنا فيها، إلى الكلام في إهباط الله تعالى آدم إلى الأرض وجعله وزوجه وبنيه محلاً للامتحان في عبادة الله تعالى وطاعته، وما يلزم لذلك من إرسال الرسل وإنزال الكتب وتقديم أنواع الهداية للخلق، وهذا هو موضوع المبحث الأول. ثم بيان أسباب افتتان الناس بالدنيا وإعراض الضالين منهم عن أنواع الهداية المقدمة لهم، وهذا هو موضوع المبحث الثاني. ثم أقسام الناس في رعاية حق الله وعبادته التي هي الغاية من خلق الدنيا وخلقنا فيها مع بيان مصائر كل من هذه الأقسام حسب تقسيم القرآن الكريم، وهذا هو موضوع المبحث الثالث، فكانت مباحث هذا الفصل ثلاثة.

وسنبحثها مرتبة على النحو الآتي:

المبحث الأول: آدم وبنوه.. والامتحان.

المبحث الثاني: الدنيا وأسباب الافتتان بها وتحذيرات القرآن.

المبحث الثالث: أقسام البشر في الدنيا ومصائرهم حسب تقسيم القرآن.

المبحث الأول
آدم وبنوه ..والامتحان

١٠٧- إهباط الله تعالى آدم مزوداً بتجربة التوبة:

أهبط الله تعالى آدم عليه السلام – بعد الخطيئة – من سماواته إلى أرضه التي جعل الحياة فيها ميداناً للامتحان والابتلاء لآدم وبنيه، مزوداً بتجربة الذنب والتوبة بعد أن تاب عليه وهو في الجنة، بعد أن علمه الكلمات التي بها يتوب إلى الله وتاب الله عليه، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٧-٣٨].

فأهبطه بعد أن أعاد عليه التذكير والتحذير بأن الشيطان عدو له ولبنيه، بقوله: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]. وكان الله تعالى قد حذره من الشيطان قبل الأكل من الشجرة بقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧] (٩١).

أهبطه عارفاً بالذنب وعارفاً بالتوبة وأمره باتباع ما يأتيه من هدى من الله، قال سبحانه: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٣٨-٣٩].

وخاطب الله بني آدم الذين ذرأهم في الأرض: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف:٣٥-٣٦].

---

(٩١) أوردنا تفصيلاً لتوبة آدم عليه السلام وتوبة الله تعالى عليه في الباب السادس من هذا الكتاب تحت عنوان «توبة الأنبياء والعباد الصالحين وغيرهم» ويمكنك الرجوع إليه لمزيد من التعرف على أن الله تعالى تاب على آدم وهو في الجنة وأنه أهبطه إلى الأرض متوباً عليه، وأن توبة الله تعالى عليه محت عنه الذنب وجعلته محلاً للاجتباء ولكنها لم تمنع من إهباطه إلى الأرض، والتعرف على تفسير الآيات الخاصة بهذا الموضوع مجموعة من مختلف سورها من القرآن الكريم.

١٠٨- ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً(٩٢):

ثم أرسل الله تعالى رسله تترا إلى الأمم كافة مبشرين ومنذرين، معهم الهدى والنور، يدعون الخلق إلى الإيمان بالله وعبادته وحده وينذرونهم أن الدنيا تنقضي بقيام الساعة، وأنها ليست مائدة طعام وفرصة متاع، وإنما هي ميدان للابتلاء والامتحان في طاعة الله وعبادته والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] فمن آمن وعمل الصالحات فالجنة مأواه، ومن تنكب الطريق فالنار مثواه..

١٠٩- دين الإسلام للناس كافة:

وختمت النبوات بنبوة محمد ﷺ سيد الأنبياء والمرسلين، أرسله بدين الإسلام، وجعل رسالته للناس كافة، خلافاً للرسالات السماوية السابقة، قال عز وجل: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: لأنذركم وأنذر كل من بلغه هذا القرآن من الخلق، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ [آل عمران: ٢٠] وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال ﷺ: (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى

(٩٢) سورة النحل: الآية: ٣٦.

الناس عامة) [٩٣]، فصار مطلوباً من جميع الخلق.. جميع سكان كوكب الأرض.. جميع الملل والنحل.. الإيمان بنبوة محمد ﷺ واتباع دينه وشريعته.

«وكونه مبعوثا إلى الناس كافة معلوم من دين الإسلام بالضرورة» [٩٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «... فعلى الخلق كلهم اتباع محمدٍ ﷺ، فلا يعبدون إلا الله، ويعبدونه بشريعة محمد ﷺ لا بغيرها، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨-١٩]، ويجتمعون على ذلك ولا يتفرقون» [٩٥].

١١٠- القرآن يبين الغاية من إيجادنا في الدنيا:

واختص الله تعالى نبوة محمدٍ ﷺ من بين سائر النبوات - فوق معجزاته المعروفة - بمعجزة مستمرة خالدة هي القرآن العظيم الذي شرع الله فيه منهجاً كاملاً للحياة البشرية يضمن سعادة الدارين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وقال: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨].

وقد بين القرآن أوضح البيان الغاية من خلق الإنسان في الدنيا، قال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكان الابتلاء والامتحان في طاعة الله ورسوله بالعمل الصالح، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢-٣] وقال جل ثناؤه: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ

---

(٩٣) متفق عليه: البخاري(٣٢٣) و(٤١٩)، ومسلم (٨١٠)، والنسائي (٤٢٩)، والدارمي (١٣٥٣) واللفظ للبخاري. ومن الأدلة الأخرى على عموم رسالته ﷺ للناس كافة أنه أرسل رسله وبعث كتبه في أقطار الأرض إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وسائر ملوك الأطراف يدعوهم إلى الإسلام.

(٩٤) شرح العقيدة الطحاوية: ١/ ١٧٧.

(٩٥) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١١/ ٥١٤.

﴿إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦]. والمعنى: تعالى الله وتنزه أن يخلقكم عبثاً أو سدى من غير غاية عظمى: هي الإيمان به وبرسوله باتباع شريعته التي بها إقامة الحياة بالقسط وعمارة الأرض، وطاعة أمره ونهيه، والقيام برعاية حقه جل جلاله، وكل ذلك يجمعه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكله داخل في مفهوم العبادة.

١١١- معنى عبادة الله وما يشمله مصطلح العبادة:

معنى العبادة: الطاعة، وقيل: الخضوع والتذلل، فكل طاعة لله على جهة الخضوع والتذلل فهي عبادة. والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المتصف بالألوهية والربوبية المنعم بأعلى أنواع النعم كالحياة والفهم والسمع والبصر وهو الله تعالى وحده.[٩٦]

والعبادة بمعناها الشرعي تتضمن - كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - : «معنى الذل ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى ممزوجاً بغاية المحبة له، فيجب لتحصيل العبادة بمعناها الدقيق أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]»[٩٧].

وإذا كانت العبادة تعني غاية الذل لله تعالى، وغاية الحب له، فإن هذين الأمرين ينتهيان إلى نتيجة واحدة هي الطاعة التامة والانقياد الكامل وعدم التمرد والعصيان.

١١٢- شمول العبادة لكل جوانب الحياة:

العبادة في الإسلام تشمل كل طاعة لله ورسوله حسبما شرع في كتابه الكريم وسنة نبيه ﷺ في مختلف جوانب الحياة.. فهي تشمل ما شرع الإسلام في جانب الاعتقاد، وفي جانب الشعائر التعبدية، وكذلك الأخلاق، وكذا المعاملات في مختلف شؤون الفرد والمجتمع.

---

(٩٦) انظر للمؤلف: النظم الإسلامية ص٣١ وما بعدها.

(٩٧) ابن تيمية: المرجع السابق، وانظر أيضاً للمودودي في معنى العبادة: المصطلحات الأربعة في القرآن ص١٠١.

والقاعدة الجامعة في ذلك: أن طاعة الله ورسوله مقتضاها اتباع جميع تشريعات الإسلام التي شرعها وأمر بإقامة حياة الفرد والمجتمع والدولة على أساسها وأمر بنبذ ما سواها من سبل وشرائع وأحكام، قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

وعلى ذلك يكون مفهوم العبادة في الإسلام شاملاً لكل ما صدر عن الإنسان، وفقاً للشرع، مراداً به وجه الله تعالى ومرضاته من سلوكٍ أو تصرف أو قول أو تفكر أو فعلٍ أو تركٍ أو نحو ذلك.

ذلك أنه لا يوجد أمر من أمور الحياة إلا ويمكن إيقاعه بالشكل الذي يرضي الله تعالى حسبما أمر فيكون عبادة، أو إيقاعه بالشكل الذي لا يرضي الله تعالى فيكون معصية، وهذا يغطي شؤون الحياة كلها.

١١٣- العبادة: تشمل أركان الإسلام وشعب الإيمان وكل ما جاء به الإسلام من تشريع للفرد والمجتمع والدولة.

فعلى رأس العبادات الإسلامية أركان الإسلام: من شهادة، وصلاة، وزكاة، وصيام، وحج، وهي عبادات عظيمة بها يكون الإنسان مسلماً وبدونها لا يكون.

وفي قمة العبادات الإسلامية أيضاً أركان الإيمان من إيمان بالله تعالى وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى، والعمل بمقتضى هذه الأركان، لأن الإيمان تصديق بالجنان، وشهادة باللسان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

كما تشمل العبادة المندوبات، وهي ما زاد على الفرائض من أنواع التعبد تطوعاً على أن تكون من جنس العبادات التي شرعها الإسلام.

وتشمل العبادة أيضاً العبادات القلبية كحب الله ورسوله ﷺ، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه ونحو ذلك.

وتشمل أيضاً الأخلاق الإسلامية القرآنية والنبوية والتحقق بها والعمل بمقتضاها من صدقٍ، ووفاء، وأمانة، وإخلاص، وتواضع، وإيثار، وصبر، وحلم، وعدل، واستقامةٍ، وغض بصرٍ، وإماطة أذى، وكظم غيظ، وعفو، وإحسان.. وباختصار تشمل الفضائل الإنسانية كلها .

وفي الميدان الاجتماعي تشمل العبادة، كل عمل نافع يريد به العبد وجه الله تعالى لا الرياء أو التطلع إلى الثناء واكتساب الجاه.. فيكون عبادة كل عملٍ يمسح به المسلم دمعة محزونٍ، أو يفرج به كربة مكروب، أو يضمد به جراح منكوبٍ، أو يسد به رمق محرومٍ، أو ينتصر به لمظلوم، أو يشفع به لمغلوب، أو يقيل به عثرة عاثرٍ، أو يعيل به أرملةً، أو يتكفل به رعاية أيتام، أو يعلِم جاهلاً، أو يؤوي غريباً، أو ينجد به ابن سبيل، أو يصلح به ذات بين، أو يبر به قريباً، أو يغيث ملهوفاً، أو يعود مريضاً، أو يدفع به ضراً عن إنسان، أو يجلب به نفعاً مشروعاً لإنسان.. كل ذلك عبادة وقربة إلى الله تعالى إذا قصد به المسلم وجه الله تعالى ومرضاته.

وفي ميدان المجتمع والدولة تكون العبادة بطاعة الله ورسوله ﷺ في ما أمر به من حراسة الدين وسياسة الدنيا به وهو واجب على الأمة والحاكم جميعاً.

فحراسة الدين تعني: حفظه، وتنفيذه

وحفظه يعني: حفظه من البدع والزيادة والنقصان، وذلك يتحقق بنشر حقائقه وتثبيتها والدعوة إلى الله تعالى لتحقيق ذلك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفظاً للدين ونشراً له، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٤١]، وكذا جهاد الكفار والمنافقين حفظاً للدين ودفاعاً عن ديار المسلمين وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وتنفيذ الدين يعني: طاعة الله ورسوله ﷺ بتطبيق كل ما شرع الإسلام من أحكام الأسرة، والعقود والتصرفات، والاقتصاد، والقضاء، والسياسة، والجريمة والعقوبة، ونظام الحكم، ونحو ذلك من تشريعات الإسلام التي شرعها الله تعالى محققةً مصالح

العباد ودارئة للمفاسد عنهم في الدارين وجعل اتباعها ونبذ ما سواها واجباً، وحكم بالكفر والظلم والفسوق على من تركها مختاراً وحكم بغيرها وارتضى سواها.

وأما سياسة الدنيا بالدين التي تكون عبادة أيضاً وهي من واجبات الحاكم الأساسية في الإسلام، تعينه الرعية عليها، فقوامها: إقامة العدل والإنصاف، ومنع الظلم والإجحاف في المجتمع كله. وإشاعة الأمن والاستقرار في دار الإسلام حتى يأمن الناس على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، ويتنقلوا في دار الإسلام آمنين مطمئنين. وإيجاد ما يحتاجه الناس من حرفٍ وصناعات وعلوم في دار الإسلام. والاستثمار الكامل لخيرات البلاد - وهي نعم الله تعالى عليها - من أجل عمارة الحياة وجلب المصالح للمسلمين ودرء المفاسد عنهم. كل ذلك بنية طاعة الله تعالى وتطبيق شريعته.

وفي ميدان العلاقات الدولية تكون العبادة بطاعة الله ورسوله ﷺ في كل ما شرع من أحكام تنظم علاقة دار الإسلام بالعالم من حولها في حالة الحرب وفي حالة السلم.

وهكذا يبدو واضحاً أن العبادة في الإسلام تشمل الحياة كلها وتحقق مصالح الإنسان في الدنيا والآخرة، وتضعه على الصراط المستقيم، عابداً لله، مطيعاً لله ورسوله، عاملاً بمنهج الله للحياة وهذا هو المعني بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وما عبادة الله إلا سلوك الصراط المستقيم، وما الصراط المستقيم إلا تشريعات الإسلام كافة.

والإنسان ممتحن في هذه الدنيا في سلوك هذا الصراط المستقيم وعدم الحيدة عنه إلى كفرٍ أو فسوق أو عصيان.

المبحث الثاني
الدنيا وأسباب الافتتان بها وتحذيرات القرآن

١١٤- تمهيد:

بعد أن عرفنا في المبحث السابق أن آدم وبنيه هم الممتحنون في عبادة الله تعالى - والجن كذلك - وعرفنا ما قدم لهم ربهم من أنواع الهداية ليهتدوا بها من: هداية العقل، وهداية الفطرة، وهداية إرسال الرسل وإنزال الكتب، بقي أن نعرف لماذا العصيان في شهوات الغي ومضلات الفتن مع كثرة تحذيرات القرآن وما هي أسباب الافتتان بالدنيا مع توافر كل أنواع الهداية وكل التحذيرات؟.

فهذا يحتاج إلى بيان حقيقة الدنيا وأسباب الافتتان بها وما جاء من تحذيرات القرآن الكريم بشأن ذلك، وهو ما نبينه في الفقرات التالية.

١١٥- أسماء الدنيا في القرآن:

سماها القرآن بعدد من الأسماء، أكثرها استعمالاً: (الدنيا)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧] وقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ [يونس: ٧] وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

وسماها أيضاً: (العاجلة) قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]، وقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]، سميت بذلك لأن عمرها قصير ومتاعها عاجل.

وسماها أيضاً: (الأولى) قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٣]، وقال: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، وقال: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]، وقال تعالى بشأن فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥].

١١٦- عمر الحياة الدنيا في القرآن:

صرح القرآن بأن للدنيا أجلاً محدداً تنقضي فيه، لا تتأخر عنه، وأنه قريب، وضرب لذلك الأمثال...

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

قال القرطبي: « (اقتربت) أي: (قربت) مثل: (أزفت الآزفة)، فهي بالإضافة إلى ما مضى قريبة لأنه قد مضى أكثر الدنيا، كما روى قتادة عن أنس قال: خطب رسول الله ﷺ وقد كادت الشمس أن تغرب، فقال: (ما بقي من دنياكم فيما مضى إلا مثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى) وما نرى من الشمس إلا يسيراً» [٩٨].

وقال تعالى في بيان قصر عمرها: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].. هكذا.. مطرٌ أنبت نباتاً حسناً ثم ذبل ويبس فتحطم وانتهى، نبتة أزهرت وذبلت فجفت وتفتت.. فهذا هو مثل الحياة الدنيا في القرآن.

قال القرطبي: «... (ثم يهيج) أي: يجف بعد خضرته، (فتراه مصفراً) أي: متغيراً عما كان عليه من النضرة، (ثم يكون حطاماً) أي: فتاتاً وتبناً فيذهب بعد حسنه، كذلك دنيا الكافر.. (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور): هذا تأكيد ما سبق أي تغر الكفار، فأما المؤمن فالدنيا له متاع بلاغ إلى الجنة. وقيل: العمل للحياة الدنيا متاع الغرور تزهيداً في العمل للدنيا وترغيباً في العمل للآخرة» [٩٩].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ

---

(٩٨) تفسير القرطبي :١٧/ ١٢٥ .

(٩٩) تفسير القرطبي: ١٧/ ٢٥٦.

نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٥].

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]: «قوله تعالى: (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) أي: لقصر مدتها كما قال الشاعر:

ألا إنـــما الـــدنيا كـــأحلام نـــائم	ومـــا خـــير عـــيشٍ لا يكـــون بـــدائم
تأمـــل إذا مـــا نلـــت بـــالأمس لـــذة	فأفنيتهـــا هـــل أنـــت إلا كحـــالم

وقيل المعنى: متاع الحياة الدنيا لعب ولهو، أي الذي يشتهونه في الدنيا لا عاقبة له، فهو بمنزلة اللعب واللهو.. وقيل: معنى (لعب ولهو): باطل وغرور، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] »[١٠٠].

وقال القرطبي في التفسير أيضاً: «ليس من اللهو واللعب ما كان من أمور الآخرة، فإن حقيقة اللعب ما لا ينتفع به واللهو ما يتلهى به، وما كان مراداً للآخرة خارج عنهما، وذم رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب ﷺ فقال علي: الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود فيها، وروي عن ابن عمر بن عبد البر عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ : (الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ما كان من ذكر الله أو أدى إلى ذكر الله، والعالم والمتعلم شريكان في الأجر، وسائر الناس همجٌ لا خير فيه)[١٠١] وأخرجه الترمذي عن أبي هريرة وقال: حديث حسن غريب، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (من هوان الدنيا على الله أن لا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها)[١٠٢] وروى الترمذي عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: (لو كانت الدنيا

---

(١٠٠) تفسير القرطبي ٦/ ٤١٤ و ١٧/ ٢٥٥.

(١٠١) ابن ماجة (٤١٠٢)، والدارمي (٣٢٤).

(١٠٢) ذكره الغزالي في الإحياء على أنه من قول أبي الدرداء (انظر إحياء علوم الدين: ٣/ ٢٠٨). وهو الصحيح بظني حيث لم يعترض عليه العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء، ومن جهتي فإني لم أجده في الكتب التسعة ولا في بقية كتب الحديث.

تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء)[١٠٣]. وقال ابن عباس - بشأن اللهو واللعب - : هذه حياة الكافر يُزجيها - أي يدفعها ويمررها - في غرور وباطل، فأما حياة المؤمن فتنطوي على أعمال صالحة فلا تكون لهواً ولعباً»[١٠٤].

١١٧- أجل الإنسان في الدنيا:

لكل إنسان أجله في هذه الدنيا لا يتأخر عنه ساعة ولا يتقدم، قال تعالى: ﴿ جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وجعل الله الموت حقاً على الجميع ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ومن طبيعة البشر الفرار منه، ولكن دون جدوى، ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨]، ويزداد الفرار كلما ازداد من الإنسان الإجرام في حق الله ورسله وعباده كما هو حال اليهود وطبيعتهم، قال تعالى في حقهم: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة: ٨] فيزداد تعلقاً بالحياة فراراً من الموت قال تعالى في حقهم أيضاً: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [البقرة: ٩٦].

ولم يجعل الله لبشرٍ خُلوداً في هذه الدنيا قال عز وجل: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

١١٨- الخلق كلهم مسافرون:

والخلق كلهم مسافرون.. حياتهم سفر دائم.. ليس فيهم أحد واقف: جنين في بطن أمه.. ثم مولود.. فبالغ عاقل مسؤول، يعمل بعمل أهل الجنة، أو بعمل أهل النار، أو يكون مُخلطاً.. ثم تأتي ساعة الموت فإذا هو في داخل القبر.

والإنسان لا يستطيع أن يقف لحظة عن هذا المسير يوماً.. فالخلق كلهم مسافرون.. فمن كانت مطيته الليل والنهار يُسار به وإن لم يسر، ولا يُتصور له وقوف قط !!.

---

(١٠٣) المنذري: الترغيب والترهيب: ٤/ ٨٣ وبرقم (٤٨٩٦) وقال: رواه ابن ماجة والترمذي وقال حديث حسن صحيح. وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤/ ٣٤١ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(١٠٤) المرجع السابق وبنفس الموضع.

ومقدار لبث الإنسان في الدنيا قصير.. قصير جداً.. يراه في الآخرة أنه كان ساعة من نهار ! ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

أو يراه كأنه كان عشية أو ضحاها ! ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

١١٩- الكيس في سباق مع الأيام والليالي:

والعاقل الكيس مَنْ غالب الأيام والليالي - وهي ساعات الامتحان في هذه الدنيا - في اكتساب نفائس الكسب من العمل الصالح، وقضى العمر مطيعاً لله ورسوله، عاملاً بعمل أهل الجنة، متجنباً عمل أهل النار، فإن ألمت به خطيئة أو ذنب لجأ إلى التوبة النصوح يتطهر بها من أدران الخطايا والذنوب، ويتدارك بها نفسه من الهلاك، ويرفع عن نفسه الظلم الذي أوقعها فيه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

١٢٠- أسباب افتتان الإنسان بالدنيا:

والإنسان يفتتن بالدنيا لثلاثة أسباب.. فيالله كم من قتيل للدنيا فتنته بها !:

١٢١-١- متاعها عاجل حاضر:

فمتاع الدنيا وزهرتها وزينتها وشهواتها متاع عاجل حاضر يمكن الاستمتاع به حالاً، أما نعيم الآخرة الأبدي الخالد فموعود مؤجل ومبني على التصديق الكامل بوعد القرآن وصدق الرسول ﷺ بما يبعث على الصبر عن شهوات الدنيا المحرمة والاستعاضة عنها بشهواتها المباحة وانتظار ما عند الله، قال تعالى في المتاع الموعود والمتاع العاجل: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١].

ولكون متاع الدنيا عاجل حاضر فإن النفس تشتهيه وترغب في الاستكثار منه.. هكذا طبيعة الإنسان، ولا يصرف النفس عن ذلك إلا الإيمان واتباع الإسلام الذي يقدم للذين

اتقوا بديلاً حلالاً في الدنيا ونعيماً أبدياً في الآخرة.. قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:١٤-١٥].

وأورد الغزالي في الإحياء[١٠٥] قول الشاعر:

يا راقد الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد يطرقنَ أسحارا
أفنى القرون التي كانت مُنعَّمَةً ... كَرُّ الجديدين إقبالاً وإدبارا
كم قد أبادت صروفُ الدهرِ من ملكٍ ... قد كان في الدهر نَفّاعاً وضَرّارا
يا من يعانق دنيا لا بقاء لها ... يمسي ويصبح في دنياه سَفّارا
هلا تركت من الدنيا معانقةً ... حتى تعانق في الفردوس أبكارا
إن كنت تبغي جِنانَ الخلد تسكنُها ... فينبغي لك أن لا تأمنَ النارا

١٢٢- فتن الدنيا: شهوات الغي، وضلال العقول:

وفتن الدنيا: إما غوايات تتعلق بالفروج والبطون، وإما ضلال في العقول، أي الضلال الفكري والاعتقادي، والناس بين مُقلّ من ذلك ومكثر.

والمؤمنون والمؤمنات الذين أمروا أن لا يفتتنوا بالدنيا يُخاف عليهم من الوقوع في فتنها خوفاً شديداً، قال ﷺ: (إن مما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى)[١٠٦]، ومن هنا وجب الحذر والانتباه وإذا وقع للمؤمن شيء من ذلك

---

(١٠٥) الغزالي: إحياء علوم الدين:ج: ٣ ص: ٢٠٨.

(١٠٦) المنذري: الترغيب والترهيب: ١/ ٤٤ و٣/ ١٠١ وفي كلا الموضعين بلفظ (ومضلات الهوى) كما أوردناه وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في معاجمه الثلاثة وبعض أسانيدهم رواته ثقات. قلت: وأحمد أخرجه برقم (١٨٩٣٦) بلفظ (ومضلات الفتن)، وبرقم: (١٨٩٣٧) و(١٨٩٥١) بلفظ (ومضلات الهوى). والمعنى متقارب فالضال بالهوى مفتون، والضال بالفتنة صاحب هوى. والضلال الفكري والاعتقادي مشمول في اللفظين: الفتنة، والهوى.

فليتبعه بتوبة فوراً من غير تسويف وإبطاء، أما الذين أقبلوا على الدنيا وأعرضوا عن الآخرة فقد تلقفهم الشيطان وظفر بهم في بداية الطريق، وفتنتهم الدنيا وضمتهم إليها بجناحيها: شهوات الغي، ومضلات الهوى والفتن، ودعاؤنا لهم بالهداية والتوفيق وأن يبادروا إلى التوبة ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم: ٤٣]، ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ [المعارج:١١-١٦]، ومن يتوجه من هؤلاء إلى الله تعالى بهمة صادقة وقلب مخلص سائلاً إياه الهداية فلن يخيبه الله قط، فليبادر العبد ثم ليرى جواب الرب جل جلاله، يراه واقعاً في حياته، هداية ورحمة وتوفيقاً ومحبة، فلا توجد رحمة أعظم من رحمة أرحم الراحمين، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ ﴾ [الرعد: ٦]، والله المستعان.

١٢٣- ٢- خداع الشيطان لبني آدم:

وذلك بتزيين الحرام والدعوة إلى الاستكثار منه عن طريق ما يوسوس به لبني آدم، ومراده منهم: الإضلال، والإزلال، والإنساء، وتزيين الخطيئة، والأمر بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون. قال تعالى محذراً منه: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٩]، وقال: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٢٧]. وسيأتي تشخيص تفصيلي لمراد الشيطان من بني آدم وكيفية معالجته في فصل لاحق إن شاء الله.

١٢٤-٣- النفس وشهواتها:

فإن النفس بطبيعتها ذات شهوات ورغبات، فإن تركها صاحبها وأطلق لها العنان من غير تشذيب وتهذيب وإلزام بالحق والبر والتقوى انفلتت وشهواتها وانغمست فيها، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧-١٠]، وقال تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ ﴾ [يوسف: ٥٣].

١٢٥- تحذيرات القرآن من الافتتان بالدنيا:

حذر القرآن من الافتتان بالدنيا وبين أن ذلك تعقبه الندامة والحسرة في الآخرة، وبين أن متاعها قليل، وأنه غرور، وأنه ينفد ويزول، وأنها صائرة إلى الفناء.. وفيما يلي بعض من ذلك:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥].

وقال عز وجل: ﴿ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧].

وقال سبحانه: ﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال جل ثناؤه: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]، ولو لم توجد إلا هذه الآية لكفت، ومعناها: أرأيت إن متعناهم بمتاع الدنيا سنين معدودات.. ثم جاء الموت وجاءت الآخرة وصاروا إلى النار خالدين فيها أبد الآباد، فماذا أفادهم أنهم تمتعوا في الدنيا سنين ثم فنيت، وقد خسروا في الآخرة خسارة الأبد، وشقوا شقاوة الأبد؟! وماذا بقي من طعم تلك السنين وقد صاروا في النار خالدين؟!.

وقال سبحانه: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾[الحديد: ٢٠].

قال القرطبي في التفسير: «قوله تعالى: (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو)، وجه الاتصال بما سبق - وهي الآيات الداعية للجهاد في سبيل الله - أن الإنسان قد يترك الجهاد خوفاً على نفسه من القتل، وخوفاً من لزوم الموت، فبين أن الحياة الدنيا منقضية فلا ينبغي أن يترك أمر الله محافظة على ما لا يبقى... [ثم ذكر القرطبي أن تعظيم الدنيا وما فيها هو شأن الكافرين] قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وفي الموحدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم وتتقلل عندهم وتدق إذا ذكروا الآخرة»[١٠٧].

---

(١٠٧) تفسير القرطبي: ١٧/ ٢٥٤.

المبحث الثالث
أقسام البشر في الدنيا ومصائرهم حسب تقسيم القرآن

١٢٦- أقسام البشر عموما في الدنيا:

البشر في هذه الدنيا: مسلم وكافر، وكذا الشأن بالنسبة للجن:

مسلم آمن بالإسلام فصدق بنبوة محمدٍ ﷺ واتبعه وآمن بالكتاب الذي أنزله الله عليه، القرآن، وعمل بأركان الإسلام وشعب الإيمان.

وكافر لم يؤمن بنبوة محمد ﷺ ولا بالإسلام، فكان مسؤولاً عن رده لهذه النبوة العظمى والخاتمة والتي معها من المعجزات ما يجعل العقل يذعن إذعاناً كاملاً لصدقها فيُسلم. فلما لم يؤمن بها، يكون قد ردها وكفر بها، والإنسان يكون كافراً برده لنبوة أي نبي من الأنبياء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء:١٥٠-١٥١]. وهذا السبب للكفر غير موجود في ملة المسلمين؛ لأن الإسلام علمهم أن شرط إيمانهم أن يؤمنوا بكل أنبياء الله ورسله فآمنوا بذلك فعلاً وهو أحد أركان الإيمان الستة.. قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وقال ﷺ في حديث جبريل عليه السلام وقد جاء في صورة رجل يسأل النبي ﷺ بحضور الصحابة ليعلمهم دينهم فقال: (... فأخبرني عن الإيمان: قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت...)[١٠٨].

ويدل على مسؤولية الناس جميعاً عن الإسلام قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقوله تعالى مخاطباً

(١٠٨) رواه الستة: البخاري (٤٨) و(٤٤٠٤) ومسلم (٩) واللفظ له، ومسلم أيضاً (١٠) و(١١)، والترمذي (٢٥٣٥)، والنسائي (٤٩٠٤)، وأبو داود (٤٠٧٥)، وابن ماجة (٦٢) و(٦٣).

النبي ﷺ والمؤمنين ومبيناً للكافرين الشرط في الإنسان لكي يعد مؤمناً: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٧-١٣٨]، فبعد بعثة محمد ﷺ لا يقبل الله من سكان الأرض ديناً غير الإسلام ولا عبادة إلا باتباع سيد الأنام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فعلى الخلق كلهم اتباع محمد ﷺ، فلا يعبدون إلا الله، ويعبدونه بشريعة محمد ﷺ لا بغيرها قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٨-١٩] (ويجتمعون على ذلك ولا يتفرقون.» [(١٠٩)].

١٢٧- أقسام المسلمين في الدنيا: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات:

وأقسام المسلمين في الدنيا - على نحو ما قسم القرآن - ثلاثة: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات.. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [فاطر: ٣٢].

وأجمع المفسرون: أن (الكتاب) هو القرآن، وأن الأمة التي أورثها الله الكتاب هي أمة الإسلام.. الأمة المصطفاة، ثم جاء التقسيم الثلاثي يبين أحوالهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «هذه الأقسام الثلاثة في هذه الآية هم أمة محمد ﷺ خاصة، كما قال تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا..) وأمة محمد هم الذين أورثوا الكتاب بعد الأمم المتقدمة، وليس ذلك مختصاً بحفاظ القرآن، بل كل من آمن بالقرآن فهو من هؤلاء، وقسمهم إلى: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق، بخلاف الآيات التي في الواقعة والمطففين والانفطار، فإنها دخل فيها جميع الأمم المتقدمة كافرهم ومؤمنهم... وهذا التقسيم [الذي في الآية] لأمة محمد ﷺ :

---

(١٠٩) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١١/ ٥١٤.

فالظالم لنفسه: أصحاب الذنوب المصرون عليها. ومن تاب من ذنبه، أي ذنب كان، توبة صحيحة، لم يخرج بذلك عن السابقين والمقتصدين.

والمقتصد: المؤدي للفرائض المجتنب للمحارم.

والسابق بالخيرات: هو المؤدي للفرائض والنوافل المجتنب للمحارم والمكروهات»[110].

وتكلم ابن تيمية في موضع آخر عن الفريقين الثاني والثالث فقال:

«وأولياء الله على نوعين: مقربون، وأصحاب يمين.. فالأبرار، أصحاب اليمين: هم المتقربون إليه بالفرائض، يفعلون ما أوجب عليهم ويتركون ما حرم عليهم، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ولا الكف عن فصول المباحات. وأما السابقون المقربون: فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ففعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباته أحبهم الرب حباً تاماً كما قال تعالى - فيما يرويه النبي ﷺ عن ربه -: (ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)[111] يعني الحب المطلق»[112].

فتلك هي أقسام المسلمين: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله.. يعيشون عليها في الدنيا وقد يتقلب بعضهم من حال إلى حال.. ثم يلقون الله بها في الآخرة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

١٢٨- الفرق العظيم بين أصحاب هذه الأقسام:

وقد بين القرآن الفرق العظيم بين أصحاب هذه الأقسام جميعاً: تقسيم البشر إلى مسلم وكافر. ثم تقسيم المسلمين إلى ظالم لنفسه من جهة، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله من جهة أخرى، موضحاً حالهم في الدنيا ومبيناً الفرق العظيم بينهم في الدنيا والآخرة ونتيجتهم في الجزاء:

قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

---

(١١٠) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١١/ ١٨٢و١٨٣.
(١١١) البخاري:(٦٠٢١)، وأحمد (٢٤٩٩٧).
(١١٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى : ١١/ ١٧٦.

وقال جل ثناؤه: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨].

وقال عز وجل: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر: ٥٨].

وقال جل وعلا: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال تعالى في بيان الجزاء للمؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩] وقال: ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٤٩-٥٣]، وقال فيمن سواهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

هكذا.. هي الدنيا.. دار للامتحان والابتلاء. ما خلق الله السماوات والأرض لعباً وباطلاً، ولا خلق الإنسان سدىً عاطلاً ليأكل ويشرب ويسكن وينكح، أو يتمتع بما في الدنيا من السلطان والأموال والأجساد ثم يموت ولا شيء بعد ذلك !! فإن هذا عبث ينزه عنه الخالق الحكيم ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]. بل خلقه ليبتليه بالإيمان والعمل الصالح ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ﴾ [الملك: ٢] وهو نفسه عبادة الله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجاثية:٣٦- ٣٧].

وبهذا ننتهي من الكلام في الفصل الثاني المتعلق ببيان الغاية من خلق الدنيا ووجودنا فيها لنبدأ الفصل الثالث حيث الكلام عن رجوع العالمين إلى رب العالمين.








الفصل الثالث

الحقيقة الثالثة
رجوع العالمين إلى رب العالمين

وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: في بيان ترسيخ فكرة رجوع العالمين إلى رب العالمين.
- المبحث الثاني: في بيان أن رجوع العالمين إلى رب العالمين يبدأ بالموت، وأحوال الناس فيه.
- المبحث الثالث: في قيام الساعة وما يرافقها من أهوال.
- المبحث الرابع: في البعث والنشور وأدلته.
- المبحث الخامس: في كلمات جامعة في مشاهد اليوم الآخر.








الفصل الثالث

الحقيقة الثالثة

رجوع العالمين إلى رب العالمين

١٢٩- تمهيد وتقسيم:

يؤمن المسلم أن الخلق راجعون إلى الله تعالى بعد الموت، وأنهم مردودون إلى الله تعالى وملاقوه للحساب والجزاء الذي نتيجته: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧]، ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤].. فريق قد ربح ربح الأبد وسعد سعادة الأبد في جنات النعيم، وفريق قد خسر خسارة الأبد وشقي شقاوة الأبد في نيران الجحيم. قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٥-١٠٨].

١٣٠- إيمان المسلم باليوم الآخر يجب أن يكون يقينياً:

وإيمان المسلم باليوم الآخر والرجوع إلى الله تعالى، ثم الجزاء، إيمان يقيني لا يخالطه ذرة من الشك، قال تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، وقال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]، وقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣].

فتصديق المسلم بيوم الدين هو تصديق يقيني، فمثلما هو موقن بأنه موجود الآن ويوقن أثناء قيامه بالنطق أنه ينطق، ونطقه دليل قطعي يقيني على وجوده ونطقه معا

وليس عنده في ذلك ذرة من الشك، كذلك يكون يقينه بالرجوع إلى الله، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣].

قال ابن كثير: «قوله تعالى: (فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون): يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة وهو حق لا مرية فيه فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون، وكان معاذ رضي الله عنه إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك ههنا»[١١٣].

ومن أجل تجلية هذه الحقيقة الكبرى وإيضاحها وبرهانها سنقسم هذا الفصل إلى خمسة مباحث :

المبحث الأول: في بيان عناية القرآن الكريم بترسيخ فكرة رجوع العالمين إلى الله تعالى.

والمبحث الثاني: في بيان أن رجوع العالمين إلى الله يبدأ بالموت وبيان أحوال الناس فيه.

والمبحث الثالث: في قيام الساعة وما يرافقها من أهوال.

والمبحث الرابع: في البعث والنشور وأدلته.

والمبحث الخامس: في كلمات جامعة في مشاهد اليوم الآخر.

---

(١١٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٣٦.

المبحث الأول
عناية القرآن الكريم بترسيخ فكرة رجوع العالمين إلى الله تعالى

١٣١- تمهيد:

اعتنى القرآن الكريم عناية بالغة بترسيخ فكرة رجوع العالمين إلى الله تعالى للحساب والجزاء، وتتجلى هذه العناية باستعمال القرآن الكريم مختلف الأساليب وأنواع الخطاب لبيان الرجوع إلى الله تعالى.

١٣٢- استعمال القرآن مختلف الأساليب وأنواع الخطاب لبيان الرجوع إلى الله تعالى:

فقد استعمل القرآن الكريم مختلف الأساليب وأنواع الخطاب لكي يجلي للناس هذه الحقيقة حتى لا يبقى معها ذرة من الشك في صدور المؤمنين. ويكون ذلك حجة على الخلق أجمعين.

فاستعمل كلمة (**الرجوع**) إلى الله ومشتقاتها، وكلمة (**الرد**) إلى الله ومشتقاتها، وكلمة (**لقاء**) الله ومشتقاتها، وكلمة (**الحشر**) إلى الله ومشتقاتها، وكلمة (**المصير**) إلى الله تعالى، وكلمة (**الإتيان**) إلى الله، وكلمة (**الجمع**)، وكلمة (**البعث**)، ويحسن بالقارئ الكريم أن يتأمل كل آية مما سنورده من الآيات مستوعباً الغرض الإضافي المقصود في كل سياق تأتي فيه الكلمة المختارة للدلالة على رجوع العالمين إلى الله مقترنة بغرض إضافي مقصود.

١٣٣-١- استعمال كلمة (الرجوع) إلى الله ومشتقاتها لبيان رجوع العالمين إلى الله:

وقد وردت كلمة (الرجوع) إلى الله ومشتقاتها في القرآن كثيراً، فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

﴿ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٦].

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم: ١١].

﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١].

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨٣].

﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت: ٢١].

﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٥].

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [الجاثية: ١٥].

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣].

﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٦].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم: ٤٠].

﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ [العلق: ٨].

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [يونس: ٤].

فهذه أمثلة ليست على سبيل الحصر من آيات التنزيل العزيز تبين حقيقة رجوع العالمين إلى رب العالمين.

١٣٤-٢- استعمال كلمة (الرد) إلى الله ومشتقاتها لبيان رجوع العالمين إلى الله:

فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٢].

﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [التوبة:٩٤].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ ﴾ [القصص: ٨٥].

﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: ٤٣].

١٣٥-٣- استعمال كلمة (لقاء) الله ومشتقاتها لبيان رجوع العالمين إلى الله:

فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٧].

﴿ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣١].

﴿ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

﴿ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢].

﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف:١١٠].

﴿ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ ﴾ [العنكبوت: ٥].

﴿ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم: ٨].

﴿ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [يونس: ١١].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾ [الكهف: ١٠٥].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

﴿ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٥-١٦].

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٦].

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦].

١٣٦-٤- استعمال كلمة (الحشر) ومشتقاتها لبيان رجوع العالمين إلى الله:

فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٧٢].

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ [يونس: ٤٥].

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٥-١٢٦].

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٦٨].

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجر: ٢٥].

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٨].

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٢].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٩].

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١].

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٤].

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق: ٤٤].

١٣٧-٥- استعمال كلمة (المصير) ومشتقاتها لبيان رجوع العالمين إلى الله:

فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: ٢٨].

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٨].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحج: ٤٨].

﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ٣].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ [ق: ٤٣].

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التغابن: ٣].

١٣٨-٦-استعمال كلمة (الإتيان) ومشتقاتها لبيان رجوع العالمين إلى الله:

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم: ٩٣-٩٤].

﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٥].

﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٤٨].

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [طه: ٧٤].

﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ [طه: ٧٥].

﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٠].

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [مريم: ٣٨].

١٣٩- ٧- استعمال كلمة (الجمع) ومشتقاتها لبيان جمع العالمين إلى الله:

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المرسلات: ٣٨].

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٥].

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴾ [الكهف: ٩٩-١٠٠].

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ ﴾ [الجاثية: ٢٦].

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ ﴾ [التغابن: ٩].

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧].

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢].

﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ٩].

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣].

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

١٤٠- ٨- استعمال كلمة (البعث) ومشتقاتها لبيان رجوع العالمين إلى الله:

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: ٦].

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦].

﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: ٢٨].

﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦].

﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

١٤١- ٩- استعمال كلمات أخرى في القرآن غير ما تقدم:

وزيادة على ما تقدم استعمل القرآن كلمات أخرى لإثبات رجوع العالمين إلى ربهم تعالى للحساب والجزاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] وقال: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢] ومثلها: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وقال: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، وقال: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦] ومثلها: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]، وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨] ومثلها: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ٤٨] ومثلها: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٩-٣٠]، وقال: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١١-١٢]، وقال: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

وهكذا ترى أن آيات التنزيل العزيز كررت البيان وأكدته ونوعته ووسعته بما يجلي حقيقة رجوع العالمين إلى رب العالمين ولقائه، بما يولد اليقين التام، وبما لا يبقى حجة للإنس والجن بعد هذا البيان، لئلا تأتي نفس يوم القيامة وتقول: ما كنت أعلم، وما كنت أدري، ولم أفهم الخطاب بشأن رجوع العالمين إلى رب العالمين.

والإيمان برجوع العالمين إلى رب العالمين، هو نفسه الإيمان باليوم الآخر الذي هو ركن من أركان الإيمان، لا إيمان بدونه، وهذا البيان الجلي الواضح الموسع ينبه الخلق ويوقظهم للإنابة إلى الله قبل فوات الأوان، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٨] وقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

المبحث الثاني
رجوع العالمين إلى الله يبدأ بالموت ، وبيان أحوال الناس فيه

١٤٢- تمهيد:

رجوع العالمين إلى رب العالمين يبدأ بالموت وهو أول منازل الآخرة، ثم حياة البرزخ، ثم قيام الساعة، ثم ما بعدها من مشاهد القيامة من: البعث والنشور، والحشر، والعرض والحساب، والميزان، وتقسيم الأنوار، والصراط، ثم استقرار الناس فريقين.. فريق في جنات النعيم قد فاز فوز الأبد وربح ربح الأبد وفريق في نيران الجحيم قد خسر خسارة الأبد. جعلنا الله والقارئ الكريم والمسلمين والمسلمات من أهل جنات النعيم برحمته وفضله وإحسانه ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

١٤٣- مشاهد الموت وما بعده في القرآن والسنة:

وسنقدم بياناً موجزاً مستخلصاً من الكتاب والسنة عن المراحل التي ذكرناها من الموت وما بعده في فقرات متتالية.

١٤٤- أولا - الموت:

الموت مصير كل حي، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، ولم يكتب الله تعالى لبشر الخلد في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، والإنسان بغريزته يحاول الفرار من الموت ولكن دون جدوى، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨]، وقال: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

١٤٥- تعريف الموت:

عرفه القرطبي فقال: «الموت ليس بعدم محض، ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار»[١١٤].

---

(١١٤) القرطبي: التذكرة ص٤.

والروح بعد مفارقتها للجسد تبقى سامعة مبصرة مدركة تحس وتدرك ما يجري من تفاصيل حياة البرزخ وما فيها من نعيم القبر وعذاب القبر حسبما دل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية.

وهي الشيء الحساس السامع المبصر المدرك فينا، تستخدم أجهزة الجسد ما دامت فيه فتستخدم العين للإبصار والأذن للسمع والدماغ للتعقل فإذا فارقت الروح الجسد فقدت هذه الأجهزة جميعا قدرتها، وذلك مشاهد ومعلوم في الدقائق الأولى للموت، فالعين سليمة ولا تبصر، والأذن سليمة ولا تسمع، والدماغ سليم ولا يعقل، فما الذي جرى ؟ والجواب: فارقتها الروح التي هي السامعة المبصرة المدركة.

١٤٦- ثانيا - حضور الملائكة لقبض الروح:

قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١].

وقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦١-٦٢].

وفي السنة النبوية الكثير من الأحاديث الشريفة التي تبين حضور الملائكة لقبض الروح في الصحيحين وغيرهما، سيأتي ذكرها بعد قليل إن شاء الله.

١٤٧- ثالثا - أقسام الناس ساعة الموت وتعامل الملائكة معهم:

١٤٨-١- في القرآن الكريم:

١٤٩- أ- حال المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين:

بين القرآن الكريم أقسام الناس عند حضور الموت وحضور الملائكة لقبض الروح، وما يكون حال كل قسم من هذه الأقسام، فقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٥].

وهكذا قسم القرآن الذين يحضرهم الموت إلى ثلاثة أقسام: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين، وبين حال كل منهم ساعة الموت وبعده.

وننقل هنا ما ذكره ابن كثير في تفسيره لهذه الآيات - مشذباً ومختصراً - قال[115]:

«يقول تعالى: (فلولا إذا بلغت) أي: الروح، (الحلقوم) أي: الحلق، وذلك حين الاحتضار، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٤] أي: إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥] أي: بملائكتنا [وقال الشوكاني: أي بالعلم والقدرة والرؤية، وقيل: أراد ورسلنا الذين يتولون قبضه أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون، أي: لا تدركون ذلك لجهلكم بأن الله أقرب إلى عبده من حبل الوريد، أو لا تبصرون ملائكة الموت الذين يحضرون الميت ويتولون قبضه][116]، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] أي: ولكن لا ترونهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١-٦٢]. وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ﴾ [الواقعة: ٨٦-٨٧] معناه: فهلا ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ومقرها من الجسد إن كنتم غير مدينين قال ابن عباس: يعني محاسبين[117]...

---

(١١٥) تفسير ابن كثير ج: ٤ ص: ٣٠٠-٣٠٢.

(١١٦) الشوكاني: فتح القدير ٥/ ١٦١ وجمهور المفسرين على هذا القول. انظر تفسير القرطبي ١٧/ ٢٣١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩١، وتفسير زاد المسير ٨/ ١٥٤، وتفسير روح المعاني ٢٧/ ١٥٨.

(١١٧) ولخص صاحب زاد المسير (ج: ٨ ص: ١٥٥-١٥٦) الأقوال التي وردت في معظم التفاسير في تفسير قوله تعالى: (فلولا إن كنتم غير مدينين) فقال:
«قوله تعالى: (غير مدينين) فيه خمسة أقوال: أحدها: محاسبين رواه الضحاك عن ابن عباس وبه قال الحسن وابن جبير وعطاء وعكرمة، والثاني: موقنين قاله مجاهد والثالث: مبعوثين قاله قتادة، والرابع: مجزيين ومنه يقال دنته وكما تدين تدان قاله أبو عبيدة، والخامس: مملوكين أذلاء =

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم: إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين، وإما أن يكون من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى الجاهلين بأمر الله، ولهذا قال تعالى:

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ ﴾ [الواقعة: ٨٨] أي: المحتضر ﴿ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٨] وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات، ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٩] أي: فلهم روح وريحان وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت كما تقدم في حديث البراء أن ملائكة الرحمة تقول: أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان...

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٩٠] أي: وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٩١]، أي: تبشرهم الملائكة بذلك، تقول لأحدهم: سلام لك أي لا بأس عليك، أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين، وقال قتادة وابن زيد: سلم من عذاب الله وسلمت عليه ملائكة الله، كما قال عكرمة: تسلم عليه الملائكة وتخبره أنه من أصحاب اليمين، وهذا معنى حسن، ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]...

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٤] (أي: وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى (فنزل) أي: فضيافة من حميم وهو المذاب الذي يصهر فيه ما في بطونهم والجلود (وتصلية جحيم) أي: وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته.

= من قولك دنت له بالطاعة قاله ابن قتيبة. قلت: وفي تفسير روح المعاني ٢٧/ ١٥٨: (فلولا إن كنتم غير مدينين): أي مربوبين، من دان السلطان الرعية إذا ساسهم وتعبدهم. اهـ. قلت: والمعنى الأقرب عندي هو: فلولا إن كنتم غير مربوبين مملوكين مقهورين ترجعونها أي ترجعون هذه الروح إلى مكانها في الجسد. والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] أي: إن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه ولا محيد لأحد عنه»[١١٨].

١٥٠- ب - حال المؤمنين خاصة ساعة الموت:

وبين القرآن الكريم حال المؤمنين خاصة عند الموت، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤][١١٩]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]..

جاء في تفسير ابن كثير: «وقوله تعالى: (تتنزل عليهم الملائكة) قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم وابنه: يعني عند الموت قائلين: (أن لا تخافوا) قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم: أي: مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، (ولا تحزنوا) على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين فإنا نخلفكم فيه.

---

(١١٨) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٠٠-٣٠٢ (باختصار مع المحافظة على عبارته).

(١١٩) جاء في تفسير القرطبي: «قوله تعالى: (لهم البشرى في الحياة الدنيا): عن أبي الدرداء قال: سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: (ما سألني أحد عنها غيرك منذ أنزلت، هي: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له) أخرجه الترمذي في جامعه، وقال الزهري وعطاء وقتادة: هي البشارة التي تبشر الملائكة المؤمن في الدنيا عند الموت، وعن محمد بن كعب القرظي قال: إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال: السلام عليك ولي الله، الله يقرئك السلام ثم نزع بهذه الآية: (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم) ذكره ابن المبارك وقال قتادة والضحاك: هي أن يعلم أين هو من قبل أن يموت» (تفسير القرطبي ٨/ ٣٥٨).

(وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير، بشرى الذين استقاموا، وهذا كما جاء في حديث البراء ﷺ قال: إن الملائكة تقول لروح المؤمن اخرجي أيتها الروح الطيبة من الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان، وقيل: إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. حكاه ابن جرير عن ابن عباس والسدي، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة حدثنا عبدالسلام بن مطهر حدثنا جعفر بن سليمان قال: سمعت ثابتاً قرأ سورة حم السجدة حتى بلغ: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة) فوقف فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله تعالى من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا فيقولان: لا تخف ولا تحزن، (وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) قال: فيؤمن الله تعالى خوفه ويقر عينه، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين لما هداه الله تبارك وتعالى ولما كان يعمل له في الدنيا.

وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث، ورواه ابن أبي حاتم، وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً وهو الواقع.

وقوله تبارك وتعالى: (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار نحن كنا أولياءكم أي قرنائكم في الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم»[١٢٠].

١٥١- ج - حال الكافرين والضالين خاصة ساعة الموت:

وبين القرآن الكريم حال الكافرين والضالين خاصة ساعة الموت، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٣٧]، قال ابن كثير في تفسيرها: «وقوله: (حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) الآية، يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت

---

(١٢٠) تفسير ابن كثير ٤/ ١٠٠.

المشركين تفزعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار يقولون لهم أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله ؟ ادعوهم يخلصونكم مما أنتم فيه، (قالوا ضلوا عنا) أي: ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم، (وشهدوا على أنفسهم) أي: أقروا واعترفوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين»[١٢١].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢١-٢٢] أي تقول لهم الملائكة - في أحد وجوه التفسير -: حرام محرماً أن تكون لكم البشرى، أو تقول لهم: حرام محرماً أن تدخلوا الجنة[١٢٢].

ومثله قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

١٥٢-٢- في السنة النبوية:

١٥٣- تعامل الملائكة مع المحتضر بحسب حاله ساعة قبض الروح وعقيبها:

قد جاء في السنة النبوية الكثير من الأحاديث التي تبين تعامل الملائكة مع المحتضر بحسب حاله وما إذا كان نفساً طيبة أو نفساً خبيثة وكلها تبين وتفسر ما جاء في الآيات السابقة التي ذكرناها، ومنها حديث البراء بن عازب ﷺ المشهور الذي استشهد به الكثير من العلماء والمفسرين، وهو حديث جامع نذكره بنصه، ونذكر في الحاشية تفصيلات تتعلق بدرجة الحديث.

---

(١٢١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢١٣.

(١٢٢) تفسير زاد المسير ٦/ ٨١. وانظر: تفسير القرطبي ١٣/ ٢٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣١٥.

جاء في مسند أحمد: حدثنا أبو معاوية قال حدثنا الأعمش عن منهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال: (خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت في الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر، مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها، فلا يمرون - يعني بها - على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك ؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك ؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما علمك ؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير ؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت

حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتَفَرَّقَ في جسده، فينتزعها كما يُنتزَع السُّفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠] فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً، ثم قرأ: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج:٣١] فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب فأفرشوا له من النار وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث فيقول: رب لا تقم الساعة)[١٢٣].

---

(١٢٣) أحمد (١٧٨٠٣) وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٣٢) بعد أن أورد هذا الحديث نفسه عن الإمام أحمد: «ورواه أبو داود من حديث الأعمش والنسائي وابن ماجة من حديث المنهال بن عمرو» .
قلت: والسنن النبوية في معنى هذا الحديث كثيرة، ذكر كثيراً منها ابن كثير أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] (انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٣٣ ما بعدها).
ونظرا لأهمية هذا الحديث المشهور من حيث الأحكام المستنبطة منه واشتهاره بين العلماء فقد رأينا أن نثبت هنا تعليقاً مفصلاً لشيخ الإسلام ابن تيمية في بيان درجة الحديث ورواته، قال: «وحديث البراء المتقدم أطول ما في السنن فإنهم اختصروه لذكر ما فيه من عذاب القبر وهو في المسند وغيره بطوله وهو **حديث حسن ثابت**» (مجموع الفتاوى ج:٤ ص:٢٩٠). وقال في موضع آخر كلاماً مفصلاً بشأن هذا الحديث في (مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٤٣٨-٤٤٢) قال: «ففي الحديث المشهور حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في قبض الروح وفتنة القبر وقد رواه الإمام =

١٥٤- رابعا - القبر أول منازل الآخرة وما يكون فيه:

وبموت الإنسان يكون قد دخل في حياة البرزخ التي هي حال الإنسان في القبر وما يجري عليه من سؤال القبر الذي يتقرر به حاله في البرزخ كما ورد في حديث البراء الذي أوردناه قبل قليل ولذلك قال العلماء: إذا مات ابن آدم فقد قامت قيامته والتي سماها بعض العلماء بالقيامة الصغرى حيث يتقرر بسؤال الملكين حاله في القبر من نعيم أو عذاب كما قال ﷺ: (القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران)[١٢٤].

= أحمد وغيره ورواه أبو داود أيضاً واختصره وكذلك النسائي وابن ماجه ورواه أبو عوانة في صحيحه بطوله وفي روايته عن زاذان: سمعت البراء، وذلك يبطل قول من قال إنه لم يسمعه منه، ورواه الحاكم في صحيحه من حديث أبي معاوية قال: حدثنا الأعمش حدثنا المنهال بن أبى عمرو عن أبى عمر زاذان عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فانتهينا إلى القبر ولما يلحد وذكر الحديث بطوله، ورواه الحاكم أيضا من حديث محمد بن فضيل قال: حدثنا الأعمش فذكره وقال في آخره حدثنا فضيل حدثني أبي عن أبي حازم عن أبي هريرة بهذا الحديث إلا أنه قال: أرقد رقدة كرقدة من لا يوقظه إلا أحب الناس إليه، قال: وقد رواه شعبة وزائدة وغيرهما عن الأعمش، ورواه مؤمل عن الثوري عنه قال: وهو على شرطهما قد احتجا بالمنهال بن عمرو قال: وقد روى ابن جرير عن شعبة عن أبى إسحاق عن البراء قال: ذكر النبي المؤمن والكافر ثم ذكر طرفاً من حديث القبر، وقد رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الرزاق حدثنا معمر عن يونس بن خباب عن المنهال بن عمرو الحديث بطوله، قال: وكذلك أبو خالد الدالاني وعمرو بن قيس الملائي والحسن بن عبيد الله النخعي عن المنهال... وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: وأما حديث البراء الذي رواه المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء فحديث مشهور رواه عن المنهال الجم الغفير ورواه عن البراء عدي بن ثابت ومحمد بن عقبة وغيرهما ورواه عن زاذان عطاء بن السائب قال: وهو حديث أجمع رواة الأثر على شهرته واستفاضته، وقال الحافظ أبو عبد الله بن منده: هذا الحديث إسناده متصل مشهور رواه جماعة عن البراء، وقال الإمام أحمد في المسند: حدثنا أبو معاوية ثنا الأعمش عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال خرجنا... قلت [أي ابن تيمية]: هذا قد رواه عن البراء بن عازب غير واحد غير زاذان منهم عدي بن ثابت ومحمد بن عقبة ومجاهد قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن منده في كتاب الروح والنفس حدثنا محمد بن يعقوب بن يوسف ثنا محمد بن إسحاق الصغاني ثنا أبو النضر هاشم بن قاسم ثنا عيسى بن المسيب عن عدى بن ثابت عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله في جنازة رجل من الأنصار... ».

(١٢٤) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب القبر يقول للمؤمن: مرحباً وأهلاً ٧/ ١٦٧ عن أبي سعيد الخدري وقال: حسن غريب.

١٥٥- حياة البرزخ وسؤال القبر:

١٥٦- أ- معنى البرزخ:

البرزخ لغة: هو الحاجز بين شيئين، وفي الآية: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠]، أي: حاجز بينهما من أن يختلط أحدهما بالآخر.

والبرزخ اصطلاحاً: الحاجز بين الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] [(١٢٥)].

وعلى ذلك فالبرزخ: الحاجز، يحجز الميت عن الرجوع إلى الدنيا لأنه مات، ويحجزه عن الذهاب إلى الآخرة لأن الساعة لم تقم بعد، فهو في قبره في حياة البرزخ بانتظار قيام الساعة والبعث والنشور.

١٥٧- ب - سؤال القبر:

ويراد به: أن الله تعالى يحيي العبد المكلف في قبره برد الحياة إليه، يجعله من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه، ليعقل ما يسأل عنه، وما يجيبه، ويفهم ما أتاه من ربه، وما أعد له في قبره من كرامة أو هوان» [(١٢٦)].

وقد جاء سؤال الملكين في الصحيحين:

١- عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: (إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل لمحمد ﷺ ؟

فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً.

وأما المنافق والكافر، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس. فيقال: لا دريت ولا تليت. ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين) [(١٢٧)].

---

(١٢٥) النهاية لابن الأثير مادة (برزخ). ولوامع الأدلة البهية للسفاريني ٢/ ٤.

(١٢٦) القرطبي: التذكرة ص١٢٤.

(١٢٧) متفق عليه: البخاري كتاب الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر ٢/ ١٢٣. وصحيح مسلم، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت ٤/ ٢٢٠٠.

ومن هنا كان القبر كما جاء في الحديث الشريف: (القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران)[١٢٨].

٢- حديث البراء بن عازب: أن رسول الله ﷺ قال: المسلم إذا سئل في القبر، يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وفي لفظ مسلم: فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد ﷺ، فذلك قوله عز وجل: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧][١٢٩].

١٥٨- ج - نعيم القبر وعذاب القبر في القرآن والسنة:

جاء الدليل على نعيم القبر وعذاب القبر في القرآن الكريم والسنة النبوية:

فمما جاء في القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقوله تعالى بمناسبة الكلام عن عذاب آل فرعون: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦]، فقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ يدل على أن ما قبل يوم القيامة من النار التي يعرضون عليها غدواً وعشياً هي عذابهم في القبر.

وقد نقل علماء التفسير الكثير من أقوال السلف التي تدل على عذاب القبر لمستحقيه في تفسير الآية السابقة، وذكروا آيات أخرى - أحد وجوه تفسيرها: عذاب القبر - منها قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة: ١٠١]، وقوله تعالى:

---

(١٢٨) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب القبر يقول للمؤمن: مرحبا وأهلا ٧/ ١٦٧ عن أبي سعيد الخدري وقال: حسن غريب.

(١٢٩) متفق عليه: صحيح البخاري ٦/ ١٠٠، وصحيح مسلم ٤/ ٢٢٠١.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ [غافر: ١١]، ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ١-٣] تعني: في القبور.

ومما جاء في السنة النبوية:

١- قوله ﷺ في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (إنهم - أي أهل القبور المستحقون العذاب - يعذبون عذاباً تسمعه البهائم كلها)[١٣٠].

٢- حديث أنس بن مالك وحديث البراء بن عازب المتقدم ذكرهما في فقرة: سؤال القبر، وكلاهما في الصحيحين.

٣- وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة)[١٣١].

٤- وفي الصحيحين عن عائشة (أن رسول الله ﷺ كان يدعو بهذه الدعوات: اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار، وعذاب النار، وفتنة القبر، وعذاب القبر...)[١٣٢] الحديث.

والأحاديث الواردة في فتنة القبر وعذابه ونعيمه في الصحيحين وغيرهما كثيرة مستفيضة[١٣٣].

١٥٩- تصور عذاب القبر ونعيمه:

قال الجمهور: إننا نؤمن بما ورد في الأخبار، ولله أن يفعل ما يشاء من عقاب ونعيم، ويصرف أبصارنا، ويغيبه عنا.

فلو كان الميت بيننا موضوعاً، فلا يمتنع أن يأتيه الملكان، ويسألانه، ويجيبهما من غير أن يشعر الحاضرون بهما، ومثال ذلك:

---

(١٣٠) متفق عليه: البخاري (٥٨٨٩) كتاب الدعوات، باب التعوذ من عذاب القبر ٨/ ٩٨ واللفظ له، وصحيح مسلم (٩٢٢)، المساجد، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر ١/ ٤١١.

(١٣١) متفق عليه: البخاري(١٢٩٠) و(٣٠٠١)، ومسلم (٥١١٠)و(٥١١١).

(١٣٢) متفق عليه: البخاري (٥٩٠٠)، ومسلم (٤٨٧٧).

(١٣٣) وقد ذكر ابن القيم عددا كبيرا منها في: حاشية ابن القيم ١٣/ ٦٦-٦٩.

نائمان بيننا، أحدهما ينعم، والآخر يعذب، ولا يشعر بذلك أحد من حولهما(١٣٤).

وليس للعقل وقوف على كيفية عود الروح إلى الجسد، وكيفية عذاب القبر ونعيمه، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والرسل لا يأتون بما تحيله العقول، ولكن قد يأتون بما تحار به العقول (١٣٥).

١٦٠- عذاب القبر ونعيمه ليس من جنس المعهود في الدنيا:

قال النبي ﷺ: (إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار)(١٣٦) وهو بيان لما في القبر من نعيم وعذاب.

ويجب أن يعلم أن ذلك ليس من جنس نار الدنيا ونعيمها، والله تعالى قادر على أن يحمي التراب والحجارة التي فوقه وتحته، حتى يكون أعظم حرّاً من جمر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بها، بل أعجب من ذلك أن الرجلين يدفن أحدهما إلى جنب صاحبه، أحدهما في روضة من رياض الجنة والآخر في حفرة من النار، لا يصل من أحدهما حر ناره أو نعيمه إلى الآخر. ولو أطلع الله تعالى على ما هو محجوب عن إدراك العقول، لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب(١٣٧).

١٦١- عذاب القبر ونعيمه ينال مستحقه وإن لم يقبر:

وعذاب القبر ونعيمه هو عذاب البرزخ ونعيمه، وهو ينال مستحقه سواء قبر أم لم يقبر، أكلته السباع، أو احترق حتى صار رماداً ونسف في الهواء(١٣٨).

وما ورد عن النبي ﷺ من إجلاس الميت واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير...، لأن الدور ثلاث، لكل دار أحكام تخصها، وهي:

---

(١٣٤) القرطبي: التذكرة ص١٢٦. وإحياء علوم الدين للغزالي ١/ ١١٩ و ٤/ ٤٨٥.

(١٣٥) شرح العقيدة الطحاوية ط٣ المكتب الإسلامي بدمشق ٣٨٨-٣٨٩.

(١٣٦) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب القبر يقول للمؤمن: مرحباً وأهلاً ٧/ ١٦٧ عن أبي سعيد الخدري وقال: حسن غريب.

(١٣٧) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٨٩ وما بعدها. والروح لابن القيم ص٦٦.

(١٣٨) ابن القيم: الروح ص٥٨.

أ- دار الدنيا: وأحكامها على الأبدان، والأرواح تبعاً لها.
ب- دار البرزخ: وأحكامها على الأرواح، والأبدان تبعاً لها.
ج- دار القرار: وأحكامها على الأرواح والأبدان جميعاً. (١٣٩)

١٦٢- السنة النبوية ذكرت أعمالاً خاصة تنجي من أهوال خاصة في القبر وغيره:

نذكر فيما يلي حديثاً مهماً يذكر أعمالاً خاصة تنجي من أهوال خاصة في الدنيا وفي البرزخ وفي يوم القيامة وقد أورده ابن القيم في عدد من مصنفاته وقدم له بقوله: «وفي هذا الحديث العظيم الشريف القدر الذي ينبغي لكل مسلم أن يحفظه فنذكره بطوله لعموم فائدته وحاجة الخلق إليه»(١٤٠) ولشيخ الإسلام ابن تيمية وكذلك ابن كثير والقرطبي تعقيبات بشأن حسن هذا الحديث وأهميته نذكرها في الهامش بعد إيراد الحديث.

عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة بن جندب قال: (خرج علينا رسول الله يوما وكنا في صفة بالمدينة، فقام علينا فقال: إني رأيت البارحة عجباً: رأيت رجلاً من أمتي أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد ملك الموت عنه. ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك. ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله عز وجل فطرد الشيطان عنه. ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم. ورأيت رجلاً من أمتي يلهب - وفي رواية يلهث - عطشاً كلما دنا من حوض منع وطرد فجاءه صيام شهر رمضان فأسقاه وأرواه. ورأيت رجلاً من أمتي ورأيت النبيين جلوساً حلقاً حلقاً كلما دنا إلى حلقة طرد فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي. ورأيت رجلاً من أمتي بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة وهو متحير فيها فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور. ورأيت رجلا من أمتي يتقي بيده وهج النار وشررها فجاءته صدقته فصارت سترة بينه وبين النار وظللت على رأسه. ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمونه فجاءته صلته لرحمة فقالت: يا معشر المسلمين إنه كان وصولاً لرحمه فكلموه فكلمه

(١٣٩) ابن القيم: الروح ص ٦٢ وما بعدها.
(١٤٠) ابن القيم: الوابل الصيب ١/ ١١٢-١١٣ وكتاب الروح ١/ ٨٢.

المؤمنون وصافحوه وصافحهم. ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الزبانية فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله في ملائكة الرحمة. ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه وبينه وبين الله عز وجل حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذه بيده فأدخله على الله عز وجل. ورأيت رجلاً من أمتي قد ذهبت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه، ورأيت رجلاً من أمتي خف ميزانه فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه. ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم فجاءه وجله من الله عز وجل فاستنقذه من ذلك ومضى. ورأيت رجلاً من أمتي قد هوى في النار فجاءته دمعته التي بكى من خشية الله عز وجل فاستنقذته من ذلك. ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة في ريح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكَّن رِعدته ومضى. ورأيت رجلاً من أمتي يزحف على الصراط ويحبو أحياناً فجاءته صلاته علي فأقامته وأنقذته، ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة)(١٤١).

(١٤١) مجمع الزوائد ٧/ ١٧٩، وفيض القدير ٣/ ٢١، وأورده ابن كثير في تفسيره ٢/ ٥٣٦ وقال: قال القرطبي بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه: هذا حديث عظيم ذكر فيه أعمالاً خاصة تنجي من أهوال خاصة أورده هكذا في كتابه التذكرة. قلت: وأورده ابن القيم في كتابه الوابل الصيب (١/ ١١٢-١١٣) وقال بعد إيراده الحديث: رواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب الترغيب في الخصال المنجية والترهيب من الخلال المردية وبنى كتابه عليه وجعله شرحاً له وقال: هذا حديث حسن جداً رواه عن سعيد بن المسيب عمرو بن آزر وعلي بن زيد بن جدعان وهلال أبو جبلة وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يعظم شأن هذا الحديث وبلغني عنه أنه كان يقول شواهد الصحة عليه.

المبحث الثالث
قيام الساعة وما يرافقها من أهوال

١٦٣- تمهيد: قيام الساعة هو البداية ليوم القيامة بكل مشاهده:

أكد القرآن الكريم أن الحياة الدنيا لها أجل مسمى عند الله تنتهي به هذه الحياة وينتهي امتحان الإنس والجن في كوكب الأرض ليبدأ حسابهم على ما قدموا من عمل في الحياة الدنيا، وذلك يكون بقيام الساعة التي بها تنتهي حياة جميع الأحياء في السماوات والأرض إلا من شاء الله.

فقيام الساعة هو البداية ليوم القيامة بكل مشاهده.

وقد ذكر القرآن الكريم مشاهد القيامة مفصلة في آيات كثيرة، وذكرها مجملة بقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٨-٦٩].

فالنفخة الأولى في الصور هي نفخة الصعق التي تصعق بها الخلائق كلها وبها يميت الله كل حي إلا من شاء الله، فتموت الأحياء في ذلك اليوم وينضمّون إلى الموتى الذين ماتوا قبل ذلك اليوم لكي يبعثوا وينشروا جميعاً في النفخة الثانية في الصور التي قال الله تعالى فيها: (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون).

ثم تتوالى المشاهد من البعث والنشور إلى الحشر ثم العرض والحساب والميزان والصراط ثم استقرار الناس فريقين: فريق في جنات النعيم وفريق في نيران الجحيم بحسب أعمالهم في الدنيا. كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: ١٠٥-١٠٨].

١٦٤- أسماء يوم القيامة في القرآن الكريم :

سمى القرآن الكريم يوم القيامة بأسماء كثيرة، تدل كثرتها ومعانيها على عظيم خطر ذلك اليوم، فمن تلك الأسماء:

١- **يوم القيامة**، وقد ورد هذا الاسم في التنزيل العزيز في سبعين موضعاً[١٤٢]، منها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ [النساء: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الشورى: ٤٥].

٢- **يوم الدين**[١٤٣]: كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٤-١٩]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الصافات: ٢٠].

٣- **اليوم الآخر**: كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

٤- **الساعة**: كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [الحج: ١]، وقوله: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

---

(١٤٢) أحصيتها من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي: ص٧٣٨-٧٨٩.

(١٤٣) والدين في لغة العرب: الجزاء والحساب، وسمي يوم الدين بذلك لأن الله تعالى يحاسب العباد ويجزيهم بأعمالهم في ذلك اليوم.

٥- **الطامة الكبرى**[١٤٤]: كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٤].

٦- **الحاقة**[١٤٥]: كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ [الحاقة:١-٣].

٧- **الغاشية**[١٤٦]: كما في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ [الغاشية: ١].

٨- **الواقعة**[١٤٧]: كما في قوله تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ [الواقعة:١-٢].

٩- **القارعة**[١٤٨]: كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة: ١-٣]، وقوله: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴾ [الحاقة: ٤].

---

(١٤٤) قال القرطبي: الطامة: الغالبة، من قولك: طم الشيء إذا علا وغلب، ولما كانت تغلب كل شيء كان لها هذا الاسم حقيقة دون كل شيء، قال الحسن: الطامة: النفخة الثانية، وقيل: حين يسار أهل النار إلى النار (تذكرة القرطبي: ٢٢٧).

(١٤٥) قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٧): «سميت بذلك لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد» وقال البخاري في صحيحه: «هي الحاقة لأن فيها الثواب وحواق الأمور، الحقة والحاقة واحد» قال ابن حجر شارح صحيح البخاري: «هذا أخذه من كلام الفراء، قال في معاني القرآن: الحاقة: القيامة، سميت بذلك لأن فيها الثواب وحواق الأمور... وقال غيره: سميت الحاقة لأنها أحقت لقوم الجنة ولقوم النار... وقيل لأنها حق لا شك فيه» (فتح الباري: ١١/ ٣٩٥).

(١٤٦) جاء في تفسير أبي السعود (ج: ٩ ص: ١٤٨): «الغاشية: الداهية الشديدة التي تغشى الناس بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها، وهي القيامة، من قوله تعالى: (يوم يغشاهم العذاب) الخ، وقيل: هي النار، من قوله تعالى: (وتغشى وجوههم النار) وقوله تعالى: (ومن فوقهم غواش) والأول هو الحق فإن ما سيروى من حديثها ليس مختصاً بالنار وأهلها بل ناطق بأحوال أهل الجنة أيضاً» وانظر أيضا: تفسير القرطبي:٢٠/ ٢٥، وتفسير ابن كثير: ٤/ ٥٠٣، وفتح القدير للشوكاني: ٥/ ٤٢٧.

(١٤٧) جاء في تفسير فتح القدير للشوكاني (ج: ٥ ص: ١٤٧): «قوله: (إذا وقعت الواقعة)، الواقعة: اسم للقيامة كالآزفة وغيرها، وسميت واقعة: لأنها كائنة لا محالة، أو لقرب وقوعها، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد».

(١٤٨) قال القرطبي: «سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها: يقال قد أصابتهم قوارع الدهر أي أهواله وشدائده» (التذكرة للقرطبي: ٢٠٩).

١٠- **الصاخة**[١٤٩]: كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ [عبس: ٣٣].

١١- **يوم البعث**: كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾ [الروم: ٥٦].

١٢- **يوم الخروج**: كما في قوله تعالى: ﴿ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ [ق: ٤٢]، وقوله: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣].

١٣- **يوم الفصل**: كما في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصافات: ٢١]، وقوله: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المرسلات: ٣٨]، وقوله: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴾ [النبأ: ١٧]، وقوله: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الدخان: ٤٠].

١٤- **يوم الخلود**: كما في قوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ [ق: ٣٤].

١٥- **يوم الحساب**: كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦]، وقوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر: ٢٧].

١٦- **يوم الآزفة**[١٥٠]: كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ [غافر: ١٨]، وقوله: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم: ٥٧-٥٨].

---

(١٤٩) قال ابن عباس الصاخة : اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده: قال ابن جرير لعله اسم للنفخة في الصور. وقال البغوي الصاخة يعني صيحة يوم القيامة سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها (تفسير ابن كثير ج: ٤ ص: ٤٧٤).

(١٥٠) جاء في تفسير فتح القدير (ج: ٥ ص: ١١٨) أزفت الآزفة: كما في قوله (اقتربت الساعة) أخبرهم بذلك ليستعدوا لها قال في الصحاح أزفت الآزفة يعني القيامة. وجاء في تفسير أبي السعود (ج: ٨ ص: ١٦٦): «أزفت الآزفة... أي دنت الساعة الموصوفة بالدنو في نحو قوله تعالى: (اقتربت الساعة) ».

١٧- يوم الجمع[(١٥١)]: كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧]. وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

١٨- يوم الوعيد: كما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠].

١٩- يوم التلاق[(١٥٢)]: كما في قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

٢٠- يوم التناد[(١٥٣)]: كما في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر:٣٢].

٢١- يوم التغابن[(١٥٤)]: كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

---

(١٥١) جاء في تفسير ابن كثير (ج: ٤ ص: ١٠٨) «قوله عز وجل: (وتنذر يوم الجمع): وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ... كقوله تعالى: (يوم يجمعكم ليوم الجمع) ».

(١٥٢) جاء في تفسير القرطبي (ج: ١٥ ص: ٣٠٠) « (يوم التلاق): قال ابن عباس وقتادة: يوم تلتقي أهل السماء وأهل الأرض، وقال قتادة أيضا وأبو العالية ومقاتل: يلتقي فيه الخلق والخالق، وقيل: العابدون والمعبودون وقيل: الظالم والمظلوم، وقيل: يلقى كل إنسان جزاء عمله، وقيل: يلتقي الأولون والآخرون على صعيد واحد روي معناه عن ابن عباس، وكله صحيح المعنى ».

(١٥٣) جاء في تفسير القرطبي (ج: ١٥ ص: ٣١٠ -٣١١): «وقراءة العامة التناد بتخفيف الدال وهو: يوم القيامة... سمي بذلك لمناداة الناس بعضهم بعضاً، فينادي أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار: أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة: أن أفيضوا علينا من الماء، وينادي المنادي أيضاً بالشقوة والسعادة: ألا إن فلان بن فلان قد شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وهذا عند وزن الأعمال، وتنادي الملائكة أصحاب الجنة: أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون، وينادي حين يذبح الموت: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت، وينادى كل قوم بإمامهم، إلى غير ذلك من النداء».

(١٥٤) جاء في تفسير ابن كثير (ج: ٤ ص: ٣٧٦): «وقوله تعالى: (ذلك يوم التغابن): قال ابن عباس: هو اسم من أسماء يوم القيامة وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار وكذا قال قتادة ومجاهد، وقال مقاتل بن حيان: لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ويذهب بأولئك إلى النار»، وجاء في تفسير أبي السعود (ج: ٨ ص: ٢٥٧): « (ذلك يوم التغابن): أي يوم غبن بعض الناس بعضاً بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس، وفي الحديث: (ما من عبد =

٢٢- يوم الحسرة[١٥٥]: كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم: ٣٩].

١٦٥- علم الساعة عند الله:

أخفى الله سبحانه وتعالى العلم بموعد الساعة عن المخلوقات، فلا يعلمها ملك أو نبي أو أي فرد من الناس، وإنما أخفاها الله تعالى لأنه أصلح للعباد، لئلا يتباطؤوا عن التوبة والتأهب والاستعداد لليوم الآخر، كما إن إخفاء وقت الموت أصلح لهم[١٥٦].

وقد ذكر القرآن الكريم تفرد الله جل جلاله بعلم الساعة في آيات عديدة منها: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ [لقمان: ٣٤][١٥٧].

= يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، وما من عبد يدخل النار إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة)، وتخصيص التغابن بذلك اليوم للإيذان بأن التغابن في الحقيقة هو الذي يقع فيه لا ما يقع في أمور الدنيا».

(١٥٥) جاء في تفسير القرطبي (ج: ١١ ص: ١٠٩): «قوله تعالى: (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر) روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: ما من أحد يدخل النار إلا وله بيت في الجنة فيتحسر عليه، وقيل: تقع الحسرة إذا أعطي كتابه بشماله، (إذ قضي الأمر): أي فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: ثم يقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) أخرجه البخاري بمعناه عن ابن عمر»، وانظر تفسير ابن كثير: ٣/ ١٢٣، وتفسير أبي السعود: ٥/ ٢٦٦.

(١٥٦) لوامع الأنوار البهية ج٢ ص٦٦.

(١٥٧) وانظر الآيات: (الأحزاب: ٦٣) و (فصلت:٤٧) و(الزخرف: ٨٥)و(النازعات: ٤٢- ٤٦).

وفي حديث الإيمان والإسلام: سأل جبريل الرسول ﷺ: (متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)(١٥٨).

١٦٦- مجيء الساعة بغتة:

ذكر القرآن مجيئها بغتة، وسرعة قيامها كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها أو هو أقرب، قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٠](١٥٩).

وقال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧].

وقال عز وجل: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم، والرجلان يتبايعان الثوب، فما يتبايعانه حتى تقوم، والرجل يلط(١٦٠) في حوضه فما يصدر حتى تقوم)(١٦١).

١٦٧- منكر الساعة كافر ضال ومعتد أثيم مصيره النار:

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

وقال عز وجل: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [المطففين: ١٠-١٢].

---

(١٥٨) متفق عليه. رواه البخاري ومسلم في كتاب الايمان. / اللؤلؤ والمرجان ص٢.

(١٥٩) وانظر الآيات: يوسف ١٠٧ والحج ٥٥ والزخرف ٦٦ ومحمد ١٨.

(١٦٠) اللقحة: القريبة العهد بالولادة من الإبل والغنم.. يلط: يطين ويصلح. والحديث من صحيح مسلم - كتاب الفتن - باب قرب الساعة ج٤ ص٢٢٧٠.

(١٦١) مسلم (٥٢٥٢).

وقال سبحانه: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١].

١٦٨- قرب الساعة:

أخبرنا القرآن الكريم بأن الساعة قد اقترب موعدها، في آيات عديدة:

كقوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١].

وقوله سبحانه: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١][١٦٢].

كما أخبرنا بأن أشراطها - أي علاماتها - قد جاءت، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ ﴾ [محمد: ١٨].

١٦٩- أهوال الساعة:

ذكر القرآن الكريم ما يكون في ذلك اليوم العظيم من الأهوال:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ١-٢].

وقال سبحانه: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير: ١-١٤][١٦٣].

---

(١٦٢) وانظر: الشورى ١٧ والنجم ٥٧.

(١٦٣) (التكوير): لف ضوء الشمس، فذهب انبساطه في الأفق، وزال أثره. (انكدرت): زالت وانقضت، أو أظلمت.(العشار): النوق اللاتي أتى على حملهن عشرة أشهر. (عطلت): تركت مهملة.(حشرت): جمعت. (سجرت): فجرت حتى تصير بحراً واحداً، أو تفجرت بالنار من باطن الأرض، أو تحت شرر كهربائي شديد، كما يحدث في البراكين. زوجت: أي قرنت النفوس بالأبدان، أو كل منها بشكلها، أو بكتابها وعملها.(نشرت): صحف الأعمال، فإنها تطوى عند الموت، وتنشر عند الحساب.(كشطت): قلعت وأزيلت، كما يكشط الإهاب عن الذبيحة.(أزلفت): قربت من المؤمنين.

هول ترتجف له الأرض، وتندك الجبال، وتنفطر السماء، وتتفرق الجموع، ويشيب الولدان، وكل منشغل بنفسه، وهو: إما مؤمن مستبشر، وإما فاجر خيم عليه الذل والعبوس، يرسم ذلك القرآن الكريم في صور حيه شاخصة، تتراءى للقارئ، فيتملاها، ويهتز لها الوجدان:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٧-١٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال عز وعلا: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤-٥].

وقال جل وعز: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٤-٤٢].

وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢١-٢٦][١٦٤].

---

(١٦٤) انظر هذه الآيات وغيرها وتصوير مشاهدها في كتاب: مشاهد القيامة في القرآن – سيد قطب.

١٧٠- قيام الساعة بالنفخ في الصور[١٦٥]:

ما ذكرناه من قيام الساعة يبدأ بالنفخ في الصور النفخة الأولى وهي نفخة الصعق الواردة في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، ويرى القرطبي وغيره أنها هي نفسها نفخة الفزع الواردة في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] أي: فزعوا فزعاً ماتوا فيه واستدل القرطبي لذلك بما يلي:

أ- ما جاء في الصحيحين - واللفظ لمسلم - عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً ؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة ؟ قال: أبيت)[١٦٦].

ب- رواية ابن المبارك عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ : بين النفختين أربعون سنة، الأولى: يميت الله تعالى بها كل حي، والأخرى: يحيى الله بها كل ميت. تفسير القرطبي، ١٣/ ٢٤٠.

ج- الاستثناء (إلا ما شاء الله) الوارد في الآيتين: (ونفخ في الصور فصعق..) و(ويوم ينفخ في الصور ففزع..) دال على أنهما واحدة.

وقال المفسرون: المنادي هو إسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور [١٦٧].

---

(١٦٥) الصور: قرن كالبوق، ينفخ فيه إسرافيل حين يأذن الله تعالى بقيام الساعة. أخرج الترمذي (١٧٠) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال ما الصور؟ قال: (قرن ينفخ فيه) قال: حسن صحيح. قال مجاهد: الصور كالبوق. ذكره البخاري.

(١٦٦) أي: أبيت أن أجزم بأن المراد أربعون يوماً أو شهراً أو سنة، بل الذي أجزم أنها أربعون مجملة. والحديث في صحيح مسلم - كتاب الفتن - باب ما بين النفختين ج٤ ص٢٢٧٠ وصحيح البخاري بلفظ مقارب إرشاد الساري ج٧ ٣٢٣.

(١٦٧) لوامع الأنوار البهية ٢/ ١٦١ وما بعدها، تذكرة القرطبي ١٦٥-١٨٥.

المبحث الرابع
البعث والنشور وأدلته

١٧١- تمهيد وتقسيم:

الكلام في البعث والنشور يتطلب التعريف به وبيان حقيقته، ثم تقديم الأدلة عليه، ولذلك انقسم هذا المبحث إلى مطلبين:

المطلب الأول: في التعريف بالبعث والنشور وبيان حقيقته.

والمطلب الثاني: في الأدلة على البعث والنشور.

المطلب الأول
التعريف بالبعث والنشور وبيان حقيقته

١٧٢- معاني: البعث، والنشور، والخروج:

البعث: هو المعاد الجسماني وهو إعادة خلق الموتى وبعثهم من قبورهم أحياء قد أحيا الله أجسادهم وأعاد الأرواح إليها كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]، وهذا يحصل بالنفخة الثانية كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

والنشور: يرادف البعث في المعنى، يقال: نشر الميت: إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله: أحياه. قال تعالى مبيناً التماثل بين إحياء الأرض بعد موتها والنشور: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

والخروج: يرادف البعث والنشور إذا دل السياق عليه كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، وقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]. وقال: ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

إن خلق الناس يوم القيامة وبعثهم من قبورهم أحياء يتعلق بصفة القدرة الإلهية، وسبق أن شرحنا ذلك سابقاً عند الكلام عن عظمة صفة القدرة، وأن الله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه يخلق بلا معالجة بل بالأمر الإلهي الذي عبر عنه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

١٧٣- بعث الناس من قبورهم أحياء يشبه إحياء الأرض وإخراج النبات حياً منها:

فقد علمنا ربنا جل جلاله أن مثل بعثنا من قبورنا أحياء يوم القيامة هو مثل إحياء الأرض وإخراج أحياء منها في الدنيا هي النباتات الحية قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]، فالنباتات جميعها يخرجها الله تعالى حية من الأرض الميتة التي يحيها بإنزال الماء عليها في الدنيا، وبنو آدم نوع آخر من الأحياء يخرجهم من الأرض يوم القيامة أحياء كما أحيا الأرض الميتة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقال: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]. وقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم:١٩]، وقال: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١].

١٧٤- يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً[١٦٨]:

فاليوم في الدنيا تتشقق الأرض فتخرج أحياء هي النباتات، وغداً تتشقق الأرض فتخرج أحياء هم بنو آدم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]، وقال: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١] والأجداث: هي القبور، وينسلون: يقومون مسرعين[١٦٩].

(١٦٨) سورة ق: الآية ٤٤.

(١٦٩) تفسير القرطبي: ١٥/ ٤٠، وتفسير ابن كثير: ٣/ ٥٧٥.

جاء في صحيح مسلم (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، أول شافع، وأول مشفع) [١٧٠].

وفي الصحيحين: (... فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من يبعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقة الطور أم بعث قبلي)[١٧١].

١٧٥- فإذا هم قيام ينظرون [١٧٢]:

فيقوم الناس من قبورهم مسرعين بعد أن تشققت عنهم الأرض.. يقومون أحياء ينظرون كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

قال القرطبي في تفسيره: «قوله تعالى: (فإذا هم قيام ينظرون) أي: فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء بعثوا من قبورهم وأعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم فقاموا ينظرون ماذا يؤمرون، وقيل: قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذي وعدوا به، وقيل: هذا النظر بمعنى الانتظار، أي: ينتظرون ما يفعل بهم»[١٧٣].

١٧٦- يوم يكون الناس كالفراش المبثوث [١٧٤]:

ويكون حال الناس وقد خرجوا من قبورهم كالفراش المبثوث كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]، وقال: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

قال القرطبي: «يخرجون من الأجداث أي القبور - واحدها جدث - كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع، وقال في موضع آخر: (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) فهما صفتان في وقتين مختلفين أحدهما: عند الخروج من القبور يخرجون فزعين لا يهتدون أين

---

(١٧٠) صحيح مسلم (٢٢٧٨).

(١٧١) متفق عليه: البخاري (٣١٦٢)، ومسلم (٤٣٧٦).

(١٧٢) سورة الزمر: ٦٨.

(١٧٣) تفسير القرطبي ج: ١٥ ص: ٢٨١.

(١٧٤) سورة القارعة: الآية: ٤.

يتوجهون فيدخل بعضهم في بعض فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه في بعض لا جهة له يقصدها، الثاني: فإذا سمعوا المنادي قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر لأن الجراد له جهة يقصدها»[١٧٥].

وقال ابن كثير: «(يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) أي: في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم من حيرتهم مما هم فيه كأنهم فراش مبثوث كما قال تعالى في الآية الأخرى كأنهم جراد منتشر»[١٧٦].

١٧٧- كأنهم إلى نصب يوفضون:

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه: ١٠٨][١٧٧]. وشبه القرآن ذلك كما لو أنهم نصبت لهم راية أو غاية

---

(١٧٥) تفسير القرطبي ج: ١٧ ص: ١٣٠

(١٧٦) تفسير ابن كثير ج: ٤ ص: ٥٤٤

(١٧٧) قال ابن كثير (تفسير ابن كثير ج: ٣ ص: ١٦٦ -١٦٧): «قال قتادة وغير واحد من السلف: (يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له) أي: يوم يرون هذه الأحوال والأهوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أمروا بادروا إليه ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم ولكن حيث لا ينفعهم كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال: ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر: ٨]، وقال محمد بن كعب القرظي: يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة ويطوى السماء وتتناثر النجوم وتذهب الشمس والقمر وينادي مناد فيتبع الناس الصوت يؤمونه فذلك: قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ [طه: ١٠٨]، وقال قتادة: (لا عوج له): لا يميلون عنه، وقال أبو صالح: لا عوج له ولا عوج عنه، وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨] قال ابن عباس: سكنت، وكذا قال السدي، (فلا تسمع إلا همساً) قال سعيد ابن جبير عن ابن عباس يعني: وطء الأقدام، وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس وقتادة وابن زيد وغيرهم، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه: ١٠٨]: الصوت الخفي، وهو رواية عن عكرمة والضحاك، وقال سعيد بن جبير: ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ الحديث وسره ووطء الأقدام، فقد جمع سعيد كلا القولين، وهو محتمل، أما وطء الأقدام فالمراد: سعي الناس إلى المحشر وهو مشيهم في سكون وخضوع، وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٥] ».

يسعون إليها مسرعين[178] قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

جاء في «التبيان في أقسام القرآن»: «ثم ذكر سبحانه حالهم عند خروجهم من القبور فقال: (يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون) أي: يسرعون، والنصب العلم والغاية التي تنصب فيؤمونها، وهذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه فإن الناس يقومون من قبورهم ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٨] يؤمون الصوت لا يعرجون عنه يمنة ولا يسرة، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٨] أي: يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته لا يعرجون عنه... ولما كانت الدعوى تسمع الجميع لا تعوج عنهم وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه كان مجيء اللام منتظماً للمعنيين ودالاً عليهما والمعنى لا عوج لدعائه لا في إسماعهم إياه ولا في إجابتهم له»[179].

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦]: «أي إلى شيء منكر فظيع وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء والزلازل والأهوال ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ [القمر: ٧] أي: ذليلة أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ [القمر: ٧] وهي القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧] أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي جراد منتشر في الآفاق، ولهذا قال: (مهطعين) أي مسرعين إلى الداعي لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨] أي شديد الهول عبوس قمطرير ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩-١٠]»[180].

---

(١٧٨) القرطبي ١٨/ ٢٩٧ وابن كثير ٤/ ٤٢٤ وفتح القدير ٥/ ٢٩٥.
(١٧٩) ابن القيم: التبيان في أقسام القرآن ١/ ١٢٥ وابن كثير.٤/ ٤٢٤. وتفسير في ظلال القرآن ٣٧٠٣
(١٨٠) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٦٤.

المطلب الثاني
الأدلة على البعث والنشور

١٧٨- تمهيد وتقسيم:

الإيمان بالمعاد ورجوع العالمين إلى رب العالمين، وهو الإيمان باليوم الآخر، ركن عظيم من أركان الإيمان، لا إيمان بدونه، وقد دل عليه القرآن والسنة بأدلة يقينية، بل يمكن القول إن القرآن الكريم من فاتحته إلى سورة الناس كل آية فيه لها ارتباط باليوم الآخر على وجه من الوجوه لأنها تدور حول الإيمان والعمل الصالح وجزائهما وتجنب أضدادهما وصولاً إلى سعادة الإنسان في الدارين، والقرآن والسنة جعلا سعادة الآخرة هي الغاية النهائية وهي تحصل بطاعة الله ورسوله وذلك بعبادة الله الحاصلة باتباع كل ما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية ابتغاء رضوان الله والفوز بجنات النعيم.

ولكننا سنقدم هنا أدلة البعث والنشور على وجه التحديد أي الأدلة ذات الصلة المباشرة بالبعث والنشور محاولين استخلاص المنهج القرآني في إثبات ذلك في فقرة أولى، ثم أدلة البعث والنشور في السنة النبوية في فقرة ثانية، ثم دليل الإجماع في فقرة ثالثة، ثم أدلة العقل في فقرة رابعة، وذلك على النحو الآتي:

١٧٩- الفقرة الأولى - المنهج القرآني في إثبات البعث والنشور بشكل يقيني قاطع:

سلك المنهج القرآني في إثبات البعث والنشور مسلكاً يفضي إلى العلم اليقيني القاطع بوقوعه، ويجعل العقل السوي يذعن إذعاناً كاملاً للتصديق والإيمان به، ويدخل في ذلك جميع النصوص القرآنية التي ذكرناها في المطلب الأول من هذا الفصل - وهي كثيرة جداً - والدالة على رجوع العالمين إلى رب العالمين فهي في حقيقتها تؤكد البعث والنشور وما يتلوه من لقاء الله تعالى للحساب والجزاء، فارجع إليها إن شئت.

إلا أننا سنذكر هنا على وجه التحديد منهجية القرآن الكريم في إثبات البعث والنشور، ونلخص ذلك بما يلي:

١٨٠- أولاً - الإخبار الواضح الصريح المحكم من الله تعالى بوقوع القيامة والبعث والنشور:

وقد نوع القرآن الكريم أساليب الإخبار بوقوع يوم القيامة والبعث والنشور ليستقر ذلك في القلوب والعقول استقراراً تاماً:

١٨١-١- فتارة يستعمل أدوات التأكيد كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥] وقوله: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍۖ ﴾[الأنعام: ١٣٤]. وقوله: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ﴾ [المرسلات: ٧]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا ﴾ [طه:١٥].

١٨٢-٢- وتارة أخرى يقسم الله تعالى على مجيء يوم القيامة ووقوع ما وعد به الله تعالى كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ ﴾ [النساء:٨٧]، ويقسم على تحقق ذلك بما شاء من مخلوقاته كقوله: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ﴾ [الذاريات: ١-٦]، وقوله: ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴾ [الطور: ١-٨]، وقوله: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٣].

١٨٣-٣- وأمر الله رسوله ﷺ بالقسم على وقوع البعث وتحققه، وذلك في معرض الرد على المكذبين والمنكرين، كقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ ﴾ [سبأ: ٣]، وقوله: ﴿ ۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ ﴾ [يونس: ٥٣]، وقوله: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ ﴾ [التغابن: ٧].

١٨٤-٤- وفي مواضع أخرى يذم المكذبين بالمعاد ويبين ضلالهم وخسرانهم، كقوله: ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ [يونس: ٤٥]، وقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: ١٨]، وقوله: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾ [النمل: ٦٦]، وسيأتي مزيد بيان بشأن رد القرآن الكريم على المكذبين في فقرة مستقلة.

١٨٥-٥- ويمدح المؤمنين بالمعاد ويثني عليهم ويصفهم بالعلم والهداية ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا

بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ٧-٩]، وقوله: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة:١-٥]، وقوله: ﴿ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة:١٧٧].

١٨٦-٦- ويخبر الله تعالى في مواضع أخرى بأنه وعد حق، ووعد صادق، وشيء محتم، وأجل لا شك فيه: ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٤]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ [لقمان: ٣٣]، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٩-٣٠]، ﴿ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٣]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ﴾ [الذاريات: ٥].

١٨٧-٧- وفي بعض المواضع يخبر عن اقترابه كقوله: ﴿ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴾ [المعارج: ٦-٧]، وقوله: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾ [القمر: ١].

١٨٨-٨- ويخبر القرآن أن كل النبوات قد اتفقت على إنذار أقوامهم بالمعاد يوم القيامة: فالرسالات كلها بشارة ونذارة: قال تعالى: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال: ﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ [فاطر: ٢٤]. والقرآن يذكر ذلك بدءا بآدم عليه السلام الذي قال فيه: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٤-٢٥] ثم كذلك الأمر بالنسبة لجميع الأنبياء، ثم انتهاء بمحمد ﷺ،

كقوله تعالى مخاطباً رسوله ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]. وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥]. ومن النصوص الجامعة التي تدل على أن كل الأنبياء أنذروا أقوامهم بيوم المعاد قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ ﴾ [الملك: ٨-٩]، وقوله حكاية عن الملائكة يخاطبون أهل النار: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر:٧١].

١٨٩-٩- وفي مواضع أخرى يمدح نفسه تبارك وتعالى بأنه دون غيره الإله الحق الذي يملك الموت والحياة وإعادة الخلق والنشور، كقوله: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣]، وقوله: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٤].

١٩٠-١٠- ويبين في مواضع أخرى أن خلق الأعداد الهائلة من البشر ثم بعثهم يوم القيامة هو بالنسبة لقدرة الله كخلق نفس واحدة وبعثها، وأن ذلك يسير على الله، كقوله تعالى ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق: ٤٤]، وقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ٣-٤].

١٩١- ثانياً - الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى:

استدل القرآن على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى، فالقادر على الخلق الأول قادر على الخلق الثاني، قال تعالى في تذكير المستبعدين لذلك مذكراً لهم بهذه الحقيقة: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٦٦-٦٧]، وقال جل وعز: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق:١٥]، وقال: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ

وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال في من كذب بذلك: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ ﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

إن الذين يطلبون دليلاً على البعث بعد الموت يغفلون عن حقيقة أن الدليل الأعظم حاضر من أنفسهم من غير حاجة إلى دليل من الخارج وذلك بأن يسأل نفسه: أليس الذي خلقه على النحو الذي هو فيه الآن ولم يك شيئاً قادر على إعادة خلقه؟ وهو سؤال بسيط والجواب بـ (نعم) حاضر ببداهة العقل وبالضرورة العقلية.

والقرآن العظيم يذكر الناس هنا بأمرين:

يذكرهم بالخلق الأول للإنسان، فأبونا آدم خلقه الله من تراب، فالقادر على جعل التراب بشراً سوياً، لا يعجزه أن يعيده بشراً سوياً مرة أخرى بعد موته وصيرورته تراباً.

ويذكرنا أيضاً بأننا نشاهد بأم أعيننا عملية الخلق والتخليق لذرية آدم: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ ﴾ [المؤمنون: ١٣-١٤]، ولولا بلادة الإلفة لخر الناس ساجدين أمام كل عملية خلق إنسان بهذه الطريقة.. نقطة ماء.. تكون في النهاية إنساناً في أحسن تقويم سمعاً وبصراً وعقلاً وعاطفة وروحاً وجسداً، فتبارك الله أحسن الخالقين.

فالقادر على هذا وذاك وهو الخلق الأول والنشأة الأولى المشاهدة المعلومة قادر على إماتة خلقه ثم إعادتهم وإحيائهم عند البعث والنشور، ولا يسع العقل أن يشك في ذلك مع بقائه عقلاً !! قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥-٧].

وقد أمر الله عباده بالسير في الأرض، والنظر في كيفية بدأ الخلق ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠].

وقال ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧].

١٩٢- ثالثاً - القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه حتماً :

بين الله جل جلاله أنه خلق خلقاً أعظم من خلق بني آدم هو السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، فكيف يقال في حق من هذه قدرته العظيمة التي لا نهاية لها: إنه لا يقدر على إعادة خلق الناس وبعثهم يوم القيامة، إن مثل هذا القول لا يكون إلا ظلما للعقل وجحوداً للحقيقة، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٩٨-٩٩].

وقال: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١]. وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

قال ابن تيمية: «فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق أمثال بنى آدم، والقدرة عليه أبلغ - وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك» (١٨١).

---

(١٨١) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣/ ٢٩٩.

وقال شارح الطحاوية: «أخبر تعالى أن الذي أبدع السماوات والأرض على جلالتهما، وعظم شأنهما، وكبر أجسامهما، وسعتهما، وعجيب خلقهما، أقدر على أن يحيي عظاماً قد صارت رميماً، فيردها إلى حالتها الأولى»(١٨٢).

١٩٣- رابعاً - قدرته تبارك وتعالى على تحويل الخلق من حال إلى حال:

«الذين يكذبون بالبعث يرون هلاك العباد، ثم فناءهم في التراب، فيظنون أن إعادتهم بعد ذلك مستحيلة ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدٍۚ﴾ [السجدة: ١٠]. والمراد بالضلال في الأرض تحلل أجسادهم ثم اختلاطها بتراب الأرض.

وقد بين الحق تبارك وتعالى في أكثر من موضع أن من تمام ألوهيته وربوبيته قدرته على تحويل الخلق من حال إلى حال، ولذلك فإنه يميت ويحيي، ويخلق ويفني، ويخرج الحي من الميت، والميت من الحي، ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَىَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَىِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٦].

من الحبة الجامدة الصماء يخرج نبتة غضة خضراء تزهر وتثمر، ثم تعطي هذه النبتة الحية حبوباً جامدة ميتة، ومن الطيور الحية يخرج البيض الميت، ومن البيض الميت تخرج الطيور المتحركة المغردة التي تنطلق في أجواء الفضاء.

إن تقليب العباد: موت فحياة، ثم موت فحياة، دليل عظيم على قدرة الله تجعل النفوس تخضع لعظمته وسلطانه ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتًا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]»(١٨٣).

جاء في شرح العقيدة الطحاوية: «والقول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء: أن الأجسام تتقلب من حال إلى حال، فتستحيل تراباً، ثم ينشئها الله نشأة أخرى، كما استحال في النشأة الأولى: فإنه كان نطفة، ثم صار علقة، ثم صار مضغة، ثم صار عظاماً ولحماً، ثم

---

(١٨٢) شرح العقيدة الطحاوية: ص٤٦١.

(١٨٣) د. عمر الأشقر: القيامة الكبرى ٧٩-٨٠.

أنشأه خلقاً سوياً. كذلك الإعادة: يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عَجْب[١٨٤] الذنب، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ، أنه قال: (كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، منه خلق ابن آدم، ومنه يركب)[١٨٥] »[١٨٦].

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: (إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم):

«... وقال ههنا: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ [المعارج: ٤٠-٤١] أي: يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه فإن قدرته صالحة لذلك (وما نحن بمسبوقين) أي: بعاجزين، كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ٣-٤]، وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٠-٦١]»[١٨٧].

١٩٤- الأدلة الثلاثة الأخيرة في مقطع واحد في القرآن الكريم :

الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى، والاستدلال بأن القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه حتماً، والاستدلال بقدرته تبارك وتعالى على تحويل الخلق من حال إلى حال قد جاء مذكوراً في موضع واحد في التنزيل العزيز في معرض البيان وفي معرض الرد على النطفة المهينة التي خلقها الله إنساناً فجاءت تخاصم ربها !!

(١٨٤) (عجب) بفتح العين وسكون الجيم: عظم لطيف من أصل الصلب، وهو رأس العصعص، وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع. قاله الحافظ في (الفتح).

(١٨٥) رواه البخاري ومسلم وأحمد واللفظ له في بعض رواياته (٢/٤٢٨) وزاد: (ويأكله التراب) وسنده جيد. قلت: وبمناسبة ما جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه من بقاء (عجب الذنب) فقد ورد تفسيره في حديث آخر: قالوا: وما عجب الذنب يا رسول الله؟ قال: مثل مثقال حبة خردل منه تكون النشأة الآخرة، وقد ثبت في علم هندسة الوراثة أن كل خلية من جسم الإنسان والحيوان تحمل خارطة كاملة للجينات خاصة بذلك المخلوق بحيث إذا تعرضت للتكاثر اللاجنسي أمكن أن ينتج عنها نسخة طبق الأصل عن ذلك الإنسان أو الحيوان وهو ما يسمى بالاستنساخ البشري.

(١٨٦) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٦٣.

(١٨٧) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٢٤ .

جاء العاص بن وائل - وهو من الكفار - إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل، ففته بيده فقال: يا محمد، يحيي الله هذا بعد ما أرم ؟ قال: نعم، يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يُحييك، ثم يدخلك نار جهنم. فنزلت الآيات من آخر سورة يس: (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة..) إلى آخر السورة[188].

وتمام الآيات: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٧٧-٨٣].

فالذي ضرب المثل العاص بن وائل وهو من ملاحدة العرب، وكتب السنة تذكر أنه جاء بعظم بالٍ، ثم فتته، ثم نفخه، ثم قال للرسول ﷺ: «يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذه؟» فأنزل الحق تبارك وتعالى هذه الآيات مذكراً هذا الكافر بأنه مخلوق من نطفة ومعيراً إياه بجهله وغبائه حيث حاول المجيء بدليل من الخارج بينما الدليل حاضر من نفسه وبين يديه وهو نفسه التي نسي أن يستدل بها وهو يعلم أنها لم تكن شيئاً ثم خلقت، ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨]، فإنه لو كان لبيباً عاقلاً لم يسأل هذا السؤال، لأن وجوده وخلقه في هذه الحياة يجيب على السؤال، وقد وضح النص هذا المعنى الذي أجمله في البداية فقال: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٩].

١ - «فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه. وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن

(١٨٨) أخرجه:الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٦٦ وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، وأخرجه أيضاً: البيهقي في السنن الكبرى ١/ ١٠٩، والدارقطني في سننه: ١/ ٥٦، ومسند الحارث (زوائد الهيثمي):٢/ ٧٢٧، وغيرهم.

الأولى أعجز وأعجز . ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق، وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله: (وهو بكل خلقٍ عليم). فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته، ومواده وصورته، فكذلك الثاني، فإذا كان تام العلم، كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم؟ »[189].

٢- «ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر، يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميماً عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعته حارَّة رطبة بما يدل على أمر البعث، ففيه [أي في الجواب] الدليل والجواب معاً، فقال: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٨٠]، فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها، ولا يستعصي عليه، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه، من إحياء العظام وهو رميم.

٣- ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم، على الأيسر الأصغر، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو قادر على ما دونه بكثير أقدر وأقدر... فقال: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ ﴾ [يس:٨١]، فأخبر أن الذي أبدع السماوات والأرض على جلالتهما، وعظم شأنهما، وكبر أجسامهما، وسعتهما، وعجيب خلقهما، أقدر على أن يحيي عظاماً قد صارت رميماً، فيردها إلى حالتها الأولى»[190].

٤- ثم أكد تبارك وتعالى ذلك وبينه ببيان آخر، وهو أن فعله ليس بمنزلة غيره، الذي يفعل بالآلات والكلفة، والنصب والمشقة، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لا بد معه من آلة ومعين، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكوِّنه نَفْسُ إرادته، وقولُه للمكوَّن: (كن)، فإذا هو كائن كما شاءه وأراده ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ

---

(١٨٩) شرح العقيدة الطحاوية: ص٤٦٠

(١٩٠) شرح العقيدة الطحاوية: ٤٦٠

لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده، فيتصرف فيه بفعله وقوله: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨٣] (١٩١).

١٩٥- خامساً - إحياء بعض الأموات في هذه الحياة (١٩٢):

شاهد بعض البشر في فترات مختلفة من التاريخ عودة الحياة إلى الجثث الهامدة، والعظام البالية، بل شاهدوا الحياة تدب في بعض الجماد، وقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن شيء من هذه المعجزات الباهرة، فمن ذلك:

أن قوم موسى قالوا له: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥] فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، ثم بعثهم بعد موتهم ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

وقتل بنو إسرائيل قتيلاً واتهم كل قبيل القبيل الآخر بقتله، فأمرهم نبيهم أن يذبحوا بقرة، فذبحوها بعد أن تعنتوا في طلب صفاتها، ثم أمرهم نبيهم بعد ذبحها أن يضربوا القتيل بجزء منها، فأحياه الله وهم ينظرون، فأخبر عمن قتله، ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٣].

وأخبرنا عن الذين فروا من ديارهم وهم ألوف خشية الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة:٢٤٣].

وحدثنا عن الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، فتعجب من إحياء الله لها بعد موتها، فأماته الله مائة عام ثم بعثه، فلما سئل كم لبثت ظن أنه لم يلبث إلا يوماً أو بعض يوم، وبعد إحيائه أحيا الله له حماره وهو ينظر إلى قدرة الله كيف تعيد الخلق: العظام تتشكل وتتكون أولاً ثم تكسى باللحم، ثم تنفخ الروح، أما طعامه الذي كان معه قبل أن

---

(١٩١) شرح العقيدة الطحاوية: ص٤٦١

(١٩٢) د. عمر الأشقر: القيامة الكبرى ص٨٣-٨٤ (بتصرف).

يموت فقد بقي تلك الأزمان الطويلة سليماً، لم يفسد، ولم يتعفن، وتلك آية أخرى تدل على قدرة الله الباهرة: ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وإبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، فكان هذا المشهد الذي حدثنا الحق تبارك وتعالى عنه ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. فأمره الله أن يأخذ أربعة من الطيور فيذبحها، ثم يفرق أجزاءها على عدة جبال، ثم ناداها آمراً إياها بالاجتماع، فكان كل عضو يأتي ويقع في مكانه، فلما تكامل اجتماعها نفخ الله فيها الروح، وانطلقت محلقة في الفضاء.

وعيسى عليه السلام كان يصنع من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وكان يحيي الموتى بإذن الله، فقد قال لقومه: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وكانت آية موسى الكبرى عصا جامدة يلقيها على الأرض فتتحول - بقدرة الله - إلى ثعبان مبين ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء: ٣٢]، وعندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم ألقى موسى عصاه فإذا هي تبتلع تلك العصي والحبال على كثرتها ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٥].

١٩٦- سادساً - ضربه المثل بإحياء الأرض الميتة وإخراج النبات حياً منها:

شبه القرآن الكريم إعادة الحياة إلى الجثث الهامدة والعظام البالية بإحيائه الأرض الميتة وجعلها حية تخرج النبات، قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ

﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الروم: ٥٠]. وقال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]، وقال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقال: ﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ [الزخرف:١١].

١٩٧- سابعاً- حكمة الله وعدله يقتضيان بعث العباد للجزاء والحساب:

١٩٨- أ- تقتضي حكمة الله وعدله أن يبعث الله عباده ليجزيهم بما قدموا:

فالله خلق الخلق لعبادته، وأرسل وأنزل الكتب لبيان الطريق الذي يعبدونه به، فمن العباد من استقام على طاعة الله، وبذل نفسه وماله في سبيل ذلك، ومنهم من رفض الاستقامة على طاعة الله، وطغى وبغى، أفيليق بعد ذلك أن يموت الصالح والطالح ولا يجزي الله المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦ أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ٣٧ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٨].

إن الكفرة الضالين هم الذين يظنون أن الكون خلق عبثاً وباطلاً لا لحكمة، وأنه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح والكافر المفسد، ولا بين مصير التقي والفاجر. «﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص:٢٧-٢٨]» (١٩٣).

جاء في تفسير القرطبي: «قوله تعالى: (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً) أي: هزلاً ولعباً، أي: ما خلقناهما إلا لأمر صحيح وهو الدلالة على قدرتنا (ذلك ظن الذين كفروا) أي: حسبان الذين كفروا أن الله خلقهما باطلاً (فويل للذين كفروا من النار) ثم وبخهم فقال: (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والميم صلة، تقديره: أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض... وبعده أيضاً: (أم نجعل المتقين

(١٩٣) د. عمر الأشقر: القيامة الكبرى ص٨٦.

كالفجار) أي: أنجعل أصحاب محمد ﷺ كالكفار، قاله: ابن عباس، وقيل: هو عام في المسلمين المتقين والفجار الكافرين وهو أحسن وهو رد على منكري البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصي إلى شيء واحد»[(١٩٤)].

١٩٩- ب - حتمية البعث والنشور تنزيهاً للخالق الحكيم عن العبث:

بين الخالق الحكيم أن خلق السماوات والأرض وخلق الناس إن لم يكن مرتبطاً بالرجوع إلى الله للجزاء يكون عبثاً ينزه عنه الخالق الحكيم ويتعالى عنه، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[المؤمنون: ١١٥-١١٦].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً) أي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة ولا حكمة لنا، وقيل: للعبث، أي: لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب،، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل. (وأنكم إلينا لا ترجعون) أي: لا تعودون في الدار الآخرة ؟ كما قال تعالى: (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) يعني هملاً. وقوله: (فتعالى الله الملك الحق) أي: تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك»[(١٩٥)].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الدخان: ٣٨-٤٠] فنزه تبارك وتعالى نفسه عن اللعب، وأكد ارتباط الخلق والإيجاد بالبعث والجزاء.

٢٠٠- ثامنا- التكذيب بالبعث والنشور تنقيص بالعقل وعدوان على الحقيقة:

ومن أجل أن الأدلة السابقة قطعية ويقينية وتضمنت دلالات العقل والنقل، ولأنها على درجة عظيمة من الوضوح، كان التكذيب بالبعث والنشور مدعاة إلى التعجب من مقدار سفاهة رأي المكذبين وهزال عقولهم وعمى أبصارهم عن قدرة الله المشاهدة والمحسوسة في السماوات والأرض وما بينهما، عمى قادهم إلى الاعتداء على الحقيقة

---

(١٩٤) تفسير القرطبي: ١٥/ ١٩١.

(١٩٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٦٠.

والظلم لها استكباراً على الإيمان، لذلك كان رد القرآن الكريم عليهم يتضمن المعاني التي ذكرناها وكان ذكر عقابهم في الآخرة تقشعر له الأبدان، تأمل هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الرعد: ٥].

وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧٠-٧٢].

وقال: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٩-٣٠].

وقال: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾ [الإسراء: ٤٩-٥١].

وقال: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٤٥].

وقال: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل: ٦٦].

وقال: ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: ١٨].

وقال: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ [المطففين: ١٠-١٢].

وقال: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١].

والنصوص في ذلك كثيرة.

٢٠١- الفقرة الثانية - البعث والنشور في السنة النبوية :

السنة النبوية زاخرة بالأحاديث الصحيحة التي تقرر البعث والنشور تطلب في مواضعها من كتب الصحاح والسنن نذكر منها مثالين:

أ- ففي صحيح البُخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يقول: (إنكم ملاقو الله حُفاة عراة غُرلاً)(١٩٦).

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤](١٩٧).

ب- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل، ففته بيده فقال: يا محمد، يحيي الله هذا بعد ما أرم ؟ قال: نعم، يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يُحييك، ثم يدخلك نار جهنم. فنزلت الآيات من آخر سورة يس: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ... ﴾ [يس: ٧٧] إلى آخر السورة) (١٩٨).

ونصوص السنة النبوية في البعث والنشور أكثر من أن تحصى.

٢٠٢- الفقرة الثالثة - البعث والنشور ثابت بالإجماع:

فقد أجمعت الأمة في كل العصور على البعث والنشور وأنه لا يصح إلا يقينياً ومستند الإجماع كل النصوص من القرآن والسنة التي تقرر ذلك وأجمعوا على أن منكر البعث والنشور كافر لرده صريح القرآن والسنة.

٢٠٣-الفقرة الرابعة - البعث والنشور ثابت بالعقل:

فمن الاستدلال بالمعقول:

---

(١٩٦) متفق عليه: البخاري (٦٠٤٤) واللفظ له، ومسلم (٥١٠٣)، والغرل: بضم الغين وإسكان الراء جمع أغرل وهو الأقلف، (لوامع الأنوار ٢/ ١٥٩). قلت: أي غير مختونين.

(١٩٧) متفق عليه: البخاري (٤٢٥٩)، ومسلم (٥١٠٤).

(١٩٨) أخرجه:الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٦٦ وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، وأخرجه أيضاً: البيهقي في السنن الكبرى ١/ ١٠٩، والدارقطني في سننه: ١/ ٥٦، ومسند الحارث (زوائد الهيثمي):٢/ ٧٢٧، وغيرهم.

١- أن الأنبياء تأتي بما تدركه العقول، أو تتحير فيه، ولا تأتي بما تحيله العقول أبداً. والمعاد ممكن لأنه: إما إيجاد ما انعدم، أو جمع ما تفرق، أو إحياؤه بعدما أميت.

وهذه كلها ممكنة لا إحالة في ذلك. وإخبار الأنبياء به والكتب السماوية وخاصة القرآن الكريم كثيرة جداً.

٢- الأصل فيما لا دليل على وجوبه ولا على امتناعه هو الإمكان، كما يقول الحكماء والمتكلمون[١٩٩]: من أن كل ما قرع سمعك من الغرائب قدره في حيز الإمكان، ما لم يردك عنه قائم البرهان، فمن زعم عدم إعادة المعدوم، ألزم بالمبدأ، فإن المبدأ مثل المعاد، بل هو عينه أو أيسر - كما مر - وهو لا يخفى على العاقل الحصيف[٢٠٠].

وعليه فإن المعاد الجسماني حق واقع، فصانع الساعة إذا جزأها إلى أجزائها الصغيرة هو قادر على إعادتها إلى ما كانت عليه، متقنة، تضبط الوقت بدقة، ولا يستطيع أحد إنكار ذلك، فالشك في البعث (الخلق الثاني) هو شك في قدرة الله تعالى على الخلق الأول، وفي كونه علة الوجود.

لا سيما إذا علمنا أن جسم الكائن الحي يتجدد ما بين وقت وآخر، فجسم الإنسان يستهلك حوالي ١٢٥ مليون خلية في الثانية الواحدة، ويحيا مثل هذا القدر محلها، وهذا يعني أن جسم الإنسان في تجدد ودورة مستمرة، من موت إلى حياة، وحياة إلى موت، قال تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [الروم: ١٩]، فجسم الإنسان يموت ويحيا في كل لحظة، فالقادر على إحيائه وإماتته على مرأى من العين في الدنيا، قادر على إحيائه بعد موته في حياة أخرى.

---

(١٩٩) تكلمنا عن مصطلح: الواجب الوجود، والممكن الوجود، والمستحيل الوجود في الفصل الأول من هذا الباب.

(٢٠٠) لوامع الأنوار البهية ج٢ ص١٥٨-١٥٩.

المبحث الخامس
كلمات جامعة في مشاهد القيامة

٢٠٤- موقف الحشر وما بعده:

وهكذا يصير الناس إلى موقف الحشر بعد أن تتم النفخة الثانية في الصور والتي قال الله تعالى فيها: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨]، حيث قد تشققت الأرض عنهم سراعاً، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق: ٤٤]، وصاروا مبثوثين في الأرض كالفراش ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ [القارعة: ٤]، ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر: ٧]، وصاروا ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ [القمر: ٨]، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه: ١٠٨]، فأحضرهم ذلك إلى الموقف (موقف الحشر).

والكلام في ما يكون في موقف الحشر كثير، وكذلك ما يليه من تطاير الصحف بالأيمان والشمائل، والعرض والحساب، ثم ما يكون بعد ذلك من الميزان، ثم الصراط وما يكون للمؤمنين من الأنوار التي يعبرون بها الصراط وما يكون من تساقط الكفار والمنافقين من على الصراط في النار.. كل ذلك مشاهد عظيمة هائلة فيها تفاصيل كثيرة لا يتسع لها هذا الباب، لذلك نحيل القارئ الكريم فيها إلى المراجع المتخصصة بشأنها[٢٠١]، ونكتفي هنا بذكر بعض ما ذكره ابن القيم في ذلك ملخصاً إياه بكلمات جامعة، وكذلك شيئاً من كلام الحارث المحاسبي واصفاً ومذكراً وواعظاً، نورد كلامهما - مشذباً وبقدر ما تمس الحاجة إليه - .

---

(٢٠١) فمن تلك المراجع كتاب «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» للقرطبي وهو من أوسع المراجع في هذا الباب، وكذلك حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم الجوزية ومن المراجع الحديثة كتاب «القيامة الكبرى» للدكتور عمر الأشقر، ومشاهد القيامة للشهيد سيد قطب رحمه الله، وغيرها كثير.

٢٠٥- من كلام ابن القيم فيما يكون من البعث والنشور وما بعده:

قال العلامة ابن القيم ملخصاً بعض ما جاء في الكتاب والسنة: «...حتى يأذن الله سبحانه بانقضاء أجل العالم وطي الدنيا... أمر الله سبحانه إسرافيل فنفخ في الصور نفخة البعث وهي الثالثة[٢٠٢]، وقبلها نفخة الموت، وقبلها نفخة الفزع، فتشققت الأرض عنهم فإذا هم قيام ينظرون، يقول المؤمن: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور، ويقول الكافر: ﴿ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس:٥٢].

فيساقون إلى المحشر حفاة عراة غرلاً بهماً، مع كل نفس سائق يسوقها وشهيد يشهد عليها، وهم بين مسرور ومثبور، وضاحك وباك، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس: ٣٨-٤١].

حتى إذا تكاملت عدتهم وصاروا جميعاً على وجه الأرض، تشققت السماء، وانتثرت الكواكب، ونزلت ملائكة السماء فأحاطت بهم، ثم نزلت ملائكة السماء الثانية فأحاطت بملائكة السماء الدنيا، ثم كل سماء كذلك.

فبينما هم كذلك إذ جاء رب العالمين سبحانه لفصل القضاء، فأشرقت الأرض بنوره، وتميز المجرمون من المؤمنين ونصب الميزان، وأحضر الديوان، واستدعي بالشهود، وشهدت يومئذ الأيدي والألسن والأرجل والجلود... فيحكم الله سبحانه بين عباده بحكمه الذي يحمده عليه جميع أهل السماوات والأرض وكل بر وفاجر ومؤمن وكافر وتوفى كل نفس ما عملت ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ثم ينادي مناد: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيذهب أهل الأوثان مع أوثانهم... وكل مشرك مع إلهه الذي كان يعبد لا يستطيع التخلف عنه فيتساقطون في النار، ويبقى الموحدون...

---

(٢٠٢) العلماء في عدد النفخات في الصور على رأيين: قال بعضهم: إنها ثلاث نفخات: نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة البعث، ومن هؤلاء ابن القيم، وقال آخرون: إنهما نفختان: نفخة الصعق وهي نفسها نفخة الفزع ثم نفخة البعث، ومن هؤلاء القرطبي.

ويضرب الجسر ويساق الخلق إليه وهو دحض مزلة مظلم لا يمكن عبوره إلا بنور. فإذا انتهوا إليه قسمت بينهم الأنوار على حسب نور إيمانهم وإخلاصهم وأعمالهم في الدنيا، فنور كالشمس، ونور كالنجم، ونور كالسراج في قوته وضعفه، وترسل الأمانة والرحم على جنبتي الصراط فلا يجوزه خائن ولا قاطع رحم.

ويختلف مرورهم عليه بحسب اختلاف استقامتهم على الصراط المستقيم في الدنيا، فمار كالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل، وساع، وماش، وزاحف، وحاب حبواً، وينصب على جنبتيه كلاليب لا يعلم قدر عظمها إلا الله عز وجل تعوق من علقت به عن العبور على حسب ما كانت تعوقه الدنيا عن طاعة الله ومرضاته وعبوديته، فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومقطع بتلك الكلاليب ومكدوس في النار. وقد طفئ نور المنافقين على الجسر أحوج ما كانوا إليه كما طفئ في الدنيا من قلوبهم، وأعطوا دون الكفار نوراً في الظاهر كما كان إسلامهم في الظاهر دون الباطن، فيقولون للمؤمنين: قفوا لنا نقتبس من نوركم ما نجوز به، فيقول المؤمنون والملائكة: ﴿ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا ﴾ [الحديد: ١٣]، قيل المعنى: ارجعوا إلى الدنيا فخذوا من الإيمان نوراً تجوزون به كما فعل المؤمنون، وقيل: ارجعوا وراءكم حيث قسمت الأنوار فالتمسوا هناك نوراً تجوزن به، ثم ضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب، باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره الذي يليهم من قبله العذاب، ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٤-١٥].

فإذا جاوز المؤمنون الصراط ولا يجوزه إلا مؤمن، أمنوا من دخول النار، فيحبسون هناك على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في دار الدنيا، حتى إذا هذبوا أذن لهم في دخول الجنة.

فإذا استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، أتي بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة فيطلعون وجلين، ثم يقال: يا أهل النار فيطلعون مستبشرين، فيقال: هل تعرفون هذا ؟ فيقولون: نعم، وكلهم قد عرفه، فيقال: هذا الموت، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت.

فهذا آخر أحوال هذه النطفة التي هي مبدأ الإنسان، وما بين هذا المبدأ وهذه الغاية أحوال وأطباق، قدر العزيز العليم تنقل الإنسان فيها وركوبه لها طبقاً بعد طبق، حتى يصل إلى غايته من السعادة والشقاوة، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧-٢٣]، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا من الذين سبقت لهم منه الحسنى، ولا يجعلنا من الذين غلبت عليهم الشقاوة فخسروا في الدنيا والآخرة إنه سميع الدعاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل آمين آمين آمين، والحمد لله رب العالمين وصلواته على خير خلقه محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[٢٠٣].

٢٠٦- من كلام الحارث المحاسبي لما يكون من البعث والنشور وما بعده:

قدم الحارث المحاسبي رحمه الله (ت ٢٤٣هـ) وصفاً للموت وما بعده من المشاهد الرئيسية ليوم القيامة - مستمداً من القرآن والسنة - بشكل يمتاز بإحضارك في تلك المشاهد بطريقة الخطاب بضمير المخاطب، فطلب من القارئ أن يستحضر في قلبه وعقله اليوم ما هو حاصل له غداً فيتخيله ويمثله لنفسه ويفكر فيه، وهو ما عبر عنه بـ (التوهم) أي (التخيل) طالباً من القارئ أن يتوهم، أي: يتخيل، كل ذلك اليوم لأنه صائر إليه غداً يقيناً، لكي يعد العدة ويتزود بالزاد قبل الرحيل المؤكد الذي لا ريب فيه إلى الدار الآخرة.

ونحن نقدم بعضاً من كلامه - مشذباً وبقدر ما تمس الحاجة إليه مع المحافظة على عبارته ومع إضافتنا لعناوين جانبية تقسم الموضوع إلى محاوره -: قال[٢٠٤]:

«الحمد لله الواحد القهار، العظيم الجبار، الكبير المتعال الذي جعلنا للبلوى والاختبار، وأعد لنا الجنة والنار، فعظم لذلك الخطر، وطال لذلك الحزن لمن عقل وادكر، حتى يعلم أين المصير، وأين المستقر، لأنه قد عصى الرب، وخالف المولى، وأصبح وأمسى

(٢٠٣) ابن القيم: تحفة المولود ج: ١ ص: ٣٠٦-٣١١.

(٢٠٤) الحارث المحاسبي: كتاب «التوهم» ص ١-٥٢ (بتصرف كثير بالتشذيب ووضع عناوين جانبية تقسم الموضوع إلى محاوره المناسبة مع المحافظة على عبارة المصنف في المتن).

بين الغضب والرضا، لا يدري أيهما قد حل ووقع له، فعظم لذلك غمه، وطال لذلك حزنه، واشتد كربه حتى يعلم كيف عند الله حاله.

فإلى الله فارغب في التوفيق، وإياه فسل العفو عن الذنب، وبه فاستعن في كل الأمور.

فعجبت كيف تقر عينك، أو كيف يزايل الوجل والإشفاق قلبك، وقد عصيت ربك، واستوجبت بعصيانك غضبه وعقابه، والموت لا محالة نازل بك بكربه وغصصه ونزعه وسكراته، فكأنك قد نزل بك وشيكاً سريعاً.

٢٠٧- « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم »[٢٠٥]:

فتوهم نفسك، وقد صرعت للموت صرعة، لا تقوم منها إلا إلى الحشر إلى ربك، فتوهم نفسك في نزع الموت، وكربه، وغصصه، وسكراته، وغمه وقلقه، وقد بدأ الملك يجذب روحك من قدمك، فوجدت ألم جذبه من أسفل قدميك، ثم تدارك الجذب، واستحث النزع، وجذبت الروح من جميع بدنك، فنشطت من أسفلك متصاعدة إلى أعلاك حتى إذا بلغ منك الكرب منتهاه وعمت آلام الموت جميع جسمك، وقلبك وجل، محزون، مرتقب، منتظر للبشرى من الله عز وجل بالغضب أو الرضا، وقد علمت أنه لا محيص لك دون أن تسمع إحدى البشريين من الملك الموكل بقبض روحك.

فبينا أنت في كربك، وغمومك، وألم الموت بسكراته، وشدة حزنك لارتقابك إحدى البشريين من ربك، إذ نظرت إلى صفحة وجه ملك الموت بأحسن الصورة أو بأقبحها، ونظرت إليه ماداً يده إلى فيك، ليخرج روحك من بدنك، فذلت نفسك، لما عاينت ذلك، وعاينت وجه ملك الموت، وتعلق قلبك بماذا يَفْجَؤُكَ من البشرى منه.

٢٠٨- البشرى بالرضا أو الغضب ساعة الموت:

إذ سمعت صوته بنغمته، أبشر يا ولي الله برضا الله وثوابه، أو أبشر يا عدو الله بغضبه وعقابه، فتستيقن حينئذٍ بنجاحك وفوزك، ويستقر الأمر في قلبك، فتطمئن إلى الله نفسك، أو تستيقن بعطبك وهلاكك، ويحل الإياس قلبك، وينقطع من الله عز وجل

(٢٠٥) السجدة: ١١.

رجاؤك وأملك، فيلزم حينئذ غاية الهم والحزن أو الفرح والسرور قلبك، حين انقضت من الدنيا مدتك، وانقطع منها أثرك، وحملت إلى دار من سلف من الأمم قبلك.

٢٠٩- سؤال الملكين وحال الميت في قبره:

فتوهم نفسك حين استطار قلبك فرحاً وسروراً، أو ملئ حزناً وعبرة، وبفترة القبر، وهول مطلعه، وروعة الملكين وسؤالهما فيه عن إيمانك بربك، فمثبت من الله جل ثناؤه بالقول الثابت، أو متحير شاك مخذول.

... فتوهم جوابك باليقين أو بالتحير أو بالتلديد والشك.

٢١٠- روضة من رياض الجنة:

فتوهم إقبالهما عليك إن ثبتك الله عز وجل بالسرور وضربهما بأرجلهما جوانب قبرك بانفراج القبر عن النار.. ثم توهم وهي تتأجج بحريقها، وإقبالهما عليك بالقول: [انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة، قال النبي ﷺ : فيراهما جميعا][٢٠٦]، وأنت تنظر الى ما صرف الله عنك، فيزداد لذالك قلبك سروراً وفرحاً، وتوقن بسلامتك من النار... ثم توهم ضربهما بأرجلهما جوانب قبرك، وانفراجه عن الجنة بزينتها ونعيمها، وقولهما لك: يا عبد الله انظر إلى ما أعد الله لك، فهذا منزلك، وهذا مصيرك. فتوهم سرور قلبك وفرحك بما عاينت من نعيم الجنان وبهجة ملكها، وعلمك أنك صائر إلى ما عاينت من نعيمها وحسن بهجتها.

٢١١- حفرة من حفر النيران:

وإن تكن الأخرى، فتوهم خلاف ذلك كله من الانتهار لك، ومن معاينتك الجنة، وقولهما لك: انظر إلى ما حرمك الله عز وجل، ومعاينتك النار، وقولهما لك: انظر إلى ما أعد الله لك، فهذا منزلك ومصيرك.

فأعظم بهذا خطراً، وأعظم به عليك في الدنيا غماً وحزناً، حتى تعلم أي الحالتين في القبر حالك، ثم الفناء والبلاء بعد ذلك، حتى تنقطع الأوصال، فتفنى عظامك، ويبلى

(٢٠٦) متفق عليه: البخاري (١٢٥٢)، ومسلم (٥١١٥) وما بين المعقوفتين غير موجود في الأصل فلعله ساقط فأخذناه من الحديث الشريف، فبدونه لا يستقيم المعنى.

بدنك، ولا يبلى الحزن أو الفرح من روحك، متوقعاً روحك، متطلعاً للقيام عند النشور إلى غضب الله عز وجل وعقابه، أو إلى رضا الله عز وجل وثوابه، وأنت مع توقع ذلك معروضة روحك على منزلك من الجنة أو مأواك من النار.

فيا حسرات روحك وغمومها ! ويا غبطتها وسرورها !

٢١٢- قيام الساعة ثم البعث والنشور:

حتى إذا تكاملت عدة الموتى، وخلت من سكانها الأرض والسماء، فصاروا خامدين بعد حركتهم، فلا حس يسمع، ولا شخص يرى، وقد بقي الجبار الأعلى كما لم يزل أزلياً واحداً منفرداً بعظمته وجلاله، ثم لم يفجأ روحك إلا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على الله عز وجل بالذل والصغار منك ومنهم.

فتوهم كيف وقوع الصوت في مسمعك وعقلك، وتفهم بعقلك بأنك تدعى إلى العرض على الملك الأعلى، فطار فؤادك، وشاب رأسك للنداء، لأنها صيحة واحدة للعرض على ذي الجلال والإكرام والعظمة والكبرياء.

فبينا أنت فزع للصوت، إذ سمعت بانفراج الأرض عن رأسك، فوثبت مغبراً من قرنك إلى قدمك بغبار قبرك، قائماً على قدميك شاخصاً ببصرك نحو النداء، وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة، وهم مغبرون من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم.

فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم.

فتوهم نفسك بعريك، ومذلتك، وانفرادك بخوفك، وأحزانك، وغمومك، وهمومك في زحمة الخلائق، عراة حفاة، صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة، فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت لمدة المنادي، والخلائق مقبلون نحوه، وأنت فيهم مقبل نحو الصوت، ساع بالخشوع والذلة.

٢١٣- موقف الحشر:

حتى إذا وافيت الموقف ازدحمت الأمم كلها من الجن والإنس عراة حفاة، قد نزع الملك من ملوك الأرض، ولزمتهم الذلة والصغار، فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدراً بعد عتوهم وتجبرهم على عباد الله عز وجل في أرضه.

ثم أقبلت الوحوش من البراري وذرى الجبال منكسة رؤوسها لذل يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بلية نابتها ولا خطيئة أصابتها، فتوهم إقبالها بذلها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور، وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حتى وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار، وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها خاشعة لذل العرض على الله سبحانه، فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض، قد أذلهم البعث وجمع بينهم النشور.

٢١٤- « وانشقت السماء فهي يومئذ واهية، والملك على أرجائها »(٢٠٧).

حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها، واستووا جميعاً في موقف العرض والحساب، تناثرت نجوم السماء من فوقهم، وطمست الشمس والقمر، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها. فبينا أنت والخلائق على ذلك إذ مارت السماء الدنيا من فوقهم، فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم، وذلك بعينك تنظر إلى هول ذلك، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام، فيا هول يوم القيامة، والملائكة قيام على أرجائها، وهي حافات ما يتشقق ويتفطر، فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها، فأذابها ربها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة، كما قال الجليل الكبير: فصارت: ﴿ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، و:﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨-٩].

٢١٥- « ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا »(٢٠٨).

فبينا ملائكة السماء الدنيا على حافتها إذ انحدروا محشورين إلى الأرض للعرض والحساب، وانحدروا من حافتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلى الذي أنزلهم محشورين إلى الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين يديه.

---

(٢٠٧) الحاقة: ١٦-١٧.

(٢٠٨) الفرقان: ٢٥.

فتوهم تحدرهم من السحاب بعظيم أخطارهم، وكبير أجسامهم، وهول أصواتهم، وشدة فرقهم، منكسين لذل العرض على الله عز وجل.

... فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم، ومسألتهم إياهم: أفيكم ربنا؟ ففزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لمليكهم أن يكون فيهم، فنادوا بأصواتهم تنزيها لما توهمه أهل الأرض: سبحان ربنا ليس هو بيننا ولكنه آت من بعد، حتى أخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم لذل يومهم.

فتوهم وقد تسربلوا بأجنحتهم ونكسوا رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم، ثم كل شيء على ذلك، وكذلك إلى السماء السابعة، كل أهل سماء مضعفين بالعدد، وعظم الأجسام، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفاً واحداً.

حتى إذا وافى الموقف أهل السماوات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين وأدنيت من رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين، ولا ظل لأحد إلا ظل عرش رب العالمين، فمن بين مستظل بظل العرش، وبين مضحو بحر الشمس، قد صهرته بحرها، واشتد كربه وقلقه من وهجها، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت، فدفع بعضها بعضاً، وتضايقت، فاختلفت الأقدام، وانقطعت الأعناق من العطش، واجتمع حر الشمس، ووهج أنفاس الخلائق، وتزاحم أجسامهم، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض، ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجل بالسعادة والشقاء، حتى بلغ من بعضهم العرق كعبيه، وبعضهم حقويه [خصره]، وبعضهم إلى شحمة أذنيه، ومنهم من كاد أن يغيب في عرقه، ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه.

... عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الرجل (وقال علي مرة: إن الكافر) ليقوم يوم القيامة في بحر رشحه إلى أنصاف أذنيه من طول القيام»(٢٠٩).

---

(٢٠٩) قال المصنف: متفق عليه. وقال ابن كثير: «وقوله تعالى: (يوم يقوم الناس لرب العالمين) أي يوم يقومون حفاة عراة غرلاً في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه، قال الإمام مالك: عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: (يوم يقوم الناس لرب العالمين): (حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف اليسرى)رواه البخاري، ومن حديث مالك وعبد الله بن عون كلاهما عن نافع به، ورواه مسلم من الطريقين أيضا، كذلك رواه أيوب بن يحيى وصالح بن كيسان وعبد الله وعبيد الله ابنا عمر ومحمد بن =

عن عبد الله رفعه إلى النبي ﷺ : «إن الكافر يلجم بعرقه يوم القيامة من طول ذلك اليوم... حتى يقول: رب أرحني ولو إلى النار»[٢١٠].

٢١٦- « يوم يقوم الناس لرب العالمين »[٢١١]:

... حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه، وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم، فما ظنك بوقوفهم ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة، ولا يشربون فيه شربة، ولا يلفح وجوههم روح ولا طيب نسيم، ولا يستريحون من تعب قيامهم ونصب وقوفهم حتى بلغ الجهد منهم ما لا طاقة لهم به.

= إسحاق عن نافع عن ابن عمر به ولفظ الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم يقوم الناس لرب العالمين لعظمة الرحمن عز وجل يوم القيامة حتى إن العرق ليلجم الرجال إلى أنصاف آذانهم، حديث آخر: قال الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن إسحاق حدثنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر حدثني سليم بن عامر حدثني المقداد يعني ابن الأسود سنان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين قال فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق كقدر أعمالهم ومنهم من يأخذه إلى عقبيه ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ومنهم من يأخذه إلى حقويه ومنهم من يلجمه إلجاما) رواه مسلم... وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو عون الزيادي أخبرنا عبد السلام بن عجلان سمعت أبا يزيد المدني عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ لبشير الغفاري كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه ثلثمائة سنة لرب العالمين من أيام الدنيا لا يأتيهم فيه خبر من السماء ولا يؤمر فيهم بأمر قال بشير المستعان الله قال فإذا أويت إلى فراشك فتعوذ بالله من كرب يوم القيامة وسوء الحساب... وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة ...» (تفسير ابن كثير ج: ٤ ص:٤٨٤-٤٨٥).

(٢١٠) الترغيب والترهيب ج: ٤ ص: ٢١٠، رقم (٥٤٣٨) وقال: «وعن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إن الرجل ليلجمه العرق يوم القيامة فيقول يا رب أرحني ولو إلى النار) رواه الطبراني في الكبير بإسناد جيد وأبو يعلى ومن طريقه ابن حبان إلا أنهما قالا: إن الكافر، ورواه البزار والحاكم من حديث الفضل بن عيسى وهو واه عن المنكدر عن جابر ولفظه: قال رسول الله ﷺ إن العرق ليلزم المرء في الموقف حتى يقول يا رب إرسالك بي إلى النار أهون علي مما أجد وهو يعلم ما فيها من شدة العذاب، وقال الحاكم صحيح الإسناد » .

(٢١١) المطففين: ٦.

٢١٧- قول الأنبياء: نفسي.. نفسي:

عن قتادة أو كعب [بن ماتع الحميري]، قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦] قال: «يقومون مقدار ثلاثمائة عام».

وقال سمعت الحسن [البصري] يقول: «ما ظنك بأقوام قاموا لله عز وجل على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة، ولم يشربوا فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم من العطش، واحترقت أجوافهم من الجوع، انصرف بهم إلى النار، فسقوا من عين آنية، قد آن حرها واشتد نفحها. فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه أن يشفع لهم في الراحة من مقامهم وموقفهم لينصرفوا إلى الجنة أو إلى النار من وقوفهم، ففزعوا إلى آدم ونوح ومن بعده إبراهيم، وموسى وعيسى من بعد إبراهيم، كلهم يقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، فكلهم يذكر شدة غضب ربه عز وجل وينادي بالشغل بنفسه فيقول: نفسي نفسي، فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلى ربهم لاهتمامه بنفسه وخلاصها».

وكذلك يقول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل:١١١].

فتوهم أصوات الخلائق، وهم ينادون بأجمعهم، منفرد كل واحد منهم بنفسه ينادي: نفسي نفسي، فلا تسمع إلا قول: نفسي نفسي.

فيا هول ذلك! وأنت تنادي معهم بالشغل بنفسك، والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه، فما ظنك بيوم ينادي فيه المصطفى آدم، والخليل إبراهيم، والكليم موسى، والروح والكلمة عيسى، مع كرامتهم على الله عز وجل، وعظم قدر منازلهم عند الله عز وجل، كل ينادي: نفسي نفسي، شفقاً من شدة غضب ربه، فأين أنت منهم في إشفاقك في ذلك اليوم واشتغالك بحزنك وبخوفك ؟

٢١٨- الشفاعة العظمى الخاصة بمحمد ﷺ :

حتى إذا أيس الخلائق من شفاعتهم لما رأوا من اشتغالهم لأنفسهم، أتوا النبي محمداً ﷺ، فسألوه الشفاعة إلى ربهم فأجابهم إليها، ثم قام إلى ربه عز وجل، واستأذن عليه،

فأذن له، ثم خر لربه عز وجل ساجداً، ثم فتح عليه من محامده، والثناء عليه لما هو أهله، وذلك كله بسمعك، وأسماع الخلائق، حتى أجابه ربه عز وجل إلى تعجيل عرضهم، والنظر في أمورهم.

٢١٩- العرض والحساب:

فبينما أنت مع الخلائق في هول القيامة وشدة كربها، منتظراً متوقعاً لفصل القضاء، والحلول في دار النعيم أو الحزن، إذ سطع نور العرش، وأشرقت الأرض بنور ربها، وأيقن قلبك بالجبار، وقد أتى لعرضك عليه حتى كأنه لا يعرض عليه أحد سواك، ولا ينظر إلا في أمرك.

عن حميد بن هلال: قال: ذكر لنا أن الرجل يدعى يوم القيامة إلى الحساب، فيقال: يا فلان بن فلان، هلم إلى الحساب، حتى يقول: ما يراد أحد غيري مما يحضر به من الحساب.

٢٢٠- « وجئ يومئذ بجهنم »[(٢١٢)]:

ثم نادى: يا جبريل ائتني بالنار، فتوهمها وقد أتى جبريل، فقال لها: يا جهنم أجيبي،... فتوهمها حين اضطربت وفارت وثارت، ونظرت إلى الخلائق من بعد مكانها، فشهقت إليهم، وزفرت نحوهم، وجذبت خزانها، متوثبة على الخلائق غضباً لغضب ربها على من خالف أمره وعصاه.

٢٢١- « فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً »[(٢١٣)]:

فتوهم صوت زفيرها وشهيقها... وقد امتلأ منه سمعك، وارتفع له فؤادك وطار فزعاً ورعباً، ففر الخلائق هرباً من زفيرها على وجوههم، وذلك يوم التنادي، لما سمعوا بدوي زفيرها ولوا مدبرين، وتساقطوا على ركبهم جثاة حول جهنم، فأرسلوا الدموع من أعينهم.

فتوهم اجتماع أصوات بكاء الخلائق عند زفيرها وشهيقها، وينادى الظالمون بالويل والثبور، وينادي كل مصطفى وصديق ومنتخب وشهيد ومختار وجميع العوام: نفسي نفسي، فتوهم أصوات الخلائق من الأنبياء فمن دونهم كل عبد منهم ينادي: نفسي نفسي،

---

(٢١٢) الفجر: ٢٣.

(٢١٣) مريم: ٦٨.

وأنت قائلها، فبينا أنت مع الخلائق في شدة الأهوال ووجل القلوب إذ زفرت الثانية، فيزداد رعبك ورعبهم، وخوفك وخوفهم. ثم زفرت الثالثة، فتساقط الخلائق لوجوههم وتشخص بأبصارهم من طرف خاشع خفي خوفاً أن تلفهم فتأخذهم بحريقها، وانتصفت عند ذلك قلوب الظالمين، فبلغت لدى الحناجر كاظمين، فكظموا عليها، وقد غصت في حلوقهم، وطارت الألباب، وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين، فلا يبقى رسول ولا عبد صالح مختار إلا ذهل لذلك عقله.

٢٢٢- « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم »(٢١٤):

فأقبل الله عز وجل عند ذلك على رسله، وهم أكرم الخلائق عليه، وأقربهم إليه، لأنهم الدعاة إلى الله عز وجل، والحجة على عباده، وهم أقرب الخلائق إلى الله عز وجل في الموقف، وأكرمهم عليه، فيسألهم عما أرسلهم به إلى عباده، وماذا ردوا عليهم من الجواب، فقال لهم: (ماذا أجبتم) فردوا عليه الجواب عن عقول ذاهلة غير ذاكرة، فقالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]. فأعظم به من هول تبالغ من رسل الله عز وجل في قربهم منه وكرامتهم، حتى أذهل عقولهم، فلم يعلموا بماذا أجابتهم أممهم.

... عن مجاهد [بن جبر] في قوله: (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) قال: فيفزعون فيقولون: (لا علم لنا).

٢٢٣- « وترى كل أمة جاثية »(٢١٥):

عن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨] أي: مستوفزين على الركب. قال: سمعت عبد الله [بن عباس] يقول: قال رسول الله ﷺ: «كأني أراكم جاثين بالكوم دون جهنم»(٢١٦)، وقال: سمعت عبد الله بن عمر يقول:

---

(٢١٤) المائدة:١٠٩.

(٢١٥) الجاثية: ٢٨.

(٢١٦) قال في فتح الباري ج: ١١ ص: ٤٠٥: «وقد أخرج البيهقي في البعث من مرسل عبد الله بن باباه بسند رجاله ثقات رفعه: (كأني أراكم بالكوم جثى من دون جهنم) قوله: جثى بضم =

قال رسول الله ﷺ : «من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]»[٢١٧].

٢٢٤- «يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه... »[٢١٨]:

... فتوهم نفسك لذلك الخوف والفزع والرعب والغربة والتحير إذا تبرأ منك الولد والوالد والأخ والصاحب والعشائر، وفررت أنت منهم أجمعين، فكيف خذلتهم وخذلوك، ولولا عظم هول ذلك اليوم ما كان من الكرم والحفاظ أن تفر من أمك وأبيك وصاحبتك وبنيك وأخيك، ولكن عظم الخطر، واشتد الهول، فلا تلام على فرارك منهم، ولا يلامون، ولم تخصهم بالفرار دون الأقرباء لبغضك إياهم، وكيف تبغضهم أو يبغضونك، وكيف خصصتهم بالفرار منهم، أتبغضهم وإنهم لهم الذين كانوا في الدنيا مؤانسيك وقرة عينك وراحة قلبك، ولكن خشيت أن يكون لأحد عندك منهم تبعة فيتعلق بك حتى يخاصمك عند ربك عز وجل، ثم لعله أن يحكم له عليك، فيأخذ منك ما ترجو أن تنجو به من حسناتك فيفرقك منها فتصير بذلك إلى النار.

٢٢٥- من موقف الحشر.. إلى النار:

فبينما أنت في ذلك إذ ارتفعت عنق من النار فنطقت بلسان فصيح بمن وكلت بأخذهم من الخلائق بغير حساب، ثم أقبل ذلك العنق فيلتقطهم لقط الطير الحب ثم انطوت عليهم فألقتهم في النار فابتلعتهم، ثم خنست بهم في جهنم فيفعل ذلك بهم.

٢٢٦- من موقف الحشر.. إلى الجنة بغير حساب:

ثم ينادي مناد: سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم: ليقم الحمادون لله على كل حال، فيقومون فيسرحون إلى الجنة، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر مولاه حتى إذا دخلت هذه الفرق من أهل الجنة والنار..

= الجيم بعدها مثلثة مقصور: جمع جاث، والكوم بفتح الكاف والواو الساكنة: المكان العالي الذي تكون عليه أمة محمد ﷺ كما ثبت في حديث كعب بن مالك ثم مسلم أنهم يكونون يوم القيامة على تل عال» وانظر: تفسير القرطبي:١٦/ ١٧٤، وتفسير ابن كثير: ٤/ ١٥٣.

(٢١٧) أحمد (٤٧٠٣)، وأخرجه أيضا بلفظ: (من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ...) حديث رقم (٤٥٧٥) و(٤٦٩٧) و(٥٤٩٥).

(٢١٨) عبس:٣-٤.

٢٢٧- تطاير الكتب ونصب الموازين:

ثم تطايرت الكتب في الأيمان والشمائل ونصبت الموازين.

فتوهم الميزان بعظمه منصوباً، وتوهم الكتب المتطايرة وقلبك واجف متوقع أين يقع كتابك في يمينك أو في شمالك. عن الحسن: أن رسول الله ﷺ كان رأسه في حجر عائشة فنعس، فتذكرت الآخرة، فبكت فسالت دموعها على خد النبي ﷺ، فاستيقظ بدموعها فرفع رأسه، فقال: ما يبكيك يا عائشة ؟ فقالت: يا رسول الله ذكرت الآخرة، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال: «والذي نفسي بيده في ثلاثة مواطن فإن أحداً لا يذكر إلا نفسه: إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل ؟ وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ أم بشماله، وعند الصراط »[٢١٩] .

وعن أنس بن مالك، قال: يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان، ويوكل به ملك، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوته يسمع الخلائق: سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى الملك بصوته يسمع الخلائق: شقي فلان بن فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً...

٢٢٨- الحساب اليسير والحساب العسير:

فتوهم حين وقفت بالاضطراب والارتعاد... وناداك الله عز وجل بعظيم كلامه: ادن مني يا بن آدم، فغيبك في نوره، فوقفت بين يدي رب عظيم جليل كبير كريم بقلب خافق محزون، وجل مرعوب، وطرف خائف، خاشع ذليل، ولون متغير، وجوارح مرتعدة مضطربة، كالحمل الصغير حين تلده أمه، ترتعد بيدك صحيفة محبرة لا تغادر بلية كسبتها ولا مخبأة أسررتها، فقرأت ما فيها بلسان كليل، وحجة داحضة، وقلب منكسر. فكم لك من حض وخجل وجبن من المولى الذي لم يزل إليك محسناً، وعليك ساتراً فبأي

---

(٢١٩) أبو داود (٤١٢٨) ولفظه: «... عن عائشة أنها ذكرت النار فبكت فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك؟ قالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل، وعند الكتاب حين يقال هاؤم اقرؤوا كتابيه حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم» وانظر: المنذري: الترغيب والترهيب ٤/ ٢٢٩.

لسان تجيبه حين يسألك عن قبيح فعلك، وعظيم جرمك، وبأي قدم تقف غداً بين يديه، وبأي نظر تنظر إليه، وبأي قلب تحتمل كلامه العظيم الجليل ومساءلته وتوبيخه ؟

فتوهم نفسك بصغر جسمك، وارتعاد جوارحك، وخفقان قلبك، وقد سمعت كلامه بتذكير ذنوبك، وإظهار مساوئك، وتوقيفك بمخبآتك، فتوهم نفسك بهذه الهيئة، والأهوال بك محدقة من خلفك، فكم من بلية قد نسيتها، قد ذكركها، وكم من سريرة قد كنت كتمتها قد أظهرها وأبداها، وكم من عمل، قد ظننت أنه قد خلص لك وسلم بالغفلة منك إلى ميل الهوى عما يفسده، قد رده في ذلك الموقف عليك وأحبطه، بعد ما كان أملك فيه عظيماً، فيا حسرات قلبك، وتأسفك على ما فرطت في طاعة ربك، حتى إذا كرر عليك السؤال بذكر كل بلية، ونشر كل مخبأة، فأجهدك الكرب، وبلغ منك الحياء منتهاه، لأنه الملك الأعلى، فلا حياء يكون من أحد أعظم من الحياء منه، لأنه القديم الأول الباقي الذي ليس له مثل، المحسن المتعطف المتحنن الكريم الجواد المنعم المتطول.

فما ظنك بسؤال من هو هكذا، وقد أبان عن مخالفتك إياه، وقلة هيبتك له، وحيائك منه، ومبارزتك له، فما ظنك بتذكيره إياك مخالفته، وقلة اكتراثك في الدنيا بالطاعة له، ونظرك إليه، إذ يقول: يا عبدي أما أجللتني أما استحييت مني، استخففت بنظري إليك، ألم أحسن إليك، ألم أنعم عليك، ما غرك مني، شبابك فيم أبليته، وعمرك فيم أفنيته، ومالك من أين اكتسبته، وفيم أنفقته، وعلمك ماذا عملت فيه؟

قال: قال رسول الله ﷺ : «ما منكم من أحد إلا سيسأله رب العالمين، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان»[(٢٢٠)].

وقال: سمعت عدي بن حاتم قال: شهدت رسول الله ﷺ في حديث له: «ليقفن أحدكم بين يدي الله تبارك وتعالى، ليس بينه وبينه حجاب يحجبه، ولا بينه وبينه ترجمان

---

(٢٢٠) متفق عليه: البخاري (٦٨٨٩) بلفظ (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه)، ومسلم (١٦٨٨) بلفظ: (ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة) زاد ابن حجر قال الأعمش وحدثني عمرو بن مرة عن خيثمة مثله وزاد فيه (ولو بكلمة طيبة).

يترجم عنه، فيقول: ألم أنعم عليك، ألم آتك مالاً ؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أرسل إليك رسولاً ؟ فيقول: بلى، ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار، فليتق أحدكم النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة»[٢٢١].

٢٢٩- من عامله برحمته نجا ومن نوقش الحساب هلك:

... وأنت يا ابن آدم بين خطرين عظيمين:

إما أن يتلافاك برحمته ويتطول عليك بجوده، وإما أن يناقشك الحساب، فيأمر بك إلى الهاوية وبئس المصير. عن مجاهد [بن جبر] قال: (لا يزول قدم عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال: عن عمره فيم أفناه؟، وعن علمه ما عمل فيه؟ وعن جسده فيم أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه؟)[٢٢٢].

فما ظنك بنفسك وضعف قلبك، والله عز وجل يكرر عليك ذكر إحسانه إليك، ومخالفتك له، وقلة حيائك منه، فأعظم به موقفاً ! وأعظم به من سائل لا تخفى عليه خافية! وأعظم بما يداخلك من الحزن والغم، والتأسف على ما فرطت في طاعته، وركوبك معصيته! .

فإذا تبالغ فيك الجهد من الغم والحزن والحياء بدا لك منه أحد الأمرين: الغضب، أو الرضا عنك والحب لك. فإما أن يقول: يا عبدي أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فقد غفرت لك كبير جرمك، وكثير سيئاتك، وتقبلت منك يسير إحسانك. فيستطير بالسرور والفرح قلبك، فيشرق لذلك وجهك، فتوهم نفسك حين

---

(٢٢١) البخاري (١٣٢٤).

(٢٢٢) قال المنذري:(الترغيب والترهيب ج: ١ ص: ٧٣): وعن أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، ورواه البيهقي وغيره من حديث معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: (ما تزال قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه). وعن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: (لا يزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وما عمل فيما علم).

قالها لك، فابتدأ إشراق السرور ونوره في وجهك بعد كآبته وتكسفه من الحياء من السؤال والحصر من ذكر مساوئ فعلك، فاستبدلت بالكآبة والحزن سروراً في قلبك، فأسفر وجهك، وابيض لونك.

٢٣٠- سرور الناجين برحمة الله وفضله :

فتوهم رضاه عنك حين سمعته منه، فثار في قلبك، فامتلأ سروراً، وكدت أن تموت فرحاً، وتطير سروراً، ويحق لك، فأي سرور أعظم من السرور والفرح برضا الله عز وجل؟!.

فوالله تعالى لو أنك مت فرحاً في الدنيا حين توهم رضاه في الآخرة لكنت بذلك حرياً وإن كنت لم تستيقن برضاه في الآخرة، ولكن آملاً لذلك، فكيف بك مستيقناً له في الآخرة، ولو توهمت نفسك، وقد بدا لك منه الرحمة والمغفرة، كنت حقيقاً أن تطير روحك من بدنك فرحاً، فكيف أن لو قد سمعت من الله عز وجل الرضا عنك والمغفرة لك، فأمن خوفك، وسكن حذرك، وتحقق أملك ورجاؤك بخلود الأبد، وأيقنت بفوزك ونعيمك أبداً لا يفنى ولا يبيد بغير تنقيص ولا تكذيب.

فتوهم نفسك بين يدي الله عز وجل، وقد بدا لك منه الرضا، وطار قلبك فرحاً، وابيض وجهك، وأشرق وأنار وأحال عن خلقته، فصار كأنه القمر ليلة البدر، ثم خرجت على الخلائق مسروراً بوجه محبور، قد حل به أكمل الجمال والحسن، يسطع نوراً مشرقاً بتلألئه، تتخطاهم بالجمال والحسن والنور والضياء، كتابك بيمينك، أخذ بضبعيك [بعضديك] ملك ينادي على رؤوس الخلائق: هذا فلان بن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً.

لقد شهرك ربك عز وجل بالرضا عنك عند خلقه، ولقد حقق حسن ظن الظانين، وأبطل تهم المتهمين لك... عوضك المنزلة الكبرى على رؤوس الخلائق، فشهرك برضاه عنك وموالاته إياك.

فتوهم نفسك وأنت تتخطى الخلائق، وكتابك في يمينك بجمال وجهك ونوره، وفرح قلبك وسروره، وقد شخصت أبصارهم إليك غبطة لك وتأسفاً على أن لا ينالوا من الله عز وجل ما نلت، فليعظم من الله عز وجل في طلب ذلك أملك ورجاؤك، فإنه عز وجل إن تفضل عليك نلت ذلك. فهذا أحد الأمرين الذي أنت بينهما على خطر. عن

صفوان بن محرز قال: كنت آخذاً بيد عبد الله بن عمر، فأتاه رجل، فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله عز وجل يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه فيقول: يا عبدي أتعرف ذنب كذا وكذا ؟ فيقول: نعم يا رب، ثم يقول: يا عبدي أتعرف ذنب كذا وكذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: إني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافق فـ: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [هود: ١٨][٢٢٣]...

٢٣١- خسران الهالكين بعدل الله:

وأما الأمر الآخر، فإما أن يقول لك: عبدي أنا غضبان عليك فعليك لعنتي، فلن أغفر لك عظيم ما أتيت، ولن أتقبل منك ما عملت، فيقول لك ذلك عند بعض ذنوبك العظيمة: أتعرفها ؟ فتقول: نعم وعزتك، فيغضب عليك فيقول: وعزتي لا تذهب بها مني، فنادى الزبانية فيقول: خذوه. فما ظنك بالله عز وجل يقولها بعظيم كلامه وهيبته وجلاله.

فتوهم إن لم يعف عنك، وقد سمعتها من الله عز وجل بالغضب، وأسند إليك الزبانية بغضاضتها، وغلظ أكفها، مستدفرة بأزمة من النيران، غضاباً لغضب الله عز وجل بالعنف عليك، والغلظ والتشديد. فلم تشعر حين قالها إلا ومجسة غلظ أكفهم في قفاك وعنقك. فتوهم غلظ أكفهم حين قبضوا على عنقك بالعنف، يتقربون إلى الله عز وجل بعذابك وهوانك.

فتوهم نفسك مستخذياً ذليلاً، موقناً بالهلاك، وأنت في أيديهم، وهم ذاهبون بك إلى النار، مسوداً وجهك، تتخطى الخلائق بسواد وجهك، وكتابك في شمالك تنادي بالويل والثبور، والملك آخذ بضبعيك ينادي: هذا فلان بن فلان شقي شقاء لا يسعد بعده أبداً...

فتوهم ذلك، ثم توهمه، واذكر هذا الخطر، وكن مفكراً حذراً أي الأمرين يرتفع بك، وأي الأمرين قد أعد لك.

---

(٢٢٣) متفق عليه: البخاري (٢٢٦١) واللفظ له، ومسلم (٤٩٧٢).

٢٣٢- الصراط وأحوال الناس عليه:

... ومع ذلك الجسر بدقته وزللـه وهوله وعظيم خطره قدامك.

فتوهم ما حل من الوجل بفؤادك، حين رفعت طرفك، فنظرت إليه مضروباً على جهنم بدقته ودحوضه، وجهنم تخفق بأمواجها من تحته، فياله من منظر ما أفظعه وأهوله! وقد علمت أنك راكب فوقه، وأنت تنظر إلى سواد جهنم من تحته، وتسمع قصيف أمواجها، وجلبة ثورانها من أسفلها، والملائكة تنادي: ربنا من تريد أن تجيزه على هذا ؟ وتنادي: ربنا ربنا سلم سلم.

فبينا أنت تنظر إليه بفظاعة منظره إذ نودي: مروا الساهرة، فلم تشعر إلا وقد رفعت الأرض من تحتك وتحت الخلائق لأن تبدل، ثم بدلت بأرض من فضة، فإذا الخلائق منثورون على أرض من فضة بيضاء، ثم قيل لك وأنت تنظر إلى الجسر بفظاظته، وقيل للخلق معك: اركبوا الجسر... فتوهم صعودك بضعفك عليه، وقد نظرت إلى الزالين والزالات من بين يديك ومن خلفك، وقد تنكست هاماتهم، وارتفعت على الصراط أرجلهم... وثارت إليهم النار بطلبتها، وفارت وشهقت على هاماتهم، وبادرت شرر النار إلى هاماتهم، فتناولتها، ثم جذبت هاماتهم إلى جوفها، وهم ينادون ويصرخون، وقد أيسوا من أنفسهم، وهم لاجتذاب النار لهاماتهم فيها ينحدرون وهم بالويل ينادون، وأنت تنظر إليهم مرعوباً خائفاً أن تتبعهم، فتزل قدمك، فتهوي من الجسر، وتنكسر قامتك، وترتفع على الصراط رجلاك.

٢٣٣- أهوال القيامة إنما تخفف على أولياء الله:

فتوهمك ذلك في الدنيا بعقل فارغ وشفقة على ضعف بدنك، مخفف للمرور عليه، فإن أهوال يوم القيامة إنما تخفف على أولياء الله عز وجل الذين توهموها في الدنيا بعقولهم، فعظم خطر النجاة عندهم، فتحملوا من ثقل همومها في الدنيا على قلوبهم وحرقة خوفها... فخففها في القيامة بذلك عليهم مولاهم. فألزم قلبك توهمها، والخوف منها، والغم بها، لأنه يخففها عليك بذلك، ويهونها، لأنه آلى على نفسه ألا يجمع على أوليائه الخوف في الدنيا والآخرة. فتوهم ممرك على الجسر بشدة الخوف، وضعف البدن.

٢٣٤- المتساقطون من على الصراط في النار:

وإن يكن مغضوباً عليك غير معفي عنك، [أعاذنا الله وإياك من ذلك] لم تشعر إلا وقد زلت قدمك عن الصراط، فتوهم نفسك - إن لم يعف عنك - أن زلت رجلك عن

الصراط فقلت في نفسك مع ذلك ذهبت أبداً هذا الذي كنت أحاذر وأخاف، وطار عقلك. ثم زلت الأخرى، فتنكست هامتك، وارتفعت عن الصراط رجلاك، فلم تشعر إلا والكلوب قد دخل في جلدك ولحمك، فجذبت به، وبادرت إليك النار ثائرة غضبانة لغضب مولاها، فهي تجذبك، وأنت تهوي من الجسر وتنادي حين وجدت مس لفحها: ويلي ويلي، وقد غلب على قلبك الندم والتأسف ألا كنت أرضيت الله عز وجل، فرضي عنك، وأقلعت عما يكره قبل أن تموت، فغفر لك.

... فلما اشتد بك الكرب والعطش، وبلغ منك المجهود، ذكرت الجنان، فهاجت غصة من فؤادك إلى حلقك أسفاً على جوار الله عز وجل وحزناً على نعيم الجنة. ثم ذكرت شرابها، وبرد مائها وطيب عيشها، فتقطع قلبك حسرة لحرمان ذلك. ثم ذكرت أن فيها بعض القرابة من أب أو من أم أو من أخ، وغيرهم من القرابة، فناديتهم بصوت محزون من قلب محترق قلق: يا أماه، أو يا أبتاه، أو يا أخاه، أو يا خالاه، أو يا عماه، أو يا أختي، شربة من ماء، فأجابوك بالخيبة، فتقطع قلبك حسرات بما خيبوا من أملك، وبما رأيت من غضبهم عليك لغضب ربك عز وجل، ففزعت إلى الله بالنداء بالمرجع والعتبى أن يردك إلى الدنيا، فمكث عنك دهراً طويلاً لا يجيبك هواناً بك، وأن صوتك عنده ممقوت، وجاهك عنده ساقط، ثم ناداك بالخيبة منه أن ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. فلما سمعت نداءه بجلال كلامه بالتخسية لك ابتداء، فمثلك لا يجاب، ومناخرك وفوك ملجومة بلجام، فبقي نفسك متردداً في جوفك لا مخرج له، فضاقت نفسك في صدرك، وبقيت قلقاً تزفر لا تطيق الكلام، ولا يخرج منك نفس.

ثم أراد أن يزيدك إياساً وحسرة، فأطبق أبواب النار عليك وعلى أعدائه فيها. فما ظنك إن لم يعف عنك، وقد سمعت رجوف بابها قد أغلق؟ فيا إياسك ويا إياس سكان جهنم حين سمعوا وقع أبوابها تطبق عليهم، فعلموا عند ذلك أن الله عز وجل إنما أطبقها لئلا يخرج منها أحد أبداً، فتقطعت قلوبهم إياساً، وانقطع الرجاء منهم ألا فرج أبداً، ولا مخرج منها، ولا محيص لهم من عذاب الله عز وجل أبداً، خلوداً فلا موت، وعذاباً لا زوال له عن أبدانهم، ودوام حرق قلوبهم ومضيضها، فلا روح ولا راحة تعلق بهم أبداً، أحزان لا تنقضي، وغموم لا تنفد، وسقم لا يبرأ، وقيود لا تحل، وأغلال لا تفك أبداً، وعطش لا يروون بعده أبداً، وكرب لا يهدأ أبداً، وجوع لا يشبعون بعده أبداً إلا بالزقوم ينشب في

حلوقهم، فيستغيثون بالشراب ليسوغوا به غصصهم فيقطع أمعاءهم، وحسرة فوت رضوان الله عز وجل في قلوبهم، وكمد حرمان جوار الله عز وجل يتردد في صدورهم، لا يرحم بكاؤهم، ولا يجاب دعاؤهم، ولا يغاثون عند تضرعهم، ولا تقبل توبتهم، ولا تقال عثرتهم، غضب الله عز وجل عليهم فلا يرضى عنهم أبداً، إذ أبغضهم ومقتهم، وسقطوا من عينه، وهانوا عليه فأعرض عنهم.

فلو رأيتهم وقد عطشوا وجاعوا، فنادوا من أهل الجنة الأقرباء، فقالوا جميعاً: يا أهل الجنة، يا معشر الآباء والأمهات والإخوة والأخوات، خرجنا من قبورنا عطاشاً، وأوقعنا بين يدي الله عز وجل عطاشاً، وأمر بنا إلى النار عطاشاً، أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فأجابوهم بالتخسية، فتراجع في قلوبهم الحسرة والندامة، فهم فيها يتقلبون لا ينفح وجوههم روح أبداً، ولا يذوقون منها برداً أبداً، ولا يطبقون جفونهم على غمض نوم أبداً، فهم في عذاب دائم وهوان لا ينقطع.

فمثل نفسك بهذا الوصف إن لم يعف عنك...

٢٣٥- « **ويحذركم الله نفسه** »(٢٢٤):

فتوهم ذلك بعقل فارغ وقد هاجت منه رحمة لضعفك، وارجع عما يكره مولاك، وتَرَضَّى عسى أن يرضى عنك، وأعذ به بعقلك، واستقله يقلك عثراتك، وابك من خشيته عسى أن يرحمك ويقيل عثراتك، فإن الخطر عظيم، وإن البدن ضعيف، والموت منك قريب، والله جل جلاله مع ذلك مطلع يراك، وناظر لا يخفى عليه منك سر ولا علانية، فاحذر نظره بالمقت والبغضة والغضب والقلاء، وأنت لا تشعر فرحاً أو قرير العين.

فاحذر الله عز وجل وخفه واستح منه وأجله، ولا تستخف بنظره ولا تتهاون باطلاعه، وأجلّ مقامه عليك، وعلمه بك، وافرقه، واخشه، قبل أن يأخذك بغتة، وَلِيَرَ أثر مصيبة مخالفتك له، ليعلم ما قد بلغ منك خلافه، فيعظم حزنك، ويشتد غمك بمخالفته... فإن علم ذلك منك صفح عنك وعفا عنك. فلا تتعرض لله عز وجل فإنه لا طاقة لك بغضبه ولا قوة لعذابه، ولا صبر لك على عقابه، ولا صبر عندك عن جواره، فتدارك نفسك قبل لقائه، فكأنك بالموت قد نزل بك بغتة...

---

(٢٢٤) آل عمران: ٢٨.

فتوهم ما وصفت لك، فإنما وصفت بعض الجمل، فتوهم ذلك بعقل فارغ موقن عارف بما قد جنيت على نفسك، وما استوجبت بجنايتك، وفكر في مصيبتك في دينك، وليرِ الله عز وجل عليك أثر المصيبة، لعله أن يرحمك، فيتجاوز عنك لمغفرته وعصمته.

٢٣٦- الناجون على الصراط:

فإن كنت من أهل العفو والتجاوز:

فتوهم أن تفضل الله عز وجل عليك بالعفو والتجاوز، ممرك على الصراط ونورك معك يسعى بين يديك، وعن يمينك، وكتابك بيمينك، مبيض وجهك، وقد فصلت من بين يدي الله عز وجل، وأيقنت برضاه عنك، وأنت على الصراط مع زمر العابدين ووفود المتقين، والملائكة تنادي: سلام سلام، والوجل مع ذلك لا يفارق قلبك ولا قلوب المؤمنين، تنادي وينادون: ﴿ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [التحريم: ٨]. فتدبر حين رأوا المنافقين طفئ نورهم، وهاج الوجل في قلوبهم، فدعوا بتمام النور والمغفرة.

فتوهم نفسك، وأنت تمر خفيفاً مع الوجل، فتوهم ممرك على قدر خفة أوزارك وثقلها، وقد انتهيت إلى آخره، فغلب على قلبك النجاة، وعلا عليك الشفق، وقد عاينت نعيم الجنان وأنت على الصراط، فحق قلبك على جوار الله عز وجل، واشتاق إلى رضا الله، حتى إذا صرت إلى آخره خطوت بأحد رجليك إلى العرصة [بقعة واسعة لا بناء فيها]، التي بين آخر الجسر وبين باب الجنة، فوضعتها على العرصة التي بعد الصراط، وبقيت القدم الأخرى على الصراط، والخوف والرجاء قد اعتليا في قلبك وغلبا عليك، ثم ثنيت بالأخرى، فجزت الصراط كله واستقرت قدماك على تلك العرصة، وزلت عن الجسر ببدنك، وخلفته وراء ظهرك، وجهنم تضطرب من تحت من يمر عليها، وتثب على من زل عنه مغتاظة تزفر عليه وتشهق إليه. ثم التفت إلى الجسر فنظرت إليه باضطراب، ونظرت إلى الخلائق من فوقه، وإلى جهنم من تحته تثب وتزفر على الذين زلزلوا عن الصراط لها في رؤوسهم وأنحائهم قصيف، فطار قلبك فرحاً إذ رأيت عظيم ما نجاك الله منه، فحمدت الله، وازددت له شكراً، إذ نجوت بضعفك من النار، وخلفت النار وجسرها من وراء ظهرك، متوجهاً إلى جوار ربك.

٢٣٧- بعد الصراط.. إلى الجنة:

ثم خطوت آمناً إلى باب الجنة قد امتلأ قلبك سروراً وفرحاً، فلا تزال في ممرك بالفرح والسرور حتى توافي أبوابها، فإذا وافيت بابها استقبلك بحسنه فنظرت إلى حسنه ونوره وحسن صورة الجنة وجدرانها، وقلبك مستطير فرح مسرور متعلق بدخول الجنة حين وافيت بابها أنت وأولياء الرحمن.

فتوهم نفسك في ذلك الموكب، وهم أهل كرامة الله ورضوانه، مبيضة وجوههم، مشرقة برضا الله، مسرورون فرحون مستبشرون. وقد وافيت باب الجنة بغبار قبرك، وحر المقام ووهج ما مر بك، فنظرت إلى العين التي أعدها الله لأوليائه وإلى حسن مائها، فانغمست فيها مسروراً، لما وجدت من برد مائها وطيبه، فوجدت له برداً طيباً، فذهب عنك بحزن المقام، وطهرك من كل دنس وغبار، وأنت مسرور لما وجدت من طيب مائها لما باشرته، وقد أَفْلَتَّ من وهج الصراط وحره، لأنه قد يوافي بابها من أحرقت النار بعض جسده بلفحها وقد بلغت منه، فما ظنك وقد انفلت من حر المقام ووهج أنفاس الخلائق، ومن شدة توهج حر الصراط فوافيت باب الجنة بذلك، فلما نظرت إلى العين قذفت بنفسك فيها .

فتوهم فرحة فؤادك لما باشر برد مائها بدنك بعد حر الصراط، ووهج القيامة، وأنت فرح لمعرفتك أنك إنما تغتسل لتتطهر لدخول الجنة والخلود فيها، فأنت تغتسل منها دائباً، ولونك متغير حسناً، وجسدك يزداد نضرة وبهجة ونعيماً، ثم تخرج منها في أحسن الصور وأتم النور.

فتوهم فرح قلبك حين خرجت منها فنظرت إلى كمال جمالك، ونضارة وجهك وحسنه، وأنت عالم موقن بأنك تتنظف للدخول إلى جوار ربك.

ثم تقصد إلى العين الأخرى، فتتناول من بعض آنيتها، فتوهم نظرك إلى حسن الإناء، والى حسن الشراب، وأنت مسرور بمعرفتك أنك إنما تشرب هذا الشراب لتطهر جوفك من كل غل، وجسدك ناعم أبداً، حتى إذا وضعت الإناء على فيك ثم شربته، وجدت طعم شراب لم تذق مثله، ولم تعوّد شربه، فيسلس من فيك إلى جوفك، فطار قلبك سروراً لما وجدت من لذته، ثم نقي جوفك من كل آفة، فوجدت لذة طهارة صدرك من كل طبع كان فيه ينازعه إلى الغموم والهموم والحرص والشدة والغضب والغل. فيا برد طهارة صدرك ! ويا روح ذلك على فؤادك !

حتى إذا استكملت طهارة القلب والبدن، واستكمل أحباء الله ذلك معك، والله مطلع يراك ويراهم، أمر مولاك الجواد المتحنن خزان الجنة من الملائكة، الذين لم يزالوا مطيعين خائفين منه مشفقين وجلين من عقابه إعظاماً له وإجلالاً، وهيبة له، وحذراً من نقمه، وأمرهم أن يفتحوا باب جنته لأوليائه، فانحدروا من دارها، وبادروا من ساحاتها، وأتوا باب الجنة فمدوا أيديهم ليفتحوا أبوابها، وأيقنت بذلك، فطار قلبك سروراً، وامتلأت فرحاً وسمعت حسن صرير أبوابها، فعلاك السرور، وغلب على فؤادك، فيا سرور قلوب المفتوح لهم باب جنة رب العالمين!

فلما فتح لهم بابها، هاج نسيم طيب الجنان، وطيب جري مائها، فنفح وجهك، وجميع بدنك، وثارت أراييح الجنة العبقة الطيبة، وهاج ريح مسكها الأذفر، وزعفرانها المونع، وكافورها الأصفر، وعنبرها الأشهب، وأرياح طيب ثمارها وأشجارها، وما فيها من نسيمها، فتداخلت تلك الأراييح في مشامك حتى وصلت إلى دماغك، وصار طيبها في قلبك، وفاض من جميع جوارحك، ونظرت بعينك إلى حسن قصورها، وتأسيس بنيانها من طرائق الجندل الأخضر من الزمرد، والياقوت الأحمر، والدر الأبيض، قد سطع منه نوره وبهاؤه وصفاؤه، فقد أكمله الله في الصفاء والنور، ومازجه نور ما في الجنان، ونظرت إلى حجب الله، وفرح فؤادك لمعرفتك أنك إذا دخلتها فإن لك فيها الزيادات، والنظر إلى وجه ربك، فاجتمع طيب أراييح الجنة وحسن بهجة منظرها، وطيب نسيمها، وبرد جوها، وذلك أول روح وطيب لا تنغيص فيه نفح وجهك.

فتوهم نفسك مسروراً بالدخول، لعلمك أنها يفتح بابها لك والذين معك أولياء الله، وفرحك بما تنظر إليه من حسن بهجتها، وما وصل إلى فؤادك من طيب رائحتها، وما باشر وجهك وبدنك من طيب جوها وبرد نسيمها.

فتوهم نفسك إن تفضل الله عليك بهذه الهيئة، فلو مت فرحاً لكان ذلك يحق لك، حتى إذا فتحوا بابها، أقبلوا عليك ضاحكين في وجهك ووجوه أولياء الله معك، ثم رفعوا أصواتهم يحلفون بعزه ما ضحكنا قط منذ خلقنا إلا إليكم، ونادوهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] فتوهم حسن نغماتهم، وطيب كلامهم، وحسن تسليمهم، في كمال صورهم، وشدة نورهم. ثم أتبعوا السلام بقولهم: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]...».

قلت: ونكتفي بهذا القدر من كلام الحارث المحاسبي وتذكيره، لنتحول إلى القرآن العظيم، نأخذ منه بعض الوصف لحال الفريقين.

٢٣٨- مقاطع من القرآن تصف حال أهل الجنة وأهل النار:

كثيرا ما يقدم القرآن الكريم وصف حال أهل الجنة وأهل النار بصورة متقابلة فإن عظمة نعيم أهل الجنة الذين سعدوا سعادة الأبد تبدو أكثر وضوحاً عند مقابلتها بأحوال الأشقياء في النار الذين خسروا خسارة الأبد، فتأمل المقاطع الآتية من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٤-٢٢].

وتدبر قوله جل ثناؤه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦-٧٧].

وقوله جل ثناؤه: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٢-٣٧].

وقوله جل وعز: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٠-٥٧].

وقال جل جلاله: ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤) هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص: ٤٩-٥٨].

والمقاطع المتقابلة، وغير المتقابلة، مبثوثة بشكل مفصل وكثير في كتاب الله تعالى، تبين وصف الجنة وأهلها وسعادتهم فيها والأعمال المفضية إليها، والنار وأهلها وشقاوتهم وعذابهم فيها، والأعمال المفضية إليها.

ونختم هذا المبحث بالتذكير بقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧] وقوله: ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت: ٤٠].








الباب الثاني

التوبة: فضلها، ومشروعيتها، وأركانها، وأقسامها

وفيه أربعة فصول:

- الفصل الأول: فضل التوبة ومكانتها في الإسلام.
- الفصل الثاني: مشروعية التوبة وحكمها في الإسلام.
- الفصل الثالث: أركان التوبة.
- الفصل الرابع: أقسام التوبة.









الباب الثاني

التوبة: فضلها ومشروعيتها وأركانها وأقسامها

٢٣٩- تمهيد وتقسيم:

نتناول في هذا الباب شرح أربعة موضوعات أساسية:

أحدها: بيان فضل التوبة ومكانتها في الإسلام.

والثاني: بيان مشروعية التوبة وحكمها في الإسلام.

والثالث: بيان أركان التوبة التي بها توجد التوبة.

والرابع: بيان أقسام التوبة.

وسنتحدث عن كل من هذه الموضوعات في فصل مستقل، بعد أن نقدم فكرة عامة عن التوبة تمهيداً للدخول في فصولها.

٢٤٠- فكرة عامة عن التوبة:

نقدم فيما يلي فكرة تمهيدية عامة وموجزة جداً عن التوبة قبل الدخول في أية تفاصيل تتعلق بالتوبة، وذلك في خمس فقرات، نبين من خلالها: ماهية التوبة، وأنها باب عظيم للرحمة، ثم نبذة عن أقسامها، ثم بيان ما يضاد التوبة وهو الإصرار وأنه سبيل الهلاك، وأخيراً لماذا كانت التوبة سبيل النجاة.

٢٤١- أولاً - ماهية التوبة:

٢٤٢- التوبة رجوع إلى الله بالندم والإقلاع والعزم:

التوبة رجوع إلى الله تعالى، وإنابة إليه بعد وقوع الذنب أو الذنوب، وبداية أو عودة إلى الصراط المستقيم، ومفارقة لصراط المغضوب عليهم والضالين. وصفوة القول فيها أنها: رجوع إلى الله تعالى بالندم على ما فرط العبد في جنب الله تعالى من ارتكاب الذنوب،

بفعل المحرمات أو ترك الواجبات الشرعية، وسواء أكانت هذه الذنوب كبيرة أو صغيرة، كثيرة أو قليلة. قال بعض العارفين: لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر إلى عظمة من عصيت!.

٢٤٣- الندم يبعث على ترك الذنب والعزم على عدم العودة إليه:

وهذا الندم يبعث على ترك الزلة أو المحرم في الحال، والعزم على عدم معاودته في المستقبل، ابتغاء مرضاة الله وعفوه وغفرانه، وتجنباً لسخطه وعقابه. وسبب ذلك إحساس العبد بأن معصية الله عز وجل تبعده عن رحمته ومحبته، وتوقعه في سخطه وغضبه وعقوبته.

٢٤٤- مبعث الندم: الخوف أو الحياء:

ومبعث هذا الندم إما الخوف من عقاب الله الذي وعد به العاصين، أو الحياء من الله أنه عصاه وهو إلهه وربه المنعم عليه بأعظم أجناس النعم.. عصى ربه ومعبوده ومحبوبه الذي هو من فوقه حاضر ناظر سامع شهيد، وأطاع عدوه المزين للخطيئة الشيطان الرجيم.

٢٤٥- الندم مرتبط باليقظة:

ويختلف ندم النادمين التائبين باختلاف يقظتهم، فمن تائب نادم ذرفت عيناه الدموع على ما فرط في جنب الله، يتقطع قلبه أسىً وحسرة على ما وقع منه من المعصية، قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وضاقت عليه نفسه، وعلم أن لا نجاة له إلا برحمة ربه واللجوء إليه. وهذا ندم شديد، وما أحسنه في التوبة، وما أسرعه في استدعاء عفو الله ومغفرته وهو يلوذ بحماه أن يغيث لهفته، ويغفر زلته، ويرحم دمعته، ويقبله في صف المتقين، ويدخله في الصالحين. ومن تائب نادم آخر ندماً أقل من ذلك، ولكن أورثه الندم عزماً كافياً لترك المعصية في الحال، والعزم على عدم العودة إليها في الاستقبال، وكلاهما على خير، والأول أفضل.

فإذا حصل هذا الندم في القلب، وأورث الترك للزلة إذا كان لا يزال متلبساً بها، والعزم على عدم المعاودة، فإن ذلك هو التوبة. ويضاف إليها التحلل من حقوق الغير إن كان الذنب الذي ارتكبه فيه ظلم الغير على النحو الذي سنفصله فيما بعد.

وأنت ترى مما عرضناه أن ركن التوبة الأساس هو الندم، لأن النادم يترك حالاً ما ندم عليه، ويعزم على عدم العودة إليه، وإلا لم يكن نادماً، لذلك كان الندم أساس التوبة

قال ﷺ: «الندم توبة»(٢٢٥)، أي هو ركنها الأساس، كما قال ﷺ: «الحج عرفة»(٢٢٦)، أي ركن الحج الأساس الوقوف بعرفة.

٢٤٦- ثانياً - التوبة باب عظيم للرحمة فتحه الله لعباده:

واعلم أن الله تعالى إنما يقبل توبة التائبين ويفتح لهم باب رحمته ومغفرته ومحبته، لأنه الرحمن الرحيم، ولأنه الغفور الودود، ولأنه العفو الكريم. وإلا فإن مقتضى العدل أن الذنوب التي وقعت ومضت لا بد أن يحصل جزاؤها، لأن العبد لا سبيل له إلى إلغاء وجودها وقد وجدت، فكان لا بد - بمقتضى العدل - من وجود الجزاء والعقاب عليها. ولكن الرحمة أحب إلى الله من العدل، قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، أي أوجبها على نفسه الكريمة تفضلاً منه ومنةً وإحساناً. ورحمته تبارك وتعالى سبقت غضبه قال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم - واللفظ للبخاري -: (لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي)(٢٢٧)، وفي لفظ آخر للبخاري: (سبقت رحمتي غضبي)(٢٢٨)، وفي لفظ مسلم: (لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتي تغلب غضبي) (٢٢٩)، قال القرطبي في تفسيره: أي «تسبقه وتزيد عليه» (٢٣٠).

فقبول توبة التائبين مع ما أسلفوا من الذنوب، وعدم اعتبارها ذنوباً بمحوها وغفرانها والعفو عنها، بل وتبديلها حسنات كما أخبر الله تعالى عن التائبين: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، راجع إلى الرحمة، الرحمة الواسعة، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، والمغفرة الواسعة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾

---

(٢٢٥) أخرجه بن ماجة وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود، ورواه أيضاً ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال: صحيح على شرط الشيخين (انظر تخريج العراقي في الإحياء ٤/ ٣).

(٢٢٦) رواه الترمذي (٨١٤)، والنسائي (٢٩٦٦)، وابن ماجة (٣٠٠٦)، وأحمد (١٨٠٢٣).

(٢٢٧) صحيح البخاري (٢٩٥٥).

(٢٢٨) صحيح البخاري (٦٩٩٨).

(٢٢٩) صحيح مسلم (٤٩٤١).

(٢٣٠) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٤٣٥.

[النجم: ٣٢]، والفضل العظيم: ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥]. أما المعاقبة والمجازاة بالعذاب فراجعة إلى العدل، ولذلك أخبر تعالى أنه شديد العقاب للمصرين على ما هم عليه من حال المعصية من فعل المحظورات وترك المأمورات قال تعالى في وصفه نفسه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وقال عز وجل: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، فإذا عفا وغفر فبرحمته، وإذا عاقب فبعدله. فالكيس العاقل من استدعى من الله رحمته وعفوه بالتوبة فإنها من أعظم أسباب الرحمة.

٢٤٧- كل الذنوب قابلة للتوبة:

واعلم أن كل الذنوب، بالغةً ما بلغت، قابلة للتوبة. وذلك من سعة رحمة الله تعالى. لذلك خاطب في كتابه العزيز الخلق جميعاً بالتوبة، ووعد التائبين منهم بالعفو والمغفرة والرحمة مع ما أسلفوا من ذنوب مهما كثرت، وحَرَّم اليأسَ والقنوط من رحمته، قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٣-٥٤]، والإنابة هي التوبة.

قال القرطبي في تفسيرها: «عن ابن عباس قال: كان قوم من المشركين قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فقالوا للنبي ﷺ أو بعثوا إليه: إن ما تدعو إليه لحسن أَوَ تخبرنا أن لنا توبة؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم) ذكره البخاري بمعناه.. ودل على أنه يريد التائب ما بعده: (وأنيبوا إلى ربكم) فالتائب مغفور له ذنوبه جميعاً، يدل على ذلك ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ [طه: ٨٢] وقال علي بن أبي طالب: ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) »[٢٣١].

وجاء في تفسير «في ظلال القرآن»: «وباب التوبة دائماً مفتوح يدخل منه كل من استيقظ ضميره وأراد التوبة والمآب، لا يُصد عنه قاصد، ولا يُغلق في وجه لاجئ أياً كان

---

(٢٣١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢٦٨و٢٦٩.

وأياً ما ارتكب من الذنوب والآثام. روى الطبري من حديث أبي المغيرة عن صفوان بن عبد الرحمن بن جبر عن أبي فروة أنه أتى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجةً ولا داجةً، فهل له من توبة؟ فقال: (أسلمت؟) فقال: نعم. قال: (فافعل الخيرات واترك السيئات يجعلها الله لك خيرات كلها) قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: (نعم) فما زال يكبر حتى توارى»[٢٣٢].

٢٤٨- ثالثاً - نبذة عن أقسام التوبة:

والتوبة تنقسم من حيث شمولها للذنوب إلى توبة عامة (شاملة) عن سائر الذنوب مبعثها يقظة القلب وانتباهه إلى عظمة الرب جل وعلا، وحضور الوعد والوعيد في القلب، وحصول مزيدٍ من الخشية لله أو المحبة له، والتجافي عن دار الغرور، وتعمير الباقي من العمر من الأيام والليالي بالطاعة والعمل الصالح، وإلى توبة عن ذنب معين أذنبه العبد وندم عليه فهو يتوب عنه، وهذا غير التوبة العامة الشاملة. ولكن الواقع أن الناس غالباً يتوبون عن ذنب معين أو ذنوب معينة ولا يهتمون بتوبة عامة شاملة عن ذنوب العمر كله، وهذا من الغفلة ومن صرف الشيطان لهم عن ذلك لما فيه من الخير العظيم. قال ابن تيمية: «والناس في غالب أحوالهم لا يتوبون توبة عامة مع حاجتهم إلى ذلك فإن التوبة واجبة على كل عبد في كل حال لأنه دائماً يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور أو ما اعتدى فيه من فعل محظور فعليه أن يتوب دائماً »[٢٣٣] وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام يتضمن ثلاثة أشياء: التوبة العامة الشاملة، ووجوبها، واستدامتها.

وتنقسم التوبة من حيث الإخلاص فيها والصدق: إلى توبة نصوح، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، والى توبة ناقصة.

فالتوبة النصوح: هي التوبة العامة الشاملة (الخالصة الصادقة) عن سائر الذنوب - على رأي -[٢٣٤]، وعلامتها الإقبال على الله بالعمل الصالح والتزود بالتقوى وتعظيم حرمات الله وملازمة حال التقوى على حذر دائم من الذنوب. أو هي - على رأي

(٢٣٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٧٩.

(٢٣٣) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٠/ ٣٣٠

(٢٣٤) ابن القيم: مدارج السالكين: ١/ ٣١٠.

آخر[٢٣٥]: التوبة الخالصة الصادقة عن ذنب معين أو ذنوب معينة، وعلامتها عدم العودة إلى الذنب الذي تاب منه، والتوبة الناقصة ليس فيها ما ذكرناه.

وتنقسم التوبة من حيث الوجوب والاستحباب إلى: توبة واجبة وتوبة مستحبة، فالتوبة الواجبة هي التوبة عن فعل المحرمات أو ترك الواجبات الشرعية، وهذه هي الأصل وهي الواجبة على الخلق كافة ومن تركها فقد ظلم نفسه ظلماً عظيماً، قال جل وعلا: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١]، والآية تريك أن الله تعالى قسم العباد إلى: تائب وظالم، فمن ترك التوبة الواجبة كان ظالماً لأن تركها يمثل حال الإصرار على الذنوب والقعود على حال العصيان أو عدم المبالاة بالذنوب التي وقعت سالفاً. فإذا تاب العبد هذه التوبة الواجبة تحول من حال «الظالم لنفسه» إلى حال «المقتصد» أي أصحاب اليمين أو الأبرار المفلحين قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ [القصص: ٦٧]، ولا فلاح بدون هذه التوبة لأن الفلاح معلق عليها. فهذه هي التوبة الواجبة وهي القسم الأول. والقسم الثاني: التوبة المستحبة وهي التوبة عن فعل المكروهات وترك المستحبات. فمن أتى بهذه التوبة المستحبة بعد أن أتى بالتوبة الواجبة فإنه يرجو بها أن يسلك الطريق إلى مرتبة السابقين المقربين بمعونة الله وتوفيقه وفضله، وعلامتها المسابقة إلى الخيرات قال تعالى في تقسيم أمة المسلمين التي أورثها الكتاب (القرآن): ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢]، وقال في وصف السابقين بالخيرات المقربين: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] فعلامة هذه التوبة المستحبة - بعد الواجبة -: المسارعة في الخيرات، والمحبة لله التي تحبب الطاعات وتدفع إليها بهمة وأُنس بها فتكون هي قرة العين، والخشية من الله التي تمنع من المعاصي، والخشوع لله الذي يمثل العبودية الحقة له جل جلاله .

---

(٢٣٥) ابن القيم: مدارج السالكين: ١/ ٣٠٩.

٢٤٩- رابعاً - الإصرار سبيل الهلاك:

ويضاد حال التوبة حالُ الإصرار على الذنب والبقاء في حال الغفلة من غير توبة. قال عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] فالمصرون ظالمون، ظلموا أنفسهم بارتكاب الذنوب الكبيرة والصغيرة ولم يتوبوا إلى الله عنها، بينما الذين تابوا سلكهم الله في عداد المتقين، فإن الآية وردت في وصف المتقين، فالتائب من المتقين، وهم وحدهم الناجون يوم القيامة، والظالم لنفسه من الهالكين، قال تعالى في بيان حال الناس في ورودهم على الصراط ومن تحته جهنم يحطم بعضها بعضاً: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧١-٧٢]. وهذا إذا كان الظالم لنفسه قد أصر على السيئات وأحاطت به خطيئته كما قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨١]، والظلم يطلق في القرآن ويراد به الشرك، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، ويطلق ويراد به ظلم النفس بارتكاب الذنوب والإصرار عليها من غير إقلاع وتوبة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١]، فإن هذه الآية وردت خطاباً للمسلمين الذين يرتكبون الذنوب ويصرون عليها ولا يتوبون، وصدر الآية يدل على ذلك، فتأملها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

وهكذا يتبين من نصوص الكتاب العزيز أن الناس فريقان: تائب جعله الله بتوبته من المتقين الناجين الفائزين وأورثه جنات النعيم، وظالم لنفسه مصر على الذنوب قد كسب السيئات وأحاطت به خطيئته فجعله الله من الهالكين الخاسرين، قد فاته فوز الأبد وخسر خسارة الأبد، إذ خسر نفسه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥]. فما أخسرها من صفقة أن يُفوت على نفسه

التوبة، وأن يقعد على حال الإصرار والغفلة، مستهيناً بالذنوب مصراً عليها، غير مبالٍ بما سلف منها، ويموت على ذلك. أعاذنا الله من ذلك وجعلنا من التائبين في كل حين.

٢٥٠- خامساً - التوبة سبيل النجاة:

ومن خلال ما تقدم يظهر لك أن فتح باب التوبة من أعظم أنواع رحمة الله تعالى بالعباد، فإنها سبيل النجاة، وأن من يهمه أمر نجاة نفسه في الآخرة من الخسران المبين والعذاب الأليم فلا غنى له عن التوبة، سواء أكان ممن درجت حياتهم على المعصية وبالتوبة يُحولها إلى الصراط المستقيم ويفارق صراط المغضوب عليهم والضالين، أو كان من المؤمنين الذين تقع منهم ذنوب بين الحين والحين.

فالتوبة فرصة عظيمة معروضة على الإنسان، وكنز ثمين، وباب رحمة عظيم مفتوح، فالكيس الموفق من اغتنم الفرصة، واستفاد من المهلة التي هو فيها الآن، مهلة أنه لا يزال حياً تصح منه التوبة وتقبل أحسن القبول.

فأما حين يحضر الموت ويفاجأ به العبد وهو آت لا ريب فيه - وكل آتٍ قريب - فعندئذٍ تكون قد فاتت الفرصة وانتهت المهلة، تركها تُفلت من بين يديه وقد كانت معروضة عليه، فلو بكى عليها إلى الأبد دماً بدل الدمع لكان قليلاً، وحين يفاجأ بالموت وتفوت الفرصة فساعتها لا ينفع الندم، ولا تنفع الآهات والحسرات.

وقد نبه القرآن إلى ذلك أعظم التنبيه وصوره أعظم التصوير فخاطب الخلق أجمعين قائلاً: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٥٤-٦٠].

فاليوم: عمل صالح، ووقوع في الذنب، وتوبة واعتذار، ووعد بمغفرةٍ وعفو ورحمة للتائبين، وغداً: لا توبة تقبل، ولا عذر يسمع، ولا عتبى تنفع حين يكون قد فات الأوان،

وانقضى الامتحان، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧]، وقال جل وعز: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ﴾ [التحريم: ٧]، وقال: ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: ٢٤]، وقال: ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٣٦]. وقال ﷺ: (والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مُستعتب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار)[٢٣٦].

وهكذا تؤكد نصوص القرآن والسنة أن التوبة قبل فوات الأوان هي السبيل إلى النجاة؟ فإن كنت تريد المزيد من البصيرة والعلم بهذا الشأن فاعلم: أن الله تعالى سائل يوم القيامة الأولين والآخرين سؤالين: ماذا أجبتم المرسلين؟، وماذا كنتم تعملون؟، ثم جعل النجاة والفلاح للتائبين. تأمل هذه الآيات: قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣] وقال عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ [القصص: ٦٥-٦٧]، قال القرطبي وغيره من أهل التفسير: «عسى من الله واجبه»[٢٣٧]. أي: أن الفلاح حاصل مع التوبة.

والآن، وبعد هذا التمهيد الذي وضحنا فيه فكرة عامة، سريعة وموجزة، عن التوبة، تُمكِّنك من الدخول في تفاصيلها يحسنُ بنا أن ندخل في ذلك في الفصل الأول من هذا الباب وما بعده بتوفيق الله، والله المستعان.

---

(٢٣٦) وتمام الحديث عن جابر قال: كان النبي ﷺ يوم الجمعة يخطب فيقول بعد أن يحمد الله ويصلي على أنبيائه: (أيها الناس: إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، إن العبد المؤمن بين مخافتين، بين أجلٍ قد مضى لا يدري ما الله قاضٍ فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله صانع فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات، والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار) (انظر: تفسير القرطبي: ١٨/ ١١٦، وشعب الإيمان للبيهقي: ٧/ ٣٦٠).

(٢٣٧) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٢٠٠.

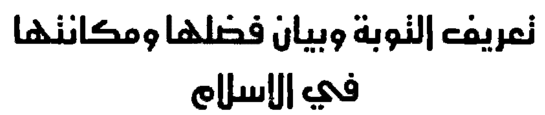








الفصل الأول

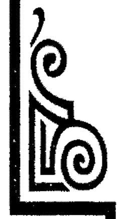


تعريف التوبة وبيان فضلها ومكانتها في الإسلام

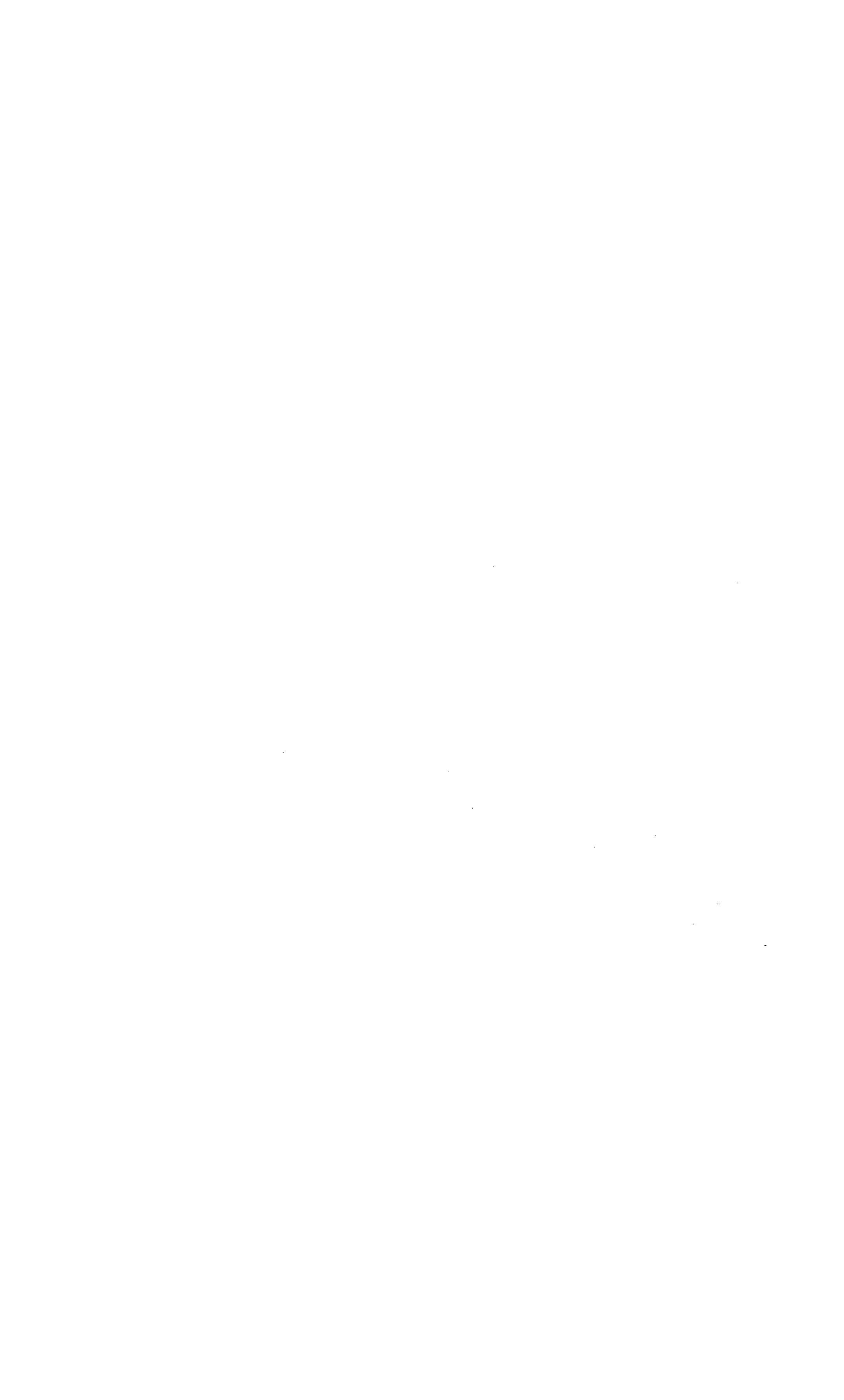


وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: التوبة في اللغة والاصطلاح الشرعي.
- المبحث الثاني: فضل التوبة ومكانتها في الإسلام.





الفصل الأول

تعريف التوبة وبيان فضلها ومكانتها في الإسلام

٢٥١- تمهيد وتقسيم:

البحث في تعريف التوبة يستلزم تعريفها وبيان الألفاظ ذات الصلة بها كالإنابة، والأوب، والثوب، والاستغفار، والبحث في التوبة بوصفها مصطلحاً شرعياً يقتضي تعريف التوبة عند العلماء من فقهاء ومفسرين وغيرهم، وعلى ذلك تضمن هذا الفصل مبحثين:

نبحث في الأول منهما: معنى التوبة في اللغة وتعريفها في المصطلح الشرعي. ونتناول في المبحث الثاني: فضل التوبة ومكانتها في الإسلام.

المبحث الأول
التوبة لغةً واصطلاحاً

٢٥٢- أولا - التوبة في اللغة :

٢٥٣- معنى التوبة :

التوبة في اللغة: الرجوع من الذنب، وفي الحديث: الندم توبة، وقال الأخفش: التوب جمع توبة، وتاب إلى الله يتوب توباً وتوبةً ومتاباً: أي أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة، وتاب الله عليه: وفقه لها. ورجل تواب: تائب إلى الله. والله تواب: يتوب على عبده. وقال أبو منصور: أصل تاب إلى الله: رجع وأناب، وتاب الله عليه: أي عاد عليه بالمغفرة. وقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النور: ٣١]، أي عودوا إلى طاعته وأنيبوا إليه. والله التواب: يتوب على عبده بفضله إذا تاب العبد من ذنبه (٢٣٨).

وجاء في الموسوعة الفقهية: التوبة في اللغة العود والرجوع، يقال: تاب إذا رجع عن ذنبه وأقلع عنه. وإذا أسند فعلها إلى العبد يراد به رجوعه من الزلة إلى الندم، يقال: تاب إلى الله توبة ومتاباً: أناب ورجع عن المعصية، وإذا أسند فعلها إلى الله تعالى يستعمل مع صلة (على) يراد به رجوع لطفه ونعمته على العبد والمغفرة له، يقال: تاب الله عليه: غفر له وأنقذه من المعاصي. قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨].

٢٥٤- الألفاظ ذات الصلة بالتوبة :

ومما يلتقي بمعنى لفظ التوبة: لفظ الإنابة، كقوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر: ٥٤]، وكذلك لفظ الأوب، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٥]، ولفظ الثوب، فيقال: ثاب الرجل، أي: رجع بعد ذهابه. ولفظ الاستغفار، ومنه قوله تعالى ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩].

(٢٣٨) ابن منظور: لسان العرب: مادة (توب) - باختصار -.

٢٥٥- معنى الإنابة:

جاء في لسان العرب في معنى (الإنابة)[(٢٣٩)]: أناب إليه إنابة فهو منيب: أقبل وتاب، وأناب: تاب ورجع. وفي الدعاء: وإليك أنبتُ. الإنابة: الرجوع إلى الله بالتوبة، وفي التنزيل العزيز: ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم: ٣١]: أي راجعين إلى ما أمر به غير خارجين عن شيء من أمره. وقوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر: ٥٤]: أي توبوا إليه وارجعوا.

٢٥٦- معنى الأوب:

وجاء فيه في معنى (الأوب)[(٢٤٠)]: الأوب: الرجوع. وفي التنزيل العزيز: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ [الغاشية: ٢٥]: أي رجوعهم. والمآب: المرجع. وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٢٥]: أي حُسن المرجع الذي يصير إليه في الآخرة. وأواب: كثير الرجوع إلى الله عز وجل من ذنبه. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٥]، وقوله تعالى عن سليمان وعن أيوب: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]. والأوبة: الرجوع كالتوبة. والأواب: التائب. وقال أهل اللغة: الأواب: الرجاع الذي يرجع إلى التوبة والطاعة.

٢٥٧- معنى الثوب:

وجاء في معنى (ثاب): ثاب الرجل: رجع بعد ذهابه، ويقال: ثاب فلان إلى الله، أي عاد ورجع إلى طاعته. ورجل تواب، أواب، ثواب، منيب، بمعنى واحد[(٢٤١)].

قال القرطبي في التفسير: «تاب العبد: رجع إلى طاعة ربه، وعبد تواب: كثير الرجوع إلى الطاعة. وأصل التوبة: الرجوع، يقال: تاب، وثاب، وآب، وأناب: رجع»[(٢٤٢)].

وسمى الله تعالى نفسه: التواب، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧] وأيضاً: تواب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢] بصيغة المبالغة بمعنى: كثير

---

(٢٣٩) ابن منظور: لسان العرب: مادة (نوب) - باختصار -.

(٢٤٠) ابن منظور: لسان العرب: مادة (أوب) - باختصار-.

(٢٤١) المرجع السابق: مادة (ثوب) - باختصار-.

(٢٤٢) القرطبي: الجمع لأحكام القرآن: ١/ ٣٢٥، وانظر أيضاً: ابن عاشور: التحرير والتنوير: ١/ ٤٣٨ و٢٦/ ٢٩١ و٣١٩ و٢٣/ ٢٤٠.

القبول للتوبة من عباده لكثرة من يتوبون إليه[٢٤٣] وأيضاً بمعنى: شديد قبول التوبة أو عظيم قبول التوبة.

«ولا يجوز أن يقال في حق الله: تائب اسم فاعل من تاب يتوب؛ لأنه ليس لنا أن نطلق عليه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه أو نبيه ﷺ.

... وإن كان في اللغة محتملاً جائزاً»[٢٤٤]، فإنه لا يجوز شرعاً.

٢٥٨- معنى الاستغفار:

«الاستغفار في اللغة طلب المغفرة، وأصل الغفر التغطية والستر، يقال: غفر الله ذنوبه، أي: سترها. وفي الاصطلاح طلب المغفرة بالدعاء والتوبة أو غيرهما من الطاعة. قال ابن القيم: الاستغفار إذا ذكر مفرداً يراد به التوبة مع طلب المغفرة من الله، وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره، والستر لازم لهذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، فالاستغفار بهذا المعنى يتضمن التوبة. أما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]»[٢٤٥].

٢٥٩- ثانيا - التوبة في الاصطلاح الشرعي:

عرف العلماء التوبة بجملة من التعاريف نذكر منها ما يأتي:

٢٦٠- تعريف الغزالي:

عرفها الغزالي بأنها: «العلم بعظمة الذنوب، والندم والعزم على الترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي»[٢٤٦].

وشرح الغزالي ذلك بقوله إن التوبة: عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور: علم، وحال، وفعل. فالعلم: هو معرفة عظم ضرر الذنوب وأنها حجاب عن الله والنعيم في الآخرة وأنها مورثة للخسران والهلاك. والحال: هو تألم النفس بسبب ذلك ويسمى

---

(٢٤٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٣٢٥.

(٢٤٤) المرجع السابق وبالموضع نفسه.

(٢٤٥) الموسوعة الفقهية ١٤/ ١١٩.

(٢٤٦) الموسوعة القفهية ١٤/ ١١٩.

الندم. والفعل: انبعاث الإرادة إلى الإقلاع عن الذنب في الحال إذا كان لا يزال متلبساً به، وهذا متعلق بالحاضر، والعزم على تركه وعدم العودة إليه، وهذا متعلق بالمستقبل، وبتدارك ما يمكن تداركه وتلافي ما فات. فالعلم، والندم، والإرادة أي القصد المتعلق بالترك في الحال والعزم على استمرار الترك في الاستقبال والتلافي للماضي، ثلاثة معانٍ مرتبة في الحصول، فيطلق اسم التوبة على مجموعها. وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على الندم وحده، إذ حصوله يدل على العلم ويورث القصد والعزم(٢٤٧).

٢٦١- تعريف القشيري والقرطبي:

قال القشيري: «هي الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه»(٢٤٨)، ومثله تعريف القرطبي في تفسيره حيث قال: «التائبون هم الراجعون عن الحالة المذمومة في معصية الله إلى الحالة المحمودة في طاعة الله»(٢٤٩).

٢٦٢- تعريف ابن تيمية:

وقال ابن تيمية: «التوبة رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه، فالتوبة المشروعة هي الرجوع إلى الله وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه»(٢٥٠) ووضح ذلك فقال: وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما يظن كثير من الجهال، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها(٢٥١) وقال في موضع آخر: «والتوبة تتضمن الندم على ما مضى، والعزم على ألا يعود إليه في المستقبل»(٢٥٢).

٢٦٣- تعريف ابن قيم الجوزية:

وقال ابن قيم الجوزية: التوبة في كلام الله ورسوله كما تتضمن الإقلاع عن الذنب في الحال والندم عليه في الماضي والعزم على عدم العود في المستقبل، تتضمن أيضاً العزم على

---

(٢٤٧) الغزالي: إحياء علوم الدين ٤/ ٣ (بتصرف حيث قد اختصرنا كلام الغزالي وبسطناه بالقدر الذي يجعله أكثر وضوحاً).

(٢٤٨) القشيري: الرسالة القشيرية ص ٤٥ طبعة سنة ١٩٥٧، القاهرة.

(٢٤٩) تفسير القرطبي: ٨/ ٢٦٩ و ٢٧٠ .

(٢٥٠) ابن تيمية: التوبة ص١٥.

(٢٥١) المصدر السابق وبالموضع نفسه.

(٢٥٢) المصدر السابق ص ٣٩

فعل المأمور والتزامه، فحقيقة التوبة: الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يجب وترك ما يكره؛ ولهذا علق سبحانه وتعالى الفلاح المطلق على التوبة حيث قال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: ٣١][٢٥٣].

٢٦٤- تعريف ابن كثير:

وقال ابن كثير - في تفسير قوله تعالى: «من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح» - أي: «رجع عما كان عليه من المعاصي، وعزم على أن لا يعود، وأصلح العمل في المستقبل»[٢٥٤].

٢٦٥- تعريف الآلوسي:

وقال الآلوسي: «التوبة أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب في الحال، ويندم على ما مضى، ويعزم على تركه في المستقبل»[٢٥٥].

٢٦٦- تعريف ابن عاشور:

وجاء في التحرير والتنوير: هي «الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فرط، والعزم على أن لا يعود إلى الذنب»[٢٥٦]، وقال في موضع آخر: «هي العزم على عدم العود إلى العصيان مع الندم على ما فرط منه فيما مضى»[٢٥٧].

٢٦٧- التعاريف متفقة في المعنى:

والتعاريف المذكورة جميعاً ليس بينها تعارض بل هي متفقة من حيث المعنى وإن اختلفت عباراتها، وكلها تدور حول رجوع العبد إلى الله تعالى (نادماً) على ما حصل منه من تفريط، (مقلعاً) عن الذنب في الحال، (عازماً) على عدم العودة إليه في الاستقبال، طلباً لمغفرة الله وعفوه ورضوانه.

---

(٢٥٣) الموسوعة الفقهية ١٤/ ١١٩.

(٢٥٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٣٥ و ١٣٦ والآية في سورة الأنعام: ٥٤.

(٢٥٥) الآلوسي: روح المعاني ٢٥/ ٣٦ (عند تفسيره لقوله تعالى: «وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون»).

(٢٥٦) تفسير ابن عاشور: التحرير والتنوير: ١٨/ ٧٥

(٢٥٧) المرجع السابق: ١٨/ ٣٦٨.

المبحث الثاني
مكانتة التوبة وفضلها في الإسلام

وفيه عشرون فقرة:

أولاً: صلة التوبة بأسماء الله الحسنى وصفاته سبحانه.

ثانياً: كثرة الآيات الواردة بشأن التوبة ودلالة ذلك.

ثالثاً: تنصيبها سبباً لحصول النعم ودفع النقم.

رابعاً: اختيار الله لها وصفاً للمصطفين من عباده.

خامساً: استدعاء التوبة محبة الله للعبد التائب.

سادساً: شرفها الله بأن علم آدم الكلمات التي بها يتوب.

سابعاً: اختصاص التوبة باستدعاء الفرح الإلهي.

ثامناً: اختصاص التوبة بتبديل السيئات إلى حسنات.

تاسعاً: جعلها في القرآن مطلع الاجتباء وبداية الاصطفاء.

عاشراً: إسهام التوبة في نوال حسن الخاتمة وتجنب سوئها.

حادي عشر: استدعاء التوبة لاستغفار الملائكة للتائب.

ثاني عشر: اختيار التوبة وصفاً لنبوة محمد ﷺ.

ثالث عشر: بكمال التوبة والاستغفار كمال العبودية لله.

رابع عشر: جعل التوبة والاستغفار (المسك) الذي تختم به العبادات.

خامس عشر: تخليصها للتائب من رق الجناية وإلحاقه بمن لا ذنب له.

سادس عشر: تشريعها مقاماً دائماً متجدداً لا ينفك العبد عنه.

سابع عشر: التوبة تدفع البلوى المتعلقة بالتطهير قبل الموت.

ثامن عشر : الفرح والسرور الحاصل للتائب بتوبته.

تاسع عشر: التوبة تثمر النور والضياء في الوجه.

عشرون: التوبة تمتع التائب بالحياة الطيبة.

٢٦٨- تمهيد: مكانة التوبة عظيمة في الإسلام:

جعل الإسلام للتوبة المكانة العظمى والمنزلة الأسمى، من حظي بها فقد حظي بالخير كله، وعلى رأسه محبة الله للتائب ورضوانه وغفرانه، ومن أعرض عنها فقد حرم نفسه من أعظم خير معروضٍ عليه، وأحسن فرصةٍ مقدمة إليه، ليس وراء حرمان نفسه منها إلا الهلاك والخسران.. فما ظنك بعملٍ ينقل المرء من صف أولياء الشيطان إلى صف أولياء الرحمن، ومن سخط الله وغضبه إلى رضوانه وعفوه ومحبته، ومن استحقاق العقوبة عدلاً على أفعال فعلها إلى ترك معاقبته من جهة، ومعاملته بالمحبة والرحمة من جهة أخرى فضلاً وإحساناً، ومن حال المخلطين إلى حال الأبرار أصحاب اليمين،.. ينقله من خسارة الأبد إلى ربح الأبد، ومن استحقاق نيران الجحيم إلى الفوز بجنات النعيم. فالسعيد من عرفها، ومارسها، واستدامها حتى ساعة فراق الدنيا.

وقد استخلصنا فضلها ومكانتها في الإسلام وثمراتها من نصوص الكتاب والسنة فكانت عشرين فقرة نقدمها فيما يأتي:

٢٦٩- الدلائل على فضل التوبة وعظيم مكانتها وثمراتها في الإسلام:

٢٧٠- أولاً - صلة التوبة بأسماء الله الحسنى وصفاته سبحانه:

إن الله تعالى قد أضفى على التوبة شرف ارتباطها بأسمائه الحسنى على سبيل بيان رحمته ومنته وفضله وإحسانه، وعلى سبيل ثنائه على نفسه جل وعلا.

فأخبر سبحانه في كتابه العزيز أنه يقبل التوبة عن عباده ويرحمهم لأنه «التواب الرحيم» وأنه بها - أي بالتوبة - يعفو عنهم ويغفر ذنوبهم لأنه «العفو الغفور» وبها يحبهم، فإنه «الغفور الودود». قال البخاري: الودود: الحبيب[٢٥٨]، ولهذا ترى أن القرآن الكريم كلما أرشد إلى التوبة والاستغفار ذكر معها هذه الأسماء الحسنى على سبيل المنة، والثناء على نفسه عز وجل، وكفى بذلك للتوبة شرفاً ومكانةً.

قال تعالى في توبة آدم: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]. فأثنى الله على نفسه بهاتين الصفتين العظيمتين وأخبر عن منته وفضله وإحسانه.

---

(٢٥٨) صحيح البخاري: باب: (وكان عرشه على الماء)، (وهو رب العرش العظيم) وانظر أيضاً ابن القيم: مدارج السالكين: ٣/ ٢٨.

وقال تعالى في سياق الترغيب في التوبة: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٤]. فذكر سبحانه التوبة والاستغفار وربطهما بهاتين الصفتين العظيمتين ممتناً على عباده ومبيناً فضله وكرمه وإحسانه ومثنياً على نفسه بهما. جاء في تفسير «التحرير والتنوير» في تفسير قوله تعالى: «والله غفور رحيم» إنه: «تذييل بثناء على الله بأنه يغفر لمن تاب واستغفر ما سلف منه، لأن «غفور رحيم» من أمثلة المبالغة يدلان على شدة الغفران وشدة الرحمة»[٢٥٩].

وجاء فيه أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٩]: «...ووقع الخبر بوصف الله بصيغة المبالغة (لغفور رحيم)، وهو كناية عن غفرانه لهم، ورحمته إياهم في ضمن وصف الله بهاتين الصفتين العظيمتين»[٢٦٠]، وأخبر سبحانه عن تفرده وحده بذلك فقال: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] أي لا يغفرها ويزيل عقوباتها أحد سواه، لأنه وحده المتصف بما ذكرناه.

وقال تعالى حكاية عن شعيب إذ يقول لقومه: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠].

وقال جل وعز حكاية عن إبراهيم وإسماعيل في دعائهما: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقد جاء أمثال ذلك في القرآن كثير، وكلها تريك شرف التوبة ومنزلتها لارتباطها بهذه الأسماء الحسنى والصفات العظمى، واستدعائها لآثارها ومقتضاها. والرحمة أحب إلى الله من العدل - كما مر بنا من قبل - قال تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ١٢] وقال: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقال ﷺ: (لما قضى الله

---

(٢٥٩) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٦/ ٢٨٤.

(٢٦٠) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٤/ ٣١٤.

الخلق كتب كتاباً فهو موضوع عنده: إن رحمتي تغلب غضبي)[٢٦١]. قال القرطبي: أي تسبقه وتزيد عليه[٢٦٢].

والأسماء والصفات التي تستدعي التوبة آثارها كلها تدور حول رحمة الله بعباده التائبين والثناء على نفسه بهذه الأسماء الحسنى والصفات العظمى - والتوبة مرتبطة بها وتستدعيها - فمن هنا تكتسب التوبة شرفها ومنزلتها، وجلي أن هذا الارتباط والتلازم الدائم بين التوبة وبين الأسماء والصفات التي بها أثنى الله جل وعز على نفسه وبها بين فضله وكرمه وإحسانه ورحمته يسبغ على التوبة شرفاً أكبر، ويُحلها مكانة عظمى.

٢٧١- ثانياً- كثرة الآيات الواردة بشأن التوبة ودلالة ذلك :

ومما يدلك على عظيم منزلة التوبة، وفضلها، وأهميتها، كثرة الآيات القرآنية الواردة بشأنها، تحث عليها، وترشد إليها، وترغب فيها، وتبين ثمرتها. وقد استمر نزول تلك الآيات طيلة فترة الرسالة - شأنها في ذلك شأن آيات العقيدة التي استمر نزولها طيلة عهد الرسالة - لأهميتها وضرورتها لبني آدم.

حتى لقد جاء ذكر التوبة، والإنابة، والأوب، في أكثر من مائة موضع في القرآن الكريم، وجاء ذكر الاستغفار والدعوة إليه وبيان ثمرته في أكثر من مائة وعشرين موضعاً[٢٦٣]. وهذا يدلك على منزلة عظمى للتوبة والاستغفار، واهتمام عظيم بهما.

والآيات الوارد فيها ذكر التوبة مخاطب بها مختلف أصناف البشر، فلا غنى لأحدٍ من بني آدم عن التوبة، تخاطب الكافر ليتوب من كفره ويسلم، وصاحب الكبائر ليتوب من ذنوبه، والمؤمن ليتوب توبةً نصوحاً، فلا يوجد في البشر من لم يخاطب بضرورة التوبة إلى الله تعالى.

---

(٢٦١) متفق عليه: البخاري (٦٩٩٨) و(٦٩٩٩)، ومسلم (٤٩٣٩) و(٤٩٤١) وأيضاً الترمذي (٣٤٦٦)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٤٢٨٥)، وأحمد (٧١٨٧).

(٢٦٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٩٥.

(٢٦٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (لم ندخل في الأرقام المذكورة في المتن الأسماء الحسنى والصفات مثل: غفور وغفار وغافر وتواب ونحوها).

٢٧٢- ثالثاً - تنصيبها سبباً كبيراً لحصول النعم ودفع النقم:

ولعظيم أهمية التوبة ربط الله تعالى بها سُنتين عظيمتين من سُننه، فجعل التوبة والاستغفار سبباً لحصول نِعمه وفضله وإحسانه في الدنيا إضافة إلى الآخرة، وجعل ترك التوبة من الذنوب والاستغفار منها سبباً لنزول المصائب والبلاء والعذاب في الدنيا إضافة إلى الآخرة.

وهاتان سُنتان عظيمتان من سُنن الله، يجري عليهما تعامل رب العباد مع العباد، أفراداً وجماعات، حري ببني آدم التنبه إليهما.. تأمل هذه الآيات وانظر فيها هاتين السنتين:

ففي تسبب التوبة والاستغفار في نعمة الله وفضله وحصول الخير للمؤمن التائب أو المجتمع الذي تكثر فيه التوبة والإنابة إلى الله والاستغفار، قال تعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٍ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود: ١-٣].

وقال تعالى حكايةً عن نوح يخاطب قومه: ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٍ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرًا ﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وقال تعالى حكايةً عن هود، نبي قوم عاد: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٢].

وقال تعالى حكايةً عن صالح، نبي قوم ثمود: ﴿ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [النمل: ٤٦].

وقال تعالى عن هذه الأمة مخاطباً خاتم النبيين عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٣].

وقال تعالى في السنة المطردة العامة في ذلك: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

فهذه سُنته سبحانه فيمن تاب واستغفر وآمن وعمل صالحاً.

جاء في شرح صحيح البخاري: «إن رجلاً أتى الحسن البصري رضي الله تعالى عنه فشكا إليه الجدوبة (جدوبة أرضه)، فقال له الحسن: استغفر الله. وأتاه آخر فشكا إليه الفقر، فقال له: استغفر الله. وأتاه آخر فقال: أُدع الله لي أن يرزقني ابناً، فقال: استغفر الله. وأتاه آخر فشكا إليه جفاف بساتينه. فقال له: استغفر الله. فقيل له أتاك رجال يشكون أبواباً ويسألون أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار فقال: ما قلت من ذات نفسي في ذلك شيئاً، إنما اعتبرت فيه قول الله عز وجل حكاية عن نبيه نوح عليه السلام أنه قال لقومه (استغفروا ربكم) الآية»[٢٦٤].

وفي الجانب المقابل تريك آيات الكتاب العزيز أن ارتكاب الذنوب والمعاصي مع ترك التوبة والاستغفار، يتسبب في حجب نعم الله وفضله، واستنزال غضبه ونقمه، أو حصول المصائب.

فقد أخبر الله تعالى في القرآن عن تلك الأمم التي دعاها أنبياؤها إلى الإيمان وإلى التوبة والاستغفار فأبوا إلا ارتكاب الذنوب والمعاصي تاركين ما دعاهم إليه أنبياؤهم، فحكى القرآن ما أصاب كل أمةٍ منهم من حجب نِعَمِ الله ونزول العذاب، في قصصهم الواردة في القرآن بالتفصيل، ولخص ذلك في آية واحدة فقال تعالى يصف ما أصابهم: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقال تعالى أيضاً: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وأخبر سبحانه عن السنة المطردة والقاعدة الكلية في ذلك فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

---

(٢٦٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٢٢/٢٧٧ و ٢٧٨ وانظر أيضاً: الترغيب والترهيب للمنذري: ٢/ ٤٧٤.

وخاطب عز وجل هذه الأمة فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

قال القرطبي: «قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب» (٢٦٥).

وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] فجعل سبب المصائب الذنوب، وإن كان من رحمة الله تعالى أنه جعل المصائب بالنسبة للمؤمنين كفارات للذنوب.

قال ابن كثير في تفسير الآية: أي مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما عن سيئاتٍ تقدمت لكم. ثم نقل حديث رسول الله ﷺ في تفسير الآية، عن الحسن البصري قال: لما نزلت قال رسول الله ﷺ : «والذي نفس محمد بيده ما من خدش عودٍ أو اختلاج عرقٍ، ولا عثرة قدمٍ إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر» (٢٦٦).

وفي سنن الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر» (٢٦٧) وذكر ابن كثير في كون ذلك كفارة قوله ﷺ: (ما من شيء يصيب المؤمن في جسده فيؤذيه إلا كفر الله به من سيئاته) (٢٦٨).

كما أورد ابن كثير عن الإمام أحمد - بسنده - عن علي ﷺ مرفوعاً، وابن أبي حاتم عنه موقوفاً، عن أبي جحيفة قال: دخلت على علي بن أبي طالب ﷺ، فقال: ألا أحدثكم بحديثٍ ينبغي لكل مؤمنٍ أن يعيه؟ قال: فسألناه فتلا هذه الآية: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال: ما عاقب الله تعالى به في الدنيا فإنه أحلم من أن يثني عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا، فإنه أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة (٢٦٩).

---

(٢٦٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٣٩١.

(٢٦٦) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢٤٦.

(٢٦٧) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٥/ ١٠١.

(٢٦٨) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢٤٦.

(٢٦٩) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٢٤٥ وانظر أيضاً: التحرير والتنوير ٢٥/ ٩٨ وما بعدها.

وقال سيد قطب في «الظلال» في تفسير الآية: «فكل مصيبة تصيبه لها سبب مما كسبت يداه، ولكن لا يؤاخذه بكل ما يقترف.. فيعفو عن كثير رحمة منه وسماحة»[(٢٧٠)].

وقال ابن القيم: «فما سُلط على العبد ما يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما عمله أضعاف ما يذكره، وفي الدعاء المشهور: «اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم». فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سلط عليه مؤذٍ إلا بذنب. ولقي بعض السلف رجل فأغلظ عليه ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت ثم أخرج إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه ثم خرج إليه، فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبتُ إلى الله من الذنب الذي سلطك به علي»[(٢٧١)].

٢٧٣- رابعاً - اختيار الله لها وصفاً للمصطفين من عباده:

اختار الله تعالى «التوبة» وصفاً يصف به المصطفين من عباده، فذكر - عز وجل - أن المكثرين من التوبة هم «نعم العباد» فقال تعالى عن سليمان ﷺ: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠] والعبد الأواب هو الكثير الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة. فقوله تعالى: «إنه أواب» «تعليل للثناء عليه بـ«نعم العبد»، والأواب: مبالغة في الأيب، أي كثير الأوب، أي: الرجوع إلى الله تعالى بقرينة أنه مادحه، والمراد من الأوب إلى الله، الأوب إلى أمره ونهيه، أي إذا حصل له ما يبعده عن ذلك تذكر فآب، أي: فتاب»[(٢٧٢)].

وقال سبحانه عن أيوب ﷺ أيضاً: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ قال سفيان: أثنى الله على عبدين: أحدهما صابر والآخر شاكر ثناءً واحداً، فقال لأيوب ولسليمان: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾... وكان الثناء عليهما متماثلاً لاستوائهما في الأوبة - وهي التوبة - وإن اختلفت الدواعي[(٢٧٣)].

---

(٢٧٠) سيد قطب: في ظلال القرآن ٥/ ٣١٥٩.

(٢٧١) ابن القيم: بدائع الفوائد ٢/ ٢٤٢.

(٢٧٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٣/ ٢٥٣ و ٢٥٤.

(٢٧٣) المرجع السابق ٢٣/ ٢٥٣.

ومرجع هذا الثناء الإلهي على العبد التائب المنيب الأواب إلى الله تعالى ووصفه بـ «**نعم العبد**» - ولم يرد هذا التعبير في القرآن إلا في موضع العبد الموصوف بأنه أواب - وهو التائب الكثير الرجوع إلى الله.. مرجع هذا الثناء الإلهي، إلى أن حال العبد وهو تائب يستغفر ربه منيباً إليه هي حالة عبودية خالصة، صادقة، تتضمن الافتقار التام، افتقار العبد لربه وخضوعه له، وأنه لا نجاة له إلا بغفرانه وعفوه ورحمته، وهذا الافتقار والخضوع والتذلل هو جوهر العبادة الحقة من العبد لربه جل جلاله، وهي من أحسن حالات العبد بين يدي ربه، إذ يعرف للربوبية - قدر استطاعته - حقها من الغنى والعز والتفرد بالمشيئة، والتفرد بالقدرة على العفو والمغفرة، ويعرف لعبوديته لله حقيقتها من الافتقار التام والاحتياج الدائم، فينشأ عن ذلك لجوء العبد إلى ربه لجوءاً تاماً خالصاً مخلصاً، لجوء من لا نجاة له من عقاب ربه إلا إليه لغفران ذنبه، فيدعوه، متضرعاً مبتهلاً، محباً راجياً وجلاً، فما أعظمه من تضرع وابتهال حين يقول: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[٢٧٤].

قال العلامة ابن القيم: «فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه»[٢٧٥].

فما ظنك برحمة الله بعبد، تائب أو تائبةٍ، يبتهل إلى الله في توبته ويعتذر إليه عن معصيته، مقراً ومعترفاً بالتقصير، نادماً أشد الندم على ما جرى من تفريط بواجب، أو اقتحام حد من حدود الله أو ذنب فيجلس بين يدي ربه، بانكسار خاطرٍ وقلبٍ مجروح، قلبٍ كسير، كسرتهُ وجرحتهُ الذنوب، وأرقهُ الندم على الذنب، أو الندم على ما فات من

---

(٢٧٤) هذا الدعاء سماه النبي ﷺ بـ «سيد الاستغفار» انظر: البخاري (٥٨٣١) وانظر أيضاً في: الترمذي (٣٣١٥) والنسائي (٥٤٢٧) وأبو داود (٤٤٠٨) وابن ماجة (٣٨٦٢) وأحمد (١٦٤٨٨).

(٢٧٥) ابن القيم: مدارج السالكين ١/ ١٨٧.

العمر وضاع في غضب الله وسخطه، ثم أناب إلى الله، ورجع بعد الشرود، وقد انكسر بين يديه، وسالت دموعه على خديه، يرجو رحمة ربه وغفران ذنبه، ويناجيه وهو السميع لمناجاته، العليم بخطرات قلبه وهمسات شفاهه، يدعوه أن يقبل عثرته، ويغفر زلته، ويرحم دمعته، ويقبل عودته فيدخله في الصالحين ويلحقه بالمتقين..

يدعوه ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، الحي القيوم ذو الجلال والإكرام، المنان بديع السماوات والأرض المبدئ المعيد، وبكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك.. أسألك بعزك وذلي بين يديك، وبغناك عني وفقري إليك، أسألك مسألة المسكين وأتضرع إليك تضرع الخائف الذليل، وأدعوك دعاء المفتقر الضرير، وأستغيث بك استغاثة المذنب الغريق، سؤال من ذلت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وخشع لك قلبه، ودمعت لك عيناه.. سؤال من عمل سوءاً وظلم نفسه ثم ذكر الله فاستغفر لذنوبه، سؤال شريد طريد قد أثقلته الذنوب فلجأ إلى بابك، واحتمى بجناحك، سؤال من علم أن لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك بعظمتك وجلالك يا من ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، أسألك يا من ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣]، أسألك يا من عجز الخلق أن يقدروه حق قدره وعظمته ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ ﴾ [الزمر: ٦٧]، أسألك يا من لعظمته وجلاله ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ٥].. أسألك وأتضرع إليك وأنت من فوقي حاضر ناظر سامع شهيد بصير، إلا رحمتني، وغفرت لي، وعفوت عني، وتبت علي، وأذقتني برد عفوك وحلاوة مغفرتك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك، فأنت الرحمن الرحيم، وأنت العفو الغفور، وأنت الغفور الودود، أسألك رضاك والجنة وأعوذ بك من سخطك والنار، وأن تقيل عثرتي، وتغفر زلتي، وتغيث لهفتي، وترحم دمعتي، وتجعلني ممن قلت فيهم: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤] وممن قلت فيهم: ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ﴾ [المائدة: ١١٩]، ومن أهل قولك: ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ

ءَامِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٩]، يا من وسعت رحمتك كل شيء، وفاضت نعمتك على كل شيء، فإن مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي، يا واسع المغفرة، يا ذا الفضل العظيم، يا أرحم الراحمين.

٢٧٤- خامساً - استدعاء التوبة محبة الله للعبد التائب:

ولمكانة التوبة عند الله ومنزلتها العظيمة جعل الله تعالى التائبين من المحبوبين عنده، فقد ذكر الله تعالى العباد الذين خصهم بمحبته في جملة آيات في القرآن، وجعل الملازمين للتوبة المكثرين منها من هؤلاء المخصوصين بالمحبة.

فذكر سبحانه أنه: ﴿ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٦، التوبة: ٤، التوبة: ٧]، و ﴿ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥، آل عمران: ١٣٤ و ١٤٨، المائدة: ١٣ و١٩٣]، و ﴿ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] و ﴿ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، و ﴿ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢، الحجرات: ٩، الممتحنة: ٨]، و ﴿ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤]، و ﴿ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال جل وعز: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فدل ذلك على أن التوبة تجلب محبة الله للعبد فتجعله محبوباً عنده، وأيضاً فأولئك الموصوفون بتلك الصفات الأخرى - غير التوبة - التي جعلتهم محبوبين عند الله، لا يكونون على تلك الصفات إلا مع ملازمة التوبة واستدامتها، فكانت التوبة داخله في صفاتهم أيضاً زيادة على ذكرها مستقلة سبباً لمحبة الله لعبده على وجه الخصوص. فالله تعالى يحب العبد التواب أي المكثر من التوبة لأن للتوبة الخالصة النصوح مقاماً عظيماً عند الله.

جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: «.. وليس شيء أحب إلى الله من مؤمن تائب أو مؤمنة تائبة، وإن الرجل المؤمن يُعرف في السماء كما يعرف الرجل أهله» (٢٧٦).

٢٧٥- سادساً - شرف الله التوبة بأن علم آدم الكلمات التي بها يتوب:

ولعظم فضلها ومنزلتها عند الله تعالى تولى الله تعالى تعليم آدم ﷺ كلماتها التي يتوب بها لتكون السبب لرضوان الله تعالى عنه، وهدايته له، قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن

---

(٢٧٦) انظر تفسير القرطبي: ٣/ ٢٩.

رَبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧]، وجعل توبته سبباً لاجتباء الله له، فالتوبة الصادقة النصوح سببٌ للاجتباء، اجتباء الله للعبد وتقريبه، قال تعالى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢].

قال ابن كثير والقرطبي وغيرهما، كان من دعائهما - آدم وزوجه - كما أخبر القرآن: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]. وهي «الكلمات» المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ ﴾ [البقرة:٣٧] ونقلوا من أقوال السلف في «الكلمات» أنهما قالا: «سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين. سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، عملتُ سوءاً وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم»[٢٧٧]. وأيضاً «اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنك أرحم الراحمين»[٢٧٨].

٢٧٦- سابعاً - اختصاص التوبة باستدعاء الفرح الإلهي:

يدلك على منزلتها العالية أيضاً أن الله تعالى اختصها على لسان رسوله ﷺ وحدها من بين سائر العبادات بتعبير «الفرح» فرح الله بتوبة عبده، فقال ﷺ: (لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك، إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك.. أخطأ من شدة الفرح)[٢٧٩].

قال ابن تيمية: «وهذا الحديث متواتر عن النبي ﷺ رواه ابن مسعود، والبراء بن عازب، والنعمان بن بشير، وأبو هريرة، وأنس بن مالك»[٢٨٠].

---

(٢٧٧) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٢٥ وانظر أيضاً: ابن كثير ١/ ٨١.
(٢٧٨) القرطبي: المرجع السابق بالموضع نفسه.
(٢٧٩) رواه مسلم عن أنس بن مالك في كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها
(٢٨٠) ابن تيمية: التوبة ص ١٢، والحديث متفق عليه. انظر تخريج العراقي له في الإحياء ٤/ ٥

وروى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (للهُ أفرحُ بتوبة أحدكم من رجلٍ خرج بأرض دوية مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه، فأضلها، فخرج في طلبها حتى أدركه الموت ولم يجدها، قال: أرجع إلى مكاني الذي أضللتها فيه فأموت فيه، فأتى مكانه فغلبته عينه، فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه) (٢٨١).

وهو فرح إلهي يليق بجلال الرب سبحانه يدل على محبته لهذا العمل «التوبة» ويدل على حصول محبة الرب عز وجل لعبده بسبب التوبة.

والتعبير «بالفرح الإلهي» بتوبة العبد فيه من الإغراء بالتوبة والإشادة بها وبفضلها والترغيب فيها، الشيء العظيم. كما أن ذلك يقطع الطريق على أي شعور باليأس أو القنوط من رحمته تعالى.

فإن العبد وقد أسرف على نفسه في المعصية والشرود، قد تحمله حالُهُ على الإحساس بأنه قد صار منبوذاً عن طريق الصلاح والصالحين، وتحمله على عدم الجرأة على العودة والرجوع إلى الله بعد الذي فعله من العصيان، ظاناً أن الله لا يقبله ولا يُقبل عليه، وأن لا طريق له إلى الله بعد ما عصاه، وأن الطريق قد أغلق بوجهه وأن الغضب قد حل عليه فيغرق في بحر اليأس والقنوط، وقد يلقي بنفسه بعد ذلك في التهلكة فيستكثر من الذنوب ما دام لا طريق له لإرضاء ربه.

وأعظم ما يدفع هذه المشاعر القانطة والحال اليائسة عن المذنب أن يفهم يقيناً أن رحمة الله تتسع له أعظم اتساع، وأن عفوه ومغفرته قريبة منه، وأن الرحمن الرحيم ليس يقبله فقط إذا تاب، وليس يُقبل عليه فقط إذا تاب، وليس فقط يحبه إذا تاب، بل الأمر أعظم من ذلك كله.. إنه يفرح به إذا تاب، يفرح بتوبته، وليس بعد هذا الإغراء والترغيب مزيد! فمن ذا يعي هذا ويفهمه ثم يبقى قاعداً ولا يسارع ولا يسابق؟! والفرصة أمامه أعظم من أن يحيط بها الوصف: أن يتوب فيفرح الله بتوبته! ثم يعتصم بالله بقية عمره الذي يفصل فيه بانتهاء أجله في أية لحظة من ليل أو نهار ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

---

(٢٨١) متفق عليه: البخاري (٥٨٣٣) ومسلم (٤٩٢٩) وابن ماجة (٤٢٣٩) وأحمد (٧٨٤٥) والدارمي (٢٦١٢) وغيرهم.

٢٧٧- ثامناً - اختصاص التوبة بتبديل السيئات إلى حسنات:

ولمكانتها العظيمة ومحبة الله لها جعل الإسلام أثر التوبة النصوح تبديل السيئات حسنات، وهذا لم يرد في الإسلام في عملٍ غير التوبة. فجميع الأعمال الصالحة أثرها ترجيح كفة الحسنات على كفة السيئات في الميزان يوم القيامة، وهي معها بالمقاصة، أو أثرها محو السيئات كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، وكما قال ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»، إلا التوبة، فأثرها محو السيئات من أصلها، ووضع حسنات مكانها، أي تبديلها حسنات، وهو قوله تعالى عن التائبين: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠]. وهذا شيء عظيم جداً تفعله التوبة النصوح، وهو من أعظم البشارة للتائبين.

قال ابن تيمية: وقد ثبت في الصحيح حديث الذي يعرض عليه صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها وهو مشفق من كبارها أن تظهر فيقول الله له: «إني قد غفرتها لك وأبدلتك مكان كل سيئة حسنة. فيقول: أي رب! إن لي سيئات لم أرها» وقال بعض السلف: «لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه»[٢٨٢].

ففي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، ويُنحى عن كبارها، فيقال: عملت يوم كذا، كذا وكذا، وهو يُقر لا ينكر وهو مشفق من الكبائر. فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة. فيقول: إن لي ذنوباً لم أرها هاهنا. قال: ولقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه»[٢٨٣].

وسبب ضحك النبي ﷺ بعد أن ذكر الحديث، أن هذا الرجل لما أبدله الله مكان كل سيئة عملها حسنة، طلب أن تظهر بقية سيئاته طمعاً في إبدالها حسنات، وقد كان قبل ذلك مشفقاً منها أن تظهر خشية أن يهلك بها!

وقال القرطبي[٢٨٤] - بعد أن ذكر أقوال العلماء في تفسير قوله تعالى: «فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات»: لا يُبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل

---

(٢٨٢) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٢٩٤.

(٢٨٣) الآلوسي: روح المعاني ١٩/ ٥٠.

(٢٨٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٧٨.

سيئة حسنة. واستدل بجملة أحاديث منها حديث مسلم الذي ذكرناه ثم قال: قال أبو الطويل: يا رسول الله، أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئاً، وهو في ذلك لم يترك حاجةً ولا داجةً[285] إلا اقتطعها فهل له من توبة؟ قال: (هل أسلمت)؟ قال: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك عبد الله ورسوله. قال: (نعم، تفعل الخيرات وتترك السيئات يجعلهن الله كلهن خيرات) قال: وغدراتي وفجراتي يا نبي الله!؟ قال: (نعم) قال: اللهُ أكبر! فما زال يرددها حتى توارى.

وجاء في تفسير «في ظلال القرآن» عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]، قال: ... ثم يفتح باب التوبة لمن أراد أن ينجو من هذا المصير السيئ بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ويعد التائبين المؤمنين العاملين أن يبدل ما عملوه من سيئاتٍ قبل التوبة حسناتٍ بعدها تضاف إلى حسناتهم الجديدة، وهو فيض من عطاء الله لا مقابل له من عمل العبد إلا أنه اهتدى ورجع عن الضلال، وثاب إلى حمى الله ولاذ به بعد الشرود والمتاهة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٧٠][286].

٢٧٨- تاسعاً - جعلها في القرآن مطلع الاجتباء وبداية الاصطفاء:

ويدلك على مقام التوبة وأهميتها في الإسلام أن الله تعالى ابتدأ بها الأوصاف الصالحة لأصحاب المرتبة العالية من أهل الإيمان فقال عز وجل: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١٢].

قال ابن كثير: «هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم، بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة. (التائبون) من الذنوب كلها التاركون للفواحش»[287].

---

(٢٨٥) قال القرطبي: قال مبشر بن عبيد وكان عالماً بالنحو والعربية: الحاجة، التي تقطع على الحاج إذا توجهوا، والداجة، التي تقطع عليهم إذا قفلوا.

(٢٨٦) سيد قطب: في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٧٩.

(٢٨٧) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٩٢.

وتقديم صفة التوبة أولاً - على ما نرى - في قوله تعالى: «التائبون»، لمقام التوبة من جهة، ولكونها، من جهة أخرى، مطلع الاجتباء والهداية. قال تعالى عن آدم: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]. فإن الإنسان وهو يسير إلى القرب من الله تعالى ويتقرب إليه بالأعمال الصالحة، ينبغي أن لا يسير إليه وهو مُحمل بالذنوب والأوزار بل يبتدئ بوسيلة غفرانها وهي التوبة ليسير إلى الله نقياً منها قد طهره الله منها وأهَّله للقرب. وفي الحديث: «اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد» فهنالك تنقية إلهية للعبد وتطهير، ومن لم يتطهر بالتوبة، طهره الله في الدنيا بالمصائب إن اعتنى به، وإلا طهره بالنار في الآخرة والعياذ بالله، إن لم ترجح حسناته في الميزان.

٢٧٩- عاشراً- إسهام التوبة في نوال حُسن الخاتمة وتجنُّب سوئها:

وأيضاً فإن التوبة سبيل إلى حسن الخاتمة، وتركها سبيل إلى سوء الخاتمة.

ففي الحديث الشريف الذي رواه البخاري عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم»[٢٨٨].

ويراد بحسن الخاتمة: أن يختم له بالموت وهو على حال الصلاح والتقوى تائباً من ذنوبه وخطاياه مستقيماً يعمل الصالحات، ويموت على تلك الحال.

ويراد بسوء الخاتمة: أن يختم له بالموت وهو على حال الإصرار على الذنوب من غير توبة، قد كسب السيئات وأحاطت به خطيئته، أو يموت وهو يمارس المعاصي والكبائر من غير أن يُمهل لإحداث توبة نصوح.

وعلى هذا فابتداء التوبة وملازمتها واستدامتها هو الطريق إلى حُسن الخاتمة، وتركها سبيل يفضي إلى سوء الخاتمة. قال بعض الصحابة في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]: التهلكة: الذنب من غير توبة[٢٨٩].

---

(٢٨٨) متفق عليه: البخاري (٦١١٧) واللفظ له، ومسلم (٤٧٩٢).

(٢٨٩) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٢٩.

وسيأتي مزيد بيان لحسن الخاتمة وسوء الخاتمة وأقوال العلماء في ذلك موضحة في هذا الكتاب إن شاء الله.

٢٨٠- حادي عشر- استدعاء التوبة لاستغفار الملائكة للتائب:

ولكون التوبة عملاً صالحاً من أحسن الأعمال الصالحة يقوم به العبد، فقد جعل الله ملائكة العرش الذين يستغفرون للمؤمنين بوجه عام يدعون ربهم سبحانه بالغفران للتائبين بوجه خاص، ويطيلون في الدعاء لهم، ويكثرون في أنواع الطلب من الله لهم.. تأمل بعناية هذه الآيات، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

فما أعظمه من دعاء واستغفار؟ وما أحسن أن تكون مشمولاً به؟ إنها التوبة، تجعل ملائكة الرحمن تستغفر لك فتدعو ربها: فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم، إلى آخر دعائها واستغفارها. فما أعظمه من استغفار؟ وما أقربه إلى العزيز الغفار؟

٢٨١- ثاني عشر- اختيار التوبة وصفاً لنبوة محمد ﷺ:

ولعظيم شرف التوبة وفضلها وصف النبي ﷺ نبوته ورسالته بها فقال فيما رواه مسلم: (أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة)[٢٩٠]. وكفى بذلك للتوبة شرفاً وفضلاً أن يجعلها النبي ميزة لرسالته ونبوته.

وقوله ﷺ: (أنا نبي التوبة) معناه - فوق ما تقدم - أن التوبة التي بها النجاة جاءت في شريعته ميسرةً سهلةً، وأن الناجين من أُمته بالتوبة الكثيرون على خلاف حال الأمم السابقة فقد كانت بعض أحوال التوبة ليس فقط بأن يرجع عن الذنب إلى الله، بل أن يعاقب نفسه عليه بعقوبات شديدة جداً لتكون كفارة لذنبه وقبولاً لتوبته، فلم يكن يكفي الندم على الذنب والرجوع إلى الله تائباً منه، ومثل ذلك جاء في القرآن حكاية عما شُرع لهم في التوبة من الشرك حين عبد قوم منهم العجل فكانت لا تقبل منهم التوبة عن ذلك إلا

---

(٢٩٠) صحيح مسلم (٤٣٤٤)، وأحمد (٢٢٣٤٨).

بأن يقتلوا أنفسهم، وذلك بأن يقتل الذين لم يعبدوه الذين عبدوه، وأن يمكنهم هؤلاء من ذلك، وإلا فلا توبة لهم. قال تعالى مخبراً عن ذلك: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٤] وهذا كله من الآصار والأغلال التي كانت عليهم ولهذا أُمرنا أن ندعوا: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال ابن تيمية: «فإن دين محمدٍ ﷺ في التوبة جاء بما لم يجئ به شرع من قبله ولهذا قال: «أنا نبي الرحمة وأنا نبي التوبة» وقد رفع الله به من الآصار والأغلال ما كان على من قبلنا» (٢٩١).

٢٨٢- ثالث عشر - بكمال التوبة والاستغفار كمال العبودية لله:

وفي حديث الشفاعة العظمى يوم القيامة: أن الناس يستشفعون بالأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم لما ينالهم في موقف الحشر من الشدة والأهوال، ويردُهم آدم إلى نوح، ونوح إلى إبراهيم، وإبراهيم إلى موسى، وموسى إلى عيسى، فيردهم عيسى إلى محمدٍ ﷺ وعليهم أجمعين معللاً ذلك بقوله: «ائتوا محمداً ﷺ، عبداً قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» فيأتون محمداً ﷺ فيقول: «أنا لها» إلى آخر ما جاءِ في الحديث الشريف (٢٩٢).

---

(٢٩١) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٣٠٤.

(٢٩٢) والحديث بتمامه كما جاء في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك، فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، قال: فيأتون آدم عليه السلام فيقولون: أنت أبو الخلق، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك. اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم (قال النووي: أي لست أهلاً لذلك) فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربَّه منها، ولكن ائتوا نوحاً أول رسولٍ بعثه الله، قال: فيأتون نوحاً عليه السلام فيقول: لست هناكم، فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها، ولكن ائتوا إبراهيم عليه السلام الذي اتخذه الله خليلاً، فيأتون إبراهيم عليه السلام، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها، ولكن ائتوا موسى عليه السلام الذي كلمه الله وأعطاه التوراة، قال: فيأتون موسى عليه السلام، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها، ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته، فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً ﷺ، عبداً قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال: قال رسول الله ﷺ: فيأتونني، =

فجعل عيسى عليه السلام الغفران التام هو أكمل ما يناله العبد من حُسن العبودية لله تعالى والقرب منه، وذلك لا ينال إلا بفضل الله تعالى وكمال التوبة والاستغفار، فقد كمل الله لنبينا محمدٍ ﷺ عبوديته بأن غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١-٢] فيقيمه الله يوم القيامة مقاماً يسبق به الأولين والآخرين كما أقامه في الإسراء والمعراج مقاماً من القرب من ربه تعالى سبق به الأولين والآخرين.

وهذا الغفران التام الذي به كمال العبودية لله والقرب منه ذكره عيسى عليه السلام سبباً وتعليلاً لعلو مرتبة نبينا ﷺ . ومنه يتبين أن التوبة والاستغفار وكثرتها وحسنهما وكمالهما - مع بقية العمل الصالح - يؤهلان العبد إلى مراتب عالية من القرب من الملك القدوس. ومن ذلك نفهم شرف التوبة وفضلها.

٢٨٣-رابع عشر - جعل التوبة والاستغفار « المسك » الذي تختم به العبادات:

ولأهمية التوبة والاستغفار الحق جعلهما الله تعالى (المسك) الذي تختم به أنواع العبادات. فكان النبي ﷺ يختم بهما عباداته، وشرع ذلك لأمته.

قال ابن تيمية: «وقد أمر الله سبحانه عباده أن يختموا الأعمال الصالحة بالاستغفار، فكان النبي ﷺ إذا سلم من الصلاة يستغفر ثلاثاً ويقول: «اللهم أنت السلام ومنك

= فأستأذن على ربي فيؤذن لي، فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، قل تُسمع، سل تعطه، اشفع تُشفَّع، فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلِّمُنيه ربي، ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك يا محمد، قل تُسمع، سل تعطه، اشفع تشفَّع. فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ثم اشفع، فيحد لي حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، قال: فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة، قال: فأقول يا رب: ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن، أي وجب عليه الخلود) انظر (شرح صحيح مسلم للإمام النووي: كتاب الإيمان باب ٨٤ حديث رقم ٣٢٢/ ١٩٣، وفي رواية لمسلم أيضاً أن كل نبي يردهم إلى من بعده قائلاً: « لست لها» وأن نبينا محمداً ﷺ يقول: «أنا لها» .قال النووي: «إذا سألوا غيره من رسل الله تعالى وأصفيائه فامتنعوا ثم سألوه فأجاب وحصل غرضهم فهو النهاية في ارتفاع المنزلة وكمال القرب وعظيم الإدلال والأنس، وفيه تفضيله ﷺ على جميع المخلوقين من الرسل الآدميين والملائكة، فإن هذا الأمر العظيم وهي الشفاعة العظمى لا يقدر على الإقدام عليه غيره ﷺ وعليهم أجمعين، والله أعلم).

السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عنه، وقد قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧] فأمرهم أن يقوموا بالليل ويستغفروا بالأسحار وكذلك ختم سورة المزمل وهي سورة قيام الليل بقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [المزمل: ٢٠] وكذلك قال في الحج: ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٨-١٩٩] »[٢٩٣].

«وقد قيل أن آخر سورة نزلت قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [سورة النصر] فأمره تعالى أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار»[٢٩٤].

وتعليل جعل الاستغفار المسك الذي تختم به الأعمال الصالحة دائماً - على ما نفهم - أن عظمة الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه وتعالت صفاته، الحي القيوم، ذو الجلال والإكرام الملك القدوس، المنان بديع السماوات والأرض، المنعم بأعظم أجناس النعم، الذي وسعت رحمته كل شيء، وفاضت نعمته على كل شيء، رب العرش العظيم - هي أعظم وأكبر بكثير من أن يقدر العبد على الوفاء بحقها، وتقديم ما يليق بها على وجه الحقيقة من عبادة وشكر حتى الملائكة، قال ﷺ: (إن لله في سماء الدنيا ملائكة خشوعاً - وفي رواية ركوعاً - لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة، فإذا قامت الساعة رفعوا رؤوسهم ثم قالوا: ربنا ما عبدناك حق عبادتك)[٢٩٥].

هذا، وهم الذين وصفهم الله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٠] وقال فيهم: ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴾ [فصلت:٣٨].

---

(٢٩٣) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٢٥٣

(٢٩٤) المرجع السابق وبالموضع نفسه.

(٢٩٥) الحاكم: المستدرك على الصحيحين - وقال: صحيح على شرط مسلم -: ٣/ ٩٣ والبيهقي: شعب الإيمان ١/ ١٨٣، والمنذري: الترغيب والترهيب: ٤/ ٢٣٠ وابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٤٤٧.

وقال ﷺ : (لن يدخل أحداً عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: و
إلا أن يتغمدني الله بفضله ورحمته) [٢٩٦] فهذا يرينا لماذا ينبغي أن يكون الاستغفار الم
الذي تختم به الأعمال الصالحة، فهو لتكميل حُسن العمل الصالح ولتلافي نقصه من ج
واعتراف - من جهة أخرى - بالتقصير بحق الرب جل وعلا وعدم قدرة العبد
الوفاء بحق ربه وتقديم ما يليق بجلاله سبحانه من العبادة والعمل الصالح. وأن ما
إنما هو فعل العاجز عن الوفاء وجُهد المقل.

٢٨٤-خامس عشر- تخليصها للتائب من رق الجناية وإلحاقه بمن لا ذنب له:

ومن فضل التوبة أيضاً أنها تلحق التائب من الذنب بمن لا ذنب له، قال ﷺ
(التائب من الذنب كمن لا ذنب له) [٢٩٧].

وهذه مزية عظيمة تخلصه من رق الجناية وأسرها له بأن يكون أسيراً للذنب ا
ارتكبه ولا خلاص له من تبعته، وتخلصه من القنوط من رحمة الله، فمن أثر التوبة النص
أنها تمحو ذنبه وترفع عنه وزره وتزيله تماماً وكأنه لم يحدث أصلاً، فهي إزالة للذ
وتبعاته تماماً وخلاص من رقه فيُلحق بمن لا ذنب له ولا يكون ناقصاً بالقياس إليه.
هذا المعنى قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فمن ظن أن صاحب الذنوب مع التوبة ي
ناقصاً فهو غالط غلطاً عظيماً، فإن الذم والعقاب الذي يلحق أهل الذنوب لا ي
التائب منه شيء أصلاً. لكن إذا قدم التوبة لم يلحقه شيء، وإن أخر التوبة فقد يلحق
بين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب حاله» [٢٩٨].

والحق أن الفقهاء قد أفتوا بأن هذا التأخير للتوبة - الذي أشار إليه شيخ الإسلام -
ذنب آخر يستوجب التوبة [٢٩٩]، فإذا تاب منه أيضاً كان له حكم غيره من الذنوب
تمحوها التوبة وتزيل عن صاحبها الذم والعقاب والنقص وتلحقه بمن لا ذنب له.

---

(٢٩٦) أخرجه البخاري (٥٢٤١)، وابن ماجة (٤١٩١)، وأحمد: (٧١٦٧) واللفظ للبخاري.
(٢٩٧) رواه ابن ماجة في سننه برقم (٤٢٤٠) وانظر تخريج العراقي للحديث في الإحياء ٤/ ٤.
(٢٩٨) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٠/ ٣٠٩.
(٢٩٩) سيأتي بحث هذا الموضوع تحت عنوان (تأخير التوبة ذنب يجب التوبة منه) وسنبين
الفقهاء فيه بالتفصيل إن شاء الله تعالى.

١٨٥- سادس عشر- تشريعها مقاماً دائماً متجدداً لا ينفك العبد عنه:

ولعظيم مقام التوبة وفضلها اختارها النبي ﷺ شيئاً يلازمه ولا ينفك عنه بحال، وهو الذاكر لربه تعالى في كل أحواله فقال ﷺ: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)[٣٠٠].

وقال ﷺ أيضاً معلماً أصحابه والمؤمنين والمؤمنات إلى يوم القيامة: (يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إلى الله وأستغفره كل يوم مائة مرة أو أكثر من مائة مرة)[٣٠١].

وجاء أيضاً في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال: (كان يعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرةٍ من قبل أن يقوم: رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور)[٣٠٢]، وقد قال الله تعالى لكل مؤمن ومؤمنة: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

٢٨٦- سابع عشر- التوبة تدفع البلوى المتعلقة بالتطهير قبل الموت:

إذا اعتنى الله تعالى بعبد طهره من ذنوبه في الدنيا قبل أن يخرج منها إلى الآخرة فإن تطهير الدنيا أهون من تطهر الآخرة وذلك بما يصيبه من مرض ونحوه أثناء حياته أو قبل الموت حين يتضيق وقت بقائه في الدنيا، قال ﷺ: (لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في نفسه وماله وولده حتى يلقى الله عز وجل وما عليه من خطيئة)[٣٠٣].

قال ابن القيم: «وقد يكون في الشخص مادتان فأيهما غلب عليه كان من أهلها، فإن أراد الله به خيراً طهره من المادة الخبيثة قبل الموافاة، فيوافيه يوم القيامة مطهراً فلا يحتاج إلى تطهيره بالنار، فيطهره منها بما يوفِّقه له من التوبة النصوح والحسنات الماحية والمصائب المكفِّرة حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»[٣٠٤].

---

(٣٠٠) صحيح البخاري (٥٨٣٢) واللفظ له، وأحمد (٧٤٦١) و (٨١٣٧).

(٣٠١) مسلم (٤٨٧١) ومسند الإمام أحمد (١٧٥٧٨) و(١٧١٧٣) و(١٧١٧٦) و(١٧١٧٦) و(١٧١٧٧).

(٣٠٢) الترمذي (٣٣٥٦)، وأحمد (٤٤٩٦).

(٣٠٣) أحمد (٩٤٣٥) و(٧٥٢١) والدارمي (٢٦٦٤).

(٣٠٤) ابن القيم: زاد المعاد ١/ ٦٨.

وهذا يحصل من قبيل الجزاء بما صدر من الإنسان من سوء عمله فيما لم يطهر منه بعفو الله أو بتوبة، فلا بد له من الجزاء به إما في الدنيا وإما في الآخرة - إلا أن يكون ابتلاء للمؤمن لرفع درجته وهذا دلت عليه أحاديث مستفيضة -[٣٠٥]، ويدل على ما ذكرناه من الجزاء في الدنيا قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣] «(أي ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني بل العبرة بطاعة الله سبحانه وإتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام، ولهذا قال بعده: (من يعمل سوءاً يجز به) كقوله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] »[٣٠٦].

قال القرطبي في تفسير الآية: «وقال الجمهور: لفظ الآية عام، والكافر والمؤمن مجازى بعمله السوء، فأما مجازاة الكافر فالنار لأن كفره أوبقه، وأما المؤمن فبنكبات الدنيا كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: لما نزلت (من يعمل سوءا يجز به) بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً فقال رسول الله ﷺ: (قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها... وعن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي قال لما نزلت (من يعمل سوءاً يجز به) قال أبو بكر: كيف الصلاح يا رسول الله مع هذا كل شيء عملناه جزينا به؟ فقال: (غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟ قال: بلى، قال: فذلك مما تجزون به)[٣٠٧]، ففسر رسول الله ﷺ ما أجمله التنزيل من قوله: (من

---

(٣٠٥) ومن ذلك الحديث الذي أورده المنذري في الترغيب والترهيب(٥١٥٦) عن مصعب بن سعد عن أبيه ﷺ قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة) قال المنذري: رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. قلت: وانظر أيضاً: الحاكم: المستدرك على الصحيحين ١/ ١٠٠ وابن ماجة (٤٠١٣)، وأحمد (١٤٠٠) و(١٤١٢) و(١٤٧٣) و(١٥٢١)، والدارمي (٢٦٦٤).

(٣٠٦) تفسير ابن كثير: ١/ ٥٥٨.

(٣٠٧) أحمد (٦٥) و(٦٦).

يعمل سوءاً يجز به)، ... وقيل: (من يعمل سوءاً يجز به) إلا أن يتوب»[٣٠٨]، قلت: أو يعفو الله تعالى عنه، فهو من قبيل العام المخصص بالتوبة أو العفو.

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: (من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً): «وقوله: (ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: إلا أن يتوب فيتوب الله عليه»[٣٠٩].

وقال ابن تيمية: «... ونحن حقيقة قولنا: إن التائب لا يعذب لا في الدنيا ولا في الآخرة، لا شرعاً ولا قدراً»[٣١٠]. قلت: لأن التوبة أسقطت الذنوب وأزالت سبب العقاب.

وعلى ذلك فإن التوبة تدفع سبب التطهير بالمرض والمصائب قبل الموافاة حيث يكون قد تطهر بالتوبة فيدفع بذلك عن نفسه سبباً من أسباب مصارعة الأمراض أو المصائب قبل الموت وبخاصة حين يضيق وقت بقائه في الدنيا. وتلك مزية عظيمة من مزايا التوبة وثمرة من ثمراتها.

٢٨٧- ثامن عشر- الفرح والسرور الحاصل للتائب بتوبته:

للتائب فرحة عظمى يجدها في قلبه ثمرة لتوبته وهي الجزاء الحسن المعجل الذي يمنحه الله تعالى له في الدنيا، وذلك مقابل فرح الله تعالى بتوبة عبده، والجزاء من جنس العمل، وكل من جرب التوبة النصوح يعرف هذا ذوقاً. قال ابن القيم: «ومتى أراد العبد شاهد هذا من نفسه[٣١١]، فلينظر إلى الفرحة التي يجدها بعد التوبة النصوح والسرور واللذة التي تحصل له، والجزاء من جنس العمل، فلما تاب إلى الله ففرح الله بتوبته أعقبه فرحاً عظيماً»[٣١٢].

---

(٣٠٨) تفسير القرطبي: ج:٥ ص:٣٩٦-٣٩٩.

(٣٠٩) تفسير ابن كثير: ١/ ٥٦٠.

(٣١٠) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١٦/ ٣٠-٣١.

(٣١١) أي شاهد (فرح الله) بتوبة عبده من خلال مجازاة الله له بمنحه الفرحة العظمى في قلبه على أساس الجزاء من جنس العمل، وهي ثمرة من ثمرات التوبة.

(٣١٢) ابن القيم: طريق الهجرتين ١/ ٣٦٩.

٢٨٨- تاسع عشر- التوبة تثمر النور والضياء في الوجه:

الذنوب تنتج ظلمات في القلب يظهر أثرها على الجوارح كما قال ﷺ : (إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب منها صقل قلبه وإن زاد زادت فذلك قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] (٣١٣).

وبالمقابل فإن للحسنات آثاراً على الوجه وضاءة ونوراً، فإذا كانت التوبة رجوعاً من معصية الله إلى طاعته وكان فيها هجر الذنوب، كان ذلك خروجاً من الظلمات إلى النور، وفي هذا ما فيه من الآثار على الوجه والجوارح.

قال ابن تيمية: «ومن كان له صورة حسنة فعف عما حرم الله تعالى وخالف هواه وجمل نفسه بلباس التقوى الذي قال الله فيه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] كان هذا الجمال يحبه الله، وكان من هذا الوجه أفضل ممن لم يؤت مثل هذا الجمال وهو ما لا يكساه وجه العاصي، فإن كانت خلقته حسنة ازدادت حسناً وإلا كان عليها من النور والجمال بحسبها، وأما أهل الفجور فتعلو وجوههم ظلمة المعصية حتى يكسف الجمال المخلوق، قال ابن عباس رضي الله عنه : إن للحسنة لنوراً في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب، وغبرة في الوجه، وضعفاً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق، وهذا يوم القيامة يكمل حتى يظهر لكل أحد كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران:

---

(٣١٣) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٨٦ وقال: «وقال الترمذي حسن صحيح ولفظ النسائي: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فهو الران الذي قال الله تعالى: «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون») وقال أحمد (٢٢٩٧) حدثنا صفوان بن عيسى أخبرنا ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه فإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، وذاك الران الذي ذكر الله في القرآن «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون») وقال الحسن البصري: وهو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت».

١٠٦-١٠٧]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠][٣١٤].

وحيث إن التوبة هجر للذنوب بالكلية ورجوع إلى الطاعة فإن ذلك يزيل آثار ظلمة القلب التي تظهر على الوجه، ويحل محلها نور في القلب يثمر نوراً وضياء وجمالاً وبهاء في الوجه.

٢٨٩- عشرون - التوبة تمتع التائب بالحياة الطيبة:

التوبة رجوع إلى حالة التقوى، فإن العبد بالذنب ينزل عن التقوى وبالتوبة يرجع إليها، والتقوى تنشئ حياة طيبة للمؤمن لأن التقوى قوامها العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله، وترك معصية الله على نور من الله خوفاً من عقاب الله أو حياء منه. وآثار التقوى على درجة عظيمة من الأهمية، ذكرها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقوله جل ثناؤه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]، وقوله جل وعز: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥]، وقوله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨] وكل ذلك يفضي إلى الحياة الطيبة. وأيضاً فالمؤمن إذا تحقق بحال التقوى أورثه الله تعالى علم التمييز والتفرقة بين الهداية والغواية، والرشاد والضلال، والحق والباطل، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وكل ذلك يسهم في تحسين فعله المأمورات وتركه المحظورات فيحيا الحياة الطيبة متنقلاً ومترقياً في رياض الإسلام والإيمان والإحسان، وليس هنالك في الدنيا أسعد وأطيب من هذه الحياة الطيبة.

---

(٣١٤) ابن تيمية: الاستقامة ١/ ٣٥١ ثم مضى ابن تيمية يشرح بصورة مفصلة في الصفحات التالية مسألة نور الطاعة التي تظهر في الوجه وظلمة المعصية التي تظهر فيه، ويستدل لذلك بالكثير من نصوص الكتاب والسنة فليرجع إليها من شاء.

قال ابن القيم: «وقد جعل الله «الحياة الطيبة» لأهل معرفته ومحبته وعبادته فقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، وقد فسرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضا والرزق الحسن وغير ذلك، والصواب أنها: حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، وقال غيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً، وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح، فإنه ملكها، ولهذا جعل الله المعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكره وهي عكس الحياة الطيبة. وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث: أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، والمعيشة الضنك أيضا تكون في الدور الثلاث، فالأبرار في النعيم هنا وهنالك، والفجار في الجحيم هنا وهنالك، قال الله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ ﴾ [النحل: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ ﴾ [هود: ٣]، فذكر الله سبحانه وتعالى ومحبته وطاعته والإقبال عليه ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة. والإعراض عنه والغفلة ومعصيته كفيل بالحياة المنغصة والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة»[٣١٥].

فتلك هي الحياة الطيبة في ظل التوبة والتقوى.. في ظل رياض الإسلام والإيمان والإحسان.

تقابلها حياة المعيشة الضنك لصاحب المعاصي والذنوب.. حياة «من عقله مسبي في بلاد الشهوات، وأمله موقوف على اجتناء اللذات، وسيرته جارية على أسوأ العادات، ودينه مستهلك بالمعاصي والمخالفات، وهمته واقفة مع السفليات، وعقيدته غير متلقاة من مشكاة النبوات، فهو في الشهوات منغمس، وفي الشبهات منتكس، وعن الناصح معرض، وعلى المرشد معترض، وعن السراء نائم، وقلبه في كل واد هائم. فلو أنه تجرد من

---

(٣١٥) ابن القيم: مدارج السالكين: ٣/ ٢٥٩.

نفسه، ورغب عن مشاركة أبناء جنسه، وخرج من ضيق الجهل إلى فضاء العلم، ومن سجن الهوى إلى ساحة الهدى، ومن نجاسة النفس إلى طهارة القدس، لرأى الإلف الذي نشأ بنشأته، وزاد بزيادته، وقوي بقوته، وشرف عند نفسه وأبناء جنسه بحصوله، وسد قذى في عين بصيرته، وشجاً في حلق إيمانه، ومرضاً مترامياً إلى هلاكه»[٣١٦].

٢٩٠- معرفة فضل التوبة كفيلة بأن تدفع المسلم للمسارعة إليها:

فما ذكرناه في الفقرات السابقة عشرون وجهاً من الوجوه التي تريك مقام التوبة في الإسلام، وفضلها، ومنزلتها، وأهميتها، وثمراتها، استخلصناها من نصوص الإسلام كتاباً وسُنّةً، فخذها بقوة، واحمل معانيها في صدرك على الدوام، واعمل بها، تكن إن شاء الله رغاباً في التوبة، كثير اللجوء إلى ربك، حي القلب، مستنير البصيرة، طائعاً للرحمن، مُغيظاً للشيطان، والله يكلأ المؤمنين والمؤمنات ويتوب عليهم، والله المستعان.

وإياك ثم إياك أن تحرم نفسك من فرصة التوبة التي قدمها الإسلام إليك، فبادر إليها واستدمها، تحظ برضوان الله ومحبته وعفوه وغفرانه ورحمته، وتحظ بحسن الختام إن شاء الله.

فالسعيد الموفق من بادر وسارع إلى توبة نصوح، والمحروم من قعد على المعاصي والذنوب من غير توبة.. السعيد من سابق إلى سفينة النجاة وغنم بها النجاة والفوز معاً، تنجيه من هلاك الأبد ويفوز بسعادة الأبد.

السعيد من سارع وسابق فإن منادي الرحيل ينادي في كل يوم يا أهل الأرض الرحيل.. الرحيل: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨]، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ﴾ [المجادلة: ٦] فماذا أنت فاعل؟

٢٩١- المسارعة إلى التوبة خشية أن تعصف سموم الذنوب بروح الإيمان:

وما أحسن أن يسارع العبد إلى التوبة لربه والإنابة إليه من قبل أن تعصف سموم الذنوب بروح الإيمان، وتعمل فيه عملاً يعيا معه الأطباء، حين يختم على القلب بما ران عليه من الذنوب، وتعمى البصيرة بالإصرار. ولا يقطع ذلك إلا نهضة من الرقاد، ويقظة من الغفلة، وقومة لله وتفكر ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ

---

(٣١٦) ابن القيم: مدارج السالكين: ٣/ ٢٦٧.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: ٤٦]. تفكر في الدنيا والآخرة: الدنيا وزوالها وانقضائها وفنائها، والآخرة ونعيمها ودوامها وبقائها قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠]، قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، «قوله تعالى: (سابقوا إلى مغفرة من ربكم) أي: سارعوا بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم، وقيل: سارعوا بالتوبة، لأنها تؤدي إلى المغفرة...»[٣١٧].

٢٩٢- الوقت جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بديل عنها:

قال الغزالي ناصحاً ومذكراً: «... فكل ساعة من ساعات العمر، بل كل نَفَسٍ من الأنفاس، جوهرة نفيسة، لا خلف لها، ولا بديل عنها، فإنها صالحة لأن توصلكَ إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد. وأي جوهرة أنفس من هذا؟. فإذا ضيعتها في (الغفلة) فقد خسرت خسراناً مبيناً. وإن صرفتها إلى (معصية) فقد هلكت هلاكاً فاحشاً. فإن كنت لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة، لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة، فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا. فعند ذاك ينكشف لكل مفلسٍ إفلاسه ولكل مصاب مصيبته»[٣١٨].

٢٩٣- إذا حضر الموت فات التدارك:

وحينئذٍ يعرف الإنسان ماذا فَوَّتَ على نفسه بتفويت التوبة وماذا ضيع على نفسه بتضييعها.. حينئذ يشتهي الإنسان يوماً أو ساعة، يتدارك فيها ما فات، ويتوب فيها ويتقرب إلى الله، ولكن انقطع الطريق، قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

... يوماً أو ساعة، يتوب ويتقرب ويصلي ويتصدق، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ

---

(٣١٧) تفسير القرطبي: ١٧/ ٢٥٦.

(٣١٨) الغزالي: إحياء علوم الدين ٤/ ١٠.

فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ [المنافقون: ١٠-١١].. يوماً أو ساعة، ولكن هيهات هيهات... فقد فات الأوان، وانتهى الامتحان، وأفلتت الفرصة.

٢٩٤- بين الإنسان والجنة: توبة وخطوتان:

أما الآن فما أيسرها فإنها: توبة وخطوتان: تدارك الفائت، وتعمير الباقي من الأيام والليالي بالعمل الصالح. فبذلك يرجو العبد ما وعده الله تعالى من الفلاح بالفوز المقيم في جنات النعيم والنجاة من نيران الجحيم، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ [القصص: ٦٧]، قال القرطبي وغيره من أهل التفسير: «عسى من الله واجبه» [٣١٩] أي: أن الفلاح حاصل مع التوبة. والله الموفق وهو المستعان. وهو يتولانا وإياك برحمته ومغفرته وفضله.

وبهذا ينتهي الكلام في فضل التوبة ومكانتها في الإسلام لنبدأ الكلام في مشروعية التوبة وحكمها في الإسلام وهو موضوع الفصل الثاني القادم إن شاء الله تعالى.

---

(٣١٩) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٢٠٠







الفصل الثاني

مشروعية التوبة وحكمها في الإسلام

وفيه أربعة مباحث

- المبحث الأول: وجوب التوبة في القرآن الكريم.
- المبحث الثاني: وجوب التوبة في السنة النبوية.
- المبحث الثالث: انعقاد الإجماع على وجوب التوبة وأنها على الخلق كافة.
- المبحث الرابع: أثر التوبة في تحصيل حسن الخاتمة وتجنب سوئها.










الفصل الثاني

مشروعية التوبة وحكمها في الإسلام

٢٩٥- تمهيد وتقسيم:

التوبة من الذنوب بالندم والرجوع إلى الله وطلب العفو والمغفرة منه واجب من الواجبات الشرعية[٣٢٠]، وفرض عين على كل أحد[٣٢١]، وكذلك استدامتها، وكذلك العودة إليها إذا نقضها أو خالفها.

وقد دل على وجوب التوبة وفرضيتها: القرآن الكريم، والسنة النبوية، وإجماع المسلمين. وإذا كانت واجباً كان تركها حراماً، لأن ترك الواجب حرام، بل عد العلماء ترك

---

(٣٢٠) الواجب: هو ما طلب الشرع من المكلفين فعله على وجه الحتم والإلزام بحيث يُمدح فاعله، ويُذم ويعاقب تاركه. ويستفاد الوجوب من صيغ: منها صيغة الطلب كصيغة الأمر المجردة، فإنها تدل على الوجوب، وكذلك يستفاد من ترتيب عقوبة على ترك الفعل. والواجب والفرض شيء واحد عند الجمهور من الفقهاء، أما الحنفية فقد فرقوا بينهما بناءً على قوة الدليل، فإن كان دليل الطلب قطعياً كان فرضاً، وإن كان ظنياً كان الفعل واجباً. والتوبة أدلة وجوبها قطعية فتكون فرضاً على رأي الجميع، والفرض يكون: عقوبة تركه أشد، ومنكره يكفر لأنه يكون قد رد شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة فيكون قد رد الشارع نفسه وكذب بصدق الرسول ولهذا يكون كافراً.

(٣٢١) الواجب العيني أو فرض العين: هو ما توجه فيه الطلب اللازم إلى كل مكلفٍ (وهو البالغ العاقل) فهو قد طلب الشارع حصوله من كل واحد من المكلفين بعينه كالصلاة والزكاة والصيام ونحوها، والتوبة واجبة وهي من هذا النوع من الواجبات، أي واجب أو فرض عيني، بخلاف الواجب الكفائي أو فرض الكفاية الذي قصد الشرع حصوله في جماعة المكلفين فيكفي فيه قيام البعض ويسقط عن الباقين وإذا لم يقم به أحد أثم الجميع، كالقضاء، والإفتاء، والشهادة، وصلاة الجنازة ونحوها. انظر للمزيد من المعلومات كتاب: المدخل إلى الدين الإسلامي، للمؤلف. وكذلك المراجع الخاصة بعلم أصول الفقه (مبحث الواجب).

التوبة من ضمن الكبائر[٣٢٢]، ولما كان للتوبة أثر كبير في تحصيل حسن الخاتمة وتجنب سوئها وجب بيان ذلك، فانقسم هذا الفصل إلى أربعة مباحث:

نخصص الأول: للكلام عن وجوب التوبة في القرآن الكريم.

ونتناول في الثاني: وجوب التوبة في السنة النبوية.

ونبين في الثالث : وجوبها بدليل الإجماع وأنها على الخلق كافة.

ونبحث في الرابع: أثر التوبة في تحصيل حسن الخاتمة وتجنب سوئها.

---

(٣٢٢) هذا، مع ملاحظة أن الله تبارك وتعالى قد رحم عباده المؤمنين رحمه واسعة إذ جعل إلى جانب التوبة كفارات أخرى بالنسبة للصغائر على وجه الخصوص كالصلوات الخمس التي تكفر ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر، وقيام رمضان إيماناً واحتساباً على رأي من يجعل ذلك مختصاً بتكفير الصغائر دون الكبائر، أو ما يصيب المؤمن من أذىً أو بلاء فيصبر فإنه كفارات لذنوبه، وغير ذلك. إلا أن ذلك كله لا يسقط وجوب التوبة من الصغائر، وفي ذلك يقول ابن القيم: «إن من أوجب الواجبات التوبة بعد الذنب، وضمان المغفرة لا يوجب تعطيل أسباب المغفرة» (انظر بدائع الفوائد ص ١٦).

المبحث الأول
وجوب التوبة في القرآن الكريم

٢٩٦- القرآن الكريم فرض التوبة على الخلق كافة وأكدها:

أمر القرآن الكريم بالتوبة من جميع الذنوب، كبائرها وصغائرها، وجعل ذلك واجباً وفرضاً على كافة الخلق، واستعمل في ذلك مختلف الصيغ والأساليب الدالة على الوجوب. فتارةً يذكر وجوبها بصيغة الأمر الجازم، وتارةً يرتب عقوبةً على ترك التوبة، وتارةً يعلق الفلاح عليها تعليق المسبب على سببه، وتارةً يصف تارك التوبة بالظالم ونحوه، وكل هذه الصيغ والأساليب تدل على وجوب التوبة، وأن ترك التوبة من أي ذنبٍ، كبير أو صغير، حرام.

ومن جهة ثانية نجد في التنزيل العزيز مجموعة أخرى كبيرة من الآيات، بصيغ أخرى، تؤكد هذا الوجوب للتوبة وتحيطه بمزيد من العناية، والاهتمام، فترغب فيه أشد الترغيب، وتغري بالمسارعة إليه، وتذلل كل عقبة من أمامه، وتبين عظيم ثمرته. وسنفصل ما تقدم في مطلبين على النحو الآتي:

المطلب الأول
إيجاب التوبة بالصيغ الدالة على الوجوب

٢٩٧- استخدام القرآن صيغاً متنوعة في تشريع وجوب التوبة:

استخدم القرآن الكريم صيغاً متنوعة في تشريع وجوب التوبة، فمن الصيغ الدالة على الوجوب صيغتان أساسيتان: هما صيغة الأمر الجازم، وصيغة ترتيب العقوبة على ترك الفعل فيدل على وجوبه، والقرآن الكريم استخدم كلاًّ من هاتين الصيغتين منفردة لتشريع وجوب التوبة، وأيضاً استخدمها مجتمعتين في موضع واحد، وفيما يلي نورد تلك الصيغ والآيات الكريمة الدالة عليها:

٢٩٨- أولاً - إيجاب التوبة بصيغة الأمر الجازم:

٢٩٩- الآية الأولى - (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)[(٣٢٣)]:

ففي هذه الآية الكريمة خطاب للمؤمنين بأن يتوبوا إلى الله من كل ذنب، كبير أو صغير، لكي يلازموا حال التقوى وما تستلزمه من التوبة عن ذنوب الماضي باستحضارها

---

(٣٢٣) سورة النور: الآية: ٣١.

والندم عليها، والاعتصام بالله لدفع وقوع الذنوب في الحاضر، والتوبة منها حالاً والاستغفار إذا وقعت، لأن وقوعها مفارقة لحال التقوى، والتوبة تعيد المؤمن إلى حال التقوى.

والآية الكريمة دلت على شيئين: وجوب التوبة، وتعليق الفلاح بها. فوجوب التوبة على المؤمنين مُستمد من صيغة الأمر: (وتوبوا) وقوله: (أيها المؤمنون) تأكيد للإيجاب وإيذان بأن وصف الإيمان موجب للامتثال(٣٢٤)، وتعليق الفلاح بها يدل على الوجوب أيضاً وهو قوله تعالى: (لعلكم تفلحون).

قال ابن القيم: «وقد قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١] وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم. ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة «لعل» المشعرة بالترجي، إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم»(٣٢٥).

٣٠٠- الآية الثانية - (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً):

وتمام الآية قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨].

وهذا خطاب للمؤمنين والمؤمنات جميعاً بصيغة الأمر: «توبوا» التي تدل على وجوب التوبة. وقد تضمن صدر الآية شيئين: إيجاب التوبة، وإيجاب أن تكون نصوحاً وهي التوبة الشاملة العامة الصادقة - وسيأتي البحث فيها مفصلاً في موضعه إن شاء الله.

(٣٢٤) الآلوسي: روح المعاني: ١٨/ ١٤٦.
(٣٢٥) ابن القيم: مدارج السالكين ١/ ١٧٨.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] أمر بالتوبة وهي فرض على الأعيان - أي فرض عين - في كل الأحوال وكل الأزمان»[٣٢٦]، ثم نقل القرطبي تفاصيل أقوال العلماء في صفة التوبة النصوح.

٣٠١- ثانياً - إيجاب التوبة بصيغة تحريم ترك الفعل والمعاقبة عليه:

٣٠٢- الآية الأولى - (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون):

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] وثابت أن تلبس الإنسان بالظلم حرام، إذ ارتكاب الذنوب والإقامة عليها من غير توبة ظلم يجره الإنسان على نفسه بتعريضها للعقاب الذي أعده الله للعاصين، وظلم له بتفويت الخير الذي أعده الله للمطيعين، وهذا إضافة إلى تعلق الذنوب بظلم الغير. لذلك يكون الذين يذنبون ولا يتوبون ظالمين، وتلبس الإنسان بالظلم حرام فوجب الخروج منه بالتوبة، فتكون التوبة واجبة. ثم إن وصف من تركوا التوبة بالظالمين يستتبع عقوبتهم فكان ترتيب العقوبة مبنياً على ترك التوبة وهذا دال على الوجوب كما قد علمت.

٣٠٣- الآية الثانية - (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق)[٣٢٧]:

وهذه الآية الكريمة جاءت بعد حكاية قصة أصحاب الأخدود الكافرين الطغاة الذين أضرموا النار في أخاديد في الأرض لإلقاء المؤمنين والمؤمنات فيها ليفتنوهم عن دينهم بعد أن نقموا منهم أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد، قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٤-٨]. قال القرطبي: «أي الذين خددوا الأخاديد في الأرض وقعدوا عليها يلقون المؤمنين، وكانوا بنجران في الفترة بين عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ»[٣٢٨].

---

(٣٢٦) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ١٩٧. وقوله تعالى: «عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم» قال القرطبي وغيره من المفسرين: «عسى من الله واجبة» انظر القرطبي ١٨/ ٢٠٠ وقال: وهو معنى قوله ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

(٣٢٧) سورة البروج: الآية ١٠.

(٣٢٨) راجع قصة أصحاب الأخدود في ابن كثير: تفسيره ٤/ ٤٩٥-٤٩٦ والقرطبي: تفسيره: ١٩/ ٢٨٧، وسيد قطب: في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٧٣.

والآية الكريمة التي نحن بصددها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ [البروج:١٠] تشمل أصحاب الأخدود على ما ذهب إليه بعض المفسرين[٣٢٩] وتشمل مشركي قريش الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وعذبوهم ليتركوا دينهم[٣٣٠]، وفيها دعوتهم إلى الإسلام والتوبة، وتشمل في معناها كل الطغاة في كل الأزمان الذين ينقمون على المؤمنين والمؤمنات إيمانهم وتوحيدهم ويطاردونهم لفتنتهم عن دينهم، فأولئك الذين فعلوا ذلك ثم لم يتوبوا منه، وهؤلاء الذين فعلوه ويفعلونه (إن لم يتوبوا)... أولئك وهؤلاء: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠][٣٣١].

وأنت ترى في الآية الكريمة أنه سبحانه رتب العقوبة بعد الذنب على عدم التوبة بقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ وترتيب العقوبة على ترك الفعل - وهو التوبة - يدل على وجوب ذلك الفعل شرعاً فدل على وجوب التوبة.

٣٠٤- ثالثاً - إيجاب التوبة بالصيغتين السابقتين معاً في موضع واحد:

٣٠٥- الآية الأولى - (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون):

فقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤]، أمر بالإنابة، والإنابة هي التوبة، بالرجوع إلى الله تعالى وطاعته ومفارقة أحوال المعصية.

---

(٣٢٩) انظر التفاسير المذكورة في الهامش السابق.

(٣٣٠) ابن عاشور: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٢٤٥.

(٣٣١) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٤٦ وقال فيه: وجملة «ثم لم يتوبوا» معترضة، و.. «ثم» للتراخي الرتبي لأن الاستمرار على الكفر أعظم من فتنة المؤمنين، وفيه تعريض للمشركين بأنهم إن تابوا وآمنوا سلموا من عذاب جهنم. والفتن: المعاملة بالشدة والإيقاع بالعناء الذي لا يجد منه مخلصاً إلا بعناء أو ضرٍّ أخف أو حيلة.. ودخول العناء في خبر إن في قوله: «فلهم عذاب جهنم» لأن اسم (إن) وقع موصولاً، والموصول يتضمن معنى الشرط في الاستعمال كثيراً. فتقديره: إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم إن لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم، لأن عطف قوله «ثم لم يتوبوا» مقصود به معنى التقييد فهو كالشرط.

وفي الآية الكريمة خطاب من الله تعالى إلى الخلق كافة بالإنابة إليه بصيغة الأمر الجازم التي تدل على الوجوب. فالكافر توبته بأن يُسلم ويلتزم أحكام الإسلام، والمنافق توبته بأن يتوب من النفاق إلى الإيمان. والمسلم المضيع للصلوات المتبع للشهوات، توبته بأن يعكس حاله ويعود إلى الصراط المستقيم. والمسلم الضال باتباع السبل التي تفرقه عن سبيل الله توبته بأن يرجع إلى صراط الله العزيز الحميد. والمؤمن الطائع الذي تقع منه ذنوب بين الحين والحين توبته بأن يعود إلى حال التقوى التي فارقها بارتكاب الذنوب. فكل هؤلاء مأمورون بالإنابة إلى الرب جل وعلا والتوبة إليه ومفارقة أحوال الكفر والفسوق والعصيان.

ويُستمد وجوب التوبة في هذه الآية الكريمة من شيئين:

الأول: صيغة الأمر المجردة: (وأنيبوا).

والثاني: ترتيب العقوبة على عدم التوبة بقوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤] وكلاهما من صيغ الخطاب الدالة على الوجوب[٣٣٢].

قال القرطبي: « (وأنيبوا إلى ربكم): أي ارجعوا له بالطاعة،.. أمر بالتوبة والرجوع إليه، والإنابة: الرجوع إلى الله بالإخلاص »[٣٣٣].

وقال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة »[٣٣٤].

---

(٣٣٢) أي المجردة عن القرائن التي تصرفها إلى الندب أو الإباحة. فقوله تعالى – مثلاً – بشأن صلاة الجمعة «فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض»، (فانتشروا): أمر، ولكنه لا يفيد الوجوب بل الإباحة بقرينة أن النبي ﷺ ما أمرهم أن يغادروا المسجد بعد الصلاة، وبقرينة أن هذا أمر بعد الحظر، فإن الانتشار محظور قبل انقضاء الصلاة فإذا جاء الأمر بالانتشار بعد ذلك كان دالاً على انتهاء الحظر، لذلك قالوا: الأمر بعد الحظر يفيد الإباحة. ومثل ذلك حكم كتابة الدين الوارد بقوله تعالى: «إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه» فإنها تدل على الندب لا الوجوب بقرينة أنه أجاز عدم الكتابة بقوله تعالى: «فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته»، أما إذا تجردت صيغة الأمر عن القرائن فإنها تفيد الوجوب.

(٣٣٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢٦٩.

(٣٣٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٨.

٣٠٦- الآية الثانية - (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً ويؤت كل ذي فضل فضله، وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير)[٣٣٥]:

ففي هذه الآية الكريمة خطاب من الله تعالى بالأمر بالاستغفار والأمر بالتوبة واستدامتها.

قال ابن كثير في تفسيرها: أي وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه وأن تستمروا على ذلك [٣٣٦].

وقال القرطبي: «أي استغفروا من سالف ذنوبكم وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم. وقيل: إنما قدم الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب والتوبة هي السبب إليها »[٣٣٧].

وذكر الآلوسي: أن المراد بالتوبة - بعد الأمر بالاستغفار وهو طلب المغفرة - الإخلاص فيها والاستمرار عليها » [٣٣٨].

والذي يهمنا بعد تفسير الآية الكريمة هو استنباط حكم التوبة. وظاهر أن وجوب التوبة في الآية الكريمة يُستمد من شيئين أيضاً:

الأول: صيغة الأمر الجازم الدالة على وجوب الاستغفار والتوبة وهو قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣].

والثاني: ترتيب العقوبة على ترك الاستغفار والتوبة، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]، والتولي هنا هو الإعراض وعدم الاستجابة لما دُعوا إليه من استغفار وتوبة. وقد علمت أن صيغة ترتيب العقوبة على ترك فعلٍ هي من الصيغ الدالة على وجوب ذلك الفعل شرعاً.

(٣٣٥) سورة هود: الآية ٣.

(٣٣٦) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٣٥.

(٣٣٧) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٣.

(٣٣٨) الآلوسي: روح المعاني ١٢/ ٢٠٨.

فهذه جملة آياتٍ من الكتاب العزيز - وفيه غيرها - جاءت بالصيغ التشريعية التي تريك وجوب التوبة على الخلق كافة، وأنها فرض عين على كل مسلم ومسلمة، يتوب ويستديم التوبة والاستغفار، وأن تركها حرام سواء أكان التارك لها من العاصين أو كان من المتقين.

المطلب الثاني
تأكيد الوجوب وإحاطته بمزيد من العناية

٣٠٧- الآيات الدالة على تأكيد وجوب التوبة وإحاطته بمزيد من العناية:

نظراً لوجوب التوبة، ونجاة الإنسان بها يوم القيامة، وتعلق الفلاح بها، وكونها بداية لسلوك الصراط المستقيم ممن درجت حياتهم على تضييع الواجبات واتباع الشهوات، أو عودة إلى الصراط المستقيم ممن هم عليه وانحرفوا عنه وبالتوبة يرجعون إليه. ونظراً لأن التوبة من الذنوب هي عودة إلى حال التقوى بعد مفارقتها أثناء ارتكاب ذنب باقتحام محرم أو ترك واجب، وأهل التقوى هم الناجون يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧٢]، فمن أجل هذه الأهمية العظمى للتوبة جاءت في القرآن الكريم مجموعة أخرى من الآيات، حث فيها القرآن على التوبة والمسارعة إليها، ورغب فيها أشد الترغيب، زيادة على ما ذكرناه سابقاً من الأمر بها أمراً جازماً على سبيل الوجوب وغيره من الصيغ الدالة على الوجوب.

وتلك المجموعة من الآيات التي فيها الحث الشديد والترغيب العظيم في التوبة هي في حقيقة الأمر تتكلم عن شيء واجب - عرف وجوبه وكونه فرضاً بالصيغ الدالة عليه التي شرحناها سابقاً - وهي في حثها على التوبة وترغيبها بها بشدة تؤكد ذلك الوجوب وتحيطه بمزيدٍ من العناية والاهتمام. نذكر فيما يلي نماذج منها وننقل بعض أقوال العلماء والمفسرين بشأنها:

٣٠٨- (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم):

قال تعالى في المسارعة إلى التوبة والعمل الصالح، واصفاً المتقين بالمبادرة إلى التوبة من غير تأخير أو إصرار على الذنب: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

فأمر سبحانه بالمسارعة إلى المغفرة: وهي إنما تكون بالتوبة وفعل المأمورات وترك المحظورات، ثم جعل صفة المتقين عند وقوع الذنب: الاستغفار. والمراد به هاهنا: التوبة، وعدم الإصرار على حال المعصية.

قال ابن كثير: «أي إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار.. (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون): أي تابوا من ذنوبهم ورجعوا عن قريب ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها»(٣٣٩).

ومثل ذلك القول في قوله تعالى: ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [الحديد: ٢١].

٣٠٩- التائب.. يجد الله غفوراً رحيماً:

قال تعالى في بذل الغفران للتائبين بكرم عظيم: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

قال صاحب «الظلال» في تفسيره الآية: «هذه الآية تفتح باب التوبة على مصراعيه، وباب المغفرة على سعته، وتطمعُ كل مذنب تائب في العفو والقبول.. إنه سبحانه موجود للمغفرة والرحمة حيثما قصده مستغفر منيب. والذي يعمل السوء يظلم نفسه ويظلم غيره، وقد يظلم نفسه وحدها إذا عمل السيئة التي لا تتعدى شخصه.. وعلى أية حال فالغفور الرحيم يستقبل المستغفرين في كل حين ويغفر لهم ويرحمهم متى جاؤوا تائبين.. هكذا بلا قيد ولا شرط ولا حجاب ولا بواب! حيثما جاؤوا تائبين مستغفرين وجدوا الله غفوراً رحيماً»(٣٤٠).

---

(٣٣٩) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٧٩ - ٣٨٠.
(٣٤٠) سيد قطب: في ظلال القرآن ٢/ ٧٥٥.

٣١٠- من تاب من النفاق وغيره من المعاصي ألحق بالمؤمنين المتقين:

قال تعالى في إلحاق المنافقين بالمؤمنين إذا تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا، وإعطائهم مثل جزائهم العظيم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

فالتوبة تنقذهم من الدرك الأسفل من النار(٣٤١) إلى الفوز بجنات النعيم مع المؤمنين قال القرطبي: «إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله» استثناء ممن نافق. ومن شرط التائب من النفاق أن يصلح في قوله وفعله ويعتصم بالله أي يجعله ملجأً ومعاذاً ويخلص دينه لله كما نصت عليه هذه الآية، وإلا فليس بتائب(٣٤٢).

٣١١- كتب على نفسه الرحمة.. فقبل التوبة:

وقال عز وجل مخبراً أن قبول التوبة إنما هو من قبيل الرحمة التي كتبها على نفسه تفضلاً وكرماً وإحساناً: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فكل من عمل السوء بجهالة موعود بهذه الرحمة التي كتبها الله على نفسه - حين يتوب، وهذا وعد بالرحمة والغفران يشمل كل العصاة وكل الذنوب.

---

(٣٤١) جاء في «تفسير روح المعاني»: أي في الطبقة السفلى منها وهو مقرها ولها سبع طبقات تسمى الأولى كما قيل: جهنم، والثانية لظى، والثالثة: الحطمة، والرابعة: السعير، والخامسة: سقر، والسادسة: الجحيم، والسابعة: الهاوية. وقد تسمى النار جميعاً باسم الطبقة الأولى وبعض الطبقات باسم بعض لأن لفظ النار يجمعها. وتسمية تلك الطبقات: دركات، لأنها متداركة متتابعة بعضها تحت بعض - أعاذنا الله منها بلطفه ومنه وكرمه -.. وفي كون المنافقين في الدرك الأسفل من النار إشارة إلى شدة عذابهم.. وإنما كان أشد من غيره لأنه ضم إلى الكفر المشترك استهزاءً بالإسلام وخداعاً لأهله. انظر: الآلوسي: روح المعاني: ٥/ ١٧٧. وانظر في موضوع أن الجنة درجات والنار دركات: القرطبي أيضاً: الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٤٢٥.

(٣٤٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٤٢٦.

قال العلماء: كل من عصى الله فهو في جهالة عامداً كان أو غيره.

قال القرطبي: «أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة» تعم الكفر والمعاصي، فكل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته، قال قتادة: أجمع أصحاب النبي ﷺ على أن كل معصية فهي بجهالة عمداً كانت أو جهلاً (٣٤٣).

وقال صاحب «الظلال»: «فما يذنب الإنسان إلا من جهالة، وعلى ذلك يكون النص شاملاً لكل سوءٍ يعمله صاحبه، متى تاب من بعده وأصلح، ويؤيد هذا الفهم النصوص الأخرى التي تجعل التوبة من الذنب - أياً كان - والإصلاح بعده مستوجبة للمغفرة بما كتب الله على نفسه من الرحمة» (٣٤٤).

٣١٢- المبالغة في الغفران للتائبين:

وأخبر سبحانه عن صفته وهي المبالغة في الغفران في تعامله مع التائبين الذين آمنوا واستقاموا فقال عز وجل: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢].

قال صاحب «الظلال» في تفسيره للآية: «.. إلى جانب التحذير والإنذار - أي الوارد في الآيات التي قبلها - يفتح باب التوبة لمن يخطئ ويرجع. والتوبة ليست كلمة تُقال، إنما هي عزيمة في القلب يتحقق مدلولها بالإيمان والعمل الصالح، ويتجلى أثرها في السلوك العملي في عالم الواقع، فإذا وقعت التوبة، وصح الإيمان، وصدق العمل، فها هنا يأخذ الإنسان في الطريق، على هدى من الإيمان وعلى ضمانة من العمل الصالح، فالاهتداء هنا ثمرة ونتيجة للمحاولة والعمل» (٣٤٥).

٣١٣- الترغيب الشديد وبيان الربح الكبير في التوبة:

وقال سبحانه في الترغيب الشديد وبيان الربح العظيم الذي تأتي به التوبة: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان: ٧٠-٧١].

---

(٣٤٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٩٢.
(٣٤٤) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٢/ ١١٠١.
(٣٤٥) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٤٦.

وسيأتي الكلام عن تبديل السيئات حسنات في موضعه إن شاء الله.

٣١٤- (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات):

وأخبر سبحانه عن انفراده بقبول التوبة والعفو عن السيئات. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٢٥].

قال ابن كثير: «يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا أنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر... كما قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] (ومن يغفر الذنوب إلا الله؟) أي لا يغفرها ويقيهم عقوباتها أحد سواه» (٣٤٦).

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٤].

٣١٥- لا يتعاظمه ذنب أن يغفره للتائبين:

وأخبر سبحانه أنه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب فليس للعبد أن يقنط من رحمته أو ييأس من عفوه عن ذنوبه مهما كانت كثيرة إذا تاب ورجع إلى الصراط المستقيم من قبل أن يخطفه الموت وهو على حال الفسوق والعصيان، قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] أي يغفرها عند التوبة بدليل الأمر بالتوبة في الآية التالية لها: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٤]. والإنابة: هي الرجوع إلى الله بالتوبة.

٣١٦- واجب كل مسلم أن يسارع إلى التوبة:

فحري بالمسلم الكيس أن يسارع إلى التوبة والمغفرة والجنة.. ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٤] فإن الموت يأتي بغتةً، فقد ماتت قبلنا أجيال وأجيال وصاروا تحت التراب ونحن بهم لاحقون، صاروا إلى القبر، أول منازل الآخرة،

---

(٣٤٦) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ١١٤.

منهم التائبون الفائزون قد أقبلوا على رب كريم يحب التوابين، ومنهم أهل التسويف والإصرار الخاسرون قد فوتوا على أنفسهم التوبة وإصلاح الحال مع الله وماتوا على ذلك.

فما أحسن أن نستفيق الآن على قوله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] قبل أن نُفيق راغمين مع أهوال يوم القيامة على قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ [يس: ٦٠-٦٤].

فالكيس من استيقظ من رقدة الغافلين وسعى بهمة ونشاط، يغالب الأيام والليالي في طلب رضوان رب العالمين.

٣١٧- وجه الدلالة على تأكيد وجوب التوبة في الآيات السابقة:

ونعود الآن إلى الآيات التي أوردناها وطلبنا منك أن تقف معها وقفة تأمل.. فنقول: إن هذه الآيات الكريمة وعشرات غيرها في التنزيل العزيز تؤكد الوجوب - وجوب التوبة - كحكم شرعي، الذي ذكرنا صيغهُ في صدر البحث، وتحيط هذا الوجوب بمزيد من العناية والاهتمام. كما أن جميع الصيغ التي وردت في القرآن الكريم والتي فيها استثناء التائبين من العذاب الأليم أو العقاب الشديد في النار اللاحق بالكافرين أو المنافقين أو الفاسقين أو العصاة كقوله تعالى: (إلا الذين تابوا) و قوله تعالى: (إلا من تاب) بعد ذكر عذاب أو عقاب هي جميعاً من الصيغ الدالة على وجوب التوبة أيضاً إذ مفهومها ترتيب استحقاق العقوبة على عدم التوبة، وهي في القرآن كثيرة كما لا يخفى عليك.

فهذا كله يرينا وجوب التوبة وفرضيتها في القرآن وهو ما عقدنا هذا المبحث لإيضاحه. والله المستعان ومنه التوفيق.

المبحث الثاني
وجوب التوبة في السنّة النبوية

٣١٨- السنة النبوية أوجبت التوبة وأكدت الوجوب بالترغيب الشديد:

أمرت السنة بالتوبة من جميع الذنوب، كبائرها وصغائرها، وجعلت ذلك واجباً وفرضاً، واستعملت في ذلك مختلف الصيغ والأساليب الدالة على الوجوب. فتارةً تذكر وجوبها بصيغة الأمر الجازم، وتارةً ترتب الجزاء على ترك التوبة كالرين الذي هو عقوبة دنيوية يفضي إلى عقوبة أخروية، وهذه الصيغ والأساليب تدل على وجوب التوبة، وأن ترك التوبة من أي ذنبٍ، كبير أو صغير، حرام.

ومن جهة ثانية نجد في السنة النبوية مجموعة أخرى كبيرة من الأحاديث الشريفة، بصيغ أخرى، تؤكد على التوبة، فترغب فيها أشد الترغيب، وتغري بالمسارعة إليها، وتذلل كل عقبة من أمامها، وتبين عظيم ثمرتها. وسنفصل ما تقدم في فقرتين على النحو الآتي:

٣١٩- أولا - أدلة وجوب التوبة في السنة النبوية:

في السنة النبوية الشريفة أحاديث كثيرة مستفيضة تدل على وجوب التوبة وأنها على الخلق كافة، وقد وردت بالصيغ التي تدل على الوجوب، نقدم بعضها فيما يأتي:

٣٢٠- الحديث الأول ودلالته:

قوله ﷺ: (يا أيها الناس: توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرةٍ)[٣٤٧].

ففي الحديث الشريف أمر منه عليه الصلاة والسلام بالتوبة وإرشاد لأمته إليه، وصيغته دالة على الوجوب، إذ هي صيغة الأمر الجازم المجردة عما يصرفها عن الوجوب إلى الندب أو الإباحة.

٣٢١- الحديث الثاني ودلالته:

عن معاذ بن جبل قال: قلت: يا رسول الله أوصني قال: (عليك بتقوى الله ما استطعت، واذكر الله عند كل حجر وشجر، وما عملت من سوءٍ فأحدث له توبة، السر

---

(٣٤٧) رواه مسلم (٤٨٧١) واللفظ له، وأحمد (١٧١٧٣) و(١٧١٧٦) و(١٧٥٧٧) و(١٧٥٧٨) و(٢٢٣٩٠).

بالسر والعلانية بالعلانية)[٣٤٨] فقوله ﷺ: (وما عملت من سوءٍ فأحدث له توبة) صيغة أمرٍ مجردة عن الصوارف دالة على الوجوب.

٣٢٢- الحديث الثالث ودلالته:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نُكتت نكتة سوداء في قلبه، فإذا تاب ونزع واستغفر صُقل منها، وإن زاد زادت حتى يُغلف بها قلبه. فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه: «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»)[٣٤٩]، وتمام الآيات: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ [المطففين: ١٤-١٦].

فالحديث الشريف قد رتب العقوبة في الدنيا والآخرة على ترك التوبة فمن تركها ناله من العقوبة الدنيوية والأخروية ما ذكر في الحديث الشريف. وترتيب العقوبة على ترك الفعل دال على الوجوب كما قد بان لك من قبل.

٣٢٣- ثانيا - أدلة الترغيب في التوبة والعناية بها في السنة النبوية:

وإذا ثبت وجوب التوبة بالأحاديث النبوية التي أوردناها - لورودها بصيغة الأمر الجازم من غير قرينة تصرف إلى الندب أو غيره، أو لورودها بصيغة ترتيب العقوبة على ترك التوبة أو غيرها من الصيغ - كانت بعد ذلك كل السنن النبوية الأخرى التي ترغب في التوبة وتحث عليها وتعلق الفلاح بها مقصوداً بها الكلام عن التوبة الموصوفة بالوجوب والتي عُرف وجوبها بما ذكرناه، وتكون هذه السنن - بأية صيغة جاءت - هي في حقيقة الأمر تأكيد لهذا الوجوب وإحاطته بمزيد من العناية والاهتمام واللزوم. والسنن الواردة بذلك والتي تحث على التوبة وترغب فيها وتعلق الفلاح بها وتبين ثمرتها كثيرة جداً، نذكر لك هنا بعضاً منها:

---

(٣٤٨) رواه الطبراني بإسناد حسن. انظر: المنذري: الترغيب والترهيب ٤/ ٩٣ و ٩٤.

(٣٤٩) رواه الترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه، والحاكم واللفظ له من طريقين قال في أحدهما: صحيح على شرط مسلم. انظر: المنذري: الترغيب والترهيب ٤/ ٩٢.

٣٢٤- الحديث الأول:

عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها)(٣٥٠).

٣٢٥- الحديث الثاني:

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، ومن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإذا أقبل إلي يمشي أقبلت إليه أهرول)(٣٥١).

٣٢٦- الحديث الثالث:

وفي الصحيحين عن الحارث بن سويد عن عبد الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجلٍ نزل في أرض دويةٍ مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله تعالى، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته)(٣٥٢).

---

(٣٥٠) رواه مسلم والنسائي. انظر: المنذري: الترغيب والترهيب ٤/ ٨٨ وطلوع الشمس من مغربها إحدى العلامات الكبرى لقرب قيام الساعة وحينذاك يغلق باب التوبة فلا تقبل توبة من الناس وقتئذٍ وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

(٣٥١) رواه مسلم واللفظ له، ورواه البخاري بنحوه. انظر: المنذري: الترغيب والترهيب ٤/ ١٠٤. وهذا الحديث فيه فرح الله بتوبة عبده بإطلاق، والحديث السابق عليه فيه فرح الله بتوبة عبده المؤمن والأحاديث في فرح الله بتوبة عبده متواترة المعنى عنه ﷺ.

(٣٥٢) رواه البخاري ومسلم. انظر: المنذري: الترغيب والترهيب ٤/ ١٠٥.

٣٢٧- الحديث الرابع:

وعن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[٣٥٣].

٣٢٨- الحديث الخامس:

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن عبداً أصاب ذنباً، فقال: يا رب إني أذنبتُ ذنباً فاغفره، فقال له ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً آخر، وربما قال: ثم أذنب ذنباً آخر، فقال: يا رب أني أذنبتُ ذنباً آخر فاغفره لي. قال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً آخر، وربما قال: أذنب ذنباً آخر، فقال: يا رب إني أذنبت ذنباً فاغفره لي. فقال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، فقال ربه: غفرت لعبدي فليعمل ما شاء)[٣٥٤].

٣٢٩- الحديث السادس:

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: (كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون)[٣٥٥].

---

(٣٥٣) رواه ابن ماجة والطبراني ورواة الطبراني رواة الصحيح، ورواه ابن أبي الدنيا والبيهقي مرفوعاً أيضاً. (انظر: المنذري: الترغيب والترهيب ٤/ ٩٧).

(٣٥٤) متفق عليه. انظر: المنذري: الترغيب والترهيب ٤/ ٩١ وقوله: قد غفرتُ لعبدي فليعمل ما شاء، معناه: فليعمل ما شاء ما دام على هذه الحال كلما أصاب ذنباً تاب واستغفر ورجع إلى ربه ولجأ إليه لغفران ذنبه بحيث لا يُصر على الذنب ولا يسوف في التوبة. ويُفهم من قوله: «ثم أصاب ذنباً آخر» أنه ذنب من جنس آخر، والله أعلم - غير الذنب الأول؛ لأنه لم يقل: ثم أصاب الذنب نفسه، وأن توبته عن الذنب الأول هي توبة نصوح صادقة ليس فيها عودة إليه، وحتى على فرض عودته إلى نفس الذنب فقد كان عند التوبة عازماً عزماً صادقاً على عدم العودة إليه، بدليل قوله: « ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً آخر» أي مكث ممسكاً عن المعصية ما شاء الله. وبالجملة فإن حالته هي: أصل واستثناء، فالأصل: المكث ممسكاً عن الذنوب. والاستثناء: هو إصابة الذنب والتوبة منه والاستغفار حالاً. وهذه هي حال المتقين أو من ألحقهم الله بالمتقين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: «والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يُصروا على ما فعلوا وهم يعلمون» .

(٣٥٥) رواه الترمذي (٢٤٢٣) وأحمد (١٢٥٧٦).

٣٣٠- الحديث السابع:

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: (قال إبليس: وعزتك لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني)[٣٥٦].

٣٣١- الحديث الثامن:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أدلكم على دائكم ودوائكم؟ ألا إن داءكم الذنوب، ودواؤكم الاستغفار)[٣٥٧].

٣٣٢- الحديث التاسع:

ورُوي عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ في مسيره فقال: استغفروا الله، فاستغفروا فقال: أتموها سبعين مرة، يعني فأتممناها، فقال رسول الله ﷺ: ما من عبد ولا أمة يستغفر الله في يوم سبعين مرة إلا غفر الله له سبعمائة ذنب، وقد خاب عبدٌ أو أمة عمل في يوم وليلة أكثر من سبعمائة ذنب[٣٥٨].

---

(٣٥٦) رواه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد. انظر المنذري: الترغيب والترهيب ٢/ ٤٦٨.

(٣٥٧) رواه البيهقي (انظر: المنذري: الترغيب والترهيب ٢/ ٤٦٨).

(٣٥٨) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي والأصفهاني. (انظر الترغيب والترهيب ٢/ ٤٧١).

المبحث الثالث
انعقاد الإجماع على وجوب التوبة وأنها على الخلق كافة

٣٣٣- الدليل على انعقاد الإجماع على وجوب التوبة وأنها على الخلق كافة:

أجمع العلماء(٣٥٩) منذ عهد الصحابة إلى يومنا هذا على وجوب التوبة، وأنها فرض متعين على كل مسلم ومسلمة بل على الخلق كافة: الكافر منهم بأن يسلم ويتوب، والمسلم المخلط منهم بأن يتوب مما فرط فيه من فعل محظور أو ترك مأمور كثيراً أو قليلاً، والمؤمن التقي بأن يتوب مما وقع أو يقع منه من الذنوب مهما صغرت، فالخلق كلهم مأمورون بالتوبة على سبيل الوجوب.

قال الغزالي: «والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها - أي التوبة - إذ معناه: العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله، وهذا داخل في وجوب الإيمان.. ولا خلاف في وجوبها ومن معانيها ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال، وذلك لا يُشك في وجوبه»(٣٦٠).

---

(٣٥٩) عرف علماء الأصول الإجماع بأنه: اتفاق المجتهدين من الأمة الإسلامية في عصر من العصور على حكم شرعي بعد وفاة النبي ﷺ. والمقصود بالحكم الشرعي كون الفعل واجباً أو مندوباً أو مباحا أو مكروهاً أو حراماً، وكون العقد صحيحاً أو باطلاً أو فاسداً، وكون العبادة صحيحة أو باطلة ونحو ذلك. فاتفاقهم على الحكم الشرعي من غير خلاف يسمى بالإجماع. ووصفوه بكونه بعد وفاة النبي ﷺ لأن مصدر التشريع الوحيد في عصره هو الوحي الإلهي الذي يبلغه النبي ﷺ كتاباً وسُنةً. وما استند إليه العلماء من دليل شرعي من نص أو غيره يسمى مستند الإجماع. والإجماع حجة شرعية قطعية لا يجوز خرقها أو الاجتهاد في موضع الإجماع أو مخالفته لأنه يمثل سبيل المؤمنين الذي اتفقوا عليه مستندين إلى الدليل الشرعي، ومناقضته أو إنكاره يمثل مشاقةً لله ولرسوله واتباعا لغير سبيل المؤمنين قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]، ولذلك كان الحكم المجمع عليه إجماعاً صحيحاً ثابتاً من المعلوم من الدين بالضرورة يكفر منكره. وهذا معنى قولنا إن التوبة انعقد الإجماع عليها - بناءً على النصوص - على وجوبها وفرضيتها من غير خلاف بين العلماء حكمها في ذلك حكم إجماعهم على وجوب الإيمان والصلاة والزكاة ونحوها.

(٣٦٠) الغزالي: إحياء علوم الدين ٤/ ٥.

وقال القرطبي في الإجماع على وجوب التوبة: «ولا خلاف بين الأمة في وجوب التوبة، وأنها فرض متعين»[٣٦١].

وقال الشوكاني: «وقد اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وذهب الجمهور إلى أنها تصح من ذنب دون ذنب خلافاً للمعتزلة»[٣٦٢].

٣٣٤- وجوب التوبة على الخلق كافة:

وأما كونها واجبة على الخلق كافة وفرض متعين على الجميع فظاهر، فقد أوجبها الشرع على الكافرين ليسلموا ويتوبوا، وإسلامهم توبتهم وعليهم استدامتها واستئنافها بعد وقوع الذنوب وذلك حُسن إسلامهم. وأوجبها على المسلمين: الظالم لنفسه منهم، والمقتصد، والسابق بالخيرات.

فالظالم لنفسه من المسلمين بفعل المحرمات أو بعضها وترك الواجبات أو بعضها، ظلمه لنفسه بقدر ما ضيع من الواجبات واتبع من الشهوات، وعليه أن يتوب من ذلك ويتدارك نفسه بالتوبة قبل أن يخطفه الموت من قبل أن يختم له بعمل أهل النار فيدخلها.

والمقتصد من المسلمين وهو الذي يفعل الواجبات ويكف عن المحرمات عليه أن يتوب من الذنوب السالفة، أو ما يقع في الحاضر من ذنب أو تفريط بواجب والحذر من الموت على سوء الخاتمة بارتكاب كبيرة قد يموت عندها من غير توبة (وإنما الأعمال بالخواتيم)[٣٦٣] كما قال ﷺ.

والسابق بالخيرات من المسلمين عليه أن يتوب مما يقع منه أيضاً من ذنبٍ أو تقصير أو غفلة.

---

(٣٦١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٢٣٨.

(٣٦٢) الشوكاني: تفسير فتح القدير: ١/ ٤٣٨.

(٣٦٣) رواه البخاري في كتاب القدر ٤/ ١٤٥ وهو جزء من حديث وتمامه قوله ﷺ: «إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم».

فلا يوجد في الخلق من يستغني عن التوبة. لأن بني آدم لا يخلو أحد منهم من ذنب أو تقصير يستلزم التوبة. فقد خاطب القرآن بالتوبة النصوح خيرة خلق الله - في المدينة - بعد إيمانهم وهجرتهم وصبرهم وجهادهم وثناء القرآن عليهم، خاطبهم بالتوبة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

قال ابن تيمية: «فالواجبة - أي التوبة الواجبة - هي التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور، وهذه واجبة على جميع المكلفين[٣٦٤]، كما أمرهم الله في كتابه وعلى ألسنة رسله»[٣٦٥] وقال: ولا بد لكل عبد من التوبة وهي واجبة على الأولين والآخرين كما قال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا﴾ [الأحزاب: ٧٣][٣٦٦].

ووجه الاستدلال أن صفة المؤمنين والمؤمنات التوبة كما جاء وصفهم في القرآن، فيتوب الله عليهم، بخلاف المنافقين والمشركين الذين يموتون على حالهم من الشرك أو النفاق.

«فليس لأحد أن يظن استغناءه عن التوبة والاستغفار من الذنوب بل كل أحدٍ محتاج إلى ذلك دائماً قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فالإنسان ظالم جاهل. وغاية المؤمنين والمؤمنات التوبة كما قال تعالى: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [الأحزاب: ٧٣]، وقد أخبر الله تعالى في كتابه بتوبة عباده الصالحين ومغفرته لهم»[٣٦٧].

وليس الواجب فقط هو التوبة بعد وقوع الذنب بل الواجب أيضاً استدامتها واستئنافها والإكثار منها ومن الاستغفار.

---

(٣٦٤) المكلف: هو البالغ العاقل دون غيره من صبي أو مجنون.

(٣٦٥) ابن تيمية: التوبة ص ١٣.

(٣٦٦) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٣١٠.

(٣٦٧) ابن تيمية: الفتاوى ١١/ ٢٥٥.

«فالعبد مأمور أن يتوب إلى الله تعالى دائماً. قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨] وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: (أيها الناس توبوا إلى ربكم فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة) وفي صحيح مسلم عنه ﷺ: (إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة) وفي السنن عن ابن عمر قال: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول: (رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة) أو قال: (أكثر من مائة مرة)[٣٦٨].

وإذا كانت التوبة بهذه الدرجة من الوجوب والتأكيد عليها في الأدلة التي سقناها وأنها فرض عين على الخلق كافة، إضافة إلى ما بيّناه سابقاً من مكانتها وأهميتها، فذلك لأنها أحد الأسباب الرئيسية للتقوى والمحافظة عليها، الأمر الذي له صلة وثقى بتحصيل حسن الخاتمة للعبد حين يموت تقياً تائباً، وتجنيبه سوء الخاتمة، وهذا هو الموضوع الذي سبق أن وعدناك بإلقاء مزيد من الضوء عليه لأهميته وخطورته. وهو موضوع المبحث الرابع القادم إن شاء الله تعالى.

(٣٦٨) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٢٥٣.

المبحث الرابع
أثر التوبة في تحصيل حسن الخاتمة وتجنب سوئها

٣٣٥- التعريف بحسن الخاتمة وسوء الخاتمة :

قد علمت أن حسن الخاتمة: أن يُختم للعبد بالموت وهو يعمل بعمل أهل الجنة، فيموت وهو على حال الإيمان تائباً إلى الله من ذنوبه معتصماً به مخلصاً دينه لله، قائماً بالفرائض مجتنباً الكبائر، قد هُدي إلى صراطٍ مستقيم. ألسنا ندعو الله في كل ركعة صلاة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة ٦] ؟ فذلك من أجل أن نحيا عليه ونموت عليه مسلمين متقين معتصمين بالله تائبين وهو معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] فبذلك يذهب العبد إلى ربه بحسن الختام، مؤمناً قد عمل الصالحات، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧٥-٧٦]. أو يكون قد عمل السيئات ودرجت حياته عليها ثم أدركته رحمة الله فتاب وصار يعمل بعمل أهل الجنة ومات على ذلك.

وأن سوء الخاتمة: أن يُختم للعبد بالموت وهو يعمل بعمل أهل النار، فيختم له بعمل من أعمال الشقاء، يجلب عليه سخط الله تعالى فيحجب عنه توفيقه ساعة الموت فيكون مخذولاً فيتولاه الشيطان في تلك الساعة فيزين له الشك أو الجحود أو ديناً غير الإسلام بمختلف طرق الخداع، فإذا ظفر به الشيطان ذهب العبد إلى ربه على سوء الخاتمة والعياذ بالله، فإن سوء الخاتمة: «هي الموت على الكفر»(٣٦٩).

٣٣٦- قول القرطبي في حسن الخاتمة وسوئها :

قال القرطبي في بيان سوء الخاتمة: قال أبو محمد عبد الحق: اعلم أن سوء الخاتمة أعاذنا الله منها لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سُمع بهذا ولا عُلم به والحمد لله، وإنما تكون:

---

(٣٦٩) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي - فقه شافعي - ٢/ ٤٧٩.

١- لمن كان له فساد في العقل [أي قاده إلى الضلال الاعتقادي أو الفكري عن سبيل الإسلام] أو إصرار على الكبائر، أو إقدام على العظائم فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله.

٢- أو يكون ممن كان مستقيماً [يفعل الفرائض ويكف عن المحرمات] ثم يتغير عن حاله ويخرج عن سنته ويأخذ في غير طريقه فيكون ذلك سبباً لسوء خاتمته وشؤم عاقبته[٣٧٠].

فالأول: معرض عن دين الله مشتغل بدنياه قد فعل السيئات وترك الواجبات وبقي على هذه الحال حتى الموت من غير توبة وكان أمامه أن يتوب فلم يفعل، ومثل هذا يسهل على الشيطان أن يقتلع شجرة إيمانه الهزيلة فيرده عن أصل إيمانه ساعة الموت.

والثاني: عمل بعمل أهل الجنة ثم خرج عن ذلك إلى عمل أهل النار من تركٍ للفرائض أو ارتكاب للكبائر ثم مات قبل أن يتوب من ذلك ويعود إلى الاستقامة، فمثل هذا يسهل على الشيطان ساعة الموت أن يسعى لإزالة أصل إيمانه والعياذ بالله.

وفي ضوء ما تقدم نفهم النصوص الواردة في القرآن والسنة بشأن حسن الخاتمة وسوء الخاتمة، ونبين فيما يلي بعض ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية بشأن حسن الخاتمة وسوئها في فقرتين:

٣٣٧- أولاً - حسن الخاتمة وسوؤها في القرآن الكريم:

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قال ابن كثير: «قال البخاري في تفسير هذه الآية:... عن عبيد الله بن عمير قال: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ - وذكر الآية - قالوا: الله أعلم، فغضب عمر فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها

(٣٧٠) القرطبي: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ٣٦ و ٣٧. وانظر أيضاً: ابن القيم: الجواب الكافي: ١/ ١١٨.

شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ضُربت مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله عز وجل له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله»[٣٧١].

قال ابن كثير: «وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً ثم بعد ذلك انعكس سيرهُ فبدل الحسنات بالسيئات، عياذاً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال فلم يحصل منه شيء، وخانه أحوج ما كان إليه، ولهذا قال تعالى: «وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار» وهو الريح الشديد «فيه نار فاحترقت» أي أحرق ثمارها وأباد شجرها، فأي حال يكون حاله؟»[٣٧٢].

والقرطبي[٣٧٣] - بعد أن ذكر وجهاً آخر لتفسير الآية بأنها مثل ضربه الله للمرائين بالأعمال يبطلها الله يوم القيامة أحوج ما كان إليها، كالجنة التي أصابها إعصار فيه نار فاحترقت ففقدها أحوج ما كان إليها - أورد نفس ما ذكره ابن كثير، وفسر الآية به، وأضاف: وفي رواية: فإذا فني عُمره واقترب أجله ختم ذلك بعملٍ من أعمال الشقاء، وروى أيضاً: أن عمر تلا هذه الآية وقال: هذا مثلٌ ضُرب للإنسان يعمل عملاً صالحاً حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه، عمل السوء.

وجاء في تفسير «أحكام القرآن» لابن العربي المالكي في مسألة العهد مع الله تعالى: «قوله: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ ﴾ [التوبة: ٧٥] قيل: إنه عاهد بقلبه، والدليل عليه قوله: (ومنهم من عاهد الله) إلى قوله: (فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه) وهذا استنباط ضعيف، واستدلال عليه فاسد، فإنه يحتمل أن يكون عاهد الله بلسانه ولم يعتقد بقلبه العهد. ويحتمل أن يكون عاهد الله بهما جميعاً، ثم أدركته سوء الخاتمة، فإن الأعمال بخواتيمها، والأيام بعواقبها»[٣٧٤].

---

(٣٧١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٤٥٩.
(٣٧٢) المرجع السابق والموضع نفسه.
(٣٧٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٣١٨ - ٣١٩.
(٣٧٤) ابن العربي المالكي: أحكام القرآن ٢/ ٥٤٨. وانظر أيضاً: تفسير القرطبي: ٨/ ٢١٠. وتمام الآية قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ =

وجاء في «شرح النيل»: سوء الخاتمة على قسمين:

الأول: الرتبة الهائلة أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله، إما الشك وإما الجحود، فتقبض الروح على حالة غلبة الجحود أو الشك، فيكون ذلك الجحود أو الشك حجاباً بينه وبين الله تعالى وذلك يقتضي البعد الدائم.

والثاني: وهو دون الأول أن يغلب عند الموت حب أمر من أمور الدنيا فيستغرقه فلا يبقى في تلك الحال متسع لغيره، فيتفق قبض روحه في تلك الحال، فيكون قلبه بذلك منكساً إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها، ومهما انصرف الوجه عن الله حصل الحجاب، وربما محا عن القلب هذه الحالة دوامه قبل ذلك على الأعمال الصالحة وتأكده[٣٧٥].

قلت: ومع أن من عمل بعمل أهل النار وكان ذلك خاتمته كان معرضاً لسوء الخاتمة ساعة الموت، وهذا يشمل كل الكبائر، إلا أن هنالك محرمات بعينها نص القرآن أو السنة على أن فاعلها - إن لم يتب - محارب من الله تعالى، كما في الربا وإيذاء أولياء الله، أو أنه يأكل في بطنه ناراً وسيصلى سعيراً كما في أكل أموال اليتامى ظلماً، فقد ذكر العلماء أن هذا علامة على سوء الخاتمة. وفيما يلي بعض الأمثلة على ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر.

قال بعض العلماء بشأن الربا: «هو حيث حرم من الكبائر كالسرقة، وعلامة على سوء الخاتمة كإيذاء أولياء الله تعالى، قالوا: لأن الله لم يأذن بالمحاربة إلا فيهما»[٣٧٦].

وقال الهيتمي بشأن معاداة أولياء الله: «قد قال سبحانه وتعالى على لسان نبيه ورسوله ﷺ: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)[٣٧٧] أي: أعلمته أني محارب له، ومن

= ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

(٣٧٥) محمد بن يوسف أطَّفَيِّش: شرح النيل وشفاء العليل: ١٦/ ٦٣١-٦٣٢.

(٣٧٦) حاشيتا قيلوبي وعميرة - من الفقه الشافعي -: ٢/ ٢٠٨. والنص يشير إلى قوله تعالى بشأن الربا ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، والحديث الصحيح: (من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب) وهو لفظ البخاري (٦٠٢١)، ولفظ أحمد (من أذل لي ولياً فقد استحل محاربتي) ورقمه (٢٤٩٩٧).

(٣٧٧) البخاري (٦٠٢١) واللفظ له، وأحمد (٢٤٩٩٧).

حاربه الله سبحانه وتعالى لا يفلح أبداً، بل قال بعض الأئمة: إن ذلك سبب لسوء الخاتمة والعياذ بالله سبحانه وتعالى. هذا فيمن عادى ولياً فكيف بمن عادى أولياء كثيرين»[٣٧٨].

وجاء في كتاب «الزواجر»: «قال العلماء: ولسوء الخاتمة علامات تتقدم على الموت مثل البدعة؛ ويؤيد ذلك قوله ﷺ: (أهل البدعة كلاب أهل النار في النار). ومثل نفاق العمل، وهو الذي أشار إليه ﷺ بقوله: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم) ولذلك اشتد خوف السلف منه حتى قال بعضهم: لو أعلم أني بريء من النفاق كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»[٣٧٩].

وجاء في كتاب «الزواجر» أيضاً بشأن أكل مال اليتيم الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]: «... والمراد سائر أنواع الإتلاف، فإن ضرر اليتيم لا يختلف بكون إتلاف ماله بأكل أو غيره، وخص الأكل بالذكر لأن عامة أموالهم في ذلك الوقت الأنعام، وهي يؤكل لحمها ويشرب لبنها، أو لكونه هو المقصود من التصرفات، والسعير: الجمر المتقد من سعرت النار أوقدتها، ولشدة الوعيد الذي تضمنته هذه الآية قال ابن دقيق العيد: أكل مال اليتيم مجرب لسوء الخاتمة والعياذ بالله. ومن ثم لما نزلت الآية تحرج الصحابة رضوان الله عليهم وامتنعوا من مخالطة اليتامى حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

ومثل ذلك في ما يكون علامة على سوء الخاتمة موالاة الكافرين ومساعدتهم وتقوية شوكتهم[٣٨٠].

٣٣٨- (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون):

وعلى ذلك يجب أن يحذر المسلم من فعل الكبائر، من تضييع للفرائض أو اقتحام للحدود فيعاجله الموت بغتةً وهو على تلك الحال من غير أن يُمهلَ لإحداث توبة، فإن ذلك سبب لسوء الختام والعياذ بالله، وإنما ينبغي أن يكون على حال الإسلام والتقوى

(٣٧٨) ابن حجر الهيتمي - من فقهاء الشافعية -: الفتاوى الفقهية الكبرى: ٤/ ١٨٢.
(٣٧٩) الهيتمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر: ١/ ٣٧.
(٣٨٠) حاشية ابن عابدين: ٤/ ٢٠٥.

دائماً حتى إذا جاءه الموت أخذه وهو على هذه الحال، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] (٣٨١).

ومعنى: (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) النهي عن مفارقة الإسلام في جميع أوقات حياتهم، وذلك كناية عن ملازمته مدة الحياة، لأن الحي لا يدري متى يأتيه الموت، وهو مطالب أن لا يموت إلا مسلماً، فلزم اتصافه بالإسلام في جميع أوقات الحياة، عاملاً بفرائضه غير مُضيعٍ لها، مجتنباً لمحارمه غير مرتكب لها، أي: فاعلاً للمأمورات وتاركاً للمحظورات فمتى جاءه الموت وجده على هذه الحال (٣٨٢).

قال صاحب «الظلال» في تفسير الآية: «ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون»: «والموت غيب لا يدري الإنسان متى يدركه، فمن أراد أن لا يموت إلا مسلماً فسبيله أن يكون منذ

---

(٣٨١) وتفسير قوله تعالى: «اتقوا الله حق تقاته» كما أورد ابن كثير، والقرطبي، وابن عاشور، ما جاء عن عبد الله بن مسعود قال: اتقوا الله حق تقاته: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر. (انظر: ابن كثير: تفسيره ١/ ٥٥١، والقرطبي: تفسيره للآية، وابن عاشور: تفسيره ٣/ ٣٠ وقال: «والتقوى: اجتناب المنهي عنه في الأعمال الظاهرة والنوايا الباطنة». وقال صاحب «الظلال» في تفسير قوله تعالى: «اتقوا الله حق تقاته»: اتقوا الله – كما يحق له أن يتقى – وهي هكذا بدون تحديد تدع القلب مجتهداً في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها، وكلما أوغل القلب في هذا الطريق تكشفت له آفاق، وجدت له أشواق، وكلما اقترب بتقواه من الله، يتيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ والى مرتبة وراء ما ارتقى، وتطلع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام! (في ظلال القرآن: ١/ ٤٤٢).

(٣٨٢) انظر هذا المعنى: لابن عاشور: التحرير والتنوير ١/ ٧٢٩، وكذلك ابن كثير: تفسيره ١/ ٥٥١، وسيد قطب: في ظلال القرآن ١/ ٤٤٢. والصيغة التي جاءت بها الآية الكريمة هي من أشد صيغ النهي عن مفارقة أحكام الإسلام بمأموراته ومحظوراته وهذا هو الموت عليه، فالآية تعني: الأمر بملازمته في سائر أحيان الحياة فلا يدركهم الموت إلا مسلمين ملتزمين أحكام الإسلام، فهذا معنى النهي: «ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون» ومثالها في أقوالنا أن تقول لأحد: لا أراك بثياب مشوهةٍ، فهو نهي شديد فيه معنى البتات عن الثياب المشوهة وأمر دائم بالثياب الحسنة.

والمعنى: أن لا يكون المسلم على حال من تضييع الفرائض أو ارتكاب المحرمات فيباغته الموت من غير توبة ويأخذه وهو على تلك الحال والعياذ بالله. (انظر مثل هذا المعنى أيضاً في التحرير والتنوير في الموضع المشار إليه).

اللحظة مسلماً، وأن يكون في كل لحظة مسلماً، وذكر الإسلام بعد التقوى يشي بمعناه الواسع: الإسلام لله، طاعةً له، واتباعاً لمنهجه، واحتكاماً إلى كتابه» [٣٨٣].

٣٣٩- ثانيا - حسن الخاتمة وسوؤها في السنة النبوية:

وقد جاء في السنة النبوية بشأن حسن الخاتمة وسوئها مثلما جاء في القرآن الكريم. ففي البخاري، ومسلم (واللفظ له) عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة)[٣٨٤] وفي رواية البخاري: (وإنما الأعمال بالخواتيم). وفي رواية أخرى لمسلم[٣٨٥] أيضاً بشأن الأول: (فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها) وعن الثاني: (فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) فصرح بأثر الخواتيم بدخول الجنة أو النار.

وأورد المنذري[٣٨٦]: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (النادم ينتظر من الله الرحمة، والمعجب ينتظر المقت، واعلموا عباد الله: أن كل عاملٍ سيقدُم على عمله، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حُسن عمله وسوء عمله، وإنما الأعمال بخواتيمها، والليل والنهار مطيتان، فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة، واحذروا التسويف، فإن الموت يأتي بغتةً، ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل، فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله).

وأورد البخاري وغيره حديثاً هو أحد الأمثلة العملية لما تقدم فنقل - بسنده - عن سهلٍ: (أن رجلاً من أعظم المسلمين غناءً عن المسلمين في غزوة غزاها مع النبي ﷺ فنظر النبي ﷺ فقال: من أحب أن ينظر إلى الرجل من أهل النار فلينظر إلى هذا، فاتبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشد الناس على المشركين حتى جُرح فاستعجل الموت

---

(٣٨٣) سيد قطب: في ظلال القرآن ١/ ٤٤٢.

(٣٨٤) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب القدر، ١٦/ ٤٣٨ حديث رقم ١١/ ٢٦٥١ وصحيح البخاري باب القدر ٤/ ١٤٥.

(٣٨٥) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب القدر ١٦/ ٤٢٩.

(٣٨٦) المنذري: الترغيب والترهيب ٤/ ٩٥ وقال: رواه الأصبهاني من رواية ثابت بن محمد الكوفي العابد.

فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه حتى خرج من بين كتفيه، فأقبل الرجل إلى النبي ﷺ مسرعاً فقال: أشهد أنك رسول الله، فقال وما ذاك؟ قال: قلت لفلان من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه، وكان من أعظمنا غناءً عن المسلمين، فعرفتُ أنه لا يموت على ذلك، فلما جُرح استعجل الموت فقتل نفسه، فقال النبي ﷺ عند ذلك: إن الرجل ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم)[٣٨٧].

فالأول: عاصٍ مقيم على العصيان ثم تاب توبة نصوحاً فاستنقذ نفسه من النار ومات على حسن الختام.

والثاني: مسلم يعمل الصالحات ثم غير وبدل وعاجله الموت قبل أن يتوب فمات على سوء الختام والعياذ بالله.

٣٤٠- التمسك بالتوبة ينجي من سوء الخاتمة:

فهذا الذي أوجزناه مستمداً من الكتاب والسنة يريك أثر التوبة العظيم في مصير العبد، وهو يستلزم أن يكون العبد مستعداً دائماً للموت متى جاءه وجده على خير حال: فإما يجده تائباً من ماضٍ آثم قد تاب منه وأصلح فاستنقذ نفسه من النار. وإما يجده تائباً من حال التقصير الشديد المتمثل بترك بعض الفرائض أو فعل بعض المحرمات والتساهل فيها، وإما يجده مؤمناً دأبه الطاعة والامتثال سريع التوبة من تقصيره كثير الإنابة إلى ربه خشية أن يخطفه الموت وهو على حال لا يرضي الله تعالى.

٣٤١- وقفة تفكر وإفاقة:

والآن ما أحسن أن نقف وقفة تفكر لندين أنفسنا قبل أن تُدان، ونحاسبها قبل أن تُحاسب، ونزن أعمالنا قبل أن توزن علينا؟ والفرصة سانحة، والمهلة موجودة لم تفت بعد، والدواء معروض علينا.. والمسألة مسألة مصير.. شقاوة الأبد أو سعادة الأبد؟!

ما أحسن أن نرفق بأنفسنا فلا نظلمها ونشقيها ونخسرها؟، نرفق بها فننجيها من النار ونحرز لها الفوز: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران:١٨٥].

---

(٣٨٧) صحيح البخاري ٤/ ١٤٥ ومعنى غناءً عن المسلمين: أي يغني عنهم في القتال بشدة بأسه على المشركين.

٣٤٢- بعض دعاوى المضيعين للواجبات الشرعية:

ما أحسن أن نكون صادقين في حسابنا مع أنفسنا، لا نُخدرها ونخدعها، ولا نجادل عنها ونوجد لها العذر وهي تضيع الفرائض أو تقتحم المحرمات!!.

فإن كثيراً من الناس يعذرون أنفسهم أو يعتذرون عنها في ترك الفرائض وأركان الإسلام وبخاصة الصلاة فيقولون: إن الأصل في الإنسان حُسن تعامله مع الناس، وأن الأمر ليس بالصلاة والصيام وغيرهما، وإنما الأصل أن يحسن خلقه ولا يعتدي على الناس!!، وهذا يكفي!!.

وما من مُضيع لأركان الإسلام إلا وهذه دعواه، يلقيها الشيطان في قلبه لتظهر على لسانه، فإذا كان ﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ﴾ [الأنعام: ٧١]، أجابهم بهذا الجواب!! تغطيةً لتقصيره وتفادياً لوضع نفسه في موضع المذنب أو المنصوح، وربما أخذته العزة بالإثم فراح يثبت خطأه صواباً وذنبه ثواباً!!، وهذا من أخطر ما يقود صاحبه إلى سوء الخاتمة، إذ يُخدر نفسه ويجادل عنها، وهو بهذا لا يهلك إلا نفسه وهو أحوج ما يكون إلى استنقاذها من النار بتوبة نصوح تُلحقه بالأبرار وتضعه على الصراط المستقيم الذي عموده الصلاة وفعل الفرائض الأخرى وترك المحرمات والتزام أحكام الإسلام كافة.

وإذا كان الفاعل لكبيرة من الكبائر من غير أن يتوب على خطر عظيم يوم القيامة فكيف إذا علم حُكم الشرع بأن من ترك صلاةً واحدةً عامداً بغير عذرٍ حتى خرج وقتها كان مرتكباً لكبيرة من أكبر الكبائر عند جميع علماء الإسلام بدون استثناء وبعضهم حكم بكُفره، فكيف وهي خمس صلوات في اليوم والليلة؟ وما حال من ارتكب خمس كبائر في كل يوم؟ ثم ليحسبها في الأسبوع والشهر والسنة!! هذا إذا سلم من الكبائر الأخرى! وهيهات! ولذلك قال العلماء: إن التوبة من ترك الحسنات (الواجبات) أهم من التوبة من فعل السيئات - مع أهمية الثانية بدرجة كبيرة - فمثل هذا مدعو من الإسلام إلى أن يرفق بنفسه ويرحمها ويستنقذها من النار بتوبة نصوح تجعله من الفائزين ويحظى بحسن الختام.

ومن الأعذار الأخرى أن يعتذر البعض لنفسه أو يجادل عنها بأنه يؤمن بالله ولا يجحده، يؤمن به رباً خالقاً لكل شيء، خلق السماوات والأرض وما بينهما، وأن إيمانه هذا

فيه الكفاية، وأنه هو المهم، هكذا.. يؤمن بالله رباً خالقاً مالكاً ويترك عبادته وطاعته وامتثال أمره ونهيه، ويحيا حياة جاهليةً قوامها ترك الصلوات واتباع الشهوات، فماذا تكون خاتمته - إن لم يتدارك نفسه بتوبة نصوح - إلا كما قال تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، والمشركون أنفسهم لم يكن ينقصهم الإيمان بالله رباً خالقاً لكل شيء فقد كانوا يؤمنون به مثل هذا الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال أيضاً: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩]، ولكن الذي كان ينقصهم: أن يتخذوه إلهاً أي معبوداً يمتثلون أمره ونهيه ويعبدونه بما فرض من العبادات وإطاعته في تجنب المحرمات، وهذا ما لم يفعلوه فكانوا من أصحاب الجحيم، ولم ينفعهم إيمانهم به رباً خالقاً ما داموا لم يتخذوه إلهاً معبوداً مطاعاً، وهذا هو المقصود من خلق الخلق وإرسال الرسل وإنزال الكتب، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وكل رسول أرسله الله لقوم أخبر الله تعالى عنه أنه ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

فصاحب هذه الدعوى إذا لم يرفق بنفسه ويتداركها بتوبة نصوح فإنه سائر بها إلى سوء الختام وموردها موارد الهلكة والندامة، فإن بادر إلى التوبة واستدامها كان كما قال عليه الصلاة والسلام: (وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار وإنه من أهل الجنة... وإنما الأعمال بالخواتيم)[٣٨٨].

٣٤٣- عمل أهل الجنة وعمل أهل النار:

وقد رأيت في الأحاديث الشريفة التي أوردناها بشأن حسن الخاتمة وسوء الخاتمة العبارة النبوية: «عمل أهل الجنة» و «عمل أهل النار» فما هو مضمون كلٍّ منهما إجمالاً؟.

---

(٣٨٨) صحيح البخاري ٦/ ٢٤٣٦ باب العمل بالخواتيم واللفظ له، ومسند أبي عوانة ١/ ٥٥، والترمذي ٤/ ٤٤٦ ومسند أحمد ٥/ ٣٣٥ والطبراني: المعجم الكبير ٦/ ١٤٣ وغيرهم من أهل السنن.

«عمل أهل الجنة»: الإيمان والتقوى بتفاصيلهما. و«عمل أهل النار»: الكفر والفسوق والعصيان، ويجمع ذلك: ضلال العقول وشهوات الغواية.

فيدخل في عمل أهل الجنة: الإسلام، والإيمان، والإحسان. الإسلام: بكل ما جاء فيه من عبادات ظاهرة، من شهادةٍ وصلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد وقراءة القرآن والتزام أخلاق الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من المأمورات، وما جاء فيه من عبادات قلبية كمحبة الله ورسوله ﷺ ودينه والإخلاص لله في الأعمال والأقوال رجاء قبولها والتوكل على الله والإنابة إليه ورجاء رحمته والخوف من عقابه، وذكره ودعائه ومسألته، والصبر لحكمه والشكر لنعمه ونحو ذلك. وبالمقابل الكف عن محارمه من ارتكاب الذنوب على اختلافها كبائرها وصغائرها، والتوبة منها حين يقع شيء من ذلك، وعدم الإصرار على الذنوب. وباختصار: عمل أهل الجنة: فعل المأمورات والكف عن المحظورات طاعةً لله ورسوله ﷺ.

ويدخل في «عمل أهل النار»: الكفر وكراهية ما أنزل الله ومعاداة دينه، أو تضييع أركان الإسلام كلاً أو بعضاً من صلاة وزكاة وصيام وحج، وتضييع شُعب الإيمان.. تضييع الصلوات واتباع الشهوات، وفعل الفواحش وموالاة الكافرين وتعدي حدود الله وظلم حقوق العباد وغير ذلك مما نهى عنه القرآن والسنة، وعدم التوبة من هذه الذنوب فهذه وأمثالها هي «عمل أهل النار» والعاصون يتفاوتون في فعلها كلها أو بعضها، والنار دركات كما أن الجنة درجات.

وهذا الذي ذكرناه إنما هو على سبيل الإجمال والتمثيل، فإذا أردت قاعدة جامعة في ذلك فإنها تتمثل في أن: «أعمال أهل الجنة» كلها تدخل في طاعة الله ورسوله ﷺ، و«أعمال أهل النار» كلها تدخل في معصية الله ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ١٣-١٤].

وقد علمت قبل ذلك قوله تعالى: «ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون» وعلمت أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام: «وإنما الأعمال بالخواتيم» فيلزم العاملين بعمل أهل الجنة أن

لا يغيروا ويبدلوا إلى عمل من أعمال أهل النار ويموتوا على ذلك والعياذ بالله، فإن حصل لهم شيء من ذلك التغيير فدواؤه التوبة من غير تسويف وإبطاء والاستغفار.

والعاملون بعمل أهل النار كله أو بعضه يلزمهم اليقظة والإفاقة والتوبة قبل فوات الأوان، فإن تضييع الفرائض وفعل المحرمات وغير ذلك من عمل أهل النار، إذا مات الإنسان عليه كان طريقاً إلى سوء الخاتمة والعياذ بالله فلا تستهن به فإن الخطب عظيم والخطر جسيم، فبعد الموت تبدو لنا الدنيا وما فيها كأنها كانت ساعة من نهار أو حلماً من الأحلام ودعناه وانتقلنا منه إلى اليقظة والحقيقة، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، ولأنها اليقظة والحقيقة والحياة الدائمة، فالإنسان يومها ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤].

٣٤٤- العاصي الذي لم يتب معرضٌ إلى سوء الخاتمة وإن كان منتسباً إلى الإسلام:

قال الغزالي في بيان أن البقاء على المعاصي والتفريط بالفرائض قد يفضي إلى سوء الخاتمة وإن كان صاحبه منتسباً إلى الإسلام ومعتبراً من أهل القبلة الذين يوجد عندهم أصل الإيمان ويختلفون في الأعمال من مطيع إلى عاصٍ.. قال: «فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان... ومن ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال قريب أن تُقتلع شجرةُ إيمانه إذا صدمتها الرياح المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده، فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه [أي فروع الإيمان إذ تتجسد في أعمال هي فعل الطاعات وتجنب المحرمات لأن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل] لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناحية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة، لا ما يسقى بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت»[٣٨٩].

ثم ضرب مثلاً للمسلم العاصي من أهل التوحيد والقبلة الذي يرفض النصيحة ويجادل عن نفسه ليوجد له العذر، والمؤمن الملتزم بدينه فقال: «وقول العاصي للمطيع إني

---

(٣٨٩) الغزالي: إحياء علوم الدين ٤/ ٧.

مؤمن كما أنك مؤمن، كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر: أنا شجرة وأنت شجرة، وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت: ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار. وسوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار؟ وهذا أمر يظهر عند الخاتمة»[٣٩٠]. والغزالي يقصد أكثر من كون العاصي يموت معرضاً عن الإسلام تاركاً للفرائض مصراً على المعاصي.. فإنه يقصد بكلامه هذا أنه حين الموت قد يحصل له ما يقتلع أصل شجرة الإيمان كلياً فلا يموت على التوحيد، وذلك بما قدمت يداه والعياذ بالله تعالى.

ومن كل ما تقدم يظهر لك أثر التوبة في تحصيل حسن الخاتمة وتجنب سوء الخاتمة، ويظهر لك أنها الدواء الشافي لمن يريد النجاة من النار وبخاصة في عصر الذنوب الذي أصبحت فيه عند الناس كثير من المنكرات معروفاً، وكثير من المعروف منكراً، وقد حذر النبي ﷺ المؤمن إن أدركه ذلك أن يلزم الاستقامة ولا يغتر بكثرة الهالكين، فعن حذيفة بن اليمان قال: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر فجاء الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هدي تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله صِفْهُم لنا. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام، قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)[٣٩١].

٣٤٥- طريق الخلاص:

فالكيس الموفق من انتزع نفسه واستلّها من الأهواء والشهوات والتضييع للواجبات ثم وضعها على الصراط المستقيم بتوبة نصوح، يتوب إلى الله متاباً، ويحافظ

---

(٣٩٠) الغزالي: إحياء علوم الدين: ٤/ ٧.

(٣٩١) صحيح البخاري باب الفتن ٤/ ٢٢٥ وصحيح مسلم: كتاب الإمارة ٦/ ٢٠.

عليها إلى حين يودع هذه الدنيا ذاهباً إلى دار القرار. فإن الزمان قد كثر فيه من الناس تضييع الصلوات واتباع الشهوات والتفرق بالسبل عن سبيل الله والإعراض عن اتباع كتاب الله وسنة رسوله في شؤون الحياة. والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت فتاب توبة تقربه إلى ربه يصير بها إلى الله من السالكين، ولا يغتر بكثرة الهالكين، ولا يقول: حشر مع الناس عيد!! بل يقول كما قال تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] وكما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

فإن العبد إذا لجأ إلى الله وتاب إلى ربه توبة نصوحاً، ورجاه، تولاه الله بولايته وكلأه بعنايته وحفظه بما يحفظ به عباده الصالحين، وألحقه بالمتقين، وجعله ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩].

٣٤٦- الآن وليس غداً.. فلنبادر:

فما أحسن أن يبادر العبد فيقوم الآن، وقد طمع في حسن الختام وطمع أن يُجنبه الله برحمته سوء الختام، وقد تحرك الشوق في قلبه إلى رضوان ربه وغفران ذنبه، وعلم أن الله سائله عن ذنوبه فخاف عاقبتها، وتحرك في قلبه الشوق إلى التوبة التي تلحقه بمن لا ذنب له.. يقوم الآن فيصلي ركعتين هما صلاة التوبة ثم يتضرع إلى الله مستغفراً لقبول توبته وغفران ذنوبه، ثم يعادي الشيطان بعد ذلك بدلاً من صداقته، كما جاء ذلك في الحديث الشريف عن علي ﷺ قال: حدثني أبو بكرٍ وصدق أبو بكر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من رجلٍ يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له)[٣٩٢] ثم قرأ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

---

(٣٩٢) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن: انظر صلاة التوبة في المغني لابن قدامة المقدسي: ١/ ٤٣٨ والمنذري: الترغيب والترهيب: ١/ ٤٧٢ وأضاف فيمن رواه أيضاً: النسائي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه والبيهقي وابن خزيمة في صحيحه.

٣٤٧- توبة ورجاء.. ثم حذر وانتباه:

وما أحسن أن يكون حال التائب مع الله تعالى في رجاء دائم، واعتصام دائم وصلةٍ لا تنقطع كما قال بعضهم يناجي ربه بأبيات [٣٩٣]:

منك أرجو ولستُ أعرفُ رباً ... يُرتجى منهُ بعض ما منك أرجو

وإذا اشتدت الشدائد في الأر ... ض على الخلق فاستغاثوا وعجوا

وابتليت العباد بالخوف والجوع ... وصروا على الذنوب ولجوا

لم يكن لي سواك ربي ملاذ ... فتيقنت أنني بك أنجو

فإذا وُفقت إلى ذلك - وأنت موفق بصدقك إن شاء الله ﷺ - فانتبه إلى ما يخافه عليك رسول الله ﷺ، فوق ما علمتهُ من عمل أهل الجنة وعمل أهل النار، حيث يقول: (إن أخوف ما أخاف عليكم: شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن)[٣٩٤].

شهوات البطون والفروج ومقدماتها وما يدعو إليها، ونعوذ بالله من عدم حفظ البدايات فإنها تفضي إلى سوء النهايات، وشهوات البطون والفروج هي شهوات النفس، فإن النفس - قبل أن تصبح مطمئنةً - تشتهي ظاهر الإثم وباطنه، تشتهي المحرمات وتكسل في الطاعات، فهذا هو العدو الأول، فاحذره وخالفه وطوعه، والعدو الثاني: الشيطان، يزين للنفس شهواتها ويزين للعقل فتنته وضلالته، ويعرف مسارب الهوى والشهوات في النفوس، ويعرف لكل إنسان ما هو أشهى إلى نفسه من أنواع الإثم فيأتيه من طريقه ويوسوس له به، ويضغط عليه من طريقه ليرده عن التوبة والاستقامة، فخالفهُ تفلح، وراغمه تنتصر إن شاء الله.

فأما النفس: فالقرآن حدثنا عنها بأنها أمارةٌ بالسوء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ [يوسف: ٥٣]، وبخاصة في شهوات الغي، وبأنها الظالمة الجاهلة قال تعالى: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. فلا بد للتائب من مخالفتها وتطويعها بما سنشرحه مفصلاً من الوسائل الشرعية العظيمة الفائدة في موضعها من هذا الكتاب إن شاء الله.

---

(٣٩٣) ذكرها القرطبي في تفسيره: الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٢٨٠.

(٣٩٤) الهيتمي: مجمع الزوائد وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

وأما الشيطان: فحريٌّ بمن وُفق للاستقامة والتوبة أن ينتبه إلى غوايته وإضلاله، وأهدافه، التي عرفنا القرآن بها قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

فأخبر القرآن بأن الشيطان عدوٌّ، وخبره الحق والصدق، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] فالواجب على العاقل أن يكون على حذر دائم من هذا العدو الذي أظهر عداوته من زمن آدم، وبذل نفسه وعمره في إفساد أحوال بني آدم واتخاذه ذلك هدفاً وغايةً حين قال لربه سبحانه جل وعز: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]، ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] الآية. و ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣] فأمر الله تعالى بني آدم بالحذر منه، قال تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩] وقال: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

وهذا غايةٌ في التحذير، وفي القرآن مثله كثير، وكله يريك أن له هدفاً ووسائل، فهدفه إيصال بني آدم إلى النار، ووسائله تزيين الشهوات وإضلال العقول، فمن اتبعه وأطاعه ضل وغوى ومن اتبع كتاب ربه وسنة نبيه واتخذ الشيطان عدواً وخالفه وراغمه فاز ونجا، واعتصم واهتدى، واستمسك بالعروة الوثقى.

قال القرطبي: «وكان الفضيل بن عياض يقول: يا كذاب.. يا مُفترٍ، اتق الله ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر!!، وقال ابن السماك: يا عجباً لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته!»(٣٩٥).

---

(٣٩٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٣٢٤.

وستأتيك تفصيلات مهمة بشأن تشخيص وسائل الشيطان وطرقه في الغواية والإضلال في مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

إذاً فالمؤمن التائب ينبغي له أن يحذر من عدو داخلي ذاتي هو النفس وشهواتها، وعدوٍ خارجي هو الشيطان ليحمي إيمانه وتقواه وتوبته مُلتجئاً إلى الله ومتوكلاً عليه ومنيباً إليه ومستعيناً به أن يوزعه فعل الصالحات ويُؤتي نفسه تقواها، ويزكيها بتزكيته كما جاء في الدعاء المشهور: (اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها)[٣٩٦].

وذلك من فضل الله ورحمته قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

٣٤٨- ارتكاب الذنب بنية التوبة بعده:

وهذا أمرٌ مهمٌ جديرٌ بالبيان، وهو أن الشيطان - وهو عدو مُضلٌّ مبين - قد يأتي ويوسوس بخبثٍ فيجعل الإنسان يقول: ما دام باب التوبة مفتوحاً بهذه السعة، ورحمة الله واسعة بهذه الدرجة، وغفرانه مبذول لعباده بهذه الكثرة، وبخاصة للتائبين، فما الضير في أن أذنب اليوم وأتوب غداً والله غفور رحيم! وباب التوبة المفتوح ينتظرني!! وهذا يكثر بصفة خاصة في الذنوب التي هي من قبيل الشهوات.. فاعلم علماً واعياً أن هذا مما يوسوس به الشيطان في صدور الناس يخدعهم لعله يجرهم إلى المزيد ولعلهم يموتون على سوء الخاتمة، وهو عكس المراد بتشريع التوبة تماماً، فإن الله تعالى ما شرع التوبة من أجل أن يذنب التائبون، بل شرعها لكي يتوب المذنبون.. ما شرع التوبة لكي يذنب الأبرار أو الذين صاروا بالتوبة أبرارا، فيذنبون عامدين بنية أن يتوبوا بعدئذٍ، وإنما شرعها لكي يتوب أهل الذنوب، ويعودوا إلى الصراط المستقيم ويلتزموه، ويعتصموا بالله لدفع الذنوب في المستقبل، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

٣٤٩- المرتكب للذنب بنية التوبة بعده غافل عن ثلاثة أمور خطيرة:

والإنسان إذا اقتنع بهذه الوسوسة الموافقة لشهوات النفوس وقبلها واستجاب لها فإنه يكون قد غفل عن ثلاثة أمور:

---

(٣٩٦) النووي: الأذكار ٣٤٧.

٣٥٠- الأمر الأول: أنه قال: أتوب غداً، وغداً لا يملكه!

فقد يموت قبل الذنب أو أثناءه أو بعده وقبل التوبة فيخشى عليه أن يموت وقد أفضى إلى سوء الخاتمة والعياذ بالله إذا كان الذنب من الكبائر.

٣٥١- والأمر الثاني: أنه غفل عن أن السيئة تجر إلى سيئة أخرى:

فإن جزاء الذنب في الدنيا ليس التوفيق للتوبة وإنما جزاؤه: ذنب آخر بعده، فإذا أسرته هذه القاعدة ولم يتداركه الله بتوفيق من عنده، استمر على حاله وازداد، وصارت الذنوب فوق الذنوب وهذا حاصل في الحسنات والسيئات، فإن جزاء الحسنة في الدنيا حسنة بعدها يوفق إليها، وجزاء السيئة سيئة بعدها ففعل الحسنات يهدي إلى مزيدٍ منها ويدعو إليه، وفعل السيئات يجر إلى مزيد منها ويفضي إليه.

قال تعالى في الحسنات جزاؤها الحسنات: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦] وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ٦٦-٦٨] وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال تعالى في السيئات جزاؤها سيئات بعدها: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥] وقال سبحانه: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠] وقال عز وجل: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

وفي السنة النبوية ما يدل على هذه القاعدة: أن الحسنات جزاؤها حسنات أخرى يوفق إليها في الدنيا، وأن السيئات جزاؤها الخذلان والوقوع في سيئات أخرى، فقد جاء

في الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما: (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)[٣٩٧].

فتأمل قوله عليه الصلاة والسلام: (فإن الصدق يهدي إلى البر) وقوله: (فإن الكذب يهدي إلى الفجور) تتضح لك القاعدة التي ذكرناها.

٣٥٢- والأمر الثالث: أنه غفل عن عمى البصيرة ورين القلب الذي تسببه الذنوب:

فإن الذنوب عموماً، وبخاصة الكبائر، تسبب ريناً في القلب ينتج عنه عمى البصيرة، وإذا عميت بصيرته ضعفت أو زالت إرادته للتوبة ورغبته فيها، وتغير الحال عليه، فإذا لم يتداركه الله برحمة منه ويقذف في قلبه نور التنبيه، تغلف قلبه بالرين، قال عليه الصلاة والسلام: (إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نُكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل منها، وإن زاد زادت حتى يُغلف بها قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)[٣٩٨].

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥]: أي ما كان الله ليوقع الضلالة في قلوبهم بعد الهدى حتى يبين لهم ما يتقون فلا يتقوه فعند ذلك يستحقون الإضلال. ثم قال: ففي هذا أدل دليل على أن المعاصي إذا ارتكبت وانتهك حجابها كانت سبباً إلى الضلالة والردى وسلماً إلى ترك الرشاد والهدى[٣٩٩].

والآن وقد انتهينا من الكلام في مشروعية التوبة وحكمها التكليفي، وقبل ذلك عرفنا فضلها ومكانتها في الإسلام، ننتقل إلى الكلام عن أركان التوبة التي بها توجد وبها تكون توبة صحيحة، وهو موضوع الفصل الثالث القادم إن شاء الله تعالى.

---

(٣٩٧) متفق عليه: البخاري (٢٦٢٩) ومسلم (٤٧٢١) واللفظ له، والترمذي (١٨٣٤) وأبو داود (٤٣٣٧)، وابن ماجة (٤٥)، وأحمد (٣٤٥٦) والدارمي (٢٥٩٩) وغيرهم.

(٣٩٨) رواه الترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه، والحاكم واللفظ له من طريقين قال في أحدهما: صحيح على شرط مسلم (انظر الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٩٢).

(٣٩٩) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٢٧٧.







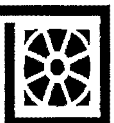
الفصل الثالث

أركان التوبة

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: الندم على ما فرط العبد في جنب الله تعالى.
- المبحث الثاني: الإقلاع عن الزلة أو الذنب وتركه في الحال.
- المبحث الثالث: العزم على عدم العودة للذنب في المستقبل.
- المبحث الرابع: التحلل من حقوق الغير.





الفصل الثالث

أركان التوبة

٣٥٣- تمهيد وتقسيم:

قد بان لك من خلال التعاريف التي ذكرها العلماء للتوبة، أنها: رجوع العبد إلى الله تعالى نادماً على ذنبه، ومُقلعاً عنه في الحال، أي تاركاً له، وعازماً على أن لا يعود إليه في المستقبل، خوفاً من عقاب الله عز وجل، أو حياءً منه، سبحانه، وطلباً لعفوه ومغفرته.

فأركان التوبة إذاً في الأصل ثلاثة، هي: الندم، والإقلاع، والعزم.

وهذه الأركان الثلاثة، هي أركان التوبة في كل ذنب لا يتعلق به حق الغير أو ظلم الغير، بل هي ذنوب بين العبد وربه لا صلة للغير بها، كترك الصلاة، أو شرب الخمر، أو الزنا، أو النظر الحرام، أو اللمس الحرام، أو السماع الحرام، ونحوها.

فإن تعلق الذنب بظلم العباد، أُضيف إلى ذلك ركن رابع هو: التحلل من حقوق الغير، وذلك كالسرقة وأكل أموال الناس بالباطل، أو الغيبة، أو القتل، أو الضرب، ونحو ذلك مما سنفصل القول فيه فيما بعد.

وعلى ذلك يكون مجموع أركان التوبة التي سنبحثها أربعة:

أحدها: الندم على ما فرط العبد في جنب الله تعالى.

وثانيها: ترك الزلة أو الذنب في الحال.

وثالثها: العزم في القلب على أن لا يعود إليه.

ورابعها: التحلل من حقوق الغير.

فمتى وجدت هذه الأركان كنا أمام توبة صحيحة مكتملة الأركان وبعض العلماء يسميها شروط التوبة، وقد رجحنا تسميتها «بالأركان» لأنها جزءٌ من حقيقة التوبة وماهيتها[٤٠٠]، منها تتكون، وبها توجد.

فلا يتصور وجود التوبة من غير ندم، فإنه إذا لم يكن نادماً على الذنب فهو راض به، ومن ثم فليس بتائب.

ولا يتصور وجودها من غير ترك الزلة حالاً لأنه إذا لم يتركها فهو مقيم على المعصية، مصر عليها.

ولا يتصور وجودها من غير عزمٍ على عدم العودة إلى الذنب لأنه إذا كان عازماً على العودة للذنب فليس بتائب ولا نادم.

---

(٤٠٠) يفرق علماء الأصول بين الركن والشرط، فالركن: هو ما كان جزءاً من حقيقة الشيء وماهيته، والشرط: ما كان خارجاً عن حقيقة الشيء وماهيته، وإن استويا في توقف وجود الشيء عليهما. فالركوع ركنٍ في الصلاة لأنه جزء من حقيقتها، والوضوء شرط للصلاة لأنه خارج عن حقيقتها وكلٌّ من الركوع والوضوء يتوقف عليهما وجود الصلاة، وكذلك في عقد النكاح مثلاً: الصيغة - وهي الإيجاب والقبول أي الكلامان الصادران من المتعاقدين - ركن في العقد لأنها، أي الصيغة، جزء من حقيقة العقد، بينما الشاهدان شرط فيه، وقد يوجد الشاهدان ولا يعقد نكاح بينما إذا وجدت الصيغة الموجبة للعقد وجد العقد وإذا انعدمت انعدم العقد. فهذا هو الفرق بين الركن في الشيء والشرط فيه.
لذلك عرفوا الشرط بأنه: ما يتوقف وجود الشيء على وجوده وكان خارجاً عن حقيقته ولا يلزم من وجوده وجود الشيء ولكن يلزم من عدمه ذلك الشيء (انظر هذا التعريف في الوجيز في أصول الفقه لأستاذنا د.عبد الكريم زيدان ص ٤٧). وبخصوص موضوعنا «التوبة» فإن ما عددناه في المتن كله داخل في حقيقة التوبة وماهيتها، منه تتكون وبه توجد، لذلك سميناها «أركاناً»، اللهم إلا الركن الرابع وهو: التحلل من حقوق الغير فإنه على التفصيل الذي سنشرحه يتسع لأن يُعد شرطاً لتمام التوبة لا ركناً فيها، ولذلك فمن العلماء من عدهُ ركناً ومنهم من عدهُ شرطاً آخر ملحقاً بالتوبة، ومنهم من عده واجباً مستقلاً لابد من الوفاء به لتمام التوبة لا لوجودها، ومع هذا فقد رجحنا عدهُ ضمن الأركان لمعانٍ ستتبين لك عند شرحه إن شاء الله. وبناء على ما تقدم فإن كلام بعض الفقهاء عن هذه الأركان تحت مسمى شروط التوبة هو كلام فيه نوع من التسامح، والله أعلم.

وأيضاً لا تكون التوبة من ظلم الغير في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم إلا بالتحلل من تلك المظالم، ورد تلك الحقوق، وإلا بقي حقهم يطالبون به الظالم لهم يوم القيامة، فمن أجل ذلك عددنا ما تقدم، أركاناً في التوبة، منها تتألف، وبها توجد.

٣٥٤- تعليل الاقتصار على الأركان الأربعة:

ومع أن التوبة لا يتصور وجودها أيضاً من غير أن يكون الباعث عليها هو الخوف من الله أو الحياء منه جل جلاله، لأنه لو ترك الذنب لعدم القدرة عليه مثلاً فليس بتائب، فيصلح أن يكون ذلك ركناً في التوبة، إلا أن ذلك معلوم ضمناً من مفهوم الركن الأول الذي يفهم منه أنه نادم خوفاً من الله تعالى أو حياء منه، أي أنه نادم لسبب ديني. ومن جهة أخرى فإن النية هي في الحقيقة ركن في جميع الأعمال الصالحة وليست مختصة بالتوبة، ونحن اقتصرنا على الأركان التي تميز التوبة، مع أننا سنبحث بالتفصيل موضوع أن يكون سبب التوبة والدافع إليها سبب ديني لتتحقق التوبة، وذلك في المباحث اللاحقة.

٣٥٥- تفسير الآية الجامعة لأركان التوبة في مختلف التفاسير:

وآيات القرآن الواردة في التوبة والاستغفار من الذنوب كثيرة في كتاب الله العزيز - وقد مرت بك طائفةٌ منها - ولكن ألصقها ببيان أركان التوبة مجتمعةً هي التي في سورة آل عمران، فتأملها، وهي قوله جل ثناؤه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦] [(٤٠١)].

فإن هذه الآية الكريمة تضمنت: الندم على الذنب خوفاً من الله أو حياء منه، والإقلاع عنه، والعزم على عدم العودة إليه، ولذلك رأينا أن نجعل من تفسير هذه الآية الكريمة، وفهمها فهماً تفصيلياً، تمهيداً ضرورياً للدخول في أركان التوبة.

---

(٤٠١) (آل عمران: ١٣٦) قال القرطبي في تفسيرها: رتب تعالى بفضله وكرمه غفران الذنوب لمن أخلص في توبته ولم يُصر على ذنبه. (انظر: تفسير القرطبي: ٤/ ٢١٥).

٣٥٦- أقوال المفسرين في تفسير الآية الجامعة لأركان التوبة:

٣٥٧- أ- أقوال المفسرين في سبب نزول الآية:

ذكر القرطبي[٤٠٢]، والآلوسي[٤٠٣]، وغيرهما في سبب نزول الآية: «أن رجلين، أنصارياً وثقفياً، آخى رسول الله ﷺ بينهما فكانا لا يفترقان، فخرج رسول الله ﷺ في بعض مغازيه، وخرج معه الثقفي، وخلف الأنصاري في أهله وحاجته، فكان يتعاهد أهل الثقفي، فأقبل ذات يوم، فأبصر امرأة صاحبه قد اغتسلت وهي ناشرة شعرها، فوقعت في نفسه، فدخل ولم يستأذن حتى انتهى إليها فذهب ليلثمها، فوضعت كفها على وجهها فقبل ظاهر كفها، ثم ندم واستحيا فأدبر راجعاً، فقالت: سبحان الله تعالى، خنت أمانتك، وعصيت ربك، ولم تصل إلى حاجتك. قال: وندم على صنيعه فخرج يسيح في الجبال ويتوب إلى الله تعالى من ذنبه، حتى وافى الثقفي فأخبرته أهله بفعله، فخرج يطلبه حتى دُل عليه، فوافقه ساجداً وهو يقول: رب ذنبي، ذنبي، قد خنت أخي، فقال له: قم يا فلان فانطلق إلى رسول الله ﷺ فاسأله عن ذنبك لعل الله تعالى أن يجعل لك فرجاً وتوبة، فأقبل معه حتى رجع إلى المدينة وكان ذات يوم عند صلاة العصر نزل جبريل عليه السلام بتوبته فتلا: (والذين إذا فعلوا فاحشة) إلى قوله تعالى: (ونعم أجر العاملين) فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله أهذا الرجل خاصة أم للناس عامة؟ فقال ﷺ: بل للناس عامة»[٤٠٤].

وفي رواية عطاء عن ابن عباس - في سبب نزول الآية -: أن نبهان التمار أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمراً فضمها إلى نفسه وقبلها ثم ندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ وذكر له ذلك فنزلت هذه الآية[٤٠٥].

وقال القرطبي أيضاً في سبب نزول الآية: «وروي عن ابن مسعود أن الصحابة قالوا: يا رسول الله كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا حيث كان المذنب منهم تصبح عقوبته مكتوبة على باب داره وفي رواية كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره: اجدع أنفك،

(٤٠٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٠٩.
(٤٠٣) الآلوسي: روح المعاني ٤/ ٥٩.
(٤٠٤) الآلوسي: تفسيره، روح المعاني ٤/ ٥٩.
(٤٠٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٠٩، والآلوسي: روح المعاني ٤/ ٥٩.

اقطع أذنك، افعل كذا، فأنزل الله تعالى هذه الآية توسعة ورحمة وعوضاً من ذلك الفعل ببني إسرائيل»(٤٠٦).

والمفسرون يدورون حول هذه الأسباب الثلاثة لنزول الآية الكريمة فبعضهم يذكرها كلها وبعضهم يقتصر على بعضها، وقد لخص ذلك صاحب «تفسير زاد المسير» فقال: « ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦]. قوله تعالى: (والذين إذا فعلوا فاحشة)، في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن امرأة أتت إلى نبهان التمار تشتري منه تمراً فضمها وقبلها ثم ندم فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس.

والثاني: أن أنصارياً وثقفياً آخى النبي ﷺ بينهما فخرج الثقفي مع النبي ﷺ في بعض مغازيه فكان الأنصاري يتعهد أهل الثقفي... [وذكر القصة كما أوردها القرطبي وغيره].

والثالث: أن المسلمين قالوا للنبي ﷺ بنو إسرائيل أكرم على الله منا كان أحدهم إذا أذنب أصبحت كفارة ذنوبه مكتوبة في عتبة بابه، فنزلت هذه الآية، فقال النبي ﷺ: ألا أخبركم بخير من ذلك، فقرأ هذه الآية والتي قبلها»(٤٠٧).

وأخرج الترمذي عن عطاف بن خالد أنه قال: بلغني أنها لما نزلت صاح إبليس بجنوده، وحثا على رأسه التراب ودعا بالويل والثبور حتى جاءته جنوده من كل بر وبحر، فقالوا: نفتح لهم باب الأهواء فلا يتوبون ولا يستغفرون ولا يرون إلا أنهم على الحق فرضي منهم بذلك(٤٠٨).

٣٥٨- ب - ما قاله المفسرون في تفسير الآية وتضمنها لأركان التوبة :

فقوله تعالى: (والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم) قيل في تفسيره: الفاحشة: الكبائر. وظلم النفس: الصغائر. وقيل: الفاحشة: كل ما يشتد قبحه من

---

(٤٠٦) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢١٠.

(٤٠٧) تفسير زاد المسير: ١/ ٤٦١-٤٦٢.

(٤٠٨) الآلوسي: روح المعاني ٤/ ٥٩ والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢١٠.

المعاصي والذنوب وتقال لكل خصلة قبيحة من الأقوال والأفعال، وكثيراً ما ترد بمعنى الزنا. وأصل الفحش مجاوزة الحد في السوء أو الفساد، وظلم النفس: الذنب مطلقاً، وذكره بعدها من قبيل ذكر العام بعد الخاص[٤٠٩].

وقوله تعالى: (ذكروا الله) هو ذكر القلب، وهو ذكر ما يجب لله على عبده وما أوصاه به، أي ذكر أمره ونهيه ووعده ووعيده[٤١٠].

ومعناه أيضاً: ذكره بالخوف من عقابه والحياء منه، وذكر العرض الأكبر على الله. وقيل معناه: تفكروا في أنفسهم وأن الله سائلهم عنه[٤١١].

قلت: والحق أن المعنى يعم ذلك كله.

وقوله تعالى: (فاستغفروا لذنوبهم) أي طلبوا المغفرة لأجل ذنوبهم[٤١٢].

ولما كان طلب غفران الذنب، والصفح، وعدم المؤاخذة عليه، لا يصدر إلا عن ندامة، ونية إقلاع عن الذنب وعدم العودة إليه، كان الاستغفار في لسان الشرع بمعنى التوبة، إذ كيف يطلب العفو عن الذنب من هو مستمر عليه أو عازم على معاودته؟[٤١٣].

قال القرطبي: قال علماؤنا: الاستغفار المطلوب هو الذي يحل عقدة الإصرار ويثبت معناه في الجنان (القلب) وليس مجرد التلفظ باللسان، فأما من قال بلسانه أستغفر الله وقلبه مصر على معصيته - التي يستغفر بشأنها - فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار[٤١٤].

فأما مع الندم والعزم على ترك الذنب فالاستغفار عظيم وثوابه جسيم، وهو مع التوبة أداتها، فإن التوبة أداتها الاستغفار. والاستغفار مع عدم تذكر ذنب معين يستغفر عنه هو ذكرٌ من الأذكار العظيمة يمحو الله به عن العبد ما يعلم من ذنوبه وما لا يعلم، وسيأتي تفصيله في موضعه المناسب إن شاء الله.

---

(٤٠٩) انظر هذه المعاني وغيرها في القرطبي: تفسيره ٤/ ٢١٠، وابن عاشور: التحرير والتنوير: ٤/ ٩٢، والآلوسي: روح المعاني ٤/ ٥٩.

(٤١٠) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٤/ ٩٢.

(٤١١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢١٠.

(٤١٢) المرجع السابق: بنفس الموضع.

(٤١٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٤/ ٩٢.

(٤١٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢١١.

وقوله تعالى: (ومن يغفر الذنوب إلا الله) أي ليس أحد يغفر المعصية ويزيل عقوبتها إلا الله [٤١٥].

قال القرطبي في تفسيره: «وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه، قال علماؤنا: وقد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم في الدين ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] جل وعز، وجعلوا لمن أذنب أن يأتي إلى الحبر أو الراهب فيعطيه شيئاً ويحط عنه ذنوبه ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٠]» [٤١٦].

وقوله تعالى: (ولم يُصروا على ما فعلوا) الإصرار: هو المقام على الذنب [٤١٧] وعدم الإقلاع عنه، فمعنى: (لم يصروا) أي لم يقيموا أو غير مقيمين على الذي فعلوه من الذنوب فاحشةً كان أو ظلماً [٤١٨].

والإصرار: يستعمل شرعاً بمعنى الإقامة على القبيح من غير استغفار ورجوع بالتوبة [٤١٩].

قال ﷺ: (ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون) [٤٢٠].

وعن ابن عباس موقوفاً: (كل ذنب أصر عليه العبد كبير، وليس بكبير ما تاب عنه العبد) [٤٢١].

---

(٤١٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢١١.
(٤١٦) المرجع السابق ١/ ٣٢٥.
(٤١٧) المرجع السابق ١/ ٣٢٥.
(٤١٨) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٤/ ٩٢.
(٤١٩) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٤/ ٩٢.
(٤٢٠) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٠٨ وقال عن الحديث تفرد به أحمد وكذلك رواه البخاري في الأدب المفرد عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ «ويل للمصرين» من غير الزيادة.
(٤٢١) الآلوسي: روح المعاني ٢/ ٦٢.

وقوله تعالى: (وهم يعلمون) أي يعلمون سوء فعلهم، وعظم غضب الرب، ووجوب التوبة إليه، وأنه تفضل بقبول التوبة فمحا بها الذنوب الواقعة[٤٢٢].

وقال صاحب «الظلال»: «أن لا يصروا على ما فعلوا (وهم يعلمون) أنه الخطيئة، وأن لا يتبجحوا بالمعصية من غير تحرج ولا حياء.. وبعبارة أخرى أن يكونوا في إطار العبودية لله، والاستسلام له في النهاية، فيظلوا في كنف الله وفي محيط عفوه ورحمته وفضله»[٤٢٣].

فهذا الذي أوجزناه هو مجموع المعنى الذي تدور حوله أقوال المفسرين. ومنه يبدو أن الآية الكريمة قد جمعت أركان التوبة جميعاً.

فقوله تعالى: (فاستغفروا لذنوبهم) يشير إلى «الندم» على ما وقع من ذنب أو خطيئة، فاحشةً أو ظلماً.

وقوله تعالى: (ولم يصروا على ما فعلوا) يشير إلى «تركه» في الحال «والعزم» بالقلب على عدم العودة إليه فهذه ثلاثة أركان: الندم والإقلاع والعزم.

وقوله تعالى قبل ذلك: (ذكروا الله) - بالخوف من عقابه أو الحياء منه - يشير إلى الباعث الذي حرك العبد إلى الندم والإقلاع والعزم. فانتظمت الآية الكريمة الأركان جميعاً حين يكون الذنب لا يتعدى شخص المذنب من فاحشةٍ فعلها أو ظلم لنفسه ارتكبه.

فأما حين يتعدى شخصه إلى ظلم العباد - وهو داخل في ظلم النفس لأنه بظلمه العباد ظلم نفسه إذ جر عليها العقاب وحرمها الثواب -.. نقول.. حين يتعدى الذنب شخصه إلى ظلم العباد فإن قوله تعالى: (ولم يصروا على ما فعلوا) يستلزم تدارك حقوق الغير التي ظلمها، وذلك بالتحلل من حقوق الغير، وهو ركن في التوبة أيضاً، وبعضهم عده واجباً مستقلاً في بعض الذنوب على نحو ما سنفصله عند الكلام عن الأشياء التي يتاب منها وكيفية التوبة منها في باب قادم إن شاء الله تعالى.

---

(٤٢٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٤/ ٩٣.

(٤٢٣) سيد قطب: في ظلال القرآن ١/ ٤٧٦.

٣٥٩- بعد تفسير الآية.. شرح أركان التوبة:

وبعد هذا الإيضاح والتفسير لمعنى الآية الكريمة، يحسن أن نذكرك بأن التنزيل العزيز قد تضمن عشرات الآيات التي تتكلم عن التوبة، وتعطي تفاصيل أحكامها، وأن وجه اختيارنا لآية واحدة هو كونها اجتمع فيها بيان أركان التوبة جميعاً، فاخترناها وتفسيرها تمهيداً يعطي فكرة عن أركان التوبة لغرض الدخول الآن بعون الله في شرح حقائق تلك الأركان وتفصيل القول فيها في أربعة مباحث متتالية مبتدئين بأهم ركن في التوبة وهو: الندم.

المبحث الأول
الركن الأول: الندم على ما فرط العبد في جنب الله

٣٦٠- تقسيم البحث:

نتناول في هذا المبحث بيان الندم بوصفه الركن الأهم في التوبة مقسمين الكلام عنه إلى مطلبين:

نبحث في أولهما: في حقيقة الندم والباعث عليه.

ونخصص الثاني: للكلام عن الأسباب التي تستجلب الندم إلى القلب من أجل أن تتحقق التوبة.

المطلب الأول
حقيقة الندم والباعث عليه

٣٦١- إجماع العلماء على أن الندم الركن الأساس في التوبة وبيان مستنده:

أجمع العلماء على أن الندم هو الركن الأساس في التوبة، لا تكون التوبة بدونه، فمن لم يندم على ذنبه خوفاً أو حياءً من ربه فليس بتائب.

ومستند هذا الإجماع: القرآن الكريم والسنة النبوية. فمما جاء في القرآن الكريم الآية التي شرحناها سابقاً، وهي قوله تعالى في وصف المتقين أو من ألحقهم الله بالمتقين بسبب توبتهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. فاستغفارهم - وهو طلب المغفرة - يشير إلى الندم الحاصل في القلب بسبب ذكرهم لله، وأنه سائلهم عن ذنوبهم ومجازيهم بها، فندموا على ما فرطوا وجاؤوا يطلبون العفو والمغفرة نادمين على ما حصل منهم من ذنوب.

وليس كل ندم مقبول، بل المطلوب شرعاً للتوبة أن يكون الندم خوفاً من الله أو حياء منه، وأن يكون بدرجة كافية لكي يورث (الإقلاع) و (العزم)، وقد ورد في القرآن الكريم نموذج للندم غير المعتبر فإن الله تعالى أخبر عن ابن آدم الذي قتل أخاه فقال عنه: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]، هذا وهو من أصحاب النار كما قال تعالى حكاية

عن أخيه المقتول: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ﴾ [المائدة: ٢٩]، وقد بين ابن العربي المالكي في تفسيره ذلك فقال: «... لكن الندم له شروط، فكل من جاء بشروطه قبل منه، ومن أخل بها أو بشيء منها لم يقبل [قلت: وأهمها أن يكون الندم خوفاً من الله أو حياء منه وليس لسبب آخر]، الثاني: أن معناه ندم ولم يستمر ندمه، وإنما يقبل الندم إذا استمر [قلت: أي كلما ذكر الذنب تجدد عنده الندم عليه]. الثالث: أن الندم على الماضي إنما ينفع بشرط العزم على ألا يفعل في المستقبل»(٤٢٤).

وقال القرطبي: « (فأصبح من النادمين) حيث رأى إكرام الله لهابيل بأن قيض له الغراب حتى واراه، ولم يكن ذلك ندم توبة، وقيل: إنما ندمه كان على فقده لا على قتله، وإن كان فلم يكن موفياً شروطه، أو ندم ولم يستمر بندمه، قال ابن عباس: ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبة منه» (٤٢٥) أي: لو كانت ندامته على قتله بوصفه ذنبا - وليس على فقده بوصفه خسارة - لكان ندمه من قبيل التوبة، ولكنه لم يكن كذلك.

وجمع صاحب تفسير «زاد المسير» معظم أقوال المفسرين في تفسيرهم لقوله تعالى: (فأصبح من النادمين) فقال: «قوله تعالى: (فأصبح من النادمين)، فإن قيل: أليس الندم توبة فلم لم يقبل منه؟ فعنه أربعة أجوبة:

أحدها: أنه يجوز أن لا يكون الندم توبة لمن تقدمنا، ويكون توبة لهذه الأمة لأنها خصت بخصائص لم تشارك فيها. قاله الحسن بن الفضل .

والثاني: أنه ندم على حمله لا على قتله.

والثالث: أنه ندم إذ لم يواره حين قتله.

والرابع: أنه ندم على فوات أخيه لا على ركوب الذنب» (٤٢٦).

٣٦٢- الندم الصحيح يورث (الإقلاع) و (العزم):

والندم إذا حصل في القلب على ما فرط من الذنب فإنه يورث صاحبه أمرين:

---

(٤٢٤) ابن العربي المالكي: أحكام القرآن ٢/ ٨٧-٨٨.

(٤٢٥) تفسير القرطبي: ٦/ ١٤٢.

(٤٢٦) زاد المسير: ٢/ ٣٣٩.

الإقلاع عن الذنب.
والعزم على عدم العودة إليه.
ولذلك جاء في الحديث الشريف: (الندم توبة)[٤٢٧].

٣٦٣- تعريف الندم وبيان حقيقته :

والندم: انفعال القلب بالأسى والحسرة والحزن بسبب ما وقع من ذنب، خوفاً من سوء عاقبته عند الله، أو حياءً من الله، وعلامته: طول الحسرة، وخنق العبرة، أو انسكاب الدموع، والتفكر بحزنٍ فيما وقع من ذنب، أو التفكر بحزنٍ فيما ذهب من العمر وضاع في سخط الله وغضبه.

٣٦٤- الندم وآثاره عند الكيلاني:

أو هو بعبارة أخرى: توجع القلب عند علمه بفوات محبوبه، فتطول حسرته وأحزانه وبكاؤه ونحيبه وانسكاب عبراته، فيعزم على أن لا يعود إلى مثل ذلك لما تحقق عنده من العلم بشؤم ذلك، وأنه أضر من السم القاتل، والسبع الضاري، والنار المحرقة، والسيف القاطع، لأن (المؤمن لا يُلسع من جحر مرتين)[٤٢٨] فيهرب ضرورةً من المعاصي كما يهرب من هذه المضار والمهالك[٤٢٩].

٣٦٥- الندم وعلامته عند الغزالي:

أو هو - أي الندم - بعبارة الغزالي: « توجُع القلب عند شعوره بفوات المحبوب [وهو رضوان الله المفضي إلى الجنة والمنقذ من النار]، وعلامة توجع القلب: طول الحسرة، والحزن، وانسكاب الدمع، وطول البكاء والفكر. فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه. وأي عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأي مخبرٍ أصدق من الله

---

(٤٢٧) رواه ابن حبان في صحيحه، وروى نحوه الحاكم وقال: صحيح الإسناد. انظر الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٩٧و٩٨.
(٤٢٨) ولفظ الحديث في الجامع الصغير: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» رواه الإمام أحمد في مسنده واتفق عليه البخاري ومسلم ورواه أبو داود وابن ماجة.
(٤٢٩) عبد القادر الكيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل ٢/ ٥٥٨.

ورسوله؟.. فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى، فعلامة صحة الندم: رقة القلب وغزارة الدمع»[٤٣٠].

٣٦٦- عناصر الندم عند ابن تيمية:

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والندم يتضمن ثلاثة أشياء: اعتقاد قبح ما ندم عليه، وبغضه وكراهته، وألم يلحقه عليه»[٤٣١].

٣٦٧- اختلاف شدة الندم باختلاف اليقظة:

وقد ذكرنا سابقاً أن ندم النادمين على ذنوبهم يختلف باختلاف يقظتهم، فمن نادم ذرفت عيناه الدموع على ما وقع منه من الذنوب بحق علام الغيوب، يتقطع قلبه أسىً وحسرةً، ويتطلع إلى السماء بضراعة الملهوف، راجياً من العزيز الغفار أن يغفر زلته، ويقبل عثرته، ويرحم دمعته، ويحفظه بقية عمره بما يحفظ به عباده الصالحين، إلى نادم آخر ندماً أقل من ذلك ولكنه ندم كافٍ لحصول الإقلاع عن الزلة في الحال، والعزم على عدم العودة إليها في الاستقبال، خوفاً أو حياءً من الله تعالى، وكلاهما توجد به التوبة الشرعية الصحيحة، والأول أفضل.

٣٦٨- عدم الندم على الذنب سببه كثافة الحجب أو موت القلب:

ومن لم يحصل له الندم على المعاصي والذنوب بل داوم عليها من غير إحساس بخطرها عليه وضررها له في الآخرة ومن غير تدارك لحاله فسبب ذلك كثافة الحجب التي على القلب، أو موت القلب بالكلية، و «ما لجرح بميت إيلام» ومصداق ذلك قوله ﷺ فيما رواه البخاري وغيره: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذبابٍ مر على أنفه)[٤٣٢].

فتلك يقظة القلب، وهذا موت القلب.

٣٦٩- أسباب إشفاق المؤمن من الصغائر إضافة إلى الكبائر:

والمؤمن يشفق من الصغائر إضافة إلى الكبائر، وتولد عنده ندماً لمعرفته بعظمة من عصاه، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ومعرفته أن الكرام الكاتبين يكتبون كل حسنة وسيئة، ولا يفوتهم شيء، وأن ما فعله من فاحشةٍ أو ظلم لنفسه قد

---

(٤٣٠) الغزالي: إحياء علوم الدين ٤/ ٣٠.

(٤٣١) ابن تيمية: رسالة في التوبة: ١/ ٢٤٨.

(٤٣٢) صحيح البخاري (٥٨٣٣)، والترمذي (٢٤٢١) وأحمد (٣٤٤٦) و (٣٤٤٨).

علمه الله، وكتبه كاتب الشمال، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، وقال: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩]، وأن الله سائله عنه يوم القيامة، وأن الكتاب الذي يوضع يوم القيامة ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وأن الشهود سيشهدون عليه: ستشهد عليه الملائكة، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] ويشهد السمع والبصر والجلد، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت: ٢٠-٢١].

٣٧٠- المعرفة الإيمانية.. ومحاسبة المؤمن نفسه نادماً:

فكل هذه المعرفة الإيمانية تجعل العبد يزن الذنب بأنه ورطة تورط بها، فيقول في نفسه: ليت الذي كان مني لم يكن.. أهكذا من أجل شهوة ساعة أو إجابة هوى نفس أو عرضٍ زائل.. من أجل دنيا فانية زائلة ظلمت نفسي وعرضتها للعقاب الأليم في نيران الجحيم، وعرضتها لفوات الفوز العظيم في رضوان الله وجنات النعيم.. فكيف بي في ذلك اليوم العظيم: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [الطور: ٩-١٠]، ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة: ٤-١١]، ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

روي عن النبي ﷺ أنه أتى على شابٍ في الليل يقرأ: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، فوقف الشاب، وخنقته العبرة، وجعل يقول: ويحي من يوم تنشق منه السماء ويحي!! فقال النبي ﷺ : (ويحك يا فتى مثلها، فوالذي نفسي بيده لقدْ بكت ملائكة السماء لبكائك)(٤٣٣).

---

(٤٣٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٧٦.

هكذا يقول من له هذه المعرفة الإيمانية.. كيف بي حين أرى الدنيا التي حملتني الذنوب والأوزار كانت ﴿ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أو ﴿ سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ [يونس:٤٥] ؟!!.

وكيف بي ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وكيف بي ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وكيف بي – وقد عصيت – والنبي ﷺ وهو أكرم الخلق على الله تعالى يقول: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥].

وكيف ندامتي حين أرى بعيني من خدعني يُحملني المسؤولية وحدي؟؟: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم:٢٢].

وكيف بي يوم أرى عياناً صدق ما أخبر الله به: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٥-٨٦] .

وكيف حالي حين يُخرج لي كتاب أعمالي ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

وماذا ينفعني رفقاء الشهوة والخطيئة والضلال، والله عز وجل حذرني فقال: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

وعن من أكتم ذنبي، وماذا أقول لربي، والحال يوم القيامة للعاصين: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥].

وأين أين أختبئ من ربي حين يجيء يوم الجزاء؟ وماذا تنفعني الندامة والذكرى يومئذ: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ [الفجر:٢١-٢٤].

وماذا يكون حالي وقد عصيت الله ورسوله ﷺ إن لم يشأ ربي أن يرحمني وينجيني؟ وهو يقول: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

أفلا أقول لنفسي: يا نفس، أما تفقهين قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت: ٤٠] فكيف دأبت على المعاصي والذنوب؟.

ألم تسمعي بأعظم إنذار في الوجود: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨].

ألم تسمعي التحذير العظيم: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

ألم تسمعي التحذير الذي تنخلع له القلوب: ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ [المعارج: ١١-١٦].

ألم تعلمي صفة المؤمنين ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور:٣٧] وقولهم: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان:١٠] وقوله الله تعالى عنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد:٢١].

أعجزتُ أن أندم وأتوب فأكون من الأبرار الذين قال الله فيهم: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وقال فيهم: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وأي نجاة عظيمة تُفوتها علي ذنوبي حين يعطى المؤمنون الأنوار ليعبروا بها الصراط وأجد نفسي بلا نور في الظلمة الحالكة فأنادي المؤمنين مستغيثاً: ألم أكن معكم؟ قال تعالى: ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤].

وأي مصير عظيم قد عرضت نفسي للحرمان منه، قد رغبني فيه ربي فأعرضت عنه بذنبي، رغبني فيه قائلاً: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٥-٥٨].

فهذا وأمثاله يدل على يقظة القلب ويولد ندماً شديداً عند العبد على ما فرط منه من ذنوب فيسارع إلى التوبة والتدارك.

٣٧١- البصيرة تورث الندم وطلب التدارك:

وبقدر ما يكون للعبد من بصيرة في معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله، وبصيرة في الأمر والنهي والحلال والحرام وتعظيمهما، وبصيرة في اليوم الآخر وأهواله، يكون ندمه على الذنوب والخطايا التي اقترفها وطلبه لتداركها، فالمؤمن يخشى ربه ويخاف ذنبه، وتسره حسنته ويفرح بها، وتسوؤه سيئته ويشفق منها، ويخاف من ذنوبه كأنها جبال يخاف أن تقع عليه.. وبعد التوبة وحسن الإيمان والصلاح يكره أن يعود في الكفر والمعاصي كما يكره أن يقذف في النار، قد حبب الله إليه الإيمان وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، فإذا وقع في معصية فإن ذلك يؤلمه أشد الألم، وعلمه ويقظته وحياة قلبه تورثه سريعاً حالة الندم، فيرجع إلى ربه بالتوبة والإنابة.

قال طائفة من السلف منهم سعيد بن جبير: إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار. وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة.. يعمل الحسنة فيعجب بها ويفخر بها حتى تدخله النار(٤٣٤)، ويعمل السيئة فلا يزال خوفه منها وتوبته منها حتى تدخله الجنة(٤٣٥).

---

(٤٣٤) لأن الرياء يحبط العمل ويبطله فيحبط عمله وهو لا يدري حتى إذا جاء يوم القيامة جاء مفلساً من الحسنات فاعلاً لسيئات لم يتب منها فيدخل النار.

(٤٣٥) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٢٩٤.

٣٧٢- في القرآن الكريم نموذج لندم المؤمنين على ذنوبهم:

وفي القرآن والسنة نماذج لندم المؤمنين على ذنوبهم وبخاصة إذا كانت من الكبائر.

فقد وصف القرآن حال الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك[٤٣٦] بلا عذر، ووصف ندمهم الذي دام خمسين يوماً ثم نزلت آيات توبة الله عليهم. قال تعالى في وصف ندمهم: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨].

هكذا.. ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فلم تعد رحبة، ولم يعد شيء في الدنيا كلها يؤنسهم، بل صارت الدنيا وما فيها موحشةً ضيقة.. وفوق هذا ضاقت عليهم أنفسهم، فذهب انشراح الصدر وحالة الفرح والرضا، وحل مكانه وحشة الإساءة وحصر الجناية.. فإلى أين يلجؤون وقد ضاقت الدنيا وضاقت النفس؟ وهم موقنون أنه لا ملجأ من الله لأحد.. لا ملجأ عند غيره وهو آخذٌ بأقطار السماوات والأرض.. لا ملجأ إلا إليه مُفرج الكروب ومزيل الغم والحزن عن القلب الخائف المحزون، وكل أحدٍ تخافه تهرب منه إلا الله فإنك حين تخافه تهرب إليه، وهذا بعض معنى قوله ﷺ: (اللهم لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك).. ثم يجيء الفرج: ثم تاب عليهم من هذا الذنب إنه هو التواب الرحيم، قال صاحب «الظلال»: «تاب عليهم من هذا الذنب الخاص ليتوبوا توبة عامة عن كل ما مضى، ولينيبوا إلى الله إنابة تامة في كل ما سيأتي»[٤٣٧].

المطلب الثاني

الأسباب الجالبة للندم

٣٧٣- الأسباب الخمسة الجالبة للندم:

والندم يجيء من خمسة أشياء هي أسباب حصوله في القلب:

---

(٤٣٦) ستأتي قصة توبتهم مفصلة في موضعها المناسب إن شاء الله

(٤٣٧) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣/ ١٧٣٢

أحدها: تعظيم الأمر والنهي الإلهي.

والثاني: تعظيم الآمر وهو الله تعالى.

والثالث: تعظيم الجناية، أي استعظامها وعدم التقليل من شأنها.

والرابع: معرفة العدو، وهو الشيطان الرجيم.

والخامس: التصديق بالجزاء مع حضوره في القلب.

فإذا اجتمعت هذه الأسباب الخمسة في القلب وجد أشد الندم وأعظمه وإذا نقص منها نقص من الندم بقدر تأثيره.

ونظراً لكون هذه الأسباب مفضية إلى الندم، ونظراً لكون الندم خوفاً من الله تعالى أو حياء منه، هو جوهر التوبة وركنها الأساس، فقد رأينا أن نبين هذه الأسباب بشيء من التفصيل في الفقرات التالية:

٣٧٤- شرح الأسباب الخمسة الجالبة للندم:

٣٧٥- السبب الأول - تعظيم الأمر والنهي الإلهي:

والمقصود: الأمر والنهي الإلهي والنبوي: (من يطع الرسول فقد أطاع الله)، فالإنسان إما أن يستقبله باهتمام بالغ فيعظم حرمات الله ويعظم شعائر الله، ويعظم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وإما أن يستقبل الأمر والنهي باستهانة ولا مبالاة، فالأول حي القلب، والثاني ميت القلب.

قال تعالى في الأول: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢]، وقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج:٣٠]، وقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨]، فذلك بسبب حياة القلب. وهؤلاء هم الذين يقولون للأمر والنهي الإلهي: سمعنا وأطعنا. فإذا خالفوه، خالفوا أمراً عظيماً يُجلونه ويُعظمونه ويحبونه ويعتزون به ويفتدونه بأرواحهم، فيُحدث لهم ذلك ندماً شديداً وحسرةً وحزناً على ما فعلوا.

وقال تعالى في الثاني: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢-٣]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ

أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، وقال: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [النحل: ١٠٨].

وهؤلاء هم الذين يكون حالهم مع الأمر والنهي الإلهي: سمعنا وعصينا. وهم إذ يخالفون الأمر والنهي الإلهي فإن هذه المخالفة لا تُحدث في قلوبهم ندماً، لأن الشيء الذي خالفوه ليس موضع تعظيم وإجلال حقيقي وليس موضع محبةٍ حقيقية تُترك من أجلها كل المحاب والشهوات المحرمة، فلذلك لا يحصل الندم عند المخالفة والعصيان.

فالمعظم للأمر والنهي إذا سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣] استجاب ولم يخالف، أو سمع قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢][٤٣٨] استجاب ولم يقرب، أو سمع قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ﴾ [النور: ٣٠] استجاب وامتثل. وإذا سمعت المؤمنة قوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ ﴾ [النور: ٣١] استجابت وامتثلت، أو سمعت قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ﴾ [الأحزاب: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ ﴾ [النور:٣١] استجابت وأطاعت، وصاغت لباسها وسلوكها وفقاً للأمر، فأخفت مفاتنها، وتركت هوى نفسها، واستجابت لأمر ربها، ولم تستقبله بالاستهانة أو عدم المبالاة.

وهكذا فكل من خالف أمراً يعظمه في قلبه تعظيماً حقيقياً ويجله ويقدسه ويحبه ويعتز به، حزن على مخالفته له، وندم وتألم مما بدر منه من مخالفة، ثم بعد الندم ترك المخالفة والعصيان.

فهذا هو السبب الأول الذي يجلب الندم.

٣٧٦- السبب الثاني - تعظيم الآمر وهو الله تعالى :

فبقدر عظمة الله جل جلاله في نفس العبد يحذر مخالفة أمره ونهيه، ويندم على ذلك. وبقدر بصيرته في معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله يكون تعظيمه له.

---

(٤٣٨) جاء في لسان العرب (ج: ١٤ ص: ٣٥٩): «الزنا يمد ويقصر، زنى الرجل يزني زنى مقصور، زناء ممدود...».

فإذا علم العبد علماً حاضراً في قلبه في كل وقت، أنه يتعامل مع فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، الملك القدوس، رب العرش العظيم، الذي لا يعزُب عن علمه مثقال ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض، العليم بذات الصدور، الذي يعلم السر وأخفى، علم أنه يعامل من لا يغفل، ويخالف من لا يجهل، ويعصي من رجوعه إليه، ومصيره بين يديه، وأنه حين ارتكب المعاصي والذنوب فإن الله من فوقه حاضر ناظر سامع شهيد، سواء أكان الذنب: صلاةً تركها أو فرائض ضيعها، أو فاحشةً فعلها، أو شهوةً اتبعها، أو ضلالاً مشى فيه، أو ظلماً ركبه..

ومع هذا، فبستره ستره، وبحلمه أمهله، ولم يعاجله بالعقاب رحمةً به.. هذا مع تواتر نعمه عليه، وإحسانه إليه، خلقاً ورزقاً وسمعاً وبصراً وفؤاداً، فإذا به يعصيه بنفس نعمه عليه، ويعرض عنه وهو أحوج شيء إليه.

أعلمه أنه أكرم الأكرمين. وأنه أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة، وأرسل إليه رسوله ﷺ لكي يقوده إلى الجنة، وأنزل عليه كتابه ويسره للذكر والفهم والعمل، وأعانه بمددٍ من جنده الكرام يثبتونه ويحرسونه، ويطردون عنه عدوه الشيطان، بشرط أن لا يميل إليه ويفتح له أبواب نفسه وشهواتها، وهو يأبى إلا أن يظاهره عليهم، ويواليه دونهم، بل يظاهر ويوالي الشيطان من دون وليه الحق رب العالمين الذي خلقه وكرمه وأسجد ملائكته له وهو في صلب أبيه آدم وطرد إبليس من سماواته بسببه وأعلمه أنه عدوه، فإذا به يواليه من دون خالقه المنعم عليه بأعظم أجناس النعم، فبئس الولي وبئس البدل قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

قال ابن القيم مبيناً شأن الرب - سبحانه - في الإحسان، وشأن العبد في المخالفة والعصيان: دعاه إلى بابه فما وقف عليه ولا طرقه، ثم فتحه له فما عرج عليه ولا ولجه، أرسل إليه رسوله يدعوه إلى دار كرامته فعصى الرسول.. لم يزل يتمقت إليه بمعاصيه حتى أعرض عنه وأغلق الباب في وجهه[٤٣٩].

---

(٤٣٩) أي باب القرب ما دام على هذه الحال معرضاً لأن القرب بالطاعات والبعد عن المعاصي.

ومع هذا فلم يؤيسه من رحمته بل قال: متى جئتني قبلتك إذا جئتني ليلاً قبلتك. وإن جئتني نهاراً قبلتك. وإن تقربت مني شبراً تقربت منك ذراعاً. وإن تقربت مني ذراعاً تقربت منك باعاً. وإن مشيت إلي هرولت إليك. ولو لقيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً أتيتك بقُرابها مغفرة. ولو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك. ومن أعظم مني جوداً وكرماً؟

عبادي يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلأهم على فرشهم. إني والجن والإنس في نبأ عظيم: أخلق ويُعبد غيري. وأرزق ويُشكر سواي. خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد. أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي.

من أقبل إلي تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني ناديته من قريب. ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد. ومن أراد رضاي أردت ما يريد. ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد.

أهل ذكري أهل مجالستي. وأهل شكري أهل زيادتي. وأهل طاعتي أهل كرامتي. وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي. إن تابوا إلي فأنا حبيبهم، فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ابتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب.

من آثرني على سواي آثرته على سواه. الحسنة عندي بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. والسيئة عندي بواحدة، فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له.

أشكر اليسير من العمل. وأغفر الكثير من الزلل. رحمتي سبقت غضبي. وحلمي سبق مؤاخذتي. وعفوي سبق عقوبتي. أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها...[٤٤٠].

فإذا كان هذا بره وإحسانه ولطفه وكرمه ومنته وفضله ورحمته العظيمة الواسعة ونعمته. فمن أولى من الله بالحب؟، إن من له أدنى قدر من الوفاء سيجد قلبه ساجداً لربه سجدةً لا يقوم منها إلى يوم اللقاء! محبةً له، وخشيةً منه، ورجاءً لرحمته وتعظيماً وتسبيحاً بحمده.

---

(٤٤٠) معظم ما ورد من عبارات ابن القيم هنا مستقى من الأحاديث القدسية التي قالها النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى.

هذا وهو الغني عن أهل سماواته وأرضه الذي له الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة، الذي ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣] ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

وبقدر ما يتوغل العبد في معرفة الأسماء والصفات والآلاء والنعماء يجد نفسه غارقاً في نعم الله، وكلما طالع آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، آياته المشهودة في الكون، وآياته المتلوة في الكتاب، ازداد محبة لربه، وخشية له، وخوفاً من ذنبه وندماً وأسفاً عليه.. فيبقى إحساسه بين مطالعة منة الله عليه وهو الغني عنه ومشاهدة تقصيره هو في حق ربه ومخالفته له وهو المحتاج إليه، فيبكي ندماً على خطيئته في حق ربه عز وجل، فهذا هو السبب الثاني الذي يورث الندم.

٣٧٧- السبب الثالث - تعظيم الجناية:

والجناية مجموع ما جنته يد الإنسان من ذنوب، وتصدق على الذنب الواحد أيضاً فيسمى جناية، وقد ذم القرآن من نسي ما قدمت يداه من الذنوب، قال عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ ﴾ [الكهف: ٥٧]، وامتدح النبي ﷺ من استعظم ذنوبه وجعل ذلك حالاً للمؤمن فقال ﷺ فيما رواه البخاري: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا)[٤٤١].

وفي رواية الترمذي: (.. كذباب وقع على أنفه قال به هكذا فطار)[٤٤٢]، والمراد بتعظيم الجناية بوصفه واحداً من الأسباب الجالبة للندم: أن لا يستصغر الذنب، فإن من استصغر الذنب لم يندم عليه ومن عظم الذنب في نفسه تألم منه وأرقه وندم عليه. وهذا له صلة بما تقدم من تعظيم الأمر، وتعظيم الآمر، قال بعض العارفين: لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر إلى عظمة من عصيت!!

---

(٤٤١) صحيح البخاري (٥٨٣٣) والترمذي (٢٤٢١) وأحمد (٣٤٤٦) و (٣٤٤٨)

(٤٤٢) أخرجه الترمذي (٢٤٢١)، وأحمد (٣٤٤٦) و(٣٤٤٨).

ومن نظر هذا النظر عظمت عنده مخالفته لربه عز وجل حتى في الذنب الصغير، وإذا التفت ونظر هذا النظر وهو نظر إلى الحقيقة كما هي من غير تغافلٍ عنها وتناسٍ لها، عظمت عنده ذنوبه، فإذا علم أن طائفة أخرى مما فعله أو قاله لم يكن يظنها ذنوباً، هي ذنوب، وطائفة أخرى نسيها لبعد عهده بها، عظمت مصيبته وطالت حسرته واشتد ندمه وطلب التدارك، وليس شيئاً كالتوبة وسيلة عظمى للتدارك.

وإذاً، فالمؤمن لا يستصغر الذنب الواحد، ولا يستصغر أو ينسى مجموعة الذنوب، وهذا هو الذي قصدناه بتعظيم الجناية، لا يستصغر الذنب الصغير فيفعله أو يترك التوبة عنه، فإن الصغيرة مع الإدمان والإصرار كبيرة، لذلك قال العلماء: «لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار».

وفي الحديث الشريف عن سعد بن جنادة ﷺ قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من حنين، نزلنا قفراً من الأرض ليس فيها شيء، فقال النبي ﷺ: (اجمعوا - يعني حطباً - ، من وجد شيئاً فليأت به، ومن وجد عظماً أو سناً فليأت به)، قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً. فقال النبي ﷺ: (أترون هذا؟ فكذلك تجتمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا، فليتق الله رجل فلا يذنب صغيرة ولا كبيرة فإنها محصاة عليه)[٤٤٣]. وهذا التشبيه النبوي يتضمن التمثيل للذنوب الصغيرة لا يعبأ بها الإنسان، فإذا هي يجتمع منها الشيء الكثير الذي يكفي لأن تشتعل به النيران.

وفي الحديث الشريف أيضاً قوله ﷺ: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما كان يظن أن تبلغ به ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله بها سخطه إلى يوم يلقاه)[٤٤٤].

أما إذا وصل الأمر إلى الكبائر، فإن المعظم للجناية يخاف ليس فقط من مفاجأته بالكثرة التي ما كان يحسب لها حساباً كما في المحقرات من الذنوب اجتمعن عليه، ولكن

(٤٤٣) المنذري: الترغيب والترهيب ٣/ ٣١٢ وفي الباب عدد من الأحاديث الشريفة في معناه، تحذر من محقرات الذنوب.

(٤٤٤) رواه الإمام مالك في الموطأ، والترمذي وقال: حسن صحيح. انظر رياض الصالحين ص ٤٣٠.

أيضاً يخاف من آثارها، فإن لها آثاراً وخيمة على إيمانه، وعلى حال قلبه، وعلى مستقبل صلته بربه.

وفي ذلك يقول ابن تيمية: ومعلوم أن من حافظ على الصلوات بخشوعها الباطن وأعمالها الظاهرة وكان يخشى الله الخشية التي أمره بها فإنه يأتي بالواجبات ولا يأتي كبيرةً. ومن أتى الكبائر - مثل الزنا أو السرقة أو شرب الخمر وغير ذلك، فلا بد أن يذهب من قلبه تلك الخشية والخشوع والنور، وإن بقي أصل التصديق في قلبه، وهذا من الإيمان الذي يُنزع عند فعل الكبيرة كما قال النبي ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن)(٤٤٥).

ثم علل ذلك بما يفهم منه أن فاعل الكبيرة الذي لم يتب، قد تولى الشيطان وآخاه، والقرآن يقول عمن يتولى الشياطين ويؤاخيهم بفعل المحظورات: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]. فتمدهم الشياطين في الغي ثم لا يقصرون، قال ابن عباس: لا الإنس تُقصر عن السيئات ولا الشياطين تمسك عنهم. وهذا بعكس حال المتقين الذين قال عنهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. فهؤلاء يبصرون ويرجعون إلى الحق، وأولئك لا يبصرون، فإذا لم يبصروا بقي القلب في الغي والشيطان يمده في غيه وإن كان التصديق في قلبه لم يكذب، فذلك النور والإبصار وتلك الخشية والخوف والخشوع يخرج من قلبه - فلا تعظم في عينه الجناية - وهذا كما أن الإنسان يغمض عينيه فلا يرى شيئاً وإن لم يكن في الأصل أعمى، فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق وإن لم يكن في الأصل أعمى كعمى الكافر لوجود أصل التصديق(٤٤٦). وهذا بعكس حال التقوى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩] أي يمنحكم قدرة وملكةً على التمييز بين الحق والباطل، والهدى والضلال بسبب تقواكم.

ومما يسبب استصغار الذنوب أيضاً عند كثير من الناس أنه لا يحاسب نفسه بميزان صحيح، فلذلك تصغر ذنوبه في عينيه، وتكثر حسناته في عينيه وهي ليست كذلك.

---

(٤٤٥) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٣١.

(٤٤٦) انظر مثل هذا المعنى في مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٣٢.

فلو علم ناسُ يحسبون كل صلاتهم لهم قوله ﷺ : (إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها)[٤٤٧]. وعن ابن عباس: (ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها)، لعلموا أنهم على خطر كبير حين يضيفون إلى ذلك كثيراً من الصغائر، يدمنون عليها، ولا يتوبون ويستغفرون عنها، فتكون كبيرة مع الإصرار، كالنظر المحرم، واللمس المحرم، والقول المحرم، والسماع المحرم، وغيرها، أو يضيفوا كبيرة أو كبائر ثم لم يتوبوا عنها، كعقوق الوالدين، أو تعامل بربا، أو تضييع صلاة، أو فعل فاحشة، ونحوها.

ولو علمت المرأة أن ذنبها عظيم حين كشفت ما حرم الله كشفه من جسدها، أو لبست من الثياب ما يشف أو ما يصف، وأنها إذا كان الناظر إليها نظراً محرماً يأثم معها مرةً واحدة بهذا النظر، فإنها آثمةٌ في اليوم الواحد مائة مرة، أو ألف مرة، بسبب ألف ناظر تسببت في نظرهم، والمتسبب في إثم مشارك في الوزر حسب قواعد الشريعة. فإذا اجتمعت هذه الآثام عظُمت مصيبتها، فإن كانت تُعظم الجناية ولا تستصغر الذنب طالت حسرتها، وخنقتها عبرتها، وانسكبت دموعها، وندمت وتابت، وإن كانت لا تبالي بذلك لم تندم، فظهر أن تعظيم الجناية سبب للندم، وهو السبب الثالث فيما أوردناه.

٣٧٨- السبب الرابع - معرفة العدو:

العدو الذي زين الخطيئة ورغب فيها حتى وقع المسلم فيها، فإذا علم أن المزين للخطيئة والإثم هو عدوه الشيطان، الذي يريد به الغدر، ويقدم له العسل مسموماً خداعاً وغدراً، يريد هلاكه في الآخرة مع الهالكين بتزوده بالذنوب بدلاً من زاد التقوى، لأنه آلى على نفسه أن يفعل ذلك ببني آدم الذين بسببهم طرده الله من سماواته وأهبطه أسفل سافلين ولعنه إلى يوم الدين - وقد مر بك هذا موضحاً بالآيات - .. نقول إذا عرف المؤمن عدوه، وعرف عن نفسه أنه كان ضحية سهلة له، وأنه بعد الذنب يضحك منه ويريد إيقاعه في المزيد، ندم على ذلك وآلمه أن يكون فريسةً لعدوه. وفي الوقت الذي كان مطلوباً منه أن يجعل من عدوه مطية له كما قال ﷺ : (إن المؤمن لينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره).. نقول: بدلاً من ذلك حصل العكس!

---

(٤٤٧) رواه أبو داود (٦٧٥) والنسائي وابن حبان في صحيحه، انظر الترغيب والترهيب للمنذري ١/ ٣٤١.

فإذا عرف عدوه المضل المبين، وأنه خدعه بالتزيين والإضلال، وأمره بالسوء والفحشاء، وجعله يظلم نفسه ويعرضها للهلاك، ندم على ما جرى وأخذ الحيطة والحذر من عدوه. وإذا لم يعرفه هذه المعرفة بقي غافلاً إلى حين يجيء إلى ربه للحساب يوم القيامة فهنالك يعض أصابع الندم حين يعرفه وجهاً لوجه. قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٩] فماذا ينفع الندم يومئذٍ؟ فلو عرفه الآن كما عرفه له القرآن، لندم أنه تابعه وأطاعه، وندم أنه أوقع نفسه أسيراً بين يدي عدوه، ولتاب إلى ربه وأناب.

فهذا هو السبب الرابع في حصول الندم في القلب.

٣٧٩- السبب الخامس - التصديق بالجزاء مع حضوره في القلب:

فبقدر تصديقه بالجزاء يوم القيامة، وحضوره في قلبه حضوراً فعالاً، يكون ندمه على ذنوبه، وهذا من أعظم الأسباب الجالبة للندم على الذنوب.

لأنه بهذا التصديق يعلم يقيناً أن ما أخبر الله تعالى به، وأخبر رسوله، من مجازاة المطيعين برضوان الله والفوز بجنات النعيم، ومجازاة العاصين بسخط الله والهلاك المقيم في نيران الجحيم.. يعلم يقيناً أن هذا حق وصدق غير قابل للشك فيه قيد شعرة، وأنه صائر إلى أحد المصيرين بعد انقضاء الامتحان.. امتحان الدنيا الذي أمده أيامه ولياليه والذي هو معرض لانتهائه في أي لحظة، فإذا علم ذلك علم اليقين أيقن أن الذنوب والمعاصي التي فعلها من فعل المحظورات وترك الواجبات هي طريقه إلى النار فعظمت مصيبته، فإنه لو أخبره طفل صغير أن عقرباً على ثيابه تراه يبادر سريعاً إلى التفتيش عنها لإزالتها عن ثيابه ومن غير أن يطالب بالدليل، وهذا خبر طفلٍ، فكيف والمخبر بالآخرة والجزاء هو الله رب العالمين؟ ومن أصدق من الله حديثاً؟ وكيف والمخبر رسوله الأمين، ومن أصدق منه خبراً؟، هذا، وخبر الطفل بشأن عقرب لإزالتها عن ثيابه، فكيف والذنوب أعظم من ألف عقرب إذ هي سموم مهلكات.. بل هي أضر من السموم، فغاية السموم أنها تسبب موته، وهذه مصيبة في دنياه، أما الذنوب والمعاصي فإنها سبب هلاكه في الآخرة هلاك الأبد حين

يحملها أوزاراً على ظهره يوم القيامة ليدخل النار بها، قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣١] ولعظم هذه الخسارة التي لا يعدلها شيء يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧].

فإذا علم المذنب هذا العلم، وصدق هذا التصديق، أحدث له ذلك ندماً شديداً على ما مضى من العمر وضاع في سخط الله وغضبه، وإذا كان من المؤمنين المطيعين، ووجد نفسه متورطاً بكبيرة من الكبائر أو مدمناً على صغيرة أو صغائر كثيرة، هاج في قلبه الندم على ما جرى ويجري منه من الذنوب، فندم على ذلك، وانسكب دمعه، وطالت حسرته، وتفكره، فتاب إلى ربه وأناب.

فهذه خمسة أسباب رئيسية - على ما نرى - تتسبب في حصول الندم، وما أعظمها من أسباب؟ وما أنفعها وأجداها للعبد؟ فإذا اجتمعت كان الندم في أشده، وأحياناً يكفي غلبةُ واحد منها في القلب فيحصل ندم شديد، أو ندم كافٍ للإقلاع عن الذنب والعزم على عدم العودة إليه.

٣٨٠- ماذا يفعل من لم يحصل له الندم على الذنب:

ومن عرفها جميعاً ولم يحصل له الندم على ما فرط في جنب الله، ولم يقدم توبةً على ما فرط، فليلجأ إلى الله، مُلتجئاً إليه لجوء المضطر، أن يحيي قلبه، فإنه تعالى يحيي الموتى، وأن يجعل له نوراً فمنهُ وحده النور، قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

فإذا لجأ العبد إلى الله لجوء المضطر وأكثر من التضرع بين يديه وكان صادقاً فإنه سيجد رحمة لم تكن له على بال، ولا خطرت له في خيال، ويحيي الله قلبه ويشرح صدره. قيل: كيف يشرح الصدر يا رسول الله؟ قال: (نورٌ يقذفُ فيه فينشرح له وينفسح) قالوا:

فهل لذلك من أمارةٍ يُعرف بها؟ قال: (الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت)[٤٤٨].

٣٨١- قول الغزالي فيمن قسا قلبه فلم يندم على معاصيه ويتوب:

قال الغزالي فيمن قسا قلبه، فلم يندم على معاصيه وآثامه ويتوب، ناصحاً إياه أن يتفكر في نفسه ومصيره، وأن يخاطب نفسه مشفقاً عليها، وموبخاً لها ومعاتباً إياها: «... واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض، ولا للإيمان بدل، ولا للجسد خلف، ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يُسار به وإن لم يسر، فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة، واقبلي هذه النصيحة.. فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار، وما أراك بها راضية، ولا لهذه الموعظة واعية.

فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام، فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام، فإن لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه فوطني نفسك على النار، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً، فكل ميسر لما خلق له، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك، والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك، فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فإن ذلك اغترار وليس برجاء.

فانظري الآن: هل يأخذك حُزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها؟ وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك؟ فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة فقد بقي فيك موضع للرجاء، فواظبي على النياحة والبكاء، واستعيني بأرحم الراحمين، واشتكي إلى أكرم الأكرمين، وأدمني الاستغاثة، ولا تملي طول الشكاية، لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك، فإن مصيبتك قد عظمت، وبليتك قد تفاقمت، وتماديك قد طال، وقد انقطعت منك الحيل، وراحت عنك العلل، فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجى إلا إلى مولاك، فافزعي إليه بالتضرع واخشعي في تضرعك على قدر

(٤٤٨) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٧١ عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

عظم جهلك وكثرة ذنوبك، لأنه يرحم المتضرع الذليل، ويغيث الطالب الملتهف، ويجيب دعوة المضطر، وقد أصبحت اليوم مضطرة، وإلى رحمته محتاجة، وقد ضاقت بك السبل، وانسدت عليك الطرق، وانقطعت منك الحيل، ولم تنجح فيك العظات، ولم يكسرك التوبيخ، فالمطلوب منه كريم والمسؤول جواد، والمستغاث به بر رؤوف، والرحمة واسعة، والكـرم فائض، والعفو شامل، وقولي: يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حليم يا عظيم يا كريم، أنا المذنب المصر، أنا الجريء الذي لا أُقلع، أنا المتمادي الذي لا أستحي، هذا مقام المتضرع المسكين، والبائس الفقير، والضعيف الحقير، والهالك الغريق، فعجل إغاثتي وفرجي وأرني آثار رحمتك واذقني برد عفوك ومغفرتك، وارزقني قوة عظمتك يا أرحم الراحمين» [٤٤٩].

---

(٤٤٩) ضمن مخاطبة طويلة وعتاب طويل اقتصرنا منه على الجزء الذي نقلناه في المتن وتجدها مفصلة في إحياء علوم الدين ٤/ ٣٥٥-٣٦١ فارجع إليها فإنها مفيدة.

المبحث الثاني
الركن الثاني: الإقلاع عن الزلة وتركها في الحال

٣٨٢- حقيقة الإقلاع عن الزلة في الحال وسببه:

وهذا هو الركن الثاني في التوبة: أن يترك الزلة أو المعصية في الحال من غير إبطاء أو تسويف.

وإذا كان الندم الذي حصل في قلبه يمثل توبة القلب أو توبة الباطن، فإن توبة الظاهر حقيقتها أن يترك ممارسة المعاصي بجوارحه، فكما تاب قلبه بالندم تتوب جوارحه بترك المعصية، فإن من صلح قلبه صلحت جوارحه.

وأساس ما ذكرناه قوله عز وجل في وصف المتقين التائبين: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقد مر بك تفسيرها فارجع إليه.

فإن لم يترك الزلة أو المعصية في الحال كان مسوفاً ومصراً على المعصية وملازماً لأسباب الهلكة.

وهذا المعنى الشرعي للإقلاع مطابق للمعنى اللغوي، جاء في لسان العرب:

«والإقلاع عن الأمر: الكف عنه، يقال: أقلع فلان عما كان عليه، أي: كف عنه، وفي حديث المزادتين: لقد أقلع عنها، أي كف وترك. وأقلع الشيء: انجلى، وأقلع السحاب كذلك، وفي التنزيل: ﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ [هود: ٤٤] أي: أمسكي عن المطر»[٤٥٠].

٣٨٣- الندم ينشأ منه إرادتان عند العلماء:

وقد بان لك أن الندم متى حصل في القلب انبعثت منه إرادتان: إرادة الإقلاع عن المعصية في الحال، وإرادة عدم العودة إليه في الاستقبال، لما تحقق للعبد من العلم بشؤم المعاصي وجسامة ضررها عليه.

---

(٤٥٠) لسان العرب: ٨/ ٢٩٢.

قال ابن القيم: «والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم ويقلع ويعزم، فحينئذٍ يرجع إلى العبودية التي خُلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة ولما كان متوقفاً على الثلاثة جُعلت شرائط له»[٤٥١].

ثم قال: «وأما الإقلاع: فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب»[٤٥٢].

٣٨٤- الندم ينشأ منه إرادة ثالثة أيضاً:

ونضيف إلى ذلك أن الندم ينشيء إرادة ثالثة: هي إرادة التدارك.. تدارك ما فات والتفتيش عن وسائل جبره لتلافي ما فات وجبر ما انكسر، فإن النادم ندماً شديداً أحب شيء إليه أن يجد ما يجبر به ما انكسر ويعوض به ما ضاع. وهذا له موضع آخر سنبسطه فيه إن شاء الله.

٣٨٥- متى يكون الإقلاع عن الذنب محبوباً ومرغوباً:

وندم العبد على ذنبه حين يكون شديداً يكون إقلاعه عن الذنب في الحال اختيارياً مصحوباً برغبة شديدة في تركه، رغبة منبعثة من داخل القلب، ولذلك لا يجد صعوبة في هذا الترك والإقلاع، بل يصبح مُحباً له وفرحاً به فرحاً شديداً، كأنه كان أعمى ثم أبصر فيحب الإبصار ويكره العودة إلى العمى، ويصبح مستأنساً بالتسامي عن الشهوات، وهذا من حلاوة التوبة وحلاوة الإيمان، ومن النور الذي دخل القلب بسبب التوبة فانشرح به الصدر، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. وهو النور الذي أشار إليه النبي ﷺ حين سئل: كيف ينشرح الصدر يا رسول الله؟ قال: (نور يُقذف فيه فينشرح له وينفسح). قالوا: وهل لذلك من أمارةٍ يُعرف بها؟ قال: (الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت)[٤٥٣].

فيصبح العبد منيباً إلى ربه، متعلقاً قلبه بدار الخلود، متجافياً عن دار الغرور، قد هجر المعاصي وأقلع عنها، مهاجراً إلى ربه كما قال ﷺ: (والمهاجر من هجر ما نهى الله

---

(٤٥١) ابن القيم: مدارج السالكين ١/ ١٨٢.
(٤٥٢) ابن القيم: مدارج السالكين ١/ ١٨٢.
(٤٥٣) ابن كثير: التفسير ٢/ ٤٧١

عنه)[454]، وفي رواية: (والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب)[455]، متزوداً بالتقوى قبل أن يفجأه الموت.

أما إذا كان الندم قليلاً - والندم نسبي - فإن الإقلاع عن الذنب أو المعصية في الحال، وهو ركن التوبة الثاني، يحتاج إلى شيء من قسر النفس وإجبارها على الترك والإقلاع، وهذا لأن نار الندم لم تكن كافية لإحراق مواضع الشهوة في القلب، فإذا قسرها العبد وأجبرها على الإقلاع عن الذنب أو المعصية في الحال مع العزم الصارم على عدم العودة إليها أبداً في الاستقبال، صحت توبته شرعاً ما دام قد وجد منه: الإقلاع والعزم المطلوب شرعاً مبنياً على الندم خوفاً من الله تعالى، قال عز وجل: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

فالعبرة إذن - بعد الندم كثيره أو قليله - بالإقلاع عن الذنب في الحال مع العزم في القلب على عدم العودة إليه أو إلى مثله خوفاً من عقاب الله عز وجل وطمعاً في رضاه، وبهذا يخرج العبد من حالة التسويف والإصرار، ويدخل في قوله تعالى في وصف المتقين أو من ألحقهم بالمتقين: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

٣٨٦- الحالات التي يشملها الإقلاع عن الزلة في الحال:

والإقلاع عن الذنب في الحال لا يتصور في معصية وقعت وانقضت، فهذه لا يتصور في التوبة عنها سوى العزم على عدم العودة إليها، فماذا يقصد العلماء بقولهم: الإقلاع عن الذنب في الحال؟

إنهم يقصدون بذلك حالتين:

٣٨٧- الحالة الأولى: ذنب طارئ يقطعه تائباً منه:

وهي حالة من هو مُلابس للذنب وتاب أثناءه كمن اختلى بأجنبيةٍ عامداً ثم قطع خلوته نادماً تائباً. أو لامس أو نظر نظراً آثماً ثم قطع ذلك نادماً تائباً، أو طرأ عليه معاملة

(٤٥٤) متفق عليه (انظر للمنذري: الترغيب والترهيب ٣/ ٥٢٣).

(٤٥٥) الهيثمي: مجمع الزوائد وقال: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه أيضاً ابن ماجة حديث رقم (٣٩٢٤) وأحمد (٢٢٨٣٣).

ربوية فباشرها ثم لم يتمها بل قطعها، أو لابس أي إثم أو محرم فتاب منه أثناءه وقبل أن ينقضي الذنب ويتم. فكل هذه الأحوال هي ملابسة للذنب الطارئ وقطعه وعدم الاستمرار فيه. فيكون قد أقلع عن الذنب في الحال ولم يواصله.

٣٨٨- الحالة الثانية: ذنوب دائمة مستمرة يتوقف عنها تائباً:

وهي حالة من هو مصر على ذنب مستمر (مستصحب)، مواظب عليه، أو ذنوب مستمرة قد صارت حالاً مستمرةً له، كالذي أجرى معاملاته الكثيرة على الربا، أو الذي دأب على تضييع الصلاة، أو التي دأبت على التبرج وإظهار الزينة المحرمة، فهذا وأمثاله يمثل حالة مستمرة تتضمن الإصرار المستمر على الذنب، فتوبته بأن يقلع عن هذه الحال حالاً من غير تسويف. فبهذا تكون توبته رجوع إلى الله.. رجوع مما تاب منه من المعصية إلى ما تاب إليه من الطاعة من غير تسويف وإبطاء.

أما الذنوب التي وقعت وتمت فيكفي فيها مع الندم العزم على عدم المعاودة أبداً حيث لا يتصور الإقلاع عن ملابستها في الحال لأنه غير ملابس لها أثناء التوبة فقد مضت وانقضت. فيكفي أن يندم عليها ويعزم على أن لا يعود إليها.

ومع التوبة ينبغي الاستغفار، فإنه مع التوبة أداتها، وبه يمحو الله الذنوب السابقات، ونفعه جسيم، وثوابه عظيم، قال ﷺ : (طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً)[٤٥٦]، وقال ﷺ أيضاً: (قال إبليس: وعزتك لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني)[٤٥٧].

٣٨٩- الحالات التي تشتبه بالتوبة وليست بتوبة:

وقبل أن نغادر الكلام عن «الإقلاع عن الذنب في الحال» بصفته ركناً في التوبة ننبه إلى حالتين لا يكون صاحبها تائباً شرعاً.

٣٩٠- الحالة الأولى - النية الصادقة للتوبة مستقبلاً مع الندم في الحال لا تكون توبة:

ونعني بذلك: أن من نوى التوبة غداً أو بعد أسبوع أو شهر أو سنة ولم يترك الذنوب التي هو مقيم عليها الآن - حتى ولو كان نادماً وصادقاً في نيته وعزمه على الترك

(٤٥٦) المنذري: الترغيب والترهيب: ٢/ ٤٦٨ وقال: رواه ابن ماجة بإسناد صحيح، والبيهقي.
(٤٥٧) رواه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد (انظر الترغيب والترهيب ٢/ ٤٦٧).

فإنه ليس بتائب شرعاً، وقد نقلنا لك قبل قليل قول ابن القيم باستحالة التوبة مع مباشرة الذنب، وعلى ذلك أجمع العلماء، فهذا إذا مات على هذه الحال، مات على حال التسويف، وفاتته التوبة.

٣٩١ - الحالة الثانية - الإقلاع عن الذنب لغير الله ليس بتوبة حتى مع الندم:

فليس كل إقلاع عن الذنب وترك له هو توبة.. بل لا بد أن يكون إقلاعه عنه وتركه له لغرض ديني أي استجابة للأمر والنهي الإلهي، فيتركه لاعتقاده بأنه حرام، فإن تركه وأقلع عنه لغرض آخر، لم يكن تائباً. وذلك كمن يقلع عن الخمر لضرره على صحته، ومن يقلع عن المحرمات الظاهرة خشية كلام الناس، أو يقلع عنها لأنها تضر بجاهه بين الناس، أو لأنها تسبب ضرراً مالياً، أو لأنه عجز عن ممارسة الذنب، أو نحو ذلك من الأسباب التي يجمعها أن الإقلاع أو الترك للذنب كان لغير الله تعالى، فلا تكون توبة. وإنما المطلوب أن يتركها خوفا من الله تعالى أو حياء منه، أي يتركها لسبب ديني.

قال ابن تيمية: «وقد يظن الظان أنه تائب، ولا يكون تائباً بل يكون تاركاً، والتارك غير التائب. فإنه قد يُعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله، أو يتركه لعجزه عنه، أو تنتفي إرادته له بسبب غير ديني، وهذا ليس بتوبة، بل لا بد أن يعتقد أنه سيئة ويكره فعله لنهي الله عنه، ويدعه لله لا لرغبة مخلوق أو لرهبة مخلوق، فإن التوبة من أعظم الحسنات والحسنات كلها يشترط فيها الإخلاص لله وموافقة أمره»[٤٥٨].

فهذا الذي ذكره شيخ الإسلام، وأمثاله كمن ترك الذنب لسبب دنيوي كعارٍ لحقه، أو ضياع مالٍ، أو تعب بدنٍ، أو طلباً للراحة من الكد في تحصيل الـذنب، أو اتقاء ما يخافه على ماله وعرضه ومنصبه وجاهه، كلهم يصدق عليهم وصف التارك لا التائب، حتى ولو كان نادماً لما أصابه من ضرر بسبب الذنب، وإذا كان تاركاً وليس بتائبٍ، فكيف يتوب؟.

يتوب توبتين: توبة من ذنبه، وتوبة من تركه الذنب لغير الله وعدم تركه لله، وليعرف نعمة الله عليه ورحمته به إذ قطع عنه الأسباب الموصلة إلى الذنب فيحمده ويشكره، ويعرف فضل ربه عليه ولطفه به حتى حين كان يبارزه بالعظائم من الذنوب فقطع أسبابها عنه لئلا تزيده هلاكاً.

---

(٤٥٨) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٣١٨.

المبحث الثالث
الركن الثالث: العزم على عدم العودة للذنب في المستقبل

٣٩٢- حقيقة العزم على عدم المعاودة للذنب:

جاء في معنى العزم لغة: «العزم: الجد... واعتزم عليه أراد فعله، وقال الليث: العزم: ما عقد عليه قلبك من أمر أنك فاعله»[٤٥٩].

والعزم على عدم معاودة الذنب في المستقبل هو النية الجازمة على هجر الذنب الذي تاب منه هجراً دائماً، ومفارقته مفارقة دائمة إلى الموت.

وحصول هذه النية الجازمة في عدم العودة إلى الذنب أبداً هي ثمرة من ثمرات الندم كما تقدم بيانه.

فإذا لم يعزم هذا العزم فإنه راضٍ بالذنب ومصر عليه، وتستحيل التوبة مع الإصرار على الذنب أو الرضاء به.

وهذا الركن من أركان التوبة يستند أيضاً إلى قوله عز وجل: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وكذلك يستند إلى جميع النصوص في القرآن والسنة التي تحرم الذنوب وتأمر بهجرها، فإن مقتضى تلك النصوص أن يبرم المؤمن عزيمته على فعل الحسنات وهجر السيئات، ولكن التائب أحوج إلى هذه العزيمة الجازمة لما أسلف من ذنب.

وكيف لا يعزم التائب هذا العزم على عدم العودة إلى الذنب، وتسخو نفسه به راضية طائعة، ويجده الصادق عزماً منبعثاً من أعماق نفسه ومن قلبه المتوجع المتألم على وقوع الذنب، أو على ما فات من العمر وضاع في سخط الله وغضبه؟ كيف لا يعزم هذا العزم وهو يعلم أنه مع الذنوب كان متعرضاً لعذاب الله في نيران الجحيم يوم القيامة، وأنه بالتوبة التي وفقه الله إليها ورحمه بها صار متعرضاً لرضوان رب العالمين والفوز بجنات النعيم؟ وأنه كان على شفا حفرة من النار فأنقذه الله منها بالتوبة؟!.

---

(٤٥٩) لسان العرب: ١٢/ ٣٣٩.

٣٩٣- يكفي في صحة (العزم) صدقه ساعة وقوع التوبة:

والعبرة في وقوع التوبة صحيحة - بعد وجود الندم والإقلاع - بوجود «العزم» وقت التوبة، فبوجوده تقع التوبة صحيحة، أما وفاؤه بهذا العزم في المستقبل أو عدم وفائه به فإنه أمر آخر يتعلق بأثر ذلك في التوبة التي وقعت صحيحة، هل يبطلها عدم الوفاء بعزمه على الإقلاع، وذلك بمعاودة الذنب الذي تاب منه؟! أم تمضي صحيحة مع المعاودة وأن ذلك يُعد ذنباً جديداً يستلزم توبة جديدة؟ أي تجديد التوبة، وهذا له موضع آخر سنبسطه فيه مفصلاً إن شاء الله، وإنما أردنا هنا إيضاح أن وجود العزم - وقت التوبة - كافٍ للقول بأنها توبة صحيحة مكتملة الأركان.

وعزم التائب على عدم العودة إلى الذنب أبداً هو عهده مع ربه عز وجل فليحرص على الوفاء به إلى آخر العمر، ويستعين بالله على ذلك ليلقى الله تعالى وقد رفع عنه العقاب وأجزل له الثواب وبدل سيئاته حسنات.

٣٩٤- تحرش الشيطان بصاحب (العزم) الصادق لثنيه عن الوفاء بعزمه:

ولا شك أن التائب سيجد من عدوه الشيطان الرجيم إلحاحاً في دعوته إلى الرجوع عن عزمه.. وستأتي ساعات يحتاج فيها إلى مجاهدة نفسه وهواها، سيجد كل هذا وغيره وهو في طريقه إلى الله، ولكن حلاوة التوبة وحلاوة الإيمان ومزايا التوبة التي منحها الله للتائبين، من محبته لهم، وتبديل سيئاتهم حسنات، وإلحاقهم بالمتقين، ووعدهم بالنجاة من النار ونوال سعادة الأبد.. كل هذا كفيل - حين يستذكره على الدوام - بالمضي في عزمه، والصدق في توبته، والوفاء لله برعاية حقه، وسيجد من الله تعالى عوناً له بعد صدقه في مجاهدة نفسه حين تدعوه إلى اقتراف شيء مما تاب عنه .. سيجد عوناً من الله جل وعز وهو القائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وهو القائل جل ثناؤه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ [محمد: ١٧]، ويلزمه من أجل الثبات أن يعتصم بالله ويذكره الدائم، فإن فعل فسيجد عوناً عظيماً وقدرة كبيرة في نفسه على المضي في عزمه والوفاء به، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [آل عمران: ١٠١] وقال تعالى حكاية عن امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ ﴾ [يوسف:٣٢]، وقال عز وجل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ١٤٦].

ونظراً للأهمية القصوى لهذا الأمر: وفاء التائب بعزمه أن لا عودة إلى الذنب، وهو مسألة استدامة التوبة والوسائل التي تعين التائب على الثبات على توبته إلى آخر العمر، وإمضاء عزمه على عدم العودة إلى الذنوب التي تاب منها، فقد خصصنا له باباً كاملاً هو الباب الخامس من هذا الكتاب المخصص للكلام عن دوام التوبة والوسائل التي تعين التائب على دوام توبته ولزومها إلى آخر العمر، سيأتيك إن شاء الله.

٣٩٥- توبة العاجز عن العودة إلى الذنب وعلاقتها بصحة (العزم) على تركه:

ومما أثاره الفقهاء عند الكلام على هذا الركن (العزم على عدم العودة إلى الذنب) مسألة توبة من فقد القدرة اللازمة لارتكاب الذنب فقداناً دائماً.. هل يصح منه العزم على عدم معاودته؟ وهل يعتد به شرعاً؟ وهي مسألة توبة العاجز عن العود.

٣٩٦- العجز الدائم عن الذنب وعلاقته بصحة (العزم):

والسبب في ذلك أن العزم على أن لا يعود إلى الذنب في المستقبل أو إلى مثله، إنما يُتصور اشتراطه فيمن يتمكن من مثل ما فعله، قالوا: أما من أصبح مجبوباً بعد الزنا، أو قُطع لسانه بعد القذف، أو صار أعمى بعد النظر المحرم، فهل يصح منه العزم على عدم العودة إلى الذنب وهو أصلاً قد أصبح غير قادرٍ عليه؟ وأجابوا على ذلك: بأن توبته صحيحة، وعزمه صحيح، وقد اعتبروه صحيحاً على تقدير أن الشرط في حق هذا العاجز أن يعزم أنه لو عادت له قدرته فلن يفعل الذنب أبداً[٤٦٠].

٣٩٧- العجز المؤقت عن الذنب وعلاقته بصحة (العزم):

ما ذكرناه في الفقرة السابقة يتعلق بعجز دائم، فإن كان عجزه مؤقتاً بأن حال حائل دون ارتكاب الذنب، كما لو كان الذنب تعاملاً بالربا ويحتاج إلى أموال كثيرة لإجرائه

---

(٤٦٠) الهيتمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢/ ٢٢٠ وحكى إجماع العلماء على ذلك- وذكر مخالفة ابن الجبائي في ذلك على أساس أنه مُلجأ إلى الترك إلجاءً فلا يتأتى منه العزم على الترك- وعد قوله شاذاً ومخالفته لا تقوى على خرق الإجماع، وما ذهب إليه الهيتمي هو الصحيح وهو رأي الجمهور فيما يشبه الإجماع، ويمكن الاستدلال لذلك بقوله تعالى: (فاتقوا الله ما استطعتم) فيفعل ما يستطيعه لإتمام توبته، والذي يستطيعه أن يعزم «أنه لو عادت إليه قدرته فلن يفعل أبداً» وهذا يكفي، لقوله تعالى: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)، ويصح منه ذلك لقوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى).

ولكنه افتقر فقراً شديداً يحول دون ذلك، أو كان الذنب شرب الخمر مثلاً ومُنع وجوده في البلاد، ونحو ذلك، فمن باب أولى أنه إذا عزم عزماً جازماً على عدم العودة إلى الذنب خوفاً من الله تعالى، أن يُعد عزمه صحيحاً شرعاً وإن لم توجد الطريق إلى الذنب، أي كان عاجزا عن تحصيله.

وأنت ترى أن كلامنا هنا قد انحصر في (العزم) على الإقلاع عن الذنب بقدر صلة الموضوع به بوصفه ركناً من أركان التوبة، أما الكلام بالتفصيل عن توبة العاجز وأحكامها ونقل أقوال العلماء في ذلك، فمكانه (أقسام التوبة) وذلك عند الكلام عن (التوبة النصوح والتوبة المعلولة) والتمييز بينهما، وسيأتي الكلام عنها قريباً في بداية الفصل القادم بعد انتهاء مباحث الفصل الذي نحن فيه إن شاء الله تعالى.

المبحث الرابع
الركن الرابع: التحلل من حقوق الغير

٣٩٨- لا تكتمل توبة من ظلم الغير إلا بالتحلل من حقوقهم:

وهذا ركن أو شرط من شروط التوبة من ذنب تعلق به حق الغير حين يكون المذنب قد ظلم حقاً للعباد بالاعتداء على أنفسهم أو أبشارهم أو أموالهم أو أعراضهم، فلا تكتمل توبته إذا تاب بينه وبين الله تعالى، وإنما تكتمل بالتحلل من حقوق الغير لإسقاطها، أي التحلل من مظالم العباد بإنصافهم من نفسه أو ماله وتمكينهم من استيفاء حقوقهم لئلا تبقى عليه المظلمة دون تحلل منها فيقتص الله لهم منه يوم القيامة.

وقد ميز العلماء بين التوبة من المعاصي التي ليس فيها ظلم العباد وبين التوبة من المعاصي التي فيها ظلم للعباد وبينوا أن الثانية تستلزم التحلل من ظلم الغير أي التحلل مما صار في ذمته من حقوقهم.

٣٩٩- نماذج لأقوال العلماء في التحلل من حقوق الغير:

٤٠٠-١- قول الغزالي في التحلل من حقوق الغير:

قال الغزالي في التوبة عن الذنوب التي فيها حق العباد: «إن الذنوب التي بين العباد: إما في المال: فيجب رده عند المكنة، فإن عجز لفقرٍ استحله [أي أخبره وطلب منه العفو واسترضاه]، فإن عجز عن استحلاله، لغيبته، أو موته، وأمكن التصدق عنه، فعله[٤٦١]، وإلا فليكثر من الحسنات، ويرجع إلى الله تعالى ويتضرع إليه في أن يرضيه عنه يوم القيامة (أي يُعوض الله المظلوم من عنده ويرضيه). وإما في النفس: فيمكنه أو وليه من القود (أي القصاص)، فإن عجز رجع إلى الله تعالى في إرضائه عنه يوم القيامة. وإما في العرض: فإن اغتابه أو شتمه أو بهته [أي افترى عليه بهتاناً فنسب إليه ما لم يفعله أو يقله أو ما ليس فيه] فحقه أن يكذب نفسه بين يدي من فعل ذلك معه إن أمكنه بأن لم يخش زيادة غيظ أو هيج فتنةٍ في إظهار ذلك، وإن خشي ذلك فالرجوع إلى الله ليرضيه عنه...»[٤٦٢].

---

(٤٦١) والراجح على ما نرى أنه إذا لم يقدر على استحلال صاحب المال لموته انتقل الحق إلى ورثته فإن لم يصل إليهم وتعذر عليه ذلك تصدق به وينويه صدقة عن صاحب المظلمة والله أعلم.

(٤٦٢) الغزالي: منهاج القاصدين، أشار إليه الهيثمي في: الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢/ ٢٢٩.

٤٠١-٢- قول ابن حزم في التحلل من حقوق الغير:

قال ابن حزم: «والتوبة من الكفر والزنا وفعل قوم لوط والخمر وأكل الأشياء المحرمة كالخنزير والدم والميتة وغير ذلك تكون بالندم والإقلاع والعزيمة أن لا عودة أبداً واستغفار الله تعالى، هذا إجماع لا خلاف فيه. والتوبة من ظلم الناس في أعراضهم وأبشارهم وأموالهم لا تكون إلا برد أموالهم إليهم، ورد كل ما تولد منها معها، أو مثل ذلك إن فات، فإن جُهلوا، ففي المساكين ووجوه البر، مع الندم والإقلاع والاستغفار، وتحللهم من أعراضهم وأبشارهم، فإن لم يمكن ذلك، فالأمر إلى الله تعالى، ولا بد للمظلوم من الانتصاف يوم القيامة، يوم يقتص للشاة الجماء من القرناء» (٤٦٣).

والتوبة من قتل النفس أعظم من هذا كله(٤٦٤)، ولا تكون إلا بالقصاص، فإن لم يمكن، فليكثر من فعل الخيرات ليرجح ميزان الحسنات (٤٦٥).

٤٠٢-٣- قول ابن تيمية في التحلل من حقوق الغير:

وقال ابن تيمية في التوبة عن الذنوب التي فيها حق العباد: «ومن العدل أن يُمكن المظلوم من الانتصاف، ثم بعد ذلك الشفاعة إلى المظلوم في العفو، ويصالحه الظالم، وترغيبه في ذلك، فإن الله تعالى إذا ذكر في القرآن حقوق العباد التي فيها وزر الظالم ندب فيها إلى العفو كقوله سبحانه: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة:٤٥] » وقوله: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]. وعن أنسٍ قال: (ما رُفع إلى النبي ﷺ شيء في القصاص إلا أمر فيه بالعفو). وإنما شرطه: التمكين من نفسه حتى يستوفى منه الحق، فإذا مكن المظلوم من

---

(٤٦٣) قال النبي ﷺ : «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء» رواه مسلم والترمذي. ورواه أحمد ولفظه: أن رسول الله ﷺ قال: «يُقتص للخلق بعضهم من بعض حتى للجماء من القرناء وحتى للذرة من الذرة» ورواته رواة الصحيح. (انظر المنذري: الترغيب والترهيب: ٤/ ٤٠٢).

(٤٦٤) لا يزال الكلام - كلام ابن حزم - عن التوبة من ظلم الناس وكيفية التحلل من ذلك، وإلا فإن الكفر أعظم من قتل النفس قال تعالى: (والفتنة أكبر من القتل)، أي فتنة الناس عن دينهم أكبر وأشد من القتل.

(٤٦٥) ابن حزم: المحلى ١/ ٤٥.

استيفاء حقه فقد فعل ما وجب عليه، ثم المستحق بالخيار، إن شاء عفا، وإن شاء استوفى[٤٦٦].

٤٠٣- ما الحكم يوم القيامة إذا لم يتحلل التائب من حقوق الغير لعجزه عن ذلك؛

قول الغزالي: «فالرجوع إلى الله ليرضيه عنه» - الذي أوردناه قبل قليل - والذي كرره مراراً، ومن بعده قول ابن حزم: «فالأمر إلى الله تعالى» في حالة عدم الاستحلال في الدنيا عند عدم القدرة على ذلك، أساسه أن الله تعالى يوم القيامة لا بد أن ينصف المظلوم، ومحال أن لا ينصفه لأن «العدل» من صفاته سبحانه وتعالى، وأن إنصافه إياه له صورتان فيما دلت عليه النصوص:

الأولى: أن يؤخذ من حسنات الظالم فتعطى للمظلوم حتى يوفيه حقه، فإن كان قليل الحسنات فلم تف حسناته، أُخذ من سيئات المظلوم فطُرحت على الظالم، ثم طُرح في النار. وأساس ذلك قوله ﷺ: (المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح في النار)[٤٦٧].

وهذه الصورة هي الأصل وعليها يقوم الحساب والمقاصة بين الخلائق يوم القيامة، والنصوص في ذلك كثيرة.

والصورة الثانية في إنصاف المظلوم: أن الله تعالى إذا شاء أرضى المظلوم من عنده يوم القيامة، وجعله يُسقط مطالبته بحقه، وذلك بتعويضه عوضاً أعظم، وإنصافه وإرضائه، وهذا تابع لمشيئة الله تعالى، وكثرة دعاء المذنب التائب في الدنيا وابتهاله وتضرعه إلى الله تعالى أن يُرضي الله تعالى خصمه بعوضٍ من عنده لعجزه هو عن ذلك، وتابع لكثرة استغفاره وحُسن توبته وإنابته.

---

(٤٦٦) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٥٥٠.

(٤٦٧) رواه مسلم والترمذي وغيرهما. انظر للمنذري: الترغيب والترهيب ٣/ ٥١٤ و ٤/ ٤٠٥.

٤٠١-٢- قول ابن حزم في التحلل من حقوق الغير:

قال ابن حزم: «والتوبة من الكفر والزنا وفعل قوم لوط والخمر وأكل الأشياء المحرمة كالخنزير والدم والميتة وغير ذلك تكون بالندم والإقلاع والعزيمة أن لا عودة أبداً واستغفار الله تعالى، هذا إجماع لا خلاف فيه. والتوبة من ظلم الناس في أعراضهم وأبشارهم وأموالهم لا تكون إلا برد أموالهم إليهم، ورد كل ما تولد منها معها، أو مثل ذلك إن فات، فإن جُهلوا، ففي المساكين ووجوه البر، مع الندم والإقلاع والاستغفار، وتحللهم من أعراضهم وأبشارهم، فإن لم يمكن ذلك، فالأمر إلى الله تعالى، ولا بد للمظلوم من الانتصاف يوم القيامة، يوم يقتص للشاة الجماء من القرناء»[٤٦٣].

والتوبة من قتل النفس أعظم من هذا كله[٤٦٤]، ولا تكون إلا بالقصاص، فإن لم يمكن، فليكثر من فعل الخيرات ليرجح ميزان الحسنات[٤٦٥].

٤٠٢-٣- قول ابن تيمية في التحلل من حقوق الغير:

وقال ابن تيمية في التوبة عن الذنوب التي فيها حق العباد: «ومن العدل أن يُمكن المظلوم من الانتصاف، ثم بعد ذلك الشفاعة إلى المظلوم في العفو، ويصالحه الظالم، وترغيبه في ذلك، فإن الله تعالى إذا ذكر في القرآن حقوق العباد التي فيها وزر الظالم ندب فيها إلى العفو كقوله سبحانه: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ﴾ [المائدة:٤٥] » وقوله: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠]. وعن أنسٍ قال: (ما رُفع إلى النبي ﷺ شيء في القصاص إلا أمر فيه بالعفو). وإنما شرطه: التمكين من نفسه حتى يستوفى منه الحق، فإذا مكن المظلوم من

---

(٤٦٣) قال النبي ﷺ : «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء» رواه مسلم والترمذي. ورواه أحمد ولفظه: أن رسول الله ﷺ قال: «يُقتص للخلق بعضهم من بعض حتى للجماء من القرناء وحتى للذرة من الذرة» ورواته رواة الصحيح. (انظر المنذري: الترغيب والترهيب: ٤/ ٤٠٢) .

(٤٦٤) لا يزال الكلام – كلام ابن حزم – عن التوبة من ظلم الناس وكيفية التحلل من ذلك، وإلا فإن الكفر أعظم من قتل النفس قال تعالى: (والفتنة أكبر من القتل)، أي فتنة الناس عن دينهم أكبر وأشد من القتل.

(٤٦٥) ابن حزم: المحلى ١/ ٤٥.

استيفاء حقه فقد فعل ما وجب عليه، ثم المستحق بالخيار، إن شاء عفا، وإن شاء استوفى[٤٦٦].

٤٠٣- ما الحكم يوم القيامة إذا لم يتحلل التائب من حقوق الغير لعجزه عن ذلك؛

قول الغزالي: «فالرجوع إلى الله ليرضيه عنه» - الذي أوردناه قبل قليل - والذي كرره مراراً، ومن بعده قول ابن حزم: «فالأمر إلى الله تعالى» في حالة عدم الاستحلال في الدنيا عند عدم القدرة على ذلك، أساسه أن الله تعالى يوم القيامة لا بد أن ينصف المظلوم، ومحال أن لا ينصفه لأن «العدل» من صفاته سبحانه وتعالى، وأن إنصافه إياه له صورتان فيما دلت عليه النصوص:

الأولى: أن يؤخذ من حسنات الظالم فتعطى للمظلوم حتى يوفيه حقه، فإن كان قليل الحسنات فلم تف حسناته، أُخذ من سيئات المظلوم فطُرحت على الظالم، ثم طُرح في النار. وأساس ذلك قوله ﷺ: (المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح في النار)[٤٦٧].

وهذه الصورة هي الأصل وعليها يقوم الحساب والمقاصة بين الخلائق يوم القيامة، والنصوص في ذلك كثيرة.

والصورة الثانية في إنصاف المظلوم: أن الله تعالى إذا شاء أرضى المظلوم من عنده يوم القيامة، وجعله يُسقط مطالبته بحقه، وذلك بتعويضه عوضاً أعظم، وإنصافه وإرضائه، وهذا تابع لمشيئة الله تعالى، وكثرة دعاء المذنب التائب في الدنيا وابتهاله وتضرعه إلى الله تعالى أن يُرضي الله تعالى خصمه بعوضٍ من عنده لعجزه هو عن ذلك، وتابع لكثرة استغفاره وحُسن توبته وإنابته.

---

(٤٦٦) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٥٥٠.

(٤٦٧) رواه مسلم والترمذي وغيرهما. انظر للمنذري: الترغيب والترهيب ٣/ ٥١٤ و٤/ ٤٠٥.

وأساس ذلك الحديث الذي رواه عن النبي ﷺ أنس بن مالك ﷺ قال: «بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه[٤٦٨]، فقال له عمر: ما أضحكك يا رسول الله؟ بأبي أنت وأمي. قال: (رجلان من أُمتي جثيا[٤٦٩] بين يدي رب العزة، فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي. فقال الله للظالم: أعط أخاك مظلمته، فما زال يعطيه من حسناته حتى نفدت، فقال الله للمظلوم: كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء؟ قال: يا رب فليحمل من أوزاري، وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: إن ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس أن يُحمل من أوزارهم، فقال الله للطالب: ارفع بصرك فانظر، فرفع فقال: يا رب، أرى مدائن من ذهب، وقصوراً من ذهب، مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا؟ أو لأي صديق هذا؟ أو لأي شهيد هذا؟ قال: لمن أعطى الثمن . قال: يا رب ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه. قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك. قال: يا رب إني قد عفوت عنه. قال الله: فخذ بيد أخيك فأدخله الجنة. فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المسلمين» [٤٧٠].

فسبحان من وسعت رحمته كل شيء وبخاصة عباده المؤمنين التائبين المحسنين، كما قال جل وعز: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ويا لخيبة وخسران من لم يتقربوا إليه بالفرائض والنوافل والتوبة حتى يحبهم ويُنجيهم من أهوال يوم القيامة فيعاملهم برحمته لا بعدله، ويقيهم السيئات وعقابها يوم الجزاء.

هذا، وتفصيل كيفية التحلل من كل ذنب أو جناية في حقوق العباد ليس هذا موضعه، وستأتي أحكامه مفصلةً إن شاء الله، وإنما اقتصرنا هنا على تقديم فكرة عنه، لبيان أنه ركن من أركان التوبة أو شرط من شروطها بالنسبة للتوبة من مظالم العباد.

---

(٤٦٨) الثنايا: الأسنان الأمامية.

(٤٦٩) جلسا على ركبتيهما، من جثا على ركبتيه جثياً.

(٤٧٠) رواه الحاكم والبيهقي، وقال الحاكم صحيح الإسناد، انظر الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٣٠٩ وكذلك ٤/ ٤٠٥.









الفصل الرابع

أقسام التوبة

وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: التوبة النصوح والتوبة المعلولة.
- المبحث الثاني: التوبة من ذنب معين والتوبة الشاملة.
- المبحث الثالث: التوبة الواجبة والتوبة المستحبة.
- المبحث الرابع: التوبة في الباطن والتوبة في الظاهر.
- المبحث الخامس: التنبيه على التوبة الجماعية وبيان حكمها.










الفصل الرابع

أقسام التوبة

٤٠٤- تمهيد: في بيان تقسيمات التوبة أو أنواعها:

قد تبين لك فيما سبق أن التوبة: تنقسم من حيث الصدق والإخلاص فيها إلى: توبة نصوح وتوبة معلولة. وتنقسم من حيث عمومها وشمولها للذنوب إلى: توبة عن ذنب معين وتوبة عامة (شاملة). وتنقسم من حيث أقسام الحكم الشرعي إلى: توبة واجبة وتوبة مستحبة. كما أنها تنقسم من حيث اعتبارها في القضاء للحكم بعودة العدالة أو الأهلية للولاية والشهادة ونحو ذلك، إلى: توبة باطنة، وتوبة حكمية. أي توبة في الباطن، وتوبة في الظاهر.

ومما له صلة بأقسام التوبة أو أنواعها التوبة الجماعية في مقابل التوبة الفردية، وعلى ذلك سنبحث أقسام التوبة في خمسة مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: التوبة النصوح، والتوبة المعلولة.

المبحث الثاني: التوبة من ذنب معين، والتوبة العامة (الشاملة).

المبحث الثالث: التوبة الواجبة، والتوبة المستحبة.

المبحث الرابع: التوبة في الباطن والتوبة في الظاهر.

المبحث الخامس: التنبيه على التوبة الجماعية وبيان حكمها.

المبحث الأول
التوبة النصوح والتوبة المعلولة

٤٠٥- تمهيد وتقسيم:

تنقسم التوبة من حيث الصدق مع الله فيها والإخلاص إلى توبة نصوح قد تحققت فيها أركانها وتحقق فيها الصدق والإخلاص، وإلى توبة لم يتحقق فيها الصدق والإخلاص أو شابتها شائبة جعلت التوبة ناقصة أو معلولة.

وعلى ذلك سنبحث هذا الموضوع في مطلبين:

نبحث في المطلب الأول: التوبة النصوح.

ونتناول في المطلب الثاني: التوبة المعلولة.

المطلب الأول
التوبة النصوح

٤٠٦- دعوة القرآن المؤمنين إلى التوبة النصوح:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، وقال جل جلاله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فهاتان آيتان مدنيتان خاطب بهما ربنا جل ثناؤه صحابة رسول الله ﷺ والمؤمنين من بعدهم إلى يوم القيامة بأن يتوبوا جميعاً، فهو خطاب على العموم، فلا يستغني مؤمن عن التوبة، وخاطبهم بأن تكون توبتهم (نصوحاً).. خاطبهم بذلك في المدينة وذلك بعد إسلامهم في مكة، وصبرهم، وهجرتهم، وجهادهم في المدينة، فإذا كان هذا حالهم وخاطبهم بالتوبة فنحن الأقل شأناً والأضعف حالاً أحرى بأن نستشعر توجه الخطاب إلينا ونحن أحوج منهم إلى التوبة النصوح المطلوبة من كل المؤمنين على سبيل الوجوب.

ونورد فيما يلي أقوال المفسرين والعلماء في التوبة النصوح - مختصرة - مقتصرين على أهم الأقوال التي أوردها أو نقلها كل منهم عن السلف، وسترى أن بعضهم عرف التوبة النصوح بأوصافها، وبعضهم عرفها بآثارها على صاحبها وعلاماتها، وبعضهم ركز على جانب من جوانبها، وبعضهم عرفها بحقيقتها، وقصدنا من إيرادها أنها تكون مجموعة من المعرفة تنفع التائب، وتعبر عن مشاعره وعن حاله، أو ترشده إلى ما يجب عليه أو يندب له:

٤٠٧- أقوال المفسرين والعلماء في التوبة النصوح:

٤٠٨- أولا - التوبة النصوح في تفاسير القرآن الكريم:

٤٠٩-١- التوبة النصوح عند القرطبي:

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨] فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله) أمر بالتوبة، وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال وكل الأزمان، وقد تقدم بيانها والقول فيها في النساء وغيرها.

(توبة نصوحاً): اختلفت عبارة العلماء وأرباب القلوب في التوبة النصوح على ثلاث وعشرين قولاً، فقيل: هي التي لا عودة بعدها كما لا يعود اللبن إلى الضرع، روى عن عمر وابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم ورفعه معاذ إلى النبي ﷺ، وقال قتادة: النصوح: الصادقة الناصحة، وقيل: الخالصة يقال: نصح، أي: أخلص له القول، وقال الحسن: النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه إذا ذكره، وقيل: هي التي لا يثق بقبولها ويكون على وجل منها، وقيل: هي التي لا يحتاج معها إلى توبة، وقال الكلبي: التوبة النصوح الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع عن الذنب، والاطمئنان على أن لا يعود، وقال سعيد بن جبير: هي التوبة المقبولة ولا تقبل ما لم يكن فيها ثلاثة شروط خوف ألا تقبل ورجاء أن تقبل وإدمان الطاعات، وقال سعيد بن المسيب: توبة تنصحون بها أنفسكم، وقال القرظي:

يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الخلان، وقال سفيان الثوري علامة التوبة النصوح أربعة: القلة

والعلة والذلة والغربة، وقال الفضيل بن عياض: هو أن يكون الذنب بين عينيه فلا يزال كأنـه ينظر إليه، ونحوه عن ابن السماك: أن تنصب الذنب الذي أقللت فيه الحياء من الله أمام عينك وتستعد لمنتظرك، وقال أبو بكر الوراق: هو أن تضيق عليك الأرض بما رحبت وتضيق عليك نفسك كالثلاثة الذين خلفوا،... وقال أبو بكر الدقاق المصري: التوبة النصوح هي رد للمظالم، واستحلال الخصوم، وإدمان الطاعات... وقال شقيق: هو أن يكثر صاحبها لنفسه الملامة ولا ينفك من الندامة لينجو من آفاتها بالسلامة، وقال سري السقطي: لا تصلح التوبة النصوح إلا بنصيحة النفس والمؤمنين لأن من صحب توبته أحب أن يكون الناس مثله، وقال الجنيد: التوبة النصوح هو أن ينسى الذنب فلا يذكره أبدا لأن من صحت توبته صار محبا لله ومن أحب الله نسي ما دون الله ...

وأصل التوبة النصوح من الخلوص، يقال: هذا عسل ناصح إذا خلص من الشمع، وقيل : هي مأخوذة من النصاحة وهي الخياطة وفي أخذها منها وجهان: أحدهما: لأنها توبة قد أحكمت طاعته وأوثقتها كما يحكم الخياط الثوب بخياطته ويوثقه، والثاني: لأنها قد جمعت بينه وبين أولياء الله وألصقته بهم كما يجمع الخياط الثوب ويلصق بعضه ببعض، وقراءة العامة: نَصوحاً بفتح النون على نعت التوبة مثل امرأة صبور، أي: توبة نصح لأنفسكم، وقيل: يجوز أن يكون نصوحاً جمع نصح وأن يكون مصدراً يقال: نصح نصاحة ونصوحاً وقد يتفق فعالة وفعول في المصادر نحو الذهاب والذهوب، وقال المبرد: أراد توبة ذات نصح، يقال: نصحت نصحاً ونصاحة ونصوحاً»[٤٧١].

٤١٠- توجيهنا لأقوال السلف التي أوردها القرطبي في التوبة النصوح:

ونحن إذا نظرنا إلى معظم أقوال السلف التي أوردها القرطبي رحمه الله في التوبة النصوح نجدها واضحة، ولكن بعضها يحتاج إلى بيان لئلا يفهم منه التناقض، فقول الفضيل بن عياض : التوبة النصوح: أن يكون الذنب بين عينيه فلا يزال كأنه ينظر إليه، ونحوه عن ابن السماك: أن تنصب الذنب الذي أقللت فيه الحياء من الله أمام عينك وتستعد لمنتظرك. يبدو متناقضاً في الظاهر مع قول الجنيد : التوبة النصوح: هو أن ينسى الذنب فلا يذكره أبداً لأن من صحت توبته صار محباً لله ومن أحب الله نسي ما دون الله.

---

(٤٧١) تفسير القرطبي ج: ١٨ ص: ١٩٧ ـ ١٩٩.

والحق أنه لا تعارض بين القولين فكل منهما يركز على جانب هو غير الجانب الذي ركز عليه الآخر وكلاهما من علامات التوبة النصوح.

فبعض التائبين توبة نصوحاً يستولي عليه الخوف من ذنبه ويشهد قلبه صفات الهيبة والجلال وعظمة من عصاه فيبقى خائفاً ويدفعه الخوف إلى مزيد من الندم ومزيد من العمل الصالح والاستزادة من الحسنات الماحية والتفتيش عن أسباب المغفرة وممارستها فعلاً، وهذا التائب الخائف فيه محبة لله ولكنها غير مستولية عليه.

والبعض الآخر من التائبين توبة نصوحاً يشهد قلبه صفات الجمال الإلهية من العفو والمغفرة والرحمة والمحبة والإحسان ونحوها فيستولي عليه مقام المحبة لله تعالى ويستغرق فيه فينسى كل ما سواه بما في ذلك ذنبه السابق بحكم الحال، ولكنه لا يخلو قلبه من مقام الخشية والخوف ولكن مع غلبة المحبة، وقد قال أعظم المحبين لله تعالى وهو الرسول ﷺ (فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية)[٤٧٢].

٤١١-٢- التوبة النصوح عند ابن كثير:

قال ابن كثير في تفسير التوبة النصوح: «قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] أي: توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات، قال ابن جرير: حدثنا ابن مثنى حدثنا محمد حدثنا شعبة عن سماك بن حرب سمعت النعمان بن بشير يخطب سمعت عمر بن الخطاب ﷺ يقول: (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً) قال: يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه، وقال الثوري عن سماك عن النعمان عن عمر قال: التوبة النصوح أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه أو لا يريد أن يعود فيه، وقال أبو الأحوص وغيره عن سماك عن النعمان: سئل عمر عن التوبة النصوح فقال: أن يتوب الرجل من العمل السيئ ثم لا يعود إليه أبداً، وقال الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله: (توبة نصوحاً) قال: يتوب ثم لا يعود، وقد روي هذا مرفوعاً فقال الإمام أحمد حدثنا علي بن عاصم عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله

---

(٤٧٢) متفق عليه: البخاري (٥٦٣٦)، مسلم (٤٣٤٥)، وأيضا أحمد (٢٣٠٥٠).

ﷺ: (التوبة من الذنب: يتوب منه ثم لا يعود فيه)[٤٧٣] تفرد به أحمد من طريق إبراهيم ابن مسلم الهجري وهو ضعيف والموقوف أصح والله أعلم.

ولهذا قال العلماء التوبة النصوح: هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل. ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه... وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمرو بن علي حدثنا عباد بن عمرو حدثنا أبو عمرو بن العلاء سمعت الحسن يقول: التوبة النصوح أن تبغض الذنب كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته.

٤١٢- ابن كثير يذكر رأيين في مسألة أثر معاودة الذنب على التوبة السابقة:

فأما إذا جزم بالتوبة وصمم عليها فإنها تجب ما قبلها من الخطيئات كما ثبت في الصحيح: (الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها)[٤٧٤]، وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات كما تقدم في الحديث وفي الأثر: (ثم لا يعود فيه أبداً)؟ أو يكفي العزم على أن لا يعود في تكفير الماضي بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضاراً في تكفير ما تقدم لعموم قوله عليه السلام التوبة تجب ما قبلها؟ وللأول أن يحتج بما ثبت في الصحيح: (من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر)[٤٧٥]، فإذا كان هذا في الإسلام الذي هو أقوى من التوبة فالتوبة بطريق الأولى، والله أعلم»[٤٧٦].

٤١٣- مسألة معاودة الذنب هل تبطل التوبة السابقة؟

وترجيح أحد الرأيين اللذين ذكرهما ابن كثير في مسألة أثر معاودة الذنب على التوبة السابقة هل يبطلها أم تمضي صحيحة مقبولة باستجماعها شروطها في حينها، ومنها أن المطلوب هو العزم ساعة التوبة على أن لا يعود وإن كان غير معصوم عن المعاودة ومن

---

(٤٧٣) أخرجه الإمام أحمد (٤٠٤٣).

(٤٧٤) حديث (التوبة تجب ما قبلها) لم أجده بهذا اللفظ وإنما يوجد في معناه (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)، أخرجه ابن ماجة (٤٠٤٢)، وكذلك: (الإسلام يجب ما كان قبله والهجرة تجب ما كان قبلها)، أخرجه أحمد (١٧١٠٩) و(١٧١٤٥).

(٤٧٥) متفق عليه: البخاري: (٦٩٢١)، مسلم (١٢٠)

(٤٧٦) تفسير ابن كثير ج:٤ ص:٣٩٢-٣٩٣.

ثم تكون توبته السابقة صحيحة ويستأنف توبة جديدة بسبب معاودة الذنب.. ترجيح أحد هذين الرأيين سيأتيك مفصلاً عند الكلام عن مسألة: معاودة الذنب هل تبطل التوبة السابقة؟ حيث خصصنا له فصلاً مستقلاً سنورد فيه أقوال العلماء والمذاهب الفقهية ويكفي أن نقول هنا متعجلين: إن الرأي الراجح وهو رأي الجمهور: أن معاودة الذنب لا تبطل التوبة السابقة بل تبقى صحيحة ما دامت قد وقعت صحيحة في حينها ولأنها عبادة وقعت صحيحة فتكون مقبولة، وعليه أن يستأنف توبة جديدة.

٤١٤-٣- التوبة النصوح عند البيضاوي :

قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]: «بالغة في النصح، وهو صفة التائب، فإنه ينصح نفسه بالتوبة، وصفت به على الإسناد المجازي مبالغة، أو في النصاحة وهي الخياطة كأنها تنصح ما خرق الذنب، وقرأ أبو بكر بضم النون وهو مصدر بمعنى النصح كالشكر والشكور، والنصاحة كالثبات والثبوت تقديره: ذات نصوح، أو تنصح نصوحاً، أو توبوا نصوحاً لأنفسكم، وسئل علي رضي الله تعالى عنه عن التوبة فقال: يجمعها ستة أشياء على الماضي من الذنوب الندامة، وللفرائض الإعادة، ورد المظالم، واستحلال الخصوم، وأن تعزم على أن لا تعود، وأن تربي نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية»(٤٧٧).

٤١٥-٤- التوبة النصوح في تفسير فتح القدير :

قال الشوكاني صاحب تفسير فتح القدير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]: «أي تنصح صاحبها بترك العودة إلى ما تاب عنه وصف بذلك على الإسناد المجازي، وهو في الأصل وصف للتائبين أن ينصحوا بالتوبة من أنفسهم، بالعزم على الترك للذنب وترك المعاودة له.

والتوبة فرض على الأعيان، قال قتادة: التوبة النصوح: الصادقة وقيل الخالصة، وقال الحسن: التوبة النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه إذا ذكره، وقال

---

(٤٧٧) البيضاوي: تفسير البيضاوي ج: ٥ ص: ٣٥٧ (وانظر أيضاً: في التوبة النصوح: تفسير الطبري ٢٨/ ١٦٦ وتفسير الدر المنثور: ٨/ ٢٢٧، وتفسير البغوي: ٤/ ٣٦٧).

الكلبي: التوبة النصوح الندم بالقلب والاستغفار باللسان والإقلاع بالبدن والاطمئنان على أن لا يعود، وقال سعيد بن جبير: هي التوبة المقبولة. قرأ الجمهور نصوحاً بفتح النون على الوصف للتوبة أي توبة بالغة في النصح، وقرأ الحسن وخارجه وأبو بكر عن عاصم بضمها أي توبة نصح لأنفسكم، ويجوز أن يكون جمع ناصح وأن يكون مصدراً يقال نصح نصاحة ونصوحاً، قال المبرد: أراد توبة ذات نصح. (عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار)بسبب تلك التوبة، و(عسى)وإن كان أصلها للإطماع فهي من الله واجبة لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[٤٧٨].

٤١٦-٥- التوبة النصوح عند الآلوسي :

قال الآلوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]: أي بالغة النصح، فهو من أمثلة المبالغة كضروب، وصفت التوبة به على الإسناد المجازي، وهو وصف التائبين وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم فيأتوا بها على طريقها ولعله ما تضمنه ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال معاذ بن جبل: يا رسول الله ما التوبة النصوح؟ قال: (أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر إلي الله تعالى ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع) وروي تفسيرها بما ذكر عن عمر وابن مسعود وأبي والحسن ومجاهد وغيرهم، وقيل : نصوحاً من نصاحة الثوب، أي خياطته، أي توبة ترفو خروقك في دينك، وترم خللك، وقيل: خالصة، من قولهم: عسل ناصح إذا خلص من الشمع، وجوز أن يراد: توبة تنصح الناس، أي تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها في صاحبها، واستعمال الجد والعزيمة في العمل بمقتضياتها، وفي المراد أقوال كثيرة أوصلها بعضهم إلى نيف وعشرين قولاً، منها ما سمعت، وقرأ زيد بن علي توباً بغير تاء وقرأ الحسن والأعرج وعيسى وأبو بكر عن عاصم وخارجة عن نافع : نصوحاً، بضم النون، وهو مصدر نصح، فإن النصح والنصوح، كالشكر والشكور، والكفر والكفور، أي ذات نصح، أو تنصح نصوحاً، أو توبوا لنصح أنفسكم على أنه مفعول له.

هذا والكلام في التوبة كثير وحيث كانت أهم الأوامر الإسلامية وأول المقامات الإيمانية ومبدأ طريق السالكين ومفتاح باب الواصلين... وقال المعتزلة يكفي في التوبة أن

---

(٤٧٨) الشوكاني: تفسير فتح القدير ج: ٥ ص: ٢٥٤.

يعتقد أنه أساء وأنه لو أمكنه رد تلك المعصية لردها ولا حاجة إلى الأسف والحزن لإفضائه إلى التكليف بما لا يطاق[٤٧٩]. وقال الإمام النووي: التوبة ما استجمعت ثلاثة أمور: أن يقلع عن المعصية، وأن يندم على فعلها، وأن يعزم عزماً جازماً على أن لا يعود إلى مثلها أبداً، فإن كانت تتعلق بآدمي لزم رد الظلامة إلى صاحبها أو وارثه أو تحصيل البراءة منه، وركنها الأعظم الندم»[٤٨٠].

٤١٧-٦- التوبة النصوح في تفسير « في ظلال القرآن »:

يربط سيد قطب رحمه الله بين الآية الكريمة التي تأمر بالتوبة النصوح وبين الآيتين اللتين قبلها فيورد قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [التحريم: ٦-٨] ثم يقول «فكيف يقي المؤمنون أنفسهم وأهليهم من هذه النار؟ إنه يبين لهم الطريق، ويطمعهم بالرجاء: هذا هو الطريق.. توبة نصوح.. توبة تنصح القلب وتخلصه، ثم لا تغشه ولا تخدعه. توبة عن الذنب والمعصية، تبدأ بالندم على ما كان، وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة، فهي عندئذ تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصي وعكارها، وتحضه على العمل الصالح بعدها، فهذه هي التوبة النصوح. التوبة التي تظل تذكر القلب بعدها وتنصحه فلا يعود إلى الذنوب»[٤٨١].

---

(٤٧٩) قول المعتزلة هذا مخالف لإجماع الصحابة ومن بعدهم حيث أجمعوا على أن الندم ركن التوبة الأساس وهو يتضمن الحزن والتأسف على ما بدر من الذنب كما أنه مخالف لوصف القرآن الكريم للتوبة النصوح التي أخبر عن قبول الله تعالى لها بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨].

(٤٨٠) الآلوسي: تفسير روح المعاني ج: ٢٨ ص: ١٥٧ - ١٥٨.

(٤٨١) سيد قطب: في ظلال القرآن: ص ٣٦١٨.

٤١٨- ثانيا - التوبة النصوح في أقوال العلماء من غير أصحاب التفاسير:

٤١٩-١- قول الغزالي في التوبة النصوح:

قال الإمام الغزالي: «قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] وهذا أمر على العموم، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] الآية، ومعنى النصوح: الخالص لله تعالى خالياً عن الشوائب مأخوذ من النصح» (٤٨٢).

٤٢٠-٢- التوبة النصوح فيما رواه البيهقي في شعب الإيمان:

روى البيهقي - بسنده - عن الجنيد بن محمد قال: «قال السري يوماً وقد انصرف من الجمعة وهو شبيه بالمتعجب فسألناه عن ذلك أو بدأنا هو به فقال: لقيني شاب وأنا أمضي إلى الصلاة فقال: ما صدق التوبة؟ فقلت: أن لا تنسى ذنبك، فقال لي: ما أعجب ما قلت لي، فقلت له: فما الذي عندك؟ فقال لي: هو أن لا يذكر ذنبه، فتعجبت من ذلك القول وكان الصواب عندي ما قال هو .

وروى أيضاً - بسنده - عن أبي عثمان الخياط قال: «سمعت السري يقول: التوبة على أربعة دعائم: استغفار باللسان وندم بالقلب وترك بالجوارح وإضمار أن لا يعود فيه».

وروى أيضاً - بسنده - عن جعفر بن محمد قال: «سمعت الجنيد بن محمد يقول: التوبة على ثلاثة معان: أولها: الندم الذي قال النبي ﷺ : الندم توبة، وهو على إصرار من القلوب وتنقل من مذموم الأفعال إلى محمودها، والثاني: يعزم على ترك المعاودة فيما نهي وأن لا يعاوده فيما يبقى، والثالث: في أداء المظالم في كل عرض من مال ودم، فهذه الأحوال الثلاثة التي يتم بها أمر التوبة، والله أعلم» (٤٨٣).

٤٢١-٣- قول ابن تيمية في التوبة النصوح:

«سئل شيخ الإسلام عن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] فأجاب: الحمد لله، قال عمر بن الخطاب ﷺ وغيره من الصحابة والتابعين رضي

---

(٤٨٢) الغزالي:إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٥.

(٤٨٣) البيهقي: شعب الإيمان ج: ٥ ص: ٤٣٦.

الله عنهم، التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، ونصوح هي صفة للتوبة، وهي مشتقة من النصح والنصيحة، وأصل ذلك هو الخلوص، يقال فلان ينصح لفلان إذا كان يريد له الخير إرادة خالصة لا غش فيها، وفلان يغشه إذا كان باطنه يريد السوء وهو يظهر إرادة الخير كالدرهم المغشوش، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١] أي أخلصوا لله ورسوله قصدهم وحبهم، ومنه قوله ﷺ في الحديث الصحيح: (الدين النصيحة -ثلاثاً-، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[٤٨٤]، فإن أصل الدين هو حسن النية وإخلاص القصد، ولهذا قال ﷺ : (ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم)[٤٨٥]، أي هذه الخصال الثلاث لا يحقد عليها قلب مسلم بل يحبها ويرضاها.

فالتوبة النصوح: هي الخالصة من كل غش، وإذا كانت كذلك كائنة فإن العبد إنما يعود إلى الذنب لبقايا في نفسه، فمن خرج من قلبه الشبهة والشهوة لم يعد إلى الذنب، فهذه التوبة النصوح، وهي واجبة بما أمر الله تعالى، ولو تاب العبد ثم عاد إلى الذنب قبل الله توبته الأولى، ثم إذا عاد استحق العقوبة، فإن تاب تاب الله عليه أيضاً. ولا يجوز للمسلم إذا تاب ثم عاد أن يصر بل يتوب ولو عاد في اليوم مائة مرة، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن علي عن النبي [ﷺ] أنه قال: (إن الله يحب العبد المفتن التواب)[٤٨٦] وفى حديث آخر: (لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار)[٤٨٧]، وفى حديث آخر (ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم مائة مرة)[٤٨٨]...»[٤٨٩].

---

(٤٨٤) متفق عليه: البخاري ١/ ٣٠، ومسلم: ١/ ٧٤ برقم (٨٢).

(٤٨٥) ابن ماجة (٢٢٦) و(٣٠٤٧)، وأحمد (١٢٨٧١) و(١٦١٣٨) و(١٦١٥٣)، والدارمي (٢٣٠) و(٢٣٢).

(٤٨٦) أحمد (٥٧١) و(٧٦٩).، ومجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٠، وشعب الإيمان ٥/ ٤١٩.

(٤٨٧) أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم:١/ ١٧٩، وإسماعيل الجراحي: كشف الخفاء:٢/ ٤٩٠ .

(٤٨٨) سنن الترمذي: ٥/ ٥٥٨، وسنن البيهقي الكبرى: ١٠/ ١٨٨، وسنن أبي داود: ٢/ ٨٤، ومسند البزار: ١/ ١٧١ و ١/ ٢٠٥، ومسند أبي يعلى: ١/ ١٢٤، ومسند الشهاب: ٢/ ١٣، وجامع =

٤٢٢-٤- قول ابن قيم الجوزية في التوبة النصوح:

قال ابن قيم الجوزية وهو يعرف بالتوبة النصوح: «... وهذا يتبين بذكر التوبة النصوح وحقيقتها، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم:٨]، فجعل وقاية شر السيئات وهو تكفيرها بزوال ما يكره العبد ودخول الجنات وهو حصول ما يحب العبد منوطاً بحصول التوبة النصوح، و النصوح على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة كالشكور والصبور، وأصل مادة (ن ص ح)لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة، وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنصح إذا خلص، فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة تخليصها من كل غش ونقص وفساد وإيقاعها على أكمل الوجوه، والنصح ضد الغش»[٤٩٠].

ثم أورد ابن القيم بعضاً من أقوال السلف - وقد مرت بك - ثم قال: «النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

= العلوم والحكم: ١/ ٣٩٥، وفتح الباري: ١/ ١١٢ وقال: «وللترمذي عن أبي بكر الصديق مرفوعاً: ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة. وإسناد كل منهما حسن»، وأيضاً: ١١/ ٩٩، وعون المعبود: ٤/ ٢٦٥، وتحفة الأحوذي:٥/ ٤٨٩ و ١٠/ ٤، وفيض القدير: ٥/ ٤٢٢، وتهذيب الكمال: ٣٥/ ١٢١، وكشف الخفاء: ٢/ ٢٣١ وقال: «رواه أبو داود والترمذي وأبو يعلى والبزار عن أبي بكر مرفوعاً وقال الترمذي: غريب وليس إسناده بالقوي لكن له شاهد ثم الطبراني في الدعاء عن ابن عباس رضي الله عنهما». قلت: وفي كل هذه المراجع وجدت الحديث بلفظ (سبعين مرة)، أما بلفظ مائة مرة فلم أجده.

(٤٨٩) ابن تيمية: كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ضمن (مجموع الفتاوى): ج: ١٦ ص:٥٧ - ٥٨ .

(٤٩٠) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٣٠٩ - ٣١٠.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل، فالأول: يتعلق بما يتوب منه، والثالث: يتعلق بمن يتوب إليه، والأوسط: يتعلق بذات التائب ونفسه، فنصح التوبة: الصدق فيها والإخلاص وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب وهي أكمل ما يكون من التوبة، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله»[٤٩١].

ومما تقدم يتبين لك أنه لا توبة بلا ندم ولا ندم بلا معرفة المعصية التي واقعها الإنسان وعظمة من عصاه بها، ومعرفة المجازاة عليها في الآخرة بالنار، وحضور ذلك في القلب بما يستجلب الندم .

٤٢٣- تذكير مختصر بحقيقة الندم وعناصره عند الغزالي وغيره من العلماء:

وقد ذكرنا لك سابقاً حقيقة الندم والأسباب الجالبة له وتعريف الغزالي له حيث قال: «وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب، وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه، وأي عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأي مخبر أصدق من الله ورسوله؟، ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيباً أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه لطال في الحال حزنه، فليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار، فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى، فعلامة صحة الندم: رقة القلب، وغزارة الدمع، ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلاً عن حلاوتها، فيستبدل بالميل كراهية، وبالرغبة نفرة»[٤٩٢].

---

(٤٩١) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٣٠٩ - ٣١٠.

(٤٩٢) الغزالي: إحياء علوم الدين : ج: ٤ ص: ٣٤.

ونضيف هنا ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية بشأن الندم حيث قال: «والندم يتضمن ثلاثة أشياء: اعتقاد قبح ما ندم عليه، وبغضه وكراهته، وألم يلحقه عليه»[٤٩٣].

وقال المالكية في التعريف بحقيقة الندم: «وحقيقة الندم تحزن وتوجع على الفعل، وتمني كونه لم يقع»[٤٩٤].

٤٢٤- استشعار التائب مرارة الذنوب مع أنها مشتهاة:

إن تذكر الذنب ومعرفة العبد عظمة من عصاه بهذا الذنب ومعرفة عقوبته في الآخرة جديرة بأن تحول حلاوة الذنوب إلى مرارة، وهنا يأتي السؤال: كيف يستشعر مرارة الذنوب وهي مشتهاة؟؟ وهو سؤال يستحق الإجابة لذا سنورد بعض أقوال العلماء المهمة بشأنه وبشأن بغض المؤمن للسيئة ساعة ارتكابها:

٤٢٥- قول الغزالي في وجدان التائب مرارة الذنوب مع أنها مشتهاة:

قال الإمام الغزالي: «فإن قلت: فالذنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها؟ فأقول: من تناول عسلاً كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه، ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه، فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا؟ فإن قلت لا فهو جحد للمشاهدة والضرورة، بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضاً لشبهه به، فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون، وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم، ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان، ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون فلا ترى إلا معرضاً عن الله تعالى متهاوناً بالذنوب مصراً عليها، فهذا شرط تمام الندم، وينبغي أن يدوم إلى الموت.

وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم، إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه، ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب.

---

(٤٩٣) ابن تيمية: مجموع الفتاوى: ج: ١ ص: ٢٤٨.

(٤٩٤) النفراوي المالكي: الفواكه الدواني: ج١ :ص٧٦.

وأما القصد الذي ينبعث منه هو إرادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له، وأداء كل فرض وهو متوجه عليه في الحال، وله تعلق بالماضي وهو تدارك ما فرط، وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت»(٤٩٥).

٤٢٦- المؤمن يعمل السيئة مع كراهيته وبغضه لها وأقوال العلماء في ذلك:

إن أضعف الإيمان أن يغير المؤمن المنكر بقلبه كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)(٤٩٦)، والتغيير بالقلب يكون بأن ينكره بقلبه فيجد قلبه كارهاً له سواء صدر المنكر منه أم من غيره، لأنه ليس وراء أضعف الإيمان إلا عدم الإيمان، وقد دلت السنة النبوية أيضاً على أن المؤمن يرى ذنوبه كجبال يخاف أن تقع عليه وأن المنافق يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه.

من أجل ذلك لا يمكن أن يفعل المؤمن السيئة وتقر بها عينه، بل يبقى يخالط قلبه الخوف من تبعاتها لأنه يعلم يقيناً أنها سبب فوات محبة الله له وسبب استجلاب سخط الله عليه وما يتبع ذلك من البعد عن الجنة والقرب من النار، وما دامت السيئات هذا شأنها فإن قلب المؤمن لا بد أن يوجد فيه البغض والكراهية لها حتى لو فعلها تحت ضغط غلبة شهواته.

وقد تكلم العلماء في هذه المسألة، ونحن نذكر أقوالهم فيها، ثم نقدم تعقيباً مفيداً بشأنها.

٤٢٧-١- قول ابن تيمية في كراهية المؤمن للسيئة أثناء فعلها :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الإنسان لا يفعل الحرام إلا لضعف إيمانه ومحبته [لله] وإذا فعل مكروهات الحق فلضعف بغضها في قلبه أو لقوة محبتها التي تغلب بغضها، فالإنسان لا يأتي شيئاً من المحرمات كالفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق والشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً والقول على الله بغير علم إلا لضعف الإيمان في أصله أو كماله، أو ضعف العلم والتصديق، وإما ضعف المحبة والبغض، لكن إذا كان

---

(٤٩٥) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٣٤.

(٤٩٦) مسلم (٧٠)، والنسائي (٤٩٢٢)، وأبو داود (٤٦٣)، وابن ماجة (١٢٦٥)، وأحمد (١٠٦٥١).

(أصل) الإيمان صحيحاً وهو التصديق، فإن هذه المحرمات يفعلها المؤمن مع كراهته وبغضه لها.

فهو إذا فعلها لغلبة الشهوة عليه فلا بد أن يكون مع فعلها فيه بغض لها، وفيه خوف من عقاب الله عليها، وفيه رجاء لأن يخلص من عقابها إما بتوبة وإما حسنات وإما عفو وإما دون ذلك، وإلا فإذا لم يبغضها ولم يخف الله فيها ولم يرج رحمته فهذا لا يكون مؤمناً بحال بل هو كافر أو منافق.

فكل سيئة يفعلها المؤمن لا بد أن تقترن بها حسنات له، لكن قوة شهوته للسيئة وما زين له فيها حتى ظن أنها مصلحة له أوجب وقوعها، وهو اتباع الظن وما تهوى الأنفس، وهذا القدر عارض بعض إيمانه فترجح عليه حتى ما هو ضد لبعض الإيمان فلم يبق مؤمناً الإيمان الواجب، كما قال النبي [ﷺ]: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) وهو فيما يفعله متبع للشيطان فيما زينه له حتى رآه حسناً وفيما أمره به فأطاعه، وهذا من الشرك بالشيطان، كما قال تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠-٦١]، ولهذا لم يخلص من الشيطان إلا المخلصون لله، كما قال تعالى عن إبليس: ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠]، فإذا كان الشيطان ليس له سلطان إلا على من أشرك به، فكل من أطاع الشيطان في معصية الله فقد تسلط الشيطان عليه وصار فيه من الشرك بالشيطان بقدر ذلك.

والشيطان يوالي الإنسان بحسب عدم إيمانه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ

شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٨]، وقال تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]... فجميع ما نهى الله عنه هو من شعب الكفر وفروعه، كما أن كل ما أمر الله به هو من الإيمان والإخلاص لدين الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩]، لكن قد يكون ذلك شركاً أكبر، وقد يكون شركاً أصغر، بحسب ما يقترن به من الإيمان.

فمتى اقترن بما نهى الله عنه الإيمان، لتحريمه وبغضه وخوف العقاب ورجاء الرحمة، لم يكن شركاً أكبر. وأما إن اتخذ الإنسان ما يهواه إلهاً من دون الله، وأحبه كحب الله، فهذا شرك أكبر، والدرجات في ذلك متفاوتة...فهؤلاء غير المؤمن الذي يحب الله ورسوله ويأتي بالمحرم معتقداً أنه محرم وهو مبغض له خائف راج»[(٤٩٧)].

٤٢٨-٢- قول ابن القيم في كراهية المؤمن للسيئة حال فعلها:

وفي مسألة أن المؤمن يعمل المعصية مع بغضه وكراهيته لها يقول ابن القيم: «الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها، والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها، ففرحه بها غطى عليه ذلك كله، وفرحه بها أشد ضرراً عليه من مواقعتها، والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبداً، ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به، ومتى خلي قلبه من هذا الحزن واشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه وليبك على موت قلبه، فإنه لو كان حياً لأحزنه ارتكابه للذنب وغاظه وصعب عليه، ولا يحس القلب بذلك، فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام.

وهذه النكتة في الذنب قل من يهتدي إليها أو ينتبه لها، وهي موضع مخوف جداً مترام إلى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء: خوف من الموافاة عليه قبل التوبة، وندم على ما فاته من الله بمخالفة أمره، وتشمير للجد في استدراكه... فالإصرار على المعصية معصية أخرى، والقعود عن تدراك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها وطمأنينة إليها وذلك علامة الهلاك، وأشد من هذا كله المجاهرة بالذنب مع تيقن نظر الرب جل جلاله من

(٤٩٧) ابن تيمية: قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٠٤ ـ ١٠٧.

فوق عرشه إليه، فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم، وإن لم يؤمن بنظره إليه وإطلاعه عليه فكفر وانسلاخ من الإسلام بالكلية، فهو دائر بين الأمرين، بين قلة الحياء ومجاهرة نظر الله إليه، وبين الكفر والانسلاخ من الدين، فلذلك يشترط في صحة التوبة تيقنه أن الله كان ناظراً ولا يزال إليه، مطلعاً عليه، يراه جهرة عند مواقعة الذنب، لأن التوبة لا تصح إلا من مسلم، إلا أن يكون كافراً بنظر الله إليه جاحداً له فتوبته دخوله في الإسلام وإقراره بصفات الرب جل جلاله» [٤٩٨].

٤٢٩-٣- توجيهنا لكراهية المؤمن وبغضه للسيئة أثناء فعلها:

وعلى ذلك فإن قلب المؤمن لابد أن يستشعر المسؤولية والخوف من فعل السيئة فلذلك يخالطه البغض والكراهية لها حتى أثناء ارتكابها، لأنه يحس أنه منساق إليها تحت غلبة الشهوة من جهة وهي سبب عقابه عند الله من جهة أخرى، والمؤمن يعلم بمقتضى إيمانه أن الذنوب سبب للشقاء والعذاب والخسران في الآخرة فيكرهها لأن الإنسان بطبيعته يكره ما يسبب له الأذى ويحب ما يسبب له السعادة، وهذا العلم بضرر السيئات عليه يرافقه أثناء ارتكاب السيئة فهو علم باق معه لا ينفك عنه، فبسبب هذا العلم يكرهها ويمقتها وإن فعلها تحت غلبة الشهوة وضعف الإيمان وتسلط الشيطان وتزيينه وموالاته، ولكنه يفعلها مع كراهيته وبغضه لها والخوف من تبعاتها مخالطاً قلبه الرجاء بأن يتخلص من تبعاتها بتوبة أو عفو أو حسنات ماحية أو نحو ذلك، وكل ذلك بسبب وجود أصل الإيمان الذي يثمر الخوف والرجاء، وبسبب وجود واعظ الله في قلب كل مؤمن.

قال الغزالي: «قال بعض العارفين: إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام، أحدهما: إذا خرج من بطن أمه يقول له عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلي كيف تلقاني، والثاني: عند خروج روحه يقول عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، وبقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]» [٤٩٩].

---

(٤٩٨) ابن القيم : مدارج السالكين: ج١ :ص١٨٠ - ١٨١ .

(٤٩٩) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ١٢.

٤٣٠- التوبة النصوح تتضمن الاعتراف بالذنب والاستغفار منه:

العبد بعد وقوع الذنب بين أمرين: إما الإصرار، وإما التوبة والاستغفار.

والتوبة والاستغفار سببهما الندم الناشئ من العلم والإيمان بأن الذنوب تفضي إلى الهلاك والخسران في الآخرة.

والندم مع الخوف من العقاب ورجاء المغفرة ينتزع من العبد الكبر والعجب، ويوجد الذل لله، والانكسار له، والافتقار لعفوه، بما يفضي إلى الاعتراف أمام الله تعالى بأنه أذنب، فيصير معترفاً بذنبه، نادماً عليه، خائفاً من عقابه، راجياً عفو ربه.

ومن لا يعترف بذنبه أمام الله تعالى يكون إما جاهلاً بأنه أذنب ومن ثم لا يتوب، أو غير نادم ومن ثم غير تائب، وهكذا يكون الاعتراف بالذنب لازم للتوبة بوجه عام وللتوبة النصوح بوجه خاص حيث يفترض فيها الحسن والكمال. ومن هنا جاء في سيد الاستغفار: (... وأبوء بذنبي فاغفر لي)[٥٠٠] أي أرجع وأعترف بذنبي مقراً به فاغفر لي.

قال ﷺ: (... فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه) »[٥٠١].

قال البيهقي في شرحه: «... وأخبر - ﷺ - بقبول الله توبة العبد متى ما اعترف بذنبه وتاب منه »[٥٠٢].

٤٣١- المقصود بالاعتراف بالذنب: أمام الله وليس أمام الناس:

وجاء في «طرح التثريب» في شرح هذا الحديث: «فيه قبول التوبة والحث عليها، وفيه أن مجرد الاعتراف لا يغني عن التوبة بل إذا اعترف به متنصلاً نادماً، وليس المراد الاعتراف بذلك للناس بل الاعتراف لله تعالى، فإن الإنسان مأمور بالستر»[٥٠٣].

---

(٥٠٠) البخاري (٥٨٣١) وانظر أيضاً في: الترمذي (٣٣١٥) والنسائي (٥٤٢٧) وأبو داود (٤٤٠٨) وابن ماجة (٣٨٦٢) واحمد (١٦٤٨٨).

(٥٠١) متفق عليه: البخاري (٢٤٦٧) واللفظ له، ومسلم (٤٩٧٤) بلفظ «إذا اعترف بذنب».

(٥٠٢) البيهقي: سنن البيهقي: ج ٥ : ص ٣٨٦.

(٥٠٣) عبد الرحيم العراقي: طرح التثريب: ج٨: ص٦٥-٦٦.

٤٣٢- أقوال العلماء في الاعتراف بالذنب أمام الله تعالى:

٤٣٣-١- قول القرطبي في الاعتراف بالذنب:

قال القرطبي في عظيم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منه ذاكراً أحد وجوه تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]: قال الحسن بن الفضل: (وهم يعلمون) أن لهم رباً يغفر الذنب.

قلت [أي القرطبي]: وهذا أخذه من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: أذنب عبد ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي فذكر مثله مرتين وفي آخره (اعمل ما شئت فقد غفرت لك) أخرجه مسلم... ودلت الآية والحديث على عظيم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منه، قال ﷺ: (إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله، تاب الله عليه) أخرجاه في الصحيحين، وقال - بعضهم -:

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف   بما جنى من الذنوب واقترف

وقال آخر:

أقرر بذنبك ثم اطلب تجاوزه   إن الجحود جحود الذنب ذنبان[٥٠٤]

٤٣٤-٢- قول ابن كثير في الاعتراف بالذنب:

وقال ابن كثير في تفسير الآية: « ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ...﴾ [التوبة: ١٠٢] أي أقروا بها، واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أخر صالحة خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين»[٥٠٥].

(٥٠٤) تفسير القرطبي ج: ٤ ص: ٢١٢-٢١٣.

(٥٠٥) ابن كثير: تفسير ابن كثير ج: ٢ ص: ٣٨٦.

٤٣٥-٣- قول ابن تيمية في الاعتراف بالذنب:

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مسألة الاعتراف بالذنب لله تعالى الذي ينبغي أن تتضمنه التوبة ذاكراً بعض صيغ الاعتراف بالذنب: «قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: (دعوة أخي ذي النون: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته) سماها دعوة لأنها تتضمن نوعي الدعاء، فقوله: (لا إله إلا أنت) اعتراف بتوحيد الإلهية، وتوحيد الإلهية يتضمن أحد نوعي الدعاء، فإن الإله هو المستحق لأن يدعى دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وهو الله لا إله إلا هو، وقوله: (إني كنت من الظالمين) اعتراف بالذنب، وهو يتضمن طلب المغفرة، فإن الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب وتارة يسأل بصيغة الخبر، إما بوصف حاله، وإما بوصف حال المسؤول، وإما بوصف الحالين، كقول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، فهذا ليس صيغة طلب، وإنما هو إخبار عن الله أنه إن لم يغفر له ويرحمه خسر، ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة، وكذلك قول آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] هو من هذا الباب»(٥٠٦).

٤٣٦-٤- قول ابن القيم في الاعتراف بالذنب:

وقال ابن القيم في ضرورة تضمن التوبة الاعتراف بالذنب لله تعالى والاعتذار المحمود: «فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم هو حقيقة التوبة، ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط له، فأما الندم فإنه على أن لا يعاوده في المستقبل، والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم ويقلع ويعزم، فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها، وهذا الرجوع لا تتحقق التوبة إلا به إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به وإصراره عليه، وفي المسند: (الندم توبة)(٥٠٧)، وأما الإقلاع فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب، وأما الاعتذار - بمعنى

---

(٥٠٦) ابن تيمية: دقائق التفسير ج: ٢ ص: ٣٦١.

(٥٠٧) أخرجه ابن ماجة (٤٢٤٢)، وأحمد (٣٣٨٧) و(٣٨٠٩) و(٣٨١١).

التماس العذر لنفسه كالاحتجاج بالقدر ونحوه -... فإن من الناس من يقول من تمام التوبة ترك الاعتذار فإن الاعتذار محاجة عن الجناية وترك الاعتذار اعتراف بها.

ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف... فتمام الاعتراف ترك الاعتذار - أي ترك التحجج بأي حجة أو عذر لنفسه بارتكاب الذنب - بأن يكون في قلبه ولسانه اللهم لا براءة لي من ذنب فأعتذر ولا قوة لي فأنتصر ولكني مذنب مستغفر، اللهم لا عذر لي وإنما هو محض حقك ومحض جنايتي، فإن عفوت وإلا فالحق لك، والذي ظهر لي من كلام صاحب «المنازل» أنه أراد بالاعتذار: إظهار الضعف والمسكنة وغلبة العدو وقوة سلطان النفس، وأنه لم يكن مني ما كان عن استهانة بحقك ولا جهلاً به ولا إنكاراً لاطلاعك ولا استهانة بوعيدك، وإنما كان من غلبة الهوى وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة وطمعاً في مغفرتك واتكالاً على عفوك وحسن ظن بك ورجاء لكرمك وطمعاً في سعة حلمك ورحمتك وغرني بك الغرور والنفس الأمارة بالسوء وسترك المرخَى علي وأعانني جهلي ولا سبيل إلى الاعتصام لي إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك، ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار والاعتراف بالعجز والإقرار بالعبودية، فهذا من تمام التوبة.. فهو أيضاً يحب من عبده أن يعتذر إليه - بمعنى الاعتراف بالذنب - ويتنصل إليه من ذنبه، وفي الحديث: (من اعتذر إلى الله قبل الله عذره)[٥٠٨] فهذا هو الاعتذار المحمود النافع وأما الاعتذار بالقدر فهو مخاصمة لله واحتجاج من العبد على الرب وحمل لذنبه على الأقدار وهذا فعل خصماء الله»[٥٠٩].

٤٣٧-٥- قول الشوكاني في الاعتراف بالذنب:

قال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ١٠٢]: «... والمعنى أن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا أن يتوب الله عليهم، والمراد بالعمل

(٥٠٨) المنذري: الترغيب والترهيب (٤٣٢٩) وقال: «رواه البيهقي مرفوعاً وموقوفاً على أنس ولعله الصواب».

(٥٠٩) ابن القيم: مدارج السالكين ج ١ : ص ١٨٢ـ ١٨٣.

الصالح ما تقدم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن، والمراد بالعمل السيئ هو تخلفهم عن هذه الغزوة وقد أتبعوا هذا العمل السيئ عملاً صالحاً وهو الاعتراف به والتوبة عنه. وأصل الاعتراف: الإقرار بالشيء. ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي والعزم على تركه في الحال والاستقبال، وقد وقع منهم ما يفيد هذا... وحرف الترجي وهو (عسى) في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع، لأن الإطماع من الله سبحانه إيجاب لكونه أكرم الأكرمين (إن الله غفور رحيم) أي يغفر الذنوب ويتفضل على عباده»(٥١٠).

٤٣٨- نموذج لمناجاة التائب توبة نصوحاً ودعائه متضمناً الاعتراف بالذنب:

قد ذكرنا لك سابقاً في مبحث فضل التوبة ومكانتها في الإسلام: أن حال العبد وهو تائب يستغفر ربه منيباً إليه هي حالة عبودية خالصة، صادقة، تتضمن الافتقار التام، افتقار العبد لربه وخضوعه له، وأنه لا نجاة له إلا بغفرانه وعفوه ورحمته.

وهذا الافتقار والخضوع والتذلل هو جوهر العبادة الحقة من العبد لربه جل جلاله، وهي من أحسن حالات العبد بين يدي ربه، إذ يعرف للربوبية - قدر استطاعته - حقها من الغنى والعز والتفرد بالمشيئة، والتفرد بالقدرة على العفو والمغفرة، ويعرف لعبوديته لله حقيقتها من الافتقار التام والاحتياج الدائم، فينشأ عن ذلك لجوء العبد إلى ربه لجوءاً تاماً خالصاً مخلصاً، لجوء من لا نجاة له من عقاب ربه إلا إليه لغفران ذنبه، فيدعوه، متضرعاً مبتهلاً، محباً راجياً وجلاً، راغباً راهباً.

فما أعظمه من تضرع وابتهال حين يقول: (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)(٥١١).

وما أعظمه من دعاء حين يتضرع إلى الله بالكلمات التي علمها الله تعالى آدم ليتوب عليه: «سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير

---

(٥١٠) الشوكاني: تفسير فتح القدير ج: ٢ ص: ٣٩٩.

(٥١١) هذا الدعاء سماه النبي ﷺ بـ «سيد الاستغفار» انظر: البخاري (٥٨٣١) وانظر أيضاً في: الترمذي (٣٣١٥) والنسائي (٥٤٢٧) وأبو داود (٤٤٠٨) وابن ماجة (٣٨٦٢) وأحمد (١٦٤٨٨).

الغافرين، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم»[٥١٢].

وما ظنك برحمة الله بعبد، تائب أو تائبة، يبتهل إلى الله في توبته ويعتذر إليه عن معصيته، مقراً ومعترفاً بالتقصير، نادماً أشد الندم على ما جرى من تفريط بواجب، أو اقتحام حد من حدود الله أو ذنب، فيجلس بين يدي ربه، بانكسار خاطرٍ وقلبٍ مجروح، قلبٍ كسير، كسرتهُ وجرحتهُ الذنوب، وأرقهُ الندم على الذنب، أو الندم على ما فات من العمر وضاع في غضب الله وسخطه، ثم أناب إلى الله، ورجع بعد الشرود، وقد انكسر بين يديه، وسالت دموعه على خديه، يرجو رحمة ربه وغفران ذنبه، ويناجيه وهو السميع لمناجاته، العليم بخطرات قلبه وهمسات شفاهه، يدعوه أن يقيل عثرته، ويغفر زلته، ويرحم دمعته، ويقبل عودته فيدخله في الصالحين ويلحقه بالمتقين.

يدعوه - بعد أن يأتي بسيد الاستغفار المتقدم ذكره وغيره - ثم يقول:

اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، الحي القيوم ذو الجلال والإكرام، المنان بديع السماوات والأرض المبدئ المعيد، وبكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك.. أسألك بعزك وذلي بين يديك، وبغناك عني وفقري إليك، أسألك مسألة المسكين وأتضرع إليك تضرع الخائف الذليل، وأدعوك دعاء المفتقر الضرير، وأستغيث بك استغاثة المذنب الغريق، سؤال من ذلت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وخشع لك قلبه، ودمعت لك عيناه..

---

(٥١٢) الترغيب والترهيب ٢/ ٣١١ برقم (٢٥١١)، قال: عن أنس أيضاً ﷺ في قوله عز وجل: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، قال، قال: سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءا... وساق الحديث ثم قال: ذكر أنه عن النبي ﷺ ولكن شك فيه، رواه البيهقي وفي إسناده من لا يحضرني حاله. قلت: ومعظم التفاسير تذكر في أحد وجوه التفسير أن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه هي هذه الكلمات، وسيأتي مزيد من التفصيل بشأنها في فصل قادم إن شاء الله.

أسألك سؤال من عمل سوءاً وظلم نفسه ثم ذكر الله فاستغفر لذنوبه، سؤال شريد طريد قد أثقلته الذنوب فلجأ إلى بابك، واحتمى بجنابك، سؤال من علم أن لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك..

أسألك بعظمتك وجلالك يا من (تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده)، أسألك يا من (يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته)، أسألك يا من عجز الخلق أن يقدروه حق قدره وعظمته (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه)، أسألك يا من لعظمته وجلاله (تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم)..

أسألك وأتضرع إليك وأنت من فوقي حاضر ناظر سامع شهيد بصير، إلا رحمتني، وغفرت لي، وعفوت عني، وتبت علي، وأذقتني برد عفوك وحلاوة مغفرتك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك، فأنت الرحمن الرحيم، وأنت العفو الغفور، وأنت الغفور الودود، أسألك رضاك والجنة وأعوذ بك من سخطك والنار، وأن تقيل عثرتي، وتغفر زلتي، وتغيث لهفتي، وترحم دمعتي، وتقبل توبتي وتجعلها توبة نصوحاً، وتجعلني ممن قلت فيهم: (يحبهم ويحبونه) وممن قلت فيهم: (رضي الله عنهم ورضوا عنه)، ومن أهل قـولك: (وهم من فزعٍ يومئذٍ آمنون)، يا من وسعت رحمتك كل شيء، وفاضت نعمتك على كل شيء، فإن مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي، يا واسع المغفرة، يا ذا الفضل العظيم، يا خير الغافرين ويا أرحم الراحمين.

المطلب الثاني
التـوبـة المعلـولـة

٤٣٩- تمهيد وتقسيم:

من أجل تمييز التوبة النصوح عن غيرها لابد من معرفة العلل التي قد تقترن بالتوبة فتجعلها غير صحيحة، وهذا يقتضينا معرفة حقيقة التوبة المعلولة التي لا تقبل.

وقد يشتبه بالتوبة المعلولة أنواع من التوبة اختلف فيها العلماء هل هي توبة معلولة أم توبة صحيحة، وذلك مثل توبة العاجز عن الذنب بعد أن كان قادراً عليه فهل تكون

توبته صحيحة مع أنه أصبح عاجزاً عن ارتكاب الذنب أصلاً لا يمكن أن يتحقق منه الإقلاع الاختياري عن الذنب؟ ومثل توبة من توسط الحرام وتاب أثناء ذلك فما حكم توبته، هل هي توبة صحيحة أم توبة معلولة؟

وعلى ذلك فسنبحث في هذا المطلب ثلاثة أشياء:

الأول: حقيقة التوبة المعلولة وأقوال العلماء فيها.

والثاني: توبة العاجز عن الذنب هل هي توبة معلولة أم صحيحة وأقوال العلماء فيها.

والثالث: توبة من توسط الحرام هل هي توبة معلولة أم صحيحة وأقوال العلماء فيها.

٤٤٠- أولاً - حقيقة التوبة المعلولة وأقوال العلماء فيها:

قد علمت حقيقة التوبة النصوح وأركانها، ولكن من الممكن أن يتحقق معظم هذه الأركان من حيث الظاهر ولغرض دنيوي، فلا تكون التوبة نصوحاً أو صحيحة بل تكون معلولة فلا تقبل.

فقد يتحقق ركن الندم على الذنب ولكن المذنب ندم عليه لأنه أضر بصحته، أو لأنه خسر عليه من ماله، أو أضر بسمعته وجاهه بين الناس، أو نحو ذلك من الأسباب.

وقد يتحقق الإقلاع عن ذلك الذنب لنفس الأسباب المتقدمة، وكذلك يتحقق العزم على عدم العودة إليه للأسباب ذاتها.

وكذلك قد (يتحلل من حقوق الغير) دفعاً للمشاكل وإيثاراً للسلامة.

وكل ذلك أسباب دنيوية وصاحبها ليس بتائب وإنما هو (تارك).

ولا شك أن هذا الترك خير له من التمادي في الذنب وتكراره، في الدنيا والآخرة، ولكنه ليس هو التوبة التي نتحدث عنها.

وبعض العلماء سمى فعله هذا تجوزاً (توبة معلولة أو مدخولة) أي مغشوشة لا صادقة ولا خالصة وهي تسمية ابن القيم، وبعضهم سماه (تاركاً) ولم يطلق على فعله اسم التوبة أصلاً كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهم الله جميعا.

وعلى كل حال فإن هذا الفعل سواء أطلق عليه توبة معلولة أي فيها علة تفسدها، أو أطلق عليه اسم الترك، فإنه لا يدخل في العمل الصالح المقبول عند الله تعالى بوصفه عملاً صالحاً لأن شرط العمل الصالح: أن يكون خالصاً لله تعالى، وأن يكون صواباً.

ومما تقدم يظهر أن التوبة لا تصح إذا كانت لسبب دنيوي، بل لا بد أن تكون لسبب ديني، وهو الخوف من الله تعالى وعقابه في الدنيا والآخرة أو الحياء منه، بما يؤدي إلى الرجوع إلى الله تعالى نادماً، مقلعاً، عازماً على أن لا يعود إلى الذنب، وهذا معنى قولنا إنه يتوب لسبب ديني وليس لسبب دنيوي.

ونقدم فيما يلي قول شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك ثم قول ابن القيم:

٤٤١- قول ابن تيمية في التوبة المعلولة:

٤٤٢- التوبة الخالية من الإخلاص صاحبها تارك وليس بتائب:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد يظن الظان أنه تائب ولا يكون تائباً بل يكون تاركاً، والتارك غير التائب، فإنه قد يعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله، أو لعجزه عنه، أو تنتفي إرادته له بسبب غير ديني، وهذا ليس بتوبة، بل لا بد من أن يعتقد أنه سيئة ويكره فعله لنهي الله عنه، ويدعه لله تعالى لا لرغبة مخلوق ولا لرهبة مخلوق، فإن التوبة من أعظم الحسنات، والحسنات كلها يشترط فيها الإخلاص لله وموافقة أمره، كما قال الفضيل بن عياض في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول في دعائه: اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً»[٥١٣].

٤٤٣- الاستغفار المجرد بلا توبة ليس توبة معلولة بل هو دعاء:

وقال ابن تيمية أيضاً: «وأما الاعتراف بالذنب على وجه الخضوع من غير إقلاع عنه فهذا في نفس الاستغفار المجرد الذي لا توبة معه، وهو كالذي يسأل الله تعالى أن يغفر له الذنب مع كونه لم يتب منه، وهذا يأس من رحمة الله، ولا يقطع بالمغفرة له فإنه داع دعوة مجردة، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (ما من داع يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا كان بين إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له من الجزاء مثلها، وإما أن يصرف من الشر مثلها، قالوا: يا رسول الله إذا نكثر، قال: الله

---

(٥١٣) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٥١.

أكثر)[514]، فمثل هذا الدعاء قد تحصل معه المغفرة، وإذا لم تحصل فلا بد أن يحصل معه صرف شر آخر أو حصول خير آخر، فهو نافع كما ينفع كل دعاء، وقول من قال من العلماء: الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين، فهذا إذا كان المستغفر يقوله على وجه التوبة، أو يدعي أن استغفاره توبة وأنه تائب بهذا الاستغفار، فلا ريب أنه مع الإصرار لا يكون تائباً، فإن التوبة والإصرار ضدان، الإصرار يضاد التوبة، لكن لا يضاد الاستغفار بدون التوبة » [515].

٤٤٤-٢- قول ابن القيم في التوبة المعلولة:

قال ابن القيم وهو يتكلم عن النصح في التوبة والإخلاص فيها، أو تجردها عن الإخلاص فتكون معلولة غير صحيحة:

«... الثالث، تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل» [516].

وتحدث ابن القيم في موضع آخر وهو يصف المؤمن المخلص في التوبة الذي يخاف أن تكون توبته (توبة علة) غير مقبولة فيتهم توبته ويجد في تخليصها من الشوائب فقال:

«وأما اتهام التوبة فلأنها حق عليه لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه الذي ينبغي له أن يؤديه عليه، فيخاف أنه ما وفاها حقها، وأنها لم تقبل منه، وأنه لم يبذل جهده في صحتها، وأنها (توبة علة) وهو لا يشعر بها، كتوبة أرباب الحوائج

---

(٥١٤) أحمد (١٠٧٠٩) و(٢١٧٢٠)، ومالك (٤٥٣)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين ١/ ٦٧، ومجمع الزوائد ١٠/ ١٤٨، ومصنف ابن أبي شيبة:٦/ ٢٢، وقال العراقي: «ولأحمد، والبخاري في الأدب المفرد،، والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي سعيد (إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخر له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها (إحياء علوم الدين: ١/ ٣٠٤) ».

(٥١٥) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٥٢.

(٥١٦) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٣١٠.

والإفلاس، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس، أو أنه تاب محافظة على حاله فتاب للحال لا خوفاً من ذي الجلال، أو أنه تاب طلباً للراحة من الكد في تحصيل الذنب، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه، أو لضعف داعي المعصية في قلبه وخمود نار شهوته، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في كون التوبة خوفاً من الله وتعظيماً له ولحرماته... » [٥١٧].

٤٤٥- ثانيا - توبة العاجز هل هي توبة معلولة؟ وأقوال العلماء فيها:

٤٤٦- العاجز انعدمت قدرته على الذنب فكيف يتصور منه الإقلاع الاختياري والعزم على تركه؟:

ومما يتصل بموضوع الإخلاص في التوبة وعدمه، مسألة توبة العاجز الذي أصابه عجز أدى إلى انعدام قدرته على ارتكاب الذنب فتركه عملياً حيث أصبح الذنب غير مقدور له، هل يصح منه أو يقبل العزم على عدم العودة إلى الذنب فيكون تائباً توبة صحيحة أم لا يصح ولا يتصور لأنه عاجز عنه أصلاً؟ ومن ثم تكون توبته غير صحيحة أي معلولة بدعوى عدم صحة العزم وعدم وجود الإقلاع الاختياري منه، وفيما يلي نبين أقوال العلماء في ذلك ثم نبين الرأي الذي نختاره مع الدليل.

٤٤٧-١- قول الغزالي في توبة العاجز:

يرى الإمام الغزالي أن العاجز عن ارتكاب الذنب في المستقبل لا يتصور منه الإقلاع عن الذنب - وهو ركن في التوبة - وذلك لأن القدرة على الفعل قد انعدمت، ولكن الغزالي عاد فقال إنه لا يستبعد صحة توبته وقبولها إذا بلغ ندمه مبلغاً بحيث لو كان قادراً على ارتكاب الذنب لم يرتكبه لشدة ندمه وأن هذا الندم كاف لمحو ذنبه، ونورد فيما يلي ما قاله الغزالي بشأن توبة العاجز:

قال الإمام الغزالي: «فإن قلت: هل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة؟ فأقول: لا، لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله، وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه، ولكني أقول: لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث

(٥١٧) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ١٨٥.

لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها فإني أرجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه وماحياً عنه سيئته، إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده، فإذن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه فإن كل من لا يشتهى شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه بل الظاهر أنه يقبله.

والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين: أحدهما حرقة الندم، والآخر: شدة المجاهدة بالترك في المستقبل، وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة، ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة، ولولا هذا لقلنا إن التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً» (٥١٨).

٤٤٨-٢- قول ابن تيمية في توبة العاجز أنها صحيحة:

يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن توبة العاجز عن الذنب صحيحة فيقول: «... توبة العاجز عن الفعل كتوبة المجبوب عن الزنا، وتوبة الأقطع العاجز عن السرقة، ونحوه من العجز، فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم، وخالف في ذلك بعض القدرية بناء على أن العاجز عن الفعل لا يصح أن يثاب على تركه الفعل...، وليس كذلك بل إرادة العاجز عليها الثواب والعقاب كما بينا، وبينا أن الإرادة الجازمة مع القدرة تجرى مجرى الفاعل التام، فهذا العاجز إذا أتى بما يقدر عليه من مباعدة أسباب المعصية بقوله وعمله وهجرانها وتركها بقلبه كالتائب القادر عليها سواء» (٥١٩).

٤٤٩-٣- تحرير ابن القيم لمسألة توبة العاجز:

وقد حرر هذا الموضع وحققه ابن القيم رحمه الله فذكر القولين وأدلتهما ثم رجح ما رآه صوابا فقال: «ومن أحكامها [أي التوبة] أن العاصي إذا حيل بينه وبين أسباب

---

(٥١٨) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٤٠-٤١.
(٥١٩) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٧٤٦.

المعصية وعجز عنها بحيث يتعذر وقوعها منه هل تصح توبته؟ وهذا كالكاذب، والقاذف، وشاهد الزور إذا قطع لسانه، والزاني إذا جب، والسارق إذا أتي على أطرافه الأربعة، والمزور إذا قطعت يده، ومن وصل إلى حد بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها، ففي هذا قولان للناس: »(٥٢٠)

ثم عرض ابن القيم حجج الفريقين: حجج القائلين بعدم صحة توبة العاجز، وحجج القائلين بصحة توبته، وهو منهم، وأضاف حججاً تعضد الرأي الثاني وهو القول بصحة توبة العاجز.

٤٥٠- أ - تلخيص ابن القيم لحجج القائلين بعدم صحة توبة العاجز:

قال ابن القيم: «فقالت طائفة لا تصح توبته. لأن التوبة إنما تكون ممن يمكنه الفعل والترك، فالتوبة من الممكن لا من المستحيل...

قالوا: ولأن التوبة مخالفة داعي النفس وإجابة داعي الحق ولا داعي للنفس هنا إذ يعلم استحالة الفعل منها.

قالوا: ولأن هذا كالمكره على الترك المحمول عليه قهراً ومثل هذا لا تصح توبته.

قالوا: ومن المستقر في فطر الناس وعقولهم أن توبة المفاليس وأصحاب الحوائج توبة غير معتبرة ولا يحمدون عليها بل يسمونها توبة إفلاس، وتوبة حاجة، قال الشاعر:

ورحـــتُ عـــن توبَتِـــهِ ســـائلاً وجـــدتُها توبـــةَ إفـــلاسِ

قالوا: ويدل على هذا أيضاً أن النصوص المتضافرة المتظاهرة قد دلت على أن التوبة عند المعاينة لا تنفع لأنها توبة ضرورة لا اختيار، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧-١٨]...فهي كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، ويوم القيامة، وعند معاينة بأس الله.

---

(٥٢٠) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٢٨٣- ٢٨٤.

قالوا: ولأن حقيقة التوبة هي كف النفس عن الفعل الذي هو متعلق النهي، والكف إنما يكون عن أمر مقدور، وأما المحال فلا يعقل كف النفس عنه، ولأن التوبة هي الإقلاع عن الذنب وهذا لا يتصور منه الإيقاع حتى يتأتى منه الإقلاع.

قالوا: ولأن الذنب عزم جازم على فعل المحرم يقترن به فعله المقدور، والتوبة منه عزم جازم على ترك المقدور يقترن به الترك، والعزم على غير المقدور محال... والترك في حق هذا ضروري لا عزم غير مقدور بل هو بمنزلة ترك الطيران إلى السماء [بلا آلة وهو مثال على الاستحالة] ونقل الجبال وغير ذلك» [٥٢١].

٤٥١- ب - ردود ابن القيم على القائلين بعدم صحة توبة العاجز:

٤٥٢-١- أركان التوبة مجتمعة فيه:

قال ابن القيم: والقول الثاني وهو الصواب: أن توبته صحيحة ممكنة، بل واقعة. فإن أركان التوبة مجتمعة فيه، والمقدور له منها الندم. وفي المسند مرفوعاً: (الندم توبة) فإذا تحقق ندمه على الذنب ولومه نفسه عليه فهذه توبة.

٤٥٣-٢- لا يصح أن تسلب التوبة عنه مع شدة ندمه:

وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه مع شدة ندمه على الذنب ولومه نفسه عليه؟ ولا سيما ما يتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه وعزمه الجازم ونيته أنه لو كان صحيحاً والفعل مقدوراً له لما فعله.

٤٥٤-٣- الشرع أنزل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها إذا صحت نيته:

وإذا كان الشارع قد أنزل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها إذا صحت نيته كقوله في الحديث الصحيح: (إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً)وفي الصحيح أيضاً عنه: (إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة حبسهم العذر)، وله نظائر في الحديث. فتنزيل العاجز عن المعصية التارك لها قهراً مع نيته تركها اختياراً لو أمكنه منزلة التارك المختار أولى. يوضحه:

---

(٥٢١) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

أن مفسدة الذنب التي يترتب عليها الوعيد تنشأ من العزم عليه تارة ومن فعله تارة، ومنشأ المفسدة معدوم في حق هذا العاجز فعلاً وعزماً، والعقوبة تابعة للمفسدة.

٤٥٥-٤- العاجز عن الفعل غير عاجز عن التمني والوداد فإذا تركه وقطعه كان تائباً:

وأيضاً: فإن هذا تعذر منه الفعل ما تعذر منه التمني والوداد، فإذا كان يتمنى ويود لو واقع الذنب ومن نيته أنه لو كان سليماً لباشره فتوبته بالإقلاع عن هذا الوداد والتمني، والحزن على فوته، فإن الإصرار متصور في حقه قطعاً، فيتصور في حقه ضده وهو التوبة، بل هي أولى بالإمكان والتصور من الإصرار وهذا واضح.

٤٥٦-٥- العاجز عن الفعل لم ينقطع عنه التكليف فلا يقاس على المعاين ومن ورد القيامة:

والفرق بين هذا وبين المعاين ومن ورد القيامة أن التكليف قد انقطع بالمعاينة وورود القيامة، والتوبة إنما تكون في زمن التكليف، وهذا العاجز لم ينقطع عنه التكليف فالأوامر والنواهي لازمة له والكف متصور منه عن التمني والوداد والأسف على فوته وتبديل ذلك بالندم والحزن على فعله، والله أعلم» [(٥٢٢)].

٤٥٧- الرأي الذي نختاره ودليله:

٤٥٨-١- توبة العاجز صحيحة وقول الجمهور بصحتها هو الصواب لقوة دليله:

والرأي المختار عندي هو رأي جمهور العلماء من أهل السنة والجماعة القائلين بصحة توبة العاجز، نظراً لقوة دليلهم وموافقته لنصوص الكتاب والسنة، وأصول التكليف المستقاة منهما.

٤٥٩-٢- القول بعدم صحة توبة العاجز يجعله غير مكلف بالتوبة وهو واضح البطلان:

فإن من قواعد التكليف بالفعل في علم الأصول أنه: لا تكليف إلا بمقدور، فإذا قلنا بعدم صحة التوبة من العاجز فكأننا نقول بفقدان الاستطاعة على التوبة أصلاً وبهذا يرتفع عنه التكليف، بينما نحن نعلم ضرورة أنه مكلف بالتوبة وبغيرها من أركان الإسلام

---

(٥٢٢) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٢٨٥- ٢٨٦.

وشعب الإيمان، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

٤٦٠-٣- ليس في الشرع أن الله تعالى يمنع بالغاً عاقلاً أن تتأتى منه التوبة وهو نادم على ما فرط في جنب الله:

وكيف يتصور أن شرع الله يمنع عبداً من أن تتأتى منه التوبة - بدعوى أنه لا يتصور أن يتأتى منه الإقلاع الاختياري لعجزه - وهو راجع إلى الله تعالى نادماً حزيناً باكياً خائفاً مستغفراً تائباً منيباً يكره ذنبه ويمقته خوفاً من الله ورجاء لرحمته والله تعالى يقول بشأن من يلحقهم بالمتقين ويورثهم جنات النعيم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦] وهل يكون مصراً على الذنب من يتقطع قلبه أسى وحسرة وندماً وتذرف عيناه الدموع على ما فرط في جنب الله والنبي ﷺ يقول: (الندم توبة)[٥٢٣] فهذا تائب قطع الله عنه أسباب القدرة على تلك المعصية رحمة به وإبقاء لتوبته.

وكيف يتصور في شرع الله أن الله تعالى يفتح باب التوبة على مصراعيه ويدعو كل الخلق إليه، كافرهم ومسلمهم، حتى الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً، ثم يغلق باب التوبة على هذا العاجز ويجعل ذنبه لزاماً عليه، غراماً، لا طريق له للانفكاك منه فلا ينفع معه ندم ولا بكاء، ولا تصح معه توبة!!؟.

٤٦١-٤- القول بصحة توبة العاجز هو المتفق مع نهج الشارع في التشريع ومع مبدأ رفع الحرج:

وأيضاً: فإن القول بصحة توبته هو المتفق مع مبادئ الشريعة كرفع الحرج، والمتفق مع مقاصد الشريعة في حفظ مصالح العباد في الدارين والمتفق مع نهج الشارع في التشريع.

فإن نهج الشارع الحكيم في تشريع الأحكام يدل دلالة قاطعة على أن المكلف الذي لا يقدر على التكليف الأصلي أو كان شاقاً عليه، قبل منه ما يقدر عليه، فمن لم يقدر على

---

(٥٢٣) أخرجه ابن ماجة (٤٢٤٢)، وأحمد (٣٣٨٧) و(٣٨٠٩) و(٣٨١١).

الصلاة قائماً قبل منه الصلاة قاعداً فإن لم يقدر فمنطرحاً فإن لم يقدر فإيماء، ومن لم يقدر على الوضوء لتضرره بالماء قبل منه التيمم مع وجود الماء، ومن لم يقدر على الصوم كالشيخ الفاني قبل منه الفدية. وهذا نهج مطرد في الشريعة، وكله قائم على أساس مبدأ رفع الحرج فينتقل من الفعل غير المقدور له الواجب بالحكم الأصلي إلى فعل مقدور له لتمكينه من القيام بالواجب على الوجه الذي يقدر عليه، وكل هذا مبني على نصوص القرآن والسنة، فمن ذلك قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٧]، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقوله ﷺ: (وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم)[٥٢٤].

٤٦٢-٥- الشرع يقبل من العاجز ما يقدر عليه لتحقيق توبته المكلف بها:

واستنباطاً من نهج الشارع في التشريع نقول: ما دامت التوبة واجبة على الفور بالإجماع وأنها على كل مسلم، ولها أركانها المعلومة، فإن من لا يقدر على أحد أركانها وهو (الإقلاع الاختياري عن الذنب) لعجزه الجسدي عنه وفقد القدرة على الفعل - لسبب خارج عن إرادته - فإن وجوب التوبة لا يسقط عنه، والشرع يقبل منه ما يقدر عليه وهو الندم على ما فرط في جنب الله ومقت الذنب وكراهيته له الذي يقوم مقام الإقلاع عنه، وهذا هو المقدور له، ولا تكليف إلا بمقدور، وبهذا تكون توبته صحيحة، والله أعلم.

٤٦٣- ثالثا - توبة من توسط الحرام هل هي توبة معلولة أم صحيحة؟:

ومما له صلة بموضوع التوبة التي قد تكون معلولة لسبب ما أو تعد صحيحة مع ذلك السبب، توبة من توسط الحرام ولا يمكنه الخروج منه إلا بارتكاب ما ظاهره حرام أيضاً كمن توسط أرضاً مغصوبة ليس له الحق في دخولها والمشي فيها ثم تاب أثناء ذلك وهو في وسطها ولا يمكنه الخروج منها إلا بمحرم هو المشي فيها لكي يخرج منها فهل تصح توبته؟ وهناك أمثلة أخرى أكثر خطورة من هذا المثل سترد في أقوال العلماء.

---

(٥٢٤) متفق عليه: البخاري (٦٧٤٤) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠) بلفظ « فإذا ».

فقد تكلم العلماء في هذا الموضوع وبينوا أن توبته صحيحة، خلافاً لبعض الأقوال الضعيفة. ونحن نورد فيما يلي قول شيخ الإسلام ابن تيمية ثم نتبعه بقول العلامة ابن القيم في تحرير هذا الموضع حيث لخص أقوال العلماء ثم رجح ما رآه صواباً.

٤٦٤-١- قول ابن تيمية في توبة من توسط الحرام:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية «وقد تنازع الناس في العبد هل يصير في حال تمتنع منه التوبة إذا أرادها؟ و الصواب الذي عليه أهل السنة و الجمهور: أن التوبة ممكنة من كل ذنب و ممكن أن الله يغفره، و قد فرضوا في ذلك من توسط أرضاً مغصوبة و من توسط جرحى فكيف ما تحرك قتل بعضهم فقيل هذا لا طريق له إلى التوبة، والصحيح أن هذا إذا تاب قبل الله توبته.

أما من توسط الأرض المغصوبة فهذا خروجه بنية تخلية المكان و تسليمه إلى مستحقه ليس منهياً عنه ولا محرماً، بل الفقهاء متفقون على أن من غصب داراً وترك فيها قماشه وماله إذا أمر بتسليمها إلى مستحقها فإنه يؤمر بالخروج منها و بإخراج أهله و ماله منها وإن كان ذلك نوع تصرف فيها لكنه لأجل إخلائها، والمشرك إذا دخل الحرم أمر بالخروج منه وإن كان فيه مرور فيه، ومثل هذا حديث الأعرابي المتفق على صحته لما بال في المسجد فقام الناس إليه فقال النبي ﷺ لا تزرموه أي لا تقطعوا عليه بوله، وأمرهم أن يصبوا على بوله دلواً من ماء، فهو لما بدأ بالبول كان إتمامه خيراً من أن يقطعوه فيلوث ثيابه وبدنه، ولو زنا رجل بامرأة ثم تاب لنزع و لم يكن مذنباً بالنزع» [٥٢٥].

٤٦٥-٢- قول ابن القيم في توبة من توسط الحرام:

قال ابن القيم: «ومن أحكامها - أي التوبة - أن من توغل في ذنب وعزم على التوبة منه ولا يمكنه التوبة منه إلا بارتكاب بعضه كمن أولج في فرج حرام ثم عزم على التوبة قبل النزع الذي هو جزء الوطء، وكمن توسط أرضاً مغصوبة ثم عزم على التوبة ولا يمكنه إلا بالخروج الذي هو مشى فيها وتصرف، فكيف يتوب من الحرام بحرام مثله؟ وهل تعقل التوبة من الحرام بحرام؟ فهذا مما أشكل على بعض الناس حتى دعاه ذلك إلى أن قال بسقوط التكليف عنه في هذا الفعل الذي يتخلص به من الحرام.

---

(٥٢٥) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٢٠-٢١.

قال [أصحاب الرأي المتقدم]: لأنه لا يمكن أن يكون مأموراً به وهو حرام وقد تعين في حقه طريقاً للخلاص من الحرام لا يمكنه التخلص بدونه فلا حكم في هذا الفعل البتة وهو بمنزلة العفو الذي لا يدخل تحت التكليف.

وقالت طائفة بل هو حرام واجب فهو ذو وجهين، مأمور به من أحدهما منهي عنه من الآخر، [أي باعتبارين مختلفين]، فيؤمر به من حيث تعينه طريقاً للخلاص من الحرام وهو من هذا الوجه واجب، وينهى عنه من جهة كونه مباشرة للحرام وهو من هذا الوجه محرم، فيستحق عليه الثواب والعقاب، قالوا: ولا يمتنع كون الفعل في الشرع ذا وجهين مختلفين كالاشتغال عن الحرام بمباح فإن المباح إذا نظرنا إلى ذاته مع قطع النظر عن ترك الحرام قضينا بإباحته، وإذا اعتبرناه من جهة كونه تاركاً للحرام كان واجباً، نعم غايته أنه لا يتعين مباح دون مباح فيكون واجباً مخيراً، قالوا: وكذلك الصلاة في الدار المغصوبة هي حرام وهي واجبة، وستر العورة بثوب الحرير كذلك حرام واجب من وجهين مختلفين.

والصواب: أن هذا النزع، والخروج من الأرض توبة، ليس بحرام، إذ هو مأمور به، ومحال أن يؤمر بالحرام، وإنما كان النزع الذي هو جزء الوطء حراما بقصد التلذذ به وتكميل الوطء، وأما النزع الذي يقصد به مفارقة الحرام وقطع لذة المعصية فلا دليل على تحريمه لا من نص ولا إجماع ولا قياس صحيح يستوي فيه الأصل والفرع في علة الحكم، ومحال خلو هذه الحادثة عن حكم الله فيها، وحكمه فيها الأمر بالنزع قطعاً، وإلا كانت الاستدامة مباحة وذلك عين المحال .

وكذلك الخروج من الأرض المغصوبة مأمور به، وإنما تكون الحركة والتصرف في ملك الغير حراماً إذا كان على وجه الانتفاع بها المتضمن لإضرار مالكها، أما إذا كان القصد ترك الانتفاع وإزالة الضرر عن المالك فلم يحرم الله ولا رسوله ذلك، ولا دل على تحريمه نظر صحيح ولا قياس صحيح، وقياسه على مشي مستديم الغصب، وقياس نزع التائب على نزع المستديم من أفسد القياس وأبينه بطلاناً، ونحن لا ننكر كون الفعل الواحد يكون له وجهان ولكن إذا تحقق النهي عنه والأمر به أمكن اعتبار وجهيه، فإن الشارع أمر بستر العورة ونهى عن لبس الحرير، فهذا الساتر لها بالحرير قد ارتكب الأمرين فصار فعله ذا وجهين، وأما محل النزاع فلم يتحقق فيه النهي عن النزع والخروج عن الأرض المغصوبة من الشارع البتة لا بقوله ولا بمعقول قوله، إلا باعتبار هذا الفرد بفرد

آخر [أي قياسه عليه] بينهما أشد تباين وأعظم فرق في الحس والعقل والفطرة والشرع، وأما إلحاق هذا الفرد بالعفو فإن أريد به أنه معفو له عن المؤاخذة به فصحيح، وإن أريد أنه لا حكم لله فيه بل هو بمنزلة فعل البهيمة والنائم والناسي والمجنون فباطل، إذ هؤلاء غير مخاطبين، وهذا مخاطب بالنزع والخروج، فظهر الفرق، والله الموفق للصواب...»[526].

٤٦٦- الرأي المختار في مسألة توبة من توسط الحرام :

والرأي المختار عندي: صحة التوبة الحاصلة ممن توسط الحرام على نحو ما شرحه أصحاب هذا الرأي لقوة أدلتهم المستندة إلى الكتاب والسنة والاستنباط الصحيح منهما وتوافقه مع قواعد أصول الفقه توافقاً تاماً.

وبهذا ننتهي من الكلام في التقسيم الأول للتوبة وهو تقسيم من حيث الإخلاص والصدق فيها مع الله تعالى والذي انقسمت به إلى توبة نصوح وتوبة معلولة، ونتحول إلى الكلام عن التقسيم الثاني وهو تقسيم للتوبة من حيث شمولها للذنوب وعدم شمولها، أي: التوبة عن ذنب معين والتوبة العامة (الشاملة)، وهو موضوع المبحث الثاني القادم إن شاء الله تعالى.

---

(٥٢٦) ابن القيم: مدارج السالكين :ج١ ص٢٨٦- ٢٨٨.

المبحث الثاني
التوبة من ذنب معين والتوبة العامة (الشاملة)

٤٦٧- تمهيد وتقسيم:

هذا هو التقسيم الثاني للتوبة، وهو تقسيم باعتبار شمولها للذنوب كلها فتكون توبة عامة (شاملة) أو اقتصارها على توبة من ذنب معين، وهو ما يسميه بعض العلماء: التوبة من ذنب دون ذنب.

فقد يتوب الإنسان عن ذنب معين مخصوص مع بقائه غير تائب من ذنوب أخرى سواء أكانت قديمة أو كان يمارسها حالياً، وقد يتوب توبة عامة تشمل ذنوب العمر كلها إلى هذه اللحظة، وهذه هي التوبة العامة (الشاملة).

وسنبحث هذين النوعين من التوبة وآثارهما في مطلبين متتاليين:

نخصص المطلب الأول : للكلام عن التوبة من ذنب معين.

ونتناول في المطلب الثاني: التوبة العامة (الشاملة).

المطلب الأول
التوبة من ذنب معين

٤٦٨- المقصود بالتوبة من ذنب معين دون غيره وحكمها:

أفتى فقهاء المذاهب الفقهية المعتمدة، وكذلك جمهور الفقهاء من السلف والخلف بصحة التوبة من ذنب معين من غير أن يتوب من الذنوب الأخرى أي من غير توبة عامة من جميع الذنوب، وفي هذه الحالة يغفر له هذا الذنب ويبقى مطالباً بالذنوب الأخرى.

والتوبة من ذنب معين، وبخاصة إذا كان الذنب كبيرة، حسنة عظيمة، تجر إلى حسنات أخرى، وتجعل العبد يحظى بقسط من المحبوبية عند الله تعالى والقرب منه فينعم عليه بمزيد من التوفيق للعمل الصالح، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال جل وعز: ﴿ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًا ﴾ [الشورى: ٢٣] فإن من

تقرب إلى الله شبراً تقرب الله إليه باعاً ومن أتاه ماشياً جاءه الله هرولة، وهي كناية عن أن ما يكون من الله من الفضل أكثر مما يكون من العبد من المبادرة والمجاهدة.

وتبقى التوبة العامة (الشاملة) من ذنوب العمر كله أعظم من هذا بكثير، ولكن كلامنا الآن في التوبة من ذنب دون ذنب، أي التوبة من ذنب معين مع الإصرار على غيره، والإصرار هنا ليس معناه العناد أو التحدي، وإنما هو ترك الذنوب الأخرى من غير توبة، أو بقاء الرغبة في ممارستها انقياداً للشهوة وتحكيماً للهوى، أو تكاسلاً عن أداء الواجبات، فيبقى مطالباً بالتوبة منها ومعرضاً للعقاب عليها.

والرجوع إلى النصوص يظهر قبول التوبة من أي ذنب يتوب منه العبد، نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:١١٠]، وقوله ﷺ : (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[٥٢٧]، وقوله ﷺ : (ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ثم يستغفر الله إلا غفر الله له)[٥٢٨]، فكل هذه النصوص وأمثالها تذكر قبول التوبة من أي ذنب من غير تعليق قبولها على أن يتوب من الذنوب جميعاً، وإن كانت التوبة من الذنوب جميعاً واجبة وعلى الفور، وهي المقصود الأسمى، إلا أن تقصير العبد فيها لا يجعل توبته من ذنب معين غير مقبولة.

٤٦٩- مذهب الجمهور الأعظم: صحة التوبة من ذنب معين دون غيره:

والقول بصحة التوبة من ذنب معين مع الإصرار على غيره هو مذهب الجمهور الأعظم من الفقهاء من السلف والخلف، خلافاً للمعتزلة، وفي ذلك يقول الشوكاني مثلاً: «وقد اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى: (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون)، وذهب الجمهور إلى أنها تصح من ذنب دون ذنب خلافاً للمعتزلة» [٥٢٩].

وقال النووي في شرحه لصحيح مسلم: «وتصح التوبة من ذنب وإن كان مصراً على ذنب آخر» [٥٣٠].

---

(٥٢٧) أخرجه ابن ماجة (٤٢٤٠).

(٥٢٨) قال العراقي بعد إيراد هذا الحديث أنه: «لفظ أبى داود، وهو في الكبرى للنسائي مرفوعاً وموقوفاً» (انظر تخريج العراقي في كتاب الإحياء ٤/ ٤٧).

(٥٢٩) الشوكاني: تفسير فتح القدير ج: ١ ص: ٤٣٨.

(٥٣٠) النووي: شرح النووي على صحيح مسلم ج: ١٧ ص: ٥٩.

ونبين فيما يلي أقوال العلماء من المذاهب الفقهية المشهورة في صحة التوبة من ذنب معين مع الإصرار على غيره، بمعنى أن التوبة العامة ليست شرطاً في قبول توبة التائب من ذنب معين دون غيره. ومعلوم أن التوبة العامة يرتبط بها مغفرة جميع الذنوب جملة واحدة وهو شيء عظيم، وأن التوبة من ذنب معين يرتبط بها مغفرة ذلك الذنب، فإن كان الذنب كبيرة كانت مغفرته بالتوبة شيئاً مهماً جداً ولا غنى للمؤمن عنه أبداً.

٤٧٠- أقوال العلماء في التوبة من ذنب معين مع الإصرار على غيره:

٤٧١-١- رأي الحنفية:

لم أجد للحنفية - حسب اطلاعي ومع التفتيش الكثير في مصادرهم - رأياً مباشراً يتكلمون فيه عن مسألة التوبة من ذنب دون ذنب، ولكني استخلصت رأيهم بمناسبة كلامهم في أمور فقهية أخرى.

فمن ذلك ما جاء في البحر الرائق شرح كنز الدقائق بمناسبة الكلام عن عدم سقوط الحقوق بالحج وبالتوبة: «على أن التوبة من ذنب يترتب عليه واجب لا تتم إلا بفعل ذلك الواجب فمن غصب شيئاً ثم تاب لا تتم توبته إلا بضمان ما غصب»[٥٣١].

ويفهم منه أن الحنفية يقرون التوبة من الذنوب آحاداً.

ومثل ذلك ما جاء بمناسبة كلامهم عن سنن الغسل حيث جاء في رد المحتار على الدر المختار قول صاحب المتن وهو يعدد من يندب لهم الغسل فقال: «ولتائب من ذنب، ولقادم من سفر، ولمستحاضة انقطع دمها»[٥٣٢]، ويفهم منه إقرارهم لمبدأ التوبة من الذنوب آحاداً.

٤٧٢-٢- رأي المالكية:

جاء في «بلغة السالك» المعروف بـ (حاشية الصاوي على الشرح الصغير) من الفقه المالكي: «واعلم أنه تصح التوبة من بعض الذنوب مع تلبسه بغير ما تاب منه، وإذا عزم أن لا يعود ثم قدر الله عليه أنه عاد أو ارتكب غيره، فعليه أن يتوب ولو كثر منه ذلك

(٥٣١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق: ٢/ ٣٦٤.

(٥٣٢) رد المحتار على الدر المختار: ١/ ١٦٩.

ويجب تجديدها لكل ما اقترف فيغفر الله له، قال رسول الله ﷺ (من أصاب ذنباً فندم عليه غفر الله له ذلك من قبل أن يستغفر) »[٥٣٣].

وجاء في حاشية الدسوقي- من الفقه المالكي- بمناسبة الكلام عن رد العوض في المغصوب: «فرد العوض واجب مستقل لا تتوقف التوبة عليه لصحة التوبة من بعض الذنوب دون بعض»[٥٣٤].

وجاء في الفقه المالكي أيضاً: «... لأن التوبة كما قال العلماء تصح من بعض الذنوب دون بعض»[٥٣٥].

وقال المالكية أيضاً: «وإذا تاب من بعض الذنوب دون بعضها فصحح بعض الشيوخ قبول توبته مع الإصرار على البعض الآخر بدليل صحة إيمان الكافر مع إدامته شرب الخمر أو الزنا»[٥٣٦].

٤٧٣-٣- رأي الشافعية:

جاء في «نهاية المحتاج» - من الفقه الشافعي-: «وتصح التوبة من ذنب وإن أصر على غيره، و [تصح] مما تاب منه ثم عاد إليه»[٥٣٧].

---

(٥٣٣) بلغة السالك المعروف بـ (حاشية الصاوي على الشرح الصغير): ج:٤ ص:٧٣٦-٧٣٧ والحديث ذكره صاحب «كشف الخفاء» بمناسبة الكلام عن حديث رقم: (١٩٣١) (كفارة الذنب الندامة) رواه الطبراني والقضاعي عن ابن عباس مرفوعاً وكذا أسنده الديلمي من جهة الحاكم، قال النجم وتمامه ولو لم تذنبوا لأتى الله بقوم يذنبون ليغفر لهم، ومن شواهده ما عند الحاكم عن عائشة: (ما علم الله تعالى من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له قبل أن يستغفر منه) قال وعند الطبراني والبيهقي عن ابن مسعود من أخطأ خطيئة أو أذنب ذنباً ثم ندم فهو كفارته، والله أعلم (انظر كشف الخفاء للعجلوني الجراحي: ج: ٢ ص: ١٤٥) (وانظر أيضاً: الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي الهمذاني حيث أخرج الحديث في مكرر عائشة برقم ٦١٨٨ بلفظ: ما أذنب عبد ذنباً فندم إلا كتب الله له مغفرته قبل أن يستغفر). اهـ. قلت: وهذا موافق للحديث المعروف: (الندم توبة) (سبق تخريجه).

(٥٣٤) الدسوقي: حاشية الدسوقي: ج:١ ص:٤٠٧.

(٥٣٥) العدوي: حاشية العدوي: ج:١ ص:٩٧.

(٥٣٦) الفواكه الدواني ج: ١ ص: ٧٦.

(٥٣٧) الرملي: نهاية المحتاج: ج: ٨ ص:٣٠٩، وانظر أيضاً: تحفة المحتاج في شرح المنهاج لابن حجر الهيتمي: ج:١٠ ص: ٢٤٣.

وفي «روضة الطالبين»: «وتصح التوبة من ذنب وإن كان ملابساً ذنباً آخر مصراً عليه، ولو تاب من ذنب ثم فعله مرة أخرى لم تبطل التوبة، بل هو مطالب بالذنب الثاني دون الأول، ولو تكررت التوبة ومعاودة الذنب صحت، هذا مذهب الحق من المسلمين خلافا للمعتزلة» (٥٣٨).

وفي «مغني المحتاج»: «تجب التوبة من المعصية ولو صغيرة على الفور بالاتفاق وتصح من ذنب دون ذنب، وإن تكررت وتكرر العود لا تبطل به بل هو مطالب بالذنب الثاني دون الأول، ولا يجب عليه تجديد التوبة كلما ذكر الذنب كما رجحه ابن المقري» (٥٣٩)، قلت: أي أن تجديد التوبة كلما ذكر الذنب يدخل في المستحب لا في الواجب.

٤٧٤-٤- رأي الحنابلة:

تكلم بعض فقهاء الحنابلة بما يفهم منه إقرارهم لمبدأ التوبة من الذنوب آحاداً أي التوبة من ذنب دون ذنب، وذلك بمناسبة الكلام عن شهادة القاذف التي لا تقبل إلا بعد توبته، وأن توبته لا يكفي فيها الندم والإقلاع والعزم بل لا بد معها من إكذاب نفسه إظهاراً لعفاف المقذوف، ثم قالوا: « (وتوبة غيره) أي القاذف (ندم) بقلبه على ما مضى من ذنبه (وإقلاع) بأن يترك فعل الذنب الذي تاب منه (وعزم أن لا يعود) إلى ذلك الذنب الذي تاب منه، ولا يعتبر مع ذلك إصلاح العمل لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] ومع وجوب المغفرة يجب أن تترتب الأحكام [ومنها قبول شهادته لانتفاء الفسق بالتوبة] لزوال المانع منها وهو الفسق؛ لأنه لا فسق مع زوال الذنب الذي تاب منه»(٥٤٠).

والمقصود بقولهم: «ولا يعتبر مع ذلك إصلاح العمل» أي لا يشترط مرور مدة يظهر فيها إصلاح عمله كشرط لقبول شهادته بل تعود له أهلية الشهادة فور توبته أمام القضاء.

ويفهم من مجمل النص المتقدم أن الحنابلة يجيزون التوبة من ذنب دون ذنب.

---

(٥٣٨) روضة الطالبين ج: ١١ ص: ٢٥٠ ـ ٢٥٠.

(٥٣٩) مغني المحتاج ج: ٤ ص: ٤٤٠.

(٥٤٠) منصور البهوتي: شرح منتهى الإرادات ٣/ ٥٩٠-٥٩١.

٤٧٥-٥- رأي الظاهرية:

تكلم ابن حزم عن التوبة من ذنب دون ذنب وأن لكل ذنب توبته بمناسبة الكلام عن إسلام الكافر وأن توبته عن الكفر بإسلامه يغفر له بها الكفر ويبقى عليه أن يتوب عن الزنا وغيره فقال: «وإن اعترضوا فيما قلنا من المؤاخذة بما عمل في الكفر بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، قلنا لهم هذا حجة لنا لأن من انتهى عن الكفر غفر له، وإن انتهى عن الزنا غفر له، وإن لم ينته عن الزنا لم يغفر له، فإنما يغفر له عما انتهى عنه ولم يغفر له ما لم ينته عنه، ولم يقل تعالى إن ينتهوا عن الكفر يغفر لهم سائر ذنوبهم... وهى أعمال متغايرة كما ترى ليست التوبة عن بعضها توبة عن سائرها، فلكل واحد منها حكم، فإن ذكروا حديث عمرو بن العاص عن النبي ﷺ: (الإسلام يجب ما قبله)[٥٤١] فقد قلنا إن الإسلام اسم لجميع الطاعات فمن أصر على المعصية فليس فعله في المعصية التي يتمادى عليها إسلاماً ولا إيماناً...»[٥٤٢].

٤٧٦-٦- ما جاء في الموسوعة الفقهية من صحة التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره ونسبة ذلك إلى الجمهور:

جاء في الموسوعة الفقهية: «تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره عند جمهور الفقهاء، فالتوبة تتبعض كالمعصية وتتفاضل في كميتها كما تتفاضل في كيفيتها، فكل ذنب له توبة تخصه، ولا تتوقف التوبة من ذنب على التوبة من بقية الذنوب، كما لا يتعلق أحد الذنبين بالآخر، وكما يصح إيمان الكافر مع إدامته شرب الخمر والزنى تصح التوبة عن ذنب مع الإصرار على آخر»[٥٤٣].

٤٧٧-٧- قول ابن تيمية بصحة التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقول القائل هل الاعتراف بالذنب المعين يوجب رفع ما حصل بذنوب متعددة أم لا بد من استحضار جميع الذنوب؟ فجواب هذا مبني على أصول:

---

(٥٤١) أخرجه الإمام أحمد (١٧١٠٩) و(١٧١٤٥) و(١٧١٥٩).

(٥٤٢) الفصل في الملل ج: ٤ ص: ٤٦.

(٥٤٣) الموسوعة الفقهية: ١٤/ ١٢٣.

(أحدها): أن التوبة تصح من ذنب مع الإصرار على ذنب آخر إذا كان المقتضي للتوبة من أحدهما أقوى من المقتضي للتوبة من الآخر أو كان المانع من أحدهما أشد وهذا هو القول المعروف عند السلف والخلف»[٥٤٤].

٤٧٨- رد ابن تيمية على من قال لا تصح هذه التوبة :

ثم واصل شيخ الإسلام كلامه عارضاً رأي المخالفين القائلين بعدم صحة هذه التوبة مع بيان الرد على قولهم فقال: وذهب طائفة من أهل الكلام كأبي هاشم إلى أن التوبة لا تصح من قبيح مع الإصرار على الآخر.

قالوا: لأن الباعث على التوبة إن لم يكن من خشية الله لم يكن توبة صحيحة والخشية مانعة من جميع الذنوب لا من بعضها، وحكى القاضي أبو يعلى وابن عقيل هذا رواية عن أحمد لأن المروزي نقل عنه أنه سئل عمن تاب من الفاحشة وقال: لو عرضت لم أعد لكن لا يدع النظر، فقال أحمد أي توبة هذه؟ قال جرير بن عبد الله: سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فقال: اصرف بصرك.

والمعروف عن أحمد وسائر الأئمة هو القول بصحة التوبة، وأحمد في هذه المسألة إنما أراد: أن هذه ليست توبة عامة يحصل بسببها من التائبين توبة مطلقاً، لم يرد أن ذنب هذا كذنب المصر على الكبائر، فإن نصوصه المتواترة عنه وأقواله الثابتة تنافي ذلك، وحمل كلام الإمام على ما يصدق بعضه بعضاً أولى من حمله على التناقض لا سيما إذا كان القول الآخر مبتدعاً لم يعرف عن أحد من السلف، وأحمد يقول: إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام، وكان في المحنة يقول: كيف أقول ما لم يقل؟ واتباع أحمد للسنة والآثار وقوة رغبته في ذلك وكراهته لخلافه من الأمور المتواترة عنه يعرفها من يعرف حاله من الخاصة والعامة.

وما ذكروه من أن الخشية توجب العموم، فجوابه:

أنه قد يعلم قبح أحد الذنبين دون الآخر وإنما يتوب من ما يعلم قبحه.

وأيضاً فقد يعلم قبحهما ولكن هواه يغلبه في أحدهما دون الآخر فيتوب من هذا دون ذاك، كمن أدى بعض الواجبات دون بعض فإن ذلك يقبل منه، ولكن المعتزلة لهم أصل فاسد وافقوا فيه الخوارج في الحكم وإن خالفوهم في الاسم فقالوا: إن أصحاب

---

(٥٤٤) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٥٢ وأيضا ج:٥ ص:٢٧٦.

الكبائر يخلدون في النار ولا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها، وعندهم يمتنع أن يكون الرجل الواحد ممن يعاقبه الله ثم يثيبه، ولهذا يقولون بحبوط جميع الحسنات بالكبيرة. وأما الصحابة وأهل السنة والجماعة فعلى أن أهل الكبائر يخرجون من النار ويشفع فيهم، وإن الكبيرة الواحدة لا تحبط جميع الحسنات، ولكن قد يحبط ما يقابلها عند أكثر أهل السنة، ولا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر، كما لا يحبط جميع السيئات إلا التوبة [أي التوبة العامة].

فصاحب الكبيرة إذا أتى بحسنات يبتغي بها رضا الله أثابه الله على ذلك وإن كان مستحقاً للعقوبة على كبيرته، وكتاب الله عز وجل يفرق بين حكم السارق والزاني وقتال المؤمنين بعضهم بعضاً وبين حكم الكفار في الأسماء والأحكام، والسنة المتواترة عن النبي ﷺ وإجماع الصحابة يدل على ذلك، كما هو مبسوط في غير هذا الموضع، وعلى هذا تنازع الناس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فعلى قول الخوارج والمعتزلة لا تقبل حسنة إلا ممن اتقاه مطلقا فلم يأت كبيرة، وعند المرجئة إنما يتقبل ممن اتقى الشرك فجعلوا أهل الكبائر داخلين في اسم المتقين، وعند أهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعمله خالصاً موافقاً لأمر الله، فمن اتقاه في عمل تقبله منه وإن كان عاصياً في غيره، ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وإن كان مطيعاً في غيره.

والتوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعض إذا لم يكن المتروك شرطاً في صحة المفعول كالإيمان المشروط في غيره من الأعمال، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

الأصل الثاني: أن من له ذنوب فتاب من بعضها دون بعض فإن التوبة إنما تقتضي مغفرة ما تاب منه، أما ما لم يتب منه فهو باق فيه على حكم من لم يتب، لا على حكم من تاب، وما علمت في هذا نزاعاً إلا في الكافر إذا أسلم، فإن إسلامه يتضمن التوبة من الكفر فيغفر له بالإسلام الكفر الذي تاب منه، وهل تغفر له الذنوب التي فعلها في حال الكفر ولم يتب منها في الإسلام؟.

هذا فيه قولان معروفان، أحدهما: يغفر له الجميع لإطلاق قوله ﷺ: (الإسلام يهدم ما كان قبله)، رواه مسلم، مع قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، والقول الثاني: إنه لا يستحق أن يغفر له بالإسلام إلا ما تاب منه، فإذا أسلم وهو مصر على كبائر دون الكفر فحكمه في ذلك حكم أمثاله من أهل الكبائر، وهذا القول هو الذي تدل عليه الأصول والنصوص، فإن في الصحيحين أن النبي ﷺ قال له حكيم بن حزام يا رسول الله أنؤاخذ بها عملنا في الجاهلية فقال: (من أحسن منكم في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر)[٥٤٥]، فقد دل هذا النص على أنه إنما ترفع المؤاخذة بالأعمال التي فعلت في حال الجاهلية عمن أحسن لا عمن لا يحسن، وإن لم يحسن أخذ بالأول والآخر، ومن لم يتب منه فلم يحسن.

وقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال:٣٨] يدل على أن المنتهي عن شيء يغفر له ما قد سلف منه، لا يدل على أن المنتهي عن شيء يغفر له ما سلف من غيره، وذلك لأن قول القائل لغيره إن انتهيت غفرت لك ما تقدم ونحو ذلك يفهم منه عند الإطلاق: إنك إن انتهيت عن هذا الأمر غفر لك ما تقدم وإذا انتهيت عن شيء غفر لك ما تقدم منه، كما يفهم مثل ذلك في قوله: إن تبت، لا يفهم منه إنك بالانتهاء عن ذنب يغفر لك ما تقدم من غيره، وأما قول النبي ﷺ: (الإسلام يهدم ما قبله)[٥٤٦] وفي رواية (يجب ما كان قبله)، فهذا قاله لما أسلم عمرو بن العاص وطلب أن يغفر له ما تقدم من ذنبه فقال له: يا عمرو أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن التوبة تهدم ما كان قبلها، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، ومعلوم أن التوبة إنما توجب مغفرة ما تاب منه لا توجب التوبة غفران جميع الذنوب»[٥٤٧].

٤٧٩-٨- تحرير ابن القيم لمسألة التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره:

قال ابن القيم: «وهل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟... وبعد أن حكى ابن القيم القول المخالف ودليله قال: وسر المسألة: أن التوبة هل تتبعض كالمعصية؟

(٥٤٥) متفق عليه: البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (١٧٢).
(٥٤٦) أخرجه الإمام أحمد (١٧١٠٩) و(١٧١٤٥) و(١٧١٥٩)..
(٥٤٧) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٥٢-٣٥٥.

فيكون تائباً من وجه دون وجه، كالإيمان والإسلام؟ والراجح: تبعضها، فإنها كما تتفاضل في كيفيتها كذلك تتفاضل في كميتها، ولو أتى العبد بفرض وترك فرضاً آخر لاستحق العقوبة على ما تركه دون ما فعله، فهكذا إذا تاب من ذنب وأصر على آخر، لأن التوبة فرض من الذنبين فقد أدى أحد الفرضين وترك الآخر، فلا يكون ما ترك موجباً لبطلان ما فعل، كمن ترك الحج وأتى بالصلاة والصيام والزكاة.

والآخرون - المخالفون - يجيبون عن هذا بأن التوبة فعل واحد معناه الإقلاع عما يكرهه الله والندم عليه والرجوع إلى طاعته، فإذا لم توجد بكمالها لم تكن صحيحة، إذ هي عبادة واحدة، فالإتيان ببعضها وترك بعض واجباتها كالإتيان ببعض العبادة الواجبة وترك بعضها، فإن ارتباط أجزاء العبادة الواحدة بعضها ببعض أشد من ارتباط العبادات المتنوعات بعضها ببعض .

وأصحاب القول الآخر [الجمهور] يقولون: كل ذنب له توبة تخصه، وهي فرض منه لا تتعلق بالتوبة من الآخر، كما لا يتعلق أحد الذنبين بالآخر.

والذي عندي [أي ابن القيم] في هذه المسألة أن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه.

وأما التوبة من ذنب مع مباشرة آخر لا تعلق له به، ولا هو من نوعه، فتصح، كما إذا تاب من الربا ولم يتب من شرب الخمر مثلاً، فإن توبته من الربا صحيحة، وأما إذا تاب من ربا الفضل ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه أو بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر أو بالعكس، فهذا لا تصح توبته، وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها، أو تاب من شرب عصير العنب المسكر وهو مصر على شرب غيره من الأشربة المسكرة، فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب، وإنما عدل عن نوع منه إلى نوع آخر، بخلاف من عدل عن معصية إلى معصية أخرى غيرها في الجنس، إما لأن وزرها أخف، وإما لغلبة دواعي الطبع إليها وقهر سلطان شهوتها له، وإما لأن أسبابها حاضرة لديه عتيدة لا يحتاج إلى استدعائها بخلاف معصية يحتاج إلى استدعاء أسبابها، وإما لاستحواذ قرنائه وخلطائه عليه فلا يدعونه يتوب منها وله بينهم حظوة بها و جاه فلا تطاوعه نفسه على إفساد جاهه بالتوبة، كما قال أبو نواس لأبي العتاهية وقد لامه على تهتكه في المعاصي:

أتـــــــراني يـــــــا عتـــــــاهي تاركـــــــاً تلـــــــك الملاهـــــــي
أتـــــراني مفـــــسداً بالنـــــسك عنـــــد القـــــوم جـــــاهي

فمثل هذا إذا تاب من قتل النفس وسرقة أموال المعصومين وأكل أموال اليتامى ولم يتب من شرب الخمر والفاحشة صحت توبته مما تاب منه ولم يؤاخذ به، وبقي مؤاخذاً بما هو مصر عليه، والله أعلم»(٥٤٨).

٤٨٠- توجيهنا للقيد الذي وضعه ابن القيم على صحة التوبة من ذنب معين:

والحقيقة أن القيد الذي وضعه العلامة المحقق ابن القيم هو قيد شكلي عندما قال إن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه، وتصح فيما سوى ذلك، وضرب لذلك أمثلة بقوله الذي نقلناه قبل قليل حيث قال: «كما إذا تاب من ربا الفضل ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه أو بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر أو بالعكس، فهذا لا تصح توبته، وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها، أو تاب من شرب عصير العنب المسكر وهو مصر على شرب غيره من الأشربة المسكرة، فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب، وإنما عدل عن نوع منه إلى نوع آخر».

قلت: فكل هذه الأمثلة صاحبها ليس بتائب من الذنب كما صرح بذلك ابن القيم رحمه الله نفسه، وهو أعلم منا بأن التحريم يتعلق بحقيقة الذنب وماهيته لا بالأسماء فمن عدل عن الزنا بامرأة الى الزنا بغيرها لا يسمى (تائباً) عن الأولى بل (تاركاً)، ومثل ذلك يقال عن كل الأمثلة الأخرى. وقول ابن القيم: «فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب وإنما عدل عن نوع منه إلى نوع آخر» يجعل هذا التفريع والأمثلة التي ضربها ابن القيم خارج محل النزاع، إذ إنه ما دام (لم يتب من الذنب) حسب تعبير ابن القيم فلا يدخل معنا في الكلام عن التوبة من ذنب معين مع الإصرار على غيره.

وبهذا يظهر أن الخلاف شكلي، وأن ابن القيم من حيث المآل والنتيجة يتطابق قوله مع الجمهور الذين يقولون بصحة التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره.

---

(٥٤٨) ابن القيم مدارج السالكين ج: ١ ص: ٢٧٣-٢٧٦.

٤٨١-٩- قول الغزالي بصحة التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره:

قال الإمام الغزالي رحمه الله[٥٤٩]: ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة، وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب، كالذي يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلاً وليست هذه توبة مطلقة، وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لا تصح، وقال قائلون تصح.

٤٨٢- مناقشة الغزالي ورده على من قال بأن التوبة من ذنب دون ذنب لا تصح وتقديم ست حجج في ذلك:

٤٨٣- الحجة الأولى - كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته:

ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل، بل نقول لمن قال لا تصح: إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلاً بل وجوده كعدمه فما أعظم خطأك، فإنا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته.

ونقول لمن قال: تصح، إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضاً خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع، هذا حكم الظاهر، ولسنا نتكلم في خفايا أسرار عفو الله.

٤٨٤- عرض الغزالي لحجج القائلين بأن التوبة من ذنب دون ذنب لا تصح:

فإن قال من ذهب إلى أنها لا تصح: إني أردت به أن التوبة عبارة عن الندم وإنما يندم على السرقة مثلاً لكونها معصية لا لكونها سرقة ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجعه لأجل المعصية، فإن العلة شاملة لهما، إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين، لأن توجعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين، فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية، سواء عصى بالسرقة أو الزنا، فكيف يتوجع على البعض دون البعض، فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث إنها معصية، فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون البعض، ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنين دون الآخر، فإن استحال

---

(٥٤٩) الغزالي: إحياء علوم الدين: ج: ٤ ص: ٣٩-٤٠.

ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحدة وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة، فإذن معنى عدم الصحة: أن الله تعالى وعد التائبين رتبة، وتلك الرتبة لا تنال إلا بالندم، ولا يتصور الندم على بعض المتماثلات، فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول نقول إن العقد لا يصح أي لم تترتب عليه الثمرة وهو الملك. وتحقيق هذا: أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه، وثمرة الندم تكفير ما سبق، فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها، ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي، وهو كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل، به ينكشف الغطاء، فنقول:

التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر، أو عن الصغائر دون الكبائر، أو عن كبيرة دون كبيرة.

٤٨٥- الحجة الثانية - التوبة من الكبائر دون الصغائر ممكن ولا يقدح في الندم:

أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه كالذي يجنى على أهل الملك وحرمه، ويجنى على دابته، فيكون خائفاً من الجناية على الأهل، مستحقراً للجناية على الدابة، والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعداً عن الله تعالى، وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثر التائبون في الأعصار الخالية ولم يكن أحد منهم معصوماً فلا تستدعى التوبة العصمة، والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً، ويحذره السُّكَّر تحذيراً أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السُّكَّر أصلاً، فيتوب المريض، بقوله، عن العسل دون السُّكَّر، فهذا غير محال وجوده، وإن أكلهما جميعاً بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السُّكَّر.

٤٨٦- الحجة الثالثة - أن يتوب من بعض الكبائر دون بعض ممكن ولا يقدح في الندم عن التي تاب منها:

الثاني: أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضاً ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله، كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد، لعلمه أن ديوان العباد لا يترك، وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه، فهذا أيضاً ممكن، كما في تفاوت الكبائر والصغائر، لأن الكبائر أيضاً متفاوتة في أنفسها وفى اعتقاد مرتكبها، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون

الزنا مثلاً، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدرى، فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركاً في المستقبل وندماً على الماضي.

٤٨٧- الحجة الرابعة - أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة ولا يقدح في ندمه عما تاب منه:

الثالث: أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة، كالذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرم أو ما يجرى مجراه وهو مصر على شرب الخمر، فهو أيضا ممكن، ووجه إمكانه: أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندماً إما ضعيفاً وإما قوياً، ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها، لأسباب توجب ضعف الخوف، من الجهل والغفلة، وأسباب توجب قوة الشهوة، فيكون الندم موجوداً ولكن لا يكون ملياً بتحريك العزم ولا قوياً عليه، فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف، قهر الخوف الشهوة وغلبها، وأوجب ذلك ترك المعصية، وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه، وتكون له ضراوة ما، بالغيبة وثلب الناس والنظر إلى غير المحرم، وخوفه من الله قد بلغ مبلغاً يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية، فيوجب عليه جانب الخوف انبعاث العزم للترك، بل يقول هذا الفاسق في نفسه إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي، فلا ينبغي أن أخلع العذار وأرخى العنان بالكلية، بل أجاهده في بعض المعاصي، فعساني أغلبه، فيكون قهري له في البعض كفارة لبعض ذنوبي.

٤٨٨- الحجة الخامسة - لا يصح نفي إمكان حصول الندم عن بعض الذنوب دون بعض:

ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصلى ويصوم، ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح، وإن كانت لله فاترك الفسق لله فإن أمر الله فيه واحد، فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى ما لم تتقرب بترك الفسق، وهذا محال بأن يقول: لله تعالى علي أمران، ولي على المخالفة فيهما عقوبتان، وأنا ملي في أحدهما بقهر الشيطان، عاجز عنه في الآخر، فأنا أقهره فيما أقدر عليه، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي. فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم؟؟ إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته، ولا سبب له إلا هذا.

٤٨٩- الحجة السادسة - السنة النبوية دلت على قبول التوبة من أي ذنب من غير اشتراط كلها:

وإذا فهم هذا، فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم، والندم يورث العزم، وقد قال النبي ﷺ: (الندم توبة)[٥٥٠] ولم يشترط الندم على كل ذنب، وقال: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[٥٥١] ولم يقل التائب من الذنوب كلها[٥٥٢].

٤٩٠- النتيجة: التوبة عن ذنب دون ذنب ممكنة في الواقع ومقبولة في الشرع:

وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متماثلة في حق الشهوة وفى حق التعرض إلى سخط الله تعالى، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط، ويتوب عن الكثير دون القليل لأن لكثرة الذنوب تأثيراً في كثرة العقوبة، فيساعد الشهوة بالقدر الذي يعجز عنه، ويترك بعض شهوته لله تعالى، كالمريض الذي حذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها.

فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله، بل لا بد وأن يكون ما تاب عنه مخالفاً لما بقى عليه إما في شدة المعصية وإما في غلبة الشهوة، وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله في الخوف والندم، فيتصور اختلاف حاله في الترك، فندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي[٥٥٣].

٤٩١-١٠- الرأي المختار في مسألة: التوبة من ذنب معين مع الإصرار على غيره:

بالنظر في أدلة الجمهور وما قدمه شيخ الإسلام ابن تيمية وكذلك العلامة المحقق ابن القيم اللذين ينتهي رأيهما إلى الانتصار الكامل لرأي الجمهور مع تعقيبنا على القيد

---

(٥٥٠) أخرجه ابن ماجة (٤٢٤٢)، وأحمد (٣٣٨٧) و(٣٨٠٩) و(٣٨١١).

(٥٥١) أخرجه ابن ماجة (٤٢٤٠).

(٥٥٢) قلت: وليست السنة فقط دلت على ذلك بل القرآن الكريم دل عليه أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]. فإن الآية تدل على قبول التوبة من أي سوء أو ظلم نفس من غير تعليق ذلك على شرط ما.

(٥٥٣) الغزالي: إحياء علوم الدين: ج: ٤ ص: ٣٩-٤٠.

الذي وضعه ابن القيم بأنه قيد شكلي خارج محل النزاع، وكذلك ما قدمه حجة الإسلام الغزالي، رحمهم الله جميعاً، وبالنظر إلى أن الندم يتجزأ فيمكن أن يندم على بعضها دون بعض لكونها تستجلب سخط الله وعقوبته بدرجة أكبر فيندم عليها دون غيرها، يتبين لنا بوضوح صواب رأي الجمهور لقوة دليله. وعلى ذلك نرى أن التوبة من ذنب معين دون غيره هي توبة صحيحة، وهو الرأي الصواب الذي تعضده الأدلة المستفيضة والاستدلال السليم، والله أعلم.

وتبقى التوبة العامة (الشاملة) من جميع الذنوب ومن ذنوب العمر كله هي الهدف الأسمى للمؤمن لأنها تورث المغفرة التامة وتجنبه سوء الحساب.

المطلب الثاني
التوبة العامة (الشاملة) وكيفيتها

٤٩٢- تمهيد: التوبة العامة (الشاملة) من أعظم ما يظفر به المؤمن:

من أعظم النعم التي يظفر بها المؤمن أن يمن الله عليه فيوفقه لتوبة شاملة عن ذنوب العمر كلها بعد أن يقذف في قلبه نور التنبيه، فينتبه من رقدة الغافلين، ويعظم في قلبه معرفة الله، وخشيته، والحياء منه، فيندم على ما فرط في جنب الله في سالف الأيام، ويحدق بعين البصيرة إلى الدنيا وسرعة انقضائها وذهابها وفنائها، وإلى الآخرة ونعيمها ودوامها وبقائها فيرغب في السعي لها بعد أن يطرح عنه أوزار الماضي كلها بتوبة عامة شاملة، ويفتح صفحة جديدة بيضاء ناصعة مع الله تعالى ليس فيها إثم ولا فسوق ولا عصيان، فإن وقع بعد ذلك منه ذنب عاد إلى تجديد توبته ثانية وثالثة حتى إذا جاءه الموت وجده تائباً وليس مخلطاً. والسبيل إلى ذلك هو التوبة العامة التي يغفل عنها الكثير من المؤمنين والمؤمنات وذلك من صرف الشيطان لهم عنها لما فيها من الخير العظيم.

ونقدم فيما يلي بعضاً من أقوال العلماء في التوبة العامة:

٤٩٣- أقوال العلماء في التوبة العامة ومغفرة جميع الذنوب بها:
٤٩٤-١- قول ابن تيمية في التوبة العامة وأثرها:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن الإنسان قد يستحضر ذنوباً فيتوب منها، وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه، لكن إذا كانت نيته التوبة العامة فهي

تتناول كل ما يراه ذنباً لأن التوبة العامة تتضمن عزماً عاماً بفعل المأمور وترك المحظور وكذلك تتضمن ندماً عاماً على كل محظور، والندم سواء قيل إنه من باب الاعتقادات أو من باب الإرادات، أو قيل إنه من باب الآلام التي تلحق النفس بسبب فعل ما يضرها، فإذا استشعر القلب أنه فعل ما يضره حصل له معرفة بأن الذي فعله كان من السيئات وهذا من باب الاعتقادات، وكراهية لما كان فعله وهو من جنس الإرادات، وحصل له أذى وغم لما كان فعله، وهذا من باب الآلام كالغموم والأحزان، كما أن الفرح والسرور هو من باب اللذات ليس هو من باب الاعتقادات والإرادات... وفي المسند عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: (الندم توبة))» (٥٥٤).

٤٩٥- صحة التوبة العامة وإن لم يتذكر الذنوب كلها:

وبناء على ما تقدم، «فمن تاب توبة عامة كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها وإن لم يستحضر أعيان الذنوب، إلا أن يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص مثل أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه لقوة إرادته إياه أو لاعتقاده أنه حسن ليس بقبيح، فما كان لو استحضره لم يتب منه لم يدخل في التوبة، وأما ما كان لو حضر بعينه لكان مما يتوب منه فإن التوبة العامة شملته.

وأما التوبة المطلقة (٥٥٥) وهي أن يتوب توبة مجملة، ولا تستلزم التوبة من كل ذنب، فهذه لا توجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها ولا تمنع دخوله، كاللفظ المطلق، لكن هذه تصلح أن تكون سبباً لغفران المعين كما تصلح أن تكون سبباً لغفران الجميع، بخلاف العامة فإنها مقتضية للغفران العام كما تناولت الذنوب تناولاً عاماً.

---

(٥٥٤) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٥٥ و ٢٥٧.

(٥٥٥) يفرق ابن تيمية بين التوبة العامة (الشاملة)، والتوبة المطلقة (المجملة) على النحو الذي ذكر في المتن، والمقصود بالتوبة المطلقة: المطلقة عن تعيين ذنوب معينة يتوب عنها، فربما قصد بها صاحبها أن تتناول الذنوب كافة فتكون كالتوبة العامة، وربما لم يقصد بها ذلك فتتناول ما انصرفت إليه نيته، بخلاف العامة فإنها تتناول كل فرد من أفراد الذنوب وإن لم يتذكرها وتقتضي الغفران العام. وقد ورد المصلح نفسه (التوبة المجملة) عند المالكية فقالوا: «وتصح التوبة من الذنوب إجمالاً». (انظر: الفواكه الدواني ج: ١ ص: ٧٦).

٤٩٦- التوبة العامة تشمل فعل المحرمات وترك الواجبات :

وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها، أو بعض الظلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تركه من المأمور الذي يجب عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضرراً عليه مما فعله من بعض الفواحش، فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حقاً أعظم نفعاً من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة، كحب الله ورسوله فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية حتى ثبت في الصحيح أنه كان على عهد النبي ﷺ رجل يدعى حماراً وكان يشرب الخمر، وكان كلما أتي به إلى النبي ﷺ جلده الحد، فلما كثر ذلك منه أتي به مرة فأمر بجلده فلعنه رجل فقال النبي ﷺ : (لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله) فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب لكونه يحب الله ورسوله مع أنه ﷺ لعن في الخمر عشرة، لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها، ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين الذي قام به ما يمنع لحوق اللعنة له، وكذلك التكفير المطلق و الوعيد المطلق، ولهذا كان الوعيد المطلق في الكتاب والسنة مشروطاً بثبوت شروط وانتفاء موانع، فلا يلحق - الوعيد المطلق - التائب من الذنب باتفاق المسلمين، ولا يلحق من له حسنات تمحو سيئاته، ولا يلحق المشفوع له، والمغفور له، فإن الذنوب تزول عقوبتها التي هي جهنم بأسباب: التوبة، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة لكنها من عقوبات الدنيا، وكذلك ما يحصل في البرزخ من الشدة، وكذلك ما يحصل في عرصات القيامة، وتزول أيضاً بدعاء المؤمنين كالصلاة عليه، وشفاعة الشفيع المطاع كما يشفع فيه سيد الشفعاء محمد ﷺ تسليماً.

وحينئذ فأي ذنب تاب منه ارتفع موجبه، وما لم يتب منه فله حكم الذنوب التي لم يتب منها، فالشدة إذا حصلت بذنوب وتاب من بعضها خفف منه بقدر ما تاب منه، بخلاف ما لم يتب منه، بخلاف صاحب التوبة العامة.

والناس في غالب أحوالهم لا يتوبون توبة عامة مع حاجتهم إلى ذلك فإن التوبة واجبة على كل عبد في كل حال لأنه دائماً يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور أو ما اعتدى فيه من فعل محظور فعليه أن يتوب دائماً والله أعلم» [٥٥٦].

---

(٥٥٦) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٥٧ـ ٢٥٨.

٤٩٧-٢- قول ابن القيم في التوبة العامة:

تكلم ابن القيم عن التوبة العامة بمناسبة الكلام عن التوبة النصوح فقال: «النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيها لديه والرهبة مما عنده...فالأول يتعلق بها يتوب منه، والثالث يتعلق بمن يتوب إليه، والأوسط يتعلق بذات التائب ونفسه. فنصح التوبة: الصدق فيها والإخلاص وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب وهي أكمل ما يكون من التوبة، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله» (٥٥٧).

٤٩٨-٣- قول الغزالي في التوبة العامة وما يفعله التائب لصحتها وكمالها:

قال الإمام الغزالي فيمن تاب توبة عامة(٥٥٨):

٤٩٩- أ- ما يفعله التائب توبة عامة لتدارك الماضي:

«وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة، وليناقش قبل أن يناقش، فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه، فإن حصل مجموع ما عليه، بظن غالب، ونوع من الاجتهاد ممكن، فليكتبه، وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحداً واحداً، وليطف في نراحي العالم وليطلبهم وليستحلهم، أو ليؤد حقوقهم، وهذه التوبة تشق على الظلمة، وعلى التجار، فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم، ولا على طلب ورثتهم، ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه، فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم، ولتكن كثرة حسناته

---

(٥٥٧) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٣١٠.

(٥٥٨) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٣٧-٣٩.

بقدر كثرة مظالمه، فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره، فهذا طريق كل ظالم في رد المظالم، وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم، فكيف وذلك مما لا يعرف؟ وربما يكون الأجل قريباً، فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات، هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته.

أما أمواله الحاضرة فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكاً معيناً، وما لا يعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به، فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام.

وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم في الغيبة فيطلب كل من تعرض له بلسان أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحداً واحداً منهم، ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضاً في القيامة، وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته، وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له، فالاستحلال المبهم لا يكفى، وربما لو عرف ذلك وكثرة تعدية عليه لم تطب نفسه بالإحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته، فإن كان في جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شوفه به [أي إذا شافهه به] فقد انسد عليه طريق الاستحلال، فليس له إلا أن يستحل منها، ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب.

وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنايته وعرفه المجني عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فإن هذا حقه فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإن الإنسان عبد الإحسان، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة، فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالإحلال، فإن أبى إلا الإصرار فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته.

وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضا في القيامة بحكم الله به عليه، كمن

أتلف في الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى، فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين، وفى المتفق عليه من الصحيحين عن أبى سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال: (كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ قال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال له: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى الأرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه حكماً بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجوده أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة)[٥٥٩].

فبهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة، فلا بد للتائب من تكثير الحسنات، هذا حكم القصد المتعلق بالماضي.

٥٠٠- ب - ما يفعله التائب توبة عامة في مستقبل أيامه:

وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها، كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلاً فيعزم عزماً جزماً أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه، فإن هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال، فإن كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر

---

(٥٥٩) حديث أبى سعيد الخدري المتفق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل عن أعلم أهل الأرض الحديث هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبى سعيد وفى رواية فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها وفى رواية فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له) (انظر تخريج العراقي في كتاب الإحياء ٤/ ٣٩).

الكفاية فليقتصر عليه، فإن رأس المعاصي أكل الحرام، فكيف يكون تائباً - توبة عامة - مع الإصرار عليه، ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات، وقد قال بعضهم: من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها، وقال آخر: من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبدا.

ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب كالذي يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلاً وليست هذه توبة مطلقة.

٥٠١- بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب بعد التوبة:

التائب بعد التوبة ليس معصوماً فقد يجري عليه ذنب عن قصد وشهوة غالبة، وقد يجري عليه ذنب إلماماً بين الحين والآخر بحكم الاتفاق، فماذا يفعل؟

والجواب: أن يتوب ثانية وثالثة حتى يحزن الشيطان. فإن لم تساعد النفس على توبة صادقة بالنسبة لذنوب معينة فليجتهد في تصحيحها ولا ييأس فإن لم يقدر فليشتغل بعمل الحسنات الماحية لكي تمحو أثرها: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، وقال ﷺ: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها)[٥٦٠].

٥٠٢- قول الغزالي في التائب توبة عامة إذا وقع منه ذنب جديد بعد التوبة :

قال الإمام الغزالي في بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب بعد التوبة: «اعلم أن الواجب عليه: التوبة والندم، والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه.

فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها، فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فالحسنات المكفرة للسيئات: إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالجوارح، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها.

فأما بالقلب: فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم، فما للعبد

---

(٥٦٠) الترمذي (١٩١٠)، وأحمد (٢٠٣٩٢)، و(٢٠٥٥٦).

الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد، وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات، وأما باللسان: فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار، وأما بالجوارح: فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات، وفى الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجواً، أربعة من أعمال القلوب: وهى التوبة أو العزم على التوبة، وحب الإقلاع عن الذنب، وتخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له، وأربعة من أعمال الجوارح وهى: أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ثم تتصدق بصدقة ثم تصوم يوماً، وفى بعض الآثار[561] تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين، وفى بعض الأخبار تصلى أربع ركعات[562] وفي الخبر (إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها، السر بالسر، والعلانية بالعلانية)[563]، وفي الخبر الصحيح أن رجلا قال لرسول الله ﷺ : إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس فاقض علي بحكم الله تعالى، فقال ﷺ : (أو ما صليت معنا صلاة الغداة؟ قال: بلى، فقال ﷺ : «إن الحسنات يذهبن السيئات»[564]... جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله ﷺ :

---

(٥٦١) قال العراقي: أثر (إن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين) أخرجه أصحاب السنن من حديث أبى بكر الصديق ﷺ، (ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ثم يستغفر الله إلا غفر الله له) لفظ أبى داود، وهو في الكبرى للنسائي مرفوعاً وموقوفاً فلعل المصنف عبر بالأثر لإرادة الموقوف) (انظر تخريج العراقي في كتاب الإحياء ٤/ ٤٧).

(٥٦٢) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات أخرجه ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يهوى امرأة، الحديث وفيه فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدبة فقام نادماً فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فقال له النبي ﷺ صل أربع ركعات فأنزل الله عز وجل (وأقم الصلاة طرفي النهار) الآية وإسناده جيد (انظر تخريج العراقي في كتاب الإحياء ٤/ ٤٧).

(٥٦٣) حديث (إذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية) أخرجه البيهقي فى الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم، ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ: وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة، السر بالسر، الحديث (انظر تخريج العراقي في كتاب الإحياء ٤/ ٤٧)

(٥٦٤) حديث أن رجلاً قال يا رسول الله إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس الحديث في نزول (إن الحسنات يذهبن السيئات) متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ما =

(الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر)، فعلى الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم، ويجمع سيئاته، ويجتهد في دفعها بالحسنات»[٥٦٥].

٥٠٣- التوبة العامة ضرورية للمؤمنين عامة والعلماء والدعاة إلى الله خاصة وبيان كفيتها:

وتأسيساً على ما نبه إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو ما يشهد له الكتاب والسنة والإجماع من أهمية التوبة العامة عن ذنوب العمر كله وعدم الغفلة عنها، وقد ذكرنا قوله قبل قليل من أن «الناس في غالب أحوالهم لا يتوبون توبة عامة مع حاجتهم إلى ذلك...» فإنه ليحسن بكل مؤمن ومؤمنة أخذوا أنفسهم بالتقوى، واختاروا الآخرة على الدنيا، وتحروا الدعوة إلى الله والعمل الصالح، وانتدبوا أنفسهم للمشاركة في وظيفة الرسل في الدعوة إلى الله تعالى وهداية الخلق.. يحسن بهم وهم يسيرون إلى الله تعالى ويترقون في مراتب الإيمان أن يلقوا عن كاهلهم ما أصابهم من أوزار وخطايا خلال مسيرة الحياة من تقصير في الواجبات الشرعية أو وقوع في الذنوب، أن يلقوا عن كواهلهم كل هذه الأوزار دفعة واحدة، ويتبرؤوا منها إلى الله تعالى، فارين منها إلى الله، بتوبة عامة شاملة.

نعم، كل من قارف ذنباً معلوماً لديه ربما ندم عليه وتاب منه في حينه وربما عاوده أو لم يعاوده، ولكننا نتكلم عن شيء آخر.. عن حصيلة العمر إلى هذه اللحظة من الذنوب التي يعلمها أو لا يعلمها، انتبه إليها أو لم ينتبه إليها، عرفها ذنوباً أو لم يعرفها، تذكرها أو نسيها، سرها وعلانيتها، صغيرة كانت - وما أكثرها لكل بني آدم - أو كبيرة، وسواء كانت تفريطاً في الواجبات أو اقتحاماً للمحرمات، فيندم عليها ويعزم على تداركها والخلاص من تبعاتها من قبل أن يخطفه الموت مخلطاً خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، يتدارك ذلك بتوبة نصوح عامة شاملة، تنقيه منها دفعة واحدة إن شاء الله تعالى، وتجعله يسير إلى الله طاهراً نقياً غير محمل بالأوزار، ويترقى في درجات القرب ليس معه أوزاره،

= صليت معنا صلاة الغداة،ورواه مسلم من حديث أنس وفيه: هل حضرت معنا الصلاة؟ قال نعم، ومن حديث أبى أمامة وفيه: ثم شهدت الصلاة معنا، قال: نعم الحديث (انظر تخريج العراقي في كتاب الإحياء ٤/ ٤٧).

(٥٦٥) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٤٦-٤٧.

بل نقياً مؤهلاً للقرب، وهذا هو المطلوب المهم من المؤمنين والمؤمنات والدعاة منهم خاصة، فهي حلة ترتديها ظاهراً وباطناً ثم تحافظ عليها فإن خرقتها يوماً، ولست معصوماً، فعد إليها فوراً من غير مهلة أو تأخير بتجديد التوبة، وإنها لفرصة عظمى وغنيمة كبرى أن تنال غفران ذنوب العمر كله بتوبة عامة.

فإن العبد إذا جلس بين يدي ربه تبارك وتعالى - ويستحب له أن يصلي ركعتين هما صلاة التوبة - مستذكراً ما يستطيع تذكره من ذنوب العمر وناظراً في مقدار خطرها عليه يوم القيامة ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:٣٠] وعارفا أن له رباً رحماناً رحيماً قادراً على غفرانها ومحوها جميعاً، بل وتبديلها حسنات، وأنه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولجأ إليه لجوء المضطر، يحمده بمحامده كلها، ويصلي على رسوله ﷺ ويكثر من ذلك، ثم يدعوه بأسمائه العظام من أسمائه الحسنى، داخلاً عليه بالإفلاس التام، والافتقار التام، يسأله مسألة المسكين، ويتضرع إليه تضرع المفتقر المحب الخاضع الذليل، ويبتهل إليه ابتهال الخائف الضرير، يسأله أن يهب له ذنوب العمر، كبيرها وصغيرها، عمدها وخطأها، دقها وجلها، ما علم منها وما لم يعلم، ويلح في الدعاء والتضرع والرجاء نادماً على ذنوب العمر وعلى ما فرط في جنب رب السماوات والأرض الملك القدوس، فإذا صدق الله في كل ذلك وكرره مرات، فإنه سيجد شيئاً عظيماً لا عهد له به من قبل، لم يعرفه من قبل، وعندها سيعرف معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ ﴾ [الفتح: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:١١٠]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ويتذوق معنى دعائه: (اللهم أذقني برد عفوك وحلاوة مغفرتك).

٥٠٤- أيهما الأفضل: المطيع الذي لم يعص أم العاصي الذي تاب توبة نصوحاً؟

تكلم العلماء في هذا الموضوع بسبب مزايا التائب الكثيرة التي تجلبها له التوبة النصوح كالمحبوبية عند الله تعالى وكتبديل سيئاته حسنات وغير ذلك، وقد حرر هذا الموضع ابن قيم الجوزية رحمه الله بشكل موسع كما سيأتيك بعد قليل.

وقبل الدخول في هذا الموضوع أنبه إلى منزلق خطر وأحذر منه المؤمنين والمؤمنات أشد التحذير وهو أن يخطر في البال أن يذنب المؤمن عمداً لكي يتوب بعد ذلك من أجل أن يبدل الله سيئاته حسنات ومن أجل المزايا الأخرى للتائب، وقد نبهنا إلى ذلك في فصل سابق تحت عنوان: ارتكاب الذنب بنية التوبة بعده، وبينا الأدلة الشرعية التي تدل على أن هذا التفكير سقيم شرعاً وعقلاً، فارجع إلى ما بيناه سابقاً حول هذه المسألة . وخلاصته: أن الأصل أن الذنب يجر إلى ذنب ثان وهذا إلى ثالث حتى يستحكم الهلاك، وأيضاً فإنه لا يضمن أن الله يوفقه للتوبة، بل قد يخذله فيستمرئ الذنوب ويقيم عليها فيقسو قلبه بطول الأمد وإلفة السيئات ومساكنتها، ويغلف قلبه بالرين فيكون ذلك حجاباً عن الله ومبعداً عن التوبة، وأيضاً فإنه قد لا يمهل حتى يتوب فقد يخطفه الموت أثناء الذنب أو بعده وقبل التوبة، إلى غير ذلك مما بيناه سابقاً.

ونضيف هنا ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في نفس هذه المسألة وهو يتحدث عن التائب الذي يربح ربحاً كبيراً حين يبدل الله سيئاته حسنات، ويحذر المؤمن من أن يطمعه ذلك الربح فيعمد إلى عمل السيئات لكي يتوب منها فيحصل له نفس الربح، حيث قال: «فأين من يبدل الله سيئاته حسنات إلى من لم تحصل له تلك الحسنات؟، ولا ريب أن السيئات لا يؤمر بها، وليس للعبد أن يفعلها ليقصد بذلك التوبة منها!! فإن هذا مثل من يريد أن يحرك العدو عليه ليغلبهم بالجهاد، أو يثير الأسد عليه ليقتله - أي ليقتل الأسد ، ولعل العدو يغلبه، والأسد يفترسه، بل مثل من يريد أن يأكل السم ثم يشرب الترياق، وهذا جهل. بل إذا قدر من ابتلي بالعدو فغلبه كان أفضل ممن لم يكن كذلك، وكذلك من صادفه الأسد، وكذلك من اتفق أن شرب السم فسقي ترياقاً فاروقاً يمنع نفوذ سائر السموم فيه كان بدنه أصح من بدن من لم يشرب ذلك الترياق»[٥٦٦].

ونضيف أيضاً أن المطيع الذي لم يعص حسب تعبير ابن القيم وغيره والذي يراد مقارنته بالعاصي الذي تاب توبة نصوحاً، هو بدوره لا يخلو من ذنوب، ومطلوب منه أن يتوب توبة نصوحاً، بدليل توجيه الخطاب بالتوبة النصوح للصحابة أنفسهم، ولكل المؤمنين، إلا أن هناك من الناس من سمته الطاعة الدائمة، وهناك من كثرت معاصيه ولا نجاة له إلا بتوبة نصوح يستنقذ بها نفسه ثم يرتقي بها الدرجات العلا.

---

(٥٦٦) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية: ج: ٢ ص: ٤٠٠.

وقد ارتأينا إيراد تحرير ابن القيم للمسألة نظراً لكثرة المعلومات المهمة الواردة فيه والتي تهم المؤمنين والمؤمنات بشأن: الطاعة، والتوبة. ومنازل أهل الإيمان، وتقدم لهم ثروة علمية وفقهية دقيقة وذات فائدة كبيرة إن شاء الله تعالى، نورده - مشذباً مع وضع العناوين الجانبية الضرورية - محافظين على عبارته:

٥٠٥- تحرير ابن القيم لمسألة: المطيع، والعاصي الذي تاب توبة نصوحاً:

قال ابن القيم: «... ويتبين هذا بمسألة شريفة وهي أنه: هل المطيع الذي لم يعص خير من العاصي الذي تاب إلى الله توبة نصوحا، أو هذا التائب أفضل منه، اختلف في ذلك:

٥٠٦- وجوه ترجيح من لم يعص على من عصى وتاب توبة نصوحاً:

فطائفة رجحت من لم يعص على من عصى وتاب توبة نصوحاً واحتجوا بوجوه:

٥٠٧- الوجه الأول:

أحدها: أن أكمل الخلق وأفضلهم أطوعهم لله، وهذا الذي لم يعص أطوع فيكون أفضل.

٥٠٨- الوجه الثاني:

الثاني: أن في زمن اشتغال العاصي بمعصيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلى فوق، فتكون درجته أعلى من درجته، وغايته أنه إذا تاب استقبل سيره ليلحقه، وذاك في سير آخر، فأنى له بلحاقه، فهما بمنزلة رجلين مشتركين في الكسب، كلما كسب أحدهما شيئاً كسب الآخر مثله، فعمد أحدهما إلى كسبه فأضاعه، وأمسك عن الكسب المستأنف، والآخر مجد في الكسب، فإذا أدركته حمية المنافسة، وعاد إلى الكسب وجد صاحبه قد كسب في تلك المدة شيئاً كثيراً، فلا يكسب شيئاً إلا كسب صاحبه نظيره، فأنى له بمساواته؟.

٥٠٩- الوجه الثالث:

الثالث: أن غاية التوبة أن تمحو عن هذا سيئاته، ويصير بمنزلة من لم يعملها، فيكون سعيه في مدة المعصية لا له ولا عليه، فأين هذا السعي من سعي من هو كاسب رابح؟.

٥١٠- الوجه الرابع:

الرابع: أن الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره، ففي مدة اشتغال هذا بالذنوب كان حظه المقت، وحظ المطيع الرضا، فالله لم يزل عنه راضياً، ولا ريب أن هذا خير ممن كان الله راضيا عنه ثم مقته، ثم رضي عنه، فإن الرضا المستمر خير من الذي تخلله المقت.

٥١١- الوجه الخامس:

الخامس: أن الذنب بمنزلة شرب السم، والتوبة ترياقه ودواؤه، والطاعة هي الصحة والعافية، وصحة وعافية مستمرة خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه، وربما أديا به إلى التلف أو المرض أبدا.

٥١٢- الوجه السادس:

السادس: أن العاصي على خطر شديد، فإنه دائر بين ثلاثة أشياء، أحدها: العطب والهلاك بشرب السم، الثاني: النقصان من القوة وضعفها إن سلم من الهلاك، والثالث: عود قوته إليه كما كانت أو خيراً منها بعيد، والأكثر إنما هو القسمان الأولان، ولعل الثالث نادر جداً، فهو على يقين من ضرر السم، وعلى رجاء من حصول العافية، بخلاف من لم يتناول ذلك.

٥١٣- الوجه السابع:

السابع: أن المطيع قد أحاط على بستان طاعته حائطاً حصيناً، لا يجد الأعداء إليه سبيلاً، فثمرته وزهرته وخضرته وبهجته في زيادة ونمو أبداً، والعاصي قد فتح فيه ثغراً، وثلم فيه ثلمة، ومكن منه السراق والأعداء، فدخلوا فعاثوا فيه يميناً وشمالاً، أفسدوا أغصانه، وخربوا حيطانه، وقطعوا ثمراته، وأحرقوا في نواحيه، وقطعوا ماءه، ونقصوا سقيه، فمتى يرجع هذا إلى حاله الأول؟ فإذا تداركه قيمه ولم شعثه، وأصلح ما فسد منه، وفتح طرق مائه، وعمر ما خرب منه، فإنه إما أن يعود كما كان، أو أنقص، أو خيراً، ولكن لا يلحق بستان صاحبه الذي لم يزل على نضارته وحسنه، بل في زيادة ونمو وتضاعف ثمرة، وكثرة غرس.

٥١٤- الوجه الثامن:

والثامن: أن طمع العدو في هذا العاصي إنما كان لضعف علمه وضعف عزيمته، ولذلك يسمى جاهلاً، قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله على أن كل ما عصي الله به

فهو جهالة، وكذلك قال الله تعالى في حق آدم: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥] وقال في حق غيره: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وأما من قويت عزيمته، وكمل علمه، وقوى إيمانه، لم يطمع فيه عدوه، وكان أفضل.

٥١٥- الوجه التاسع:

التاسع: أن المعصية لا بد أن تؤثر أثراً سيئاً ولا بد، إما هلاكا كليا، وإما خسراناً وعقاباً، يعقبه إما عفو ودخول الجنة، وإما نقص درجة، وإما خمود مصباح الإيمان، وعمل التائب في رفع هذه الآثار والتكفير، وعمل المطيع في الزيادة ورفع الدرجات. ولهذا كان قيام الليل نافلة للنبي خاصة، فإنه يعمل في زيادة الدرجات، وغيره يعمل في تكفير السيئات، وأين هذا من هذا؟.

٥١٦- الوجه العاشر:

العاشر: أن المقبل على الله المطيع له يسير بجملة أعماله، وكلما زادت طاعاته وأعماله ازداد كسبه بها وعظم، وهو بمنزلة من سافر فكسب عشرة أضعاف رأس ماله، فسافر ثانياً برأس ماله الأول وكسبه، فكسب عشرة أضعافه أيضاً، فسافر ثالثاً أيضاً بهذا المال كله، وكان ربحه كذلك، وهلم جراً، فإذا فتر عن السفر في آخر أمره مرة واحدة، فاته من الربح بقدر جميع ما ربح أو أكثر منه، وهذا معنى قول الجنيد رحمه الله: لو أقبل صادق على الله ألف عام ثم أعرض عنه لحظة واحدة كان ما فاته أكثر مما ناله، وهو صحيح بهذا المعنى، فإنه قد فاته في مدة الإعراض ربح تلك الأعمال كلها، وهو أزيد من الربح المتقدم، فإذا كان هذا حال من أعرض، فكيف من عصى وأذنب؟ وفي هذا الوجه كفاية.

٥١٧- وجوه ترجيح التائب توبة نصوحاً على من لم يعص وأنه الأفضل :

وطائفة رجحت التائب، وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسنات منه، واحتجت بوجوه:

٥١٨- الوجه الأول:

أحدها: أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله، وأكرمها عليه، فإنه سبحانه يحب التوابين، ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه، فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذي يوجب وقوع محبوبه من التوبة وزيادة محبته لعبده، فإن للتائبين عنده محبة خاصة، يوضح ذلك:

٥١٩- الوجه الثاني:

الوجه الثاني: أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر، كما مثله النبي ﷺ بفرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدوية المهلكة، بعد ما فقدها وأيس من أسباب الحياة، ولم يجئ هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيرا عظيما في حال التائب وقلبه، ومزيده لا يعبر عنه، وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد، فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية، فيصير حبيباً لله، فإن الله يحب التوابين، ويحب العبد المفتن التواب، ويوضحه:

٥٢٠- الوجه الثالث:

الوجه الثالث: أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار، والخضوع، والتملق لله، والتذلل له، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة، وإن زادت في القدر والكمية على عبودية التوبة، فإن الذل والانكسار روح العبودية، ومخها ولبها، يوضحه:

٥٢١- الوجه الرابع:

الوجه الرابع: أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره، فإنه قد شارك من لم يذنب في ذل الفقر والعبودية والمحبة، وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية، والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله وانكسار قلبه... ولأجل هذا كان: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) (٥٦٧)، لأنه مقام ذل وانكسار بين يدي ربه.

وتأمل قول النبي [ﷺ] فيما يروى عن ربه عز وجل: (أنه يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما لو سقيته لوجدت ذلك عندي. ابن آدم: مرضت فلم تعدني، قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما إن عبدي فلاناً مرض فلم تعده،

(٥٦٧) رواه مسلم (٤٨٢)، وأبو داود (٨٧٥)، والنسائي ٢/ ٢٦٦)، والبغوي (٥٥٨) عن أبي هريرة.

أما لو عدته لوجدتني عنده)[٥٦٨]. فقال في عيادة المريض: (لوجدتني عنده)، وقال في الإطعام، والإسقاء: (لوجدت ذلك عندي)، ففرق بينهما، فإن المريض مكسور القلب، ولو كان من كان، فلا بد أن يكسره المرض، فإذا كان مؤمناً قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده.

وهذا - والله أعلم - هو السر في استجابة دعوة الثلاثة: المظلوم، والمسافر، والصائم، للكسرة التي في قلب كل واحد منهم، فإن غربة المسافر وكسرته مما يجده العبد في نفسه، وكذلك الصوم، فإنه يكسر سورة النفس السبعية الحيوانية ويذلها، والقصد: أن شمعة الخير والفضل والعطايا، إنما تنزل في شمعدان الانكسار، وللعاصي التائب من ذلك نصيب أوفر نصيب، يوضحه:

٥٢٢- الوجه الخامس:

الوجه الخامس: أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة، من كثير من الطاعات، وهذا معنى قول بعض السلف: قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه، إن قام وإن قعد وإن مشى ذكر ذنبه، فيحدث له انكساراً، وتوبة واستغفاراً، وندماً، فيكون ذلك سبب نجاته، ويعمل الحسنة، فلا تزال نصب عينيه، إن قام وإن قعد وإن مشى، كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً ومنة، فتكون سبب هلاكه، فيكون الذنب موجباً لترتب طاعات وحسنات ومعاملات قلبية، من خوف الله، والحياء منه، والإطراق بين يديه منكساً رأسه، خجلاً، باكياً، نادماً، مستقيلاً ربه، وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة، وكبراً، وازدراء بالناس، ورؤيتهم بعين الاحتقار، ولا ريب أن هذا المذنب خير عند الله، وأقرب إلى النجاة والفوز، من هذا المعجب بطاعته، الصائل بها، المان بها وبحاله على الله عز وجل وعباده، وإن قال بلسانه خلاف ذلك، فالله شهيد على ما في قلبه، ويكاد يعادي الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه، ويخضعوا له، ويجد في قلبه بغضة لمن لم يفعل به ذلك، ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامناً، ولهذا تراه عاتباً على من لم يعظمه ويعرف له حقه، متطلباً لعيبه في قالب حمية لله، وغضب له،

---

(٥٦٨) رواه مسلم (٢٥٦٩) عن أبي هريرة.

وإذا قام بمن يعظمه ويحترمه ويخضع له من الذنوب أضعاف ما قام بهذا، فتح له باب المعاذير والرجاء، وأغمض عنه عينه وسمعه، وكف لسانه وقلبه، وقال: باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود، وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تكفر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه.

فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً، ألقاه في ذنب يكسره به، ويعرفه قدره، ويكفي به عباده شره، وينكس به رأسه، ويستخرج به منه داء العجب، والكبر، والمنة عليه وعلى عباده، فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة، ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال، كما قيل بلسان الحال في قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه:

يا آدم، لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك، فقد استخرج بها منك داء لا يصلح أن تجاورنا به، وألبست بها حلة العبودية...

يا آدم، إنما ابتليتك بالذنب لأني أحب أن أظهر فضلي، وجودي وكرمي، على من عصاني، (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم)[٥٦٩].

يا آدم، إذا عصمتك، وعصمت بنيك من الذنوب، فعلى من أجود بحلمي؟ وعلى من أجود بعفوي، ومغفرتي، وتوبتي، وأنا التواب الرحيم؟.

يا آدم، لا تجزع من قولي لك: (اخرج منها)، فلك خلقتها، ولكن اهبط إلى دار المجاهدة، وابذر بذر التقوى، وأمطر عليه سحائب الجفون، فإذا اشتد الحب واستغلظ، واستوى على سوقه، فتعال فاحصده.

يا آدم، ما أهبطتك من الجنة إلا لتتوسل إلي في الصعود، وما أخرجتك منها نفياً لك عنها، ما أخرجتك منها إلا لتعود...

يا آدم، ذنب تذل به لدينا، أحب إلينا من طاعة تدل بها علينا.
يا آدم، أنين المذنبين، أحب إلينا من تسبيح المدلين.

(يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي. يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرت لك، يا ابن آدم،لو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، أتيتك بقرابها مغفرة)[٥٧٠].

---

(٥٦٩) مسلم (٤٩٣٦) واللفظ له، والترمذي (٢٤٤٩)، وأحمد (٢٤٩٢)و(٧٧٠٠) و(٧٧٣٦).
(٥٧٠) الترمذي (٣٤٦٣) وأحمد (٢٠٤٠٥) وغيرهما.

ويذكر عن بعض العباد أنه كان يسأل ربه في الطواف بالبيت، أن يعصمه، ثم غلبته عيناه فنام، فسمع قائلاً يقول: أنت تسألني العصمة، وكل عبادي يسألونني العصمة، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل وأجود بمغفرتي وعفوي؟ وعلى من أتوب؟ وأين كرمي وعفوي ومغفرتي وفضلي؟ ونحو هذا من الكلام.

يا ابن آدم، إذا آمنت بي ولم تشرك بي شيئاً، أقمت حملة عرشي ومن حوله يسبحون بحمدي ويستغفرون لك وأنت على فراشك، وفي الحديث العظيم الإلهى حديث أبى ذر: (يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فمن علم أني ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالي)[٥٧١]. ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

يا عبدي، لا تعجز، فمنك الدعاء وعلي الإجابة، ومنك الاستغفار وعلي المغفرة، ومنك التوبة وعلي تبديل سيئاتك حسنات. يوضحه:

٥٢٣- الوجه السادس:

الوجه السادس: وهو قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت)[٥٧٢]، وفرحه بنزول: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ١-٢].

واختلفوا في صفة هذا التبديل، وهل هو في الدنيا، أو في الآخرة؟ على قولين:

---

(٥٧١) رواه مسلم (٤٦٧٤) إلا أن قوله: (فمن علم أني ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالي) ليس عنده وإنها هي عند أحمد ٥/ ١٥٤ و ١٧٧ والترمذي(٢٤٩٥) وابن ماجة (٤٢٥٧) من رواية شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي ذر.

(٥٧٢) رواه الطبراني في «الكبير» (١٢٩٣٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٨٤: رواه الطبراني من رواية علي بن زيد عن يوسف بن مهران، وقد وثقا، وفيهما ضعف، وبقية رجاله ثقات. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٧٩ وزاد نسبته لابن المنذر وابن مردويه .

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها. فبدلهم بالشرك إيماناً، وبالزنا عفة وإحصاناً، وبالكذب صدقاً، وبالخيانة أمانة. فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، عوضها صفات جميلة، وأعمالاً صالحة، كما يبدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة.

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في جامعه عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ : (إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار، يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا كذا وكذا، وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، فيقول: إن لي ذنوباً ما أراها ها هنا، قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله - ﷺ - ضحك حتى بدت نواجذه)[٥٧٣].

فهذا حديث صحيح، ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر، فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار، ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطي مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه، وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات، إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب، والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته، فأين في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه، لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح بعد تمهيد قاعدة، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته، وهي: أن الذنب لا بد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة، وكذلك إذا اشتد أثره ولم تقو تلك الأمور على محوه فلا بد إذاً من دخول النار، لأن الجنة لا يكون فيها ذرة

---

(٥٧٣) رواه مسلم (١٩٠) والترمذي (٢٥٩٦) وأحمد ٥/ ١٥٧.

من الخبيث، ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه، فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كير الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه، فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا، فزوال موجب الذنب وأثره، تارة يكون بالتوبة النصوح، وهي أقوى الأسباب، وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار، فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الوسخ والخبث عنه، أعطي مكان كل سيئة حسنة. فإذا تطهر بالتوبة النصوح وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة، لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحب إلى الله، وإزالة النار بدل منها، وهي الأصل، فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول(٥٧٤) يوضحه:

٥٢٤- الوجه السابع:

الوجه السابع(٥٧٥): وهو أن التائب قد بدل كل سيئة حسنة بندمه عليها، إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة، والتوبة من كل ذنب حسنة، فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التي حلت محله، وهي حسنة، فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار، فتأمله فإنه من ألطف الوجوه.

---

(٥٧٤) وعلى ذلك يبقى الاستدلال بالحديث الشريف على تبديل السيئات إلى حسنات يوم القيامة بالنسبة للتائب فكأن ابن القيم يقول: إذا كان من أدخل النار ثم أخرج منها بدل الله تعالى له سيئاته حسنات وأدخله الجنة كان حصول ذلك التبديل للتائب من باب أولى، فهو استدلال عن طريق قياس الأولى على رأي ابن القيم، ولكن العلماء الذين استدلوا بالحديث مباشرة على التبديل للتائب من غير قياس معهم رواية أحمد (٢٠٤٢٨) ولفظها: حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، قال: فتعرض عليه ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من الكبار، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة حسنة، قال: فيقول: إن لي ذنوباً ما أراها، قال: قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه) فهذه الرواية ليس فيها أنه الرجل الذي أخرج من النار وأدخل الجنة بل فيها (يؤتى بالرجل يوم القيامة...) والمناسب لهذا أنه في موقف العرض والحساب، والله تعالى أعلم. وممن ذكر حصول ذلك عند الحساب شيخ الإسلام ابن تيمية (مجموع الفتاوى: ١٥/ ٥٤).

(٥٧٥) في الأصل: (الوجه التاسع)وهو خطأ حسب ما يقتضيه التسلسل حيث يقتضي أن يكون السابع، انظر ذلك في الأصل (مدارج السالكين : ١/ ٣٠٣).

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة، وقد تكون دونها، وقد تكون فوقها، وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة، وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها، يوضحه:

٥٢٥- الوجه الثامن:

الوجه الثامن [٥٧٦]: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر، وأعظم نفعا، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب، من ذل وانكسار، وخشية وإنابة، وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب كندامة فاعله على ارتكابه، لكن شتان ما بين الندمين، والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه، كما تقدم أن هذا من العبودية، ومن أسرار التوبة، فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله تعالى من التوبة، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة، بل حسنات.

وتأمل قوله في الآية: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠] ولم يقل مكان كل واحدة واحدة، فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

وأما في الحديث، فإن الذي عذب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات من التوبة النصوح وتوابعها، فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات، فأعطي مكان كل سيئة حسنة واحدة، وسكت النبي [ﷺ] عن كبار ذنوبه، ولما انتهى إليها ضحك ولم يبين ما يفعل الله بها، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة، ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين:

أحدهما: قوله: (أخبئوا عنه كبارها)، فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع في تبديلها، فيكون تبديلها أعظم موقعاً عنده من تبديل الصغائر، وهو به أشد فرحاً واغتباطاً.

---

(٥٧٦) في الأصل: (الوجه العاشر) وهو خطأ، أنظر الأصل (مدارج السالكين: ١/ ٣٠٣).

والثاني: ضحك النبي [ﷺ] عند ذكر ذلك، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يقر به على نفسه من الذنوب، من غير أن يقرر عليها ولا يسأل عنها، وإنما عرضت عليه الصغائر.

فتبارك الله رب العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم[٥٧٧].

٥٢٦- تعقيب وتنبيه بشأن الموازنة بين المطيع الذي لم يعص والتائب توبة نصوحاً:

وقبل أن نغادر هذه الموازنة في مسألة أيهما الأفضل: المطيع الذي لم يعص، أم التائب توبة نصوحاً؟ نقول:

إن هذه الموازنة لا ينبغي أن تكون على إطلاقها، لأن التائبين توبة نصوحاً ليسوا في مرتبة واحدة، بل هم على مراتب من الفضل متنوعة، لا يعلمها إلا الله، وكذلك المطيعون الذين دأبهم الطاعة الدائمة ليسوا في مرتبة واحدة، بل هم على مراتب من الفضل لا يعلمها إلا الله تعالى، وهذا الذي فرضناه مطيعاً، هو الآخر، لا يكون مطيعاً إلا إذا قدم توبة نصوحاً، لأنه مأمور بها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، لكن توبته تتناول ذنوباً قليلة، وتوبة العاصي تتناول ذنوباً كثيرة، ويبقى الفيصل في الموضوع حال كل منهما مع ربه جل جلاله.

ومن جهة ثانية ننبه إلى أن المقصود بالتائب توبة نصوحاً - الذي تناولته الموازنة السابقة - ليس هو من يسمع بمزايا التوبة النصوح فيعمد إلى فعل السيئات اليوم بنية أن يتوب عنها غداً ليحصل على حالة التوبة النصوح، فإن هذا قد يهلك بهذا المسلك الجاهل، وإنما كلامنا في عبد وفقه الله للتوبة النصوح بعد العصيان والذنوب، ولم يختم على قلبه بسبب تراكم الذنوب التي يستحكم معها الهلاك، وأمهله، ولم يقدر عليه الموت أثناء الذنب وبعده، ثم أمده بتوفيقه، ولم يكله إلى نفسه، فوفقه للتوبة النصوح.

---

(٥٧٧) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٢٩٤ -٣٠٤.

٥٢٧- جميع المؤمنين والمؤمنات يمكنهم الحصول على مزايا التوبة النصوح:

فجميع المؤمنين والمؤمنات بدون استثناء يمكنهم الحصول على مزايا التوبة النصوح من غير أن يخطر في بالهم أن يعصوا ثم يتوبوا توبة نصوحاً فإن من يتأمل هذه الموازنة بين المطيع الذي لم يعص، وبين العاصي الذي تاب توبة نصوحاً، ويتعرف على المزايا العظيمة للتوبة العامة النصوح، يكفيه ما هو عليه من الذنوب الآن منذ البلوغ وحتى هذه اللحظة، فليستذكرها، وليفتش في أيامه ولياليه، وفي سني العمر كلها، وكم فيها من ترك للواجبات أو تقصير فيها، وكم فيها من اقتحام للمحرمات من ذنوب السمع والبصر والفؤاد وبقية الجوارح، وليعلم أن ما نسيه أكثر مما ذكره، وليقدم عن ذلك كله توبة عامة عن ذنوب العمر كله. ويستحب له أن يصلي قبل ذلك ركعتين سماها بعض العلماء (صلاة التوبة). ونقدم فيما يلي شيئاً من أقوال العلماء بشأنها:

٥٢٨- استحباب صلاة التوبة وأقوال العلماء فيها:

«صلاة التوبة مستحبة باتفاق المذاهب الأربعة. وذلك لما رواه أبو بكر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من رجل يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له.. ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] إلخ...»[٥٧٨].

٥٢٩- بعض أقوال المذاهب الفقهية في صلاة التوبة :

١-٥٣٠- قول الحنفية في صلاة التوبة:

قال صاحب «رد المحتار» في الكلام على المندوب من الصلاة: «وذكر الشيخ إسماعيل عن شرح الشرعة: من المندوبات صلاة التوبة»[٥٧٩].

واستدرك صاحب «البحر الرائق» - من الحنفية - في شرحه لكنز الدقائق على صاحب الكنز عدم ذكر صلاة التوبة وجملة من الصلوات المندوبات أيضاً بين المندوبات من الصلاة فقال: «أقول: لم يذكر المؤلف أيضا صلاة التوبة ... »[٥٨٠].

---

(٥٧٨) الموسوعة الفقهية الكويتية ج٢٧:ص:١٦٤ .

(٥٧٩) رد المحتار على الدر المختار ج٢ ص ٢٨ وانظر أيضاً: حاشية ابن عابدين ج: ٢ ص: ٢٨ .

(٥٨٠) البحر الرائق شرح كنز الدقائق ج٢: ص: ٥٦ .

٥٣١-٢- قول المالكية في صلاة التوبة:

وجاء في «مواهب الجليل» عند الكلام عن صنف الفضيلة من السنن «...وفضيلة: وهو ركعتا الفجر وركعتا الشفع وتحية المسجد وقيام الليل وقيام رمضان وهو أوكد والتنفل قبل الظهر وبعدها وقبل العصر وبعد المغرب والضحى بلا حد في الجميع على المشهور كما سيأتي وإحياء ما بين العشاءين وركعتان بعد الوضوء وركعتا الاستخارة وركعتان عند الخروج للسفر وعند القدوم منه وعند دخول المنزل وعند الخروج منه وركعتان لمن قرب للقتل ولو كان عند طلوع الشمس أو غروبها على أحد القولين كما سيأتي وركعتان عند التوبة وركعتان عند الحاجة... »[٥٨١].

وجاء في «القوانين الفقهية»: «وأما النوافل فهي على قسمين منها ما لا سبب له وهي التطوع في الأوقات الجائزة ومنها ما له سبب وهي عشر: الصلاة عند الخروج إلى السفر وعند الرجوع منه وعند دخول المنزل وعند الخروج منه وصلاة الاستخارة ركعتان وخرجها البخاري وصلاة الحاجة ركعتان خرجها الترمذي وصلاة التسبيح أربع ركعات خرجها الترمذي عن عبد الله بن أبي، وضعف سنده، وأبو داود، وركعتان بين الأذان والإقامة وأربع ركعات بعد الزوال وركعتان عند التوبة... »[٥٨٢].

٥٣٢-٣- قول الشافعية في صلاة التوبة:

جاء في «مغني المحتاج» في معرض الكلام عن السنن: «ومنها ركعتا الإحرام وركعتا الطواف وركعتا الوضوء وركعتا الاستخارة روى الترمذي: من سعادة ابن آدم استخارة الله تعالى في كل أموره ومن شقاوته ترك استخارة الله في كل أموره وروى ابن السني عن أنس أن النبي ﷺ قال: إذا هممت بأمر فاستخر الله فيه سبع مرات ثم انظر إلى الذي سبق في قلبك فإن الخير فيه وركعتا الحاجة وركعتا التوبة...»[٥٨٣].

وجاء في «نهاية الزين» أثناء الكلام عن السنن من الصلوات: «ومنه صلاة التوبة وهي ركعتان قبل التوبة ينوي بهما سنة التوبة وتصحان بعدها، والتوبة واجبة على الفور

---

(٥٨١) مواهب الجليل ج: ١ ص: ٣٨١.

(٥٨٢) القوانين الفقهية لابن جزي ج: ١ ص: ٣٣.

(٥٨٣) مغني المحتاج ج: ١ ص: ٢٢٥.

ولو من صغيرة وتأخيرها ذنب تجب التوبة منه ولا يعد تأخير التوبة بإتيان الركعتين لأجلها لأنها من وسائلها » [٥٨٤].

٥٣٣-٤- قول الحنابلة في صلاة التوبة:

وبوب لها صاحب المغني تحت عنوان «فصل في صلاة التوبة» ثم قال: «عن علي ﷺ قال حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول ما من رجل يذنب ذنبا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله تعالى إلا غفر له ثم قرأ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] إلى آخرها رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن غريب» [٥٨٥].

وفي «مطالب أولي النهى»: « (وتسن صلاة التوبة ركعتين، ثم يستغفر الله تعالى)، لحديث: (ما من رجل يذنب ذنباً، ثم يقوم فيتطهر، ثم يصلي ركعتين، ثم يستغفر الله، إلا غفر له، ثم قرأ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ... إلى آخر الآية . رواه أبو داود والترمذي وحسنه» [٥٨٦].

وجاء في «المبدع»: «تسن صلاة الاستخارة... وصلاة التوبة لما روى علي قال حدثني أبو بكر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول ما من رجل يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر يصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له ثم قرأ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن »[٥٨٧].

وجاء في «الفروع»: «ويستحب صلاة الاستخارة وأطلقه الإمام والأصحاب ولو في حج وغيره من العبادات كما يأتي والمراد في ذلك الوقت فيكون قول أحمد كل شيء من الخير يبادر إليه أي بعد فعل ما ينبغي فعله وقد يتوجه احتمال بظاهره وفيه نظر ويستحب صلاة الحاجة... وصلاة التوبة لخبر عليٍّ المشهور وهو حسن» [٥٨٨].

---

(٥٨٤) نهاية الزين ج: ١ ص: ١٠٦ وانظر أيضا: ج:١ : ٥٥.

(٥٨٥) ابن قدامة: المغني ج: ١ ص: ٤٣٨.

(٥٨٦) الرحيباني : مطالب أولي النهى : ج: ١ ص: ٥٩٧.

(٥٨٧) إبراهيم بن محمد بن عبد الله ابن مفلح الحنبلي أبو اسحق: المبدع ج: ٢ ص: ٢٥-٢٦.

(٥٨٨) محمد بن مفلح المقدسي أبو عبد الله : الفروع ج: ١ ص: ٥٠٦.

وجاء في «كشاف القناع»: «و تسن صلاة التوبة إذا أذنب ذنباً يتطهر ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله تعالى لحديث علي عن أبي بكر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (ما من رجل يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له، ثم قرأ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] الآية، رواه أبو داود والترمذي وقال حسن غريب»(٥٨٩).

وذكر ابن تيمية صلاة التوبة بمناسبة الكلام عن جواز أداء السنن في وقت النهي ما دامت لها سبب يفوت بالتأخير فقال: «وذوات الأسباب كلها تفوت إذا أخرت عن وقت النهى مثل سجود التلاوة وتحية المسجد وصلاة الكسوف ومثل الصلاة عقب الطهارة كما في حديث بلال وكذلك صلاة الاستخارة إذا كان الذي يستخير له يفوت لذا أخرت الصلاة وكذلك صلاة التوبة إذا أذنب فالتوبة واجبة على الفور وهو مندوب إلى أن يصلى ركعتين ثم يتوب كما في حديث أبى بكر الصديق »(٥٩٠).

وقال ابن تيمية في موضع آخر: «وكذلك علي ﷺ قال كنت إذا سمعت من رسول الله حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه وإذا حدثني غيره استحلفته فإذا حلف لي صدقته وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر وذكر حديث صلاة التوبة المشهور »(٥٩١).

وبهذا ننتهي من الكلام في القسم الثاني من أقسام التوبة وهو «التوبة من ذنب معين والتوبة العامة (الشاملة)»، لنبدأ الكلام في القسم الثالث من أقسامها وهو: «التوبة الواجبة والتوبة المستحبة»، وهو موضوع المبحث الثالث القادم إن شاء الله تعالى.

---

(٥٨٩) ابن إدريس البهوتي : كشاف القناع ج: ١ ص: ٤٤٣.
(٥٩٠) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه ج: ٢٣ ص: ٢١٥.
(٥٩١) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه ج: ٢٠ ص: ٢٣٧

المبحث الثالث
التوبة الواجبة والتوبة المستحبة

٥٣٤- تمهيد وتقسيم:

قد يترك المسلم واجباً من الواجبات الشرعية فيحتاج إلى التوبة من ذلك، وقد يفعل فعلاً محرماً فيحتاج إلى التوبة منه، وفي الحالتين تكون هذه التوبة واجبة وعلى الفور، وهو أمر ثبت بالقرآن والسنة والإجماع، وقد يترك المسلم مندوبات أو يفعل مكروهات، والمندوب يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه، والمكروه يثاب تاركه ولا يعاقب فاعله وفي الحالتين يحسن به أن يتوب من ذلك، وهذه هي التوبة المستحبة.

وعلى ذلك فسنبحث هذا الموضوع في مطلبين:

نخصص الأول: للكلام عن التوبة الواجبة وأحكامها.

ونتناول في الثاني: بيان التوبة المستحبة وأحكامها.

المطلب الأول
التوبة الواجبة وأحكامها

٥٣٥- التوبة الواجبة تكون عن ترك الواجب وفعل المحرم:

التوبة الواجبة هي التوبة من الذنوب الموصوفة بالحرمة سواء كانت هذه الذنوب من قبيل فعل المحرمات أو من قبيل ترك الواجبات، لأن ترك الواجب حرام.

٥٣٦- وجوب التوبة يشمل كل المسلمين والمؤمنين ويتصف بالفورية:

٥٣٧-١- الوجوب يشمل المسلمين والمؤمنين جميعاً بدون استثناء:

حيث لا يخلو إنسان من الذنوب، لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا...﴾ [التحريم: ٨] كما يشمل الكافرين أيضاً، وتوبة الكافر إسلامه، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقال في سياق خطاب الكافرين أيضاً: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

٥٣٨-٢- أن هذا الوجوب على الفور وليس على التراخي:

إذ التراخي معناه الإقامة والإصرار على المعصية من غير توبة وهو من المحرمات، لذلك قالوا: تأخير التوبة ذنب يجب التوبة منه .

وقد شرحنا أدلة وجوب التوبة عند الكلام عن أركان التوبة مستندين إلى الكتاب والسنة والإجماع، ونقلنا أقوال علماء الأمة في ذلك.

ومعظم العلماء وكذلك المفسرين عندما يتكلمون عن التوبة يتكلمون عنها باعتبارها توبة عن المحرمات والمعاصي سواء أكانت تركاً للواجب أو فعلاً للمحرم فتكون التوبة واجبة قطعاً وعلى الفور حتماً، ومن ذلك قول الإمام الغزالي: «والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى، وهذا داخل في وجوب الإيمان، ولكن قد دهش الغفلة عنه، فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة، ولا خلاف في وجوبها ومن معانيها ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال، وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال وذلك لا شك في وجوبه، وأما التندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب وهو روح التوبة، به تمام التلافي فكيف لا يكون واجباً بل هو نوع ألم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله» [٥٩٢].

وقال ابن حزم: «التوبة فرض من الله تعالى على كل مذنب، ولأن الدعاء إلى التوبة فرض على كل مسلم قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [التحريم: ٨] الآية، وإذا كان هذا الإصرار على الذنب حراماً بإجماع الأمة كلها المتيقن: فالتوبة والإقلاع فرض بإجماع الأمة كلها، لا خلاف في ذلك» [٥٩٣].

٥٣٩- وجوب التوبة بعد الذنب على الفور يدفع محذورين كبيرين:

قلنا إن التوبة واجبة على الفور لا على التراخي وإن تأخيرها إصرار على الذنب وهو محرم بالإجماع وهو يجر على صاحب التأخير خطرين:

---

(٥٩٢) الغزالي: إحياء علوم الدين ج:٤ ص:٥.

(٥٩٣) ابن حزم: المحلى: ج:١٢ ص:٣٦.

٥٤٠- المحذور الأول: أنه قد يخطفه الموت فيموت مخلطاً لا تائباً:

وفرق كبير بين من يموت (مخلطاً)وبين من يموت (تائباً): قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] أي مستسلمون لله تعالى منقادون مطيعون غير مصرين على معصيته.

٥٤١- والمحذور الثاني: زيادة الإثم حسب طول مدة التأخير:

وإثم التأخير هذا يزيد وينقص، يزيد بتأخير التوبة لأنه يمثل مزيداً من مدة الإصرار، وينقص بالمبادرة فوراً إلى التوبة لمنع تراكم الإثم بطول مدة الإصرار.

ومن هنا أجمع علماء الأمة بلا استثناء على أن (الفورية) في المبادرة إلى التوبة واجبة وفرض مثل وجوب التوبة نفسها وفرضيتها.

جاء في «التعريفات»: «وهي - التوبة - واجبة على الفور عند عامة العلماء أما الوجوب فلقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [النور: ٣١]، وأما الفورية فلما في تأخيرها من الإصرار المحرم» (٥٩٤).

وفي «شرح النووي على صحيح مسلم»: «واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة، وأنها واجبة على الفور، لا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة، والتوبة من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة، ووجوبها عند أهل السنة بالشرع وعند المعتزلة بالعقل» (٥٩٥).

٥٤٢- أقوال العلماء في أن الوجوب في التوبة على الفور:

ونقدم فيما يلي طائفة من أقوال المذاهب الفقهية في مسألة أن الوجوب في التوبة على الفور:

٥٤٣-١- من فقه المالكية:

جاء في «الفواكه الدواني» - من فقه المالكية -: «التوبة واجبة شرعاً على الفور على كل مكلف مؤمناً كان أو كافراً ولا يجوز تأخيرها ولو كان الذنب صغيرة فمن أخرها عصى فيجب عليه توبتان دل على وجوبها الكتاب والسنة وإجماع الأمة» (٥٩٦).

---

(٥٩٤) الجرجاني: التعريفات ج: ١ ص: ٩٦ .

(٥٩٥) النووي: شرح النووي على صحيح مسلم ج: ١٧ ص: ٥٩ .

(٥٩٦) أحمد بن غنيم بن سالم النفراوي المالكي: الفواكه الدواني ج: ١ ص: ٧٦ .

وجاء في «كفاية الطالب» - من فقه المالكية -: «واعلم أن التوبة واجبة شرعاً على الفور على المؤمن والكافر من أخرها عصى ثبت وجوبها بالكتاب والسنة والإجماع»[٥٩٧].

٥٤٤-٢- من فقه الشافعية :

وجاء في: «إعانة الطالبين»: - من الفقه الشافعي - «وفي الروض وشرحه تجب التوبة من المعصية على الفور بالاتفاق، وتصح من ذنب دون ذنب وإن تكررت توبته وتكرر منه العود إلى الذنب ولا تبطل توبته به بل هو مطالب بالذنب الثاني دون الأول»[٥٩٨].

وفي «حواشي الشيرواني»: - من الفقه الشافعي - «والتوبة من الذنب واجبة على الفور أمر بها الإمام أم لا وظاهر أن الخروج من المظالم داخل فيها» [٥٩٩].

وفي «روضة الطالبين» - من الفقه الشافعي -: «التوبة من أصول الإسلام المهمة وقواعد الدين وأول منازل السالكين قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور:٣١] فالتوبة من المعصية واجبة على الفور بالاتفاق»[٦٠٠].

وفي «مغني المحتاج» - من الفقه الشافعي -: «التوبة مما تجب منه واجبة على الفور وكذا رد المظالم الممكن ردها» [٦٠١].

وفي «نهاية الزين» - من الفقه الشافعي -: «والتوبة واجبة على الفور ولو من صغيرة، وتأخيرها ذنب تجب التوبة منه ولا يعد تأخير التوبة بإتيان الركعتين لأجلها - أي صلاة التوبة - لأنهما من وسائلها» [٦٠٢].

وجاء في «إحياء علوم الدين» - من الفقه الشافعي- وقد بوب لها الغزالي بعنوان: (بيان أن وجوب التوبة على الفور) ثم قال: «أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه إذ

---

(٥٩٧) أبو الحسن المالكي: كفاية الطالب ج: ١ ص: ٩٨.
(٥٩٨) إعانة الطالبين ج: ٤ ص: ٢٩٢ (السيد البكري الدمياطي أبو بكر).
(٥٩٩) حواشي الشرواني ج: ٣ ص: ٧٢.
(٦٠٠) روضة الطالبين ج: ١١ ص: ٢٤٩.
(٦٠١) مغني المحتاج ج: ١ ص: ٣٢٩.
(٦٠٢) نهاية الزين ج: ١ ص: ١٠٦.

معرفة كون المعاصي مهلكات، من نفس الإيمان، وهو واجب على الفور... فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا تتعلق بعمل بل هي من علوم المعاملة، وكل علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع التقصي عن عهدته ما لم يصر باعثاً عليه، فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً لتركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان»[٦٠٣].

٥٤٥-٣- من فقه الحنابلة :

وجاء في «كشاف القناع» - من الفقه الحنبلي -: «وتجب التوبة فوراً من القذف والغيبة وغيرهما، ظاهره: ولو من صغيرة، وإن كانت تكفر باجتناب الكبائر لعموم الأدلة» [٦٠٤].

وجاء فيه أيضاً: «وإن كان فسقه بترك واجب فلا بد من فعله أي الواجب الذي تركه ويسارع بفعل ذلك الواجب بل تجب التوبة فوراً من كل معصية ويعتبر لصحة توبة من نحو غصب رد مظلمة إلى ربها إن كان حياً أو إلى ورثته إن كان ميتاً أو أن يحلله منها أي المظلمة » [٦٠٥].

وفي «مدارج السالكين»: «المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ولا يجوز تأخيرها فمتى أخرها عصى بالتأخير فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى وهي توبته من تأخير التوبة وقل أن تخطر هذه ببال التائب بل عنده: أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة» [٦٠٦].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإذا أذنب فالتوبة واجبة على الفور»[٦٠٧].

وقال أيضاً: «... وكذلك صلاة التوبة فإذا أذنب فالتوبة واجبة على الفور وهو مندوب إلى أن يصلي ركعتين ثم يتوب كما في حديث أبي بكر الصديق »[٦٠٨].

---

(٦٠٣) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٧.
(٦٠٤) كشاف القناع ج:٦ ص: ١٥.
(٦٠٥) كشاف القناع ج: ٦ ص: ٤٢٥.
(٦٠٦) الغزالي: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٢٧٢.
(٦٠٧) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ٢٣ ص: ٢١٥.
(٦٠٨) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ٢٣ ص: ٢١٥.

وجاء في «المنثور» - من كتب الأصول -: «وهي واجبة على الفور فمن أخرها زمناً يتسع لها صار عاصياً بتأخيرها، قال الشيخ عز الدين: وكذلك يتكرر عصيانه بتكرر الأزمنة المتسعة لها فيحتاج إلى توبة من تأخيرها، قال: وهذا جار في كل ما يجب تقديمه من الطاعات»[609].

وجاء في «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»: «والتوبة واجبة على الفور فمن أخرها زماناً صار عاصياً بتأخيرها، وكذلك يتكرر عصيانه بتكرر الأزمنة المتسعة لها، فيحتاج إلى توبة من تأخيرها، وهذا جار في تأخير كل ما يجب تقديمه من الطاعات»[610].

٥٤٦- الفورية في التوبة ثابتة بالإجماع:

ونحن إذ نكتفي بما قدمناه من نماذج لأقوال العلماء في أن الوجوب في التوبة إنما هو على الفور من غير تأخير ومن غير مهلة ومن غير تريث وانتظار، نذكر أن هناك أقوالاً كثيرة أخرى مماثلة لما قدمناه وكلها مطبقة على أن التوبة من المعاصي سواء أكانت المعصية ترك الواجبات أو فعل المحرمات إنما هي توبة ثبت وجوبها بالإجماع، وأن (الفورية) فيها واجبة أيضاً بالإجماع من غير مهلة أو تأخير حتى إن العلماء تكلموا عن صلاة التوبة وهي ركعتان وفي رواية أربع ركعات، تسبق التوبة، هل هي من التأخير أم لا؟ وأجابوا عن ذلك بأنها ليست من التأخير لأنها ثابتة بالدليل، ولأنها من وسائل التوبة وليست اشتغالاً بشيء خارج عنها.

٥٤٧- الموسوعة الفقهية تنقل الإجماع على الفورية في التوبة:

وقد نقلت الموسوعة الفقهية عن القرطبي الإجماع على تعجيل التوبة وأنها على الفور حيث جاء فيها: «تجب التوبة على كل مكلف على الفور عقيب الذنب. وقد دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة. قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ ﴾ [النساء: ١٧] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم

---

(٦٠٩) المنثور في القواعد الفقهية ج: ١ ص: ٤١٤ .

(٦١٠) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ج: ١ ص: ١٨٨ .

مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، ونقل القرطبي وغيره: الإجماع على وجوب تعجيل التوبة، وأنها على الفور»[٦١١].

٥٤٨- وجوب التوبة على الفور يخص التوبة الواجبة لا المستحبة:

وكل كلامنا عن وجوب التوبة، وأن هذا الوجوب على الفور، إنما هو متعلق بالتوبة الواجبة، وهي التوبة عن ترك الواجبات وفعل المحرمات، ولا يشمل التوبة المستحبة التي هي التوبة عن ترك المندوبات أو فعل المكروهات والتي يستحب التوبة منها ويستحب المبادرة إليها على الفور، والمستحب غير الواجب.

ونعود الآن إلى المقصود من هذا المبحث وهو بيان انقسام التوبة إلى: توبة واجبة: وهي التوبة عن المعاصي جميعاً كبائرها وصغائرها، وتوبة مستحبة: وهي التوبة من فعل المكروهات وترك المندوبات، وهو التقسيم الثالث للتوبة فيما ذكرناه من تقسيماتها، وممن اعتنوا بهذا التقسيم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

٥٤٩- تقسيم ابن تيمية للتوبة إلى واجبة ومستحبة ودليله:

٥٥٠-١- تقسيمه التوبة إلى واجبة ومستحبة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «التوبة نوعان: واجبة، ومستحبة، فالواجبة: هي التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور، وهذه واجبة على جميع المكلفين كما أمرهم الله بذلك في كتابه وعلى ألسنة رسله. والمستحبة: هي التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات. فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين، ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين إما الكافرين وإما الفاسقين»[٦١٢].

٥٥١-٢- دليل تقسيم التوبة إلى واجبة ومستحبة:

واستدل ابن تيمية لهذا التقسيم فقال: «قال الله تعالى: ﴿ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الواقعة: ٧-١٢] وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن

---

(٦١١) الموسوعة الفقهية: ١٢/ ٢٢١-٢٢٢.

(٦١٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى (رسالة في التوبة): ج: ١ ص: ٢٢٧.

كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨-٩٧] وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٣-٦] وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ - إلى قوله - ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ - إلى قوله - ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٧-٢٨]، قال ابن عباس: تمزج لأصحاب اليمين مزجاً، ويشرب بها المقربون صرفاً. والتوبة رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه فالتوبة المشروعة: هي الرجوع إلى الله وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما يظن كثير من الجهال لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها، فأكثر الخلق يتركون كثيراً مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها، وأقوال البدن وأعماله، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه» (٦١٣).

٥٥٢-٣- شرحنا لاستدلال ابن تيمية:

ووجه استدلال شيخ الإسلام ابن تيمية بهذه الآيات على التوبة الواجبة والتوبة المستحبة هو أن القرآن الكريم قسم الناس في الآخرة إلى ثلاثة أقسام: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، فجعل أهل الجنة قسمين: المقتصد وهم الأبرار أصحاب اليمين، والسابق بالخيرات وهم السابقون المقربون، وهذا التقسيم مرتب على أعمالهم في الدنيا، فمن عمل الواجبات وترك المحرمات وتاب عن التقصير فيهما كان من أصحاب اليمين، ومن زاد على ذلك فعمل المندوبات وكف عن المكروهات وتاب عن التقصير فيهما كان له نصيب من درجة السابقين، وسيأتي مزيد من الإيضاح لهذا التقسيم عند الكلام عن التوبة المستحبة في المطلب الثاني القادم إن شاء الله.

---

(٦١٣) مجموع الفتاوى (رسالة في التوبة): ج: ١ ص: ٢٢٨.

٥٥٣- التوبة من الصغائر واجبة وإن كانت يكفرها اجتناب الكبائر:

اتفق العلماء على وجوب التوبة من الكبائر والصغائر، وأن الصغائر وإن كانت لها مكفرات تزيل إثمها والمؤاخذة عليها، مثل اجتناب الكبائر الذي يكفر الصغائر لقوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١]، ومثل عمل الحسنات الماحية، ومثل الصلوات الخمس، ومثل رمضان إلى رمضان، والجمعة إلى الجمعة، وغير ذلك مما دلت عليه السنة الصحيحة، فإن التوبة منها تبقى واجبة مع ذلك. ونقدم فيما يلي طائفة من أقوال العلماء في ذلك.

٥٥٤- من أقوال المذاهب الفقهية في أن التوبة من الصغائر واجبة على كل حال:

جاء في «الفواكه الدواني» - من الفقه المالكي -: «التوبة واجبة شرعاً على الفور على كل مكلف مؤمناً كان أو كافراً ولا يجوز تأخيرها ولو كان الذنب صغيرة فمن أخرها عصى فيجب عليه توبتان دل على وجوبها الكتاب والسنة وإجماع الأمة وتوبة الكافر إسلامه» (٦١٤).

وفي حاشية العدوي - من الفقه المالكي - وهو يشرح ما يجب التوبة منه من الذنوب: (قوله: كبيراً كان أو صغيراً) هذا هو الظاهر وهو الموافق لما قاله شارح مناسك خليل من أن المعروف وجوب التوبة من الصغائر. وصرح به القاضي عياض وغيره، وحكى القرافي الإجماع عليه (٦١٥).

وقال النووي في شرحه لصحيح مسلم: «واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة وأنها واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة والتوبة من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة » (٦١٦).

وجاء في كشاف القناع - من الفقه الحنبلي-: « (وتجب التوبة فوراً من القذف والغيبة وغيرهما) ظاهره ولو من صغيرة وإن كانت تكفر باجتناب الكبائر لعموم الأدلة» (٦١٧).

---

(٦١٤) الفواكه الدواني ج: ١ ص: ٧٦ .

(٦١٥) العدوي، على الصعيدي: حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني: ج٢ ص ٤٣٧.

(٦١٦) شرح النووي على صحيح مسلم ج: ١٧ ص: ٥٩.

(٦١٧) كشاف القناع ج:٦ ص:١١٥.

وجاء في «المنثور في القواعد الفقهية»: «وأما التوبة من الصغائر فواجبة عند الأشعري وخالف فيه أبو هاشم بن الجبائي - من المعتزلة -، وادعى بعض أئمتنا الإجماع على الوجوب ونسب أبا هاشم إلى خرق الإجماع» (٦١٨).

وجاء في جامع العلوم والحكم: «وأما الآيات التي في سورة آل عمران فوصف فيها المتقين بالإحسان إلى الخلق وبالاستغفار من الفواحش وظلم النفس وعدم الإصرار على ذلك، وهذا هو الأكمل، وهو إحداث التوبة والاستغفار عقيب كل ذنب من الذنوب صغيراً كان أو كبيراً» (٦١٩).

٥٥٥- أساس الخلاف في وجوب التوبة من الصغيرة:

وأساس الكلام في هذا الموضوع يدور حول تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤]، وقول الرسول ﷺ: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) ونحو ذلك.

٥٥٦- رأي الجمهور: وجوب التوبة من الصغائر:

فقد اتفق جمهور العلماء والمفسرين على أن وجود هذه المكفرات للصغائر لا يسقط التكليف بالتوبة من الصغائر، لأن التوبة عن جميع المعاصي واجبة لعموم الأدلة في القرآن والسنة على ذلك.

٥٥٧- رأي المعتزلة: الصغائر تقع مكفرة بمجرد اجتناب الكبائر:

وقالت المعتزلة: إن الصغائر تقع مكفرة بمجرد اجتناب الكبائر ولا دخل للقربات في تكفيرها، وبنوا على ذلك أنها لا تجب التوبة منها بالنسبة لمن اجتنب الكبائر، حيث تقع صغائره مكفرة بدون توبة وبدون عمل الحسنات الماحية (٦٢٠)، مخالفين بذلك ما عليه جمهور أهل السنة والجماعة من السلف والخلف، ومحتجين بظاهر قوله تعالى ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: ٣١].

---

(٦١٨) المنثور في القواعد الفقهية (بدر الدين بن محمد بهادر الزركشي) ج: ١ ص: ٤١٧- ٤١٨.

(٦١٩) جامع العلوم والحكم ج:١ ص:١٧٩-١٨٠.

(٦٢٠) روح المعاني: ج:٤ ص١٦٩ حيث نقل رأيهم ورد عليه وانظر أيضاً: جامع العلوم والحكم ج:١ ص: ١٧٨ وما بعدها، حيث ذكر رأيهم ورد عليه وأخذ برأي الجمهور.

وقال آخرون: إن الواجب في الصغائر أحد الأمرين: إما التوبة عنها عيناً، أو فعل ما يكفرها من الصلاة واجتناب الكبائر. وهذا خلاف رأي الجمهور أيضاً من جهة جعل الواجب أحد الأمرين [٦٢١].

٥٥٨- الطريق إلى استنباط الحكم الشرعي الصحيح في كل مسألة شرعية:

وقبل أن نقدم الأدلة على صواب رأي الجمهور من الفقهاء والمفسرين خلافاً للمعتزلة نقول: إن الحكم الشرعي في مسألة ما إنما نصل إليه من مجموع الأدلة المعتبرة من الكتاب والسنة - وما بني عليهما من أدلة الأحكام - والتي تخص المسألة محل البحث ولا يستنبط من دليل واحد وتهمل بقية الأدلة، فإن هذه الطريقة الانتقائية في الاستدلال - كما فعل المعتزلة - مرفوضة في علم أصول الفقه ولا توصل إلى حكم شرعي صحيح.

٥٥٩- ما ذهب إليه الجمهور هو الصواب لصحة طريقتهم في الاستنباط:

وما ذهب إليه الجمهور في ما يشبه الإجماع من وجوب التوبة من الصغائر مبني على إعمال جميع الأدلة الخاصة بالمسألة سواء ذكروها في استدلالهم أو اكتفوا بذكر بعضها. وهم بذلك يجعلون الأدلة متكاملة ويفسر بعضها بعضاً ويعمل بها جميعاً.

٥٦٠- الأدلة على وجوب التوبة من الصغائر وإن كانت يكفرها اجتناب الكبائر:

ونقدم فيما يلي أهم الأدلة على وجوب التوبة من الصغائر وإن كانت يكفرها اجتناب الكبائر ويكفرها عمل الحسنات الماحية، وغيرهما.

٥٦١- أولاً - عموم الأدلة على وجوب التوبة من الكبائر والصغائر:

فقد دلت الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية على وجوب التوبة من الكبائر والصغائر في كل الأحوال:

فمن ذلك أمر القرآن بالتوبة بعد ذكره الكبائر والصغائر في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ

(٦٢١) المنثور في القواعد الفقهية بدر الدين بن محمد بهادر الزركشي ج:١ ص: ٤١٧حيث تبنى هذا الرأي، وانظر أيضاً: جامع العلوم والحكم ج:١ ص:١٧٨ لم يأخذ بالرأي المذكور ونسبه إلى بعض المتأخرين.

﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

والسنة النبوية، مليئة بالأمر بالتوبة من الذنوب كبائرها وصغائرها، والاستغفار منها، وقد ذكرنا سابقاً استقصاء للأدلة على وجوب التوبة في مبحث سابق فلا حاجة للتكرار.

٥٦٢- ثانياً - خصوص الدليل على وجوب التوبة من الصغائر على كل المكلفين:

فقد جاء في القرآن الكريم الأمر بالتوبة على سبيل الوجوب عقيب ذكر الصغائر بخصوصها وجعل ذلك واجباً على كل المكلفين:

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

٥٦٣- ثالثاً - تعدد أسباب المغفرة لا يستلزم سقوط التكليف بالتوبة:

وبيان ذلك أن الله تعالى تفضل على عباده فوسع عليهم في أسباب المغفرة وجعل لهم عدداً من مكفرات الذنوب منها اجتناب الكبائر فهو مكفر للصغائر كما في قوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١] ويدخل في اجتناب الكبائر عدم ترك الفرائض فإن تركها من الكبائر. ومنها أيضاً عمل الحسنات الماحية كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وكذلك الصلوات الخمس مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر، وكذلك الجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفر لما بينهما، ومثل ذلك صوم يوم عرفة الذي يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده وصوم يوم عاشوراء ونحو ذلك مما يدخل تحت (عمل الحسنات الماحية) وهنالك ثماني مكفرات أخرى غير اجتناب الكبائر وغير عمل الحسنات الماحية استقصاها شيخ الإسلام ابن تيمية سنذكرها في فصل لاحق.

٥٦٤- رابعاً - في التوبة مطلوبات شرعية مرادة لذاتها غير موجودة في المكفرات الأخرى:

فهذه كلها ليس فيها سقوط التكليف بالتوبة وليس فيها أن المعصية التي ارتفع إثمها بمكفر قد تغير وصفها ولم تعد تسمى معصية حدثت ووقعت فعلاً، والتوبة أكبر من مجرد رفع إثم المعصية بل هي ندم على مخالفة أمر الله تعالى وما يرافق ذلك من اعتراف بالذنب وعبودية وتذلل وانكسار، وإقلاع عن الزلة في الحال، وعزم على عدم العودة إليها في الاستقبال، فهي تتضمن العهد مع الله أن لا يعود إلى المعصية ما استطاع، هجراً للسيئات وعودة إلى الاستقامة، وهي واجبة بهذه الصفة لا لمجرد رفع الإثم عن ذنب وقع في الماضي، فأوصاف التوبة وفائدتها للمؤمن غير موجودة في المكفرات الأخرى، ومن هنا أوجبها الله تعالى نوعاً مستقلاً من أنواع العمل الصالح لا يغني عنها سواها من المكفرات، وإنما ينفع العبد إذا وجد مع التوبة مكفرات أخرى يعملها لأنه لا يضمن صحة توبته وقبولها، أما أن تكون المكفرات بديلة عن التوبة ومسقطة لوجوبها فلا.

قال الآلوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١] بعد أن استعرض أقوال العلماء: «لا يلزم من تكفير الذنوب الحاصلة عدم الأمر بالتوبة وكونها فرضاً، إذ تركها من الذنوب المتجددة التي لا يشملها التكفير السابق بفعل الوضوء مثلاً - وذهاب الخطايا مع ماء الوضوء كما ورد في السنة -، ألا ترى أن التوبة من الصغائر واجبة على ما نقل عن الأشعري وحكى إمام الحرمين وتلميذه الأنصاري الإجماع عليه ومع ذلك فجميع الصغائر مكفرة بنص الشارع وإن لم يتب على ما سمعت من الخلاف.

٥٦٥- خامساً - تأخير التوبة معصية بالإجماع فكيف يقره الشرع عليها بانتظار المكفر؟:

وتحقيق ذلك أن التوبة واجبة في نفسها على الفور، ومن أخرها تكرر عصيانه بتكرر الأزمنة كما صرح به الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ولا يلزم من تكفير الله تعالى ذنوب عبده سقوط التكليف بالتوبة التي كلف بها تكليفاً مستمراً، وقريب من هذا ارتفاع الإثم عن النائم إذا أخرج الصلاة عن وقتها مع الأمر بقضائها» [٦٢٢].

---

(٦٢٢) الآلوسي: تفسير «روح المعاني» : ج:١٢ ص ١٥٩-١٦٠.

وإذا كان من أخر التوبة عصى بتأخيرها فمن المحال أن يقره الشرع مقيماً على الذنب من غير توبة بانتظار تحقق المكفرات الأخرى، أرأيت إن خطفه الموت؟، فإن قالوا بل تقع صغائره مكفرة أصلاً، قلنا صار حكمها حكم المباح، وهذا نقض لعرى الشريعة.

٥٦٦- اجتماع أسباب المغفرة مع بعضها وآثارها:

قال ابن القيم رحمه الله في اجتماع مكفرات الذنوب مع بعضها:

«وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كبائر وصغائر قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، وفي الصحيح عنه أنه قال: (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلي رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر)(٦٢٣).

وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات:

أحدها: أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها والقيام بحقوقها، بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية.

الثانية: أن تقاوم الصغائر ولا ترتقي إلى تكفير شيء من الكبائر.

الثالثة: أن تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر فتأمل هذا فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة» (٦٢٤).

وقال ابن القيم في موضع آخر مبيناً اغترار بعض الناس بالمكفرات عموماً من غير أن يحدثوا توبة: «وكاغترار بعضهم على صوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة حتى يقول بعضهم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء وهي إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر فرمضان والجمعة إلى الجمعة لا يقويا على تكفير الصغائر

---

(٦٢٣) مسلم (٣٤٤)، وأحمد (٨٨٣٠)،

(٦٢٤) الجواب الكافي ج: ١ ص: ٨٧.

إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر فكيف يكفر صوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها غير تائب منها هذا محال على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء يكفر لجميع ذنوب العام على عمومه ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع ويكون إصراره على الكبائر مانعاً من التكفير فإذا لم يصر على الكبائر تساعد الصوم وعدم الإصرار وتعاونا على عموم التكفير كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر مع أنه سبحانه قد قال: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١]، فعلم أن جعل الشيء سبباً للتكفير لا يمنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل»[٦٢٥].

٥٦٧- سادساً - ترك التوبة من الصغيرة إصرار عليها يحولها إلى كبيرة فلا يتحقق اجتناب الكبائر أصلاً:

فقد بين العلماء أن معنى الإصرار: الذنب من غير توبة، أو هو الإقامة على الذنب والعزم على فعل مثله، والإصرار يحول الصغيرة إلى كبيرة وذلك على قاعدة (لا صغيرة مع الإصرار) وإذا تحولت إلى كبيرة عند الإصرار والمداومة عليها لم يستفد من قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١] لأنه صار صاحب كبيرة، وهذا ينطبق على كل الصغائر، فإما أن يقدم توبة عنها، وإما أن يبقى مصراً عليها فتتحول إلى كبائر، وهذا يظهر وجوب التوبة من الصغائر في كل الأحوال لئلا تتحول إلى كبائر، هذا، مع أخذنا بنظر الاعتبار أنه بعد التوبة قد يعاود الذنب وعليه أن يقدم توبة ثانية ويجتهد في صدقها وإخلاصها، وكذلك ثالثة ورابعة عن نفس الذنب إذا عاد إليه وإن كان صغيرة.

٥٦٨- سابعاً - وجوب التوبة من الصغائر حتى في حالة كون الذنب مغفوراً أصلاً:

يدل على ذلك أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بالتوبة مع أنه تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا

---

(٦٢٥) ابن القيم: الجواب الكافي ج: ١ ص: ١٣.

تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢] فلم تغن هذه المغفرة عن وجوب تقديم التوبة والاستغفار عن الصغيرة كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وذنب النبي ﷺ على رأي بعض العلماء هو من قبيل (فعل الحسن وترك الأحسن) فهذا ذنب في مقام النبوة، وسواء أخذنا بهذا الرأي أو بالرأي القائل بأن الأنبياء معصومون من الكبائر وغير معصومين من الصغائر فعلى كلا الرأيين فقد أوجب الله تعالى عليه التوبة من الصغيرة مع أنها مكفرة ومغفورة ابتداء، وفي هذا دليل قاطع على أن تكفير الذنب بمكفر أو بالمشيئة بدون مكفر لا يعفي من التوبة من الصغيرة ولا يستلزم سقوط التكليف بالتوبة. وهذا الدليل على قوته وقطعيته في الدلالة لم أجد - حسب اطلاعي - من العلماء من استدل به.

٥٦٩- صفوة القول: التوبة من الصغائر واجبة في كل الأحوال:

ونحن إذ نكتفي بما قدمناه من الأدلة على صواب رأي جمهور العلماء والمفسرين القائل بوجوب التوبة من الصغائر مع وجود المكفرات الأخرى للصغائر وممارستها فعلاً نذكر أن مخالفة المعتزلة لهذا الرأي والتي عدها بعض العلماء خرقاً للإجماع قائم على الابتعاد عن أصول الاجتهاد السليمة، ولأن قولهم إن الصغائر لا تجب التوبة عنها بالنسبة لمجتنب الكبائر - مستدلين بظاهر قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] - يجعل مجتنب الكبائر مغفوراً له كل صغائره وحتى بدون إحسان العمل بأن يعمل حسنات ماحية مما يجعل الصغائر بالنسبة لمجتنب الكبائر في حكم المباح الذي لا تبعة فيه وهذا نقض لعرى الشريعة كما ذكرنا.

أما من قال من العلماء المتأخرين بشأن التوبة من الصغائر: أن الواجب في الصغائر أحد الأمرين: إما التوبة عنها عيناً، أو فعل ما يكفرها من الصلاة واجتناب الكبائر، فقد خالف رأي الجمهور أيضاً وجانب الصواب لما قدمناه من الأدلة الدالة على أن التكليف بالتوبة لا يسقط بوجود المكفرات الأخرى، وأن المكفرات جميعاً لا تصلح بديلاً عن التكليف بالتوبة التي هي نوع معين من العمل الصالح مطلوب لذاته عقيب كل ذنب على سبيل الوجوب. فالعبد إذا ترك التوبة بعد الذنب كان تاركاً لواجب على الفور دلت النصوص على وجوبه دلالة قطعية، أما إذا ترك عمل حسنات إضافية ماحية فإنه لا يكون تاركاً لواجب وإنما يكون قد فوت على نفسه سبباً إضافياً لتكفير الذنوب .

ونبه هنا إلى أن عمل الحسنات الماحية من صلاة أو صدقة أو صيام أو نحو ذلك مع التوبة يزكيها ويقوي أثرها في محو السيئات وفي قبول الله تعالى لها، ويعلي درجة صاحبها عند الله تعالى، أما إذا لم تساعد النفس على التوبة الواجبة فليس أمامه إلا أن يكثر من عمل الحسنات الماحية لترجح حسناته على سيئاته في الميزان يوم القيامة.

ومما تقدم يتبين لنا أن التوبة من الصغائر واجبة في كل الأحوال. ونذكرك هنا بأن بالإمكان تقديم توبة عامة (شاملة) عن ذنوب العمر كلها كبائرها وصغائرها، وتجديد هذه التوبة كلما شعرت بالحاجة إلى ذلك على نحو ما شرحناه عند الكلام عن التوبة العامة.

٥٧٠- رأي الغزالي في معنى اجتناب الكبائر المكفر للصغائر:

وقبل أن نغادر البحث نذكر أن الإمام الغزالي رحمه الله ذكر تفسيراً لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] نقله عنه القرطبي وكذلك الآلوسي وأيضاً صاحب «جامع العلوم والحكم» وغيرهم في معرض ذكر الأقوال في تفسير الآية الكريمة حيث قال الغزالي: «وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس، فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشد تأثيراً في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه، فهذا معنى تكفيره، فإن كان عنيناً أولم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادراً ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً، وكل من لا يشتهى الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي مقدماته كسماع الملاهي والأوتار، نعم من يشتهى الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع» [٦٢٦].

٥٧١- بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب:

قال الإمام الغزالي رحمه الله: «اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب:

---

(٦٢٦) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٢١ – ٢٢.

٥٧٢-١- منها: الإصرار والمواظبة:

ولذلك قيل لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها، لو تصور ذلك، كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها، ومثال ذلك: قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر، ولذلك قال رسول الله ﷺ: (خير الأعمال أدومها وإن قل)[٦٢٧]، والأشياء تستبان بأضداها، وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب، إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر، فقلما يزنى الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات، وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة، ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره.

٥٧٣-٢- ومنها: أن يستصغر الذنب:

فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به، واستصغاره يصدر عن الألف به، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات، ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه في الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما يجرى في الغفلة، وقد جاء في الخبر: (المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره)[٦٢٨]، وقال بعضهم: الذنب الذي لا يغفر قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا، وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة

---

(٦٢٧) قال العراقي: «حديث خير الأعمال أدومها وإن قل متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحب الأعمال». (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء: ٤/ ٣٢).

(٦٢٨) قال العراقي: «حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه الحديث أخرجه البخاري من رواية الحارث ابن سويد» (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء: ٤/ ٣٢).

وانظر إلى كبرياء من واجهته بها، وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين: لا صغيرة بل كل مخالفة فهي كبيرة، وكذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم للتابعين: وإنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات، إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل، ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف، لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف.

٥٧٤-٣- ومنها: السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها:

واعتداد التمكن من ذلك نعمة، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته إياه كما يقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه؟ ويقول المناظر في مناظرته أما رأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساوية حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه؟ ويقول المعامل في التجارة أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر، فإن الذنوب مهلكات وإذا دفع العبد إليها، وظفر الشيطان به في الحمل عليها، فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى، فالمريض الذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه.

٥٧٥-٤- ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه:

ولا يدرى أنه إنما يمهل مقتاً، ليزداد بالإمهال إثماً، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله، وجهله بمكامن الغرور بالله، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

٥٧٦-٥- ومنها: أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره:

فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه، وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه، أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به، فإن انضاف إلى

ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر، وفي الخبر: (كل الناس معافى إلا المجاهرين يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه)(٦٢٩).

وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر فالإظهار كفران لهذه النعمة، وقال بعضهم: لا تذنب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين، ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال بعض السلف: ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه.

٥٧٧-٦- ومنها: أن يكون المذنب عالماً يقتدى به:

فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم، وركوبه مراكب الذهب، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين، ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم، وإطلاق اللسان في الأعراض، وتعديه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها، فيموت العالم ويبقى شره مستطيراً في العالم آماداً متطاولة، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه، وفي الخبر: (من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً)(٦٣٠) قال تعالى: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْۚ ﴾ [يس: ١٢] والآثار: ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل، وقال ابن عباس: ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق، وقال بعضهم: مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها... فبهذا يتضح أن

---

(٦٢٩) قال العراقي: «حديث كل الناس معافى إلا المجاهرين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ كل أمتي» . (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء: ٤/ ٣٣).

(٦٣٠) قال العراقي: «حديث من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الحديث أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله» (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء: ٤/ ٣٣)، قلت: وانظر أيضا: البخاري باب إثم من دعا إلى ضلالة أو سن سنة سيئة. وابن ماجة برقم (١٩٩) وأحمد (١٨٤٠٤) والدارمي (٥١١).

أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان: إحداهما ترك الذنب، والأخرى إخفاؤه، وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب، فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا، فإذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا، وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت... فيتبع عليه ويقتدي به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم، وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام، ويكون هو السبب في جميع ذلك فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالربح وإما بالخسران» (٦٣١).

المطلب الثاني
التوبـة المستحبـة

٥٧٨- حقيقة التوبة المستحبة:

قد علمت معنى التوبة المستحبة - بعد الواجبة - أي زيادة على التوبة الواجبة، وأن معناها: التوبة من فعل المكروهات ومن ترك المندوبات. ومعلوم أن قسم (المكروه) لا يعاقب فاعله وإن كان يلحقه العتاب، فهو مستقل عن قسم الحرام الذي يعاقب فاعله، وأن تارك المكروه يثاب على تركه. وأن (المندوب) مطلوب على سبيل الإرشاد والفضيلة لا على سبيل الحتم والإلزام، ومن ثم يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه، فإذا تحرى المسلم فعل المندوبات وترك المكروهات - بعد فعل الواجبات وترك المحرمات -كان أعلى درجة ومنزلة ممن اقتصر على فعل الواجبات وترك المحرمات، وما قلناه يشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

٥٧٩- أثر التوبة المستحبة في منازل المؤمنين في الآخرة:

ومن هنا انقسم المؤمنون الفائزون يوم القيامة - كما جاء في سورة الواقعة - إلى (أصحاب اليمين) الأبرار، و(السابقون) المقربون، وكل قسم من القسمين يتضمن درجات ومنازل لا يعلمها إلا الله تعالى بحسب أعمال أصحابها في الدنيا ورحمة الله لهم وفضله عليهم في الآخرة.

---

(٦٣١) الغزالي: إحياء علوم الدين: ج: ٤ ص: ٣٢-٣٤ (وقد تصرفنا في النص المقتبس بالترقيم للفقرات مع المحافظة على عبارة المصنف).

وعلى هذا الأساس بنى شيخ الإسلام ابن تيمية تقسيمه للتوبة إلى توبة واجبة، وتوبة مستحبة تزيد في منزلة صاحبها عند الله تعالى، وأنت إذا رجعت إلى ما استدل به شيخ الإسلام لهذا التقسيم وجدته واضحاً في تقسيم القرآن الكريم للمؤمنين إلى السابقين وأصحاب اليمين، وكذلك تجده واضحاً في اختلاف مقدار الجزاء الحسن من الفضل والنعمة والرحمة لكل من الفريقين، فارجع إلى الآيات التي استدل بها وتأملها ثانية تجد أن هذا التقسيم متفق مع نصوص الشرع، مفيد من حيث العلم والعمل.

٥٨٠- حاجة المؤمنين عامة والعلماء والدعاة خاصة إلى التوبة المستحبة:

فالمؤمنون الذين يسعون إلى الدرجات العلا، والدعاة إلى الله تبارك وتعالى على وجه الخصوص، هم أحوج ما يكونون إلى أن يكونوا ربانيين، يعينهم في ذلك فعل المندوبات بعد الواجبات وترك المكروهات بعد المحرمات وذلك هو معنى (أتقاكم) الذي هو (الأكرم) عند الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فهم محتاجون إلى ذلك لأنهم انتدبوا أنفسهم لوظيفة الرسل وأتباعهم فلا يكتفون بإصلاح أنفسهم بل يتجاوزن ذلك إلى إصلاح غيرهم وهدايته وذلك يكون ممكناً بقدر ما يكونون عليه من حال إيمانية عالية تشع أنوارها على الآخرين، فإذا حرصوا على التوبة المستحبة - بعد الواجبة - التي تمكنهم أن يكونوا ربانيين كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وحاولوا أن يكون لهم نصيب من درجة السابقين جهد استطاعتهم كانوا أهل أسوة برسول الله ﷺ وبأصحابه الذين كان حالهم ترك المكروهات والتوبة منها وفعل المندوبات والتوبة من تركها، والإكثار من ذكر الله تعالى تسبيحاً وحمداً وتهليلاً واستغفاراً. والإكثار من الاستغفار بوجه خاص له آثار عظيمة في التنقية من الذنوب بما يجعل العبد أهلاً لأن يسير في درب أصحاب الرسل، ومؤهلاً لأن يدعو إلى كل خير، ويعينه الله لمحبته له بسبب النوافل بعد الفرائض، كما جاء في الحديث الشريف: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)[٦٣٢] ولا يكتفي بدرجة الناجين أو يستهدفها دون محاولة الارتقاء بمعونة الله وتوفيقه.

---

(٦٣٢) البخاري (٦٢١) وأحمد (٢٤٩٩٧).

وليتأمل هذه النداءات في القرآن الكريم التي ترغبه في الترقي في مدارج الإيمان، فإن لم يحاول صياغة نفسه وروحه، وعلمه، وفعله وتركه، بصبغتها - وقد اتخذ وظيفة الرسل وأتباعهم في الدعوة إلى الله سلوكاً وهدفاً - فلمن إذن تكون هذه الخطابات القرآنية: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ ...﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٦-١٨]، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، والله الموفق والمستعان.

المبحث الرابع
التوبة في الباطن والتوبة في الظاهر

٥٨١- تمهيد وتقسيم:

٥٨٢- التعريف بالتوبة في الباطن والتوبة في الظاهر والغرض من هذا التقسيم:

التوبة في الباطن - وتسمى التوبة الباطنة - سميت بهذا الاسم لتمييزها عن التوبة التي يحكم القاضي بثبوتها من أجل ترتيب الأحكام الشرعية المتعلقة بها من قبول الشهادة أو عودة الأهلية للولاية ونحو ذلك، والتي تسمى بالتوبة في الظاهر، أو التوبة الحكمية كما سماها صاحب «المغني». والتي لا يحكم القاضي بها إلا إذا ظهرت توبة صاحبها وعلمت لكي ينظر القاضي فيها وما إذا كانت ثابتة فتصرف عن صاحبها وصف الفسق الذي يمنع شهادته وولايته. فثبوت التوبة في الظاهر لها هذا الغرض المخصوص. ولا علاقة لها بصدق التوبة في نفس الأمر إلا بقدر ما تدل عليه الدلائل الظاهرة، لأن صدق التوبة أمر خفي على القاضي الذي يحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر.

ونقسم الكلام في هذا المبحث إلى مطلبين:

نبحث في المطلب الأول: التوبة في الباطن.

ونتناول في المطلب الثاني: التوبة في الظاهر.

المطلب الأول
التوبة في الباطن

٥٨٣- التوبة في الباطن هي حقيقة التوبة وهي الأصل:

ومما تقدم يتبين أن التوبة في الباطن هي حقيقة التوبة، وهي الأصل، وأنها تشمل جميع أقسام التوبة الصحيحة فيما بين العبد وربه تعالى التي تحدثنا عنها سابقاً والتي يفعلها العبد باعتبارها فرضاً عليه بعد وقوع الذنب، فهي تشمل التوبة بوصفها توبة واجبة، وتشملها بوصفها توبة نصوحاً، وتشملها التوبة المستحبة أيضاً.

وضابطها أنها لا تحتاج إلى وصولها للقضاء ليحكم بصحتها ويرتب الأحكام المذكور عليها، وهذه التوبة الباطنة أو التوبة في الباطن هي توبة العبد فيما بينه وبين ربه

تعالى والتي يرتفع بها الإثم، وتحصل بها المغفرة والمحبة وغير ذلك من آثار التوبة وكل كلامنا عن التوبة في الفصول والمباحث السابقة يدور حولها. فإن وجدت الحاجة إلى الحكم بثبوت التوبة في القضاء من أجل ترتيب الأحكام عليها، فإن هذا قدر زائد عن حقيقة التوبة وماهيتها وصحتها فيما بين العبد وربه وقبولها من الله تعالى.

فليست التوبة في الظاهر إلا ظهور التوبة الباطنة نفسها بصورة معلومة للقضاء لكي يحكم بثبوتها إن كانت صحيحة حسب أحكام الظاهر، ويرتب الأحكام الشرعية القضائية عليها. وقد يحكم القاضي بثبوت التوبة في الظاهر لما يظهر له من الدلائل وتكون هي نفسها غير صحيحة في الباطن فيما بين العبد وربه تعالى وتكون غير مقبولة عند الله تعالى بأن تكون في الباطن أي في الحقيقة توبة معلولة. ولذلك اشترط الشافعية مرور مدة سنة يظهر فيها إصلاح العمل، بينما لم يشترط الحنابلة هذا الشرط.

٥٨٤- تقسيم التوبة إلى باطنة وظاهرة هو تقسيم الشافعية والحنابلة:

وتقسيم التوبة على هذا النحو، أي إلى توبة في الباطن (باطنة) وإلى توبة في الظاهر هو ما ذهب إليه بعض فقهاء الحنابلة والشافعية.

٥٨٥- بعض ما نقلته الموسوعة الفقهية عن الشافعية والحنابلة:

جاء في الموسوعة الفقهية: «صرح بعض فقهاء الشافعية والحنابلة أن التوبة نوعان: توبة في الباطن، وتوبة في الظاهر. فأما التوبة في الباطن: فهي ما بينه وبين الله عز وجل، فينظر في المعصية فإن لم تتعلق بها مظلمة لآدمي، ولا حد لله تعالى، كالاستمتاع بالأجنبية فيما دون الفرج، فالتوبة منها أن يقلع عنها، ويندم على فعل ما فعل، ويعزم على أن لا يعود إلى مثلها. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] الآية. وإن تعلق بها حق آدمي، فالتوبة منها أن يقلع عنها، ويندم على ما فعل، ويعزم على أن لا يعود إلى مثلها، وأن يبرأ من حق الآدمي، إما بأن يؤديه، أو يسأله حتى يبرئه منه، وإن لم يقدر على صاحب الحق نوى أنه إن قدر أوفاه حقه. وإن تعلق بالمعصية حد لله، كحد الزنى والشرب، فإن لم يظهر ذلك، فالأولى أن يستره على نفسه لقوله ﷺ: (من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله)»[٦٣٣].

---

(٦٣٣) الموسوعة الفقهية الكويتية: ج:١٤ ص:١٢٤.

٥٨٦- من فقه الشافعية:

وجاء في «أسنى المطالب» في الفقه الشافعي: «... التوبة تنقسم إلى توبة بين العبد وبين الله تعالى، وهي التي يسقط بها الإثم، وإلى توبة في الظاهر، وهي التي يتعلق بها عود الشهادات والولايات...»(٦٣٤).

٥٨٧- من الفقه الحنبلي:

وجاء في المغني - من الفقه الحنبلي والمقارن - : «والتوبة على ضربين: باطنة، وحكمية. فأما الباطنة: فهي ما بينه وبين ربه تعالى، فإن كانت المعصية لا توجب حقاً عليه في الحكم كقبلة أجنبية أو الخلوة بها وشرب مسكر أو كذب فالتوبة منه الندم والعزم على أن لا يعود...، وإن كانت توجب عليه حقاً لله تعالى أو لآدمي كمنع الزكاة والغصب فالتوبة منه بما ذكرنا وترك المظلمة حسب إمكانه بأن يؤدي الزكاة ويرد المغصوب أو مثله إن كان مثلياً وإلا قيمة وإن عجز عن ذلك نوى رده متى قدر عليه، فإن كان عليه فيها حق في البدن، فإن كان حقاً لآدمي كالقصاص وحد القذف اشترط في التوبة التمكين من نفسه وبذلها للمستحق، وإن كان حقاً لله تعالى كحد الزنا وشرب الخمر فتوبته أيضاً بالندم والعزم على ترك العود ولا يشترط الإقرار به فإن كان ذلك لم يشتهر عنه فالأولى له ستر نفسه والتوبة فيها بينه وبين الله تعالى...»(٦٣٥).

المطلب الثاني
التوبة في الظاهر

٥٨٨- تعريف الموسوعة الفقهية للتوبة في الظاهر وبيان أحكامها:

جاء في «الموسوعة الفقهية»: «وأما التوبة في الظاهر (وهي التي تعود بها العدالة والولاية وقبول الشهادة)، فإن كانت المعصية فعلاً كالزنا والسرقة لم يحكم بصحة التوبة عند الشافعية حتى يصلح عمله، وقدروها بسنة أو ستة أشهر، أو حتى ظهور علامات الصلاح على اختلاف أقوالهم خلافاً لجمهور الفقهاء فإنهم لم يشترطوا إصلاح العمل بعد التوبة، وإن كانت المعصية قذفاً أو شهادة زور فلا بد من إكذاب نفسه»(٦٣٦).

---

(٦٣٤) الأنصاري، زكريا: أسنى المطالب: ج:٤ ص:٣٥٥.
(٦٣٥) ابن قدامة: المغني ج: ١٠ ص: ١٩٣.
(٦٣٦) الموسوعة الفقهية الكويتية ج:١٤ ص:١٢٤.

٥٨٩- بعض أقوال الفقهاء في التوبة في الظاهر وبيان أحكامها:

جاء في «المغني» - من الفقه الحنبلي-: «ظاهر كلام أحمد، والخرقي، أنه لا يعتبر في ثبوت أحكام التوبة من قبول الشهادة وصحة ولايته في النكاح إصلاح العمل [أي مضي مدة تظهر فيها توبته ويتبين فيها صلاحه للحكم بصحة توبته في الظاهر وما يبنى عليها من أحكام] وهو أحد القولين للشافعي، وفي القول الآخر يعتبر إصلاح العمل، فلا تكفي التوبة حتى تمضي عليه سنة تظهر فيها توبته ويتبين فيها صلاحه... ولنا ـ أي دليل الحنابلة في عدم اشتراط المدة - قوله ﷺ: (التوبة تجب ما قبلها)، وقوله: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)، ولأن المغفرة تحصل بمجرد التوبة، فكذلك الأحكام [أي الأحكام المبنية على التوبة في الظاهر من قبول شهادته ونحوها]، ولأن التوبة من الشرك بالإسلام لا تحتاج إلى اعتبار ما بعده، وهو أعظم الذنوب كلها، فما دونه أولى... ودليل ذلك - أيضاً - قول عمر لأبي بكرة: تبْ أقبلْ شهادتَكَ، ولم يعتبر أمراً آخر، ولأن من كان غاصباً فرد ما في يديه، أو مانعاً للزكاة فأداها وتاب إلى الله تعالى، قد حصل منه الإصلاح وعلم نزوعه عن معصيته بأداء ما عليه، ولو لم يرد التوبة ما أدى ما في يديه، ولأن تقييده بالسنة - أي مدة سنة يظهر فيها إصلاح العمل - تحكم لم يرد الشرع به، والتقدير إنما يثبت بالتوقيف»[٦٣٧] أي من الشرع لا بالاجتهاد.

وجاء في «كشاف القناع» - من الفقه الحنبلي-: «ومتى زالت الموانع منهم فبلغ الصبي، وعقل المجنون، وأسلم الكافر، وتاب الفاسق، قبلت شهادتهم بمجرد ذلك، لأن ردها إنما كان لمانع وقد زال، ولا يعتبر في التائب إصلاح العمل، لقوله ﷺ: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[٦٣٨] ولأن شهادة الكافر تقبل بمجرد الإسلام فلأن تقبل شهادة الفاسق بمجرد التوبة بطريق الأولى، ولقول عمر لأبي بكرة: تُبْ أقبلْ شهادتَكَ... وإن كان فسقه بترك واجب فلا بد من فعله أي الواجب الذي تركه ويسارع بفعل ذلك الواجب، بل تجب التوبة فوراً من كل معصية، ويعتبر لصحة توبة من نحو غصب رد مظلمة إلى ربها إن كان حياً، أو إلى ورثته إن كان ميتاً، أو أن يحله منها أي المظلمة... بأن

---

(٦٣٧) المغني ج: ١٠ ص: ١٩٣-١٩٤.

(٦٣٨) أخرجه ابن ماجة (٤٢٤٠).

يطلب منه أن يبرئه، ويستمهله معسراً، أي يستمهل التائب رب المظلمة إن عجز عن ردها أو بدلها لعسرته » [٦٣٩].

وظاهر مما تقدم أن التوبة في الظاهر هي التي يحكم بها في القضاء من أجل بناء الأحكام عليها، وأن الفقهاء بعضهم اشترط مرور مدة سنة على توبته يظهر بها صلاحه لكي يحكم له بأنه تائب فعلاً ويترتب على ذلك الأحكام، وبعضهم لم يشترط مدة يتبين فيها إصلاح العمل بل يحكم بتوبته في القضاء بمجرد حصول التوبة فعلاً من غير انتظار مرور مدة.

وبهذا نكون قد انتهينا من الكلام في القسم الرابع من أقسام التوبة وهو «التوبة الباطنة والتوبة الظاهرة» لنبدأ الكلام في المبحث الخامس في التنبيه على التوبة الجماعية وبيان حكمها.

---

(٦٣٩) كشاف القناع ج: ٦ ص: ٤٢٥ (وانظر في الفقه الشافعي: الأنصاري، زكريا: أسنى المطالب: ج:٤ ص: ٣٥٩).

المبحث الخامس
التنبيه على التوبة الجماعية وبيان حكمها

٥٩٠- التعريف بالتوبة الجماعية[٦٤٠]:

نقصد بالتوبة الجماعية: أن تصدر التوبة من جماعة بصورة جماعية سواء أكانت هذه الجماعة طلاباً للعلم وجههم أستاذهم إلى توبة في فترة معينة، أو كانت جماعة إسلامية وجهها ولي الأمر فيها إلى توبة جماعية، أو كانت مجموعة من الأفراد أذنبوا ذنباً واحداً فتابوا في وقت واحد، أو كانت استجابة من الأمة لتوجيه من ولي الأمر المسلم لأن تقدم توبة جماعية في فترة معينة تقرباً إلى الله ورفعاً لأسباب العذاب بسبب شيوع المعاصي والمنكرات أو نحو ذلك.

٥٩١- في القرآن والسنة أمثلة للتوبة الجماعية:

والتوبة الجماعية على النحو الذي مثلنا له، توجد لها أمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة:

فمما جاء في القرآن: توبة آدم عليه السلام وزوجه معاً، وتوبة السبعة الذين ربطوا أنفسهم بسواري المسجد لما تخلفوا عن غزوة تبوك أملاً في أن يقبل الله تعالى توبتهم وقد قبلها وأخبر نبيه ﷺ بذلك، وتوبة قوم يونس توبة جماعية في وقت واحد لما ظهرت لهم أول علامات العذاب فخرجوا إلى خارج مدينتهم بصورة جماعية وأعلنوا توبتهم لله تعالى فتاب عليهم ومتعهم إلى حين كما جاء خبرها في القرآن الكريم. ومما في السنة النبوية توبة الصحابة من الأنصار عن مقالتهم في النبي ﷺ حين أعطى غيرهم ولم يجعل لهم نصيباً من العطايا التي غنمها المسلمون بحنين من هوازن، فجمعهم النبي ﷺ وكلمهم ووعظهم فندموا وتابوا.. إلى غير ذلك من الأمثلة التي سنبينها عند الكلام على بيان أدلة مشروعية التوبة الجماعية بعد قليل.

---

(٦٤٠) ليس المقصود بالتوبة الجماعية: الاجتماع الوارد عند الصوفية.

٥٩٢- الحاجة إلى التوبة الجماعية:

٥٩٣-١- الحاجة إلى التوبة الجماعية من أجل التربية:

فقد يحتاج المربي إلى أن يوجه من تحت تربيته إلى توبة جماعية خلال فترى معينة يركزون فيها على التوبة وهو معهم في ذلك، ويحاولون تحقيقها على الوجه الأمثل، وتصحيحها، ويقوى بعضهم بعضاً على ذلك، فتكون ثمرة ذلك التزكية والترقي في الحياة الإيمانية.

٥٩٤-٢- حاجة الأمة إلى التوبة الجماعية:

وتحتاج الأمة إلى التوبة الجماعية لاستجلاب النعم والنصر ودفع النقم والخذلان وبخاصة العقاب الجماعي الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، قال القرطبي في تفسيرها: «أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب»[٦٤١] ثم قال: «إن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره، فإذا سكت عليه فكلهم عاص، هذا بفعله وهذا برضاه، فقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل فانتظم في العقوبة قاله ابن العربي، وهو مقصود الأحاديث كما ذكرنا، ومقصود الآية: واتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح»[٦٤٢].

ومعلوم أن هذا يوجب توبة الأمة لدفع العقاب الجماعي عنها ومن أجل نوال رضوان الله تعالى وتأييده ونصره، فإذا تعاهدت فيما بينها أو وجهها الإمام إلى التوبة الجماعية لتحقيق هذه الغايات فإن هذه التوبة نافعة لها نفعاً عظيماً في الدنيا والآخرة.

وما ذكرناه هنا إنما هو على سبيل التمثيل لا الحصر.

ولكن ما هو الدليل على مشروعية هذا النوع من التوبة، أو بعبارة أخرى تأصيل التوبة الجماعية:

---

(٦٤١) تفسير القرطبي: ٧/ ٣٩١.

(٦٤٢) المرجع السابق ٧/ ٣٩٣.

٥٩٥- الدليل على مشروعية التوبة الجماعية:

٥٩٦- أولاً - الدليل من القرآن الكريم على مشروعية التوبة الجماعية:

٥٩٧- أ- توبة آدم عليه السلام وزوجه في الجنة بعد الخطيئة:

فقد نقل القرآن توبتهما معاً وقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

قال الشوكاني في تفسير «فتح القدير»: «قوله: (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) جملة استئنافية مبنية على تقدير سؤال كأنه قيل: فماذا قالا؟ وهذا منهما اعتراف بالذنب وأنهما ظلما أنفسهما بما وقع منهما من المخالفة، ثم قالا: (وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) »[٦٤٣]. قلت: وظاهر الآية الكريمة يدل على أنهما تابا عن ذنب واحد معلوم وفي وقت واحد.

٥٩٨- ب - توبة السبعة المتخلفين عن غزوة تبوك الذين ربطوا أنفسهم بسواري المسجد حتى تاب الله عليهم:

وتفصيل الواقعة كما جاءت في التفاسير ومنها «تفسير أبي السعود» عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢]، قال: « (اعترفوا بذنوبهم) التي هي تخلفهم عن الغزو وإيثار الدعة عليه والرضا بسوء جوار المنافقين وندموا على ذلك ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة ولم يخفوا ما صدر عنهم من الأعمال السيئة كما فعله من اعتاد إخفاء ما فيه وإبراز ما ينافيه من المنافقين الذين اعتذروا بما لا خير فيه من المعاذير المؤكدة بالأيمان الفاجرة حسب ديدنهم المألوف، وهم رهط من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سواري المسجد عند ما بلغهم ما نزل في المتخلفين، فقدم رسول الله ﷺ فدخل المسجد فصلى ركعتين حسب عادته الكريمة، ورآهم كذلك، فسأل عن شأنهم، فقيل: إنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى تحلهم، فقال ﷺ : وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم، فنزلت: (خلطوا عملاً صالحاً) هو ما سبق منهم من الأعمال الصالحة والخروج إلى المغازي السابقة وغيرها وما لحق من الاعتراف بذنوبهم في التخلف عن هذه المرة وتذممهم وندامتهم على ذلك... (وآخر سيئاً)

---

(٦٤٣) تفسير فتح القدير: ٢/ ١٩٥، وانظر أيضاً: تفسير القرطبي: ١/ ٣٢٥، وكذلك: ٧/ ١٨١، وتفسير ابن كثير: ١/ ٨٢، وتفسير الطبري: ١/ ٢٤٣، وكذلك: ٨/ ١٤٤.

والمراد بالعمل السيئ ما صدر عنهم من الأعمال السيئة أولاً وآخراً... (عسى الله أن يتوب عليهم) أي يقبل توبتهم المفهومة من اعترافهم بذنوبهم، (إن الله غفور رحيم) يتجاوز عن سيئات التائب ويتفضل عليه، وهو تعليل لما تفيده كلمة (عسى) من وجوب القبول، فإنها للإطماع الذي هو من أكرم الأكرمين إيجاب وأي إيجاب» (٦٤٤).

---

(٦٤٤) تفسير أبي السعود: ٤/ ٩٨-٩٩، (وانظر تفصيل الأقوال بشأن الواقعة المذكورة في (تفسير الطبري: ١١/ ١٣) حيث قال بعد أن أورد جميع الأقوال - بأسانيدها - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٢] - ومنها قول من قال بأن الآية نزلت في أبي لبابة وحده - ومبيناً القول الصواب عنده من حيث المعني بهذه الآية والسبب الذي أنزلت فيه:

«قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك قول من قال نزلت هذه الآية في المعترفين بخطأ فعلهم في تخلفهم عن رسول الله ﷺ وتركهم الجهاد معه والخروج لغزو الروم حين شخص إلى تبوك، وأن الذين نزل فيهم جماعة أحدهم أبو لبابة، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب في ذلك لأن الله جلّ ثناؤه قال: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فأخبر عن اعتراف جماعة بذنوبهم، ولم يكن المعترف بذنبه الموثق نفسه بالسارية أبو لبابة وحده، فإذا كان ذلك، وكان الله تبارك وتعالى قد وصف في قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بالاعتراف بذنوبهم جماعة، علم أن الجماعة الذين وصفهم بذلك غير الواحد، فقد تبين بذلك أن هذه الصفة إذا لم تكن إلا لجماعة وكان لا جماعة فعلت ذلك فيما نقله أهل السير والأخبار وأجمع عليه أهل التأويل إلا جماعة من المتخلفين عن غزوة تبوك، صح ما قلنا في ذلك، وقلنا كان منهم أبو لبابة لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك».

وذكر ابن القيم في (زاد المعاد: ٣/ ٥٥٦-٥٥٧): الواقعة المذكورة فقال: «وقال عثمان بن سعيد الدارمي حدثنا عبدالله بن صالح حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ الآية، قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فلما حضر رسول الله أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد... إلخ».

وأوردها أيضاً الشوكاني في (تفسير فتح القدير: ٢/ ٤٠١) نقلاً عن الطبري فقال: «وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ الآية، قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد... إلخ».

وانظر الواقعة أيضاً في: تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٨٦، وتفسير القرطبي: ٨/ ٢٤٢، وتفسير الجصاص: أحكام القرآن: ٣/ ٢١٥، وتفسير البغوي: ٢/ ٣٢٣، وتفسير زاد المسير: ٣/ ٤٩٤.

٥٩٩- ج - توبة قوم يونس بصورة جماعية وقبول الله تعالى توبتهم:

قال جل ثناؤه: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

وتفصيل الواقعة على نحو ما ذكره المفسرون ومنهم القرطبي، قال: «... وروي في قصة قوم يونس عن جماعة من المفسرين: أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه، فأبوا، فقيل: إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم، فقيل له: أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث، ففعل، وقالوا: هو رجل لا يكذب فارقبوه فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك، فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا ودعوا الله ولبسوا المسوح وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم وردوا المظالم في تلك الحالة، وقال ابن مسعود: وكان الرجل يأتي الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه فيرده، والعذاب منهم - فيما روي عن ابن عباس - على ثلثي ميل، وروي على ميل، وعن ابن عباس أنهم غشيتهم ظلة وفيها حمرة فلم تزل تدنو حتى وجدوا حرها بين أكتافهم، وقال ابن جرير: غشيهم العذاب كما يغشى الثوب القبر، فلما صحت توبتهم رفع الله عنهم العذاب، وقال الطبري خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن تيب عليهم بعد معاينة العذاب، وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين، وقال الزجاج إنهم لم يقع بهم العذاب وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان...»[٦٤٥].

(٦٤٥) تفسير القرطبي ج: ٨ ص: ٣٨٤. وانظر أيضاً: تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٣٤،حيث قال: «لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيها ممن سلف من القرى إلا قوم يونس وهم أهل نينوى وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأخروا كما قال تعالى : (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) » وانظر أيضا: تفسير أبي السعود:٤/ ١٧٦، وتفسير البغوي:٢/ ٣٦٩، وتفسير فتح القدير:٢/ ٤٧٥، وتفسير زاد المسير: ٤/ ٦٤، وتفسير روح المعاني: ١١/ ١٨٥.

وموضع الشاهد في توبة قوم يونس أنهم تابوا إلى الله تعالى توبة جماعية، وليس مرادنا الآن تحقيق ما إذا كانت توبتهم قد رفعت العذاب عنهم بعد معاينتهم له كما يقول بعض المفسرين، أو بعد معاينة أول أسبابه أو علاماته كما يقول آخرون، وإنما مرادنا بيان مشروعية التوبة الجماعية ودليلها من القرآن الكريم.

٦٠٠- د- أمر الله تعالى القوم الذي كفروا بعد إيمانهم وعبدوا العجل من بني إسرائيل بأن يتوبوا توبة جماعية:

جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٤].

وقد جاء تفصيل الواقعة في التفاسير ومنها «في ظلال القرآن حيث قال: «وقصة اتخاذ بني إسرائيل للعجل، وعبادته في غيبة موسى - عليه السلام - عندما ذهب إلى ميعاد ربه على الجبل، مفصلة في سورة طه السابقة النزول في مكة. وهنا فقط يذكرهم بها، وهي معروفة لديهم. يذكرهم بانحدارهم إلى عبادة العجل بمجرد غيبة نبيهم، الذي أنقذهم باسم الله، من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب. ويصف حقيقة موقفهم في هذه العبادة: (وأنتم ظالمون).. ومن أظلم ممن يترك عبادة الله ووصية نبيه ليعبد عجلاً جسداً، وقد أنقذه الله ممن كانوا يقدسون العجول!...

ولم يكن بد من التطهير القاسي؛ فهذه الطبيعة المنهارة الخاوية لا تقومها إلا كفارة صارمة، وتأديب عنيف. عنيف في طريقته وفي حقيقته:

(وإذ قال موسى لقومه: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم. ذلكم خير لكم عند بارئكم).. اقتلوا أنفسكم. ليقتل الطائع منكم العاصي. ليطهره ويطهر نفسه.. هكذا وردت الروايات عن تلك الكفارة العنيفة.. وإنه لتكليف مرهق شاق، أن يقتل الأخ أخاه، فكأنما يقتل نفسه برضاه. ولكنه كذلك كان تربية لتلك الطبيعة المنهارة الخوارة، التي لا تتماسك عن شر، ولا تتناهى عن نكر. ولو تناهوا عن المنكر في غيبة نبيهم ما عبدوا العجل. وإذ لم يتناهوا بالكلام فليتناهوا بالحسام؛

وليؤدوا الضريبة الفادحة الثقيلة التي تنفعهم وتربيهم! وهنا تدركهم رحمة الله بعد التطهير: (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم)[٦٤٦] ».

قلت: وظاهر من الآية الكريمة أن الله تعالى أمرهم بتوبة جماعية من جريمة الكفر بعد الإيمان. وموضع الشاهد من إيرادنا لهذه الواقعة هو التوبة الجماعية، أما مضمون هذه التوبة وكيفيتها فهو من أحكام شريعة من قبلنا وليس من شريعتنا، فإن الله تعالى رفع عن أمة محمد ﷺ الإصر والأغلال التي كانت على الأمم السابقة فجعل التوبة في شريعتنا تحصل بمجرد الندم، والإقلاع، والعزم على عدم العودة إلى الذنب.

قال ابن القيم: «وكذلك توبة أمته [أي أمة محمد ﷺ] أكمل من توبة سائر الأمم، وأسرع قبولاً، وأسهل تناولاً، وكانت توبة من قبلهم من أصعب الأشياء حتى كان من توبة بني إسرائيل من عبادة العجل قتل أنفسهم، وأما هذه الأمة فلكرامتها على الله تعالى جعل توبتها الندم والإقلاع» [٦٤٧].

وقال القرطبي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦]، قال: «وروي عن ابن مسعود أن الصحابة قالوا: يا رسول الله كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا حيث كان المذنب منهم تصبح عقوبته مكتوبة على باب داره وفي رواية كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره: اجدع أنفك، اقطع أذنك، افعل كذا، فأنزل الله تعالى هذه الآية توسعة ورحمة وعوضاً من ذلك الفعل ببني إسرائيل » [٦٤٨].

٦٠١- ثانياً - الدليل من السنة النبوية على مشروعية التوبة الجماعية:

الأدلة من السنة النبوية على مشروعية التوبة الجماعية كثيرة نذكر منها ما يلي:

---

(٦٤٦) سيد قطب: في ظلال القرآن ٧١.

(٦٤٧) ابن القيم: زاد المعاد: ١/ ٩٥.

(٦٤٨) تفسير القرطبي ج: ٤ ص: ٢١٠.

٦٠٢- أ- دعوة النبي ﷺ الصحابة إلى توبة جماعية في وقت واحد:

وتفصيل الواقعة كما أوردها المنذري في الترغيب والترهيب: «روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ في مسيره فقال: استغفروا الله فاستغفرنا فقال: أتموها سبعين مرة يعني فأتممناها فقال رسول الله ﷺ : ما من عبد ولا أمة يستغفر الله في يوم سبعين مرة إلا غفر الله له سبعمائة ذنب وقد خاب عبد أو أمة عمل في يوم وليلة أكثر من سبعمائة ذنب. رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي والأصبهاني» (٦٤٩).

٦٠٣- ب - توبة الأنصار توبة جماعية:

حيث ندم الأنصار وبكوا على ما صدر من بعضهم من عتب على النبي ﷺ بسبب العطايا التي أعطاها لغيرهم من فيء غزوة حنين.

وتفصيل الواقعة أن النبي ﷺ قسم الفيء الذي أفاء الله على رسوله بحنين من غنائم هوازن فأعطى عطايا عظاماً لغير الأنصار ولم يعط شيئاً للأنصار فوجدوا عليه ﷺ في أنفسهم، وظنوا أنه يحابي قومه - من غير الأنصار - حتى ولو كانوا غير مسلمين، وسرت بين بعضهم القالة تجاه النبي ﷺ، وتلك خطيئة وذنب في حق رسول الله ﷺ يستحق التوبة، فجمعهم النبي ﷺ وذكرهم ووعظهم حتى ندموا وبكوا على ما صدر منهم.

ونحن ننقل الواقعة كما جاءت في مسند أحمد، قال: «عن أبي سعيد الخدري قال: ثم لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه. فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء، قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله ما أنا إلا امرؤ من قومي، وما أنا، قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، قال: فخرج سعد فجمع الناس في تلك الحظيرة،

---

(٦٤٩) الترغيب والترهيب ج: ٢ ص: ٣١١ (٢٥١٠) وانظر: طبقات المحدثين بأصبهان ج: ٣ ص: ٨٥-٨٦.

قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، قال: فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل، ثم قال: يا معشر الأنصار: ما قالة بلغتني عنكم؟ ووجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بل الله ورسوله أمن وأفضل، قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المن والفضل؟ قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلا فأغنيناك. أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقنا» (٦٥٠).

ولا شك أن بكاء القوم هو من أعلى درجات الندم والتوبة.

٦٠٤- ثالثا- تشريع التوبة مرافقة لعبادات تؤدى بصورة جماعية في زمن معين:

٦٠٥- أ- توجيه الحجيج إلى الدعاء والاستغفار في المناسك وفي عرفة:

فمن ذلك ما تضمنته السنن النبوية من توجيه الحجيج إلى اللهج بالدعاء والاستغفار عند أدائهم المناسك سواء في الطواف بالبيت أو السعي بين الصفا والمروة أو عند الوقوف على جبل عرفات، وغيرها من المناسك فما من حاج إلا ويجدد توبته في هذه المناسك مرات ومرات وهو مجتهد في الدعاء والاستغفار، وبخاصة بعد سماع الخطبة الثانية من خطب الحج بجامع نمرة قبل صلاة الظهر والعصر - جمع تقديم - اقتداء بالنبي

---

(٦٥٠) متفق عليه: البخاري (٣٩٨٥) و(٣٩٨٨)، ومسلم (١٧٥٦)، وأحمد (١١٣٠٥) واللفظ له، وأيضاً (١٣٠٨٥) و(١٣٤٦٥) و(١٥٨٧٤).

ﷺ، يعلم فيها الإمام الناس ما أمامهم من المناسك، ويحثهم على الاجتهاد في الدعاء والعبادة (٦٥١)، في عرفات وفي قابل الأيام.

٦٠٦- ب - تشريع التوبة والاستغفار بمناسبة صلاة الاستسقاء :

ومن ذلك أيضاً ما يسن للإمام في خطبة صلاة الاستسقاء من دعوة الحاضرين من المسلمين إلى التوبة والاستغفار في تلك الساعة، وتضمين خطبته إعلان التوبة لله تعالى عن نفسه وعن المسلمين الحاضرين الصلاة والمؤمنين على دعائه .

جاء في المغني لابن قدامة المقدسي: «يستحب أن يستفتح الخطبة بالتكبير، كخطبة العيد، ويكثر من الاستغفار والصلاة على النبي ﷺ ويقرأ كثيراً: ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [نوح: ١٠-١١] وسائر الآيات التي فيها الأمر به، فإن الله تعالى وعدهم بإرسال الغيث إذا استغفروه. وروي عن عمر ﷺ أنه خرج يستسقي، فلم يزد على الاستغفار، وقال: لقد استسقيت بمجاديح السماء. وعن عمر بن عبد العزيز، أنه كتب إلى ميمون بن مهران يقول: قد كتبت إلى البلدان أن يخرجوا إلى الاستسقاء إلى موضع كذا وكذا، وأمرتهم بالصدقة والصلاة، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]. وأمرتهم أن يقولوا كما قال أبوهم آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]. ويقولوا كما قال نوح: ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]. ويقولوا كما قال يونس: ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

---

(٦٥١) الموسوعة الفقهية: ١٩/ ١٨٨، حيث جاء فيها بمناسبة الكلام عن خطب الحج: «اتفق الفقهاء على أنه يسن للإمام أو نائبه الخطبة في الحج، يبين فيها مناسك الحج للناس، وذلك اقتداء بالنبي ﷺ واختلفوا في عدد الخطب التي يخطبها، فذهب الجمهور إلى أنها ثلاث خطب، وذهب الشافعية إلى أنها أربع ١- الخطبة الأولى: يسن عند الجمهور عدا الحنابلة أن يخطب الإمام أو نائبه بمكة في اليوم السابع من ذي الحجة، ويسمى بيوم الزينة، خطبة واحدة لا يجلس فيها يعلم فيها الناس مناسك الحج، اقتداء بالنبي ﷺ . ٢- الخطبة الثانية: تسن هذه الخطبة يوم عرفة بنمرة، قبل أن يصلي الظهر والعصر - جمع تقديم - اقتداء بالنبي ﷺ يعلم فيها الناس ما أمامهم من مناسك، ويحثهم على الاجتهاد في الدعاء والعبادة... » .

[الأنبياء: ٨٧]. ويقولوا كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]. ولأن المعاصي سبب انقطاع الغيث، والاستغفار والتوبة تمحو المعاصي المانعة من الغيث، فيأتي الله به»[٦٥٢].

٦٠٧- ج - تشريع التوبة والاستغفار مع الجهاد:

ومن ذلك أيضاً تشريع التوبة مع الجهاد كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨]، قال القرطبي: «وطنوا أنفسهم على الموت، واستغفروا ليكون موتهم على التوبة من الذنوب إن رزقوا الشهادة»[٦٥٣].

وبهذا ننتهي من الكلام في الباب الثاني الذي تناولنا فيه بيان فضل التوبة ومشروعيتها وأركانها وأقسامها، ونتحول إلى الكلام في الباعث على التوبة والبواعث على الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة وهو موضوع الباب الثالث القادم إن شاء الله تعالى.

---

(٦٥٢) ابن قدامة المقدسي: المغني: ٢/ ١٥٢.

(٦٥٣) تفسير القرطبي: ٤/ ٢٣١.







الباب الثالث

الباعث على التوبة
والبواعث على الإصرار والتسويف

وفيه فصلان:

- الفصل الأول: الباعث على التوبة ونتائجه ووسائل التدارك.
- الفصل الثاني: البواعث على الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة.









الباب الثالث

الباعث على التوبة
والبواعث على الإصرار والتسويف

٦٠٨- تمهيد وتقسيم:

الكلام في الباعث على التوبة والتدارك، وكذلك البواعث على الإصرار والتسويف، يستلزم تقسيم الموضوع إلى فصلين:

نخصص الأول منها: للكلام عن الباعث على التوبة، لنعلم ما الذي يبعث الإنسان على التوبة على وجه التحديد، وسنرى أن الذي يبعثه على ذلك هو اليقظة التي ينشئوها إدامة الفكر في حقائق الإيمان، ونور التنبيه لينتزع الغافل من رقدة الغافلين. وسنرى أن أهم ثمرات هذه اليقظة: أنها تنشئ المحاسبة للنفس، ومن ثم التوبة، لأن الغافل لا يحاسب نفسه ومن ثم لا يتوب. وكذلك تنشئ الرغبة في التطهر من آثار ذنوب الماضي، وأيضاً إرادة التدارك لدفع خطرها.. تدارك الماضي وتعمير الباقي من العمر بطاعة الله، وهذا يستلزم معرفة وسائل التدارك لكي يمارسها فعلاً، وهذا كله هو موضوع الفصل الأول من هذا الباب .

أما الفصل الثاني: فنخصصه للكلام عن الآفات المانعة من التوبة والباعثة على التسويف فيها، والإقامة على الذنوب من غير توبة، والإصرار عليها. وهذا يستلزم الكلام في تعريف الإصرار والتسويف في التوبة وبيان الأسباب المانعة من التوبة على وجه التحديد، وبيان كيفية معالجتها للخلاص منها.

وعلى ذلك نبحث أولاً في الباعث على التوبة ونتائجه ووسائل التدارك.






الفصل الأول

الباعث على التوبة ونتائجه ووسائل التدارك




وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: يقظة القلب من رقدة الغافلين
- المبحث الثاني: نتائج اليقظة.
- المبحث الثالث: وسائل التدارك (وسائل مغفرة الذنوب)










الفصل الأول

الباعث على التوبة ونتائجه ووسائل التدارك

٦٠٩- تمهيد وتقسيم:

٦١٠- لابد من باعث من داخل القلب يبعث على التوبة:

لكي تحصل التوبة لابد من باعث من داخل القلب يبعث عليها ويجعلها مطلوبة ومرغوبة وضرورية، وهذا كله إنما يحصل عن طريق اليقظة، يقظة القلب من رقدة الغافلين، فبدون هذه اليقظة يكون الإنسان في حال الغفلة وهي نوم القلب أو مرضه أو موته. والغافل لا يشعر بالحاجة إلى التوبة، حتى إذا جاء ملك الموت ﴿ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

٦١١- يقظة القلب ما هو مصدرها؟ :

فالباعث على التوبة إذن يقظة القلب، وهي تحصل: بـ (إدامة الفكر) في كتاب الله وما تضمن من ذكر الله تعالى وصفاته بها ينشئ بصيرة في الأسماء والصفات، وذكر الموت، وهو القيامة الصغرى، وأقسام الناس فيه من ناجين سعداء وهالكين أشقياء، وذكر اليوم الآخر والنشر والحشر والعرض والحساب والميزان والصراط واستقرار الناس فريقين، فريق في جنات النعيم وفريق في نيران الجحيم، بها يوجد البصيرة في الوعد والوعيد، فإن إدامة الفكر في ذلك ونحوه يحوله من العلم به والمعرفة العقلية له إلى حضوره في القلب، والعبرة بهذا الحضور، فإنه يحول القلب الميت إلى قلب حي فيوجد اليقظة ويعدم الغفلة.

٦١٢- نتائج يقظة القلب:

واليقظة التي هي الباعث على التوبة تنشئ في النفس جملة من النتائج من أهمها ثلاث :

إحداها: **المحاسبة للنفس**.

والثانية: **الرغبة في التطهر** من آثار الذنوب ودفع خطرها.

والثالثة: **إرادة التدارك**.. تدارك الماضي وتعمير الباقي من العمر بطاعة الله.

وهذه النتائج لليقظة تفضي إلى تفتيش التائب عن **وسائل التدارك** مدفوعاً بالرغبة في التطهر وبإرادة التدارك قبل أن يخطفه الموت.

٦١٣- تقسيم الفصل إلى ثلاثة مباحث:

وعلى ذلك انقسم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: في اليقظة من رقدة الغافلين، وأقوال العلماء فيها.
- والمبحث الثاني: في نتائج اليقظة.
- والمبحث الثالث: في وسائل التدارك.

المبحث الأول
يقظة القلب من رقدة الغافلين

٦١٤- أسباب اليقظة ومن ثم التوبة:

تدور أقوال العلماء في الباعث على التوبة حول سببين رئيسين يوجدان اليقظة ويبعثان على التوبة:

٦١٥- السبب الأول لليقظة:

هو إدامة الفكر في حقائق الإيمان في كتاب الله العزيز من معرفة بالله تعالى وذكر للموت واليوم الآخر والوعد والوعيد.

٦١٦- السبب الثاني لليقظة:

وهو قذف نور التنبيه في قلب العبد فضلاً من الله تعالى لينتزعه من رقدة الغافلين ويضعه على الصراط المستقيم.

فاليقظة من رقدة الغافلين المفضية إلى التوبة تحصل بهذين السببين المنشئين لليقظة ومن ثم الباعثين على التوبة.

وفيما يلي بيان العلماء لهما ولليقظة:

٦١٧- أقوال العلماء في أسباب اليقظة، والباعث على التوبة:

٦١٨- قول القرطبي في الباعث على التوبة:

٦١٩- أ- الباعث على التوبة (إدامة الفكر) في القرآن وما جاء فيه من الوعد والوعيد:

قال القرطبي: «قال علماؤنا: الباعث على التوبة وحل الإصرار: (إدامة الفكر) في كتاب الله العزيز الغفار وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة ووعد به المطيعين وما وصفه من عذاب النار وتهدد به العاصين، ودام على ذلك حتى قوي خوفه ورجاؤه، فدعا الله رغباً ورهباً، والرغبة والرهبة ثمرة الخوف والرجاء، يخاف من العقاب، ويرجو الثواب، والله الموفق للصواب»[٦٥٤].

---

(٦٥٤) تفسير القرطبي ج: ٤ ص: ٢١١-٢١٢.

٦٢٠- ب - الباعث على التوبة تنبيه إلهي:

وقال القرطبي أيضاً: «وقد قيل إن الباعث على ذلك (تنبيه إلهي) ينبه به من أراد سعادته لقبح الذنوب وضررها إذ هي سموم مهلكة، قلت: وهذا خلاف في اللفظ لا في المعنى، فإن الإنسان لا يتفكر في وعد الله ووعيده إلا بتنبيهه، فإذا نظر العبد بتوفيق الله تعالى إلى نفسه فوجدها مشحونة بذنوب اكتسبها وسيئات اقترفها، وانبعث منه الندم على ما فرط، وترك مثل ما سبق، مخافة عقوبة الله تعالى، صدق عليه أنه تائب. فإن لم يكن كذلك كان مصراً عن المعصية، وملازماً لأسباب الهلكة، قال سهل بن عبد الله : علامة التائب: أن يشغله الذنب عن الطعام والشراب كالثلاثة الذين خلفوا»[٦٥٥].

٦٢١- ما يشهد لصحة قول القرطبي في الباعث على التوبة:

ويشهد لصحة ما قاله القرطبي في مسألة النور الإلهي أو (نور التنبيه) بوصفه باعثاً على التوبة وانشراح الصدر بالهداية قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقد سئل النبي ﷺ عن معنى: (شرح الله صدره للإسلام)، فبين أن معناها: أن القلب يدخله نور فينشرح له وينفسح، وبين أن العلامة الظاهرة لدخول هذا النور الخفي تتمثل في ثلاثة أشياء: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت. فمن وجد هذه العلامات الثلاث فليعلم أن النور قد دخل قلبه.

٦٢٢- من إدامة الفكر.. إلى دخول النور في القلب وظهور علاماته :

ومن لم يجد هذه العلامات أو شيئاً منها فيمكنه استجلابها عن طريق (إدامة الفكر) في كتاب الله العزيز وما فيه من وعد حسن بالفوز العظيم بجنات النعيم بجوار الرحمن الرحيم وما في ذلك من ربح الأبد وسعادة الأبد، وكذلك (إدامة الفكر) في ما جاء فيه من وعيد شديد بنيران الجحيم للعاصين، وما في ذلك من خسارة الأبد وشقاوة الأبد. فمن

---

(٦٥٥) المرجع السابق ج: ٤ ص: ٢١١-٢١٢.

أدام الفكر في ذلك كله استجلب دخول (نور التنبيه) إلى قلبه، ثم سيجد العلامات الثلاث التي قالها رسول الله ﷺ، ويحمد الله ويشكره عليها.

وفيما يلي تفسير القرطبي للآية الكريمة بالحديث الشريف على النحو الذي شرحناه:

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] أي يوسعه له ويوفقه ويزين عنده ثوابه ويقال: شرح: شق، وأصله التوسعة وشرح الله صدره: وسعه بالبيان... وروي أن عبد الله بن مسعود قال: يا رسول الله وهل ينشرح الصدر؟ فقال: نعم يدخل القلب نور، فقال: وهل لذلك من علامة؟ فقال ﷺ: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»(٦٥٦).

٦٢٣- قول ابن القيم في اليقظة الباعثة على التوبة:

٦٢٤- تعريف اليقظة:

تكلم ابن القيم عن اليقظة بوصفها باعثاً على التوبة فقال: «فأول منازل العبودية: (اليقظة): وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، ولله ما أنفع هذه الروعة، وما أعظم قدرها وخطرها، وما أشد إعانتها على السلوك، فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة.

٦٢٥- الآثار المباشرة لليقظة:

٦٢٦- أ- (العزم) الجازم على المسير إلى الله تعالى:

فإذا انتبه شمر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى، وأوطانه التي سبي منها.

فحـــي عـــلى جنـــات عـــدن فإنهـــا　　منازلـــك الأولى وفيهـــا المخـــيم

ولكننـــا ســـبي العـــدو فهـــل تـــرى　　نعـــود إلى أوطاننـــا ونـــسلم

فأخذ في أهبة السفر، فانتقل إلى (منزلة العزم)، وهو العقد الجازم على المسير، ومفارقة كل قاطع ومعوق، ومرافقة كل معين وموصل، وبحسب كمال انتباهه ويقظته يكون عزمه وبحسب قوة عزمه يكون استعداده.

(٦٥٦) تفسير القرطبي ج: ٧ ص: ٨١.

٦٢٧- ب - (الفكرة): وهي تحديق القلب إلى المطلوب:

فإذا استيقظ أوجبت له اليقظة: (الفكرة)، وهي تحديق القلب نحو المطلوب الذي قد استعد له مجملاً ولما يهتد إلى تفصيله وطريق الوصول إليه.

٦٢٨- ج - (البصيرة): وهي نور في القلب يبصر به الوعد والوعيد فيبعثه على التوبة:

فإذا صحت فكرته أوجبت له: (البصيرة): فهي نور في القلب يبصر به الوعد والوعيد، والجنة والنار، وما أعد الله في هذه لأوليائه، وفي هذه لأعدائه، فأبصر الناس وقد خرجوا من قبورهم مهطعين لدعوة الحق، وقد نزلت ملائكة السماوات فأحاطت بهم، وقد جاء الله وقد نصب كرسيه لفصل القضاء، وقد أشرقت الأرض بنوره، ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء، وقد نصب الميزان، وتطايرت الصحف، واجتمعت الخصوم وتعلق كل غريم بغريمه، ولاح الحوض وأكوابه عن كثب، وكثر العطاش وقل الوارد، ونصب الجسر للعبور ولز الناس إليه، وقسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه، والنار يحطم بعضها بعضاً تحته، والمتساقطون فيها أضعاف أضعاف الناجين، فينفتح في قلبه عين يرى بها ذلك ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة ودوامها والدنيا وسرعة انقضائها[٦٥٧].

وقال ابن القيم في موضع آخر: «فاعلم أن العبد قبل وصول الداعي إليه في نوم الغفلة، قلبه نائم وطرفه يقظان، فصاح به الناصح، وأسمعه داعي النجاح، وأذن به مؤذن الرحمن: حي على الفلاح، فأول مراتب هذا النائم: اليقظة والانتباه من النوم، وقد ذكرنا أنها: انزعاج القلب لروعة الانتباه، وصاحب المنازل (الهروي) يقول: هي القومة لله المذكورة في قوله: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ [سبأ:٤٦]، قال: القومة لله: هي اليقظة من سنة الغفلة، والنهوض عن ورطة الفترة، وهي أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه...»[٦٥٨].

(٦٥٧) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ١٢٣.

(٦٥٨) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ١٤٠-١٤١.

ومما تقدم من قول القرطبي وابن القيم يتبين لك أن التوبة ثمرة اليقظة الباعثة عليها، وأن اليقظة تحصل (بإدامة الفكر) في حقائق الإيمان بالله واليوم الآخر وتحصل أيضا بمد الله تعالى عبده بنور التنبيه لينتزعه من رقدة الغافلين.

٦٢٩- من إدامة الفكر.. إلى البصائر الثلاث :

ذلك أن إدامة الفكر في كتاب الله العزيز تنشئ للإنسان بصائر كثيرة من أهمها ثلاث بصائر:

٦٣٠- البصيرة الأولى: بصيرة في معرفة الله تعالى وصفاته:

إحداها: بصيرة في معرفة الله تعالى وصفاته إذ تزداد معرفته بالله جل جلاله، فيحبه ويرجوه، ويخافه ويخشاه، يرجو رحمته ويخاف عذابه.

يحبه لذاته وصفاته لأنها صفات جمال وكمال وصفات هيبة وجلال، والنفس مجبولة على حب الكمالات.

ويحبه لآلائه ونعمائه وبره وإحسانه ونعمته ورحمته، والنفس مجبولة على محبة من أحسن إليها.

ويخافه ويخشاه لمطالعته لصفات الهيبة والعزة والجلال.

وكل من المحبة، والخشية، من لوازم الإيمان، وهي تزداد بإدامة الفكر في كتاب الله العزيز.

٦٣١- البصيرة الثانية: بصيرة في معرفة أمره ونهيه:

والثانية: البصيرة في معرفة أمره ونهيه تبارك وتعالى، وهي تنشأ من إدامة الفكر في القرآن العظيم، ومطالعة الأمر والنهي الإلهي، والرجوع إلى السنة لمعرفة مراد الله تعالى، وكذلك أقوال المفسرين والعلماء. وبدون هذا وذاك يبقى الإنسان جاهلاً غافلاً. وكلما ازداد في إدامة الفكر في القرآن، وتدبره، ومعرفة تفاصيل أمره ونهيه، ازدادت هذه البصيرة.

٦٣٢- البصيرة الثالثة: بصيرة في معرفة وعده ووعيده:

والثالثة: البصيرة في معرفة وعده ووعيده المبثوث في معظم سور القرآن، وبهذه البصيرة يشاهد: الموت، وحياة البرزخ، والبعث والنشور، والحشر، والعرض والحساب،

وتطاير الصحف فآخذ بيمينه وآخذ بشماله، والميزان، وتقسيم الأنوار للمؤمنين وحرمان الكفار والمنافقين، والصراط والنار من تحته يحطم بعضها بعضاً و ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨]، حتى استقرار الناس فريقين، فريق في جنات النعيم قد ربح ربح الأبد وسعد سعادة الأبد، وفريق في نيران الجحيم قد خسر خسارة الأبد وشقي شقاوة الأبد.

فإدامة الفكر في القرآن تنشئ للعبد هذه المعارف التي تنشئ فيه اليقظة وتدفع عنه الغفلة، واليقظة هي الباعث على التوبة.

٦٣٣- نور التنبيه يكون كسبياً ويكون وهبياً فيفضي إلى التوبة:

وكذلك (نور التنبيه) الذي هو سبب لليقظة ومن ثم التوبة، يتأتى من إدامة الفكر في كتاب الله العزيز، ولكنه يمكن أن يتأتى بطريقة أخرى مفاجئة من غير تدرج بأن يقذف الله في قلب من سبقت له من الله الحسنى بنور التنبيه لينتزعه من رقدة الغافلين ويضعه على الصراط المستقيم، رحمة منه وفضلاً وإحساناً، فتحصل له يقظة مفاجئة، وقد يكون هذا بسبب عمل صالح، أو يكون منة وفضلاً من الله تعالى وبدون سبب من العبد.

٦٣٤- اليقظة المفاجئة بسبب فعل أو مشهد وإفضاؤها إلى التوبة:

قد تحصل اليقظة المفاجئة بسبب أن الإنسان شيع ميتاً وتفكر، أو شاهد قبوراً واعتبر، أو عمل عملاً صالحا غفر الله له به أو اجتباه الله بسببه ووفقه للتوبة النصوح.

ومن الأمثلة على ذلك ما أورده القرطبي في تفسيره قال: «قال سعيد بن أبي سكينة: بلغني أن علي بن أبي طالب ﷺ نظر إلى رجل يكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال له: جودها، فإن رجلاً جودها فغفر له. قال سعيد: وبلغني أن رجلاً نظر إلى قرطاس فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) فقبله ووضعه على عينه فغفر له. ومن هذا المعنى قصة بشر الحافي فإنه لما رفع الرقعة التي فيها اسم الله وطيبها طيب اسمه، ذكره القشيري»[٦٥٩].

ونص القصة كما في وفيات الأعيان والرسالة القشيرية: «... وسبب توبته أنه أصاب في الطريق ورقة مكتوباً فيها اسم الله عز وجل وقد وطئتها الأقدام، فأخذها واشترى

---

(٦٥٩) القرطبي: تفسير القرطبي: ج: ١ ص: ٩١.

بدراهم كانت معه غالية فطيب بها الورقة وجعلها في شق حائط، فرأى في النوم كأن قائلاً يقول له: يا بشر طيبت اسمي فلأطيبنك في الدنيا والآخرة. فلما انتبه من نومه تاب»[٦٦٠].

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في السنة النبوية بشأن (الكفل) الذي قذف الله في قلبه نور التنبيه فتاب توبة مفاجئة.

فقد جاء في الحديث الشريف عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لقد سمعت من رسول الله حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرات، ولكن سمعته أكثر من ذلك، قال: (كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ أكرهتك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ قالت: حملتني عليه الحاجة، قال: ثم نزل فقال: اذهبي فالدنانير لك، ثم قال: والله لا يعصي الله الكفل أبداً، فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: قد غفر الله عز وجل للكفل)[٦٦١].

ومن الأمثلة على اليقظة المفاجئة التي تنتزع صاحبها من الكبيرة بعد أن أوشك على اقترافها، فتكفه عنها، وتحدث له توبة نصوحاً، ما ورد في الحديث الصحيح الذي يذكر الثلاثة الذين انطبقت عليهم صخرة من الجبل فحبستهم داخل الغار فدعوا الله بأحسن أعمالهم ففرج عنهم.

وموضع الشاهد فيها على اليقظة المفاجئة هو الثاني من هؤلاء الثلاثة، ونحن نذكر الحديث بتمامه لأهميته:

فقد ورد في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (بينما ثلاثة نفر يتمشون، إذ أخذهم المطر، فأووا إلى غار في الجبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل، فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم.

---

(٦٦٠) القرطبي: تفسير القرطبي: ج:١ ص: ٩١ .

(٦٦١) رواه الترمذي (٢٤٢٠) وقال: حديث حسن، وأحمد في مسنده (٤٥١٧) والبيهقي في شعب الإيمان ج:٥ ص:٤١٣.

فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، وامرأتي، ولي صبية صغار أرعى عليهم، فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدي فسقيتهما قبل بني، وأنه نأى بي ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء، ففرج الله لهم منها فرجة فرأوا منها السماء.

وقال الآخر [الثاني] - وهو موضع الشاهد على اليقظة المفاجئة -: اللهم إنه كانت لي ابنة عم، أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئتها بها، فلما وقعت بين رجليها قالت: يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها - وفي رواية وتركت المائة دينار -، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا منها فرجة، ففرج لهم.

قال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرق أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه فرقه فرغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً ورعاءها، فجاءني فقال: اتق الله ولا تظلمني حقي، قلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها، فقال: اتق الله ولا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، خذ ذلك البقر ورعاءها، فأخذه فذهب به، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا ما بقي، ففرج الله ما بقي)[٦٦٢]، وفي رواية: (فخرجوا من الغار يمشون).

(٦٦٢) متفق عليه: البخاري (٢٠٦٣) و(٢١١١) و(٣٢٠٦)، ومسلم (٤٩٢٦) واللفظ له، وأحمد (٤٧٠٢) و(١٧٦٩١).

المبحث الثاني
نتـائـج اليقظـة

٦٣٥- نتائج اليقظة كثيرة وعظيمة :

نتائج اليقظة كثيرة جداً، وعظيمة جداً، أعظمها التوبة وما يتفرع عنها من بدء المحاسبة للنفس بعد ترك الغفلة، ومن الرغبة في التطهر من آثار الذنوب ودفع خطرها، ومن إرادة تدارك الماضي والتعويض عنه، وتعمير الباقي من الأيام والليالي بطاعة الله تعالى، فكل هذا يأتي مرافقاً للتوبة وهي أمور سيأتي بحثها بعد قليل.

وقد تبينا أن اليقظة تحصل عن طريق إدامة الفكر في حقائق الإيمان بالله واليوم الآخر في القرآن الكريم وعن طريق نور التنبيه الذي يجعله الله في قلب العبد فيحييه بعد موته، أو يوقظه بعد نومه، وبينا أن اليقظة هي الباعث على التوبة، وبقي أن نعرف النتائج الأخرى الكثيرة لليقظة ثم نعود إلى قصر الكلام على النتائج المرتبطة ارتباطاً مباشراً بالتوبة.

٦٣٦- قول ابن القيم في نتائج اليقظة بوجه عام:

قال ابن القيم في نتائج اليقظة بوجه عام: «فإذا اطمأنت [النفس بسبب اليقظة] من الشك إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن العجز إلى الكيس، ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات، ومن التيه إلى التواضع، ومن الفتور إلى العمل، فقد باشرت روح الطمأنينة. وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة، فهي أول مفاتيح الخير، فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم، بل أسوأ حالا منه، فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده وما تتقاضاه أوامر الرب تعالى ونواهيه وأحكامه من الحقوق، لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك ويقعده عن الاستدراك سنة القلب، وهي غفلته التي رقد فيها فطال رقوده، وركد وأخلد إلى نوازع الشهوات فاشتد إخلاده وركوده، وانغمس في غمار الشهوات، واستولت عليه العادات ومخالطة أهل البطالات، ورضي بالتشبه بأهل إضاعة الأوقات، فهو في رقاده مع النائمين، وفي سكرته مع المخمورين، فمتى انكشف عن قلبه سِنَة هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق في قلبه استجاب فيها لواعظ الله في قلب عبده

المؤمن، أو همة عليَّة أثارها معول الفكر في المحل القابل فضرب بمعول فكره وكبر تكبيرة أضاءت له منها قصور الجنة فقال:

ألا يـــا نفـــس ويحـــك ســـاعديني   بـــسعي منـــك في ظلـــم الليـــالي
لعلـــك في القيامـــة أن تفـــوزي   بطيـــب العـــيش في تلـــك العـــلالي

فأثارت تلك الفكرة نوراً رأى في ضوئه ما خلق له وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار، ورأى سرعة انقضاء الدنيا وعدم وفائها لبنيها وقتلها لعشاقها وفعلها بهم أنواع المثلات، فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلاً: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، فاستقبل بقية عمره التي لا قيمة لها [أي لا تقدر بثمن]، مستدركاً بها ما فات، محيياً بها ما أمات، مستقبلاً بها ما تقدم له من العثرات، منتهزاً فرصة الإمكان التي إن فاتت فاته جميع الخيرات.

ثم يلحظ في نور تلك اليقظة وفور نعمة ربه عليه، من حين استقر في الرحم إلى وقته، وهو يتقلب فيها ظاهراً وباطناً، ليلاً ونهاراً، ويقظة ومناماً، سراً وعلانية، فلو اجتهد في إحصاء أنواعها لما قدر، ويكفي أن أدناها نعمة النفس، ولله عليه في كل يوم أربعة وعشرون ألف نعمة فما ظنك بغيرها، ثم يرى في ضوء ذلك النور أنه آيسٌ من حصرها وإحصائها، عاجز عن أداء حقها، وأن المنعم بها إن طالبه بحقوقها استوعب جميع أعماله حق نعمة واحدة منها، فيتيقن حينئذ أنه لا مطمع له في النجاة إلا بعفو الله ورحمته وفضله.

ثم يرى في ضوء تلك اليقظة أنه لو عمل أعمال الثقلين من البر لاحتقرها بالنسبة إلى جنب عظمة الرب تعالى وما يستحقه بجلال وجهه وعظم سلطانه، وهذا لو كانت أعماله منه، فكيف وهي مجرد فضل الله ومنته وإحسانه، حيث يسرها له، وأعانه وهيأه لها وشاءها منه وكونها، ولو لم يفعل ذلك لم يكن له سبيل إليها، فحينئذ لا يرى أعماله منه، وإن الله سبحانه لن يقبل عملاً يراه صاحبه من نفسه حتى يرى عين توفيق الله له وفضله عليه ومنته، وأنه من الله لا من نفسه، وأنه ليس له من نفسه إلا الشر وأسبابه، وما به من نعمة فمن الله وحده صدقة تصدق بها عليه، وفضلاً منه ساقه إليه، من غير أن يستحقه بسبب، ويستأهله بوسيلة، فيرى ربه ووليه ومعبوده أهلاً لكل خير، ويرى نفسه أهلاً لكل شر، وهذا أساس جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، وهو الذي يرفعها ويجعلها في ديوان أصحاب اليمين .

ثم يبرق له في نور اليقظة بارقة أخرى يرى في ضوئها عيوب نفسه وآفات عمله، وما تقدم له من الجنايات والإساءات وهتك الحرمات، والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات، فإذا انضم ذلك إلى شهود نعم الله عليه وأياديه لديه، رأى أن حق المنعم عليه في نعمه وأوامره لم يبق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه فيطمئن قلبه. وانكسرت نفسه وخشعت جوارحه وسار إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه ومطالعة جناياته وعيوب نفسه وآفات عمله، قائلاً: (أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)(٦٦٣) فلا يرى لنفسه حسنة، ولا يراها أهلاً لخير، فيوجب له أمرين عظيمين:

أحدها: استكثار ما من الله عليه، **والثاني**: استقلال ما منه من الطاعة كائنة ما كانت.

ثم تبرق له بارقة أخرى [من نور تلك اليقظة] يرى في ضوئها عزة وقته، وخطره وشرفه، وأنه رأس مال سعادته، فيبخل به أن يضيعه فما يقربه إلى ربه، فإن في إضاعته الخسران والحسرة والندامة، وفي حفظه وعمارته الربح والسعادة، فيشح بأنفاسه أن يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده.

ثم يلحظ في ضوء تلك البارقة ما تقتضيه يقظته من سنة غفلته، من التوبة، والمحاسبة، والمراقبة، والغيرة لربه أن يؤثر عليه غيره، وعلى حظه من رضاه وقربه وكرامته ببيعه بثمن بخس في دار سريعة الزوال، وعلى نفسه أن يملك رقها لمعشوق أو فكر في منتهى حسنه... فهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها، وهي أول منازل النفس المطمئنة التي نشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة»(٦٦٤).

٦٣٧- نتائج اليقظة المرتبطة بالتوبة:

وبعد هذا الاستعراض للنتائج العظيمة لليقظة نعود الآن إلى قصر الكلام على النتائج المتصلة بالتوبة وهي:

١- محاسبة النفس.
٢- ثم الرغبة في التطهر من آثار الذنوب ودفع خطرها، وإرادة التدارك لتعويض ما فات قبل فوات الأوان.

---

(٦٦٣) البخاري (٥٨٣١) و(٥٨٤٨)، والنسائي (٥٤٢٧)، وأحمد (١٦٤٨٨) و (١٦٥٠٨).
(٦٦٤) ابن القيم: الروح ج: ١ ص: ٢٢٣- ٢٢٥.

٣- والرغبة في الاستقامة والطاعة والتأهب للقاء الله، والنتيجتان الثانية والثالثة يمكن أن نطلق عليهما: (تدارك الماضي وتعمير الباقي).

ولنبدأ بالكلام عن النتيجة الأولى لليقظة وهي: المحاسبة للنفس:

٦٣٨- النتيجة الأولى لليقظة: المحاسبة للنفس:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ [الحشر: ١٨]، وقال ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ ﴾ [الكهف: ٥٧]، وقال ﷺ: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت)[٦٦٥].

ومحاسبة التائب نفسه على الماضي والحاضر أثر من آثار اليقظة، ونتيجة حتمية لها. وهذه المحاسبة تتضمن:

١- المحاسبة على ذنوب الماضي من ترك للطاعات واقتحام للمحرمات.

٢- وكذلك تتضمن: المحاسبة على هزال طاعات الماضي والحاضر أمام ما يليق بعظمة الرب جل جلاله.

٣- وتتضمن أيضاً: المحاسبة على الذنوب القلبية من عجب بالنفس وكبر يظهر من خلال رؤية النفس - بعد التوبة - بعين البراءة والإعجاب ودعوى النفس الزاكية والإدلال على الله بطاعاته والمن على الله بها، فإن الكبر والعجب بالنفس من الكبائر القلبية التي يجره الشيطان إليها، وهي شيء آخر غير فرح المؤمن بحسنته، فإن المؤمن تسره حسنته ويفرح بها، ولكن مع العبودية والافتقار إلى الله تعالى بعيداً عن الكبر والعجب بالنفس.

ونقدم فيما يلي أقوال بعض العلماء في موضوع المحاسبة:

٦٣٩- قول ابن القيم: المحاسبة تفضي إلى التوبة وتحفظها:

قال ابن القيم: «فلنرجع إلى ذكر منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ التي لا يكون العبد من أهلها حتى ينزل منازلها، فذكرنا منها: اليقظة، والبصيرة، والفكرة،

---

(٦٦٥) رواه الترمذي (٢٣٨٣) وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجة (٤٢٥٠)، وأحمد (١٦٥٠١).

والعزم. وهذه المنازل الأربعة لسائر المنازل كالأساس للبنيان، وعليها مدار منازل السفر إلى الله، ولا يتصور السفر إليه بدون نزولها البتة، وهي على ترتيب السير الحسي، فإن المقيم في وطنه لا يتأتى منه السفر حتى يستيقظ من غفلته عن السفر، ثم يتبصر في أمر سفره وخطره وما فيه من المنفعة له والمصلحة، ثم يفكر في أهبة السفر والتزود وإعداد عدته، ثم يعزم عليه. فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلى منزلة المحاسبة، وهي التمييز بين ماله وعليه، فيستصحب ماله ويؤدي ما عليه، لأنه مسافر سفر من لا يعود.

ومن منزلة المحاسبة يصح له نزول منزلة التوبة، لأنه إذا حاسب نفسه عرف ما عليه من الحق فخرج منه وتنصل منه إلى صاحبه وهي حقيقة التوبة، فكان تقديم المحاسبة عليها لذلك أولى. ولتأخيرها عنها وجه أيضاً: وهو أن المحاسبة لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة.

والتحقيق: أن التوبة بين محاسبتين: محاسبة قبلها تقتضي وجوبها، ومحاسبة بعدها تقتضي حفظها. فالتوبة محفوفة بمحاسبتين.

وقد دل على المحاسبة قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر: ١٨]، فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك والنظر هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح، والمقصود من هذا النظر ما يوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد، وتقديم ما ينجيه من عذاب الله، ويبيض وجهه عند الله. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر، ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨] أو قال: على من لا تخفي عليه أعمالكم»[٦٦٦].

٦٤٠- شرح ابن القيم لحقيقة المحاسبة وأركانها الثلاثة:

قال ابن القيم أثناء شرحه لحقيقة المحاسبة في ضوء ما قاله صاحب (منازل السائرين)[٦٦٧]، - ونحن ننقل قوله مشذباً مع وضع العناوين الجانبية الضرورية ومع

---

(٦٦٦) ابن القيم: مدارج السالكين: ج:١ ص:١٦٩-١٧٠.

(٦٦٧) كتاب (منازل السائرين) للهروي، كتاب صغير في مقامات السلوك إلى الله تعالى يتسم بالتقسيم المنضبط والدقيق لموضوعاته، وهو الكتاب الذي شرحه ابن القيم في ثلاث مجلدات تشكل =

المحافظة على عبارته - قال: «قال صاحب المنازل: «المحاسبة لها ثلاثة أركان أحدها أن تقايس بين نعمته وجنايتك»»:

٦٤١- الركن الأول للمحاسبة:

٦٤٢- أ- أن تقايس بين نعمته وجنايتك:

يعني: تقايس بين ما مِنَ الله وما منك، فحينئذ يظهر لك التفاوت، وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته أو الهلاك والعطب. وبهذه المقايسة تعلم أن الرب رب والعبد عبد، ويتبين لك: حقيقة النفس وصفاتها، وعظمة جلال الربوبية وتفرد الرب بالكمال والإفضال، وأن كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، وأنت قبل هذه المقايسة جاهل بحقيقة نفسك وبربوبية فاطرها وخالقها، فإذا قايست، ظهر لك أنها منبع كل شر وأساس كل نقص، وأن حدها: الجاهلة الظالمة، وأنه لولا فضل الله ورحمته، لتزكيته لها، ما زكت أبداً، ولولا هداه ما اهتدت، ولولا إرشاده وتوفيقه لما كان لها وصول إلى خير البتة، وأن حصول ذلك لها من بارئها وفاطرها، وتوقفه عليه، كتوقف وجودها على إيجاده، فكما أنها ليس لها من ذاتها وجود، فكذلك ليس لها من ذاتها كمال الوجود، فليس لها من ذاتها إلا العدم، عدم الذات وعدم الكمال، فهناك تقول حقاً: (أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي)(٦٦٨).

٦٤٣- ب - ثم تقايس بين الحسنات والسيئات:

[أي حسناتك وسيئاتك] فتعلم بهذه المقايسة أيهما أكثر وأرجح، قدراً وصفة، وهذه المقايسة الثانية مقايسة بين أفعالك وما منك خاصة.

٦٤٤- مستلزمات الحساب الصحيح لحسناتنا وسيئاتنا:

قال: «وهذه المقايسة تشق على من ليس له ثلاثة أشياء:

نور الحكمة. وسوء الظن بالنفس. وتمييز النعمة من الفتنة». يعني أن هذه المقايسة والمحاسبة تتوقف على:

= كتاب (مدارج السالكين) فأفاد في شرحه وأجاد ولاحظ عليه بعض المآخذ والملاحظات فكان شرحه أنفع من الكتاب نفسه بكثير حيث صار مرجعاً أساسياً للسلوك إلى الله تعالى المنضبط بالكتاب والسنة، وهي المجلدات الثلاثة التي هذبها أخونا الأستاذ عبد المنعم صالح العزي في مجلدين اثنين بطبعة أنيقة نفع الله تعالى بها الكثير من المؤمنين والمؤمنات.

(٦٦٨) أخرجه البخاري (٥٨٣١) و(٥٨٤٨)، والترمذي (٣٣١٥)، والنسائي (٥٤٢٧)، وأبو داود (٤٤٠٨)، وابن ماجة (٣٨٦٢)، وأحمد (٢١٩٣٥).

نور الحكمة: وهو النور الذي نور الله به قلوب أتباع الرسل، وهو نور الحكمة، فبقدره ترى التفاوت وتتمكن من المحاسبة. ونور الحكمة ههنا: هو العلم الذي يميز به العبد بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والضار والنافع، والكامل والناقص، والخير والشر، ويبصر به مراتب الأعمال: راجحها ومرجوحها، ومقبولها ومردودها، وكلما كان حظه من هذا النور أقوى كان حظه من المحاسبة أكمل وأتم.

وأما سوء الظن بالنفس: فإنما احتاج إليه لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش، ويلبس عليه، فيرى المساوئ محاسن، والعيوب كمالاً. فإن المحب يرى مساوئ محبوبه وعيوبه كذلك.

فعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها. ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه.

وأما تمييز النعمة من الفتنة: فليفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف ويعان بها على تحصيل سعادته الأبدية، وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج. فكم من مستدرج بالنعم وهو لا يشعر، مفتون بثناء الجهال عليه، مغرور بقضاء الله حوائجه، وستره عليه. وأكثر الخلق عندهم أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح، ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠].

فإذا كملت هذه الثلاثة فيه [نور الحكمة. وسوء الظن بالنفس. وتمييز النعمة من الفتنة] عرف حينئذ أن ما كان من نعم الله عليه يجمعه على الله فهو نعمة حقيقة، وما فرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة، والمحنة في صورة المنحة، فليحذر فإنما هو مستدرج.

ويميز بذلك أيضاً بين المنة والحجة، فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى، فإن العبد بين منة من الله عليه وحجة منه عليه ولا ينفك عنهما... فكل علم صحبه عمل يرضي الله سبحانه فهو منة، وإلا فهو حجة . وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهي منة، وإلا فهي حجة. وكل حال صحبه تأثير في نصرة دينه والدعوة إليه فهو منة منه، وإلا فهو حجة. وكل مال اقترن به إنفاق في سبيل الله وطاعته لا لطلب الجزاء ولا

الشكور فهو منة من الله عليه، وإلا فهو حجة. وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه، وإلا فهو حجة. وكل قبول في الناس وتعظيم ومحبة له اتصل به خضوع للرب وذل وانكسار ومعرفة بعيب النفس والعمل وبذل النصيحة للخلق فهو منة، وإلا فهو حجة. وكل بصيرة وموعظة وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد اتصل به عبرة ومزيد في العقل ومعرفة في الإيمان فهي منة، وإلا فهي حجة. وكل حال مع الله تعالى أو مقام اتصل به السير إلى الله وإيثار مراده على مراد العبد فهو منة من الله، وإن صحبه الوقوف عنده والرضا به وإيثار مقتضاه من لذة النفس به وطمأنينتها إليه وركونها إليه فهو حجة من الله عليه .

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر ويميز بين مواقع المنن والمحن، والحجج والنعم، فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[٦٦٩] .

٦٤٥- الركن الثاني من أركان المحاسبة:

ثم ذكر ابن القيم الركن الثاني من أركان المحاسبة: وهي أن تميز ما للحق عليك من وجوب العبودية والتزام الطاعة واجتناب المعصية وبين ما لك وما عليك.

٦٤٦- الركن الثالث من أركان المحاسبة: مستوى رفيع في محاسبة النفس:

ثم ذكر الركن الثالث من أركانها نقلاً عن صاحب المنازل فقال: «الثالث: أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك، وكل معصية عيرت بها أخاك فهي إليك»[٦٧٠] .

٦٤٧- أ- كل طاعة رضيتها منك فهي عليك:

[فقوله: أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك - حسب شرحنا باختصار شديد -: أن لا تحاسب النفس على ما صدر منها من المعصية والجناية في حق الله تعالى فقط، وإنما تحاسبها على رضاها عن الطاعة التي قدمتها أو تقدمها متصورة أنها كافية ووافية بحق الرب جل جلاله، وهي في الحقيقة مهما كانت فإنها أقل من أن تليق بعظمة الرب وجلاله، ولذلك كان النبي ﷺ يستغفر بعد الصلاة ثلاثاً وبعد معظم العبادات

(٦٦٩) ابن القيم: مدارج السالكين: ج:١ ص ١٧٠ـ ١٧٣.
(٦٧٠) ابن القيم: مدارج السالكين: ج:١ ص:١٧٥.

والطاعات، وفي ذلك الإشارة إلى أن كل ما يقدمه العبد من العبادة هو في حقيقة الأمر أقل من أن يليق عبادة للرب تبارك وتعالى، وإنما هي جهد المقل، قال ﷺ : (لن ينجي أحداً منكم عمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)[٦٧١].

فإذا رضي الإنسان طاعاته، وظنها كافية ووافية، وأصابه مرض الإدلال بطاعاته على الله تعالى، فقد فقد الإحساس بالافتقار إلى الله تعالى، وفقد حالة العبودية الحقة، ولم يعرف حق الربوبية، فتكون طاعته مع الشعور بالرضا عن نفسه جهلاً منه وغروراً ومأخذاً كبيراً عليه فهو من رعونات النفس وحماقاتها، وهو ينشأ من حسن الظن بالنفس مع أنها الظالمة الجاهلة كما قال تعالى: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢]. فليحاسب نفسه على ذلك أيضاً وليس فقط يحاسبها على المعصية والجناية.

وكذلك ليحاسبها على رؤية نفسها بعين البراءة ودعوى النفس الزاكية من خلال تعيير الآخرين بالذنب].

ونعود إلى شرح ابن القيم لهذا الركن من أركان المحاسبة حيث قال:

«ومن أركان المحاسبة ما ذكره صاحب المنازل فقال: «الثالث: أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك وكل معصية عيرت بها أخاك فهي إليك».

رضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه، وجهله بحقوق العبودية، وعدم علمه بما يستحقه الرب جل جلاله ويليق أن يعامل به .

وحاصل ذلك: أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به، يتولد منهما: رضاه بطاعته وإحسان ظنه بها، ويتولد من ذلك: من العجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا وشرب الخمر والفرار من الزحف ونحوها، فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها، [وهو غير فرح المؤمن بحسنته التي يعملها].

---

(٦٧١) رواه البخاري (٥٢٤١) واللفظ له، وابن ماجة (٤١٩١)، وأحمد (٧١٦٧).

وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات لشهودهم تقصيرهم فيها وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات وهو أجل المواقف وأفضلها، فقال: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٨-١٩٩]، وقال تعالى: ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧]، قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل، وفي الصحيح: أن النبي كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً، ثم قال: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج، واقتراب أجله، فقال في آخر سورة أنزلت عليه: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر: ١-٣].

ومن ههنا فهم عمر وابن عباس رضي الله عنهم أن هذا أجل رسول الله أعلمه به، فأمره أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه، فكأنه إعلام بأنك قد أديت ما عليك ولم يبق عليك شيء، فاجعل خاتمته الاستغفار، كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل، وخاتمة الوضوء أيضاً أن يقول بعد فراغه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين.

فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها، لا جهل أصحاب الدعاوى وشطحاتهم .

وقال بعض العارفين متى رضيت نفسك وعملك لله فاعلم أنه غير راض به. ومن عرف أن نفسه مأوى كل عيب وشر وعمله عرضة لكل آفة ونقص كيف يرضى لله نفسه وعمله؟.

ولله در الشيخ أبي مدين حيث يقول: من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء. وكلما عظم المطلوب في قلبك، صغرت نفسك عندك وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله. وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرفت الله وعرفت النفس، تبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته. وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله ويثيبك عليه أيضاً بكرمه وجوده وتفضله.

٦٤٨- ب - وكل معصية عيرت بها أخاك فهي إليك؛

وقوله: «وكل معصية عيرت بها أخاك فهي إليك» يحتمل أن يريد به: أنها صائرة إليك، ولا بد أن تعملها. وهذا مأخوذ من الحديث الذي رواه الترمذي في جامعه عن النبي: (من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله)[٦٧٢]، قال الإمام أحمد في تفسير هذا الحديث: من ذنب قد تاب منه.

وأيضا ففي التعيير ضرب خفي من الشماتة بالمعير. وفي الترمذي أيضاً مرفوعاً: (لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك)[٦٧٣].

---

(٦٧٢) سنن الترمذي ج: ٤ ص: ٦٦١ برقم (٢٥٠٥) ولفظه: (عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: (من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله) قال أحمد: من ذنب قد تاب منه، قال أبوعيسى: هذا حديث غريب وليس إسناده بمتصل. وجاء في تحفة الأحوذي (ج: ٧ ص: ١٧٣-١٧٤) في شرح الحديث: «... وذاك إذا صحبه إعجابه بنفسه لسلامته مما عير به أخاه، وفيه أن ذكر الذنب لمجرد التعيير قبيح وأنه لا يذكر عيب الغير إلا للأمور الستة التي سلفت مع حسن القصد فيها قاله الأمير في السبل، قلت [أي الأحوذي] قد ذكر الأمير هذه الأمور الستة في شرح حديث أبي هريرة في الغيبة في باب الترهيب من مساوي... قالوا أي العلماء... قوله: هذا حديث حسن غريب، هذا الحديث منقطع ومع انقطاعه قد حسنه الترمذي فلعل تحسينه لمجيئه من وجه آخر أو لشاهد له».

(٦٧٣) المنذري: الترغيب والترهيب ٣/ ٢١٢ وقال: «رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب» وانظر سنن الترمذي (٢٥٠٦) ج:٤ ص:٦٦٢، والبيهقي: شعب الإيمان (٦٧٧٧) ج:٥ ص:٣١٥. قال العراقي: « حديث: (لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك) أخرجه الترمذي من حديث واثلة بن الأسقع وقال حسن غريب، وفي رواية ابن أبي الدنيا: فيرحمه الله...» (انظر: تخريج العراقي لأحاديث الإحياء:٣/ ١٨٧).

ويحتمل أن يريد: أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثماً من ذنبه، وأشد من معصيته، لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس وشكرها والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك باء به. ولعل كسرته بذنبه، وما أحدث له من الذلة، والخضوع، والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب، أنفع له وخير من صولة طاعتك، وتكثرك بها، والاعتداد بها، والمنة على الله وخلقه بها. فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله، وما أقرب هذا المدل من مقت الله. فذنب تذل به لديه أحب إليه من طاعة تدل بها عليه، وإنك أن تبيت نائماً وتصبح نادما، خير من أن تبيت قائما وتصبح معجبا، فإن المعجب لا يصعد له عمل. وإنك أن تضحك وأنت معترف، خير من أن تبكي وأنت مدل. وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين. ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلاً هو فيك ولا تشعر.

فلله في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو، ولا يطالعها إلا أهل البصائر، فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر، ووراء ذلك مالا يطلع عليه الكرام الكاتبون. وقد قال النبي: (إذا زنت أمة أحدكم فليقم عليها الحد ولا يثرب) أي لا يعير، من قول يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ [يوسف: ٩٢]، فإن الميزان بيد الله، والحكم لله، فالسوط الذي ضرب به هذا العاصي بيد مقلب القلوب، والقصد إقامة الحد لا التعيير والتثريب، ولا يأمن كرات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله، وقد قال الله تعالى لأعلم الخلق به وأقربهم إليه وسيلة: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال يوسف الصديق: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣]، وكانت عامة يمين رسول الله: (لا ومقلب القلوب)[٦٧٤] وقال: (ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل، إن شاء أن يقيمه

---

(٦٧٤) البخاري (٦١٢٧) و(٦٨٤٢)، والنسائي (٣٧٠١)، وأبو داود (٢٨٤٠)، وأحمد (٤٥٥٧)، والدارمي(٢٢٤٤).

أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه)[٦٧٥] ثم قال: (اللهم مقلب القلوب، ثبت قلوبنا على دينك)[٦٧٦] (اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك) »[٦٧٧].

فإذا صح هذا المقام [مقام المحاسبة]، ونزل العبد في هذه المنزلة، أشرف منها على مقام التوبة، لأنه بالمحاسبة قد تميز عنده ماله مما عليه، فليجمع همته وعزمه على النزول فيه والتشمير إليه إلى المهات. ومنزل التوبة: أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى المهات. وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به واستصحبه معه ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية كذلك»[٦٧٨].

٦٤٩- النتيجة الثانية لليقظة: تدارك الماضي وتعمير الباقي:

٦٥٠- أولاً - تدارك الماضي بالنسبة للتائب وبماذا يحصل:

المقصود بتدارك الماضي: محاولة التعويض عنه وسد الخلل الحاصل فيه من جهة ما وقع من الذنوب سواء كانت تقصيراً في الواجبات أو اقتحاماً للمحرمات. فيحاول تداركها مدفوعاً بالرغبة في التطهر من آثار ذنوب الماضي، وإرادة تداركها والتخلص من تبعاتها، فإن المؤمن كلما ازدادت يقظته ازدادت رؤيته للذنوب كأنها جبال يخاف أن تقع عليه، أي أنه يراها مهلكة له إهلاكاً تاماً إن لم يتدارك نفسه، ويكون بيقظته هذه متحققاً بقوله ﷺ: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه)[٦٧٩].

وإرادة التدارك التي تنشأ لدى التائب.. تدارك الماضي وتعمير الباقي من الأيام والليالي بطاعة الله هي من النور الذي دخل في قلبه فجعله مبصرا بعد أن كان أعمى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وبهذا الإبصار يحس فعلاً كأنه كان أعمى ثم أبصر، فيحب حالة الإبصار، ويحب الله تعالى الذي منحه

---

(٦٧٥) أحمد (١٦٩٧٢) و(٢٣٤٦٣) و(٢٥٤٥٧).

(٦٧٦) ابن ماجة (١٩٥) وأحمد(١٦٩٧٢).

(٦٧٧) مسلم (٤٧٩٨).

(٦٧٨) ابن القيم: مدارج السالكين: ج:١ ص:١٧٥ـ١٧٨.

(٦٧٩) البخاري (٥٨٣٣)، والترمذي (٢٤٢١)، وأحمد (٣٤٤٦).

إياها، فيحبه الله أكثر من محبته هو لله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقر: ٢٢٢]، يحب الله الذي منحه التوفيق، وحجب عنه الخذلان، ولو خذله لوكله إلى نفسه فلا تسأل عنه في أي واد هلك.

والتائب بصفة خاصة بعد أن يشرق نور التوبة في قلبه، ينشرح صدره بنور الهداية الذي دخل فيه، كما وصف النبي ﷺ عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فقد روي أن عبد الله بن مسعود قال: يا رسول الله وهل ينشرح الصدر؟ فقال: نعم يدخل القلب نور، فقال: وهل لذلك من علامة؟ فقال ﷺ: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»[٦٨٠].

فهذه هي حال التائب الصادق وبخاصة إذا كانت توبته توبة عامة شاملة، فإن كانت توبته صادقة ولكن عن ذنب معين وليست توبة عامة، كان له نصيب من ذلك النور بقدر صدقه في توبته وندمه وإخلاصه، فيشعر باشتداد حاجته لتدارك ما فات قبل أن يخطفه الموت، ويحس بحاجته إلى استغلال كل ساعة بل كل نفس من الأنفاس في تدارك الماضي قبل حضور ملك الموت. ويحس بحاجته أيضا إلى تعمير الباقي من الأيام والليالي بالطاعات والتأهب للقاء الله.

٦٥١- قول الغزالي مذكراً بضرورة التدارك لما سلف من الذنوب:

قال الغزالي: «قال بعض العارفين إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد وأعلمه أنه بقي من عمرك ساعة وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلاً، وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١٠-١١] فقيل: الأجل القريب الذي

(٦٨٠) تفسير القرطبي ج: ٧ ص: ٨١. والحديث أخرجه الحاكم في (المستدرك)، ٤/ ٣٤٦ برقم (٧٨٦٣).

يطلبه معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد يا ملك الموت أخرني يوماً أعتذر فيه إلى ربى وأتوب وأتزود صالحاً لنفسي، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول: فأخرني ساعة، فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة، فيتغرغر بروحه، وتتردد أنفاسه في شر أسفه، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك، وحسرة الندامة على تضييع العمر، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال، فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة، ولمثل هذا يقال: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ [النساء:١٨]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧]، ومعناه:عن قرب عهد بالخطيئة، بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو، ولذلك قال ﷺ : (أتبع السيئة الحسنة تمحها)(٦٨١) ولذلك قال لقمان لابنه يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة»(٦٨٢).

٦٥٢- قول ابن القيم في إرادة التائب للتدارك وكيف يتدارك حاله:

وقال ابن القيم في نتائج اليقظة من حيث شعور التائب بعظم الجناية في الماضي في زمن غفلته، ورغبته في التطهر من آثار ذنوب الماضي وإرادة تداركها، وهو يشرح في مدارج السالكين ما قاله الهروي في منازل السائرين، حيث قال ابن القيم: «قال: «الثاني: مطالعة الجناية والوقوف على الخطر فيها، والتشمير لتداركها والتخلص من رقها، وطلب النجاة بتمحيصها».

فينظر إلى ما سلف منه من الإساءة ويعلم أنه على خطر عظيم فيها، وأنه مشرف على الهلاك بمؤاخذة صاحب الحق بموجب حقه، وقد ذم الله تعالى في كتابه من نسي ما تقدم يداه فقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [الكهف: ٥٧]، فإذا طالع جنايته شمر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل، وتخلص من رق

(٦٨١) أحمد(٢٠٣٩٢) و(٢٠٤٣٥)، والدارمي(٢٦٧١).

(٦٨٢) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ١٢.

الجناية بالاستغفار والندم، وطلب التمحيص: وهو: تخليص إيمانه ومعرفته من خبث الجناية، كتمحيص الذهب والفضة، وهو تخليصهما من خبثهما، ولا يمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص، فإنها طيبة لا يدخلها إلا طيب، ولهذا تقول لهم الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣٢]، فليس في الجنة ذرة خبث.

٦٥٣- تدارك ما سلف من الذنوب يكون في الدنيا بأربعة أشياء:

وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء:

بالتوبة، والاستغفار، وعمل الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، فإن محصته هذه الأربعة وخلصته كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يبشرونهم بالجنة وكان من الذين تتنزل عليهم الملائكة عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

٦٥٤- ماذا إذا فشل المذنب في تدارك ذنوبه قبل الموت؟ :

وإن لم تف هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه، فلم تكن التوبة نصوحاً وهي العامة الشاملة الصادقة، ولم يكن الاستغفار كاملاً تاماً وهو المصحوب بمفارقة الذنب والندم عليه وهذا هو الاستغفار النافع[٦٨٣] لا استغفار من في يده قدح السكر وهو يقول أستغفر الله ثم يرفعه إلى فيه، ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير، ولا المصائب، وهذا: إما لعِظَم الجناية، وإما لضعف المحمص، وإما لهما [معاً]:

(٦٨٣) الاستغفار المصحوب بمفارقة الذنب والندم عليه هو توبة وليس استغفاراً مجرداً، وحتى الاستغفار المجرد مع الإقامة على الذنب أي الاستغفار بدون توبة هو في الحقيقة دعاء بالمغفرة نافع للعبد وهو خير من عدم الدعاء بالمغفرة. أما من قال من العلماء إن الاستغفار مع الإصرار على الذنب هو توبة الكذابين فهذا إذا ادعى صاحبه أن استغفاره هذا يساوي التوبة أو أنه تائب بهذا الاستغفار فهو كاذب بهذا القول وتوبته هذه توبة الكذابين. وبالجملة فإن الاستغفار إن صحبه الندم ومفارقة الذنب كان توبة وإن لم يصحبه ذلك فهو دعاء. وقد شرحنا هذا سابقاً في الفصل الخاص بأقسام التوبة ضمن المبحث الخاص بالتوبة المعلولة تحت عنوان: الاستغفار المجرد ليس توبة معلولة بل هو دعاء.

محص في البرزخ بثلاثة أشياء:

أحدها: صلاة أهل الإيمان الجنازة عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم فيه.

الثاني: تمحيصه بفتنة القبر وروعة الفتان والعصرة والانتهار وتوابع ذلك.

الثالث: ما يهدي إخوانه المسلمون إليه من هدايا الأعمال من الصدقة عنه، والحج.

والصيام عنه، وقراءة القرآن عنه، والصلاة، وجعل ثواب ذلك له وقد أجمع الناس على وصول الصدقة والدعاء، قال الإمام أحمد: لا يختلفون في ذلك، وما عداهما فيه اختلاف، والأكثرون يقولون بوصول الحج، وأبو حنيفة يقول: إنما يصل إليه ثواب الإنفاق، وأحمد ومن وافقه مذهبهم في ذلك أوسع المذاهب يقولون: يصل إليه ثواب جميع القرب، بدنيها وماليها والجامع للأمرين، واحتجوا بأن النبي ﷺ قال لمن سأله يا رسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد مماتهما؟ قال: نعم. فذكر الحديث، وقد قال: (من مات وعليه صيام صام عنه وليه).

فإن لم تف هذه بالتمحيص، محص بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء:

أهوال القيامة، وشدة الموقف، وشفاعة الشفعاء، وعفو الله عز وجل.

فإن لم تف هذه الأربعة[٦٨٤] بتمحيصه، فلا بد له من دخول الكير رحمة في حقه ليتخلص ويتمحص ويتطهر في النار، فتكون النار طهرة له، وتمحيصاً لخبثه، ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته، وشدته وضعفه وتراكمه، فإذا خرج خبثه وصفي ذهبه وصار خالصاً طيباً أخرج من النار وأدخل الجنة»[٦٨٥].

٦٥٥- شرح ابن القيم لقول صاحب «المنازل» في اليقظة الباعثة على تدارك الفائت وتعمير الباقي:

قال [صاحب المنازل] «الثالث - يعني من مراتب اليقظة -: الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام، والتنصل من تضييعها، والنظر إلى الظن بها، لتدارك فائتها وتعمير باقيها».

---

(٦٨٤) في الأصل: (الثلاثة)، والصواب ما أثبتناه.

(٦٨٥) وذلك على قاعدة أن أهل التوحيد - المسلمين - لا يخلدون في النار، بل يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون منها إلى الجنة،وهو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو الحق الذي تدل عليه السنن الصحيحة بإخراج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

يعني: أنه يعرف ما معه من الزيادة والنقصان، فيتدارك ما فاته في بقية عمره التي لا ثمن لها، [أي لا تقدر بثمن] ويبخل بساعاته، بل بأنفاسه، عن ذهابها ضياعاً في غير ما يقربه إلى الله، فهذا هو حقيقة الخسران المشترك بين الناس مع تفاوتهم في قدره قلة وكثرة، فكل نفس يخرج في غير ما يقرب إلى الله فهو حسرة على العبد في معاده، ووقفة له في طريق سيره، أو نكسه إن استمر، أو حجاب إن انقطع به...»[٦٨٦].

٦٥٦- اليقظة تجعل التائب يستعظم ذنوبه الماضية:

وقال ابن القيم في السبب الذي يجعل التائب بعد اليقظة يستعظم ذنوبه التي وقعت منه في الماضي: «قال [صاحب المنازل]: «وأما مطالعة الجناية فإنها تصح بثلاثة أشياء: بتعظيم الحق، ومعرفة النفس، وتصديق الوعيد» يعني: أن من كملت عظمة الحق تعالى في قلبه عظمت عنده مخالفته، لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هو دونه. ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها وفقرها الذاتي إلى مولاها الحق في كل لحظة ونفس وشدة حاجتها إليه عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة ونفس، وأيضاً فإذا عرف حقارتها مع عظم قدر من خالفه عظمت الجناية عنده فشمر في التخلص منها، وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به يكون تشميره في التخلص من الجناية التي تلحق به، ومدار السعادة وقطب رحاها على التصديق بالوعيد، فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خراباً لا يرجى معه فلاح البتة، والله تعالى أخبر أنه إنما تنفع الآيات والنذر لمن صدق بالوعيد وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار والمنتفعون بالآيات دون من عداهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وأخبر تعالى أن أهل النجاة في الدنيا والآخرة هم المصدقون بالوعيد الخائفون منه فقال تعالى: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]»[٦٨٧].

---

(٦٨٦) ابن القيم: مدارج السالكين: ج:١ ص:١٤٢- ١٤٤.

(٦٨٧) ابن القيم: مدارج السالكين: ج:١ ص١٤٤- ١٤٥.

٦٥٧- ثانيا - تعمير الباقي من حياة التائب:

قد بينا سابقا أن التائب يشعر باشتداد حاجته لتدارك ما فات قبل أن يخطفه الموت، ويحس بحاجته إلى استغلال كل ساعة بل كل نفس من الأنفاس في تدارك الماضي وتعمير الباقي من العمر قبل حضور ملك الموت. وقد تكلمنا عن تدارك الماضي وبقي أن نتكلم عن تعمير الباقي الذي سنقول كلمة موجزة عنه الآن لأن شرح ذلك سيأتي مفصلاً في الباب الخاص بدوام التوبة ولزومها إلى آخر العمر والوسائل المعينة في ذلك.

ومعلوم أن ما بقي من العمر للتائب بعد توبته هو مجموع الأيام والليالي المتبقية من عمره، وهذه قد تكون ساعة أو يوماً أو شهراً أو سنة أو سنوات، فالمطلوب تعميرها بالعبادة والطاعة، وقوام ذلك: دوام الطاعة ودوام ترك المعصية، وهو الاستقامة، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢]، وقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ١١]، فعليه أن يرافق الطاعة، ويفارق المعصية، ويجعل ذلك دأبه إلى الموت قاصدا أنه بذلك يتأهب للقاء الله تعالى.

٦٥٨- التائب وصدق التأهب للقاء الله:

قال ابن القيم وهو يتكلم عن صدق التأهب للقاء الله يعمر به التائب بقية عمره قبل أن يخطفه الموت: «صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته، فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات، وأخبت قلبه إلى الله، وعكفت همته على الله وعلى محبته وإيثار مرضاته، واستحدثت همة أخرى وعلوما أخر، وولد ولادة أخرى... والمقصود أن صدق التأهب للقاء هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة والأحوال الإيمانية ومقامات السالكين إلى الله ومنازل السائرين إليه من اليقظة، والتوبة، والإنابة، والمحبة، والرجاء، والخشية، والتفويض، والتسليم، وسائر أعمال القلوب والجوارح، فمفتاح ذلك كله صدق التأهب والاستعداد للقاء الله والمفتاح بيد الفتاح العليم لا إله غيره ولا رب سواه»[٦٨٨].

---

(٦٨٨) ابن القيم: طريق الهجرتين ج:١ ص: ١٧٦ - ١٧٧.

المبحث الثالث
وسائل التدارك (وسائل مغفرة الذنوب)

٦٥٩- تمهيد:

إن حال اليقظة التي أثمرت التوبة، تجعل التائب شديد الرغبة في التدارك.. شديد الرغبة في تصحيح توبته وتجديدها.. شديد الرغبة في التفتيش عن وسائل مغفرة الذنوب التي قررتها الشريعة لكي يعوض بها ما فات، ويرمم بها ما تهدم، ويتدارك بها الماضي، فما هي هذه الوسائل؟؟.

إن هذه الوسائل أو الأسباب التي يحصل بها للتائب تدارك ماضيه، ومغفرة ذنوبه، بعضها من فعل العبد فيمكن للتائب أن يفعلها، وبعضها من فعل الله تعالى له بدون سبب منه، وهي على الجملة عشرة أسباب.

٦٦٠- الأسباب العشرة للمغفرة عند ابن تيمية:

وقد جمع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذه الوسائل (الأسباب) بشكل منظم تشتد الحاجة إلى معرفته، لذلك رأينا أن نقدمها فيما يلي - مشذبة ومختصرة بقدر ما تمس الحاجة إليه - مع المحافظة على عبارة شيخ الإسلام كما هي:

قال ابن تيمية رحمه الله: «وأيضاً قد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب:

٦٦١- السبب الأول: التوبة:

... وهذا متفق عليه بين المسلمين، قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الشورى: ٢٥]، وأمثال ذلك»[٦٨٩]. وما دمنا نتكلم عن (تائب) مارس التوبة

(٦٨٩) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٨٧ - ٤٨٨.

فعلاً، فالذي يخصه من هذه الفقرة هو تجديد التوبة وتصحيحها وتعميق صدقها وإخلاصها وشمولها.

٦٦٢- السبب الثاني: الاستغفار:

كما في الصحيحين عن النبي [ﷺ] أنه قال: (أذنب عبد ذنباً فقال: أي رب أذنبت ذنباً فاغفر لي، فقال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم أذنب ذنباً آخر فقال: أي رب أذنبت ذنباً آخر فاغفره لي، فقال ربه: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء، قال ذلك في الثالثة أو الرابعة)[٦٩٠]، وفي صحيح مسلم عنه أنه قال: (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم)[٦٩١].

وقد يقال على هذا الوجه: الاستغفار هو مع التوبة كما جاء في حديث (ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم مائة مرة).

وقد يقال بل الاستغفار بدون التوبة ممكن واقع، وبسط هذا له موضع آخر، فإن هذا الاستغفار إذا كان مع التوبة مما يحكم به عام في كل تائب، وإن لم يكن مع التوبة فيكون في حق بعض المستغفرين الذين قد يحصل لهم عند الاستغفار من الخشية والإنابة ما يمحو الذنوب كما في حديث البطاقة بأن قول لا إله إلا الله ثقلت بتلك السيئات لما قالها بنوع من الصدق والإخلاص الذي يمحو السيئات، وكما غفر للبغي بسقي الكلب لما حصل في قلبها إذ ذاك من الإيمان، وأمثال ذلك كثير.

٦٦٣- السبب الثالث: الحسنات الماحية:

كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ [هود: ١١٤]، وقال ﷺ: (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر)[٦٩٢]، وقال: (من صام رمضان إيماناً واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)[٦٩٣] وقال: (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له

---

(٦٩٠) متفق عليه: البخاري (٦٩٥٣)، ومسلم (٤٩٥٣).
(٦٩١) أخرجه مسلم (٤٩٣٦)، وأحمد (٧٧٣٦).
(٦٩٢) مسلم (٣٤٢) و(٣٤٤)، وأحمد (٨٨٣٠).
(٦٩٣) متفق عليه: البخاري (٣٧)، ومسلم (١٢٦٨).

ما تقدم من ذنبه)[٦٩٤]، وقال: (من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[*]، وقال: (فتنة الرجل في أهله وماله وولده تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[٦٩٥]، وقال: (من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار حتى فرجه بفرجه)[٦٩٦]، وهذه الأحاديث وأمثالها في الصحاح، وقال: (الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار)[٦٩٧]...

٦٦٤- والسبب الرابع الدافع للعقاب: دعاء المؤمنين للمؤمن:

دعاء المؤمنين للمؤمن، مثل صلاتهم على جنازته، فعن عائشة وأنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: (ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون إلا شفعوا فيه)[٦٩٨]، وعن ابن عباس قال: سمعت رسول الله يقول: (ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله فيه)[٦٩٩] رواهما مسلم، وهذا دعاء له بعد الموت فلا يجوز أن تحمل المغفرة على المؤمن التقي الذي اجتنب الكبائر وكفرت عنه الصغائر وحده، فإن ذلك مغفور له عند المتنازعين، فعلم أن هذا الدعاء من أسباب المغفرة للميت .

٦٦٥- السبب الخامس: ما يعمل للميت من أعمال البر كالصدقة ونحوها:

فإن هذا ينتفع به بنصوص السنة الصحيحة الصريحة، واتفاق الأئمة. وكذلك العتق والحج، بل قد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: (من مات وعليه صيام صام عنه وليه)[٧٠٠]، وثبت مثل ذلك في الصحيح من صوم النذر من وجوه أخرى، ولا يجوز أن يعارض هذا بقوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩]، لوجهين:

---

(٦٩٤) متفق عليه: البخاري (١٧٦٨) و(١٨٧٥)، ومسلم (١٢٦٨).

(*) متفق عليه: البخاري (١٨١٩)، ومسلم (١٣٥٠).

(٦٩٥) متفق عليه: البخاري (٦٥٦٧) و(٣٣٢١)، ومسلم (٥١٥٠).

(٦٩٦) متفق عليه: البخاري (٦٢٢١)، ومسلم (٢٧٧٦).

(٦٩٧) ابن ماجة (٣٩٦٣)و(٤٢٠٠)، وأحمد (١٣٩١٩) و(١٤٧٤٦) و(٢١٠٠٨) و(٢١١١٦).

(٦٩٨) مسلم (١٥٧٦)، والنسائي (١٩٦٤)، وأحمد (١٣٣٠٣) و(٢٢٩٩٧).

(٦٩٩) مسلم (١٥٧٧)، وأبو داود (٢٧٥٦)، وأحمد (٢٣٧٩).

(٧٠٠) متفق عليه: البخاري (١٨١٦)، ومسلم (١٩٣٥).

أحدهما: أنه قد ثبت بالنصوص المتواترة وإجماع سلف الأمة أن المؤمن ينتفع بما ليس من سعيه، كدعاء الملائكة واستغفارهم له، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [غافر: ٧]، ودعاء النبيين والمؤمنين واستغفارهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ ﴾ [التوبة: ٩٩]، وقوله عز وجل: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾ [محمد: ١٩]، وكدعاء المصلين للميت ولمن زاروا قبره من المؤمنين.

الثاني: أن الآية ليست في ظاهرها إلا أنه ليس له إلا سعيه، وهذا حق، فإنه لا يملك ولا يستحق إلا سعي نفسه، وأما سعي غيره فلا يملكه ولا يستحقه، لكن هذا لا يمنع أن ينفعه الله ويرحمه به، كما أنه دائماً يرحم عباده بأسباب خارجة عن مقدورهم، وهو سبحانه بحكمته ورحمته يرحم العباد بأسباب يفعلها العباد، ليثبت أولئك على تلك الأسباب، فيرحم الجميع، كما في الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (ما من رجل يدعو لأخيه بدعوة إلا وكل الله به ملكاً، كلما دعا لأخيه قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل)(٧٠١)، وكما ثبت عنه في الصحيح أنه قال: (من صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان أصغرهما مثل أحد)(٧٠٢)، فهو قد يرحم المصلي على الميت بدعائه له، ويرحم الميت أيضاً بدعاء هذا الحي له .

٦٦٦- السبب السادس: شفاعة النبي ﷺ وغيره في أهل الذنوب يوم القيامة:

كما قد تواترت عنه أحاديث الشفاعة، مثل قوله في الحديث الصحيح (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)(٧٠٣)، وقوله ﷺ : (خيرت بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين

---

(٧٠١) مسلم (٤٩١٢)، وأبو داود (١٣١١)، وأحمد(٢٠٧١٧).

(٧٠٢) مسلم (١٥٧١) و(١٥٧٥) والنسائي (١٩٦٧) وأبو داود (٢٧٥٥)، وابن ماجة (١٥٢٨)، وأحمد (٧٤٤٥).

(٧٠٣) أبو داود (٤١١٤)، وابن ماجة (٤٣٠٠)، وأحمد (١٢٧٤٥).

الشفاعة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكثر، أترونها للمتقين؟ لا، ولكنها للمذنبين المتلوثين الخطائين)[٧٠٤].

٦٦٧- السبب السابع: المصائب التي يكفر الله بها الخطايا في الدنيا:

كما في الصحيحين عنه أنه قال: (ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)[٧٠٥].

٦٦٨- السبب الثامن: ما يحصل في القبر من الفتنة والضغطة والروعة:

فإن هذا مما يكفر به الخطايا.

٦٦٩- السبب التاسع: أهوال يوم القيامة وكربها وشدائدها.

٦٧٠- السبب العاشر: رحمة الله وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد[٧٠٦].

قلت: تلك هي الأسباب العشرة التي استخلصها شيخ الإسلام بصفتها أسباباً أساسية لمغفرة الذنوب ودفع العقاب عليها، وأسباباً للتدارك، بعضها من فعل العبد، وبعضها من فعل الله تعالى به، رحمة به وتمحيصاً له، وتنقية وتصفية لنفسه، وتعريضه لما يكفر عنه الذنوب، ويزيل عنه العقاب.

فليمارس التائب ما هو من فعل العبد، ويدعو الله تعالى أن يختار له من الأسباب الباقية ما فيه الخير والرحمة والعفو والمغفرة ودفع البلاء عن طريق الفضل والمنة والعافية بلا سبب من العبد، فضلاً منه وإحساناً ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ولعل من المناسب أن نضيف سبباً آخر إلى ما تقدم بوصفه وسيلة للتدارك ومغفرة ذنوب مخصوصة معينة تتعلق بما صدر من التائب قبل التوبة من ترك الواجبات الشرعية كالصلاة والصيام وغيرها، فما هي الوسيلة إلى مغفرة هذه الذنوب، وما هي وسيلة التائب لتداركها، هل يجب عليه أن يقضيها؟ وبذلك يكون:

---

(٧٠٤) ابن ماجة (٤٣٠١)، وأحمد (٥١٩٥). ولا ينبغي أن يفهم مما ذكرناه في المتن أن الشفاعة لمن ذكروا في هذا الحديث وحدهم، فإن أحاديث الشفاعة الكثيرة دالة على أنها تنال كل من مات لا يشرك بالله شيئاً من المسلمين، وتنال من قال مثل ما يقول المؤذن ثم دعا بالدعاء المأثور، وغيرهم، كما دلت على ذلك السنن الكثيرة الخاصة بالشفاعة.

(٧٠٥) مسلم (٤٦٧٠)، وأحمد (٧٦٨٤) و(١١٠٢٤) و(١١٣٤٥).

(٧٠٦) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٨٩ وما بعدها.

٦٧١- السبب الحادي عشر: قضاء الفوائت على رأي الجمهور:

والمقصود بها الفوائت بدون عذر شرعي أي ترك الواجبات أو الفرائض كالصلاة والصوم ونحوه. وفيه تفصيل وبخاصة بالنسبة للتائب من ترك الصلاة في السنين السابقة حيث قال جمهور العلماء بأن على التائب أن يقضيها، وقال فقهاء أهل الظاهر وغيرهم: ليس عليه أن يقضيها لأن التوبة تجب ما قبلها، وسنبحث هذا الموضوع مفصلاً عند الكلام عن (التوبة من ترك الواجبات) ونبين أقوال العلماء فيه.

وبهذا تكون وسائل التدارك التي هي من فعل العبد أربعة:

أحدها: التوبة وتصحيحها وتجديدها.

والثاني: الاستغفار، وهو مع التوبة أداتها المساعدة لحصول المغفرة، وعندما يكون مجرداً ومنفرداً عن التوبة يكون دعاء بالمغفرة، والفرق بينه وبين التوبة هو عدم الشعور بالندم أو استحضاره، بينما لا تكون التوبة إلا بالندم.

والثالث: عمل الحسنات الماحية.

والرابع: قضاء الفوائت على رأي الجمهور.

فتلك هي وسائل التدارك، يمارسها التائب ليتدارك ما ضاع من العمر وفات، ويتدارك ذنوب الماضي، وإذا كان (الأول) منها يخص التائب فإن الثلاثة الباقيات تخص كل مسلم وإن كان غير تائب رجاء أن يزيد في حسناته ويدفع عن نفسه رجحان كفة السيئات في ميزان يوم القيامة، وهي مقبولة منه وإن لم يكن تائباً، لقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨] أي: يراه في صحيفة أعماله وفي الميزان عند وزن الأعمال يوم القيامة، فإن الوصية بممارسة هذه الوسائل والأعمال المنجية جاءت عامة للمسلمين بذلك .

٦٧٢- قول ابن تيمية في عمل الحسنات الماحية:

وقال شيخ الإسلام في موضع آخر بشأن (عمل الحسنات الماحية) «...ثم قال [يعني في الحديث الشريف]: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها)[٧٠٧]، فإن الطبيب متى تناول

---

(٧٠٧) أخرجه الترمذي (١٩١٠) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٢٠٣٩٢) و(٢٠٤٣٥)، والدارمي (٢٦٧١).

المريض شيئاً مضراً، أمره بما يصلحه، والذنب للعبد كأنه أمر حتم، فالكيس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات... وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات فإنه أبلغ في المحو»(٧٠٨).

٦٧٣- نماذج من اختيار الحسنات الماحية حسب جسامة الذنب ونوعه:

قد ذكرنا أثر الحسنات الماحية في محو الذنوب وغفرانها أثناء الكلام في السبب الثالث من أسباب المغفرة ودفع العقاب قبل قليل - فارجع إليه إن شئت - ومنها الصدقة فإنها (تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار)(٧٠٩) كما جاء في الحديث الشريف، ولكننا نذكر هنا نموذجين اثنين لعمل الحسنات الماحية للذنوب الكبيرة على سبيل التمثيل لا الحصر.

٦٧٤- أثر بر الوالدين في محو الذنوب الكبيرة:

جاء في «شعب الإيمان» بشأن اختيار نوع الحسنات الماحية حسب جسامة الذنب ونوعه: «عن عطاء بن يسار أنه كان جالساً عند ابن عباس، إذ أتاه أعرابي فقال: إني خطبت امرأة، فخطبها غيري، فتزوجته وتركتني، فغدوت عليه فقتلته، فهل لي من توبة؟ فقال: ألك والدان حيان أو أحدهما؟ قال: لا، قال: تقرب إلى الله عز وجل بما قدرت عليه، فقلنا له بعد ما خرج، فقال: لو كان حيين أبواه أو أحدهما رجوت له، أنه ليس شيء أحط للذنوب من بر الوالدين»(٧١٠).

٦٧٥- الشهادة في سبيل الله من أعظم الحسنات الماحية:

وروى أيضاً - بسنده - عن شهر بن حوشب، أن أعرابياً أتى أبا ذر، فقال: «يا أبا ذر إنه قتل حاج بيت الله ظالماً، فهل له من مخرج؟ فقال له أبو ذر: ويحك أحي والداك؟ قال: لا، قال: فأحدهما؟ قال: لا، قال: لو كانا حيين أو أحدهما لرجوت لك، وما أجد لك مخرجاً إلا في إحدى ثلاث، فقال: لله الحمد، وما هن؟ قال هل تستطيع أن تحييه كما قتلته؟ قال: لا والله ما أستطيع أن أحييه، قال: فهل تستطيع أن لا تموت؟ قال لا والله ما من الموت بد، فما الثالثة؟ قال: هل تستطيع أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء؟،

---

(٧٠٨) ابن تيمية: الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ٨٧.

(٧٠٩) ابن ماجة (٣٩٦٣)و(٤٢٠٠)، وأحمد (١٣٩١٩) و(١٤٧٤٦) و(٢١٠٠٨) و(٢١١١٦)

(٧١٠) البيهقي: شعب الإيمان ج: ٦ ص: ٢٠٥.

فقام الرجل وله صراخ، فلقيه أبو هريرة فحسب أنه رجل مات له حميم، فقال: يا عبد الله عليك بالصبر، قال: ومن أنت؟ قال: أبو هريرة، قال: إنه قتل حاج بيت الله ظالماً فهل له من توبة؟ قال: ويحك أحيان والداك؟ قال: لا، قال: لو كانا حيين أو أحدهما رجوت لك، ولكن اغز في سبيل الله وتعرض للشهادة»[711].

ومما تقدم يتبين أن من أعظم الحسنات الماحية للذنوب التي يتدارك بها المسلم ما صدر منه من ذنوب في الماضي: بر الوالدين والشهادة في سبيل الله لأن الشهيد يغفر له جميع ذنوبه بأول قطرة من دمه[712]، وسبب ذلك أنه جاد بنفسه وهي أعز وأغلى ما يملك لله تعالى محبة له وخدمة لدينه وإعلاء لكلمته حيث باع نفسه لله، والله اشتراها منه كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ [التوبة: ١١١]، وحيث قد جاد بنفسه لله وهذا منتهى الكرم كان الله تعالى أكرم منه فأعادها له أوفر ما كانت، فأعاده حيا في الجنة ساعة موته، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠].

تلك هي الأسباب العشرة، أو الأحد عشر إذا أضفنا إليها (قضاء الفوائت)، والتي سميناها وسائل التدارك، بعضها من فعل العبد يتدارك بها الماضي، وبعضها ليست من فعله بل من رحمة الله به، وكلها تسهم في مغفرة الذنوب ودفع العقاب، والتائب أحوج ما يكون إليها لتسهم مع التوبة في تدارك الماضي.

والآن وقد انتهينا من الكلام في الباعث على التوبة وما تفرع عنه من الكلام عن اليقظة ونتائجها كإرادة تدارك الماضي وتعمير الباقي في طاعة الله، نتحول إلى الكلام عن

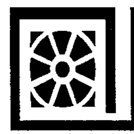
---

(٧١١) البيهقي: شعب الإيمان ج: ٦ ص:٢٠٥-٢٠٦.

(٧١٢) رواه أحمد في مسنده (١٧١١٥)، ونصه: حدثنا زيد بن يحيى الدمشقي قال حدثنا ابن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن كثير بن مرة عن قيس الجذامي رجل كانت له صحبة قال: قال النبي ﷺ: (يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: يكفر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويؤمن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلى حلة الإيمان).

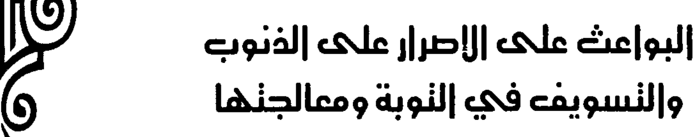
البواعث على الإصرار والتسويف، وهي الآفات المانعة من التوبة لكي يتم تشخيصها وتجنبها، وهي موضوع الفصل الثاني القادم إن شاء الله تعالى.

وبهذا ينتهي الكلام في الفصل الأول من هذا الباب تناولنا فيه الباعث على التوبة ونتائجه ووسائل التدارك، لنبدأ الكلام في «البواعث على الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة» وهو موضوع الفصل الثاني القادم إن شاء الله تعالى.









وفيه تمهيد ومبحثان:

- تمهيد: في بيان القرآن الكريم لدواعي الإصرار والتسويف وآثارهما.
- المبحث الأول: بيان حقيقة الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة وأحكامهما.
- المبحث الثاني: الأسباب الداعية للإصرار والتسويف ومعالجتها.










الفصل الثاني

البواعث على الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة

(الآفات المانعة من التوبة)

٦٧٦- تقسيم وتمهيد:

يتألف هذا الفصل من مبحثين، نتناول في الأول منهما بيان حقيقة الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة وأقوال العلماء فيهما وأحكامهما، ثم نبحث في المبحث الثاني الأسباب الداعية للإصرار على الذنوب وكيفية معالجتها وتجنبها.

ونرى أن من المفيد أن نمهد لذلك ببيان ما جاء في القران الكريم من تشخيص لدواعي الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة وأقوال المفسرين في ذلك:

٦٧٧- تمهيد: في بيان القرآن لدواعي الإصرار والتسويف وآثارهما:

قد ذكر القرآن الكريم الأسباب التي تصرف مرتكبي الذنوب عن التوبة وتحول بينهم وبينها وتجعلهم ضحية للشيطان الذي ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠] حتى يخطفهم الموت. ذكر القرآن أهم تلك الأسباب بمناسبة الكلام على تقسيم الأنوار قبل الصراط حيث يعطى المؤمنون أنوارهم ليعبروا بها الصراط، وتحجب الأنوار عن المنافقين والمنافقات، فيطلبون النور من المؤمنين والمؤمنات فيقال لهم ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]، وهو توبيخ وتعجيز، ثم يتساءل هؤلاء عن سبب ما آلو إليه من حجب الأنوار وما سيتبعه من دخول النار ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [الحديد:١٤] في الدنيا، نصلي كما تصلون، ونصوم كما تصومون، فيجيبهم المؤمنون مبينين الأسباب التي آلت بهم إلى هذا المصير ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤]، وكل هذه الأسباب تدور حول فتنتنهم

أنفسهم بارتكاب الذنوب حباً للدنيا والشهوات، والإقامة عليها من غير توبة وهو الإصرار والتسويف، والشك في الدين، والاغترار بالأماني وطول الأمل، والاستجابة لتزيين الشيطان لكل ذلك. وتلك كلها أسباب صارفة عن التوبة حتى يجيء الموت.

٦٧٨- تفسير المقطع من القرآن الذي يبين دواعي الإصرار والتسويف المانعة من التوبة:

وبناء على ما تقدم فقد رأينا أن من المناسب إيراد ما جاء في تفسير القرطبي - والتفاسير الأخرى مماثلة أو مقاربة من حيث المعنى -[٧١٣] بشأن تفسير الآيات الخاصة بذلك، نورده مشذباً مع المحافظة على عبارته، تمهيداً للدخول بعد ذلك في بيان كل آفة من هذه الآفات الصارفة عن التوبة والداعية إلى الإصرار والتسويف في موضوع مستقل.

٦٧٩- تدبر الآيات قبل الدخول في تفسيرها:

فتأمل هذه الآيات قبل الدخول في تفسيرها: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحديد: ١٢-١٥].

٦٨٠- تفسير القرطبي للآيات المذكورة:

قال القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات)، العامل في يوم (وله أجر كريم) [الوارد في آية سابقة وهي قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد: ١١]]، وفي الكلام حذف، أي وله أجر كريم في يوم ترى فيه (المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم): أي يمضي على الصراط في قول الحسن،

---

(٧١٣) انظر: القرطبي: ج:١٧ ص:٢٤٧، وابن كثير: ج:٤ ص: ٣١٠، وفتح القدير: ج:٥ ص:١٧٠، والنسفي: ج:٤ ص:٢١٧، وروح المعاني: ج: ٢٧ ص:١٧٨، وزاد المسير: ج:٨ ص:١٦٧ .

وهو الضياء الذي يمرون فيه، (بين أيديهم): أي قدامهم، (وبأيمانهم) قال الفراء: الباء بمعنى في، أي في أيمانهم، أو بمعنى عن أي عن أيمانهم، وقال الضحاك: نورهم هداهم وبأيمانهم كتبهم، واختاره الطبري، أي يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم وفي أيمانهم كتب أعمالهم...

وقيل: أراد بالنور القرآن، وعن ابن مسعود: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره على إبهام رجله فيطفأ مرة ويوقد أخرى. وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: (إن من المؤمنين من يضيء نوره كما بين المدينة وعدن أو ما بين المدينة وصنعاء ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه)[٧١٤]. قال الحسن: ليستضيئوا به على الصراط، كما تقدم، وقال مقاتل: ليكون دليلاً لهم إلى الجنة، والله أعلم.

قوله تعالى: (بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار)، التقدير: يقال لهم بشراكم اليوم دخول جنات... (تجري من تحتها الأنهار): أي من تحتهم أنهار اللبن والماء والخمر والعسل من تحت مساكنها. (خالدين فيها)... (ذلك هو الفوز العظيم)...

قوله تعالى: (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا)، العامل في يوم: ذلك هو الفوز العظيم، وقيل: هو بدل من اليوم الأول. (انظرونا نقتبس) قراءة العامة بوصل الألف مضمومة الظاء من نظر، والنظر: الانتظار، أي انتظرونا، وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثاب: أنظرونا بقطع الألف وكسر الظاء من الإنظار، أي أمهلونا وأخرونا، وقال الفراء تقول العرب: أنظرني: انتظرني، وأنشد لعمرو بن كلثوم:

---

(٧١٤) قال ابن كثير (تفسير ابن كثير ج: ١ ص: ٥٦) بشأن هذا الحديث: «رواه ابن جرير، ورواه ابن أبي حاتم من حديث عمران بن داوّر القطان عن قتادة بنحوه، وهذا كما قال المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره... وأدناهم نوراً على إبهامه يطفأ مرة ويقد مرة، وهكذا رواه ابن جرير عن ابن مثنى عن ابن إدريس عن أبيه عن المنهال وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن علي بن محمد الطنافسي حدثنا ابن إدريس سمعت أبي يذكر عن المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨] قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ أخرى» (وانظر أيضاً: تفسير الطبري: ١٧/ ٢٤٤).

أبـــا هنـــد فـــلا تعجـــل علينـــا وأنظرنـــــا نخـــــبرك اليقينـــــا

أي انتظرونا: (نقتبس من نوركم) أي نستضيء من نوركم، قال ابن عباس وأبو أمامة: يغشى الناس يوم القيامة ظلمة، قال الماوردي: أظنها بعد فصل القضاء، ثم يعطون نوراً يمشون به... وقال أبو أمامة: يعطى المؤمن النور ويترك الكافر والمنافق بلا نور، وقال الكلبي: بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور فبينما هم يمشون، بعث الله فيهم ريحاً وظلمة فأطفأ بذلك نور المنافقين، فذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] يقوله المؤمنون خشية أن يسلبوه كما سلبه المنافقون، فإذا بقي المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواقع أقدامهم، قالوا للمؤمنين: (انظرونا نقتبس من نوركم). (قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً) أي قالت لهم الملائكة: ارجعوا، وقيل: بل هو قول المؤمنين لهم ارجعوا وراءكم إلى الموضع الذي أخذنا منه النور، فاطلبوا هنالك لأنفسكم نوراً، فإنكم لا تقتبسون من نورنا، فلما رجعوا وانعزلوا في طلب النور (فضرب بينهم بسور له باب). وقيل: أي هلا طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا. (بسور): ..السور: حاجز بين الجنة والنار...، (باطنه فيه الرحمة)، يعني: ما يلي منه المؤمنين، (وظاهره من قبله العذاب)، يعني: ما يلي المنافقين... وقال قتادة: هو حائط بين الجنة والنار (باطنه فيه الرحمة) يعني الجنة، (وظاهره من قبله العذاب) يعني جهنم...

قوله تعالى: (ينادونهم)، أي ينادي المنافقون المؤمنين، (ألم نكن معكم) في الدنيا، يعني: نصلي مثل ما تصلون، ونغزو مثل ما تغزون، ونفعل مثل ما تفعلون، (قالوا بلى)، أي يقول المؤمنون: بلى قد كنتم معنا في الظاهر، (ولكنكم فتنتم أنفسكم)، أي استعملتموها في الفتنة، وقال مجاهد: أهلكتموها بالنفاق، وقيل: بالمعاصي قاله أبو سنان، وقيل: بالشهوات واللذات،... (وتربصتم) أي تربصتم بالنبي ﷺ الموت، وبالمؤمنين الدوائر، وقيل: تربصتم بالتوبة. (وارتبتم)، أي شككتم في التوحيد والنبوة، (وغرتكم الأماني) أي الأباطيل، وقيل: طول الأمل، وقيل: هو ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين ونزول الدوائر بهم، وقال قتادة: الأماني هنا خدع الشيطان، وقيل: الدنيا قاله عبد الله بن عباس، وقال أبو سنان: هو قولهم سيغفر لنا، وقال بلال بن سعد: ذكرك حسناتك ونسيانك سيئاتك غرة. (حتى جاء أمر الله) يعني الموت، وقيل : نصرة نبيه ﷺ، وقال قتادة: إلقاؤهم في النار. (وغركم): أي خدعكم، (بالله الغرور) أي الشيطان قاله عكرمة، وقيل: الدنيا قاله الضحاك، وقال بعض العلماء : إن

للباقي بالماضي معتبراً وللآخر بالأول مزدجراً، والسعيد مَن لا يغتر بالطمع، ولا يركن إلى الخدع، ومن ذكر المنية نسي الأمنية، ومن أطال الأمل نسي العمل وغفل عن الأجل. وجاء الغرور على لفظ المبالغة للكثرة... وعن ابن عباس : (أن نبي الله ﷺ خط لنا خطوطاً، وخط منها خطا ناحية، فقال أتدرون ما هذا؟ هذا مثل ابن آدم ومثل التمني، وتلك الخطوط الآمال، بينما يتمنى إذ جاءه الموت)[٧١٥]. وعن ابن مسعود قال : (خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مربعاً، وخط وسطه خطاً وجعله خارجاً منه، وخط عن يمينه ويساره خطوطاً صغاراً، فقال: هذا ابن آدم، وهذا أجله محيط به، وهذا أمله قد جاوز أجله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا)[٧١٦].

قوله تعالى: (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية) أيها المنافقون (ولا من الذين كفروا) أيأسهم من النجاة...أي لا يقبل منكم بدل ولا عوض ولا نفس أخرى، (مأواكم النار) أي مقامكم ومنزلكم، (هي مولاكم) أي أولى بكم، والمولى: من يتولى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن كان ملازماً للشيء. وقيل: أي النار تملك أمرهم، بمعنى أن الله تبارك وتعالى يركب فيها الحياة والعقل فهي تتميز غيظاً على الكفار، ولهذا خوطبت في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، (وبئس المصير) أي ساءت مرجعا ومصيرا»[٧١٧].

٦٨١- تقسيم الفصل إلى مبحثين:

وبعد هذا التمهيد في بيان القرآن لدواعي الإصرار والتسويف وآثارهما نتناول دراسة هذا الفصل في مبحثين.

---

(٧١٥) أما عن ابن عباس فلم أجد من عزا هذا الحديث إليه غير القرطبي، وبنحو اللفظ المذكور أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى) ٣/ ٣٦٨ (٦٢٩٧) من حديث أنس بن مالك، وقال: رواه البخاري في الصحيح عن مسلم بن إبراهيم، وذلك برقم (٦٤١٨) مختصراً

(٧١٦) البخاري (٦٤١٧)، والترمذي (٢٤٥٤)، وابن ماجة (٤٢٣١)، وأحمد(٣٤٧٠)، والدارمي (٢٦١٣).

(٧١٧) تفسير القرطبي ج: ١٧ ص: ٢٤٣ - ٢٤٨.

نخصص المبحث الأول منها: لبيان حقيقة الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة وأقوال العلماء فيهما وأحكامهما.

ونتناول في المبحث الثاني: بيان الأسباب الباعثة على الإصرار على الذنوب وكيفية معالجتها.

المبحث الأول
الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة وأحكامهما

٦٨٢- تمهيد وتقسيم:

الكلام في الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة يقتضي تقسيم الموضوع إلى مطلبين:

نبحث في المطلب الأول: التعريف بحقيقة الإصرار والتسويف وأحكامهما، ونتناول في المطلب الثاني: بيان علاقة الإصرار والتسويف بالتوبة من قريب وآثارهما على التوبة، وذلك على النحو الآتي:

المطلب الأول
التعريف بالإصرار وبالتسويف وبيان حكمهما

٦٨٣- أولاً - مفهوم الإصرار عند العلماء:

يدور كلام العلماء والمفسرين في بيان مفهوم الإصرار حول تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ [آل عمران: ١٣٥] الذي ورد لبيان توبة الله تعالى على الذين فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم بارتكاب الذنوب ثم ذكروا العرض على الله يوم القيامة، وأنه سائلهم عنها، فاستغفروا لذنوبهم نادمين، (ولم يصروا) عليها، فكان ذلك توبة منهم مقبولة، فألحقهم الله تعالى بالمتقين، وجعل جزاءهم جنات النعيم، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٥-١٣٦]، فأوجب عليهم مع الندم ألا يصروا على ما فعلوا، شرطا لقبول توبتهم.

٦٨٤- الإصرار ينافي التوبة:

ويفهم من هذا أن الإصرار ينافي التوبة، فالتائب لا يصر على ذنبه، والمصر على ذنبه ليس تائباً وإن استغفر الله.

٦٨٥- للإصرار معنيان:

والإصرار على ما يفهم من أقوال العلماء والمفسرين يدور حول معنيين، كل منهما منفرداً يعني الإصرار:

١- الإقامة على الذنب من غير توبة

٢- العزم على معاودة الذنب

وحول هذين المعنيين دارت أقوال العلماء:

٦٨٦- تعريف العلماء للإصرار:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الإصرار: هو العزم على العود»[٧١٨].

وقال ابن القيم: «الإصرار: عقد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به»[٧١٩].

وقال في موضع آخر: «الإصرار هو الاستقرار على المخالفة، والعزم على المعاودة.

وذلك ذنب آخر لعله أعظم من الذنب الأول بكثير، وهذا من عقوبة الذنب، أنه يوجب ذنباً أكبر منه، ثم الثاني كذلك، ثم الثالث كذلك، حتى يستحكم الهلاك.

فالإصرار على المعصية معصية أخرى، والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضاً بها وطمأنينة إليها، وذلك علامة الهلاك، وأشد من هذا كله المجاهرة بالذنب مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه، فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم، وإن لم يؤمن بنظره إليه واطلاعه عليه فكفر وانسلاخ من الإسلام بالكلية، فهو دائر بين الأمرين، بين قلة الحياء ومجاهرة نظر الله إليه، وبين الكفر والانسلاخ من الدين، فلذلك يشترط في صحة التوبة تيقنه أن الله كان ناظراً ولا يزال إليه، مطلعاً عليه، يراه جهرة عند مواقعة الذنب، لأن التوبة لا تصح إلا من مسلم، إلا أن يكون كافراً بنظر الله إليه جاحداً له، فتوبته دخوله في الإسلام وإقراره بصفات الرب جل جلاله»[٧٢٠].

---

(٧١٨) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٦٢.

(٧١٩) ابن القيم: مدارج السالكين: ج:١ ص:٢٨١.

(٧٢٠) ابن القيم: مدارج السالكين: ج:١ ص:١٨١.

وجاء في «التعريفات»: «الإصرار: الإقامة على الذنب والعزم على فعل مثله»[٧٢١].

وجاء في «زاد المسير»: «فأما الإصرار فقال الزجاج: هو الإقامة على الشيء، وقال ابن فارس: هو العزم على الشيء والثبات عليه، وللمفسرين في المراد بالإصرار ثلاثة أقوال: أحدها: أنه مواقعة الذنب عند الاهتمام به وهذا مذهب مجاهد. والثاني: أنه الثبوت عليه من غير استغفار وهذا مذهب قتادة وابن إسحاق. والثالث: أنه ترك الاستغفار منه وهذا مذهب السدي»[٧٢٢].

«وفي معنى (وهم يعلمون) ثلاثة أقوال: أحدها: وهم يعلمون أن الإصرار يضر وأن تركه أولى من التمادي قاله ابن عباس والحسن، والثاني: يعلمون أن الله يتوب على من تاب قاله مجاهد وأبو عمارة، والثالث: يعلمون أنهم قد أذنبوا قاله السدي ومقاتل»[٧٢٣].

٦٨٧- ثانياً - التعريف بالتسويف وبيان خطره وحكمه:

٦٨٨- التعريف بالتسويف:

التسويف في التوبة هو تأجيلها وعدم المبادرة إليها فوراً وذلك بأن يحدث نفسه بأن يتوب في المستقبل، أي أنه لا ينكر ضرورة التوبة ولكنه يؤجلها حيناً بعد حين قائلاً في نفسه: سوف أتوب، فيبقى من المخلطين الآن آملاً أن يتوب في المستقبل، ومعنى ذلك أنه مقيم على الذنوب في الوقت الحاضر مصر عليها، ولذلك فإن التسويف له نفس خصائص الإصرار والإقامة المستمرة على الذنب. أي استصحاب الذنب.

٦٨٩- حكم التسويف:

وإذا علمنا أن حقيقة الإصرار: هي الإقامة على الذنب من غير توبة، أو العزم على معاودة الذنب، فإن هذه الحقيقة متوافرة في التسويف، فيكون حكم التسويف هو نفس حكم الإصرار، فإذا جاء الموت وخطف صاحب التسويف، خطفه مصراً على الذنب غير تائب منه، فيكون حاله حال المخلطين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وليس حال التائبين، شأنه في ذلك شأن من يموت مصراً على الذنب من غير توبة.

---

(٧٢١) التعريفات: ج١: ص: ٤٤.

(٧٢٢) زاد المسير ج: ١ ص: ٤٦٣.

(٧٢٣) زاد المسير ج: ١ ص: ٤٦٣.

٦٩٠- أخطار التسويف وأضراره:

والتسويف بضاعة المفلسين يخدرون بها أنفسهم تحت تخدير: (سين، وسوف، ولعل، وعسى) أو يخدرهم الشيطان بالوسوسة بها، مفضلاً إياها لأنها وسيلة فعالة للخداع، لأن التسويف يتضمن نية التوبة في المستقبل واعترافاً بأهمية التوبة وضرورتها، فيكون أكثر قبولاً عند الإنسان من الإصرار المجرد عن نية التوبة في المستقبل، ولذلك يلجأ إليها الشيطان كثيراً، ويقنع بها كثيراً من الخلق خداعاً، وضحاياه من أهل التسويف كثيرون.

٦٩١- التسويف يراكم الذنوب على القلب وقد يخطفه الموت قبل التوبة التي يُمَنِّي نفسه بها:

فبوجود التسويف تتراكم الذنوب على القلب حتى يعلوه الرين ﴿ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]، وقد يخطفه الموت قبل التوبة الموعودة فيكون قد حرم نفسه من التوبة وذهب إلى الله محملاً بأوزاره وذنوبه، وهذه الحال هي نفسها حال المصرين.

٦٩٢- قول الإمام الغزالي في خطر التسويف:

قال الإمام الغزالي مبيناً خطر التسويف: «ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين:

أحدهما: أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً، وطبعاً، فلا يقبل المحو.

الثاني: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو...فما هلك من هلك إلا بالتسويف، فيكون تسويده القلب نقداً وجلاؤه بالطاعة نسيئة، إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم.

فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده، والعمر أمانة الله عنده، وكذا سائر أسباب الطاعة، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر، قال بعض العارفين: إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام، أحدهما: إذا خرج من بطن أمه يقول له: عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلي كيف تلقاني، والثاني: عند خروج روحه يقول: عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك، هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة

والعقاب، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وبقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨] »[٧٢٤].

٦٩٣- التسويف داخل ضمن دائرة الإصرار:

وعلى ذلك فإن التسويف في التوبة يجعل صاحبه باقياً في دائرة الإصرار، ولذلك كان الكلام على الإصرار وبيان أحكامه وأسبابه وآثاره كلاماً على التسويف نفسه إذ الإصرار شامل للتسويف.

٦٩٤- ثالثاً - مدة الإصرار وحكمه:

٦٩٥- مدة الإصرار تزيد وتنقص، ويزيد الإثم وينقص تبعاً لذلك:

قد يرتكب العبد الذنب ثم يقيم غير تائب منه ولا مستغفر مدة شهر ثم يتوب ويستغفر، فهذا مدة إصراره شهر، وقد تكون المدة سنة، وقد تكون سنين طويلة، ويزداد الإثم بزيادة المدة، وذلك مؤثر في مدة العقاب يوم القيامة، إلا أن يعفو الله تعالى، قال الغزالي: «وتكون كثرة العقاب [في الآخرة] من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار، ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر، ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات»[٧٢٥].

ولذلك قال العلماء: (تأخير التوبة) ذنب يجب التوبة منه. وهو ذنب يزيد وينقص، يزيد بطول مدة الإصرار ولو من دون معاودة الذنب ولكن لانتفاء التوبة والاستغفار أو لوجود العزم على المعاودة، وينقص بتعجيل التوبة.

٦٩٦- حكم الإصرار شرعا:

الإصرار على الذنوب والإقامة عليها من غير توبة حرام ثبتت حرمته بالكتاب والسنة والإجماع وهو يشكل ذنبين اثنين: الأول: الذنب نفسه، والثاني: ترك التوبة عنه أو تأخيرها مع أنها واجبة وعلى الفور.

---

(٧٢٤) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ١٢.

(٧٢٥) الغزالي: إحياء علوم الدين: ج: ٤ ص: ٢٨.

ولكن إذا لم يتب العبد، وبقي مصراً على المعصية، أو تاب من ذنب وبقي مصراً على ذنوب أخرى غير تائب منها، وقام بالاستغفار من ذنوبه ولكن من غير توبة وإنما هو استغفار مجرد، فما حكم هذا الاستغفار؟ هذا ما نبينه في الفقرة التالية:

٦٩٧- رابعاً - الإصرار يضاد التوبة ولا يضاد الاستغفار:

قد بان لك أن الاستغفار مع الندم توبة، والاستغفار من غير ندم ومن غير تذكر ذنب يستغفر عنه أو مع تذكره هو في حقيقته دعاء بطلب المغفرة من الله تعالى، بمعنى أنه نوع من أنواع الدعاء.

وقد قلنا سابقاً إن الاستغفار المجرد عن التوبة يأخذ حكم الدعاء، وإنه ليس توبة معلولة لأنه ليس توبة أصلاً، كما أنه ليس توبة الكذابين كما قد يفهم من ظاهر عبارات بعض السلف من أن الاستغفار مع الإصرار على الذنب توبة الكذابين، فإن هذا معناه أنه كاذب إذا ادعى أن هذا الاستغفار يساوي التوبة، أو أنه تائب بهذا الاستغفار، فتوبته المزعومة هذه توبة الكذابين فعلاً، وكلامنا ليس فيها، وإنما كلامنا في الاستغفار المجرد بنية الاستغفار باعتباره نوعاً من الذكر والعبادة يتضمن طلب المغفرة من الله تعالى لا بنية التوبة، ومن هذا يتبين أن إصراره على الذنب لا يضاد الاستغفار منه، ولكنه يضاد التوبة، لأنه لا توبة مع الإصرار على الذنب، فمثلما يسبح، ويحمد، ويهلل، ويكبر، فله أن يستغفر بل هو أحوج إلى الاستغفار من غيره.

والاستغفار من العاصي نوع من العبادة ونوع من عمل الحسنات الماحية، وقد يحصل له من الخشوع ما يمحو الله به خطيئته فينفعه الله بهذا الاستغفار، وأقل ما فيه أن هذا العبد العاصي علم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، وأنه خائف من الله بقدر ما، ولذلك طلب المغفرة، وأنه شغل قلبه ولسانه بالذكر عن الاشتغال بمباح أو مكروه أو حرام. فكيف لا ينفعه هذا الاستغفار وهذا حال كل مسلم؟ فما من مسلم إلا وله ذنوب عليه أن يتوب منها، وقد تتجدد له ذنوب لا يعلمها، فإن لم تساعده نفسه على التوبة فعليه بعمل الحسنات الماحية والاستغفار واحد منها أو هو أحد أسباب المغفرة المستقلة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقول من قال من العلماء الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين فهذا إذا كان يقوله على وجه التوبة، أو يدعي أن استغفاره توبة وأنه تائب

بهذا الاستغفار، فلا ريب أنه مع الإصرار لا يكون تائباً، فإن التوبة والإصرار ضدان، الإصرار يضاد التوبة لكن لا يضاد الاستغفار بدون التوبة»[٧٢٦].

٦٩٨- خامساً - تأخير التوبة ذنب يجب التوبة منه:

وأساس ذلك أن التوبة واجبة على الفور لا على التراخي، ومن ثم كان تأخيرها ذنباً إضافياً يجب التوبة منه. ووجوب تعجيل التوبة، وأنها على الفور، ثابت بالكتاب والسنة والإجماع.

جاء في الموسوعة الفقهية: «تجب التوبة على كل مكلف على الفور عقيب الذنب. وقد دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء:١٧]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، ونقل القرطبي وغيره الإجماع على وجوب تعجيل التوبة، وأنها على الفور»[٧٢٧].

٦٩٩- التوبة عن مدة الإصرار:

وبناء على ذلك كان تأخير التوبة ذنب يجب التوبة منه بعد أن يتوب عن الذنب نفسه، وهي توبة عن مدة الإصرار، وقد ذكر ابن القيم أن قلة من الناس من ينتبهون إلى أن عليهم توبة عن مدة تأخير التوبة، وذكر كيفية معالجة ذلك.

٧٠٠- أقوال العلماء في التوبة عن مدة الإصرار إضافة إلى التوبة من الذنب:

قال ابن القيم: «إن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة، وقل أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة.

---

(٧٢٦) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٥٢.

(٧٢٧) الموسوعة الفقهية الكويتية: ج: ١٢ص:٢٢١-٢٢٢.

ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم، فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكناً من العلم، فإنه عاص بترك العلم والعمل، فالمعصية في حقه أشد، وفي صحيح ابن حبان أن النبي [ﷺ] قال: (الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل فقال أبو بكر فكيف الخلاص منه يا رسول الله؟ قال: أن تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم)[٧٢٨]، فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب ولا يعلمه العبد، وفي الصحيح عنه [ﷺ] أنه كان يدعو في صلاته: (اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطأي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت)[٧٢٩] وفي الحديث الآخر: (اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، خطأه وعمده، سره وعلانيته، أوله وآخره)[٧٣٠]، فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتي التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه»[٧٣١].

وبين الهيتمي في كتاب الزواجر: أن ترك التوبة من الكبيرة كبيرة، ويفهم من كلامه أن ذلك لأن التوبة من الكبيرة واجبة عينا فوراً بالكتاب والسنة والإجماع فيكون ترك هذا الواجب من الكبائر أيضا، ثم قال: «قال القاضي الباقلاني: وتجب التوبة من تأخير التوبة. وأما التوبة من الصغيرة فواجبة عيناً فوراً أيضاً كما في الكبيرة قاله الشيخ أبو الحسن الأشعري»[٧٣٢].

ويرتبط موضوع النهي عن تأخير التوبة والنهي عن البقاء على حالة الإصرار بموضوع التوبة من قريب الواردة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [النساء: ١٧] فما معنى: (ثم يتوبون من قريب)؟ وما علاقة ذلك بالإصرار؟ ذلك هو موضوع المطلب الثاني القادم إن شاء الله تعالى.

---

(٧٢٨) أحمد(١٨٧٨١)، ومجمع الزوائد: ١٠/ ٢٢٤، والمعجم الأوسط: ٤/ ١٠.
(٧٢٩) متفق عليه: البخاري (٥٩١٩) و(٥٩٢٠)، ومسلم (٤٨٩٦).
(٧٣٠) مسلم:(٧٤٥)، وأبو داود (٧٤٤).
(٧٣١) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٢٧٢- ٢٧٣.
(٧٣٢) الهيتمي: الزواجر ج:٤ ص:٣٥٩ وما بعدها .

المطلب الثاني
علاقة الإصرار بالتوبة من قريب

٧٠١- تمهيد: معنى التوبة من قريب واختلاف العلماء فيه:

اختلفت أقوال العلماء والمفسرين في معنى التوبة من قريب الوارد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧] بسبب ما ورد من أقوال السلف في تفسير حديث النبي ﷺ: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[٧٣٣].

حيث قال جمهور السلف: كل من تاب قبل الغرغرة فقد تاب من قريب، وتابعهم في ذلك جمهور المفسرين رحمهم الله تعالى.

ورجح قلة من المفسرين أن معنى التوبة من قريب: هو التوبة في زمن قريب من اقتراف المعصية وأن هذا هو الأصل، وليس التوبة قبل الغرغرة. وأن زمن قبول التوبة يمتد إلى ما قبل الغرغرة لمن فاته الأصل المطلوب وهو التوبة في زمن قريب من اقتراف الذنب.

وسنذكر فيما يلي أقوال المفسرين والعلماء في ذلك، ثم نعقب على ذلك بالرأي الراجح:

٧٠٢- أقوال المفسرين والعلماء في معنى التوبة من قريب:

٧٠٣-١- قول القرطبي وجمهور المفسرين:

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧]، قال ابن عباس والسدي: معناه: قبل المرض والموت. وروى عن الضحاك أنه قال: كل ما كان قبل الموت فهو قريب. وقال أبو مجلز والضحاك أيضاً وعكرمة وابن زيد وغيرهم: قبل المعاينة للملائكة والسوق وأن يغلب المرء على نفسه. ولقد أحسن محمود الوراق حيث قال:

قدم لنفسك توبة مرجوة ... قبل الممات وقبل حبس الألسن

---

(٧٣٣) الترمذي (٣٤٦٠) وقال هذا حديث حسن غريب، وابن ماجة (٤٢٤٣)، وأحمد (٥٨٨٥)، وأيضا (٦١٢٠) و(١٤٩٥٢).

بـــادر بهـــا غلـــق النفـــوس فإنهـــا ذخـــر وغـــنم للمنيـــب المحـــسن

قال علماؤنا رحمهم الله : وإنما صحت التوبة منه في هذا الوقت لأن الرجاء باق ويصح منه الندم والعزم على ترك الفعل. وقد روى الترمذي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)(٧٣٤) قال: هذا حديث حسن غريب، ومعنى ما لم يغرغر: ما لم تبلغ روحه حلقومه فيكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغر به، قاله الهروي.

وقيل: المعنى: يتوبون على قرب عهد من الذنب من غير إصرار، والمبادر في الصحة أفضل وألحق لأمله من العمل الصالح، والبعد كل البعد الموت، كما قال:

وأيـــــن مكـــــان البعـــــد إلا مكانيـــــا

وروى صالح المري عن الحسن قال: (من عير أخاه بذنب قد تاب إلى الله منه ابتلاه الله به)(٧٣٥) وقال الحسن أيضاً: إن إبليس لما هبط قال: بعزتك لا أفارق ابن آدم ما دام الروح في جسده، قال الله تعالى: فبعزتي لا أحجب التوبة عن ابن آدم ما لم تغرغر نفسه)(٧٣٦)..

قوله تعالى: (وليست التوبة) نفى سبحانه أن يدخل في حكم التائبين من حضره الموت وصار في حين اليأس كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان، لأن التوبة في ذلك الوقت لا تنفع، لأنها حال زوال التكليف، وبهذا قال ابن عباس وابن زيد وجمهور المفسرين» (٧٣٧).

ومعظم تفاسير القرآن الكريم(٧٣٨) تنقل هذه الآراء المتعددة نفسها، كلاً أو بعضاً، في معنى قوله تعالى: (ثم يتوبون من قريب).

---

(٧٣٤) أخرجه الترمذي (٣٤٦٠) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤٢٤٣)، وأحمد (٥٨٨٥) و(٦١٢٠).

(٧٣٥) أخرجه الترمذي (٢٤٢٩) وقال: حديث غريب.

(٧٣٦) تفسير القرطبي ٥/ ٩٣.

(٧٣٧) تفسير القرطبي ج: ٥ ص: ٩٢-٩٣.

(٧٣٨) كتفسير ابن كثير: ١/ ٤٦٤، والطبري: ٤/ ٢٩٨، والبيضاوي: ٢/ ١٦٠، والدر المنثور: ٢/ ٤٥٩، وتفسير الصنعاني: ١/ ١٥١، وتفسير أبي السعود: ٢/ ١٥٦، وتفسير الواحدي: ١/ ٢٥٦، وتفسير البغوي: ١/ ٤٠٧، وفتح القدير: ١/ ٤٣٩-٤٤٠، وتفسير النسفي: ١/ ٢١١، وروح المعاني: ٤/ ٢٣٨.

وقد لخص معنى التوبة من قريب صاحب زاد المسير على النحو الآتي:

«وفي القريب [في قوله تعالى: (ثم يتوبون من قريب)] ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه التوبة في الصحة. رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال السدي وابن السائب.

والثاني: أنه التوبة قبل معاينة ملك الموت. رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال أبو مجلز.

والثالث: أنه التوبة قبل الموت. وبه قال ابن زيد في آخرين»[٧٣٩].

والحق أن هنالك قولاً رابعاً ذكره أيضاً القرطبي - وقد نقلنا مقطعاً من تفسيره قبل قليل- وذكره معه قلة من المفسرين أيضاً ضمن ما نقلوه من الأقوال المماثلة لما نقله القرطبي، وهو قوله: «وقيل: المعنى: يتوبون على قرب عهد من الذنب من غير إصرار». ومن هؤلاء الشوكاني صاحب فتح القدير[٧٤٠] الذي ذكر نفس العبارة التي نقلها القرطبي، وكذلك البغوي الذي قال: «قيل معناه: قبل أن يحيط السوء بحسناته»[٧٤١]، أما بقية التفاسير فركزت على الأقوال الثلاثة الأخرى في معنى (ثم يتوبون من قريب) والتي لخصها صاحب «زاد المسير» وقد ذكرناها قبل قليل.

٧٠٤-٢- قول الغزالي في معنى التوبة من قريب:

وقد أيد الغزالي رحمه الله القول بأن التوبة من قريب هي التوبة في زمن قريب من وقوع الذنب وأن هذا المعنى هو المقصود الأصلي المراد بالآية الكريمة، وأنها تمتد إلى ما قبل المعاينة، وبين ضرر التأخير والتسويف فقال:

«وقوله ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧] معناه: عن قرب عهد بالخطيئة، بأن يتندم عليها، ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو، ولذلك قال ﷺ: (أتبع السيئة الحسنة

---

(٧٣٩) زاد المسير ج: ٢ ص: ٣٦-٣٧.

(٧٤٠) الشوكاني: تفسير فتح القدير: ج:١ ص٤٣٩.

(٧٤١) البغوي: تفسير البغوي: ج:١ ص:٤٠٧.

تمحها)[742]، ولذلك قال لقمان لابنه: يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة. ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين، أحدهما: أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو، الثاني: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو... فما هلك من هلك إلا بالتسويف، فيكون تسويده القلب نقداً وجلاؤه بالطاعة نسيئة، إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر»[743].

٧٠٥-٣- قول صاحب تفسير المنار في معنى التوبة من قريب:

وأيد هذا الرأي أيضا السيد رشيد رضا في تفسير المنار، وانتقد اغترار الناس بقبول التوبة قبل الغرغرة، وسوء فهمهم للمقصود منها، فقال: «اغتر الناس بظواهر هذه الأقوال في تفسير الآية، وهذه الأحاديث، فصاروا يسوفون في التوبة، ويصرون على المعاصي، فترسخ في قلوبهم، وتأنس بها أنفسهم، وتصير ملكات وعادات يتعذر عليهم [أو يتعسر] على غير الموفق النادر الإقلاع عنها، حتى يجيئهم الأجل الموعود.

وليس معنى الآية: أن التوبة المقبولة المرضية التي أوجب الله على نفسه قبولها: هي ما كانت عن معاصي يصر المرء عليها إلى ما قبل غرغرة الموت، ولو بساعات أو دقائق، بل المراد القرب من وقت الذنب المانع من الإصرار، كما في الآية الأخرى [قلت: يعني قوله تعالى: ﴿ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ويمكن الاستدلال على ذلك أيضاً بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١-٢٠٢]].

ولعل مراد عكرمة والضحاك وأمثالهما موافقة معنى الحديث، من أن الله يقبل توبة العاصي ما لم يغرغر، أي أنه فرض أنه تاب في أي وقت من الأوقات قبل الغرغرة

---

(٧٤٢) أخرجه الترمذي (١٩١٠) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٢٠٣٩٢) و(٢٠٤٣٥)، والدارمي (٢٦٧١).

(٧٤٣) الغزالي: إحياء علوم الدين: ج: ٤ ص: ١٢.

والمعاينة، تقبل توبته، ولا يكون ذلك منافياً للآية، فإن الإنسان قد يتوب قبل الغرغرة من ذنب عمله من عهد قريب، ولكن قلما يتوب من الإصرار الذي رسخ من الزمن البعيد. فإن تاب فقلما يتمكن من إصلاح ما أفسده الإصرار من نفسه ليصدق عليه قوله تعالى ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢] »[٧٤٤].

٧٠٦-٤- قول سيد قطب في معنى التوبة من قريب:

وجاء في تفسير سيد قطب رحمه الله: «على أن الإسلام لا يغلق الأبواب في وجه الخاطئين والخاطئات، ولا يطردهم من المجتمع إن أرادوا أن يعودوا إليه متطهرين تائبين، بل يفسح لهم الطريق ويشجعهم على سلوكه. ويبلغ من التشجيع أن يجعل الله قبول توبتهم - متى أخلصوا فيها - حقاً عليه سبحانه يكتبه على نفسه بقوله الكريم. وليس وراء هذا الفضل زيادة لمستزيد...

إن التوبة التي يقبلها الله، والتي تفضل فكتب على نفسه قبولها هي التي تصدر من النفس، فتدل على أن هذه النفس قد أنشئت نشأة أخرى. قد هزها الندم من الأعماق، ورجها رجاً شديداً حتى استفاقت فثابت وأنابت، وهي في فسحة من العمر، وبحبوحة من الأمل، واستجدت رغبة حقيقية في التطهر، ونية حقيقية في سلوك طريق جديد...

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧]..

والذين يعملون السوء بجهالة هم الذين يرتكبون الذنوب.. وهناك ما يشبه الإجماع على أن الجهالة هنا معناها الضلالة عن الهدى - طال أمدها أم قصر - ما دامت لا تستمر حتى تبلغ الروح الحلقوم.. والذين (يتوبون من قريب): هم الذين يثوبون إلى الله قبل أن يتبين لهم الموت، ويدخلوا في سكراته، ويحسوا أنهم على عتباته. فهذه التوبة حينئذ هي توبة الندم، والانخلاع من الخطيئة، والنية على العمل الصالح والتكفير. وهي إذن نشأة جديدة للنفس، ويقظة جديدة للضمير.. (فأولئك يتوب الله عليهم).. (وكان الله عليماً حكيماً).. يتصرف عن علم وعن حكمة. ويمنح عباده الضعاف فرصة العودة إلى

---

(٧٤٤) أشار إليه محقق كتاب مدارج السالكين ج١ ص٢٨٤.

الصف الطاهر، ولا يطردهم أبداً وراء الأسوار، وهم راغبون رغبة حقيقية في الحمى الأمن والكنف الرحيم»(٧٤٥).

٥-٧٠٧- ما نراه راجحاً في تحرير معنى قوله تعالى: (ثم يتوبون من قريب):

قد بان لك من خلال عرض أقوال المفسرين والعلماء أن تحرير هذا الموضع وبيان الرأي الصواب فيه على درجة عظيمة من الأهمية لما ينبني عليه من أحكام وما ينبني على هذه الأحكام من آثار، لذلك رأينا أن نحرر هذا الموضع المهم جهد استطاعتنا والله المستعان.

وتحرير هذا الموضع المهم أن يقال: إنه قد تبين لنا في المباحث السابقة أخذاً من القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع العلماء، أن التوبة واجبة، وأن المبادرة إلى التوبة على الفور وليس على التراخي واجبة أيضاً. فالأصل إذن أن يتوب العبد فوراً بعد الذنب، من غير مهلة، ومن غير توان، ومن غير تأخير. وهذا مما أجمع عليه العلماء، وهو الموافق لما قاله الغزالي في الإحياء ورشيد رضا في تفسير المنار وغيرهما - حسب ما أشرنا إليهم قبل قليل - في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء: ١٧] حيث قالوا: التوبة من قريب: هي التوبة خلال زمن قريب من وقوع الذنب. وهذا هو الأصل في التوبة من قريب.

ولكن العبد إذا فاته هذا، فهل يمتنع عليه أن يتوب ولو قبل الموت بقليل، أي قبل الغرغرة؟.

والجواب: لا يمتنع عليه ذلك فضلاً من الله ورحمة، وهو معنى قوله ﷺ: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)(٧٤٦).

فهذا عبد قد فاته أداء التوبة في الوقت الأمثل، فلم يمنعه الله تعالى من التدارك ولو قبل الموت إذا أمكنه التدارك ولم تكن كثافة الرين على قلبه بفعل السيئات والإصرار قد صرفته عن التوبة في ذلك الوقت، فإن من عاش على شيء مات عليه. وعلى ذلك فقوله

(٧٤٥) سيد قطب: في ظلال القرآن: ص ٦٠٣.
(٧٤٦) أخرجه الترمذي (٣٤٦٠) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤٢٤٣)، وأحمد (٥٨٨٥) و(٦١٢٠).

تعالى: (ثم يتوبون من قريب) إرشاد للعباد لترك حالة الإصرار بعد الذنب، وتوجيه لهم أن يبادروا إلى التوبة فورا فيتوبوا من قريب من عهدهم بالخطيئة، فإن لم يفعلوا فإن الله تعالى لا يغلق أمامهم باب التوبة بل يبقيه مفتوحاً إلى ما قبل الموت .

فهاهنا سؤالان:

الأول: ما معنى التوبة من قريب التي أرشد الله تعالى إليها وأوجبها ؟

والثاني: إلى أي وقت يمتد قبول الله تعالى للتوبة ؟

ولا شك أن لكل سؤال موضوعه وجوابه الخاص به.

ونظير هذا أن الشرع أوجب صلاة العصر في وقتها، وجعل الحسن والفضل في الإتيان بها في أول وقتها، ولكنه مد وقتها من حيث القبول بحيث تقبل ممن أدرك ركعة في آخر وقت العصر ودخل المغرب[٧٤٧]، فهل يمكن أن يقال عن هذا الوقت الأخير إنه هو الحكم الأصلي وإنه المعنى المراد بقوله تعالى: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]؟؟ والجواب: لا، بل يبقى المعنى المراد هو الإتيان بها في وقتها الأمثل دون وقت التدارك وإن قبل الشرع منه التدارك. فتأمل ذلك وتدبره فإن نفعه كبير في فهم معنى التوبة من قريب، والله الموفق للصواب بفضله ومنه.

والآن وقد انتهينا من الكلام في بيان حقيقة الإصرار والتسويف وأحكامهما وهي موضوع المبحث الأول من هذا الفصل ننتقل إلى الكلام بالتفصيل عن الأسباب الداعية إلى الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة وكيفية معالجة تلك الأسباب وهو موضوع المبحث الثاني القادم إن شاء الله تعالى.

---

(٧٤٧) وهذا ما يدل عليه الحديث المتفق عليه: البخاري (٥٤٥) ولفظه (... عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من أدرك من الصبح ركعة قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح، ومن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر)، ومسلم: (٩٥٦).

المبحث الثاني
الأسباب الداعية للإصرار على الذنوب ومعالجتها

٧٠٨- تمهيد وتقسيم:

قد ذكرنا سابقاً بيان القرآن لدواعي الإصرار على الذنوب الذي يورث أصحابه النار يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٤-١٥].

ويمكن الاستخلاص من أقوال العلماء في تفسير هذه الآيات ومن بقية نصوص القرآن والسنة أن أهم الأسباب الداعية للإصرار على الذنوب تتلخص فيما يلي:

١ - حب العاجلة وشهواتها.

٢ - طول الأمل

٣- التعلق بالرجاء من غير عمل.

٤ - القنوط من رحمة الله.

٥ - الشك في وعد القرآن وما جاء به الرسول (وهذا يجعله كافراً).

٦ - الاحتجاج بالقدر.

٧- تزيين الشيطان لكل ما تقدم وبيان أوجه التزيين.

ونقدم فيما يلي شرحاً لكل من هذه الأسباب الصارفة عن التوبة والداعية إلى الإقامة على الذنوب والإصرار عليها في سبعة مطالب متتالية ثم نخصص مطلباً ثامناً مستقلاً لبيان كيفية معالجة البواعث على الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة، وذلك على النحو الآتي:

المطلب الأول
حب العاجلة وشهواتها

٧٠٩- المقصود بحب العاجلة وشهواتها وأثره في الصرف عن التوبة:

المقصود بحب العاجلة وشهواتها بوصفه واحداً من الآفات المانعة من التوبة: التعلق بالدنيا وغلبة محبتها على القلب وتفضيلها على الآخرة، كما قال تعالى في معرض

الذم: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]، وقال ناعيا على أصحاب هذه الحال: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ [يونس: ٧]، وقال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٣]، ومن كان هذه حاله من حب الدنيا فإن هذا الحب يدفعه إلى ممارسة المحظورات والمنهيات المشتهاة فتغلب عليه، فيصعب عليه أن يتوب من تلك المحرمات المشتهاة ما دام محباً للدنيا وشهواتها، مقدماً لها على الآخرة.

وواضح مما تقدم ومما سيأتي أن المذموم هو حب الدنيا وشهواتها والتعلق بها فتغمر القلب فلا يبقى فيه مكان للآخرة أو يقل فيه مكان الآخرة مفضلاً الدنيا عليها بحيث تصير الدنيا أكبر همه، فيرضى بالحياة الدنيا ويستحبها على الآخرة، فتضعف إرادته للآخرة فلا يسعى لها سعيها لأن قلبه معلق بالدنيا مشغول بها، فالدنيا في قلبه، قد استولت عليه، بخلاف من كانت الدنيا بين يديه لا في قلبه يصرفها في طاعة الله والعمل الصالح ويعمرها حسبما أمر الله تعالى في وظيفة الاستخلاف في الأرض بما يخدم مصالحه المشروعة ومصالح الأمة ويحرز لها التقدم وينصرها فينفع الله به البلاد والعباد. فكل هذه أعمال ومطلوبات شرعية شريطة أن لا يقع صاحبها في فتنة حب الدنيا وشهواتها فيخالف من أجلها الأمر والنهي الإلهي أو ينشغل بها عن إرادة الآخرة والسعي لها، بل عليه أن يوظفها في خدمة الآخرة. و(العمل) في الدنيا حسب أوامر الله تعالى هو غير (الحب) الذي هو ميل القلب الذي يجعل القلب في غمرة عن الآخرة كما قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣] أي مغمورة بما هي فيه عن العمل للآخرة وما خلقوا له من العبادة والطاعة.

٧١٠- التعلق بالدنيا يقوي السبب الصارف عن التوبة ويبقي حالة الإصرار:

والقرآن الكريم ذكر زينة الدنيا وشهواتها وأنها مزينة للناس محببة إليهم امتحاناً لهم، فمن اكتفى منها بالحلال ولم يشغله أو يلهه هذا الحلال عن الواجبات والطاعات وذكر الله وخشيته كما قال تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧] فقد نجا، ومن دفعه حب الدنيا وشهواتها إلى الحرام، وصرفه عن التوبة من ذلك، فذلك هو الخسران يوم القيامة، وكلما قوي تعلقه بالدنيا وشهواتها اشتدت غفلته عن الآخرة وقوي السبب الصارف له عن التوبة فبقي في حالة الإصرار.

٧١١- العلاج: في يقظة القلب وإرادة الآخرة:

ولا يمكن للإنسان أن ينجو من ذلك إلا بأن يعكس الوضع ويغير الحال، فيقدم الآخرة على الدنيا، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩]، ولا يكون ذلك إلا بيقظة القلب من رقدة الغافلين وإنهاء حالة مرض القلب أو موته، لأن أفعال الجوارح تابعة للقلب. فإذا استيقظ القلب نشطت الجوارح في الطاعات وتوقفت عن اقتحام المحرمات.

٧١٢- القرآن يذكر مشهد الدنيا وشهواتها، والآخرة وضرورة تفضيلها:

والقرآن يذكر المشهدين: مشهد الدنيا وشهواتها بحلالها وحرامها، ومشهد الآخرة وضرورة تفضيلها، وذلك على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٤-١٧].

٧١٣- الشهوات مزينة من أجل الابتلاء:

قال سيد قطب رحمه الله في تفسير قوله تعالى: (زين للناس حب الشهوات...):

«وفي مجال التربية للجماعة المسلمة يكشف لها عن البواعث الفطرية الخفية التي من عندها يبدأ الانحراف ؛ إذا لم تضبط باليقظة الدائمة ؛ وإذا لم تتطلع النفس إلى آفاق أعلى ؛ وإذا لم تتعلق بما عند الله وهو خير وأزكى.

إن الاستغراق في شهوات الدنيا، ورغائب النفوس، ودوافع الميول الفطرية هو الذي يشغل القلب عن التبصر والاعتبار، ويدفع بالناس إلى الغرق في لجة اللذائذ القريبة المحسوسة ؛ ويحجب عنهم ما هو أرفع وأعلى، ويغلظ الحس فيحرمه متعة التطلع إلى ما

وراء اللذة القريبة، ومتعة الاهتمامات الكبيرة اللائقة بدور الإنسان العظيم في هذه الأرض؛ واللائقة كذلك بمخلوق يستخلفه الله في هذا الملك العريض.

ولما كانت هذه الرغائب والدوافع - مع هذا - طبيعية وفطرية، ومكلفة من قبل الباري - جل وعلا - أن تؤدي للبشرية دوراً أساسياً في حفظ الحياة وامتدادها، فإن الإسلام لا يشير بكبتها وقتلها، ولكن إلى ضبطها وتنظيمها، وتخفيف حدتها واندفاعها؛ وإلى أن يكون الإنسان مالكاً لها متصرفاً فيها، لا أن تكون مالكة له متصرفة فيه، وإلى تقوية روح التسامي فيه والتطلع إلى ما هو أعلى.

ومن ثم يعرض النص القرآني الذي يتولى هذا التوجيه التربوي.. هذه الرغائب والدوافع، ويعرض إلى جوارها على امتداد البصر ألواناً من لذائذ الحس والنفس في العالم الآخر، ينالها من يضبطون أنفسهم في هذه الحياة الدنيا عن الاستغراق في لذائذها المحببة، ويحتفظون بإنسانيتهم الرفيعة»[٧٤٨].

٧١٤- أقوال المفسرين والعلماء في حب الدنيا وكيفية علاجه:

ولكي يكون المسلم على علم كاف بتفسير الآيات الكريمة التي صدَّرنا بها البحث في «حب العاجلة وشهواتها» بوصفه من الأسباب والآفات الصارفة عن التوبة، وفي أي الأحوال يكون ذلك، لكي يحذره، رأينا أن نقدم ما جاء في بعض التفاسير بشأن تفسير قوله تعالى: (زين للناس حب الشهوات...) مع الاقتصار على الضروري من التفاسير، وكذلك الاقتصار على الضروري من كلام صاحب التفسير - مشذباً -، ثم نتبع ذلك بأقوال بعض العلماء الذين تكلموا في داء حب الدنيا وكيفية علاجه.

٧١٥- أولا - أقوال بعض المفسرين[٧٤٩] في تفسير قوله تعالى: (زين للناس حب الشهوات...) الآيات:

٧١٦-١- قول سيد قطب في « الظلال »:

قال سيد قطب رحمه الله: «وفي آية واحدة يجمع السياق القرآني أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان: النساء والبنين والأموال المكدسة والخيل والأرض المخصبة

(٧٤٨) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٣٧٣.

(٧٤٩) وانظر أيضا في تفسير قوله تعالى: (زين للناس حب الشهوات...) تفاسير أخرى غير التي أوردناها في المتن مثل: فتح القدير ١/ ٣٢٣، والثعالبي ١/ ٢٤٨، والقرطبي ٤/ ٢٨-٤٠، وأبو السعود ٢/ ١٤ والنسفي ١/ ١٤٤.

والأنعام.. وهي خلاصة للرغائب الأرضية. إما بذاتها، وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائذ أخرى.. وفي الآية التالية يعرض لذائذ أخرى في العالم الآخر: جنات تجري من تحتها الأنهار. وأزواج مطهرة. وفوقها رضوان من الله.. وذلك كله لمن يمد ببصره إلى أبعد من لذائذ الأرض، ويصل قلبه بالله، على النحو الذي تعرضه آيتان تاليتان:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران:١٤-١٧] ..

(زين للناس): وصياغة الفعل للمجهول هنا تشير إلى أن تركيبهم الفطري قد تضمن هذا الميل، فهو محبب ومزين.. وهذا تقرير للواقع من أحد جانبيه. ففي الإنسان هذا الميل إلى هذه «الشهوات»، وهو جزء من تكوينه الأصيل، لا حاجة إلى إنكاره، ولا إلى استنكاره في ذاته. فهو ضروري للحياة البشرية كي تتأصل وتنمو وتطرد - كما أسلفنا - ولكن الواقع يشهد كذلك بأن في فطرة الإنسان جانبا آخر يوازن ذلك الميل، ويحرس الإنسان أن يستغرق في ذلك الجانب وحده؛ وأن يفقد قوة النفخة العلوية أو مدلولها وإيحاءها. هذا الجانب الآخر هو جانب الاستعداد للتسامي، والاستعداد لضبط النفس ووقفها عند الحد السليم من مزاولة هذه «الشهوات». الحد الباني للنفس وللحياة؛ مع التطلع المستمر إلى ترقية الحياة ورفعها إلى الأفق الذي إليه شهوة الملك، كان الحرث والأنعام شهوة.

وهذه الشهوات التي ذكرت هنا هي نموذج لشهوات النفوس، يمثل شهوات البيئة التي كانت مخاطبة بهذا القرآن، ومنها ما هو شهوة كل نفس على مدار الزمان. والقرآن يعرضها ثم يقرر قيمتها الحقيقية، لتبقى في مكانها هذا لا تتعداه، ولا تطغى على ما سواه.

(ذلك متاع الحياة الدنيا).. ذلك كله الذي عرضه من اللذائذ المحببة - وسائر ما يماثله من اللذائذ والشهوات - متاع الحياة الدنيا. لا الحياة الرفيعة، ولا الآفاق البعيدة.. متاع هذه الأرض القريب.. فأما من أراد الذي هو خير.. خير من ذلك كله. خير لأنه

أرفع في ذاته. وخير لأنه يرفع النفس ويصونها من الاستغراق في الشهوات، والانكباب على الأرض دون التطلع إلى السماء.. من أراد الذي هو خير فعند الله من المتاع ما هو خير. وفيه عوض كذلك عن تلك الشهوات:

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٥]..

وهذا المتاع الأخروي الذي تذكره الآية هنا، ويؤمر الرسول أن يبشر به المتقين، هو نعيم حسي في عمومه.. ولكن هنالك فارقاً أساسياً بينه وبين متاع الدنيا.. إنه متاع لا يناله إلا الذين اتقوا. الذين كان خوف الله وذكره في قلوبهم. وشعور التقوى شعور مهذب للروح والحس جميعاً. شعور ضابط للنفس أن تستغرقها الشهوات، وأن تنساق فيها كالبهيمة. فالذين اتقوا ربهم حين يتطلعون إلى هذا المتاع الحسي الذي يبشرون به يتطلعون إليه في شفافية مبرأة من غلظة الحس! وفي حساسية مبرأة من بهيمية الشهوة ! ويرتفعون بالتطلع إليه - وهم في هذه الأرض - قبل أن ينتهي بهم المطاف إلى قرب الله.. وفي هذا المتاع النظيف العفيف عوض كامل عن متاع الدنيا.. وفيه زيادة.

فإذا كان متاعهم في الدنيا حرثاً معطياً مخصباً، ففي الآخرة جنات كاملة تجري من تحتها الأنهار. وهي فوق هذا خالدة وهم خالدون فيها، لا كالحرث المحدود الميقات!

وإذا كان متاعهم في الدنيا نساء وبنين، ففي الآخرة أزواج مطهرة. وفي طهارتها فضل وارتفاع على شهوات الأرض في الحياة !

فأما الخيل المسومة والأنعام. وأما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة. فقد كانت في الدنيا وسائل لتحقيق متاع. فأما في نعيم الآخرة فلا حاجة إلى الوسائل لبلوغ الغايات!

ثم.. هنالك ما هو أكبر من كل متاع.. هنالك (رضوان من الله). رضوان يعدل الحياة الدنيا والحياة الأخرى كليهما.. ويرجح.. رضوان. بكل ما في لفظه من نداوة. وبكل ما في ظله من حنان.

(والله بصير بالعباد)..

بصير بحقيقة فطرتهم وما ركب فيها من ميول ونوازع. بصير بما يصلح لهذه الفطرة من توجيهات وإيحاءات. بصير بتصريفها في الحياة وما بعد الحياة.

ثم وصف لهؤلاء العباد، يصور حال المتقين مع ربهم، الحال التي استحقوا عليها هذا الرضوان:

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٦-١٧]..

وفي دعائهم ما ينم عن تقواهم. فهو إعلان للإيمان، وشفاعة به عند الله، وطلب للغفران، وتوق من النيران.

وفي كل صفة من صفاتهم تتحقق سمة ذات قيمة في حياة الإنسانية وفي حياة الجماعة المسلمة:

في الصبر ترفع على الألم واستعلاء على الشكوى، وثبات على تكاليف الدعوة، وأداء لتكاليف الحق، وتسليم لله واستسلام لما يريد بهم من الأمر، وقبول لحكمه ورضاء..

وفي الصدق اعتزاز بالحق الذي هو قوام الوجود، وترفع عن الضعف ؛ فما الكذب إلا ضعف عن كلمة الحق، اتقاء لضرر أو اجتلابا لمنفعة.

وفي القنوت لله أداء لحق الألوهية وواجب العبودية؛ وتحقيق لكرامة النفس بالقنوت لله الواحد الذي لا قنوت لسواه.

وفي الإنفاق تحرر من استذلال المال؛ وانفلات من ربقة الشح؛ وإعلاء لحقيقة الأخوة الإنسانية على شهوة اللذة الشخصية؛ وتكافل بين الناس يليق بعالم يسكنه الناس!

والاستغفار بالأسحار بعد هذا كله يلقي ظلالا رفافة ندية عميقة.. ولفظة «الأسحار» بذاتها ترسم ظلال هذه الفترة من الليل قبيل الفجر. الفترة التي يصفو فيها الجو ويرق ويسكن؛ وتترقرق فيها خواطر النفس وخوالجها الحبيسة ! فإذا انضمت إليها صورة الاستغفار ألقت تلك الظلال المنسابة في عالم النفس وفي ضمير الوجود سواء. وتلاقت روح الإنسان وروح الكون في الاتجاه لبارئ الكون وبارئ الإنسان.

هؤلاء الصابرون، الصادقون، القانتون، المنفقون، المستغفرون بالأسحار.. لهم (رضوان من الله).. وهم أهل لهذا الرضوان: ظله الندي ومعناه الحاني. وهو خير من كل شهوة وخير من كل متاع..

وهكذا يبدأ القرآن بالنفس البشرية من موضعها على الأرض.. وشيئاً فشيئاً يرف بها في آفاق وأضواء، حتى ينتهي بها إلى الملأ الأعلى في يسر وهينة، وفي رفق ورحمة. وفي اعتبار لكامل فطرتها وكامل نوازعها. وفي مراعاة لضعفها وعجزها، وفي استجاشة لطاقاتها وأشواقها، ودون ما كبت ولا إكراه. ودون ما وقف لجريان الحياة.. فطرة الله. ومنهج الله لهذه الفطرة.. (والله بصير بالعباد)..»(٧٥٠).

٧١٧-٢- قول ابن كثير في تفسيره:

قال ابن كثر رحمه الله: «يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)(٧٥١)، فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه... وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا [أي في الذم]، وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح، كما ثبت في الحديث (تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة)(٧٥٢)، وحب المال كذلك، تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات فهذا ممدوح محمود شرعاً.

وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال وحاصلها أنه المال الجزيل كما قاله الضحاك وغيره... وحب الخيل على ثلاثة أقسام، تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها فهؤلاء يثابون، وتارة تربط فخراً ونواء لأهل

---

(٧٥٠) سيد قطب: في ظلال القران: ص ٣٧٣ وما بعدها.

(٧٥١) متفق عليه: البخاري: (٤٧٠٦)، ومسلم:(٤٩٢٣)) و(٤٩٢٤).

(٧٥٢) النسائي: (٣١٧٥)، وأبو داود(١٧٥٤)، وأحمد(١٣٠٨٠).

الإسلام فهذه على صاحبها وزر، وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر، كما سيأتي الحديث بذلك إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وأما المسومة فعن ابن عباس رضي الله عنهما، المسومة: الراعية والمطهمة الحسان...

وقوله تعالى: (والأنعام) يعني: الإبل والبقر والغنم، (والحرث) يعني: الأرض المتخذة للغراس والزراعة... ثم قال تعالى: (ذلك متاع الحياة الدنيا) أي إنما هذا زهرة الحياة وزينتها الفانية الزائلة (والله عنده حسن المآب) أي حسن المرجع والثواب، وقد قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن عطاء عن أبي بكر بن حفص بن عمر بن سعد قال: قال عمر بن الخطاب لما نزلت (زين للناس حب الشهوات) قلت الآن يا رب حين زينتها لنا فنزلت: (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم، للذين اتقوا عند ربهم جنات...) الآية.

ولهذا قال تعالى: (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) أي قل يا محمد للناس أأخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة، ثم أخبر عن ذلك فقال: (للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار)، أي تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، (خالدين فيها) أي ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولا (وأزواج مطهرة) أي من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا، (ورضوان من الله) أي يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبداً، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى التي في براءة: (ورضوان من الله أكبر) أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم، ثم قال تعالى: (والله بصير بالعباد) أي يعطي كلا بحسب ما يستحقه من العطاء»[٧٥٣].

٧١٨-٣- قول البيضاوي في تفسيره:

وجاء في تفسير البيضاوي: «(زين للناس حب الشهوات) أي المشتهيات سماها شهوات مبالغة وإيماء على أنهم انهمكوا في محبتها حتى أحبوا شهوتها كقوله تعالى:

---

(٧٥٣) تفسير ابن كثير ج: ١ ص: ٣٥٢.

﴿ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ ﴾ [ص: ٣٢] والمزين: هو الله تعالى لأنه الخالق للأفعال والدواعي، ولعله زينه ابتلاء أو لأنه يكون وسيلة إلى السعادة الأخروية إذا كان على وجه يرتضيه الله تعالى، أو لأنه من أسباب التعيش وبقاء النوع، وقيل: الشيطان فإن الآية في معرض الذم... (النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث) بيان للشهوات... (ذلك متاع الحياة الدنيا) إشارة إلى ما ذكر (والله عنده حسن المآب) أي المرجع، وهو تحريض على استبدال ما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات المخدجة الفانية، (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) يريد به تقرير أن ثواب الله تعالى خير من مستلذات الدنيا، (للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين)... (وأزواج مطهرة) مما يستقذر من النساء (ورضوان من الله) ... (والله بصير بالعباد) أي بأعمالهم فيثيب المحسن ويعاقب المسيء أو بأحوال الذين اتقوا فلذلك أعد لهم جنات)...» (٧٥٤).

٧١٩-٤- قول الآلوسي في «روح المعاني»:

وفي معنى حب الشهوات وتزيينها جاء في روح المعاني: «(زين للناس)، كلام مستأنف... والمراد من الناس الجنس، (حب الشهوات) أي المشهيات، وجعلها نفس الشهوات إشارة إلى ما ركز في الطباع من محبتها والحرص عليها حتى كأنهم يشتهون اشتهاءها كما قيل لمريض ما تشتهي؟ فقال: أشتهي أن أشتهي، أو تنبيهاً على خستها لأن الشهوات خسيسة عند الحكماء والعقلاء، ففي ذلك تنفير عنها، وترغيب فيما عند الله تعالى، والمزين: هو الله تعالى، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، وروي عن الحسن: الشيطان زينها لهم، لأنا لا نعلم أحداً أذم لها من خالقها، وفي الانتصاف: التزيين للشهوات يطلق ويراد به: خلق حبها في القلوب وهو بهذا المعنى مضاف إليه تعالى حقيقة لأنه لا خالق إلا هو، ويطلق ويراد به: الحض على تعاطي الشهوات المحظورة فتزيينها بالمعنى الثاني مضاف إلى الشيطان تنزيلاً لوسوسته وتحسينه منزلة الأمر بها والحض على تعاطيها... وقدم النساء لعراقتهن في معنى الشهوة... وقد

---

(٧٥٤) تفسير البيضاوي ج: ٢ ص: ١٤-١٥.

روي عنه ﷺ أنه قال: (ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء)[٧٥٥]، ويقال: فيهن فتنتان: قطع الرحم، وجمع المال من الحلال والحرام، وثنى بالبنين لأنهم من ثمرات النساء في الفتن...»[٧٥٦].

٧٢٠- ثانيا - أقوال العلماء في داء حب الدنيا وشهواتها وعلاج ذلك:

٧٢١-١- قول الغزالي في حب الدنيا وعلاجه:

ونقل الثعالبي في تفسيره أثناء تفسير قوله تعالى ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠] قول الإمام الغزالي في حب الدنيا وعلاجه فقال:

«وقوله تعالى: (كلا بل تحبون العاجلة) أي الدنيا وشهواتها، قال الغزالي في الإحياء: اعلم أن رأس الخطايا المهلكة هو حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة هو التجافي بالقلب عن دار الغرور، وقال رحمه الله: أعلم أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله سبحانه في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقلع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات، ولا تنقمع الشهوات بشيء كما تنقمع بنار الخوف المحرقة للشهوات، انتهى»[٧٥٧].

٧٢٢-٢- قول ابن تيمية في جوامع شهوات الدنيا الصارفة عن التوبة:

٧٢٣- شهوات الغي.. ومضلات الفتن:

وركز ابن تيمية رحمه الله على جوامع المحرمات من الشهوات - وكلها آفات مانعة من التوبة وداعية إلى الإصرار- سواء تعلقت بالبطون والفروج، أو تعلقت بالضلال المزين للعقول، في شرحه للحديث النبوي الشريف الخاص بذلك حيث قال: «وفي الحديث عن النبي ﷺ: (إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم

---

(٧٥٥) متفق عليه: البخاري (٤٧٠٦)، ومسلم (٤٩٢٤)، وأيضاً: الترمذي (٢٧٠٤)، وابن ماجة (٣٩٨٨)، وأحمد (٢٠٧٥١) و(٢٠٨٢٨).

(٧٥٦) روح المعاني ج: ٣ ص: ٩٨-٩٩.

(٧٥٧) تفسير الثعالبي ج: ٤ ص: ٣٦٧. وانظر إحياء علوم الدين للغزالي ٤/ ١٣٠ و ٤/ ١٦٠.

ومضلات الفتن)[٧٥٨]، فإن الغي والضلال يجمع جميع سيئات بني آدم، فإن الإنسان كما قال تعالى: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فبظلمه يكون غاوياً، وبجهله يكون ضالاً، وكثيراً ما يجمع بين الأمرين فيكون ضالاً في شيء غاوياً في شيء آخر، إذ هو ظلوم جهول، ويعاقب على كل من الذنبين بالآخر كما قال تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]، وكما قال: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، كما يثاب المؤمن على الحسنة بحسنة أخرى فإذا عمل بعلمه ورثه الله علم ما لم يعلم، وإذا عمل بحسنة دعته إلى حسنة أخرى، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم:٧٦]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ٦٦-٦٨]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

وهو ﷺ ذكر شهوات الغي في البطون والفروج كما في الصحيح أنه قال: (من تكفل لي بما بين لحييه وما بين رجليه تكفلت له بالجنة)[٧٥٩]، فإن هذا يعلم عامة الناس أنه من الذنوب، لكن يفعلونه اتباعاً لشهواتهم.

وأما مضلات الفتن: فأن يفتن العبد فيضل عن سبيل الله وهو يحسب أنه مهتد، كما قال: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧]، وقال: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ [غافر: ٣٧]، وقال: ﴿ قُلْ

---

(٧٥٨) أخرجه أحمد(١٨٩٣٦) و (١٨٩٣٧) و(١٨٩٥١).

(٧٥٩) البخاري (٥٩٩٣) و(٦٣٠٩)، وأحمد (٢١٧٥٧)، ومالك(١٥٦٦).

﴿ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]...

وإذا اجتمع شهوات الغي ومضلات الفتن قوى البلاء وصار صاحبه: مغضوباً عليه، ضالاً، وهذا يكون كثيراً بسبب حب الرئاسة والعلو في الأرض كحال فرعون، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعًا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةً مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤]، فوصفه بالعلو في الأرض والفساد، وقال في آخر السورة: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]، ولهذا قال في حق فرعون: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ [غافر: ٣٧]. وذلك أن حب الرئاسة شهوة خفية... وحبك الشيء يعمى ويصم، فيبقى حب ذلك يزين له ما يهواه مما فيه علو نفسه، ويبغض إليه ضد ذلك، حتى يجتمع فيه الاستكبار والاختيال والحسد الذي فيه بغض نعمة الله على عباده لا سيما من مناظره، والكبر والحسد هما داءان أهلكا الأولين والآخرين، وهما أعظم الذنوب التي بها عصي الله أولا، فإن إبليس استكبر وحسد آدم، وكذلك ابن آدم الذي قتل أخاه، حسد أخاه، ولهذا كان الكبر ينافي الإسلام، كما أن الشرك ينافي الإسلام، فإن الإسلام هو الاستسلام لله وحده فمن استسلم له ولغيره فهو مشرك به، ومن لم يستسلم فهو مستكبر كحال فرعون وملئه، ولذلك قال لهم موسى: ﴿ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ [الدخان: ١٩]، وقال تعالى عن فرعون: ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴾ [القصص: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤]...

وليس الغي مختصاً بشهوات البطون والفروج فقط، بل هو في شهوات البطون والفروج وشهوات الرئاسة والكبر والعلو وغير ذلك...

وإنما في الحديث ما يخاف على هذه الأمة من الغي، وهو شهوات الغي في البطون والفروج، فأما الغي الذي هو الاستكبار عن اتباع الحق فذاك أصل الكفر، فصاحبه ليس من هذه الأمة كإبليس وفرعون وغيرها.

وأما غي شهوات البطون والفروج فذاك يكون لأهل الإيمان ثم يتوبون كما قال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]، وفي السنن والمسند من حديث ليث بن سعد عن يزيد بن الهاد عن عمرو عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن إبليس قال لربه عز وجل: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال له ربه عز وجل: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني»[٧٦٠].

٧٢٤- آثار حب الدنيا وشهواتها من الوهن والغمرة الصارفة عن الطاعات والتوبة :

حب الدنيا والتعلق بها وتفضيلها على الآخرة يورث الوهن كما قال ﷺ : (وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت)[٧٦١] فالوهن ناتج من حب الدنيا والتعلق بها، وهو وهن عن طلب الجهاد، ووهن عن الجد في العبادات والطاعات، ووهن عن طلب التوبة لأنها تتعارض مع حب الدنيا.

كما أن حب الدنيا والتعلق بها يورث الغمرة وهي استيلاء الغفلة على القلب حين يكون مغموراً بحب الدنيا فيكون في غمرة عن الآخرة وما خلق لأجله من العبادة والطاعة قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣] أي مشغولة بما يغمرها ويلهيها عن العبادة والطاعة والتوبة.

٧٢٥- أقوال العلماء في حب الدنيا وشهواتها بوصفه صارفاً عن التوبة :

وقد تكلم العلماء عن حب الدنيا وشهواتها بوصفه صارفاً عن الطاعات ومنها التوبة، ونحن نقدم بعض أقوالهم في ذلك على النحو الآتي:

٧٢٦-١- كلام شيخ الإسلام ابن تيمية عن حقيقة حب الدنيا وآثاره :

وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية عن استيلاء حب الدنيا وكيفية ذلك ونتائجه فقال: «والمقصود أن المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس يستولي

---

(٧٦٠) مجموع الفتاوى (رسالة في التوبة): ج: ١ ص: ٢٢٩- ٢٣٦.

(٧٦١) أخرجه أبو داود (٣٧٤٥)، وأحمد (٢١٣٦٣).

على قلب أحدهم ما يشتهيه حتى يقهره ويملكه، ويبقى أسير ما يهواه يصرفه كيف تصرف ذلك المطلوب...»(٧٦٢).

وقال ابن تيمية أيضاً: «القلب بين الحب والخوف... يغرق فيما يستولي عليه، إما من محبوب وإما من مخوف، كما يوجد من محبة المال والجاه والصور. والخائف من غيره يبقى قلبه وعقله مستغرقاً فيه كما يغرق الغريق في الماء... والقلوب يستولي عليها ما يتمثل لها من المخاوف والمحبوبات والمكروهات، فالمحبوب يطلبه، والمكروه يدفعه...

والمقصود أن القلب قد يغمره فيستولي عليه ما يريده العبد ويحبه وما يخافه ويحذره كائناً من كان ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣] فهي فيما يغمرها عما أنذرت به، فيغمرها ذلك عن ذكر الله والدار الآخرة وما فيها من النعيم والعذاب الأليم، قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤] أي فيما يغمر قلوبهم من حب المال والبنين المانع لهم من المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة، وقال تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١٠-١١]، أي ساهون عن أمر الآخرة، فهم في غمرة عنها، أي فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها، ساهون عن أمر الآخرة وما خلقوا له، وهذا يشبه قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

فالغمرة تكون من اتباع الهوى، والسهو من جنس الغفلة، ولهذا قال من قال: السهو: الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه، وهذا جماع الشر... فيبقى القلب مغموراً فيما يهواه ويخشاه غافلاً عن الله رائداً غير الله والدار الآخرة... قد انفرط أمره، وران حب الدنيا على قلبه، كما روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي، وإن منع سخط)(٧٦٣) جعله عبد ما يرضيه وجوده، ويسخطه فقده، حتى يكون عبد الدرهم وعبد ما وصف في هذا الحديث،

---

(٧٦٢) ابن تيمية: الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ٣٣.
(٧٦٣) البخاري(٢٦٧٣)، وابن ماجة(٤١٢٥) و(٤١٢٦).

والقطيفة: هي التي يجلس عليها، فهو خادمها، كما قال بعض السلف: البس من الثياب ما يخدمك ولا تلبس منها ما تكن أنت تخدمه وهي كالبساط الذي تجلس عليه، والخميصة: هي التي يرتدي بها، وهذا من أقل المال، وإنما نبه به النبي ﷺ على ما هو أعلى منه، فهو عبد لذلك، فيه أرباب متفرقون وشركاء متشاكسون، ولهذا قال: (إن أعطي رضي وإن منع سخط) فما كان يرضي الإنسان حصوله ويسخطه فقده فهو عبده، إذ العبد يرضى باتصاله بهما، ويسخط لفقدهما، والمعبود الحق الذي لا اله إلا هو إذا عبده المؤمن وأحبه، حصل للمؤمن بذلك في قلبه إيمان وتوحيد ومحبة وذكر وعبادة، فيرضى بذلك، وإذا منع من ذلك غضب، وكذلك من أحب شيئاً فلا بد من أن يتصوره في قلبه ويريد اتصاله به بحسب الإمكان، قال الجنيد لا يكون العبد عبداً حتى يكون مما سوى الله تعالى حراً، وهذا مطابق لهذا الحديث، فإنه لا يكون عبداً لله خالصاً، مخلصاً دينه لله كله، حتى لا يكون عبداً لما سواه، ولا فيه شعبة ولا أدنى جزء من عبودية ما سوى الله، فإذا كان يرضيه ويسخطه غير الله فهو عبد لذلك الغير، ففيه من الشرك بقدر محبته وعبادته لذلك الغير... روى الإمام أحمد والترمذي والطبراني من حديث أسماء بنت عميس قالت قال رسول الله ﷺ : (بئس العبد عبد تخيل واختال ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى، ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبد سها ولها ونسي المقابر والبلى، بئس العبد عبد بغى واعتدى ونسي المبدأ والمنتهى، بئس العبد عبد الدنيا بالدين، بئس العبد عبد يختل الدين بالشبهات، بئس العبد عبد رغب يذله ويزيله عن الحق، بئس العبد عبد طمع يقوده، بئس العبد عبد هوى يضله)[٧٦٤]، قال الترمذي غريب، وفي الحديث الصحيح المتقدم ما يقويه والله أعلم، وكذلك أحاديث وآثار كثيرة رويت في معنى ذلك...

ولهذا روى الإمام أحمد في مسنده وغيره أن النبي ﷺ قال لأصحابه: (الفقر تخافون؟ لا أخاف عليكم الفقر، إنما أخاف عليكم الدنيا حتى إن قلب أحدكم إذا زاغ لا يزيغه إلا هي)[٧٦٥]... فكيف إذا استولى على القلب ما هو أعظم استعباداً من الدرهم

---

(٧٦٤) تحفة الأحوذي:٧/ ١٢٠، ونوادر الأصول في أحاديث الرسول: ٣/ ٣٧، والفردوس بمأثور الخطاب: ٢/ ٢٢، وفيض القدير: ٣/ ٢١٢، وتذكرة الحفاظ:٣/ ٧٩٣، وصفوة الصفوة: ٣/ ٣٤١.

(٧٦٥) ابن ماجة (٥) ولفظه: عن أبي الدرداء قال: (خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفقر ونتخوفه فقال: الفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده لتصبن عليكم الدنيا صباً حتى لا يزيغ قلب أحدكم إزاغة إلا هي).

والدينار من الشهوات والأهواء والمحبوبات التي تجذب القلب عن كمال محبته لله وعبادته، لما فيها من المزاحمة والشرك بالمخلوقات؟ كيف تدفع القلب وتزيغه عن كمال محبته لربه وعبادته وخشيته؟، لأن كل محبوب يجذب قلب محبه إليه ويزيغه عن محبة غير محبوبة...»(٧٦٦).

٧٢٧-٢- كلام ابن القيم عن حب الدنيا وآثاره:

وقال ابن القيم وهو يلخص بطريقة حسنة ما قاله العلماء بشأن آفة حب الدنيا ويبين رأيه في كلام طويل نورده - مشذباً ومختصراً مع المحافظة على عبارته -:

«قالوا: وقد تواتر عن السلف أن حب الدنيا رأس الخطايا وأصلها...

قالوا: وذلك معلوم بالتجربة والمشاهدة، فإن حبها يدعو إلى خطيئة ظاهرة وباطنة، ولا سيما خطيئة يتوقف تحصيلها عليها، فيسكر عاشقها حبها عن علمه بتلك الخطيئة وقبحها، وعن كراهتها واجتنابها. وحبها يوقع في الشبهات، ثم في المكروهات، ثم في المحرمات، وطالما أوقع في الكفر، بل جميع الأمم المكذبة لأنبيائهم إنما حملهم على كفرهم وهلاكهم حب الدنيا، فإن الرسل لما نهوهم عن الشرك والمعاصي التي كانوا يكسبون بها الدنيا حملهم حبها على مخالفتهم وتكذيبهم.

فكل خطيئة في العالم أصلها حب الدنيا...

والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بشرب الخمر بكثير، وصاحب هذا السكر لا يفيق منه إلا في ظلمة اللحد، ولو انكشف عنه غطاؤه في الدنيا لعلم ما كان فيه من السكر وأنه أشد من سكر الخمر...

وقال يحيى بن معاذ الرازي: الدنيا خمر الشيطان من سكر منها فلا يفيق إلا في عسكر الموتى نادماً بين الخاسرين.

وأقل ما في حبها أنه يلهي عن حب الله وذكره، ومن ألهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين، وإذا لها القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان وصرفه حيث أراد، ومن فقهه في الشر: أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل فيها الخير، وقد تعبد لها قلبه !!، فأين

---

(٧٦٦) ابن تيمية: الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ٣٤ وما بعدها.

يقع ما يفعله من البر مع تعبده لها؟ وقد لعنه رسول الله ﷺ ودعا عليه فقال: (لعن عبد الدينار والدرهم)[٧٦٧]، وقال (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، إن أعطى رضي، وإن منع سخط)[٧٦٨] وهذا تفسير منه ﷺ وبيان لعبوديتها.

وقد عرضت الدنيا على النبي ﷺ بحذافيرها، وتعرضت له فدفع في صدرها باليدين، وردها على عقبيها.

ثم عرضت بعده على أصحابه وتعرضت لهم، فمنهم من سلك سبيله ودفعها عنه وهم القليل.

ومنهم من استعرضها وقال: ما فيك؟ قالت: في الحلال والشبهة والمكروه والحرام، فقالوا: هاتي حلالك ولا حاجة لنا فيما عداه، فأخذوا حلالها.

ثم تعرضت لمن بعدهم فطلبوا حلالها فلم يجدوه، فطلبوا مكروهها وشبهها فقالت: قد أخذه من قبلكم، فقالوا هاتي حرامك، فأخذوه.

فطلبه من بعدهم فقالت: هو في أيدي الظلمة، قد استأثروا به عليكم فتحيلوا على تحصيله منهم بالرغبة والرهبة، فلا يمد فاجر يده إلى شيء من الحرام إلا وجد أفجر منه وأقوى قد سبقه إليه، هذا وكلهم ضيوف، وما بأيديهم عارية، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه : ما أصبح أحد في الدنيا إلا ضيف، وماله عارية، فالضيف مرتحل، والعارية مؤداة.

٧٢٨- حب الدنيا رأس الخطايا ومفسد للدين من سبعة وجوه:

قالوا: وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا ومفسداً للدين من وجوه:

٧٢٩- الوجه الأول:

أحدها: أن حبها يقتضي تعظيمها وهي حقيرة عند الله، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله .

---

(٧٦٧) سنن الترمذي ج: ٤ ص: ٥٨٧، برقم (٢٣٧٥) قال: حدثنا بشر بن هلال الصواف حدثنا عبد الوارث بن سعيد عن يونس عن الحسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : (لعن عبد الدينار، لعن عبد الدرهم) قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث من هذا الوجه عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أيضا أتم من هذا وأطول.

(٧٦٨) أخرجه البخاري (٢٦٧٣) و(٥٩٥٥)، وابن ماجة (٤١٢٥).

٧٣٠- الوجه الثاني:

وثانيها: أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه.

٧٣١- الوجه الثالث:

وثالثها: أنه إذا أحبها صيرها غايته وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه والى الدار الآخرة فعكس الأمر وقلب الحكمة فانتكس قلبه وانعكس سيره إلى وراء فها هنا أمران: **أحدهما**: جعل الوسيلة غاية، **والثاني**: التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا وهذا شر معكوس من كل وجه وقلب منكوس غاية الانتكاس وهذا هو الذي انطبق عليه حذو القذة بالقذة قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥-١٦]، وقوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨] وقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضاً وتدل على معنى واحد وهو: أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة فحظه ما أراد وهو نصيبه ليس له نصيب غيره.

والأحاديث عن رسول الله ﷺ مطابقة لذلك مفسرة له كحديث أبي هريرة ﷺ في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار: الغازي، والمتصدق والقارئ، الذين أرادوا بذلك الدنيا والنصيب، وهو في صحيح مسلم، وفي سنن النسائي عن أبي أمامة ﷺ قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: رجل غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ : لا شيء له، فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله: لا شيء له، ثم قال: إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصاً وابتُغِي به وجهه)[٧٦٩]، فهذا قد بطل أجره وحبط عمله، مع أنه قصد حصول الأجر، لما ضم إليه قصد الذكر بين الناس، فلم يخلص عمله

(٧٦٩) النسائي (٣٠٨٩).

لله، فبطل كله، وفي مسند الإمام أحمد عن أبى هريرة: (أن رجلا قال: يا رسول الله الرجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرض الدنيا فقال له رسول الله ﷺ : لا أجر له، فأعظم الناس ذلك وقالوا للرجل: عد لرسول الله ﷺ لعله لم يفهم [وفي رواية: فلعلك لم تفهمه](٧٧٠) فعاد فقال: يا رسول الله الرجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرض الدنيا فقال رسول الله ﷺ : لا أجر له ثم أعاد الثالثة فقال رسول الله: لا أجر له)(٧٧١)، وفي المسند أيضاً وسنن النسائي عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ قال: (من غزا في سبيل الله عز وجل وهو لا ينوي في غزاته إلا عقالاً فله ما نوى)(٧٧٢). وفي المسند والسنن عن يعلى بن أمية قال: (كان رسول الله ﷺ يبعثني في سرايا، فبعثني ذات يوم في سرية، وكان رجلاً يركب بغلاً فقلت له: أَرْحِلْ فإن النبي ﷺ قد بعثني في سرية، فقال: ما أنا بخارج معك حتى تجعل لي ثلاثة دنانير، ففعلت، فلما رجعت من غزاتي ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال النبي: (ليس له من غزاته هذه ومن دنياه وآخرته إلا ثلاثة دنانير)(٧٧٣)، وفي سنن أبى داود أن عبد الله بن عمر ﷺ قال: يا رسول الله أخبرني عن الجهاد والغزو فقال: (يا عبد الله بن عمر: إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً، وان قاتلت مرائياً مكاثراً بعثك الله مرائياً مكاثراً، يا عبد الله بن عمر: على أي حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تلك الحال)(٧٧٤)، وفي المسند والسنن عن أبي أيوب ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنها ستفتح عليكم الأمصار وتضربون فيها بعوثاً فيكره الرجل منكم البعث فيخلص من قومه ويعرض نفسه على القبائل يقول من أكفيه بعث كذا وكذا ألا وذلك الأجير إلى آخر قطرة من دمه)(٧٧٥). فانظر محبة الدنيا ماذا حرمت هذا المجاهد مع المجاهدين من الأجر وأفسدت عليه عمله وجعلته أول الداخلين إلى النار.

---

(٧٧٠) أبو داود (٢١٥٥).

(٧٧١) أحمد (٧٥٥٩) و(٨٤٣٨).

(٧٧٢) النسائي(٣٠٨٧) و(٣٠٨٨)، وأحمد (٢١٦٣٤) و(٢١٦٦٩) و(٢١٧٢٣)، والدارمي (٢٣٠٩).

(٧٧٣) أحمد(١٧٢٧٧).

(٧٧٤) أبو داود (٢١٥٧).

(٧٧٥) أبو داود (٢١٦٣) وأحمد(٢٢٤٠٢).

٧٣٢- الوجه الرابع:

ورابعها: أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة لاشتغاله عنه بمحبوبه والناس ها هنا مراتب:

فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه.

ومنهم من يشغله عن الواجبات التي تجب عليه لله ولخلقه فلا يقوم بها ظاهراً ولا باطناً.

ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات .

ومنهم من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها وإن قام بغيره.

ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي فيفرط في وقته وفي حقوقه.

ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب وتفريغه لله عند أدائه، فيؤديه ظاهراً لا باطناً، وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها؟ هذا من أندرهم .

وأقل درجات حبها: أن يشغل عن سعادة العبد وهو تفريغ القلب لحب الله ولسانه لذكره وجمع قلبه على لسانه وجمع لسانه وقلبه على ربه.

فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولا بد كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا وفي هذا الحديث قد روى مرفوعاً: (من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى)[٧٧٦] .

٧٣٣- الوجه الخامس:

وخامسها: أن محبتها تجعلها أكثر هم العبد، وقد روى الترمذي من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من كانت الآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له)[٧٧٧] .

---

(٧٧٦) أحمد (١٨٨٦٦) و(١٨٨٦٧).

(٧٧٧) ابن ماجة (٤٠٩٥)، وأحمد (٢٠٦٠٨)، والدارمي (٢٣١) و (٢٣٥).

٧٣٤- الوجه السادس:

وسادسها: أن محبها أشد الناس عذاباً بها، وهو معذب في دوره الثلاث: يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبداً ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه فهذا أشد الناس عذاباً في قبره يعمل الهم والغم والحزن والحسرة في روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسمه...

والمقصود أن محب الدنيا يعذب في قبره، ويعذب يوم لقاء ربه، قال تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥]، قال بعض السلف: يعذبهم بجمعها، وتزهق أنفسهم بحبها وهم كافرون.

٧٣٥- الوجه السابع:

وسابعها: أن عاشقها ومحبها الذي يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق، وأقلهم عقلاً، إذ آثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية، وباع حياة الأبد في أرغد عيش بحياة إنما هي أحلام نوم، أو كظل زائل، إن اللبيب بمثلها لا يخدع كما نزل أعرابي بقوم فقدموا له طعاماً فأكل ثم قام إلى ظل خيمة فنام فاقتلعوا الخيمة فأصابته فانتبه وهو يقول:

وان امرؤ دنياه أكبر همه ... لمستمسك منها بحبل غرور

وكان بعض السلف يتمثل بهذا البيت:

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها ... إن اغتراراً بظل زائل حمق

قال يونس بن عبد الأعلى: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب فبينما هو كذلك انتبه. وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو علي الطائي حدثنا عبد الرحمن البخاري عن ليث قال: رأى عيسى ابن مريم الدنيا في صورة عجوز عليها من كل زينة فقال: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلته، فقال عيسى: بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين تهلكينهم واحداً واحداً ولا يكونوا منك على حذر.

أرى أشـــقياء النـــاس لا يـــسأمونها　　عـــلى أنهـــم فيهـــا عـــراة وجـــوع

أراهـــا وإن كانـــت تحـــب فإنهـــا　　ســـحابة صـــيف عـــن قليـــل تقـــشع

أشبه الأشياء بالدنيا الظل، تحسب له حقيقة ثابتة، وهو في تقلص وانقباض، فتتبعه لتدركه فلا تلحقه. وأشبه الأشياء بها السراب: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]. وأشبه الأشياء بها المنام: يرى فيه العبد ما يحب وما يكره فإذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له. وأشبه الأشياء بها: عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخبر، غدارة بالأزواج، تزينت للخطاب بكل زينة، وسترت كل قبيح، فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها، فطلب النكاح، فقالت: لا مهر إلا نقد الآخرة، فإننا ضرتان واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح، فآثر الخطاب العاجلة، وقالوا: ما على من واصل حبيبته من جناح، فلما كشف قناعها، وحل إزارها، إذا كل آفة وبلية، فمنهم من طلق واستراح، ومنهم من اختار المقام فما استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح.

تالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائق حي على غير الفلاح، فقام المجتهدون والمسلمون لها فواصلوا في طلبها الغدو بالرواح، وسروا ليلهم فلم يحمد القوم السُّرى عند الصباح، طاروا في صيدها فما رجع أحد منهم إلا وهو مكسور الجناح، فوقعوا في شبكتها فأسلمتهم للذباح. قال ابن أبى الدنيا: حدثنا محمد بن علي بن شقيق حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال سمعت الفضيل بن عياض قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: (يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها فتشرف على الخلائق، فيقال: أتعرفون هذه؟ فيقولون نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها، بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم يقذف بها في جهنم، فتنادي يا رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها...)[٧٧٨] »[٧٧٩].

(٧٧٨) شعب الإيمان: ٧/ ٣٨٣.

(٧٧٩) ابن القيم: عدة الصابرين ج: ١ ص: ١٨٥ وما بعدها.

وقال ابن القيم أيضاً في موضع آخر: «إن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ، ومن أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته.

القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها، القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها.

شغلوا قلوبهم بالدنيا، ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وآياته المشهودة ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحكم وطرف الفوائد.

إذا غذي القلب بالتذكر وسقي بالتفكر ونقي من الدغل رأى العجائب وألهم الحكمة.

ليس كل من تحلى بالمعرفة والحكمة وانتحلها كان من أهلها، بل أهل المعرفة والحكمة الذين أحيوا قلوبهم بقتل الهوى...

خراب القلب من الأمن والغفلة، وعمارته من الخشية والذكر.

إذا زهدت القلوب في موائد الدنيا قعدت على موائد الآخرة بين أهل تلك الدعوة وإذا رضيت بموائد الدنيا فاتتها تلك الموائد.

الشوق إلى الله ولقائه نسيم يهب على القلب يروح عنه وهج الدنيا. من وطن قلبه عند ربه سكن واستراح، ومن أرسله في الناس اضطرب واشتد به القلق.

لا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الجمل في سم الإبرة.

إذ أحب الله عبداً اصطنعه لنفسه، واجتباه لمحبته، واستخلصه لعبادته، فشغل همه به ولسانه بذكره وجوارحه بخدمته، والقلب يمرض كما يمرض البدن وشفاؤه في التوبة والحمية... »[٧٨٠].

٧٣٦-٣- قول صاحب كتاب يقظة أولي الاعتبار:

وجاء في «يقظة أولي الاعتبار» وهو يتكلم عن ضعف الإيمان الناتج عن حب الدنيا ويبين علاقة ذلك بحب الله حيث قال: «ومنها ضعف الإيمان، فإن كان في إيمانه ضعف،

(٧٨٠) ابن القيم: الفوائد ج: ١ ص: ٩٨.

يضعف حب الله تعالى فيه، ويقوى حب الدنيا في قلبه، ويستولي عليه، بحيث لا يبقى فيه موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس بحيث لا يظهر له أثره في مخالفة النفس، ولا يؤثر في الكف عن المعاصي، ولا في الحث على الطاعات، فينهمك في الشهوات وارتكاب السيئات، فتتراكم ظلمات الذنوب على القلب، فلا تزال تطفي ما فيه من نور الإيمان مع ضعفه، فإذا جاءت سكرات الموت يزداد حب الله ضعفاً في قلبه لما يرى أنه يفارق الدنيا وهي محبوبة له وحبها غالب عليه لا يريد تركها ويتألم من فراقها، ويرى ذلك من الله تعالى فيخشى أن يحصله في باطنه بغضه تعالى بدل الحب وينقلب ذلك الحب الضعيف بغضاً فإن خروج روحه في اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة يختم له بالسوء ويهلك هلاكاً مؤبداً والسبب المفضي إلى هذه الخاتمة حب الدنيا والركون إليها والفرح بها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى وهو الداء العضال الذي قد عم أكثر الخلق...»[٧٨١].

وبهذا ننهي الكلام في الباعث الأول على الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة والصرف عنها وهو (حب الدنيا وشهواتها)، لكي نبدأ الكلام في الباعث الثاني على الإصرار على الذنوب والصرف عن التوبة، وهو (طول الأمل)، وهو موضوع المطلب الثاني القادم إن شاء الله تعالى.

المطلب الثاني
طول الأمل الباعث على الإصرار والتسويف

٧٣٧- تقسيم البحث:

يتألف هذا المطلب من ثلاث فقرات:

- الفقرة الأولى: في التعريف بطول الأمل وآثاره.
- الفقرة الثانية: في أقوال علماء التفسير في طول الأمل وآثاره.
- الفقرة الثالثة: في أقوال عامة العلماء في طول الأمل وآثاره.

(٧٨١) صديق القنوجي: يقظة أولي الاعتبار ج: ١ ص: ٢١٣.

الفقرة الأولى
في التعريف بطول الأمل وآثاره

٧٣٨-١- طول الأمل صارف عن التوبة:

طول الأمل هو الآفة الثانية من الآفات المانعة للعبد عن المبادرة إلى التوبة على الفور، والداعية له إلى التسويف فيها يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة، لأنه يؤمل في حياة طويلة، وأن الموت ليس قريباً منه فلا يحتاج إلى التدارك الآن فلا يبادر إلى التوبة، بل يسوف فيها، ويبقى على حالة الإصرار.

٧٣٩-٢- طول الأمل من خداع النفس والشيطان:

فإذا خطفه الموت علم عندها أن طول الأمل كان من خداع النفس والشيطان، وحينئذ يود الإنسان لو يؤجل يوماً واحداً، أو حتى ساعة واحدة، ليتدارك حاله ويصلح ما ضيع من الواجبات وما اقترف من المحرمات، قال تعالى واصفاً هذه الحال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، وقال حكاية عن صاحب هذه الحال: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ ﴾ [المنافقون: ١٠-١١].

٧٤٠-٣- طول الأمل دال على الغفلة ونوم القلب:

وعلى ذلك فطول الأمل هو نوع من الغفلة ونوم القلب أو مرضه أو موته، بخلاف صاحب اليقظة الذي لا يستبعد الموت في أي لحظة، فيستغل ويستثمر كل ساعة، وكل نفس، للتزود للآخرة، فإذا وقع منه ذنب تراه يبادر ويسارع إلى التوبة النصوح التي تعيده إلى حال التقوى، فإن العبد بالذنب ينزل عن حال التقوى، وبالتوبة يعود إليها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، بينما بين في تتمة الآية، بشأن صاحب طول الأمل وسوء العمل، أن إخوانهم من الشياطين يمدونهم في استمرار الغي، قال تعالى: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٢] أي لا يتوقفون عن إمدادهم لكي يبقوا على حالة

الإصرار منصرفين عن اليقظة والتوبة، لاهية قلوبهم بطول الأمل كما قال تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

٧٤١-٤- حقيقة طول الأمل وآثاره السيئة:

وحقيقة طول الأمل: هو شعور الإنسان بأنه سيعمر طويلاً، وأن الموت بعيد عنه، واستيلاء هذا الشعور عليه حتى تنصبغ به كل أفكاره وأفعاله وتصرفاته وتظهر في صورة تعلق بالدنيا ونسيان للآخرة، وهذا يقوده إلى التكاسل في الطاعات وإلى اقتحام المحرمات المشتهاة، وهو في حالة غفلة عن الموت واستبعاد له، مع أن الحقيقة غير ذلك، فالموت يمكن أن يحل به في أية لحظة من ليل أو نهار، وفي أي نفس من أنفاسه، فلماذا يرجح لنفسه احتمال بعد الموت عنه ولا يرجح احتمال قربه منه؟ مع أن الاحتمالين قائمان ومعلومان بالمشاهدة، فبعض الناس مد الله في أعمارهم، وبعضهم خطفه الموت طفلاً أو صبياً أو شاباً أو شابة، فالموت ليس له زمان معين، فلحظات العمر كلها زمان لحصول الموت فيها.

ومن هنا كان استبعاد قرب الموت - بسبب طول الأمل - مخالفاً للواقع المشاهد، وخدعة يمني بها الإنسان نفسه ويعده بها شيطانه ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١٢٠].

وطول الأمل بهذا المعنى يقود إلى تفضيل العاجلة على الآخرة، وإلى إساءة العمل، ونسيان الآخرة، وبقاء الغفلة، وانتفاء اليقظة، والتسويف في التوبة.

٧٤٢-٥- قصر الأمل نافع في الأعمال الدنيوية والأخروية:

وبعكس ذلك قصر الأمل، فصاحبة لا يستبعد الموت في أية لحظة، بل يحس أن الموت محتمل وقريب منه في أي يوم من أيامه، أو نفس من أنفاسه، فيدفعه هذا إلى الجد في العمل، ومسابقة الأيام والليالي في التزود للآخرة وذلك بالتحقق بمعاني الإيمان والعمل الصالح، سواء أكان هذا العمل من أعمال الدنيا للقيام بوظيفة الاستخلاف في الأرض وعمارتها على منهج الله تعالى - وهي مع النية الصالحة عبادة -، أو كان من أعمال الآخرة كأركان الإسلام وشعب الإيمان، وهو من معاني قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقصر الأمل نافع في كل تلك الأعمال حتى المتعلقة بعمارة الدنيا ولا يضر بشيء منها ما دام المسلم يتعامل في كل أفعاله الدنيوية والأخروية مع الأمر والنهي الإلهي الذي يأمره بإقامة الحياة كلها على منهج الله، لكن قصر الأمل سيمكنه من تفضيل الآخرة على الدنيا وأن يحسب حسابها في كل نفس من أنفاسه لأن الموت آت ولعله يكون قريباً جداً.

وطول الأمل يضاد ذكر الموت المأمور به شرعا، وذكر الموت ينشئ قصر الأمل الذي يحفز على مسابقة الأيام والليالي في ممارسة العمل الصالح بل في اختيار نفائس الكسب من العمل الصالح قبل مجيء الموت وفوات الأوان.

٧٤٣-٦- بين الأمل المحمود وطول الأمل المذموم :

الأمل لا يكون ضاراً أو منهياً عنه إذا رافقته اليقظة وذكر الموت والمواظبة على العمل الصالح في كل حين ولم يكن متضمناً لاستبعاد الموت. بل وقر في قلبه أنه من المحتمل أن يمد الله في عمره طويلاً، ومن المحتمل أن يموت اليوم أو غداً، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ [النحل: ٧٠]. وهذا ما ينبغي أن ينطوي عليه قلب المسلم، وهو الموافق للحكمة من خلق الإنسان واستخلافه في الأرض لعمارتها وتصريفها حسب منهج الله تعالى، ومن أجل ذلك كان تسخير ما في السماوات وما في الأرض موافقاً لحياة الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ ﴾ [الجاثية: ١٣]، ولا شك أن ذلك يحتاج إلى أن يظن الإنسان بقاءه في الحياة فترة كافية للقيام بهذه الوظيفة، وهذا أمل نافع، به تعمر الأرض وتصلح، وهو المتفق مع مقاصد الشريعة من تحقيق مصالح العباد في الدارين، ومن أجل ذلك أخفى الله تعالى الأجل عن الإنسان لأنه أصلح له من هذه الجهة، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ [القصص: ٧٧] [٧٨٢].

---

(٧٨٢) جاء في تفسير القرطبي (ج: ١٣ ص: ٣١٤) في تفسير الآية: «قوله تعالى: (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) أي اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهي الجنة، فإن من حق المؤمن =

٧٤٤-٧- استبعاد الموت ركن في مصطلح (طول الأمل):

وعلى ذلك فالمذموم من الأمل ما كان معه استبعاد الموت ونسيانه والغفلة عنه، لأنه يفضي إلى التراخي في العمل والتسويف في الطاعات والتوبة، ولأنه يضاد المأمور به شرعاً من ذكر الموت، فمصطلح (طول الأمل) الذي تكلم عنه العلماء من لوازمه استبعاد احتمال الموت في كل لحظة مما يفضي إلى الانغماس في الدنيا ونسيان الآخرة والتراخي في الطاعات والتسويف في التوبة.

٧٤٥-٨- قضاء الوقت بالملهيات ركن في مصطلح (طول الأمل):

وأيضاً فإن طول الأمل الذي تكلم في ذمه العلماء من لوازمه قضاء الأوقات بالملهيات لا بالطاعات، فإن قضاها بالطاعات وهو يؤمل بحياة طويلة مع عدم استبعاد الموت في أي لحظة لم يكن طول أمله على هذا الوجه ضاراً أو منهياً عنه، فإن الأمل مع اليقظة والعمل الصالح لا يكون ملهياً فلا يكون داخلاً في الذم الوارد في قوله تعالى (ويلههم الأمل) الذي قاله تبارك وتعالى بشأن أهل الدنيا الذين يجعلون من دنياهم (مائدة طعام وفرصة متاع) يحدوهم طول الأمل الملهي عن التزود للآخرة حتى يفجأهم الموت، قال تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

٧٤٦-٩- طول الأمل أساسه حب الدنيا:

ذلك أن طول الأمل - بركنيه السابقين - أساسه حب الدنيا الذي يرغب في طول الأمل فيها، والانكباب على الدنيا يمنع من الفكرة في الخروج منها، والجهل بغوائلها

= أن يصرف الدنيا بما ينفعه في الآخرة لا في التجبر والبغي، قوله تعالى: (ولا تنس نصيبك من الدنيا): اختلف فيه، فقال ابن عباس والجمهور: لا تضيع عمرك في ألا تعمل عملاً صالحاً في دنياك إذ الآخرة إنما يعمل لها، فتصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها، فالكلام على هذا التأويل شدة في الموعظة، وقال الحسن وقتادة معناه: لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه ونظرك لعاقبة دنياك، فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه، وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدة قاله ابن عطية، قلت [أي القرطبي]: وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر في قوله: احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً... قال ابن العربي: وأبدع ما فيه عندي قول قتادة: ولا تنس نصيبك الحلال فهو نصيبك من الدنيا. وما أحسن هذا ».

وعواقبها يحمل على الإرادة لها والازدياد منها، لأن من أحب شيئا أحب الكون معه والازدياد منه، ومن كان مشغوفا بالدنيا محبا لها حريصا عليها قد خدعته بزخرفها وأمالته برونقها وسحرته بزينتها كيف يريد مفارقتها، أم كيف يحب مزايلتها، هذا أمر لم تجر العادة به، ولا حدثنا عنه، بل تجد من كان على هذه الصفة أعمى عن طريق الخير، أصم عن داعي الرشد، قليل الرأي، سيئ النظر، ضعيف الإيمان،لم تترك له الدنيا ما يسمع به ولا ما يرى الحقائق بواسطته، إنما دينه وشغله وحديثه دنياه، لها ينظر، ولها يسمع، ولها يعطي، ولها يأخذ، قد ملأت عينه وقلبه وأذنه...[783].

وعلى ذلك يكون مصطلح (طول الأمل) الذي تكلم العلماء في ذمه هو ما كان أساسه: حب الدنيا، وكان ركناه: استبعاد الموت، وقضاء الحياة بالملهيات، ولا شك أن هذا داء عضال يفضي إلى أسوأ الأحوال، ودواؤه في قصر الأمل المتضمن لذكر الموت المطلوب ذكره شرعاً والمفضي إلى المسارعة في الطاعات وعدم التسويف في التوبة.

وبنحو ما تقدم عرف بعض العلماء (الأمل) وهو يتحدث عن طول الأمل فقال: «وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا والانكباب عليها والحب لها والإعراض عن الآخرة»[784].

وهذه المعاني التي ذكرناها مهمة في فهم أقوال المفسرين والعلماء في ذمهم لطول الأمل ومدحهم لقصر الأمل.

ونقدم فيما يلي طائفة من أقوال المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣]، مركزين على تفهم معنى قوله تعالى: (ويلههم الأمل) باعتباره صارفاً عن التوبة وداعياً إلى الإصرار، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ ﴾ [الحديد: ١٤] فقد جاء في أحد معاني تفسيره أنه طول الأمل. ثم نتبع ذلك بطائفة من أقوال عامة العلماء الذين تكلموا في طول الأمل.

---

(٧٨٣) عبد الحق: العاقبة في ذكر الموت ص ٩٠ وما بعدها (بتصرف).

(٧٨٤) تفسير البيضاوي ج: ١٠ ص: ٢-٣ .

الفقرة الثانية
أقوال المفسرين في طول الأمل وأثره في الصرف عن التوبة

٧٤٧-١- قول القرطبي في طول الأمل:

تكلم القرطبي عن طول الأمل بمناسبة تفسير قوله تعالى: ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ ﴾ [الحديد: ١٤] فقال: « (وغرتكم الأماني) أي الأباطيل، وقيل طول الأمل... وقال بعض العلماء: إن للباقي بالماضي معتبراً، وللآخر بالأول مزدجراً، والسعيد من لا يغتر بالطمع ولا يركن إلى الخدع، ومن ذكر المنية نسي الأمنية، ومن أطال الأمل نسي العمل وغفل عن الأجل... وعن ابن عباس: أن نبي الله ﷺ خط لنا خطوطاً، وخط منها خطاً ناحية فقال: (أتدرون ما هذا؟ هذا مثل ابن آدم ومثل التمني، وتلك الخطوط الآمال، بينما يتمنى إذ جاءه الموت) وعن ابن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مربعاً، وخط وسطه خطاً وجعله خارجاً منه، وخط عن يمينه ويساره خطوطاً صغاراً فقال: هذا ابن آدم، وهذا أجله محيط به، وهذا أمله قد جاوز أجله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا) » (٧٨٥) .

٧٤٨-٢- قول ابن كثير في طول الأمل:

جاء في تفسير ابن كثير أن طول الأمل يصرف عن التوبة حيث قال في تفسير قوله تعالى: (ويلههم الأمل): «أي عن التوبة والإنابة» (٧٨٦) .

وذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾ [القيامة: ٥] في أحد وجوه التفسير نقلاً عن السلف أنها تعني الأمل، قال: «وقوله: (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) قال سعيد عن ابن عباس يعني: يمضي قدماً، وقال العوفي عن ابن عياض: (ليفجر أمامه) يعني: الأمل، يقول الإنسان أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة، ويقال هو الكفر بالحق بين يدي القيامة وقال مجاهد: (ليفجر أمامه): ليمضي أمامه راكباً رأسه وقال الحسن: لا يلقى

---

(٧٨٥) تفسير القرطبي ج: ١٧ ص: ٢٤٧ والحديث رواه البخاري (٦٤١٧)، وابن ماجة (٤٢٣١)، وأحمد (٣٤٧٠)، والدارمي (٢٦١٣) من حديث عبدالله بن مسعود.

(٧٨٦) تفسير ابن كثير ج: ٢ ص: ٥٤٨.

ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قدماً قدماً إلا من عصمه الله تعالى، وروي عن عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وغير واحد من السلف هو الذي يعجل الذنوب ويسوف التوبة، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب وكذا قال ابن زيد، وهذا هو الأظهر من المراد ولهذا قال بعده: ﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦] (٧٨٧).

٧٤٩-٣- ما جاء في تفسير البيضاوي بشأن طول الأمل:

وجاء في تفسير البيضاوي: «قوله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ [الحجر: ٣] تهديد لهم، ﴿ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ [الحجر: ٣]: أي يشغلهم عن الطاعة، يقال: ألهاه عن كذا، أي شغله، ولهى هو عن الشيء يلهى، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣] إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا... وفي مسند البزار عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (أربعة من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا.)(٧٨٨).

وطول الأمل: داء عضال، ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد واشتد علاجه، ولم يفارقه داء ولا نجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء، ويئس من برئه الحكماء والعلماء.

وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا والانكباب عليها والحب لها والإعراض عن الآخرة. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخرها بالبخل والأمل)(٧٨٩)، ويروى عن أبي الدرداء ﷺ أنه قام على درج مسجد دمشق

---

(٧٨٧) تفسير ابن كثير ج: ٢ ص:٤٤٩.

(٧٨٨) المنذري: الترغيب والترهيب: ٢/ ٣٤٢ و ٤/ ١٢٠ وقال: رواه البزار وغيره، والهيثمي في مجمع الزوائد: ١٠/ ٢٢٦ وقال: وفيه هانئ بن المتوكل وهو ضعيف.

(٧٨٩) قال المنذري في (الترغيب والترهيب ج: ٤ ص: ١٢١): «وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا أعلمه إلا رفعه قال: (صلاح أول هذه الأمة بالزهادة واليقين وهلاك آخرها بالبخل والأمل) رواه الطبراني وفي إسناده احتمال للتحسين، ورواه ابن أبي الدنيا والأصبهاني كلاهما من طريق ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: (نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل)». وانظر أيضاً: شعب الإيمان للبيهقي: ٧/ ٤٢٧، والفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٢٨٩.

فقال: يأهل دمشق: ألا تسمعون من أخ لكم ناصح، إن من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً، ويبنون مشيداً، ويأملون بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً، وبنيانهم قبوراً، وأملهم غروراً، هذه عاد قد ملأت البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً فمن يشتري مني اليوم تركتهم بدرهمين؟... وأنشدوا:

يـا ذا المؤمـل آمـالاً وإن بعـدت ... منـه ويـزعم أن يحظـى بأقـصاها

أنـى تفـوز بـها ترجـوه ويـك ومـا ... أصـبحت في ثقـة مـن نيـل أدناهـا

وقال الحسن: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل، وصدق ﷺ، فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخي والتواني، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض، ويميل إلى الهوى، وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يطالب صاحبه ببرهان، كما أن قصر الأمل يبعث على العمل، ويحمل على المبادرة، ويحث على المسابقة»(٧٩٠).

٧٥٠-٤- ما جاء في تفسير النسفي بشأن طول الأمل:

وجاء في تفسير النسفي: ﴿ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ [الحجر: ٣]: ويشغلهم أملهم وأمانيهم عن الإيمان ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ سوء صنيعهم. وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدى إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين(٧٩١).

٧٥١-٥- قول الآلوسي في طول الأمل:

وجاء في «روح المعاني»: «﴿ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ [الحجر: ٣]: ويشغلهم التوقع لطول الأعمار، وبلوغ الأوطار، واستقامة الأحوال، وأن لا يلقوا إلا خيراً في العاقبة والمآل، عن الإيمان والطاعة، أو عن التفكر فيما يصيرون إليه. ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءه ووخامة عاقبته... وفي الآية إشارة إلى أن التلذذ والتنعم وعدم الاستعداد للآخرة والتأهب لها ليس من أخلاق من يطلب النجاة. وجاء عن الحسن ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل.

---

(٧٩٠) تفسير البيضاوي ج: ١٠ ص: ٢ - ٣.
(٧٩١) تفسير النسفي ج: ٢ ص: ٢٣٧.

وأخرج أحمد في الزهد، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده لا أعلمه إلا رفعه قال: (صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل)(٧٩٢)، وفي بعض الآثار عن علي كرم الله تعالى وجهه: (إنما أخشى عليكم اثنين: طول الأمل، واتباع الهوى، فإن طول الأمل ينسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الهدى) »(٧٩٣).

٦-٧٥٢- ما جاء في « التبيان في أقسام القرآن » بشأن طول الأمل:

وجاء في «التبيان في أقسام القرآن»وهو يتكلم عن اليوم الآخر وغفلة الناس عنه وترك الاستعداد له بسبب طول الأمل وغيره، أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٣] فقال: «ومع ذلك فأكثر النفوس في غفلة عنه لا تستعد له، ولا تأخذ له أهبة، والمستعد له الآخذ له أهبة لا يعطيه حقه منهم إلا الفرد بعد الفرد، فأكثر الخلق لا ينظرون في المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار، ولا يتفكرون في قلة مقامهم في دار الغرور، ولا في رحيلهم وانتقالهم عنها، ولا إلى أين يرحلون وأين يستقرون، قد ملكهم الحس، وقل نصيبهم من العقل، وشملتهم الغفلة، وغرتهم الأماني التي هي كالسراب، وخدعهم طول الأمل، وكأن المقيم لا يرحل، وكأن أحدهم لا يبعث ولا يسأل، وكأن مع كل مقيم توقيع من الله لفلان بن فلان بالأمان من عذابه والفوز بجزيل ثوابه، فأما اللذات الحسية والشهوات النفسية فكيفما حصلت فإنهم حصلوها، ومن أي وجه لاحت أخذوها، غافلين عن المطالبة، آمنين من العاقبة، يسعون لما لا يدركون، ويتركون ما هم به مطالبون، ويعمرون ما هم عنه منتقلون، ويخربون ما هم إليه صائرون، ﴿ وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]، ألهتهم

---

(٧٩٢) مجمع الزوائد (١٠/ ٢٥٥) وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه عصمة بن المتوكل وثقه ابن حبان، وأيضاً (١٠/ ٢٨٦) وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم، والمعجم الأوسط (٧٦٥٠)، وشعب الإيمان (١٠٥٢٦) و(١٠٨٨٤) و(١٠٨٤٦)، والترغيب والترهيب (٤/ ١٢١) وقال: رواه الطبراني وفي إسناده احتمال للتحسين.

(٧٩٣) روح المعاني: ج:١٤ ص:٩-١٠ (وانظر أيضا: الدر المنثور ج: ٨ ص: ٥٦ وفتح القدير ج: ٥ ص: ١٧٠ وزاد المسير ج: ٤ ص: ٣٨٢).

شهوات نفوسهم فلا ينظرون في مصالحها، ولا يأخذون في جمع زادها في سفرها، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

والعجب كل العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته، وتحصى عليه أنفاسه، ومطايا الليل والنهار تسرع به ولا يتفكر إلى أين يحمل، ولا إلى أي منزل ينقل.

وكيف تنام العين وهي قريرة ... ولم تدر في أي المحلين تنزل

وإذا نزل بأحدهم الموت قلق لخراب ذاته وذهاب لذاته، لا لما سبق من جناياته، ولا لسوء منقلبه بعد مماته، فإن خطرت على أحدهم خطرة من ذلك اعتمد العفو أو الرحمة، وكأنه يتيقن أن ذلك نصيبه ولا بد، فلو أن العاقل أحضر ذهنه ما استحضر عقله وسار بفكره وأمعن النظر وتأمل الآيات لفهم المراد من إيجاده، ولنظرت عين الراحل إلى الطريق، ولأخذ المسافر في التزود والمريض في التداوي...

فما الظن بأمر متيقن كما أنه لصدق إيمانهم وقوة إيقانهم وكأنهم يعاينون الأمر... قال ابن وهب أخبرني مسلم بن علي عن الأوزاعي قال: كان السلف إذا طلع الفجر أو قبله كأنما على رؤوسهم الطير، مقبلين على أنفسهم حتى لو أن حبيباً لأحدهم غاب عنه حيناً ثم قدم لما التفت إليه، فلا يزالون كذلك إلى طلوع الشمس... ثم يأخذون في الفقه»[٧٩٤].

الفقرة الثالثة
أقوال العلماء في طول الأمل وأثره في الصرف عن التوبة

تكلم عدد من العلماء - من غير أصحاب التفاسير- في طول الأمل، ونحن ننقل بعض أقوالهم - مشذبة ومختصرة بقدر ما تمس الحاجة إليه مع المحافظة على عباراتهم -:

٧٥٣-١- قول الغزالي في حقيقة طول الأمل وآثاره:

قال الغزالي وهو يتكلم عن مراتب الناس في طول الأمل وقصره: «اعلم أن الناس في ذلك يتفاوتون:

فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً، قال الله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم- وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه

(٧٩٤) ابن القيم: التبيان في أقسام القرآن ج: ١ ص: ٢٦٩ - ٢٧٠.

وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً... وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: (قلب الشيخ شاب على حب اثنتين: طول الحياة، وحب المال)[٧٩٥]... ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا ﷺ: (يا عبد الله إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح)[٧٩٦]، ومنهم من لا يقدر البقاء أيضا ساعة... ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره، وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع، وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه لما سأله رسول الله ﷺ عن حقيقة إيمانه فقال: (ما خطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها أخرى)[٧٩٧].

ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل، وكل إنسان يدعي أنه قصير الأمل وهو كاذب، إنما يظهر ذلك بأعماله... وإنما علامة التوفيق: أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة، فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه، ثم يستأنف مثله إلى الصباح، وهكذا إذا أصبح، ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه، فمثل هذا إذا مات سعد وغنم، وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة، فالموت له سعادة والحياة له مزيد، فليكن الموت على بالك يا مسكين فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة، ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهلت فيه»[٧٩٨].

٧٥٤-٢- ما جاء في « شعب الإيمان » للبيهقي بشأن طول الأمل:

وروى البيهقي في شعب الإيمان - بسنده - «عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: خطب علي بن أبي طالب ﷺ بالكوفة فقال: يا أيها الناس إن أخوف ما أخاف عليكم طول الأمل، واتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيضل عن

---

(٧٩٥) أثبتنا نص الحديث كما أورده العراقي في هامش « الإحياء » ٤ : ٤٥٨.

(٧٩٦) البخاري (٥٩٣٧)، والترمذي (٢٣٣٣) واللفظ له.

(٧٩٧) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة إيمانه فقال ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى. أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وهو ضعيف (انظر تخريج العراقي في الإحياء بالموضع نفسه).

(٧٩٨) إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٤٥٨.

الحق، ألا إن الدنيا قد ولت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل»[799].

٧٥٥-٣- قول ابن القيم في طول الأمل وآثاره:

قال ابن القيم وهو يتحدث عن طول الأمل وآثاره في جملة أمور أخرى: «أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق خلقه عبثاً، ولم يتركهم سدى، بل خلقهم لأمر عظيم، وخطب جسيم، عرض على السماوات والأرض والجبال فأبين وأشفقن منه إشفاقاً ووجلاً، وقلن: ربنا إن أمرتنا فسمعاً وطاعة، وإن خيرتنا فعافيتك نريد لا نبغي بها بدلاً، وحمله الإنسان على ضعفه وعجزه عن حمله، وباء به على ظلمه وجهله، فألقى أكثر الناس الحمل عن ظهورهم لشدة مؤنته عليهم وثقله، فصحبوا الدنيا صحبة الأنعام السائمة، لا ينظرون في معرفة موجدهم وحقه عليهم، ولا في المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار التي هي طريق ومعبر إلى دار القرار، ولا يتفكرون في قلة مقامهم في الدنيا الفانية وسرعة رحيلهم إلى الآخرة الباقية، فقد ملكهم باعث الحس، وغاب عنهم داعي العقل، وشملتهم الغفلة، وغرتهم الأماني الباطلة، والخدع الكاذبة، فخدعهم طول الأمل، وران على قلوبهم سوء العمل، فهمهم في لذات الدنيا وشهوات النفوس، كيف حصلت حصولها، ومن أي وجه لاحت أخذوها، إذا بدا لهم حظ من الدنيا بآخرتهم طاروا إليه زرافات ووحداناً، وإذا عرض لهم عاجل من الدنيا لم يؤثروا عليه ثواباً من الله ولا رضواناً، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]، ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

والعجب كل العجب من غفلة من لحظاته معدودة عليه، وكل نفس من أنفاسه لا قيمة له [أي لا يقدر بثمن]، إذا ذهب لم يرجع إليه، فمطايا الليل والنهار تسرع به ولا يتفكر إلى أين يحمل، ويسار به أعظم من سير البريد ولا يدري إلى أي الدارين ينقل، فإذا نزل به الموت اشتد قلقه لخراب ذاته وذهاب لذاته، لا لما سبق من جناياته وسلف من تفريطه حيث لم يقدم لحياته، فإذا خطرت له خطرة عارضة لما خلق له دفعها باعتماده على

(٧٩٩) شعب الإيمان ج: ٧ ص: ٣٦٩.

العفو وقال قد أنبأنا أنه هو الغفور الرحيم، وكأنه لم ينبأ أن عذابه هو العذاب الأليم»[٨٠٠].

٧٥٦- عشرة إضاعات يسهم بها طول الأمل:

وتكلم ابن القيم في موضع آخر عن عشرة إضاعات يضيعها الإنسان على نفسه مردها جميعاً إلى اثنتين رئيستين إحداهما طول الأمل فقال: «عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها: علم لا يعمل به، وعمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء، ومال لا ينفق منه فلا يستمتع به جامعه في الدنيا ولا يقدمه أمامه إلى الآخرة، وقلب فارغ من محبة الله والشوق إليه والأنس به، وبدن معطل من طاعته وخدمته، ومحبة لا تتقيد برضاء المحبوب وامتثال أوامره، ووقت معطل عن استدراك فارطه أو اغتنام بر وقربة، وفكر يجول فيما لا ينفع، وخدمة من لا تقربك خدمته إلى الله ولا تعود عليك بصلاح دنياك، وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله وهو أسير في قبضته ولا يملك لنفسه حذراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وأعظم هذه الإضاعات إضاعتان هما أصل كل إضاعة: إضاعة القلب، وإضاعة الوقت، فإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة، وإضاعة الوقت من طول الأمل، فاجتمع الفساد كله في: اتباع الهوى، وطول الأمل. والصلاح كله في: اتباع الهدى والاستعداد للقاء الله، والله المستعان»[٨٠١].

وذكر ابن القيم أيضاً ثمانية أسباب للصبر عن المعصية أحدها قصر الأمل فقال: «السبب الثامن: قصر الأمل، وعلمه بسرعة انتقاله، وأنه كمسافر دخل قرية وهو مزمع على الخروج منها، أو كراكب قال في ظل شجرة ثم سار وتركها، فهو لعلمه بقلة مقامه وسرعة انتقاله حريص على ترك ما يثقله حمله ويضره ولا ينفعه، حريص على الانتقال بخير ما بحضرته، فليس للعبد أنفع من قصر الأمل، ولا أضر من التسويف وطول الأمل»[٨٠٢].

٧٥٧-٤- ما جاء في كتاب « العاقبة » بشأن ضرر طول الأمل وفائدة قصره:

وقد أفاض صاحب كتاب «العاقبة في ذكر الموت» في الكلام عن طول الأمل وآثاره، ونقل الكثير من أقوال السلف في ذلك، ونحن نذكر مقتطفات منه - مشذبة مع

---

(٨٠٠) ابن القيم: حادي الأرواح ج: ١ ص: ٣-٤.
(٨٠١) ابن القيم: الفوائد ج: ١ ص: ١١١- ١١٢.
(٨٠٢) طريق الهجرتين ج: ١ ص: ٤١٣ .

المحافظة على عبارته - قال: «واعلم أن طول الأمل داء عضال، ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه، واشتد علاجه، ولم يفارقه داء ولا نجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من برئه الحكماء والعلماء، وقد روي في طول الأمل وذمه، وفي التحريض على العمل والترغيب فيه، ما في بعضه الكفاية وما بأقل منه يوصل إلى المقصود بعون الله تعالى قال الله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر:٣].

وقال ﷺ : (لا يزال قلب الشيخ شابا في اثنتين حب الدنيا وطول الأمل)[٨٠٣] ذكره البخاري ومسلم وغيرهما.

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مربعاً وقال: هذا الأجل وخط في وسطه خطاً وقال: هذا الإنسان، وخط في عرضه يعني في جانبه خطوطاً فقال، هذه الأعراض، وخط خطاً خارجاً وقال: هذا الأمل، قال: فالأعراض تنهشه وعينه إلى الأمل)[٨٠٤]، يريد ﷺ : أن الإنسان قد أحاط به أجله وأنه دائر به فحيثما توجه لقيه، وأن فتن الدنيا ومحنها تعترضه وتنهشه وتتلقاه وتستقبله، وهو مع ذلك بعيد الأمل مصروف النظر إليه.

ويروى أنه ﷺ : (أخذ عوداً فغرزه بين يديه، وغرز عوداً آخر إلى جنبه قريباً منه، ثم أخذ عوداً ثالثا فغرزه بعيداً منه، ثم قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال:هذا الإنسان وأشار إلى العود الذي بين يديه، وهذا الأجل وأشار إلى العود الذي إلى جنبه، ثم قال: وذلك الأمل وأشار إلى العود الثالث البعيد، فالإنسان يتعاطى الأمل ويختلجه قبل ذلك الأجل)[٨٠٥].

ويروى أن النبي ﷺ اطلع ذات يوم على الناس فقال: (ألا تستحيون من الله؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون مالا تدركون)[٨٠٦]...

---

(٨٠٣) أخرجه البخاري (٥٩٤١).

(٨٠٤) أخرجه البخاري (٥٩٣٨)، وابن ماجة (٤٢٢١)، وأحمد (٣٤٧٠)، والدارمي (٢٦١٣).

(٨٠٥) أخرجه أحمد (١٠٧٠٨).

(٨٠٦) المنذري: الترغيب والترهيب: ٤/ ١٢١ وقال: رواه الطبراني.

ومن كلام بعضهم: أيها الجاري في أمله رويدك، فإن الزمان يفتل قيدك، وربما صرعك قبل أن تنال ما به خدعك، وقتلك قبل أن تستوفي أملك، فأوردك منهل رداك، وأشمت بك عداك، وأخذك بما كسبت يداك. وربما أدركت ما طلبت واستوفيت ما أملت فأخذك أخذة أسف قبل فل عرشك، وهدم حوضك، وأطبق سماءك وزلزل أرضك، ورمى بك حيث لا يرعى لك ذمة، ولا تدركك رحمة، ولا تنكشف عنك كربة، ولا تنجلي عنك غمة، وأنشدوا:

أمل من دنياه ما أملا ... وقال ما قال لأن يفعلا
وصال في هذا الورى صولة ... بَزَّ بها الآخر والأولا
وطبق الأرض بفرسانه ... وهد منها شعفات الفلا
وقال هذي ثمرات المنى ... فليجنها الأفضل والأفضلا
فمن حريم فض ختامه ... ومن مليك في الثرى جندلا
حتى إذا بات على عرشه ... مستوفياً كل الذي أملا
صاح به صرف الردى صيحة ... ألقى بأعلى عرشه أسفلا
ودك في الأرض بإيوانه ... وزلزلت أرجاء ذاك الملا
فلا سقت مصرعه مزنة ... ولا انجلت كربته لا ولا

وخطب علي ﷺ فقال: ألا وإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وآذنت باطلاع، ألا وإن المضمار اليوم، والسباق غداً، ألا وإن السبقة الجنة، والغاية الموت، ألا وإنكم في أيام مهل، ومن ورائه أجل، يحثه عجل، فمن عمل في أيام مهله قبل حضور أجله نفعه عمله ولم يضره أمله، ومن لم يعمل في أيام مهله قبل حضور أجله ضره أمله وساءه عمله.

وقال أبو بكر زكريا التيمي بينما هشام بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أُتي بحجر مكتوب فيه باللسان العجمي فطلب من يقرؤه له فأتي بوهب بن منبه رحمه الله فقرأه فإذا فيه: يا ابن آدم لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك، ففارقك الولد والقريب، ورفضك الوالد والنسيب، فلا أنت لدنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة، يوم الحسرة والندامة...

وقال آخر: عن ابن عباس رضي الله عنهما ما انتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله ﷺ بمثل كتاب كتبه إليّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو: أما بعد فإن الإنسان يسره دَرْك ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه، فلا تكن بها نلت من دنياك فرحاً، ولا بما فاتك منها ترحاً، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة لطول الأمل، فكأن قد نزل بك الأجل، والسلام.

وقال بعض الحكماء في موعظة له: كلنا نتيقن الموت وما نرى له منا مستعداً، وكلنا نتيقن الجنة وما نرى لها منا عاملاً، وكلنا نتيقن النار وما نرى لها منا خائفاً، فعلام تعرجون، وما عسى تنتظرون، وماذا ترجون، أو ماذا تأملون، الموت أول قادم يقدم عليكم بخير أو شر، فيا إخوتاه سيروا سيراً جميلاً.

وقال آخر: العاقل يعتمد على عمله، والجاهل يعتمد على أمله. وقال آخر: بطول الأمل تقسو القلوب، وبإخلاص النية تقل الذنوب... »[٨٠٧].

«... واعلم أن طول الأمل حجاب على قلبك يمنعك من رؤية الموت ومشاهدته، ووقر في أذنيك يمنعك من سماع وجبته ودوي وقعته، وبقدر ما يرفع لك من الحجاب ترى، وبقدر ما يخفف عن أذنيك من الوقر تسمع، فانظر رحمك الله نظر من رفع الحجاب وفتح بابه، واستمع سماع من أزيل وقره وخوطب سره، وبادر قبل أن يبادر بك وينزل عليك وينفذ حكم الله فيك، فتطوى صحيفة عملك ويختم على ما في يديك، ويقال لك اجن ما غرست، واحصد ما زرعت، واقرأ كتابك الذي كتبت، ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] وبربك تبارك وتعالى شهيداً ورقيباً.

قال مالك بن دينار رحمه الله: رأيت في البادية في يوم شديد البرد شاباً عليه ثوبان خلقان وعليه آثار الدعاء وأنوار الإجابة، فعرفته، وكنت قبل ذلك عهدته في البصرة ذا ثروة وحسن حال، وكان ذا مال وآمال، قال: فبكيت لما رأيته على تلك الحال، فلما رآني بكى، وبدأني بالسلام وقال لي: يا مالك بن دينار ما تقول في عبد أبق من مولاه؟ فبكيت لقوله بكاء شديداً، وقلت له: وهل يستطيع المسكين ذلك؟ البلاد بلاده والعباد عباده فأين

---

(٨٠٧) العاقبة في ذكر الموت ج: ١ ص: ٦١-٦٨.

يهرب المسكين؟ فقال: يا مالك سمعت قارئا يقرأ: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة:١٨] فأحسست في الحال بنار وقعت بين ضلوعي، فلا تخمد ولا تهدأ من ذلك اليوم، يا مالك أتراني أُرحم وتطفأ هذه الجمرة من قلبي؟ فقلت له: أحسن الظن بمولاك فإنه غفور رحيم، ثم قلت له إلى أين؟ قال :إلى مكة شرفها الله تعالى، لعلي أن أكون ممن إذا التجأ إلى الحرم استحق مراعاة الذمم، قال مالك: ففارقني ومضى، فتعجبت من وقوع الموعظة منه موقعها، وما تأجج بين جنبيه من نار التيقظ والإنابة، وما حصل عليه من صدق القبول وحسن الاستماع.

واعلم أن الأمل يُكسِّل عن العمل، ويورث التراخي والتواني، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض، ويميل إلى الهوى، وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان، ولا يطلب صاحبه ببرهان، كما أن قصره يبعث على العمل، ويحمل على المبادرة، ويحث على المسابقة...

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال لرجل وهو يعظه: (اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك)(٨٠٨)، وعن ابن عباس أيضاً عن النبي ﷺ قال: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ)(٨٠٩)، ذكر البخاري... وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغياً، أو فقراً منسياً، أو هرماً مفنداً، أو مرضاً مفسداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال، والدجال شر غائب ينتظر، أو الساعة، والساعة أدهى وأمر)(٨١٠).

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة)(٨١١)...

---

(٨٠٨) المستدرك على الصحيحين: ٤/ ٣٤١، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٨٠٩) البخاري (٥٩٣٣)، وابن ماجة (٤١٦٠)، وأحمد (٣٠٣٨).

(٨١٠) المستدرك على الصحيحين: ٤/ ٣٥٦ برقم (٣٩٤٥).

(٨١١) المستدرك على الصحيحين: ٤/ ٣٤٣، وسنن الترمذي: ٤/ ٦٣٣، وقال في « كشف الخفاء »: رواه أبو داود والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن كعب.

ومن كلام بعضهم: أما تسمعون أيها الناس داعي الموت يدعوكم وحاديه يحدوكم، أما ترون صرعاه في منازلكم وقتلاه بين أيديكم، ففيم هذا التصامم عن الداعي؟ والتشاغل عن الحادي؟ والتعامي عن مصارع القتلي؟ والتغافل عن مشاهدة الهلكى؟ فرحم الله امرأ أيقظ نفسه في مهلة الحياة قبل أن توقظه روعة المهات واستعد لما هو آت قبل الإنبتات وحلول الفوات»(٨١٢).

«... وكتب محمد بن يوسف رحمه الله إلى أخ له: سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإني محذرك من دار منقلبك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك، فتصير في باطن الأرض بعد ظهرها، فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك، فإن يكن الله معك فلا فاقه ولا بأس ولا وحشة، وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك يا أخي من سوء مصرع، وضيق مضجع، ثم تبلغك صيحة النشور ونفخة الصور وقيام الخلائق لفصل القضاء، وامتلأت الأرض بأهلها والسماوات بسكانها، فباحت الأسرار، وسعرت النار، ووضعت الموازين، ونشرت الدواوين، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، فكم من مفتضح ومستور، ومعذب ومرحوم، وكم من هالك وناج، فيا ليت شعري ما حالي وحالك يومئذ؟ فإن في هذا ما هدم اللذات، وسلي عن الشهوات، وقصر من الأمل، وأيقظ النائم، ونبه الغافل، أعاننا الله وإياك على هذا الخطر العظيم، وأوقع الدنيا من قلبك وقلبي موقعها من قلوب المتقين، فإنما نحن له وبه والسلام»(٨١٣).

«... وقال عمر بن الخطاب ﷺ ويل لمن كانت الدنيا أمله والخطايا عمله، عظيم بطنته قليل فطنته، عالم بأمر دنياه جاهل بأمر آخرته.

وقال العلاء بن زياد رحمه الله تعالى: لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، وأنه استقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله. وقال بعض الحكماء: عجبت ممن يحزن على نقصان ماله ولا يحزن على نقصان عمره، وعجبت ممن الدنيا مدبرة عنه والآخرة مقبلة عليه كيف يشتغل بالمدبرة ويعرض عن المقبلة...

---

(٨١٢) العاقبة في ذكر الموت ج: ١ ص: ٧٣ وما بعدها.
(٨١٣) العاقبة في ذكر الموت ج: ١ ص: ٨٣.

وأنشد بعضهم من كلمة له:

لمــــن ورقـــاء بــــالوادي المريــــع ... تـــشب بـــه تبـــاريح الـــضلوع

عــــلى فينانـــة خــــضراء يــــصفو ... عـــلى أعطافهــــا وشي الربيـــــع

تـــردد صــــوت باكيـــة عليهــــا ... رماهـــا الـــدهر في الأهـــل الجميـــع

فــــشتت شــــملها وأدال منـــــه ... غرامـــاً عـــاث في قلـــب صريـــع

عجبــت لهـــا تكلـــم وهـــي خرســـا ... وتبكـــي وهـــي جامـــدة الـــدموع

فهمـــــت حـــــديثها وفهمـــــت أني ... مـــن الخـــسران في أمـــر شـــنيع

أتبكـــي تلـــك إن فقـــدت أنيـــساً ... وتـــشرب منـــه بالكـــأس الفظيـــع

وهـــا أنـــا لـــست أبكـــي فقـــد نفـــسي ... وتـــضييعي الحيـــاة مـــع المـــضيع

ولـــو أني عقلـــت اليـــوم أمـــري ... لأرســـلت المـــدامع بـــالنجيع

ألا يـــا صـــاح والـــشكوى ضروب ... وذكـــر المـــوت يـــذهب بـــالهجوع

لعلـــك أن تعـــير أخـــاك دمعـــاً ... فـــما في مقلتيـــه مـــن دمـــوع

وقال بلال بن سعد رحمه الله: يقال لأحدنا تريد أن تموت؟ فيقول لا، فيقال له: لم؟ فيقول: حتى أتوب وأعمل صالحاً، فيقال له: اعمل، فيقول: سوف أعمل. فلا يحب أن يموت: ولا يحب أن يعمل، فيؤخر عمل الله تعالى ولا يؤخر عمل الدنيا...

وقال ابن المهدي رحمه الله: من قوى أمله قل عمله ومن أتاه أجله لم ينفعه أمله غير أنه لا بد من أمنية وأمل تحيا بهما النفس ويقوى بهما القلب وتعمر بهما الدنيا...

واعلم رحمك الله: أن تقصير الأمل مع حب الدنيا متعذر، وانتظار الموت مع الإكباب عليها غير متيسر، فإن حب الدنيا هو سبب طول الأمل فيها...

وربما وعد نفسه ومناها وطمعها في التوبة، ورجاها، وقال: لو جئت من هذه السفرة، أو لو بنيت هذه الدار، أو لو جمعت ما كان لي متفرقاً، أو لو جهزت هذه البنت أو هذا الولد وأدخلته بيته ونظرت له فيما يعيش به، لتفرغت للنظر لنفسي وقدمت ما أجده في رمسي، وكنت من داري إلى مسجدي ومن مسجدي إلى داري، ولا أنظر في شيء ولا أشتغل في شيء [بمعنى أنه يؤجل التوبة وتحسين العمل والسعي للآخرة بانتظار

أن يفرغ]، فإن جاء من سفرته تجهز لغيرها، وإن فرغ من بنيان داره نظر فيما يصلح لها... يحدث الناس عن الأموات ولا يحدث نفسه أنه يموت، ويشيع جنائزهم ولا يتخيل أن جنازته تشيع، ويقدر لنفسه العيش الطويل ولا يقدر لها الموت القريب، قد غلب عليه السهو، وأطبقه الجهل، وسدت عليه الغفلة طرق الإنابة، وصرفته عن أسباب الفكرة...

ولا يزال كل واحد من هؤلاء على حاله مواظباً، ولما هو فيه ملازماً، حتى يموت على ما هو عليه، ثم يبقى في البرزخ على ما كان عليه، ثم يبعث على ما بقي عليه في البرزخ، أو تتغمده الرحمة وتغشاه المنة، فيستنقذه ربه تعالى من هذه الغمرات، ويأخذ بيده من هذه الهلكات، ويجعل له نوراً يمشي به في الظلمات على ما يرجى من منته وفضله لا رب غيره ولا معبود سواه...

وأما أكثر الشباب فيقول: إذا كبرت تبت، والطلق ممتد والميدان عريض، ولا يرى هذا البائس أنه قد شيع إلى الآخرة من كان أصغر منه سناً، وأحدث منه بالرحم عهداً، قد غرته الشبيبة، وخدعته الصحة، وتمكنت منه الغرة، بما عنده من الثروة والقوة، يقول: أنا صحيح، ومتى أمرض؟ ومتى أموت؟... أما يعلم هذا المسكين المغرور أن الأرض كلها مكان للموت، وأن الزمان كله وقت للموت، لا يختص من الأرض بمكان دون مكان، ولا من الزمان بوقت دون وقت، فلا يزال هذا المغرور منكباً على شهوته، مثابراً على لذته، غافلاً عن يوم صرعته... فانظر رحمك الله كيف يقصر مع هذه الأحوال أمل؟ أو يستقيم معها عمل؟ أو كيف يطمع مع هذه الموانع أن يخرج حب الدنيا من القلب؟ أو يقطع علائقها عن النفس؟ أو يخطر بالخاطر ذكر الموت؟ كلا، حب الدنيا في القلب أرسخ، وإخراجها منه أصعب، والنفس إليها أميل، وهي بها أشغف، وفي طلبها أهلك وأتلف، وعن طريق الرشد أبعد وأصرف، وإن حب الدنيا لهو الداء العضال، الذي أهلك الرجال، وأفسد كثيراً من الأعمال، إلا أن تأتي العناية الإلهية والشفاعة الربانية فتصرف الإنسان إلى النظر الصحيح، وتحمله على الطريق المستقيم، فيرى بعين الحقيقة، وصحيح البصيرة، أنه لا بد من الموت وإن طال المدى وامتد الطلق وبعدت الغاية، وأنه يدفن تحت أطباق الثرى، ويرمى به في ظلمات الأرض، ويسلط الدود على جسده، والهوام على بدنه، فتأخذه من قرنه إلى قدمه، وقد عدم الطبيب، وأسلمه القريب، وتركه الولي والحبيب، وعرض عليه عذاب السعير، وأتاه منكر ونكير، ولم يجد هنالك أنيساً إلا عمله، ولا صاحباً إلا فعله الذي فعله، كما قال القائل:

أسلمني الأهل ببطن الثرى وانصرفوا عني فيا وحشتا
وغادروني معدماً يائساً ما بيديَّ اليوم إلا البكا
وكل ما كان كأن لم يكن وكان ما حاذرته قد أتى
وذاكم المجموع والمقتنى قد صار في كفي مثل الهبا
ولم أجد لي صاحبا هاهنا غير فجور كان لي أو تقى
فلو تراني أو ترى حالتي بكيت لي يا صاح مما ترى»[٨١٤]

«خطب علي رضي الله عنه فقال: ألا وإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وآذنت باطلاع، ألا وإن المضمار اليوم، والسباق غداً، ألا وإن السبقة الجنة، والغاية الموت، ألا وإنكم في أيام مهل، ومن ورائه أجل، يحثه عجل، فمن عمل في أيام مهله قبل حضور أجله نفعه عمله ولم يضره أمله، ومن لم يعمل في أيام مهله قبل حضور أجله ضره أمله وساءه عمله»[٨١٥].

٧٥٨- الأمل الصحيح المحمود رحمة، به تنتظم أسباب المعايش:

وأما قصر الأمل حتى تترك الصناعات وأسباب المعيشة، فإنما يصح في بعض الأشخاص وفي القليل من الناس [ممن قام غيره] بمؤنته، ونظر له سواه في معيشته، سنة الله عز وجل مع المتوكلين وعادته مع المنقطعين. ويبقى أولئك مع آمالهم والنظر في أعمالهم، فإن الأمل رحمة من الله تعالى تنتظم به أسباب المعاش وتستحكم به أمور الناس ويتقوى به الصانع على صناعته والعابد على عبادته، وإنما يذم من الأمل ما امتد وطال حتى أنسى العاقبة والمآل وثبط عن صالح الأعمال»[٨١٦].

وبناء على كل ما تقدم من أقوال المفسرين والعلماء يتبين أن طول الأمل المتضمن لاستبعاد الموت يفضي إلى التسويف في التوبة يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة، حتى إذا جاءه الموت فجأة خطفه مخلطاً مصراً على المعاصي من غير توبة وكانت الآفة المانعة له من التوبة هي طول الأمل.

---

(٨١٤) العاقبة في ذكر الموت ج: ١ ص: ٩٠ وما بعدها.
(٨١٥) العاقبة في ذكر الموت ج: ١ ص: ٩٠ وما بعدها.
(٨١٦) المرجع السابق، وبالموضع نفسه.

وبهذا ننتهي من المطلب الثاني وقد بينا فيه (طول الأمل) بوصفه باعثاً على الإصرار على الذنوب وصارفاً عن التوبة، لنتحول إلى الكلام عن (التعلق بالرجاء من غير عمل) بوصفه باعثاً على الإصرار على الذنوب وصارفاً عن التوبة، وهو موضوع المطلب الثالث القادم إن شاء الله تعالى.

المطلب الثالث
التعلق بالرجاء من غير عمل

٧٥٩- تمهيد: التعلق بالرجاء من غير عمل صارف عن التوبة:

التعلق بالرجاء من غير عمل صالح هو الآفة الثالثة التي تصرف العبد عن التوبة وتجعله لا يشعر بالحاجة إليها فتراه تاركاً للطاعات، منهمكاً في المعاصي، ويقول: إن الله غفور رحيم، فهو يتعلق بالرجاء من غير عمل فلا يتوب، ولماذا يتوب وهو متوقع أن الله سيغفر له ويرحمه ويدخله الجنة وينجيه من النار مع تركه للطاعات واقتحامه للمحرمات لأن الله غفور رحيم وأنه لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية، وأنه يحسن الظن بالله.

ويظهر مما تقدم أن من تعلق بالرجاء من غير عمل يبقى مصروفاً عن التوبة مصدوداً عنها غير شاعر بالحاجة إليها، لذلك كان التعلق بالرجاء من غير عمل آفة من الآفات الصارفة عن التوبة والباعثة على الإصرار. وهذا هو الرجاء المذموم.

وذلك بعكس الرجاء المحمود الذي صاحبه يعمل ويرجو القبول، ويعمل ويرجو رحمة الله تعالى.

فالرجاء منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم، وذلك حسبما إذا كان رجاء مع العمل وهو الرجاء الصحيح، أو رجاء من غير عمل وهو الغرور الذي يكون صاحبه مخدوعاً يظن نفسه راجياً وهو في الحقيقة مغرور.

٧٦٠- التعريف بحقيقة الرجاء واشتماله على العمل وحسن الظن بالله:

الرجاء هو توقع العبد رحمة الله، ومغفرته، وجزاءه الحسن للعبد على أعماله الصالحة، وقبولها منه، وأن يدخله الجنة وينجيه من النار.

وهو يتضمن أمرين:

الأول: العمل بالأمر والنهي الإلهي: من فعل المأمورات وترك المحظورات ولذلك يرجو قبولها وجزاءها الحسن عند الله تعالى، وأن يجزيه الله تعالى برحمته وفضله.

والثاني: حسن الظن بالله تعالى: وذلك بأن يعتقد أن الله تعالى سيرحمه حيث عمل بعمل أهل الجنة وكف نفسه عن عمل أهل النار وعالج تقصيراته وذنوبه بالتوبة، وسدد وقارب جهد استطاعته، فهو يرجو رحمة الله معتمداً على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم: ٣٢]، وقوله: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقوله: ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقوله: ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٠]، ونحو ذلك، ومعتمداً على أن الله تعالى وصف نفسه بأنه: الرحمن الرحيم، والعفو الغفور، والغفور الودود، ونحو ذلك من صفات الجمال.

٧٦١- التمييز بين رجاء الصالحين ورجاء المخدوعين:

ما ذكرناه في الفقرة السابقة هو رجاء الصالحين، وهو الرجاء المحمود، وهو مطلوب شرعاً لقوله تعالى في وصف المؤمنين العاملين بالأمر والنهي الإلهي: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف: ١١٠] ونحو ذلك. فكل هؤلاء: جمعوا بين العمل والرجاء.

أما التعلق بالرجاء من غير عمل صالح فهو بضاعة المفلسين يخدرون بها أنفسهم ويمنونها، أو يخدرهم الشيطان بها ويمنيهم لكي لا يتوبوا ولا يستقيموا، فيبقون على حال العجز والتمني، بعيداً عن الكياسة والعقل وفهم خطابات الشرع، ومثل هذا هو العاجز المتمني الذي عرفه النبي ﷺ في الشق الثاني من الحديث الشريف: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)[٨١٧]، وهو نفسه المغرور أي المخدوع الذي خدعه الشيطان بوعد مغفرة الله مغرياً إياه وهو منهمك في

(٨١٧) أخرجه الترمذي (٢٣٨٣)، وابن ماجة (٤٢٥٠)، وأحمد (١٦٥٠١) وغيرهم.

المعاصي بأن الله غفور رحيم، ومنسياً إياه أنه شديد العقاب. وهو معنى قوله تعالى في المنافقين أهل النار: ﴿ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤]، أي خدعكم بالله.

ومثل هذا الحساب الخاطئ مخالف لتعاليم الإسلام، وتظهر نتيجته يوم القيامة على غير ما كان يرجو صاحبه ويؤمل حين يفاجأ بأن الأمر على عكس ما منّى به نفسه ورجّاها في الدنيا، قال تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧]، وهذا هو الرجاء المذموم، وهو رجاء المغرورين المخدوعين الذي يصرف صاحبه عن التوبة ويبقيه على حالة الإصرار إلى الموت متعلقا بالرجاء من غير عمل.

٧٦٢- أقوال العلماء في حقيقة الرجاء المحمود والرجاء المذموم وآثارهما:

٧٦٣- أولاً - قول الغزالي:

٧٦٤-١- تحذير الغزالي من رجاء التمني والغرور:

قال الإمام الغزالي: «وليحذر أن يكون متمنياً ومغتراً وهو يظن أنه راج، فإن الراجي للحصاد مَنْ بث البذر، ونقى الأرض، وسقاها الماء، ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد. فأما من ترك الحراثة أو الزراعة، وتنقية الأرض، وسقيها، وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة، فهذا مغتر ومتمن، وليس من الراجين في شيء. وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحمقى، نعوذ بالله من الغرور والغفلة، فإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣]»[٨١٨].

وقال الغزالي في موضع آخر «... فإن قلت فأين الغلط في قول العصاة والفجار إن الله كريم، وإنا نرجو رحمته ومغفرته، وقد قال: (أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيرا)[٨١٩]، فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب.

(٨١٨) إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٥٢٩-٥٣٠.

(٨١٩) رواه أحمد (٧٨١٥) بلفظ (أنا عند ظن عبدي بي، إن ظن خيراً فله، وإن ظن شراً فله) وأحمد أيضاً (١٥٤٤٢) و(١٦٣٦٥) بلفظ (فليظن بي ما شاء)، وكذا الدارمي (٢٦١٥).

فاعلم أن الشيطان لا يغوي الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن، ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب، ولكن النبي ﷺ كشف عن ذلك فقال: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)(٨٢٠).

وهذا هو التمني على الله تعالى، غير الشيطان اسمه فسماه رجاء حتى خدع به الجهال، وقد شرح الله الرجاء فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٨]، يعني أن الرجاء بهم أليق، وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال، قال الله تعالى: ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٧٦٥-٢- أمثلة لتمييز الرجاء الصحيح من غيره:

أفترى أن من استؤجر على إصلاح أوان، وشرط له أجرة عليها، وكان الشارط كريماً، يفي بالوعد مهما وعد، ولا يخلف بل يزيد، فجاء الأجير، وكسر الأواني، وأفسد جميعها، ثم جلس ينتظر الأجر ويزعم أن المستأجر كريم، أفيراه العقلاء في انتظاره متمنياً مغروراً أو راجياً؟؟ وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والغرة، قيل للحسن: قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل؟ فقال: هيهات هيهات، تلك أمانيهم يترجون فيها، من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه، وقال مسلم بن يسار: لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاي، فقال له رجل: إنا لنرجو الله، فقال مسلم: هيهات هيهات، من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه.

وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو بعد لم ينكح أو نكح ولم يجامع أو جامع ولم ينزل فهو معتوه، فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحاً أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور.

فكما أنه إذا نكح ووطئ وأنزل بقي متردداً في الولد، يخاف، ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس، فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقي متردداً بين الخوف والرجاء، يخاف أن لا يقبل منه

---

(٨٢٠) أخرجه الترمذي (٢٣٨٣)، وابن ماجة (٤٢٥٠)، وأحمد (١٦٥٠١) وغيرهم بلفظ: (والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله).

وأن لا يدوم عليه وأن يختم له بالسوء، ويرجو من الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد، ويحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى المعاصي فهو كيس.

ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله، ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص: ٨٨] وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] أي علمنا أنه كما لا يولد إلا بوقاع ونكاح ولا ينبت زرع إلا بحراثة وبث بذر فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح فارجعنا نعمل صالحاً فقد علمنا الآن صدقك في قولك: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم:٣٩-٤٠]، ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨-٩] أي ألم نسمعكم سنة الله في عباده وأنه: ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨١]، وأن ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، فما الذي غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم؟؟ قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠-١١].

٧٦٦-٣- مواضع الرجاء الصحيح المحمود المطلوب شرعاً:

فإن قلت فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود؟ اعلم أنه محمود في موضعين:

أحدهما: في حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان: وأنى تقبل توبتك؟ فيقنطه من رحمة الله تعالى، فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء، ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعاً، وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده، وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب، قال الله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٣-٥٤]، أمرهم بالإنابة، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢].

فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور، كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق فخطر له أن يسعى إلى الجمعة فقال له

الشيطان إنك لا تدرك الجمعة فأقم على موضعك، فكذب الشيطان ومر يعدو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج، وإن استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب التي لا يعرفها فهو مغرور.

الثاني: أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجي نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة، فيقبل على الفضائل، ويتذكر قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٢] إلى قوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

فالرجاء الأول: يقمع القنوط المانع من التوبة.

والرجاء الثاني: يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمير.

فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاء، وكل رجاء أوجب فتوراً في العبادة وركوناً إلى البطالة فهو غرة، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل، فيقول له الشيطان: مالك ولإيذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم؟! فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرة، وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول: إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، وإنه مع أنه كريم، خلد الكفار في النار أبد الآباد مع أنه لم يضره كفرهم، بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا وهو قادر على إزالتها، فمن هذه سنته في عباده وقد خوفني عقابه فكيف لا أخافه؟ وكيف أغتر به؟ فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل.

فما لا يبعث على العمل فهو تمن وغرور.

٧٦٧-٤- الرجاء في غير موضعه الصحيح غرور يدعو إلى الفتور والصرف عن التوبة:

ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم، وسبب إقبالهم على الدنيا، وسبب إعراضهم عن الله تعالى، وإهمالهم السعي للآخرة، فذلك غرور، فقد أخبر ﷺ وذكر: أن الغرور

سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة[٨٢١]، وقد كان ما وعد به ﷺ ، فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات، و﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعة الله، يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات، ويبكون على أنفسهم في الخلوات.

وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين، مع إكبابهم على المعاصي، وانهماكهم في الدنيا، وإعراضهم عن الله تعالى، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله راجون لعفوه ومغفرته، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون!! فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى، وينال بالهوينى، فعلام إذن كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الخوف والرجاء، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه معقل بن يسار: (يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الأبدان، أمرهم كله يكون طمعاً لا خوف معه، إن أحسن أحدهم قال: يتقبل مني، وإن أساء قال: يغفر لي)[٨٢٢]، فأخبر أنهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه، وبمثله أخبر عن النصارى إذ قال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، ومعناه: أنهم ورثوا الكتاب أي هم علماء، ويأخذون عرض هذا الأدنى، أي شهواتهم من الدنيا حراماً كان أو حلالاً، وقد قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٤]، والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف، لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه، وترى الناس يهذونه... يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرؤون شعراً من

---

(٨٢١) حيث قال ﷺ : (بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك...) انظر: الترمذي (٢٩٨٤) وأبو وداود (٣٧٧٨) وابن ماجة (٤٠٠٤).

(٨٢٢) حديث معقل بن يسار: (يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال) الحديث أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل (انظر تخريج العراقي في الإحياء بموضع الاقتباس نفسه).

أشعار العرب، لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه، وهل في العالم غرور يزيد على هذا؟؟! فهذه أمثلة الغرور بالله، وبيان الفرق بين الرجاء والغرور.

٧٦٨-٥- غرور من معاصيه أكثر من حسناته ويظن نفسه من أهل الرجاء الصحيح:

ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص، إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنهم تترجح كفة حسناتهم، مع أن ما في كفة السيئات أكثر، وهذا غاية الجهل، فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه، ولعل ما تصدق به من أموال المسلمين، وهو يتكل عليه، ويظن أن أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدق بعشرة من الحرام أو الحلال، وما هو إلا كمن وضع عشرة دراهم في كفة ميزان، وفي الكفة الأخرى ألفاً، وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة، وذلك غاية جهله...

ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها، كالذي يستغفر الله بلسانه أو يسبح الله في اليوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد، ويكون نظره إلى عدد سبحته أنه استغفر الله مائة مرة، وغفل عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة، وقد كتبه الكرام الكاتبون، وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة، فقال: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]، فهذا أبداً يتأمل في فضائل التسبيحات والتهليلات ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين يظهرون من الكلام ما لا يضمرونه، إلى غير ذلك من آفات اللسان، وذلك محض الغرور، ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسبيحه، لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته، وما نطق به في فتراته كان يعده ويحسبه ويوازنه بتسبيحاته حتى لا يفضل عليه أجرة نسخه، فيا عجباً لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفاً على قيراط يفوته في الأجرة على النسخ ولا يحتاط خوفاً من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه!!...

وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يُخشى ويُتقى، ولا يغتر به، اتكالا على أباطيل المنى، وتعاليل الشيطان والهوى، والله أعلم»[٨٢٣].

---

(٨٢٣) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٣ ص: ٣٨٥ - ٣٨٨.

وقال الغزالي في موضع آخر: «فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق، كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقي ولا تنقية، قال يحيى بن معاذ: من أعظم الاغترار عندي: التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عز وجل مع الإفراط.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

٧٦٩-٦- الرجاء المحمود يحمل على العمل:

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت: أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان، فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها، فلا يفتر عن تعهدها أصلاً إلى وقت الحصاد، وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس، واليأس يمنع من التعهد، فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت فيترك لا محالة تفقد الأرض والتعب في تعهدها.

والرجاء محمود لأنه باعث، واليأس مذموم - وهو ضده - لأنه صارف عن العمل.

والخوف ليس بضد للرجاء، بل هو رفيق له... بل هو باعث آخر بطريق الرهبة، كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة.

٧٧٠-٧- ثمرات الرجاء الصحيح من حيث العمل:

فإذن، حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى، والتنعم بمناجاته، والتلطف في التملق له، فإن هذه الأحوال لابد وأن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك أو شخصاً من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى؟ فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمني، فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل.

ويدل على إثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل إذ قال لرسول الله ﷺ : جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد، وعلامته فيمن لا يريد، فقال: كيف أصبحت؟ قال:

أصبحت أحب الخير وأهله، وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه، وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحننت إليه، فقال: هذه علامة الله فيمن يريد، ولو أرادك للأخرى هيأك لها ثم لا يبالي في أي أوديتها هلكت. فقد ذكر ﷺ علامة من أريد به الخير، فمن ارتجى أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور»(٨٢٤).

٧٧١-٨- بيان فضيلة الرجاء مع العمل والترغيب فيه، وحرمة اليأس من رحمة الله:

قال الغزالي: «اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له، والحب يغلب الرجاء، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفا من عقابه، والآخر رجاء لثوابه، ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لا سيما في وقت الموت، قال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، فحرم أصل اليأس، وفي أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه: أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف؟ لأنك قلت: أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون، لم خفت الذئب ولم ترجني؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له؟ وقال ﷺ: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى)(٨٢٥)، وقال ﷺ يقول الله عز وجل: (أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء)(٨٢٦)، و (دخل ﷺ على رجل وهو في النزع فقال: كيف تجدك؟ فقال: أجدني أخاف ذنوبي

(٨٢٤) حديث قال زيد الخيل: (جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وفيه أنه قال أنت زيد الخير وكذا قال ابن أبي حاتم سماه النبي ﷺ زيد الخير يروى عنه حديث وذكره في حديث يروى فقال زيد الخير فقال يا رسول الله الحديث سمعت أبي يقول ذلك. (انظر تخريج العراقي في الإحياء في موضع الاقتباس المشار إليه).

(٨٢٥) حديث لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله أخرجه مسلم من حديث جابر. (انظر تخريج العراقي في الإحياء في موضع الاقتباس المشار إليه).

(٨٢٦) حديث أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء أخرجه ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله فليظن بي ما شاء. (المرجع السابق وفي الموضع نفسه).

وأرجو رحمة ربي، فقال ﷺ : ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما يخاف)(٨٢٧).

وقال علي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلـى القنوط لكثرة ذنوبه: يا هذا، يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك، وقال سفيان: من أذنب ذنباً فعلم أن لله تعالى قدره عليه ورجاه غفرانه غفر الله له ذنبه، قال: لأن الله عز وجل عير قوماً فقال: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ [فصلت: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح: ١٢]، وقال ﷺ : (إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟ فإن لقنه الله حجته قال: يا رب رجوتك وخفت الناس، قال: فيقول الله تعالى: قد غفرته لك)(٨٢٨)، وفي الخبر الصحيح أن رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغنى ويتجاوز عن المعسر فلقي الله ولم يعمل خيراً قط فقال الله عز وجل: من أحق بذلك منا(٨٢٩)، فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه...

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩]، ولما قال ﷺ : (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون إلى ربكم) فهبط جبريل عليه السلام فقال: (إن ربك يقول لك لم تقنط عبادي؟ فخرج عليهم ورجاهم

---

(٨٢٧) حديث دخل ﷺ على رجل وهو في النزع فقال كيف تجدك الحديث رواه الترمذي وقال غريب والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي إسناده جيد. (المرجع السابق وفي الموضع نفسه).

(٨٢٨) حديث إن الله يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره الحديث أخرجه ابن ماجة من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد. (المرجع السابق وفي الموضع نفسه).

(٨٢٩) حديث إن رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي مسعود حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال الله عز وجل نحن أحق بذلك تجاوزوا عنه، واتفقا عليه من حديث حذيفة وأبي هريرة بنحوه.(انظر المرجع السابق وفي الموضع نفسه). وورد بلفظ (لم يعمل خيراً قط) في النسائي(٤٦١٥) وأحمد (٨٣٧٥). والمغفرة الواردة في هذا الحديث الشريف ربما تعلقت بالمغفرة بالمشيئة الواردة في قوله تعالى: (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)، والله أعلم.

وشوقهم)[٨٣٠]... وفي الخبر: (أن رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم، قال فيقول له الله تعالى يوم القيامة: اليوم أؤيسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها)[٨٣١]، وقال ﷺ : (إن رجلاً يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي: يا حنان يا منان، فيقول الله تعالى لجبريل: اذهب فائتني بعبدي، قال: فيجيء به فيوقفه على ربه، فيقول الله تعالى: كيف وجدت مكانك؟ فيقول: شر مكان، قال، فيقول: ردوه إلى مكانه، قال: فيمشي ويلتفت إلى ورائه، فيقول الله عز وجل: إلى أي شيء تلتفت؟ فيقول: لقد رجوت أن لا تعيدني إليها بعد إذ أخرجتني منها، فيقول الله تعالى: اذهبوا به إلى الجنة)[٨٣٢] فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه»[٨٣٣].

٧٧٢-٩- متى يكون الرجاء دواء نافعا للعبد ومتى يكون ضارا؟

قال الغزالي في ذلك: «اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين:

إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة.

وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله.

وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال.

فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب سموماً مهلكة في حقه وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة. بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له، فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفاً ناظراً إلى مواقع

---

(٨٣٠) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً الحديث وفيه فهبط جبريل الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة فأوله متفق عليه من حديث أنس ورواه بزيادة ولخرجتم إلى الصعدات أخرجه أحمد والحاكم.

(٨٣١) حديث إن رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم الحديث رواه البيهقي في الشعب عن زيد بن أسلم فذكره مقطوعاً (انظر المرجع السابق وفي الموضع نفسه).

(٨٣٢) حديث إن رجلاً يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى يا حنان يا منان الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث أنس.(انظر المرجع السابق وفي الموضع نفسه).

(٨٣٣) إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ١٤٤-١٤٦.

العلل معالجاً لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها، فإن المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوساطها فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يرده إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط، وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في التخويف أيضاً تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب، فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية، ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا، مالوا إلى الرجاء، حتى ازداد الفساد فساداً، وازداد المنهمكون في طغيانهم تمادياً، قال علي كرم الله وجهه: إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله...»(٨٣٤).

٧٧٣- ثانياً - قول ابن القيم في الرجاء المحمود ورجاء التمني والغرور:

تكلم ابن القيم عن التعلق بالرجاء من غير عمل بوصفه آفة صارفة عن التوبة وباعثة على البقاء على حالة الإصرار من غير توبة، وهو يساويه بالتعلق بحسن الظن بالله من غير عمل بل يجعله نفسه ويبين أيضاً متى يكون الرجاء محموداً وحادياً يحدو إلى الجنة ومتى يكون مذموماً ومهلكاً لصاحبه.

٧٧٤-١- أهل الرجاء الحق عند ابن القيم:

قال ابن القيم: «قال الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء: ٥٧] فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة، فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب والخوف، والرجاء، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾ [العنكبوت: ٥]، وقال: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠] وقال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨] وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: (لا يموتن

---

(٨٣٤) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ١٤٦.

أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه)[٨٣٥]، وفي الصحيح عنه ﷺ : (يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء)[٨٣٦].

الرجاء: حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويطيب لها السير.

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه.

وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى.

٧٧٥-٢- الفرق بين الرجاء الحق والتمني:

والفرق بينه وبين التمني:

أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد.

والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها.

والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها، ويرجو طلوع الزرع. ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل.قال شاه الكرماني: علامة صحة الرجاء: حسن الطاعة.

والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان ونوع غرور مذموم.

فالأولان : رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راج لثوابه، ورجل أذنب ذنوبا ثم تاب منها فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجل متماد في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

---

(٨٣٥) أخرجه مسلم (٥١٢٥)، وأبو داود (٢٧٠٦)، وابن ماجة (٤١٥٧)، وأحمد (١٣٩٥٧) و(١٤٠٥٣).

(٨٣٦) حديث (أنا عند ظن عبدي فليظن بي ما شاء) متفق عليه بلفظ: أنا عند ظن عبدي بي: البخاري (٦٨٥٦) و(٦٩٥١)، ومسلم (٤٨٣٢) و(٤٨٤٩) و(٤٩٢٧)، والحديث بلفظه الذي في المتن أخرجه أحمد (١٥٤٤٢) و(١٦٣٦٥)، والدارمي (٢٦١٥).

وللسالك نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله يفتح عليه باب الخوف إلى سعة فضل ربه وكرمه وبره، ونظر يفتح عليه باب الرجاء ولهذا قيل في حد الرجاء هو النظر إلى سعة رحمة الله.

وقال أبو علي الروذباري الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

وسئل أحمد بن عاصم: ما علامة الرجاء في العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر راجياً لتمام النعمة من الله عليه في الدنيا والآخرة وتمام عفوه عنه في الآخرة.

٧٧٦-٣- أي الرجاءين المحمودين أكمل؟ :

واختلفوا أي الرجاءين أكمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه؟ أو رجاء المسيء التائب مغفرة ربه وعفوه؟.

فطائفة رجحت رجاء المحسن لقوة أسباب الرجاء معه.

وطائفة رجحت رجاء المذنب لأن رجاءه مجرد عن علة رؤية العمل، مقرون بذلة رؤية الذنب. قال يحيى بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال، لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أصفيها وأحرزها وأنا بالآفات معروف، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف، وقال أيضاً: إلهي أحلى العطايا في قلبي رجاؤك، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك، وأحب الساعات إليّ ساعة يكون فيها لقاؤك» [(٨٣٧)].

٧٧٧-٤- الرجاء الصحيح يتضمن حسن الظن بالله مع الخوف والعمل:

وقال ابن القيم في موضع آخر: «فان العبد إنما يحمله على حسن العمل، ظنه بربه أن يجازيه على أعماله، ويثيبه عليها، ويتقبلها منه، فالذي حمله على العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه حسن عمله.

---

(٨٣٧) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ٢ ص: ٣٥ - ٣٧ .

وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز، كما في الترمذي والمسند من حديث شداد ابن أوس عن النبي ﷺ : (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)[838].

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وإما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن، فان قيل: بل يتأتى ذلك ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة ولا يضره العفو، قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم، ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به، فإنه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وشدة البطش وعقوبة من يستحق العقوبة، فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه، فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرض للعنته، ووقع في محارمه وانتهك حرماته، بل حسن الظن ينفع من تاب، وندم، وأقلع، وبدل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم أحسن الظن، فهذا حسن ظن، والأول غرور، والله المستعان.

ولا تستطل هذا الفصل فإن الحاجة إليه شديدة لكل أحد، ففرق بين حسن الظن بالله وبين الغرة به، قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة:٢١٨] فجعل هؤلاء أهل الرجا لا الظالمين والفاسقين، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل: ١١٠] فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها، فالعالم يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه.

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، وضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند، وقال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق، وقال بعض العلماء: من قطع عضواً منك في

(٨٣٨) أخرجه الترمذي (٢٣٨٣) وقال: حديث حسن، وابن ماجة (٤٢٥٠)، وأحمد (١٦٥٠١).

الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا، وقيل للحسن: نراك طويل البكاء، فقال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي...»[٨٣٩].

وقال ابن القيم في موضع آخر: «وقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور، وأن حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساعده وساق إليه فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور.

وحسن الظن: هو الرجاء.

فمن كان رجاؤه جاذباً له على الطاعة، زاجراً له عن المعصية، فهو رجاء صحيح.

ومن كانت بطالته رجاء، ورجاؤه بطالة وتفريطاً، فهو المغرور. ولو أن رجلاً كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه من مُغِلِّها ما ينفعه، فأهملها ولم يبذرها ولم يحرثها، وأحسن ظنه بأنه يأتي من مغلها ما يأتي من حرث وبذر وسقي وتعاهد الأرض، لعده الناس من أسفه السفهاء، وكذلك لو حسن ظنه وقوي رجاؤه بأنه يجيئه ولد من غير جماع، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام عليه، وأمثال ذلك، فكذلك من حسن ظنه وقوي رجاؤه في الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وبالله التوفيق. وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢١٨] فتأمل كيف جعل رجاءهم بإتيانهم بهذه الطاعات.

وقال المغترون: إن المفرطين المضيعين لحقوق الله، المعطلين لأوامره، الباغين على عباده، المتجرئين على محارمه، أولئك يرجون رحمة الله!!

وسر المسألة: أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ويرجوه أن لا يكله إليها، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه، ويصرف ما يعرضها ويبطل أثرها.

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً، استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

---

(٨٣٩) ابن القيم: الجواب الكافي ج: ١ ص: ١٥.

أحدها: محبته ما يرجوه.

الثاني : خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء، والأماني شيء آخر، فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات، وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :(من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة)[٨٤٠]، وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١]، وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضى الله عنها قالت:(سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا يتقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات)[٨٤١]، وقد روي من حديث أبى هريرة أيضاً.

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن، ومن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن، فهذا الصديق يقول: وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن، ذكره أحمد عنه، وذكر عنه أيضا أنه كان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، وكان يبكى كثيراً ويقول: ابكوا، فان لم تبكوا فتباكوا، وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل...

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ [الطور: ٧] فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه، وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضع

---

(٨٤٠) أخرجه الترمذي: (٢٣٧٤) وقال: حديث حسن غريب.

(٨٤١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٩).

خدي على الأرض عل أن يرحمني، ثم قال: ويل أمي إن لم يغفر الله لي ثلاثاً ثم قضى. وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخنقه فيبقى في البيت أياماً ويعاد ويحسبونه مريضاً، وكان في وجهه رضى الله عنه خطان أسودان من البكاء، وقال له ابن عباس: مَصَّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل وفعل، فقال: وددت أني أنجو، لا أجر ولا وزر.

وهذا عثمان بن عفان كان إذا وقف على القبر يبكى حتى تبتل لحيته، وقال: لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

وهذا علي بن أبي طالب ﷺ وبكاؤه وخوفه، وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى، قال: فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل ...

وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية فلما أتى على هذه الآية: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الجاثية: ٢١] جعل يرددها ويبكى حتى أصبح...»[٨٤٢]، وفي سيرة الصحابة والتابعين من ذلك الشيء الكثير.

٧٧٨- ثالثا - ما جاء في كتاب « يقظة أولي الاعتبار »:

وجاء في «يقظة أولي الاعتبار»: «... وأن دين الإسلام ورد بالمهلكات كما جاء بالمنجيات، وأن النبي ﷺ رغب وحذر، وبشر وأنذر، فهو المخبر الصادق بكلا الأمرين إخباراً لا يخفى على ذي عينين، ولكن الشيطان الرجيم غرهم بالغفران والإحسان، وكادتهم النفس الأمارة بالسوء ووعدتهم بالرضوان والجنان، ودخل عليهم إبليس من باب الرجا حتى أضلهم عن طريق الهدى، فقالوا: سيغفر لنا، كما قال من قبلهم من الأمم، ولم يعلموا أن بطش ربهم لشديد الألم، وأن الدار الآخرة منقسمة إلى قسمين: رياض الجنة، وحفر النار، والعبد بين مخافتين: إما أن يصير إلى النعيم بفضله سبحانه،

(٨٤٢) ابن القيم: الجواب الكافي ج: ١ ص: ٢٤ -٢٦.

وإما أن يصار به عدلاً منه إلى دار البوار، وكل من قنع بالرجا ولم يلم بالخوف لم يعلم بعاقبة أمره، ولم يعرف نفعه من ضره، وإنما المؤمن الناجي: من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وعمل صالحاً، وأقلع نفسه في هذه الدار عما يوبقه ويهلكه عذباً كان أو مالحاً، وفي حديث شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ : (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)[٨٤٣]... ووعد المغفرة في كتاب الله منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعا.

فمن أقر بلسانه أن الآخرة خير وأبقى ثم ترك العمل واشتغل بالمعاصي فهو من المغرورين بالدنيا والمسرورين بها والمحبين لها والكارهين للموت خيفة فوات لذتها... فهؤلاء هم الذين غرتهم الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون.

وأما الذين غرهم بالله الغرور فهم الذين يعملون الأعمال ويشتغلون بالمنكرات ويقولون إن الله رحيم نرجو رحمته وكريم نتمنى مغفرته وهذا التمني هو الغرور الذي غير الشيطان اسمه وسماه رجاء حتى خدع به كثيراً من الناس»[٨٤٤].

وبهذا ننهي الكلام في (التعلق بالرجاء من غير عمل) بوصفه باعثاً على الإصرار على الذنوب وصارفاً عن التوبة، ونبدأ الكلام في (القنوط من رحمة الله تعالى) بوصفه باعثاً آخر على الإصرار وصارفاً عن التوبة وهو موضوع المطلب الرابع القادم إن شاء الله تعالى.

المطلب الرابع
القنوط من رحمة الله بوصفه باعثاً على الإصرار

٧٧٩- تمهيد: آفة القنوط من رحمة الله وآثارها:

وهذه هي الآفة الرابعة من الآفات الصارفة للعبد عن التوبة، والباعثة له على البقاء على حالة ارتكاب الذنوب والاستكثار منها من غير توبة وهو الإصرار المفضي إلى استحكام الهلاك.

---

(٨٤٣) أخرجه الترمذي (٢٣٨٣) وقال: حديث حسن، وابن ماجة (٤٢٥٠)، وأحمد (١٦٥٠١).
(٨٤٤) يقظة أولي الاعتبار ج: ١ ص: ٢٠-٢١.

٧٨٠- معنى القنوط في اللغة:

والقنوط في اللغة معناه: اليأس، أو قطع الأمل، وهو ضد الرجاء[٨٤٥].

والشرع قرر أنه لا يجوز لأحد ولو كان قد أسرف على نفسه في كثرة الذنوب والخطايا أن يقنط من رحمة الله ويظن أن الله تعالى لن يغفر له ولو تاب ولن يقبله بعد ما أسرف على نفسه إسرافا كثيرا.

٧٨١- القنوط من رحمة الله حرام وهو من الكبائر:

فهذا القنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، محرم في الشرع، وهو من الكبائر، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧] وقال ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]، قال المفسرون: يغفرها بالتوبة بدليل قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر: ٥٤]، وهذا لكل تائب من الشرك أو المعاصي، وقالوا أيضاً: ويغفرها أيضاً بالمشيئة ولو بدون توبة، - إلا الشرك - وهذا ليس لكل أحد ولكن لمن يشاء، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [النساء: ٤٨].

وعلى ذلك فالقنوط من رحمة الله متناقض مع نصوص القرآن، ومتناقض أيضاً مع صفات الله تعالى الذي وصف نفسه جل ثناؤه: بالرحمة، والعفو، والمغفرة، والفضل، قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

لذلك كان القنوط من رحمة الله من الكبائر فقد روي عن ابن مسعود أنه قال: (الكبائر: الإشراك بالله عز وجل، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله)[٨٤٦].

---

(٨٤٥) القاموس المحيط ج: ١ص: ٥٢٦٢.
(٨٤٦) البيهقي: شعب الإيمان (١٠٥٠).

٧٨٢- أثر القنوط من رحمة الله خطير جداً:

وأثر هذا القنوط من رحمة الله خطير جداً، لأن العبد إذا شعر أنه لا سبيل له إلى رحمة الله، وأنه لا يمكنه أن يرضي الله بأي حال من الأحوال، فإن هذا القنوط واليأس سيقوده إلى الاستكثار من الذنوب المشتهاة لأن الدنيا تصبح في نظره ميدانه الوحيد، حيث لا أمل له في النجاة في الآخرة، فيفقد الرجاء الذي وجوده في القلب من لوازم الإيمان، وفقدانه من المحرمات، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ويصرفه ذلك عن التوبة، ولذلك عددنا القنوط واحداً من دواعي الإصرار على الذنوب وآفة من الآفات الصارفة للعبد عن التوبة.

٧٨٣- أقوال العلماء في النهي عن القنوط من رحمة الله وأثره في الصرف عن التوبة:

تدور أقوال العلماء عند الكلام في النهي عن القنوط من رحمة الله تعالى وبيان أثره في الصرف عن التوبة على تفسير قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، والآيات المماثلة، وكذلك على تفسير الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في النهي عن القنوط من رحمة الله وعدها كبيرة من الكبائر، وإليك بيان ذلك:

٧٨٤- أولاً - قول ابن تيمية في تفسير قوله تعالى: (لا تقنطوا من رحمة الله) الآية:

عقد شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك فصلاً فقال: «فصل: في قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٣-٥٤]، و قد ذكرنا في غير موضع أن هذه الآية في حق التائبين، وأما آية النساء: قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨] فلا يجوز أن تكون في حق التائبين كما يقوله من يقوله من المعتزلة، فإن التائب من الشرك يغفر له الشرك أيضاً بنصوص القرآن واتفاق المسلمين، وهذه الآية فيها تخصيص وتقييد، وتلك الآية فيها تعميم وإطلاق، هذه خص فيها الشرك بأنه لا يغفره وما عداه لم يجزم بمغفرته بل علقه بالمشيئة فقال: (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)[٨٤٧].

---

(٨٤٧) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٨.

٧٨٥-١- لا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله مهما عظمت ذنوبه:

ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والمقصود هنا أن قوله: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣]: فيه نهي عن القنوط من رحمة الله تعالى و إن عظمت الذنوب و كثرت، فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه، ولا أن يُقنِّط الناس من رحمة الله، قال بعض السلف: إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله، ولا يجريهم على معاصي الله. [قلت: وقد جاء في صحيح البخاري: «... وكان العلاء بن زياد يذكر النار، فقال رجل:لم تقنط الناس؟ قال: وأنا أقدر أن أقنط الناس والله يقول: ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الزمر: ٥٣] ويقول: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر:٤٣]، ولكنكم تحبون أن تبشروا بالجنة على مساوئ أعمالكم، وإنما بعث الله محمداً مبشراً بالجنة لمن أطاعه، ومنذراً بالنار من عصاه] (٨٤٨).

٧٨٦-٢- ماذا يعتقد المذنب فيكون قانطاً:

والقنوط يكون بأن يعتقد أن الله لا يغفر له:

إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته و يغفر ذنوبه.

وإما بأن يقول: نفسه لا تطاوعه على التوبة، بل هو مغلوب معها، والشيطان قد استحوذ عليه، فهو ييأس من توبة نفسه و إن كان يعلم أنه إذا تاب غفر الله له، وهذا يعتري كثيراً من الناس.

والقنوط يحصل بهذا تارة و بهذا تارة، فالأول: كالراهب الذي أفتى قاتل تسعة وتسعين أن الله لا يغفر له، فقتله وكمل به مائة، ثم دل على عالم فأتاه، فسأله، فأفتاه بأن الله يقبل توبته، والحديث في الصحيحين، و الثاني: كالذي يرى للتوبة شروطاً كثيرة، ويقال له: لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها فييأس من أن يتوب» (٨٤٩).

---

(٨٤٨) صحيح البخاري (الجزء الخاص في التفسير) ج: ٤ ص: ١٨١٣.

(٨٤٩) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٩ - ٢٠.

٧٨٧- ثانيا - قول القرطبي في تفسير قوله تعالى: (لا تقنطوا من رحمة الله) الآية:

أورد القرطبي في سبب نزول الآية حديث البخاري فقال: «وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان قوم من المشركين قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فقالوا للنبي ﷺ أو بعثوا إليه إن ما تدعونا إليه لحسن لو تخبرنا أن لنا توبة، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] ذكره البخاري[٨٥٠] بمعناه،... وعن ابن عباس أيضاً: نزلت في أهل مكة، قالوا: يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لن يغفر له، وكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التي حرم الله؟ فأنزل الله هذه الآية، وقيل: إنها نزلت في قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم في العبادة وخافوا ألا يتقبل منهم لذنوب سبقت لهم في الجاهلية... ثم قال القرطبي: ودل على أنه يريد التائب ما بعده: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤]، فالتائب مغفور له ذنوبه جميعاً، يدل على ذلك: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢] فهذا لا إشكال فيه، وقال علي بن أبي طالب: ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية:(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله)... وقال عبد الله بن عمر: وهذه أرجا آية في القرآن، فرد عليهم ابن عباس وقال: أرجا آية في القرآن قوله تعالى: (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم).. وقرئ: لا تقنطوا بكسر النون وفتحها، وقد مضى في الحجر بيانه. قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤] أي ارجعوا إليه بالطاعة، لما بين أن من تاب من الشرك يغفر له أمر بالتوبة والرجوع إليه، والإنابة: الرجوع إلى الله بالإخلاص، ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤] أي اخضعوا له وأطيعوا، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤] أي لا تمنعون من عذابه»[٨٥١].

٧٨٨- ثالثا - تفسير ابن كثير لقوله تعالى: (لا تقنطوا من رحمة الله) الآية:

قال ابن كثير[٨٥٢] في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]: «هذه

---

(٨٥٠) صحيح البخاري (الجزء الخاص في التفسير) ج: ٤ ص:١٨١١

(٨٥١) تفسير القرطبي ج: ١٥ ص: ٢٦٨- ٢٦٩

(٨٥٢) تفسير ابن كثير ج: ٤ ص: ٥٩.

الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه، قال البخاري[٨٥٣]: (حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال يعلى إن سعيد بن جبير أخبره عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣] وهكذا رواه مسلم»[٨٥٤].

ثم مضى ابن كثير في إيراد الأحاديث النبوية الشريفة الدالة على أن المراد بمغفرة الذنوب جميعاً في هذه الآية على وجه الخصوص إنما هو مع التوبة ثم قال: «فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة»[٨٥٥].

٧٨٩-١- النصوص دالة على سعة الرحمة والعفو بدرجة لا يبقى معها مجال للقنوط:

ولا يقنطن عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت فإن باب الرحمة والتوبة واسع قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [التوبة: ١٠٤] وقال عز وجل ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]، وقال جل وعلا في حق المنافقين: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦]، وقال جل جلاله: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ

---

(٨٥٣) البخاري: حديث رقم (٤٤٣٦).

(٨٥٤) مسلم: حديث رقم (١٧٤). والنسائي: (٣٩٣٨)

(٨٥٥) تفسير ابن كثير ج:٤ ص:٥٩ وما بعدها.

يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣] ثم قال جلت عظمته: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ ﴾ [البروج:١٠]، قال الحسن البصري رحمة الله عليه: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، والآيات في هذا كثيرة جداً.

وفي الصحيحين[٨٥٦] عن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن رسول الله ﷺ، حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً ثم ندم وسأل عابداً من عباد بني إسرائيل هل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله وأكمل به مئة، ثم سأل عالماً من علمائهم هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصدها، فأتاه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله عز وجل أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة، وذكر أنه نأى بصدره عند الموت، وأن الله تبارك وتعالى أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد، هذا معنى الحديث وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾ [الزمر: ٥٣] إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيراً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٤]، ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

---

(٨٥٦) البخاري: (٣٢١١)، ومسلم (٤٩٦٧).

وروى الطبراني[٨٥٧] من طريق الشعبي عن شُتَيْر بن شَكَل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: أعظم آية في كتاب الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجاً: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، وإن أشد آية في كتاب الله تفويضاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، فقال له مسروق: صدقت»[٨٥٨].

٧٩٠-٢- طائفة من الأحاديث النبوية الدالة على نفي القنوط:

ثم مضى ابن كثير في ذكر الأحاديث النبوية الشريفة في نفي القنوط فبوب لها تحت عنوان: «ذكر أحاديث فيها نفي القنوط»[٨٥٩] فذكر منها:

١- قوله ﷺ، فيما رواه أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله عز وجل لغفر لكم، والذي نفس محمد ﷺ بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم)[٨٦٠].

٢- عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول: (لولا أنكم تذنبون لخلق الله عز وجل قوما يذنبون فيغفر لهم)[٨٦١].

٣- عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ (كفارة الذنب الندامة...)[٨٦٢].

---

(٨٥٧) الطبراني في الكبير: (٩٨٦٥٨) و(٨٦٦٠).
(٨٥٨) تفسير ابن كثير ج: ٤ ص ٥٩ وما بعدها. وتحرف فيه شتير إلى سنيد.
(٨٥٩) تفسير ابن كثير ج: ٤ ص: ٦٠.
(٨٦٠) مسند أحمد (١٣٠٠٦) وقال ابن كثير: تفرد به أحمد.
(٨٦١) أحمد (٢٢٤١٥) وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ (لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون يغفر لهم) (٤٩٣٤) وأخرجه الترمذي أيضا: (٣٤٦٢).
(٨٦٢) مسند الإمام أحمد (٤٢٩٢).

٤- عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يحب العبد المفتن التواب)[٨٦٣].

وأورد ابن كثير في تفسيره ما سأله آدم ﷺ لربه جل جلاله حيث قال: «يا رب قد سلطته علي [أي: الشيطان] وإني لا أمتنع إلا بك، قال تبارك وتعالى: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء، قال: يا رب زدني، قال: الحسنة عشرة أو أزيد والسيئة واحدة أو أمحوها، قال: يا رب زدني، قال: باب التوبة مفتوح ما كان الروح في الجسد، قال: رب زدني، قال: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم»[٨٦٤].

٧٩١- رابعا - قول الشوكاني في تفسير قوله تعالى: (لا تقنطوا من رحمة الله) الآية:

قال الشوكاني في تفسيره «فتح القدير»: «ثم لما ذكر سبحانه ما ذكره من الوعيد، عقبه بذكر سعة رحمته وعظيم مغفرته، وأمر رسوله ﷺ أن يبشرهم بذلك فقال: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣]، المراد بالإسراف: الإفراط في المعاصي والاستكثار منها، ومعنى: (لا تقنطوا): لا تيأسوا من رحمة الله ومن مغفرته، ثم لما نهاهم عن القنوط أخبرهم بما يدفع ذلك ويرفعه، ويجعل الرجاء مكان القنوط، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣].

واعلم أن هذه الآية أرجا آية في كتاب الله سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولاً أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى وبفحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ ﴾ [الزمر: ٥٣] فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده، فهو في قوة: إن الله يغفر كل ذنب كائناً ما كان

---

(٨٦٣) مسند الإمام أحمد (٥٧١) و(٧٦٩).

(٨٦٤) تفسير ابن كثير ج: ٤ ص: ٦١ .

إلا ما أخرجه النص القرآني، وهو الشرك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] ثم لم يكتف بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله ﴿جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، فيالها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم، الصادقين في رجائه، الخالعين لثياب القنوط، الرافضين لسوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده المتوجهين إليه في طلب العفو، الملتجئين إليه في مغفرة ذنوبهم، وما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلا، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] أي كثير المغفرة والرحمة، عظيمهما، بليغهما، واسعهما، فمن أبى هذا التفضل العظيم، والعطاء الجسيم، وظن أن تقنيط عباد الله وتأييسهم من رحمته أولى بهم مما بشرهم الله به فقد ركب أعظم الشطط، وغلط أقبح الغلط، فإن التبشير وعدم التقنيط [هو] الذي جاءت به مواعيد الله في كتابه العزيز، والمسلك الذي سلكه رسوله ﷺ كما صح عنه في قوله: (يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا)(٨٦٥).

وإذا تقرر لك هذا فاعلم أن الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] هو أن كل ذنب كائناً ما كان ما عدا الشرك بالله مغفور لمن شاء الله أن يغفر له...

ولو كانت هذه البشارة العظيمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣] مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين وقد قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨]. فلو كانت التوبة قيداً في المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة وقد قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ [الرعد: ٦]...»(٨٦٦).

٧٩٢- مناقشة لبعض ما قاله الشوكاني:

والحق أن ما ذهب إليه العالم المحقق الشوكاني هنا من القول بأن آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣] غير مقيدة بالتوبة، محل نظر، والراجح عندي ما ذهب إليه

---

(٨٦٥) متفق عليه: البخاري (٦٧) ومسلم (٣٢٦٢) واللفظ للبخاري.

(٨٦٦) الشوكاني: فتح القدير ج:٤ ص:٤٦٩- ٤٧٠.

جمهور المفسرين ومعهم ابن تيمية في أن آية الزمر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ هي في حق التائبين للأدلة التي قالوها وذكرناها في مواضعها، وأن آية النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] متعلقة بالمغفرة بالمشيئة ولو من غير توبة لكل ذنب إلا الشرك الذي لا سبيل لمغفرته إلا بالتوبة، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – موافقاً لجمهور المفسرين –: «و قد ذكرنا في غير موضع أن هذه الآية في حق التائبين، وأما آية النساء قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فلا يجوز أن تكون في حق التائبين كما يقوله من يقوله من المعتزلة، فإن التائب من الشرك يغفر له الشرك أيضاً بنصوص القرآن واتفاق المسلمين، وهذه الآية فيها تخصيص وتقييد، وتلك الآية فيها تعميم و إطلاق، هذه خص فيها الشرك بأنه لا يغفره وما عداه لم يجزم بمغفرته بل علقه بالمشيئة فقال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨](٨٦٧).

٧٩٣-٥- ما جاء في «حلية الأولياء»:

«... وسئل سفيان عن قول علي: الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يرخص لهم في معاصي الله، فقال صدق، لا يكون الترخيص إلا في المستقبل، ولا التقنيط إلا فيما مضى. قال سفيان وقال عبد الله : اثنتان منجيتان، واثنتان مهلكتان، فالمنجيتان: النية، والنهي، فالنية: أن تنوي أن تطيع الله فيما يستقبل، والنهي: أن تنهى نفسك عما حرم الله عز وجل. والمهلكتان: العجب، والقنوط، قال سفيان: وأكبر الكبائر الشرك بالله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، ثم تلا: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] »(٨٦٨).

---

(٨٦٧) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٨.
(٨٦٨) حلية الأولياء: ج: ٧ ص: ٢٩٨ .

٧٩٤-٦- ما جاء في شعب الإيمان:

وفي «شعب الإيمان» للبيهقي: عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: (الكبائر الإشراك بالله عز وجل، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله)[٨٦٩].

وبهذا ننتهي من الكلام في (القنوط من رحمة الله) بوصفه باعثاً على الإصرار على الذنوب وصارفاً عن التوبة، لكي نبدأ بالكلام عن (الشك في وعد القرآن وصدق ما جاءت به الرسل) بوصفه باعثا على الإصرار على الذنوب وصارفا عن التوبة، وهو موضوع المطلب الخامس القادم إن شاء الله تعالى.

المطلب الخامس
الشك في وعد القرآن وصدق الرسل باعثاً على الإصرار وصارفا عن التوبة

٧٩٥- ليس المقصود بالشك الوسوسة الطارئة:

ليس المقصود بالشك هنا ما ينفثه الشيطان في قلب المؤمن من الوساوس والخطرات الطارئة التي يدفعها المؤمن بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ويقول كما علمه رسول الله ﷺ: (آمنت بالله ورسوله) ترسيخاً لليقين في نفسه وإغاظة للشيطان ومراغمة له، وقلبه مطمئن بالإيمان. فهذا ليس شكاً وإنما هو محض الإيمان كما أخبر رسول الله ﷺ، وتلك الوساوس والخطرات الطارئة إنما يلقيها الشيطان حسداً منه للمؤمن وللتلبيس عليه ومحاولة زحزحته عن إيمانه الراسخ، يدل على ذلك أن نفراً من الناس شكا إلى رسول الله ﷺ مثل تلك الخطرات القادمة من الشيطان وعدها النبي ﷺ من قبيل كيد الشيطان المتمثل بالوسوسة، وقد بوب لها مسلم في صحيحه تحت عنوان: «باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها» وأورد في صحيحه - بسنده - عن عبد الله قال: (سئل النبي ﷺ عن الوسوسة، قال: تلك محض الإيمان)[٨٧٠].

٧٩٦- ما يقوله المؤمن عند الوسوسة في الإيمان:

وفي مسند أحمد - بسنده - عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أحدث نفسي بالشيء لأن أخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به، قال

---

(٨٦٩) البيهقي: شعب الإيمان: ج: ٢ ص: ٢٠.
(٨٧٠) صحيح مسلم (١٨٩). وانظر أيضا في قول النبي ﷺ: ذاك محض الإيمان: مسند أحمد (٢٣٦٠٩).

فقال النبي ﷺ : الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة)[٨٧١] وفي مسند أحمد أيضاً بشأن مثل هذا التشكيك من الشيطان الرجيم قوله ﷺ : (فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله ﷺ)[٨٧٢].

أما وسائل تحصين المؤمن من الشيطان الرجيم فسيأتي بحثها قريباً في المطلب السابع من هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

٧٩٧- حقيقة الشك المفضي إلى الكفر والردة:

والمراد بالشك في صدق وعد القرآن وصدق ما جاءت به الرسل وخاتمهم نبينا محمد ﷺ هو الارتياب وعدم الإيمان والتصديق بصدق القرآن ورسالة محمد ﷺ، ومثل هذا الشاك وإن أظهر الإسلام فإنه مبطن للكفر، لأنه شاك في صدق القرآن والرسالة، مقتنع بشكه قناعة تامة، رافض للإيمان، وهو نوع من النفاق يسمى بنفاق الكفر.

٧٩٨- أثر الشك في الصرف عن التوبة:

ولا شك أن مثل هذه الحال تصرف صاحبها عن التوبة عن الذنوب والخطايا لأنه أصبح لا يؤمن باليوم الآخر، ومثل هذا يحتاج إلى التوبة عن كفره أولاً والعودة إلى الإسلام والإيمان وعندئذ يتفكر في التوبة من ذنوبه الأخرى وخطاياه بوصفه مؤمناً يخاف الله واليوم الآخر.

ومن هنا كان الشك في صدق القرآن وصدق الرسالة وصدق ما جاءت به الرسل من ربها جل جلاله سبباً من الأسباب الصارفة عن التوبة والباعثة لصاحبها على ملازمة حالة الإصرار على الذنوب.

والأسباب الداعية للإنسان إلى الشك في صدق القرآن والرسالة والانتقال إلى الردة والانضمام إلى زمرة الكافرين والملحدين والتمرد على براهين العقل والنقل اليقينية، أربعة أسباب، حسب تشخيص القرآن الكريم لها، هي: الكبر، والانحراف، والظلم، والجهل، نذكرها فيما يلي:

---

(٨٧١) مسند أحمد (١٩٩٣) واللفظ له، وأخرجه أيضاً أبو داود (٥١١٢).

(٨٧٢) مسند أحمد (٢٠٨٦٤)، (٨٠٢٦).

٧٩٩- أسباب الشك والإلحاد الصارف عن التوبة:

٨٠٠-١- الكبر:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان: ٢١-٢٢].

فالآية الكريمة بينت بقوله تعالى: ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الفرقان: ٢١] أن الكبر سبب لرفضهم الإيمان. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٢].

٨٠١-٢- الانحراف:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧] .

فالآية الكريمة بينت بقوله تعالى: ﴿ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ ﴾ [غافر: ٣٧] أن الانحراف عن الطريق السوي في طلب الدليل سبب لرفض الإيمان.

٨٠٢-٣- الظلم:

قال تعالى: ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ﴾ [النساء: ١٥٣].

فالآية الكريمة بينت بقوله تعالى: (بظلمهم) أن الذي دفعهم إلى أن يطلبوا مثل هذا الطلب كشرط لإيمانهم هو الظلم، ظلم النفوس للحق الذي فطرت عليه النفوس وقامت عليه الأدلة القطعية واليقينية إذ تعرفه فطرة وعقلاً وتتنكر له كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴾ [النمل: ١٤].

٨٠٣-٤- الجهل:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨].

فالآية الكريمة بينت بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهم الجهال، أن جهلهم سبب لرفضهم الإيمان وسبب لقولهم: ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٌۗ﴾ كشرط لإيمانهم، ثم بينت أن هذا الجهل هو سبب لمنطق الكافرين الرافضين للإيمان في كل زمان لتشابه قلوبهم.

وما من شاك في صدق القرآن وصدق الرسالة إلا وقد جاء شكه من هذه الأسباب الأربعة كلها أو بعضها وهي: الكبر، والانحراف، والظلم، والجهل. فيحتاج إلى معالجة هذه الأسباب والعودة إلى حظيرة الإسلام والإيمان، فتوبته بأن يسلم من جديد فإن لم يفعل بقي مصروفاً عن التوبة وبقيت تلك الأسباب باعثة له على الإصرار على الكفر والعياذ بالله.

المطلب السادس
الاحتجاج بالقدر بوصفه باعثاً على الإصرار وصارفاً عن التوبة

٨٠٤- معنى الاحتجاج بالقدر:

يحتج بعض المذنبين بالقدر لتبرير ذنوبهم وخطاياهم فيقولون بأن الله قدرها عليهم وأنه إذا قدر عليهم البقاء والإصرار على الذنوب فسيكون بقاؤهم وإصرارهم بسبب هذا القدر، وإذا قدر لهم التوبة فسوف تحصل منهم أيضاً، وأنهم مستسلمون لقدر الله في هذا وفي ذاك. وأن ما شاءه الله لهم فهم واقفون عنده سواء كان كفرا أو إيمانا، هدى أو ضلالا. وهذا النمط من التفكير السقيم يجعلهم يقيمون على الذنوب من غير مبادرة إلى التوبة، محتجين بالقدر، فيكون الاحتجاج بالقدر باعثا على الإصرار على الذنوب وصارفاً لهم عن التوبة.

٨٠٥- أساس الخلط والجهل عند المحتجين بالقدر لذنوبهم:

وهذا الفهم السقيم أساسه عدم التمييز بين إرادة الله ومشيئته الكونية القدرية وبين إرادته التشريعية بالأمر والنهي.

فإرادة الله جل جلاله وإن كانت واحدة غير متعددة بوصفها واحدة من الصفات الإلهية، وشاملة لكل الحوادث بدون استثناء، إلا أنها تظهر في صورة قدر قدره الله وشاءه، وكذلك تظهر في صورة أمر ونهي إلهي تشريعي هو مراد الله تعالى.

ففي جانب إرادته ومشيئته الكونية القدرية لا شك في أن إرادته ومشيئته تبارك وتعالى نافذة في كل مخلوقاته خلقاً وإيجاداً وأفعالاً، قال تعالى: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [النحل: ٩٣]، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٠٠]، وقال: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة: ١٣]، وقال: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود: ٣٤]. وقال: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فهذه الإرادة الإلهية مختصة بالله تعالى وليس فيها أمر أو نهي للعباد، وليست متعلقة ببيان ما يرضاه الله من الأفعال ويحبه وما لا يرضاه ولا يحبه. ولم يطلب الله تعالى من الخلق أن يتعاملوا مع هذه الإرادة القدرية، وإنما أمرهم فقط أن يعلموها ويؤمنوا بها باعتبارها جزءاً من العقيدة لتعلقها بصفات الله تعالى ومن صفاته علم الغيب والإرادة المطلقة النافذة في كل مخلوقاته.

وهذه الإرادة الكونية: هي الإرادة المذكورة في قول المسلمين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» (٨٧٣).

أما إرادته التشريعية: أي الإرادة الإلهية المتضمنة الأمر والنهي الإلهي فهي المتضمنة للمحبة والرضا أي ما يريده الله لأنه يحبه ويرضاه فيأمر به، أو يحب ويرضى عدم الإتيان به فينهى عنه، وهي في مثل قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء: ٢٦]. وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ

(٨٧٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ١١٦-١١٧.

عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٧-٢٨]. وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

ويدخل في ذلك كل ما جاء في الكتاب والسنة من الأمر والنهي الإلهي المتضمن ما يريده الله لأنه يحبه ويرضاه لعباده فيأمر بفعله، وما لا يرضاه الله لعباده ولا يحبه فيأمر بتركه.

فهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل ما لا يريده الله، أي: لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به.

يوضح ذلك: أن الله تعالى شاء وجود الكفر والإيمان، بإرادته القدرية الكونية، ولكنه تبارك وتعالى أمر عباده بما يحبه ويرضاه وهو الإيمان والشكر، ونهاهم عما لا يحبه ولا يرضاه وهو الكفر، قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وشاء وجود إبليس ووسوسته للخلق، وأمر الخلق بعدم اتباعه، وشاء وجود الخير والشر بالجملة بإرادته القدرية الكونية، وأمر بفعل الخير ونهى عن فعل الشر بإرادته التشريعية، والله تعالى أعلم.

٨٠٦- المسلم يؤمن بالقدر ولكن يتعامل مع الأمر والنهي الإلهي:

وبناء على هذا التمييز الدقيق فالإنسان مطلوب منه أن يتعامل مع الأمر والنهي الإلهي، ويكون مسؤولاً عما يأتيه من الشر مما حرمه الله تعالى، بعد أن بينه الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

ومن هنا كان واجب المسلم أن يؤمن بالقدر وبأن كل شيء كائن بإذن الله ومشيئته وهذا ركن من أركان الإيمان، ولكن لا يجوز له أن يحتج به لتبرير ذنوبه لأنه مطلوب منه التعامل مع الأمر والنهي الإلهي لا مع القدر الإلهي بمعنى إرادة الله الكونية القدرية.

وعلى ذلك فقول القائل: لو شاء الله لهداني وجعلني لا أعمل الذنب هو قول صحيح، ولكنها كلمة حق أريد بها باطل، فإنه غير مكلف بأن يتعامل مع القدر الإلهي إلا من جهة أن يؤمن به فقط، ولكنه مكلف بأن يتعامل مع الأمر والنهي الإلهي الذي يبين له ما يحبه الله ويرضاه، وما لا يحبه ولا يرضاه، ومن هنا كانت حجته داحضة وقوله ساقط باطل.

٨٠٧- قول المشركين: لو شاء الله ما أشركنا:

وقول المشركين: كما نقل القرآن الكريم: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩].. قولهم: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ [الأنعام: ١٤٨] هو قول صحيح كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ۗ ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ولكن الجهل والظلم فيه أنهم جعلوه حجة يبررون به شركهم ويستدلون به على أن الله رضيه لهم فخلطوا بسقيم فهمهم بين ما يشاؤه الله وبين ما يحبه ويرضاه، مع أن أمامهم الأمر والنهي الإلهي الذي يأمرهم بترك الشرك وأن يؤمنوا ويوحدوا الله تعالى فذلك الذي يحبه ويرضاه، ولذلك رد القرآن احتجاجهم واستدلالهم السقيم هذا فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ونبين فيما يلي طائفة من أقوال المفسرين وغيرهم من العلماء بما يجلي حقيقة أن القدر نؤمن به ولا نحتج به لتبرير الذنوب:

٨٠٨- أقوال المفسرين والعلماء في أن القدر نؤمن به ولا نحتج به لتبرير الذنوب:

٨٠٩- أولاً - طائفة من أقوال المفسرين في عدم جواز الاحتجاج بالقدر[٨٧٤]:

٨١٠-١- ما جاء في تفسير القرطبي:

قوله تعالى: « ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، قال مجاهد: يعني كفار قريش قالوا: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] يريد البحيرة والسائبة والوصيلة، أخبر الله عز وجل بالغيب عما سيقولونه، وظنوا أن هذا

(٨٧٤) انظر أيضا إلى جانب ما سنورده من أقوال المفسرين تفاسير أخرى لم نورد ما جاء فيها دفعاً للتكرار ومنها: روح المعاني ج: ٨ ص: ٤٩-٥٠، وتفسير البيضاوي: ج: ٢ ص: ٤٦٢، وتفسير الطبري ج: ٨ ص: ٧٨-٨٠.

متمسك لما لزمتهم الحجة وتيقنوا باطل ما كانوا عليه... قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ [الأنعام: ١٤٩] أي التي تقطع عذر المحجوج وتزيل الشك عمن نظر فيها فحجته البالغة على هذا تبينه أنه الواحد، وإرساله الرسل والأنبياء، فبين التوحيد بالنظر في المخلوقات، وأيد الرسل بالمعجزات، ولزم أمره كل مكلف، فأما: علمه، وإرادته، وكلامه، فغيب لا يطلع عليه العبد إلا من ارتضى من رسول، ويكفي في التكليف أن يكون العبد بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به لأمكنه»[٨٧٥].

٨١١-٢- ما جاء في تفسير ابن كثير:

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان ويحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك، ولهذا قالوا: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ﴾ [الزخرف: ٢٠]، الآية التي في النحل مثل هذه سواء[٨٧٦]، قال الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] أي بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء، وهي حجة داحضة باطلة لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام وأذاق المشركين من أليم الانتقام، ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] أي بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ [الأنعام: ١٤٨] أي فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] أي الوهم والخيال والمراد بالظن ها هنا الاعتقاد الفاسد ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] تكذبون على الله فيما ادعيتموه... ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٩] يقول تعالى لنبيه ﷺ: قل لهم يا محمد ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ

---

(٨٧٥) تفسير القرطبي ج: ٧ ص: ١٢٨-١٢٩.

(٨٧٦) وهي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥].

﴿ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] أي له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى وإضلال من ضل ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، قال الضحاك: لا حجة لأحد عصى الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده» (٨٧٧).

٨١٢-٣- ما جاء في تفسير البغوي:

قوله تعالى: « ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] لما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرمه الله قالوا لو يشاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا من قبل ولا حرمنا من شيء من البحائر والسوائب وغيرهما أرادوا: أن يجعلوا قوله ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ [الأنعام: ١٤٨] حجة لهم على إقامتهم على الشرك، وقالوا: إن الله تعالى قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه فلا نفعله، فلولا أنه رضي بما نحن عليه وأراده منا وأمرنا به لحال بيننا وبين ذلك. فقال الله تعالى تكذيباً لهم: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨] من كفار الأمم الخالية ﴿ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ﴾ [الأنعام:١٤٨] عذابنا... قلنا: التكذيب ليس في قولهم لو شاء الله ما أشركنا بل ذلك القول صدق، ولكن في قولهم إن الله تعالى أمرنا بها ورضي بما نحن عليه كما أخبر عنهم في سورة الأعراف: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ ﴾ [الأعراف: ٢٨]، فالرد عليهم في هذا كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [الأعراف: ٢٨]...

وقيل في معنى الآية: إنهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة إلا أنهم كانوا يعدونه عذرا لأنفسهم ويجعلونه حجة لأنفسهم في ترك الإيمان ورد عليهم في هذا لأن أمر الله

(٨٧٧) تفسير ابن كثير ج: ٢ ص: ١٨٧-١٨٨.

بمعزل عن مشيئته وإرادته، فإنه مريد لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد، وعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته فإن مشيئته لا تكون عذراً لأحد»[(٨٧٨)].

٨١٣-٤- ما جاء في تفسير زاد المسير:

« قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] أي إذا لزمتهم الحجة وتيقنوا باطل ما هم عليه من الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ [الأنعام:١٤٨] فجعلوا هذا حجة لهم في إقامتهم على الباطل فكأنهم قالوا: لو لم يرض ما نحن عليه لحال بيننا وبينه، وإنما قالوا ذلك مستهزئين ودافعين للاحتجاج عليهم، فيقال لهم:لم تقولون عن مخالفيكم إنهم ضالون وإنما هم على المشيئة أيضاً، فلا حجة لهم لأنهم تعلقوا بالمشيئة وتركوا الأمر، ومشيئة الله تعم جميع الكائنات، وأمره لا يعم مراداته، فعلى العبد اتباع الأمر وليس له أن يتعلل بالمشيئة بعد ورود الأمر »[(٨٧٩)].

٨١٤-٥- بعض ما جاء في تفسير النسفي:

قوله تعالى: « ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] إخبار بما سوف يقولونه، ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ [الأنعام: ١٤٨] لا نشرك ﴿ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] ولكن شاء، فهذا عذرنا... ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام:١٤٨] من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم ﴿ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] فتظهروه ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] تكذبون ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ [الأنعام: ١٤٩] عليكم بأوامره ونواهيه ولا حجة لكم على الله بمشيئته...»[(٨٨٠)].

٨١٥- ثانيا - طائفة من أقوال العلماء في عدم جواز الاحتجاج بالقدر:

٨١٦-١- من أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية في عدم جواز الاحتجاج بالقدر:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن الإيمان بالقدر: أن يعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. فالمؤمن: يصبر على المصائب، ويستغفر من

---

(٨٧٨) تفسير البغوي ج: ٢ ص: ١٣٩-١٤٠.

(٨٧٩) تفسير زاد المسير ج: ٣ ص: ١٤٥.

(٨٨٠) تفسير النسفي ج: ١ ص: ٣٥١.

الذنوب والمعائب، والجاهل الظالم: يحتج بالقدر على ذنوبه وسيئاته، ولا يعذر بالقدر من أساء إليه، ولا يذكر القدر عند ما ييسره الله له من الخير، فعكس القضية، بل كان الواجب عليه إذا عمل حسنة أن يعلم أنها نعمة من الله هو يسرها وتفضل بها فلا يعجب بها ولا يضيفها إلى نفسه كأنه الخالق لها، وإذا عمل سيئة استغفر و تاب منها، وإذا أصابته مصيبة سماوية أو بفعل العباد يعلم أنها كانت مقدرة مقضية عليه»[٨٨١].

٨١٧- ستة وجوه تبين خطأ المحتجين لذنوبهم بالقدر:

ثم فصل شيخ الإسلام في موضع آخر في موضوع الإيمان بالقدر وعدم وجواز الاحتجاج به للذنوب، ونحن ننقل كلامه - مشذباً وبقدر ما تمس الحاجة إليه مع المحافظة على عبارته - حيث جاء في كتابه دقائق التفسير أنه:

«سئل شيخ الإسلام... عن قوم يحتجون بالقدر ويقولون: قد قضي الأمر من الذر، فالسعيد سعيد والشقي شقي من الذر، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ويقولون: ما لنا في جميع الأفعال قدرة وإنما القدرة لله تعالى قدر الخير والشر وكتبه علينا، والمراد بيان خطأ هؤلاء بالأدلة القاطعة...

فأجاب نفعنا الله بعلومه: الحمد لله رب العالمين... فإذا كان من آمن ببعض وكفر ببعض فهو كافر حقاً فكيف بمن كفر بالجميع ومن لم يقر بأمر الله ونهيه ووعده ووعيده بل ترك ذلك محتجاً بالقدر فهو أكفر ممن آمن ببعض وكفر ببعض.

... وقول هؤلاء يظهر بطلانه من وجوه:

٨١٨- الوجه الأول:

أحدها: أن الواحد من هؤلاء إما أن يرى القدر حجة للعبد وإما أن لا يراه حجة للعبد، فإن كان القدر حجة للعبد فهو حجة لجميع الناس فإنهم كلهم مشتركون في القدر، وحينئذ يلزمه أن لا ينكر على من يظلمه ويشتمه ويأخذ ماله ويفسد حريمه ويضرب عنقه ويهلك الحرث والنسل.

---

(٨٨١) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ج: ١٧ ص: ٩٨.

وهؤلاء جميعهم كذابون متناقضون فإن أحدهم لا يزال يذم هذا ويبغض هذا ويخالف هذا حتى إن الذي ينكر عليهم يبغضونه ويعادونه وينكرون عليه، فإذا كان القدر حجة لمن فعل المحرمات وترك الواجبات لزمهم أن لا يذموا أحداً ولا يبغضوا أحدا ولا يقولون عن أحد: إنه ظالم ولو فعل ما فعل، ومعلوم أن هذا لا يمكن أحداً فعله، ولو فعل الناس هذا لهلك العالم، فتبين أن قولهم فاسد في العقل، كما أنه كفر في الشرع، وأنهم كذابون مفترون في قولهم إن القدر حجة للعبد.

٨١٩- الوجه الثاني:

الوجه الثاني: أن هذا يلزم منه أن يكون إبليس وفرعون وقوم نوح وقوم هود وكل من أهلكه الله بذنوبه معذورين، وهذا من الكفر الذي اتفق عليه أرباب الملل.

٨٢٠- الوجه الثالث:

الوجه الثالث: أن هذا يلزم منه أن لا يفرق بين أولياء الله وأعداء الله، ولا بين المؤمنين والكفار، ولا أهل الجنة وأهل النار، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وذلك أن هؤلاء جميعهم سبقت لهم من الله تعالى السوابق وكتب الله تعالى مقاديرهم قبل أن يخلقهم، وهم مع هذا قد انقسموا إلى: سعيد بالإيمان والعمل الصالح، وإلى شقي بالكفر والفسوق والعصيان، فعلم بذلك أن القضاء والقدر ليس بحجة لأحد على معاصي الله تعالى.

٨٢١- الوجه الرابع:

الوجه الرابع: أن القدر نؤمن به ولا نحتج به، فمن احتج بالقدر فحجته داحضة، ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول، ولو كان الاحتجاج بالقدر مقبولاً لقبل من إبليس وغيره من العصاة، ولو كان القدر حجة للعباد لم يعذب الله أحداً من الخلق لا في الدنيا

ولا في الآخرة، ولو كان القدر حجة لم يقطع سارق ولا قتل قاتل ولا أقيم حد على ذي جريمة ولا جوهد في سبيل الله ولا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر.

٨٢٢- الوجه الخامس:

الوجه الخامس: أن النبي ﷺ سئل عن هذا، فإنه قال: (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة، فقيل: يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال: لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له)[٨٨٢] رواه البخاري ومسلم، وفي حديث آخر في الصحيح أنه قيل له يا رسول الله: (أرأيت ما يعمل الناس فيه ويكدحون أفيما جفت به الأقلام وطويت به الصحف فقيل: ففيم العمل؟ فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له)[٨٨٣].

٨٢٣- الوجه السادس:

الوجه السادس: أن يقال إن الله تعالى علم الأمور وكتبها على ما هي عليه فهو سبحانه قد كتب أن فلاناً يؤمن ويعمل صالحاً فيدخل الجنة، وفلاناً يفسق ويعصي فيدخل النار كما علم وكتب أن فلاناً يتزوج امرأة ويطؤها فيأتيه ولد، وأن فلاناً يأكل ويشرب فيشبع ويروى، وأن فلاناً يبذر البذر فينبت الزرع، فمن قال: إن كنت من أهل الجنة فأنا أدخلها بلا عمل صالح كان قوله قولاً باطلاً مناقضاً لما علمه الله وقدره، ومثال من يقول أنا لا أطأ امرأة فإن كان الله قضى لي بولد فهو يولد، فهذا جاهل فإن الله تعالى إذا قضى بالولد قضى أن أباه يطأ امرأة فتحبل وتلد، فأما الولد بلا حبل ولا وطء فإن الله لم يقدره ولم يكتبه. كذلك الجنة إنما أعدها الله تعالى للمؤمنين فمن ظن أنه يدخل الجنة بلا إيمان كان ظنه باطلاً وإذا اعتقد أن الأعمال التي أمر الله بها لا يحتاج إليها ولا فرق بين أن يعملها أو لا يعملها كان كافراً والله قد حرم الجنة إلا على أصحابها.

... وأما قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] الآية، فمن سبقت له من الله الحسنى فلا بد أن يصير مؤمناً تقياً، فمن لم يكن من المؤمنين لم تسبق له من الله الحسنى، لكن الله إذا سبقت للعبد منه سابقة استعمله بالعمل الذي يصل به إلى تلك السابقة، كمن سبق له من الله تعالى أن يولد له ولد فلا بد أن يطأ امرأة يحبلها، فإن الله

---

(٨٨٢) متفق عليه: البخاري (٤٥٦٨)، ومسلم (٤٧٨٧).

(٨٨٣) مسلم (٤٧٨٨)، أحمد (١٩) و(١٣٧٣٩).

سبحانه وتعالى قدر الأسباب والمسببات، فسبق منه هذا وهذا، فمن ظن أن أحداً سبق له من الله الحسنى بلا سبب فقد ضل، بل هو سبحانه ميسر الأسباب والمسببات، وهو قد قدر فيما مضى هذا وهذا.

وقال في موضع آخر: «ولا يوجد أحد يحتج بالقدر في ترك الواجب وفعل المحرم إلا وهو متناقض لا يجعله حجة في مخالفة هواه بل يعادي من آذاه وإن كان محقاً، ويحب من وافقه على غرضه وإن كان عدواً لله، فيكون حبه وبغضه وموالاته ومعاداته بحسب هواه وغرضه وذوق نفسه ووجده لا بحسب أمر الله ونهيه ومحبته وبغضه وولايته وعداوته، إذ لا يمكنه أن يجعل القدر حجة لكل أحد فإن هذا مستلزم للفساد الذي لا صلاح معه والشر الذي لا خير فيه، إذ لو جاز أن يحتج كل أحد بالقدر لما عوقب معتد ولا اقتص من ظالم باغ ولا أخذ لمظلوم حقه من ظالمه ولفعل كل أحد ما يشتهيه من غير معارض يعارضه فيه وهذا فيه من الفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد. فمن المعلوم بالضرورة أن الأفعال تنقسم إلى ما ينفع العباد وإلى ما يضرهم والله قد بعث رسوله ﷺ يأمر المؤمنين بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث فمن لم يتبع شرع الله ودينه تبع ضده من الأهواء والبدع وكان احتجاجه بالقدر من الجدل بالباطل ليدحض به الحق لا من باب الاعتماد عليه، ولزمه أن يجعل كل من جرت عليه المقادير من أهل المعاذير فقد قال إبليس: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩] فأصر واحتج بالقدر فكان ذلك زيادة في كفره، وسبباً لمزيد عذابه، وأما آدم عليه السلام فانه قال: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧]» (٨٨٤).

٨٢٤- موقف المؤمن من القدر في حالة وقوع الذنب منه:

وقال في موضع آخر: «فالصواب منها حالة المؤمن الذي يتقي الله: فيفعل المأمور، ويترك المحظور، ويصبر على ما يصيبه من المقدور، فهو عند الأمر والنهي والدين والشريعة، ويستعين بالله على ذلك،كما قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

---

(٨٨٤) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٣٠١-٣٠٢.

[الفاتحة: ٥]، وإذا أذنب استغفر وتاب، لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات، ولا يرى للمخلوق حجة على رب الكائنات، بل يؤمن بالقدر ولا يحتج به، كما في الحديث الصحيح الذي فيه سيد الاستغفار أن يقول العبد: (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)[٨٨٥]، فيقر بنعمة الله عليه في الحسنات، ويعلم أنه هو هداه ويسره لليسرى، ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها، كما قال بعضهم: أطعتك بفضلك والمنة لك، وعصيتك بعلمك والحجة لك، فأسألك بوجوب حجتك علي وانقطاع حجتي إلا غفرت لي، وفي الحديث الصحيح الإلهي: (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه[٨٨٦]) »[٨٨٧].

٨٢٥-٢- قول ابن القيم في عدم جواز الاحتجاج بالقدر:

«وقد أنكر الله سبحانه وتعالى على من جعل مشيئته وقضاءه مستلزمان لمحبته ورضاه فكيف بمن جعل ذلك شيئاً واحداً قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ ﴾ [الزخرف: ٢٠] فهم استدلوا على محبته لشركهم ورضاه عنه بمشيئته لذلك وعارضوا بهذا الدليل أمره ونهيه وفيه أبين الرد لقول من جعل مشيئته هي[٨٨٨] محبته ورضاه.

---

(٨٨٥) البخاري (٥٨٣١) و(٥٨٤٨)، والنسائي (٥٤٢٧)، وأبو داود (٤٤٠٨)، وابن ماجة (٣٨٦٢)، وأحمد (١٦٤٨٨).

(٨٨٦) مسلم (٤٦٧٤).

(٨٨٧) ابن تيمية: دقائق التفسير ج: ٢ ص: ٢٩٧.

(٨٨٨) في الأصل كلمة (غير) بدلا من كلمة (هي) ولا يستقيم بها المعنى بل يضاد المعنى المقصود حسب السياق، ونظن أنه ناتج عن خطأ في النسخ أو الطباعة.

فالإشكال إنما نشأ من جعلهم المشيئة نفس المحبة...

والذي يكشف هذه الغمة ويبصر من هذه العماية وينجي من هذه الورطة إنما هو التفريق بين ما فرق الله بينه وهو المشيئة والمحبة فإنهما ليسا واحداً ولا هما متلازمين بل قد يشاء ما لا يحبه ويحب ما لا يشاء كونه.

فالأول: كمشيئته لوجود إبليس وجنوده ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه

والثاني: كمحبته إيمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين ولو شاء ذلك لوجد كله وكان جميعه فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»[٨٨٩].

وقال في موضع آخر: «وأما الاعتذار بالقدر فهو مخاصمة لله، واحتجاج من العبد على الرب، وحمل لذنبه على الأقدار، وهذا فعل خصماء الله...»[٨٩٠].

وقال في موضع آخر: «والمقصود أنه لا عذر لأحد البتة في معصية الله ومخالفة أمره مع علمه بذلك وتمكنه من الفعل والترك ولو كان له عذراً لما استحق العقوبة واللوم لا في الدنيا ولا في العقبى»[٨٩١].

٨٢٦- بعض وجوه رد ابن القيم على من يحتج بالقدر:

ثم أورد ابن القيم رداً على أصحاب الاحتجاج بالقدر من وجهين:

٨٢٧- الوجه الأول:

أحدهما: أن يقال العذر إن لم يكن مقبولاً لم يكن نافعاً والاعتذار بالقدر غير مقبول ولا يعذر أحد به ولو اعتذر فهو كلام باطل لا يفيد شيئاً البتة بل يزيد في ذنب الجاني ويغضب الرب عليه وما هذا شأنه لا يشتغل به عاقل.

---

(٨٨٩) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ٢ ص: ١٩١-١٩٢.
(٨٩٠) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ١٨٣.
(٨٩١) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ١٨٩.

٨٢٨- الوجه الثاني:

الثاني: أن الاعتذار بالقدر يتضمن تنزيه الجاني نفسه وتنزيه ساحته وهو الظالم الجاهل... والإنسان كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

ولو علم هذا الظالم الجاهل أن بلاءه من نفسه، ومصابه منها، وأنها أولى بكل ذم وظلم، وأنها مأوى كل سوء، و ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: كفور جحود لنعم الله، وقال الحسن: هو الذي يعد المصائب وينسى النعم، وقال أبو عبيدة: هو قليل الخير. والأرض الكنود: التي لا نبت بها، وقيل: التي لا تنبت شيئاً من المنافع، وقال الفضل بن عباس: الكنود: الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان.

ولو علم هذا الظالم الجاهل أنه هو القاعد على طريق مصالحه يقطعها عن الوصول إليه، فهو الحجر في طريق الماء الذي به حياته، وهو السكر الذي قد سد مجرى الماء إلى بستان قلبه، ويستغيث مع ذلك العطش العطش وقد وقف في طريق الماء ومنع وصوله إليه، فهو حجاب قلبه عن سر غيبه، وهو الغيم المانع لإشراق شمس الهدى على القلب، فما عليه أضر منه ولا له أعداء أبلغ في نكايته وعداوته منه.

ما تبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

فتباً له ظالماً في صورة مظلوم وشاكياً والجناية منه:

قد جد في الإعراض وهو ينادي: طردوني وأبعدوني...

يأخذ الشفيق بحجزته عن النار وهو يجاذبه ثوبه ويغلبه ويقتحمها ويستغيث ما حيلتي وقد قدموني إلى الحفيرة وقذفوني فيها.

والله كم صاح به الناصح الحذر الحذر إياك إياك وكم أمسك بثوبه وكم أراه مصارع المقتحمين وهو يأبى إلا الاقتحام.

وكم سقت في آثاركم من نصيحة ... وقد يستفيد الظنة المتنصح

يا ويله ظهيراً للشيطان على ربه، خصماً لله مع نفسه، جبري المعاصي قدري الطاعات، عاجز الرأي مضياع لفرصته، قاعد عن مصالحه معاتب لأقدار ربه، يحتج على ربه بما لا يقبله من عبده وامرأته وأمته إذا احتجوا به عليه في التهاون في بعض أمره، فلو أمر أحدهم بأمر ففرط فيه أو نهاه عن شيء فارتكبه وقال: القدر ساقني إلى ذلك، لما قبل منه هذه الحجة، ولبادر إلى عقوبته. فإن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل في ترك حق ربك فهلا كان حجة لعبدك وأمتك في ترك بعض حقك، بل إذا أساء إليك مسيء وجنى عليك جان واحتج بالقدر لاشتد غضبك عليه، وتضاعف جرمه عندك، ورأيت حجته داحضة، ثم تحتج على ربك به، وتراه عذرا لنفسك، فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟!.

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مدى الأنفاس، أزاح عللك ومكنك من التزود إلى جنته، وبعث إليك الدليل، وأعطاك مؤنة السفر، وما تتزود به، وما تحارب به قطاع الطريق عليك، فأعطاك السمع والبصر والفؤاد، وعرفك الخير والشر، والنافع والضار، وأرسل إليك رسوله، وأنزل إليك كتابه، ويسره للذكر والفهم والعمل، وأعانك بمدد من جنده الكرام يثبتونك ويحرسونك ويحاربون عدوك ويطردونه عنك ويريدون منك أن لا تميل إليه ولا تصالحه وهم يكفونك مؤنته، وأنت تأبى إلا مظاهرته عليهم، وموالاته دونهم، بل تظاهره وتواليه دون وليك الحق الذي هو أولى بك، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

طرد إبليس عن سمائه وأخرجه من جنته وأبعده من قربه إذ لم يسجد لك وأنت في صلب أبيك آدم لكرامتك عليه فعاداه وأبعده، ثم واليت عدوه، وملت إليه، وصالحته، وتتظلم مع ذلك وتشتكي الطرد والإبعاد وتقول:

عودوني الوصال والوصل عذب ورموني بالصد والصد صعب

نعم، وكيف لا يطرد من هذه معاملته؟ وكيف لا يبعد عنه من كان هذا وصفه؟ وكيف يجعل من خاصته وأهل قربه من حاله معه هكذا؟ قد أفسد ما بينه وبين الله وكدره.

أمره الله بشكره لا لحاجته إليه ولكن لينال به المزيد من فضله فجعل كفر نعمه والاستعانة بها على مساخطه من أكبر أسباب صرفها عنه، وأمره بذكره ليذكره بإحسانه

فجعل نسيانه سببا لنسيان الله له ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩]، ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧].

أمره بسؤاله ليعطيه فلم يسأله، بل أعطاه أجل العطايا بلا سؤال فلم يقبل، يشكو من يرحمه إلى من لا يرحمه، ويتظلم ممن لا يظلمه، ويدع من يعاديه ويظلمه.

إن أنعم عليه بالصحة والعافية والمال والجاه استعان بنعمه على معاصيه، وإن سلبه ذلك ظل متسخطاً على ربه وهو شاكيه، لا يصلح له على عافية ولا على ابتلاء، العافية تلقيه إلى مساخطه والبلاء يدفعه إلى كفرانه وجحود نعمته وشكايته إلى خلقه.

دعاه إلى بابه فما وقف عليه ولا طرقه، ثم فتحه له فما عرج عليه ولا ولجه، أرسل إليه رسوله يدعوه إلى دار كرامته فعصى الرسول وقال لا أبيع ناجزاً بغائب، ونقداً بنسيئة، ولا أترك ما أراه لشيء سمعت به، ويقول:

خذ ما رأيت ودع شيئاً سمعت به ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

فإن وافق حظه طاعة الرسول أطاعه لنيل حظه لا لرضا مرسله،لم يزل يتمقت إليه بمعاصيه حتى أعرض عنه وأغلق الباب في وجهه.

ومع هذا فلم يؤيسه من رحمته، بل قال: متى جئتني قبلتك، إن أتيتني ليلاً قبلتك، وإن أتيتني نهاراً قبلتك، وإن تقربت مني شبراً تقربت منك ذراعاً، وإن تقربت مني ذراعاً تقربت منك باعاً، وإن مشيت إلي هرولت إليك، ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً أتيتك بقرابها مغفرة، ولو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ومن أعظم مني جوداً وكرماً.

عبادي يبارزونني بالعظائم وأنا أكلؤهم على فرشهم (إني والجن والإنس في نبإ عظيم: أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي...

أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا إلي فأنا حبيبهم فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا إلي فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب، ومن آثرني على سواي آثرته على سواه.

الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة عندي بواحدة، فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له. أشكر اليسير من العمل، وأغفر الكثير من الزلل، رحمتي سبقت غضبي، وحلمي سبق مؤاخذتي، وعفوي سبق عقوبتي، أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها (لله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته بأرض مهلكة دوية، عليها طعامه وشرابه، فطلبها حتى إذا أيس من حصولها نام في أصل شجرة ينتظر الموت، فاستيقظ فإذا هي على رأسه قد تعلق خطامها بالشجرة، فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته)[٨٩٢]، وهذه فرحة إحسان وبر ولطف لا فرحة محتاج إلى توبة عبده منتفع بها، وكذلك موالاته لعبده إحساناً إليه ومحبة له وبراً به، لا يتكثر به من قلة، ولا يتعزز به من ذلة، ولا ينتصر به من غلبة، ولا يعده لنائبة، ولا يستعين به في أمر ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء:١١١]، فنفى أن يكون له ولي من الذل، والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه.

فهذا شأن الرب وشأن العبد، وهم يقيمون أعذار أنفسهم ويحملون ذنوبهم على أقداره...

وما أحسن قول القائل:

تطوي المراحل عن حبيبك دائباً ... وتظل تبكيه بدمع ساجم
كذبتك نفسك لست من أحبابه ... تشكو البعاد وأنت عين الظالم[٨٩٣]

٨٢٩- مدافعة قدر الذنب بقدر التوبة:

وقال في موضع آخر: «والرجل من يكون منازعاً للقدر لا من يكون مستسلماً مع القدر، ولا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض، فكيف في معادهم، والله تعالى أمر أن تدفع السيئة وهي من قدره بالحسنة وهي من قدره، وكذلك الجوع من قدره وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره ولو استسلم العبد لقدر الجوع مع قدرته على دفعه بقدر الأكل حتى مات مات عاصياً، وكذلك البرد والحر والعطش كلها

---

(٨٩٢) أخرجه مسلم (٤٩٢٩)، وأحمد (١٧٦٩٦).
(٨٩٣) ابن القيم: مدارج السالكين ج:١ ص:١٨٩-١٩٥ (مع التشذيب والمحافظة على عبارة المصنف).

من أقداره وأمر بدفعها بأقدار تضادها، والدافع والمدفوع والدفع من قدره، وقد أفصح النبي ﷺ عن هذا المعنى كل الإفصاح إذ قالوا يا رسول الله (أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها، وتقى نتقي بها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: هي من قدر الله)[٨٩٤]، وفي الحديث الآخر: (إن الدعاء والبلاء ليعتلجان بين السماء والأرض)[٨٩٥]، وإذا طرق العدو من الكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله، أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر وترك دفعه بقدر مثله وهو الجهاد الذي يدفعون به قدر الله بقدره.

وكذلك المعصية إذا قدرت عليك وفعلتها بالقدر فادفع موجبها بالتوبة النصوح وهي من القدر»[٨٩٦].

المطلب السابع

تزيين الشيطان لكل ما تقدم من البواعث للإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة

٨٣٠- تمهيد: القرآن بين غاية الشيطان وطريقة عمله وضرورة اتخاذه عدواً:

ما ذكرناه من الصوارف والموانع التي تصرف الإنسان عن التوبة وتمنعه منها،كحب الدنيا وشهواتها، وطول الأمل، والتعلق بالرجاء من غير عمل، والقنوط من رحمة الله، والشك في صدق وعد القرآن وما جاءت به الرسل، والاحتجاج بالقدر، كل ذلك للشيطان فيه نصيب كبير عن طريق الوسوسة به في صدور الناس وتزيينه لهم ليضلهم عن سبيل الله ويحرمهم من الهداية والجنة ويجرهم معه إلى النار.

والشيطان يفعل ذلك عداوة لبني آدم بسبب عداوته لأبيهم آدم عليه السلام الذي بسببه طرد إبليس من الجنة طرد الأبد، ولعن لعن الأبد حين لم يستجب للأمر الإلهي بالسجود لآدم كما أمره الله تعالى.

---

(٨٩٤) ابن ماجة (٣٤٢٨).

(٨٩٥) المنذري: الترغيب والترهيب ٢/ ٣١٦ ولفظه: (وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة) وقال: رواه البزار والطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد، ويعتلجان، أي: يتصارعان ويتدافعان. وجاء في خلاصة البدر المنير (٢٥٨٤): « خبر البلاء والدعاء يعتلجان أي يتدافعان، رواه البزار في مسنده من حديث عائشة رفعته ».

(٨٩٦) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ١٩٩-٢٠٠.

والقرآن الكريم بين بالتفصيل غاية الشيطان، وطريقة عمله مع بني آدم:

فذكر أن غايته دعوة بني آدم إلى الأفعال التي تفضي إلى النار قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وذكر عن طريقة عمله أنه يعمل بطريق الوسوسة التي تتضمن التزيين للمنكر سواء أكان من منكرات غواية البطون والفروج أو منكرات ضلال العقول، قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٤-٦]، وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

والقرآن الكريم لم يبين لنا غاية الشيطان وطريقة عمله فقط، وإنما أمرنا أيضاً أن نتخذه عدواً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. ومن أطاع الشيطان فقد اتخذه ولياً من دون الله في تلك الطاعة، ومن عصاه وراغمه فقد اتخذه عدواً كما أمر الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

٨٣١- تفصيل مراد الشيطان من بني آدم:

وقد بينت آيات التنزيل العزيز مراد الشيطان من بني آدم ومنه :

٨٣٢-١- الدعوة إلى الكفر:

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

٨٣٣-٢- الأمر بالسوء والفحشاء والقول على الله بغير علم:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

٨٣٤-٣- التزيين للغواية والضلال:

قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤]، وقال: ﴿وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [النحل: ٦٣]. وأخبر تعالى عما قاله الشيطان عند طرده من الجنة: ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠].

٨٣٥- ٤- الإضلال:

قال تعالى مخبراً عما قاله الشيطان عند طرده من الجنة: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ ﴾ [النساء: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴾ [القصص: ١٥]، وقال: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾ [النساء: ٦٠] وقال: ﴿ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

٨٣٦- ٥- الإزلال:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وقال: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٣٦].

٨٣٧- ٦- كشف العورات:

قال تعالى: ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا ﴾ [الأعراف: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

٨٣٨- ٧- التخويف من الجهاد:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

٨٣٩- ٨- التخويف من الإنفاق في سبيل الله:

قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

٨٤٠-٩- تحزين المؤمن من فعل أخيه:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [المجادلة: ١٠].

٨٤١-١٠- تزيين حب الدنيا وشهواتها بقصد إيثارها على الآخرة:

قال تعالى في بيان تزيين الشيطان لحب الدنيا وشهواتها بقصد إيثارها على الآخرة - وهو غير تزيين الله لها من أجل الابتلاء -: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

٨٤٢-١١- الوعد بطول الأمل:

قال تعالى: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١٢٠].

٨٤٣-١٢- الوعد الكاذب للكافرين بنصرتهم على المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٨].

٨٤٤-١٣- إيقاع العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١].

٨٤٥-١٤- المس:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٨٤٦-١٥- الاقتران والملازمة للعاصي الأعشى عن ذكر الله:

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ

بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٨]، وقال: ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ [النساء: ٣٨].

٨٤٧-١٦- الإنساء:

قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال: ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ [الكهف: ٦٣]، وقال: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقال: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ [المجادلة: ١٩].

٨٤٨-١٧- الفتنة عن طاعة الله:

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف:٢٧].

٨٤٩-١٨- تلقف المنسلخ من آيات الله وإغوائه:

قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

٨٥٠-١٩- النزغ للمؤمنين والنزغ فيما بينهم:

قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال: ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقال: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٥٣].

٨٥١-٢٠- مس بعض المتقين بطائف منه، ومد الغاوين بالغي الدائم:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١-٢٠٢].

٨٥٢-٢١- الدعوة إلى النار:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]، وقال: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [لقمان: ٢١].

٨٥٣-٢٢- التسويل والإملاء بالارتداد عن الهدى:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٥].

٨٥٤-٢٣- استهواء أهل الضلال وإيقاعهم في الحيرة:

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١].

٨٥٥-٢٤- العداوة لكل نبي:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ [الأنعام:١١٢].

٨٥٦-٢٥- الكفر وتعليم الناس السحر:

قال تعالى: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

٨٥٧-٢٦- الإيحاء للضالين والكافرين لمجادلة المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

٨٥٨-٢٧- الهمزات والحضور:

قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨].

٨٥٩-٢٨- التنزل على كل أفاك أثيم:

قال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢].

٨٦٠-٢٩- تغيير خلق الله:

أخبر تعالى عما قاله الشيطان عند طرده من الجنة بقوله تعالى: ﴿ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [النساء: ١١٩].

٨٦١- ٣٠- الصد عن الصراط المستقيم:

قال تعالى إخبارا عما قاله الشيطان عند طرده من الجنة: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

٨٦٢- ٣١- التلبيس للدين :

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

تلك هي أهم أفعال الشياطين مع بني آدم، وقد أقسم الله تعالى أن يدخلهم وأتباعهم من الإنس في النار، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٦٨-٧٠]، وقال ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

٨٦٣- طموح الشيطان في الإغواء أكبر من قدرته الحقيقية:

وطموح الشيطان لإغواء بني آدم أكبر بكثير من قدرته الحقيقية، وأكبر مما أذن له به من سلطان لامتحان بني آدم في الحياة الدنيا، لذلك لا يمكن إنفاذه إلا بقدر ما أذن به الله تعالى، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وحين قال الشيطان فيما أخبر الله عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، كان جواب الرب تبارك وتعالى: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤١-٤٣].

والشيطان خلقه الله لامتحان بني آدم في هذه الحياة الدنيا فهو لا يقدر أن يفعل شيئاً إلا تحت مشيئة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وقال جل جلاله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، بل لا تتحرك ذرة في الأرض ولا مجرة في السماء إلا بمشيئته تبارك

وتعالى، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، وإنما هو الامتحان لبني الإنسان.

٨٦٤- من الوسوسة والتزيين.. إلى الاستجابة والإتباع:

والشيطان لا يملك سوى الوسوسة والتزيين، أما سلطانه الحقيقي فيبدأ بفعل يصدر من الإنسان هو: (الاستجابة) أو (الاتباع) أو (الاتخاذ) أو (التولي)، ومتى فعل الإنسان ذلك مكن الشيطان من نفسه وجعل له سلطاناً عليه، وبدون الاستجابة، والاتباع، والاتخاذ، والتولي لا يكون للشيطان سلطان على الإنسان.

يدل على ذلك ما أخبر به الله تعالى عن قول الشيطان يوم القيامة: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُمۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ﴾ [النور: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

٨٦٥- المعصية تفتح نافذة للشيطان يدخل منها:

والمؤمن حين يقع في المعصية فإنه يفتح نافذة للشيطان كبيرة أو صغيرة حسب نوع المعصية ليكون له سلطان عليه بقدرها - وهو المعبر عنه في الحديث الشريف: «نكتت في قلبه نكتة سوداء»[٨٩٧] - فإن نزع وتاب واستغفر أغلق النافذة ومحا أثرها - وهو المعبر

(٨٩٧) سنن الترمذي (٣٢٥٧) قال: حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه =

عنه في الحديث الشريف: «صقل قلبه» - ولم يبق إلا الوسوسة التي تكثر مع الغفلة وتقل أو تنعدم عند الذكر، لأن الشيطان يوسوس عند الغفلة ويخنس عند الذكر، ولذلك وصفه الله تعالى بـ (الوسواس الخناس).

٨٦٦- وسائل تحصين المؤمن من الشيطان:

وعلى ذلك فالذكر بأنواعه من أعظم الوسائل في حماية المؤمن وتحصينه من وساوس الشيطان الرجيم، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦]. وجاء في الحديث الشريف عن أثر الذكر في تحصين المؤمن قوله ﷺ فيما رواه عن نبي الله يحيى بن زكريا فيما أمره الله أن يقول بشأن الذكر: (وآمركم بذكر الله عز وجل كثيراً، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل)[٨٩٨].

والوسائل في تحصين المؤمنين من الشيطان الرجيم كثيرة فليحرص المؤمن على دراستها وتطبيقها يومياً[٨٩٩]، والله يحفظ المؤمنين والمؤمنات ويرعاهم برعايته، والله المستعان.

٨٦٧- بدايات المعصية.. من أين؟ :

والبداية لفعل المعصية قد تكون من النفس الأمارة بالسوء قبل أن تصبح مطمئنة وراسخة في الطاعات، في صورة خواطر أو تفكر، فيتلقف الشيطان هذه البدايات ويوسوس بها ويزينها. وقد تكون البداية مما يلقيه الشيطان في النفس بطريق الوسوسة

= نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)) قال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد في مسنده (٧٦١١)، وابن ماجة (٤٢٣٤).

(٨٩٨) أخرجه الترمذي (٢٧٩٠) وقال حديث حسن صحيح، وأحمد (١٦٥٤٢) واللفظ له، وأيضاً أحمد برقم (١٧١٣٢).

(٨٩٩) والكتب المؤلفة في الأذكار كثيرة، منها كتاب الأذكار للنووي، وتحفة الذاكرين للشوكاني و«المأثورات» للإمام حسن البنا رحمه الله، وهو كتيب صغير سهل الحفظ تضمن أذكاراً منتقاة من أحاديث النبي ﷺ للصباح والمساء مفيدة جداً لمن واظب عليها، تحفظ قلبه حياً بنور الله، ولسانه رطباً بذكر الله، وقد كتبها للمسلمين عامة وللدعاة إلى الله خاصة.

وينفثه من سمومه في صدور الناس فتحصل الاستجابة والاتباع لخطوات الشيطان، أو يحصل الرفض والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم والاعتصام بالله.

٨٦٨- عندما يكون الشيطان وسيلة - رغم أنفه - لرفع درجة المؤمن عند الله !!:

فإذا كان رد الفعل من قبل المؤمن على الوسوسة هو الذكر الدائم والاعتصام بالله وتلاوة القرآن وتكرار تلاوة الآيات الحافظة من الشيطان والتحصن بالأدعية المأثورة عن النبي ﷺ، كان كل ذلك سبباً في زيادة أجر المؤمن ورفع درجته عند الله تعالى، فسبحان من جعل الشيطان المنصب للشر وسيلة - رغم أنفه - لرفع درجة المؤمن عند الله تعالى، ودفعه لفعل الخير، فيكون المؤمن هو الرابح والشيطان هو الخاسر، وهذا أسلوب من أساليب مراغمة الشيطان، ومن تعبد الله تعالى بمراغمة عدوه الشيطان الرجيم كان على خير كثير إن شاء الله.

٨٦٩- من البدايات.. إلى النهايات:

ما من معصية إلا ولها بدايات، وبخاصة الكبائر، وقلما تهجم على الإنسان من غير مقدمات وتفكر، فإن استمر وواصل فربما وقع في المعصية، وإن أوصد الباب واعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم واستراح، ولذلك كان من دعاء بعض الصالحين: اللهم نعوذ بك من البدايات التي تقود إلى سوء النهايات.

ولذلك جاء النهي في القرآن الكريم عن (الاقتراب) وهو مقدمات مباشرة المعصية، لأن الاقتراب منها ومن أسبابها يوقع فيها، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، ويدل على ذلك الحديث الشريف: عن النواس بن سمعان الأنصاري عن رسول الله ﷺ قال: (ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتفرجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة: محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله عز وجل، والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم)[٩٠٠].

---

(٩٠٠) سنن الترمذي (٢٧٨٦)، ومسند أحمد (١٦٩٧٦) واللفظ له.

٨٧٠- علاج البدايات قبل أن تصبح عزما على الفعل:

قال ابن القيم: «وأول ما يطرق القلب الخطرة، فإن دفعها [بالاشتغال بالذكر والاستعصام] استراح مما بعدها، وإن لم يدفعها قويت فصارت وسوسة، فكان دفعها أصعب، فإن بادر ودفعها وإلا قويت وصارت شهوة، فإن عالجها وإلا صارت إرادة، فإن عالجها وإلا صارت عزيمة، ومتى وصلت إلى هذه الحال لم يمكن دفعها، واقترن بها الفعل ولا بد.. وحينئذ ينتقل العلاج إلى أقوى الأدوية وهو الاستفراغ التام بالتوبة النصوح.

ولا ريب أن دفع مبادئ هذا الداء من أوله أيسر وأهون من استفراغه بعد حصوله إن ساعد القدر وأعان التوفيق، وإن الدفع أولى به وإن تألمت النفس بمفارقة المحبوب، فليوازن بين فوات هذا المحبوب الأخس المنقطع النكد المشوب بالآلام والهموم، وبين فوات المحبوب الأعظم الدائم الذي لا نسبة لهذا المحبوب إليه البتة لا في قدره ولا في بقائه، وليوازن بين ألم فوته وبين ألم فوت المحبوب الأخس، وليوازن بين لذة الإنابة والإقبال على الله تعالى والتنعم بحبه وذكره وطاعته، ولذة الإقبال على الرذائل والإتيان بالقبائح، وليوازن بين لذة الظفر بالذنب ولذة الظفر بالعدو، وبين لذة الذنب ولذة العفة، ولذة الذنب ولذة القوة وقهر العدو، وبين لذة الذنب ولذة إرغام عدوه ورده خاسئاً ذليلاً، وبين لذة الذنب ولذة الطاعة التي تحول بينه وبين مراده، وبين فوت مراده وفوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه وفوت حسن جزائه وجزيل ثوابه، وبين فرحة إدراكه وفرحة تركه لله تعالى عاجلاً وفرحة ما يثيبه عليه في دنياه وآخرته، والله المستعان»[٩٠١].

٨٧١- الشيطان لا سلطان له على المؤمنين المتوكلين:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩-١٠٠]. فمن جمع بين الإيمان الحق والتوكل التام امتنع سلطان الشيطان عنه ولم يبق إلا الطائف من الشيطان أحياناً الذي يعقبه التذكر والإنابة وهو حال المتقين قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

---

(٩٠١) ابن القيم: التبيان في أقسام القرآن ج: ١ ص: ٢٦٧.

٨٧٢- أولويات الشيطان في مراده من بني آدم: العقبات السبع

تكلم ابن القيم في بيان مراد الشيطان من بني آدم من حيث الأولويات التي هي أشهى للشيطان ومقدمة عنده على غيرها فهو يسعى إليها حسب أهميتها عنده، وهذا مبحث دقيق ومفيد إذ يُعرِّف المؤمنين بمراد الشيطان وأولوياته وتلبيساته لكي نحذرها. ومثل هذا البيان ضروري وهو داخل في معنى قوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

قال ابن القيم في «مدارج السالكين»[٩٠٢]: «النظر الرابع: نظره إلى الآمر له بالمعصية، المزين له فعلها، الحاض له عليها، وهو شيطانه الموكل به، فيفيده النظر إليه وملاحظته: اتخاذه عدواً، وكمال الاحتراز منه، والتحفظ واليقظة والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر.

فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات، بعضها أصعب من بعض، لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها.

٨٧٣- العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه وبصفات كماله وبما أخبرت به رسله عنه:

فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح، فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية وسلم معه نور الإيمان طلبه على:

٨٧٤- العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة:

إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين التي لا يقبل الله منها شيئاً، والبدعتان في الغالب متلازمتان قَلَّ أن تنفك إحداهما عن الأخرى،كما قال بعضهم تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال فاشتغل الزوجان بالعرس فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون في بلاد الإسلام تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى، وقال شيخنا: تزوجت الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة. فإن قطع هذه العقبة وخلص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة وما مضى عليه السلف الأخيار من

---

(٩٠٢) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٢٢٢- ٢٢٧.

الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب فإن سمحت به نصب له أهل البدع الحبائل وبغوه الغوائل وقالوا مبتدع محدث، فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه على:

٨٧٥- العقبة الثالثة: وهي عقبة الكبائر:

فإن ظفر به فيها زينها له، وحسنها في عينه، وسوَّف به، وفتح له باب الإرجاء، وقال له: الإيمان هو نفس التصديق، فلا تقدح فيه الأعمال، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق وهي قوله: لا يضر مع التوحيد ذنب كما لا ينفع مع الشرك حسنة، والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه لمناقضتها الدين ودفعها لما بعث الله به رسوله، وصاحبها لا يتوب منها ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم، ومعاداة صريح السنة ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة، وتولية من عزله الله ورسوله، وعزل من ولاه الله ورسوله، واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره، وموالاة من عاداه ومعاداة من والاه، وإثبات ما نفاه ونفي ما أثبته، وتكذيب الصادق وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلا والباطل حقاً، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق على القلوب، وطلب العوج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة، فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها حتى ينسلخ صاحبها من الدين كما تنسل الشعرة من العجين، فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر، والعميان ضالون في ظلمة العمى، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله أو بتوبة نصوح تنجيه منها طلبه على:

٨٧٦- العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر:

فكال له منها بالقفزان، وقال ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم، أوَ ما علمت بأنها تكفر باجتناب الكبائر وبالحسنات؟ ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يصر عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه، فالإصرار على الذنب أقبح منه، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار، وقد قال ﷺ: (إياكم ومحقرات الذنوب)[٩٠٣] ثم ضرب لذلك مثلاً بقوم نزلوا بفلاة من الأرض

---

(٩٠٣) مسند أحمد (٢١٧٤٢) ونص الحديث: حدثنا أنس بن عياض حدثني أبو حازم لا أعلمه إلا عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: (إياكم ومحقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه).

فأعوزهم الحطب فجعل هذا يجيء بعود وهذا بعود حتى جمعوا حطباً كثيراً فأوقدوا ناراً وأنضجوا خبزتهم، فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه، فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار، وأتبع السيئة الحسنة، طلبه على:

٨٧٧- العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها:

فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات، وأقل ما ينال منه تفويته الأرباح والمكاسب العظيمة والمنازل العالية، ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئا من القربات، ولكنه جاهل بالسعر، فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة، ونور هاد، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلة المقام على الميناء وخطر التجارة وكرم المشتري وقدر ما يعوض به التجار فبخل بأوقاته وضن بأنفاسه أن تذهب في غير ربح، طلبه العدو على:

٨٧٨- العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات:

فأمره بها، وحسنها في عينه، وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها وأعظم كسباً وربحاً، لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب طمع في تخسيره كماله وفضله ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضى له، ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول، فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرؤوسها، وسيدها ومسودها، فإن في الأعمال والأقوال سيداً ومسوداً، ورئيساً ومرؤوساً، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح: (سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت)[٩٠٤] الحديث،

---

(٩٠٤) رواه البخاري (٥٨٣١) قال: حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا الحسين حدثنا عبد الله بن بريدة قال حدثني بشير بن كعب العدوي قال حدثني شداد بن أوس ﷺ عن النبي ﷺ: (سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، =

وفي الحديث الآخر: (الجهاد ذروة سنام الأمر)[905] وفي الأثر الآخر: إن الأعمال تفاخرت فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن، ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولى العلم السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه، فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لا بد منها، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه وأكرم الخلق عليه وهي:

= فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال ؛ ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة.) وأخرجه أيضاً: الترمذي (٣٣١٥)، والنسائي (٥٤٢٧)، وابن ماجة (٣٨٦٢)، وأحمد (١٦٤٨٨).

(٩٠٥) أخرجه الترمذي (٢٥٤١) قال: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا عبد الله بن معاذ الصنعاني، عن معمر، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن معاذ بن جبل، قال: (كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل، قال: ثم تلا (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) حتى بلغ (يعملون)، ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه قال: كف عليك هذا، فقلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح. وفي الترمذي أيضاً برقم (١٥٨٢) قال: حدثنا أبو كريب حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن عمرو حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ : أي الأعمال أفضل، أو أي الأعمال خير؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم أي شيء؟ قال: الجهاد سنام العمل، قيل: ثم أي شيء يا رسول الله؟ قال: ثم حج مبرور) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح قد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . وأخرجه ابن ماجة (٣٩٦٣)، وأحمد في مسنده (٢١٠٣٦) قال: حدثنا أبو المغيرة حدثنا أبو بكر حدثني عطية بن قيس عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: (الجهاد عمود الإسلام وذروة سنامه.) وأيضاً برقم (٢١٠٠٨)، و(٢١٠٣٩)، و(٢١٠٥٤)، و(٢١١٠٦)، و(٧٥٢٥). وهذا بالرجوع إلى الكتب التسعة، والحديث موجود في غيرها أيضاً ومعناه متواتر.

٨٧٩- [**العقبة السابعة**]**: عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى:**

باليد واللسان والقلب على حسب مرتبته في الخير، فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وظاهر عليه بجنده، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط، وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها، فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله والقيام له بأمره جد العدو في إغراء السفهاء به، فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب، وأخذ في محاربة العدو لله وبالله، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين، وهي تسمى عبودية المراغمة، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة، ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه وإغاظته له، وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه، أحدها قوله: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]، سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغماً يراغم به عدو الله وعدوه، والله يحب من وليه مراغمة عدوه وإغاظته، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وقال تعالى في مثل رسول الله ﷺ وأتباعه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب، مطلوبة له، فموافقته فيها من كمال العبودية، وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان، وفي رواية ترغيما للشيطان، وسماها المرغمتين.

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة، ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر، حيث لا يراه إلا الله، لما في ذلك من إرغام العدو وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عز وجل.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول، وبالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان ولاحظه في الذنب راغمه بالتوبة النصوح، فأحدثت له هذه

المراغمة عبودية أخرى، فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار التوبة لا تستهزىء بها فلعلك لا تظفر بها في مصنف آخر البتة، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق».

المطلب الثامن
معالجة البواعث على الإصرار والتسويف في التوبة

٨٨٠- تمهيد: تشخيص الداء ووصف الدواء:

قد تبينا في المطالب السبعة السابقة أهم البواعث على حال الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة حتى يخطفه الموت، وقد تمثلت في: حب الدنيا وشهواتها، وطول الأمل، والتعلق بالرجاء من غير عمل، والقنوط من رحمة الله، والشك في صدق القرآن وصدق ما جاءت به الرسل من ربها جل جلاله، والاحتجاج بالقدر، وتزيين الشيطان لكل ذلك. - ومرد ذلك كله إلى سببين كبيرين: الغفلة، والشهوة - وقد بحثنا تلك البواعث بعناية وتفصيل لأهميتها في حياة المسلمين والمسلمات في الأرض كلها وللتبصير بأقوال علماء الإسلام الراسخين في العلم في ذلك.

وإذا علمت هذه الأسباب الباعثة على الإصرار على الذنوب، والتسويف في التوبة والانصراف عنها، فقد شخصت الداء، وبقي أن تعرف الدواء وتستخدمه فعلاً. واستخدام الدواء فعلاً يحتاج إلى السعي لحل عقدة الإصرار من أجل أن تسخو النفس بالتوبة الصادقة وتستمر عليها وتستصحبها إلى الموت.

وقد اعتنى الإمام الغزالي رحمه الله بهذا الموضوع مستنداً إلى الكتاب والسنة وأقوال السلف، ونقدم فيما يلي بعضاً من أقواله:

٨٨١- الدواء لحل عقدة الإصرار والتسويف كما يصفه الغزالي:

تكلم الإمام الغزالي في هذا الموضوع تحت عنوان: (دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار)، ونحن نورد كلامه - مشذباً وبقدر ما تمس الحاجة إليه مع المحافظة على عبارته - قال[٩٠٦]: «اعلم أن الناس قسمان:

---

(٩٠٦) الغزالي: إحياء علوم الدين: ج:٤ ص:٤٩-٦٠.

شاب لا صبوة له نشأ على الخير واجتناب الشر وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (تعجب ربك من شاب ليست له صبوة)[٩٠٧] وهذا عزيز نادر.

والقسم الثاني هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب، ثم هم ينقسمون إلى: مصرين، وإلى تائبين، وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه.

فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء، ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء، فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وإبطاله، ولا يبطل الشيء إلا بضده، ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة، ولا يضاد الغفلة إلا العلم، ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة، والغفلة رأس الخطايا، قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [النحل: ١٠٨-١٠٩].

٨٨٢- أصلان يعتمد عليهما في معالجة عقدة الإصرار: العلم، والصبر:

فلا دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر، وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيقمع الأسباب المهيجة للصفراء، فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار، فإن لهذا الدواء أصلان: أحدهما العلم، والآخر الصبر، ولا بد من بيانهما:

٨٨٣- الأصل الأول: العلم

٨٨٤- نوع العلم المطلوب لحل عقدة الإصرار:

فإن قلت: أينفع كل علم لحل الإصرار، أم لا بد من علم مخصوص؟

فاعلم أن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب، ولكن لكل مرض علم يخصه، كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص،

---

(٩٠٧) حديث يعجب ربك من شاب ليست له صبوة (أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعه) (انظر تخريج العراقي في الإحياء بنفس موضع الاقتباس). ولفظه في مسند أحمد: (إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة) برقم: (١٦٧٣١).

فكذلك دواء الإصرار، فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم فنقول:

يحتاج المريض إلى التصديق بأمور:

الأول: أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسباباً يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الأسباب، وهذا هو الإيمان بأصل الطب، فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج، ويحق عليه الهلاك. وهذا وزانه مما نحن فيه: الإيمان بأصل الشرع، وهو أن للسعادة في الآخرة سبباً هو الطاعة، وللشقاوة سبباً هو المعصية، وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع، وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق، أو تقليد، وكلاهما من جملة الإيمان.

الثاني: أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب، حاذق فيه، صادق فيما يعبر عنه، لا يلبس ولا يكذب، فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الإيمان، ووزانه مما نحن فيه: العلم بصدق الرسول ﷺ والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف.

الثالث: أنه لا بد أن يصغي إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف من ترك الاحتماء، فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء. ووزانه من الدين: الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى، والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك، من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوي على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج.

الرابع: أن يصغي إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتماء عنه ليعرف أولاً تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه، فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شيء، ولا ينفعه كل دواء، بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص.

ووزانه من الدين: أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب ذنب، بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة، وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب، ثم إلى العلم بآفاتها وقدر ضررها، ثم العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها، ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها.

٨٨٥- دور العلماء والدعاة في تعليم الناس ما يدفع الذنوب عنهم ويحل عقدة الإصرار:

فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم، وإن كان لا يدرى أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك، وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم، ويميز ما يضرهم عما ينفعهم، وما يشقيهم عما يسعدهم، ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه، بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فإنهم ورثة الأنبياء، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم، بل كانوا ينادونهم في مجامعهم، ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء، ويطلبون واحداً واحداً، فيرشدونهم، فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم، كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره، وهذا فرض عين على العلماء كافة، وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيهاً متديناً يعلم الناس دينهم، فإن الخلق لا يولدون إلا جهالاً فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع، والدنيا دار المرضى، إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم، ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان، والعلماء أطباء، والسلاطين قوام دار المرضى، فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره، كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيده بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس. وإنما صار مرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان لثلاث علل:

٨٨٦- مرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان لثلاث علل:

إحداها: أن المريض به لا يدرى أنه مريض.

والثانية: أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم، بخلاف مرض البدن فإن عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه، وما بعد الموت غير مشاهد، وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم، فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها، فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب، ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال.

والثالثة: وهو الداء العضال، فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء... [قلت: المخلصون الصادقون العاملون بعلمهم الذين يعرفون لكل داء دواءه الخاص به من أدوية

الكتاب والسنة، وقد اشتغلوا بمداواة أنفسهم أولاً فتحققوا بالتقوى والورع، لكي يستمع إليهم الناس ويستجيبوا عندما يرونهم ربانيين لا دنيويين، ثم اشتغلوا بمداواة الخلق ثانياً اشتغال أطباء القلوب العارفين الذين لا يجرؤن الخلق على معصية الله بالرجاء، ولا يقنطونهم من رحمة الله بالخوف، كما قال علي بن أبي طالب ﷺ: الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يجرئهم على معصية الله بالرجاء]، ومهما كان الطبيب جاهلاً أو خائباً أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه. فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادي العلة. أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية: فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال. وكذلك المصر على الذنوب المشتهي للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه التي سبقت: يعالج أيضاً بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب. فأما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلباً للشفاء وذلك من دأب الجهال والأغبياء...

٨٨٧- أربعة أنواع من العلم مختصة في حل عقدة الإصرار:

فإن قلت: فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق، فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه، نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب، وهي أربعة أنواع:

٨٨٨- النوع الأول: تذكر آيات القرآن المخوفة للمذنبين والعاصين:

الأول: أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار... والأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله ﷺ، فإنه ما خلف ديناراً ولا درهماً، إنما خلف العلم والحكمة، وورثه كل عالم بقدر ما أصابه.

٨٨٩- النوع الثاني: حكايات الأنبياء والسلف الصالحين ذات الصلة بالذنب والتوبة:

النوع الثاني: حكايات الأنبياء، والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم، فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق...

وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر، ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسمار، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في

الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار؟ نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً، ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر، فهذا أيضاً مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

٨٩٠- النوع الثالث: العلم بتوقع تعجيل العقوبة في الدنيا على الذنب:

النوع الثالث: أن يقرر عندهم: أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله، فينبغي أن يخوف به، فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر، كما حكي في قصة داود وسليمان عليهما السلام، حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه، وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولي عليه أعداؤه، قال ﷺ: (إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)(٩٠٨) وقال ابن مسعود: إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه،... وقال بعض السلف: ليست اللعنة سواداً في الوجه ونقصاً في المال، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه، وهو كما قال، لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد، فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد، والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان، وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر، ويتضاعف، فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب، ومن مجالسة الصالحين، بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون...

واعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه، فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره لينزجر، وإن كان شقياً أخفي عنه حتى ينهمك ويستوجب النار، والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا: من الفقر، والمرض، وغيره، بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته، فإن ابتلي بشيء كان عقوبة له، ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه، وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له، ويحرم جميل الشكر حتى

---

(٩٠٨) حديث إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده واللفظ له إلا أنه قال الرجل بدل العبد من حديث ثوبان (انظر تخريج العراقي في الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

يعاقب على كفرانه، وأما المطيع فمن بركة طاعته: أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته، ويوفق لشكرها، وكل بلية كفارة لذنوبه،وزيادة في درجاته.

٨٩١- النوع الرابع: ذكر العقوبات الشرعية على آحاد الذنوب كالخمر والزنا وغيرهما:

النوع الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب،كالخمر، والزنا، والسرقة، والقتل، والغيبة، والكبر، والحسد، وكل ذلك مما لا يمكن حصره، وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه، بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولاً بالنبض والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة، ويشتغل بعلاجها، فيستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات، وليتعرض لما وقف عليه، اقتداء برسول الله ﷺ حيث قال له واحد: أوصني يا رسول الله ولا تكثر علي، قال: (لا تغضب)(٩٠٩) وقال له آخر: أوصني يا رسول الله، فقال: ﷺ : (عليك باليأس مما في أيدي الناس، فإن ذلك هو الغنى، وإياك والطمع، فإنه الفقر الحاضر، وصل صلاة مودع، وإياك وما يعتذر منه)(٩١٠)... وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها: أن اكتبي لي كتابا توصيني فيه ولا تكثري، فكتبت إليه: من عائشة إلى معاوية سلام الله عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس)(٩١١) والسلام عليك. فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التي تكون الولاة بصددها وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم. وكتبت إليه مرة أخرى: أما بعد: فاتق الله فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً والسلام.

فإذن على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية، وتوسم الأحوال اللائقة، ليكون اشتغاله بالمهم، فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة، والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان.

---

(٩٠٩) أخرجه البخاري (٥٦٥١)، والترمذي (١٩٤٣)، وأحمد (١٥٣٩٨)، وغيرهم.

(٩١٠) حديث قال له آخر: أوصني قال: عليك باليأس، الحديث أخرجه ابن ماجه والحاكم (انظر تخريج العراقي بنفس الموضع).

(٩١١) حديث عائشة (من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس) الحديث أخرجه الترمذي والحاكم، وفي مسند الترمذي من لم يسم (انظر تخريج العراقي بالموضع نفسه).

٨٩٢- العلم العام الذي يشترك عموم الخلق في الحاجة إليه بوصفه دواء لحل عقدة الإصرار:

فإن قلت: فإن كان الواعظ يتكلم في جمع، أو سأله من لا يدري باطن حاله، أن يعظه، فكيف يفعل؟

فاعلم أن طريقه في ذلك: أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه، إما على العموم، وإلا على الأكثر، فإن في علوم الشرع: أغذية، وأدوية، فالأغذية: للكافة، والأدوية: لأرباب العلل، ومثاله ما روي أن رجلاً قال لأبي سعيد الخدري: أوصني، قال: عليك بتقوى الله عز وجل فإنها رأس كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء، وعليك بالصمت إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان. وقال رجل للحسن: أوصني، فقال: أعز أمر الله يعزك الله. وقال لقمان لابنه: يا بني زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً وعلى أعناق الرجال كلاً، وصم صوماً يكسر شهوتك ولا تصم صوماً يضر بصلاتك فإن الصلاة أفضل من الصوم، ولا تجالس السفيه، ولا تخالط ذا الوجهين. وقال أيضاً لابنه: يا بني لا تضحك من غير عجب، ولا تمش في غير أرب، ولا تسأل عما لا يعنيك، ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت، يا بني: إن من يرحم يرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الشر يأثم، ومن لا يملك لسانه يندم. وقال رجل لأبى حازم: أوصني، فقال: كل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه، وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه... وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى: أما بعد، فخف مما خوفك الله، واحذر مما حذرك الله، وخذ مما في يديك لما بين يديك، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين، والسلام. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأل أن يعظه فكتب إليه: أما بعد، فإن الهول الأعظم والأمور المفظعات أمامك، ولا بد لك من مشاهدة ذلك، إما بالنجاة، وإما بالعطب، واعلم: أن من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف أمن، ومن أمن اعتبر، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فاسأل.

وإذا كان طلب الطبيب أول علاج المرضى، وطلب العلماء أول علاج العاصين، فهذا أحد أركان العلاج وأصوله .

٨٩٣- الأصل الثاني لحل عقدة الإصرار: الصبر:

الأصل الثاني: الصبر، ووجه الحاجة إليه: أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره، وإنما يتناول ذلك: إما لغفلته عن مضرته، وإما لشدة غلبة شهوته، فله سببان، فما ذكرناه هو علاج الغفلة، فيبقى علاج الشهوة.

وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس، وحاصله: أن المريض إذا اشتدت ضراوته لمأكول مضر، فطريقه:

أن يستشعر عِظَم ضرره.

ثم يُغيِّب ذلك عن عينه فلا يحضره.

ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره.

ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه. فلا بد على كل حال من مرارة الصبر.

فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي، كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته، فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرئ المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته. ومهيج الشهوة من خارج: هو حضور المشتهى والنظر إليه، وعلاجه: الهرب والعزلة. ومن داخل: تناول لذائذ الأطعمة، وعلاجه: الجوع والصوم الدائم، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر، ولا يصبر إلا عن خوف، ولا يخاف إلا عن علم، ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد، فأول الأمر حضور مجالس الذكر، ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل، مصروف إلى السماع، ثم التفكر فيه لتمام الفهم، وينبعث من تمامه لا محالة خوفه، وإذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعي لطلب العلاج، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك، فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء، واستشعر الخوف فاتقى، وانتظر الثواب، وصدق بالحسنى، فسييسره الله تعالى لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب

بالحسنى فسييسره الله للعسرى فلا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى، وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى، وإنما لله الآخرة والأولى.

٨٩٤- الإصرار على الذنوب عند المؤمن سببه ضعف الإيمان:

«فإن قلت فقد رجع الأمر كله [أي ترك الذنوب وترك الإصرار] إلى الإيمان، لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه، والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف، والخوف لا يكون إلا بالعلم، والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب، والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان، فكأن من أصر على الذنب لم يصر عليه إلا لأنه غير مؤمن. فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان، إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى، وسبب العقاب في الآخرة، ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور:

٨٩٥- أربعة أسباب مساعدة على الوقوع في الذنب والإصرار عليه مع بقاء أصل الإيمان:

أحدها: أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر.

الثاني: أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة، وهي في الحال آخذة بالمخنق، وقد قوي ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف - والعادة طبيعة خامسة- والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس، ولذلك قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]، وقال عز وجل: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى:١٦]، وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله ﷺ: (حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات)[٩١٢] وقوله ﷺ: (إن الله تعالى خلق النار، فقال لجبريل عليه السلام: اذهب فانظر إليها، فنظر فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إليها، فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها، وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام: اذهب فانظر إليها، فنظر فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فحفها

---

(٩١٢) حديث حفت الجنة بالمكاره، الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (انظر تخريج العراقي بنفس الموضع).

بالمكاره، ثم قال: اذهب فانظر إليها، فنظر إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد)[٩١٣] فإذن: كون الشهوة مرهقة في الحال، وكون العقاب متأخراً إلى المآل، سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان، فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذباً بأصل الطب ولا مكذباً بأن ذلك مضر في حقه، ولكن الشهوة تغلبه، وألم الصبر عنه ناجز، فيهون عليه الألم المنتظر.

الثالث: أنه ما من مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الإيمان.

الرابع: أنه ما من مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها.

فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالاً على فضل الله تعالى.

فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان.

٨٩٦- سبب خامس هو من نواقض الإيمان:

نعم قد يقدم المذنب بسبب **خامس** يقدح في أصل إيمانه وهو كونه شاكاً في صدق الرسل وهذا هو الكفر،كالذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضره في المرض فإن كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالي به، فهذا هو الكفر.

٨٩٧- مناقشة المؤمن نفسه في أسباب الإصرار ومعالجتها بالفكر:

فإن قلت: فما علاج الأسباب الخمسة؟ فأقول: هو الفكر.

وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول: وهو تأخر العقاب: أن كل ما هو آت آت، وأن غداً للناظرين قريب، وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله، فما يدريه لعل الساعة قريب، والمتأخر إذا وقع صار ناجزاً، ويذكر نفسه أنه أبداً في دنياه يتعب في الحال

---

(٩١٣) حديث إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر إليها الحديث أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة (انظر تخريج العراقي بالموضع نفسه).

لخوف أمر في الاستقبال، إذ يركب البحار ويقاسي الأسفار لأجل الربح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال، بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه مع أن الموت ألمه لحظة... ومفارقته للدنيا لا بد منها، فكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه أزلاً وأبداً؟ فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمي لم تقم معجزة على طبه؟ فيقول: كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعي الطب لنفسه بلا معجزة على طبه، ولا يشهد له إلا عوام الخلق؟ وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا؟.

وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه [وهي السبب الثاني للإصرار] ويكلف نفسه تركها ويقول: إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل، فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد؟ وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار؟ وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة؟

وأما تسويف التوبة [وهو السبب الثالث للإصرار] فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، لأن المسوف يبني الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء، فلعله لا يبقى، وإن بقي فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم، فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة؟ والشهوة ليست تفارقه غداً، بل تتضاعف، إذ تتأكد بالاعتياد، فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها، وعن هذا هلك المسوفون، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق، وما مثال المسوف إلا مثال: من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف!!.

وأما المعنى الرابع: وهو انتظار عفو الله تعالى [وهو السبب الرابع للإصرار] فعلاجه ما سبق، وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة، فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان،

وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلدة وترك ذخائر أمواله في صحن داره وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل، وقال: أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار فإن الموت ممكن والغفلة ممكنة وقد حكي في الأسمار أن مثل ذلك وقع، فأنا أنتظر من فضل الله مثله، فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن، ولكنه في غاية الحماقة والجهل إذ قد لا يمكن ولا يكون.

وأما الخامس [من أسباب الإصرار] **وهو شك، فهذا كفر،** وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل، وذلك يطول، ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله، فيقال له: ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة وجود شخص واحد في مكانين في حالة واحدة؟ فإن قال أعلم استحالته كذلك، فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء، وإن قال: أنا شاك فيه، فيقال: لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنه ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه، فهل تأكله، أو تتركه وإن كان ألذ الأطعمة؟ فيقول: أتركه لا محالة لأني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام، والصبر عنه وإن كان شديداً فهو قريب، وإن صدق فتفوتني الحياة، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد، فيقال له: يا سبحان الله !! كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات؟ وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء؟ بل جميع أصناف العقلاء؟ - ولست أعني بهم جهال العوام بل ذوى الألباب - عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضا فيما يقول؟ فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثواباً وعقاباً وإن اختلفوا في كيفيته، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد، وإن كذبوا [وهذا مجرد افتراض لتعجيز الكافر والشاك وإظهار باطله وإقامة الحجة عليه] فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة، فلا يبقى له توقف إن كان عاقلاً مع هذا الفكر، إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد، بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة وقدرنا طائراً يلتقط في كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص أبد الآباد شيئاً، فكيف يفتر رأى العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلاً لأجل سعادة تبقى أبد الآباد؟...

فإن قلت هذه الأمور جلية، ولكنها ليست تنال إلا بالفكر، فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته؟ وما علاج القلوب لردها إلى الفكر؟ لا سيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله؟

٨٩٨- العلاج لرد القلوب إلى الفكر المنجي:

٨٩٩- مانعان يحولان بين الإنسان وبين الفكر المنجي:

فاعلم أن المانع من الفكر أمران:

أحدهما: أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم، وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب، فينفر القلب عنه، ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة.

والثاني: أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات، وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته، فصار عقله مسخرا لشهوته، فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه، أو في مباشرة قضاء الشهوة، والفكر يمنعه من ذلك.

٩٠٠- علاج المانعين اللذين يمنعان من الفكر المنجي:

أما علاج هذين المانعين فهو أن يقول لقلبه:

[في المانع الأول]: ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده تألماً بذكره مع استحقار ألم مواقعته؟ فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به؟

وأما الثاني: وهو كون الفكر مفوتاً للذات الدنيا، فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم، فإنها لا آخر لها، ولا كدورة فيها، ولذات الدنيا سريعة الدثور، وهي مشوبة بالمكدرات، فما فيها لذة صافيه عن كدر، وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى، واستراحة بمعرفته وطاعته، وطول الأنس به، ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافياً، فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة؟؟ نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدناً كما كان الشر ديدناً، فالنفس قابلة - ما عودتها تتعود - والخير عادة، والشر لجاجة.

فإذن هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات، ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ، وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر، فيصير

الفكر موافقاً للطبع، فيميل القلب إليه ويعبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق، إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة.

وقد روي في حديث طويل أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بني فقال علي ﷺ: بني على أربع دعائم: على الجفاء، والعمى، والغفلة، والشك، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء، ومن عمي نسي الذكر، ومن غفل حاد عن الرشد، ومن شك غرته الأماني فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب. فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر وهذا القدر في التوبة كاف».

وبهذا ننتهي من الكلام في الباب الثالث بحثنا فيه مفصلاً موضوع الباعث على التوبة ثم البواعث على الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة وكيفية معالجتها لإحراز التوبة النصوح، لننتقل إلى الكلام في الأشياء التي يتاب منها وكيفية التوبة من كل منها وهو موضوع الباب الرابع القادم الذي سنفتتح به الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

فهرس الجزء الأول

الباب الأول

حقائق الإيمان أساس التوبة

الباب الثاني
التوبة : فضلها ومشروعيتها وأركانها وأقسامها

الباب الثالث
الباعث على التوبة والبواعث على الإصرار والتسويف